

رابطة الأدب الإسلامي العالمية
مكتب البلاد العربية


الشيخ أبو الحسن الندوي

بحوث ودراسات






منتدى إقراء الثقافي
www.iqra.ahlamontada.com
للكتب (كوردى ,عربي ,فارسي)



رابطة الأدب الإسلامي العالمية

مكتب البلاد العربية



الشـيخ

أبـو الحسـن الندوي

بحوث ودراسات

أعدت بمناسـبـة تكريمه في المؤتمر الرابع

للهيئة العامة لرابطة الأدب الإسلامي العالمية

سنة ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م والمنعقد في إستانبول



ⓒ مكتبة العبيكان، ١٤٢٤هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

رابطة الأدب الإسلامي

الشيخ أبو الحسن الندوي./ رابطة الأدب الإسلامي.- الرياض، ١٤٢٤هـ

٦٣٥ ص؛ ١٦,٥× ٢٤ سم

ردمك: X - ٥٠١ - ٤٠ - ٩٩٦٠

١ - الندوي، أبو الحسن علي الحسني   أ. العنوان

ديوي ٦,٩٢٢   ٧٢٤٢ / ١٤٢٤

ردمك: X - ٥٠١ - ٤٠ - ٩٩٦٠   رقم الإيداع: ٧٢٤٢ / ١٤٢٤

الطبعة الأولى الخاصة بمكتبة العبيكان

١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م

الناشر



الرياض . العليا . تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة

ص. ب: ٦٢٨٠٧ الرياض ١١٥٩٥

هاتف: ٤١٦٠٠١٨ - ٤٦٥٤٤٢٤، فاكس: ٤٦٥٠١٢٩



تصدير

اعتاد الناس في عالمنا العربي والإسلامي أن يكرموا أهل الفكر والأدب بعد أن يطويهم الموت، حيث تقام لهم حفلات التأبين، ويتبارى الخطباء في تعداد مناقبهم ومآثرهم، ويشيدون بما قدموا لأمّتهم.

وأرادت رابطة الأدب الإسلامي أن تغير في هذا المنهج فجمعت إلى تكريم الراحلين تكريم من لا يزالون على قيد الحياة، حتى يعلموا أن في الأمة من يُقَدِّر عطاءهم، ويثني على جهودهم، ويدعو لهم أن يعينهم الله على تقديم المزيد. وكان ممن كرّمتهم الرابطة في أثناء حياتهم: الدكتور نجيب الكيلاني، والمستشار محمد التهامي، والدكتور مصطفى الشكعة.

على أن أكبر من احتفلت الرابطة بتكريمه هو سماحة رئيسها الشيخ أبي الحسن الندوي، وكان تكريمه ضمن أعمال مؤتمر الهيئة العامة الرابع، الذي عقد في مدينة إستانبول عام ١٤١٧هـ الموافق ١٩٩٦م.

ولما كان سماحة الشيخ الندوي شخصية عالمية فذة، وكان متعدد الجوانب متنوع العطاء، فقد تناول الباحثون في حفل تكريمه جملة من المحاور، تبدأ من سيرة الشيخ لتتناول ركائز الفقه الدعوي عنده، ثم منهجه في الدعوة والأدب الإسلامي والسياسة، وأسلوبه الدعوي والتربوي، وما قدمه في السيرة النبوية، والفكر الإسلامي، والأدب الإسلامي، وأدب الرحلات، وفن التراجم، وأدب الأطفال.

وأسهم في هذه البحوث نخبة من كبار المفكرين والأدباء، وفي مقدمتهم فضيلة الشيخ يوسف القرضاوي، والشيخ محمد الرابع الندوي، والدكتور محمد رجب البيومي، والدكتور عماد الدين خليل، والدكتور عبد الحليم عويس، والأستاذ سعيد الأعظمي.

وأخذ مكتب البلاد العربية لرابطة الأدب الإسلامي على عاتقه تأليف لجنة تحكيم، قامت بدراسة البحوث الكثيرة التي وصلت إلى الرابطة، ثم اختارت منها (١٩) تسعة عشر بحثاً، أخذت طريقها للنشر لتقدم للناس نموذجاً حياً لرجالات الإسلام الذين رفعهم هذا الدين العظيم، ليكون الواحد منهم أمة في نفسه، وقدوة في حياته، ونبعاً ثرا في عطائه، ومشعلاً يضيء الطريق لأمته، ورائداً صدوقاً لها، والرائد لا يكذب أهله.

د. عبد القدوس صالح

نائب رئيس رابطة الأدب الإسلامي العالمية

رئيس مكتب البلاد العربية



البحث الأول

أبو الحسن الندوي في سيرته الذاتية

الدكتور/ محمد رجب البيومي

عميد كلية اللغة العربية سابقاً

المنصورة - مصر



كنتُ أتطلع إلى الحديث المستفيض عن الداعية الأمثل، والباحث الأكمل السيد أبي الحسن الندوي، ولكني أمتنع فجأة لأني أعلم أن ما بنفسي نحو الرجل لن ينتقل إلى القرّاء إلا مبتوراً مُبْتَسَراً، لا يمثل حقيقة مشاعري الصادقة، إذ هي أقوى وأشد من أن تظهر على حقيقتها بين السطور، مهما حاولت تتبُّعها الراصد، ثم طلب مني أخي الأعزّ الأستاذ الدكتور عبد القدوس أبو صالح نائب رئيس رابطة الأدب الإسلامي، أن أكتب سيرة أبي الحسن الذاتية، وأنا أعرف تهيُّبي الشديد من الحديث عنه، وكدت أعتذر، ولكن تكليف الدكتور الصديق لي هو أمرٌ لا رجاء، فقلت سأكتب ما أستطيع كتابته، وما عليَّ إذا لم أستطع أن أقوم بغير ما أطيق، إذ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها.

وكان أشدَّ ما يلفتني في سيرة أبي الحسن، أنه أشرق في محيط العالم الإسلامي بدراً مكتملاً، فعهدنا بصاحب الفكرة وعاشق البحث أن يتبع سنة التطور، فيبدأ ناشئاً صغيراً، ثم تمر به الأعوام حتى يكتمل نضوجه كما يبدو البدر في أول الشهر هلالاً ثم يسير نحو الكمال، حتى يبزغ إشراقه في الليلة الرابعة عشرة، ولكن أبا الحسن أصدر كتابه باللغة العربية (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) في مطلع حياته الفكرية، فكان حدثاً هائلاً في دنيا الفكر لأنه رجَّ القراء رجّاً، وكأنه نفخ في الصور فأحيا نفوساً، وأشعل أرواحاً وأخذ الناس يقرؤون مبهورين، يخافون أن تنفد صفحات الكتاب، فلا يستشعرون هذه اللذة الروحية بعد انقضاء الصفحات، وفيهم من كان يقرأ الصفحة والصفحتين ثم يطوي الكتاب دقائق معدودة، لِيُصَعِّدَ زفرةً مكتومة، أو يعلن آهةً موجعة، وأشهد أمام الله أن بعض الصفحات التي كانت تصوّر فجائع المسلمين على أيدي أعدائهم، وطغيان العتاة على بلادهم، كانت تضع فوق كاهلي وأنا أقرأ أطناناً من الحديد الصلب. فلا أستطيع أن أتحرك إلا بعد أمد يقصر أو يطول، هذا الكتاب الخالد قد رجَّ القراء رجّاً، والعجيب أن

أستاذنا الدكتور أحمد أمين قد كتب مقدمة الكتاب في طبعته الأولى دون أن يقرأه، وأجزم عامداً أنه لم يقرأه، وإلا لما قال: إن بعض عبارات الكتاب ضعيفة، لأن المؤلف يكتب بغير لغته!! والكتاب في المنزلة العليا من الأسلوب البياني المشرق، وتعبيره الساحر لا يبلغه باحث كبير كالدكتور أحمد أمين، لأن صاحب فجر الإسلام وضحاه وظهره باحث مؤرخ لا يملك سحر الأسلوب الذي يتمتع به صاحب (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين). ولقد قرأت في بعض ما كتبه أبو الحسن أن هذه المقدمة قد أضعفت الكتاب، وأقول: إن هذا تخيلٌ فقط، لأن القارئ الذي لا يفرق بين أسلوبٍ وأسلوب، فسيّان أن يصدّق أو يكذّب!.

وقد توالت طبعات الكتاب حتى بلغت بضع عشرة طبعة، وأغفلت مقدمة الطبعة الأولى، حيث قام الأساتذة الكبار محمد يوسف موسى، وسيد قطب، وأحمد الشرباصي، بكتابة مقدمات صادقة شفت صدور قوم مؤمنين، وأذهبت غيظ قلوبهم، ولا أنكر فضل الدكتور أحمد أمين حين احتفل بالكتاب، وطبعه في مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر التي يرأسها، فكان صدور الطبعة الأولى عن هذه اللجنة ذات المستوى العلمي الباهر نصراً من الله، وفتحاً قريباً، اتصلت بعده الفتوح الممتدة لأن فكر أبي الحسن كالشجرة الطيبة ذات الثمر المستطاب، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، ويضرب الله الأمثال للناس.

لم يُتَح لأبي الحسن أن يكتب هذا السفر الرائع في مطلع شبابه، دون أن يعتمد على موهبة رائعة ممتازة، جرت من عقله مجرى الماء في فروع السَّرحة الفينانة ذات الظل الوارف، دون أن يعتمد على نشأة علمية باهرة في أعرق منازل الفضل بالهند، وأخصب منابت العزة والكرامة والشموخ، ودون أن يعتمد على اطلاع شامل محيط في كتب متعددة. ولغات متنوعة، اطلاع ناقد يعرف سطور الحق فيجتبيها، ويطرد سطور الباطل إذ يحتويها، ومن وراء ذلك كله

روح إسلامية عالية هي قبسة من قبسات رجال الصدر الأول من تاريخ الإسلام،فقد عايش أبو الحسن هؤلاء الرجال معايشة العاشق المولع بكل ما يقرأ من أمثلة التضحية والفداء، ونماذج الإيمان والإيثار، فكانت سير هؤلاء ومن تبعهم بإحسان ضياءً لروحه قبل أن تكون غذاءً لفكره، وقل ما شئت في تلميذ نابغة أساتذته الأكرمون رسول الله وصحابته المختارون.. مع من وليهم من أئمة السلف الصالح، خلفاً عن سلف، حتى انتهت السلسلة الرائعة إلى والده الكريم، وكلهم خيارٌ من خيار..

ولد أبو الحسن بقرية (تكية) من قرى الهند في المحرم سنة ١٣٣٣هـ، فنشأ في أسرة عربية كريمة، ترجع بأصولها العريقة إلى الحسن بن عليّ رضي الله عنهما، أصولها التي ظلت تتناسل في أكرم بقعة في الأرض، في مكة التي شرفها الله بالبيت العتيق، ثم انتقلت إلى المدينة المنوّرة حقبةً من الدهر وبكونها مشرق الإسلام ذي الهداية الإنسانية التي أخرجت العالم من الظلمات إلى النور. حتى كان مطلع القرن السابع الهجري، فرأى عميد الأسرة إذ ذاك، السيد قطب الدين بن محمد المدني رؤيا مناميّة أوحت له أن ينتقل من المدينة المنورة إلى الهند مجاهداً في سبيل الله! وقد صدع الرجل بالأمر على مشقّة الهجرة، والنزول في أماكن لم يعرفها من قبل، ولكنه اطمأن حين وجد الاستقبال الكريم وقد ذاع فضله فيما تناول من أحاديث الدعوة، وشروح الفقه، وقد تبوّأ مكان الصدارة في مهاجره، واشتهر أبناؤه ومن وليهم بالدعوة إلى سبيل الله، عملاً بالارتحال إلى أقصى البقاع مذكرين بأيام الله، وبحثاً بالتأليف العلمي في فروع اللغة والشريعة، ولو بحثت عن المكتبة الإسلامية بالهند، لنطقت بآثار هذه الأسرة الماجدة، حتى جاء يوم بَزَغَ في سمائها نجم سلطان المسلمين أحمد بن عرفان، وهو عالم بطل، لو تعارف المسلمون في بقاع الأرض سير رجالهم في الوطن الإسلامي الكبير، وطن الإسلام، لكان

اسم أحمد بن عرفان الشهيد يتردد في آفاق آسيا وإفريقيا، كما تتردد أسماء شهداء الإسلام من لدن العصر الأول إلى الآن، لقد تطلع الشهيد المغوار إلى ما حوله، فأزعجه أن يرى ويسمع فظائع طائفة السِّيخ في البنجاب، إذ أقدموا على قتل الأبرياء من المسلمين، وهدم المنازل، وهتك الأعراض. فغضب لدين الله، ولإخوته في الإسلام، ورفع راية الجهاد. واستنفر الأبطال من كل صوب، فهرعوا إليه ملبين، وبويع بالإمارة في جمادى الآخرة سنة ١٢٤٢هـ، ثم قاد الجيوش من نصر إلى نصر، حتى إذا أعيت أعداءه الحيلة لجؤوا إلى الدس، حين هالهم أن ينشىء الإمام أحمد دولة إسلامية على الحدود الشمالية من الهند، أثبتت قوة الإسلام وحميته، وبقيت أربع سنين ترفع راية الإسلام، حتى ارتاعت بريطانيا وأمدت السِّيخ بالسلاح الأوروبي الحديث، ثم استعانت أيضاً برجال السوء ممن جهلوا خبث المحتل، وأغراهم المنصب والذهب والجاه. فجعلوا يثيرون الفتنة، ولجأ الإمام إلى كشمير مجاهداً، ولكن اجتماع الإنجليز والسيخ والطابور الخامس من المنافقين قد كان أكبر من أن تصمد أمامه القلة المؤمنة، ولكنها آثرت الاستبسال على الفرار، واستشهد الإمام في معركة (بالاكوت) استشهاد الحسين في كربلاء، وهي مآس تتكرر، على الزمن دون اعتبار.

إن تاريخ ابن عرفان لم يذهب عن خواطر المسلمين جميعاً بالهند، ولكنه رسخ رسوخ الطود في أسرته الكريمة، فجعلت تتناقل آثاره، وتُحدِّث عنه، ثم دونت أخباره، وكان والد أبي الحسن أحد العلماء الأفاضل الذين كتبوا تاريخ الشهيد، وهو لم يكتب تاريخ الشهيد وحده، ولكنه سجل تاريخ الأفذاذ المسلمين على مر العصور في كتابه الرائع (نزهة الخواطر) ذي الأجزاء الثمانية. وقد اشتمل على نحو خمسة آلاف ترجمة، لأعيان المسلمين في الهند، وأبو الحسن وإن لم يتمتع برعاية والده العلمية غير أمد قصير، إذ ترك والده الدنيا إلى

لقاء ربه وهو في التاسعة من عمره، فإنه وجد في هذه الموسوعة الثمينة خير زادٍ لروحه، لقد قرأ عن أفذاذ المصلحين قراءة جعلته يتهيأ لدور كبير يضيف به ترجمة حافلة إلى هذه التراجم! ولم تكن (نزهة الخواطر) هي سلواه المختارة وحدها في عهد اليفاعة. بل دفعته إلى مثيلاتها في التراث الإسلامي. وفي كتب التراجم والطبقات، وهذا البحر الزاخر من المعارف التاريخية يحيي النفوس المتعطشة، ويدفعها إلى الاحتذاء الحسن، لا سيما إذا كان القارئ أبا الحسن ذا النفس المتوثبة الطامحة للعلاء، ونحن نرى أمثلة شتى في كتب أبي الحسن قطفها من حدائق هذه الكتب، وكان قرأها أناسٌ من قبله ومن بعده، وكلهم لم يحسنوا استغلالها على النحو الذي اهتدى إليه الشابّ البصير، وإذا أردنا أن ننشئ شبيبةً واعية، تعرف الإسلام الصحيح في سير رجاله، فعلينا أن نكتب هذه التراجم المجيدة بلغة العصر، لنفتح الأبواب الفسيحة إلى من يريدون التنزه في بساتين الأجداد، وهم كثيرون.

إن رحمة الله عزَّ وجلّ تسع كل شيء. فحين حرم أبو الحسن من رعاية والده العالم العامل البحاثة، لم يُحرم من رعاية اثنين عزيزين أثيرين، هما أمُّه وأخوه، أما أمُّهُ فكانت قارئة كاتبة شاعرة. جمعت هذه المزايا في عصر كان أكثر المسلمات شرقاً وغرباً لا يلتفتن إلى تعليم، ومن تتعلم منهن تقف عند حدٍّ محدود لا يتجاوز معرفة القراءة والكتابة، إلا من نشأن في أسر الفضل والفضيلة مثل والدة أبي الحسن ! كانت الوالدة الفاضلة تحفظ القرآن الكريم، وتقرأ تفسيره في كتب التراث، كما كانت تكتب المقالة، وتنشئ القصيدة، وفي هامش ص٢٤ من مقدمة كتاب (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) أنها طبعت عدة كتب، ومجموعات من الشعر، كلها مناجاة لله تعالى ودعاء ضارع، كما أرسلت مدائحها في رسول الله (وقد كنت أرجو أن أقرأ بعض ما كتبت ونظمت، ولكن يدي لم تصل منهما إلى شيء، هذا بعض ما يقال عن الأم الكريمة، أما الأخ الشقيق فهو الدكتور السيد عبد العلي عبد الحي، وقد جمع

بين الثقافة الدينية، والثقافة العصرية، فكان إلى جانب تعمقه في بحوث الدين مثقفاً عارفاً بالتيارات الفكرية المعاصرة في العالم، وكانت مكتبته ملأى بالأسفار في الاتجاهين، وهذا من حظِّ أبي الحسن الدارس الناشئ، لأنه وجد من وجهه إلى القديم والجديد معاً، وقد ظهر أثر ذلك في نتاجه العلمي الحافل، لأن نظرته الشاملة الناقدة لوجوه المفاسد في الشرق والغرب معاً لم تأت إلا من اطلاع شامل على مختلف التيارات المتعارضة، ونحن نجد لدينا قوماً ينكرون المفاسد الغربية، ولكنهم لم يبلغوا مبلغ أبي الحسن في هذا المجال. لأنهم لم يقرؤوا ما قرأ عن هذه المفاسد، وإذا قرؤوا لم يرزقوا الفكر الثاقب، والروح العالية، والقلم الصوال، ونحن نُجلُّ هذا الأخَ ونعرف فضله في رعاية الأخ اليتيم، وإذا كنا لم نطلع على شيء من آثار الوالدة الكريمة، فقد اطلعنا على بعض آثار الأخ الأديب العالم، ومن بين ما قرأناه في مجلة الرسالة المصرية مقال عنوانه (أسطورة)، والمقال يدل على أن الأخوين العزيزين يصدران عن منبع واحد فحديث السيطرة الغربية، والتخلف الحضاري في الشرق، وانهماك المترفين في الملذات دون نظر إلى النفع العام، هو شبيه أحاديث أبي الحسن وكنت أود أن أقتبس منه سطوراً تنطق بما أعنيه، ولكني لا أعجب - بعد قراءة مقال (أسطورة) - أن يكون كاتبه هو الشقيق الذي تولى رعاية أخيه، وطبعه بطابعه الإسلامي الحار المتوهج، والشقيقان - بعد- أثرٌ من آثار الأب المجاهد والوالدة الكاتبة الشاعرة، وقديماً قال القائل الحماسيُّ:

أرى كلَّ عرقْ نازعاً لأرومةٍ أبى نسبُ العيدان أن يتغيّرا

وفي الثانية عشرة من عمره، بعد رحيل والده الكريم بثلاثة أعوام، وجه الأخ الأكبر أخاه إلى تعلم الإنجليزية والعربية معاً - فوق تعلمه للأردية- وهو توجيه منتظر من أستاذ يعرف فائدة الاطلاع المستوعب للتيارات المتضاربة في الشرق والغرب، حتى إذا بلغ من اللغتين حد الإجادة على يد أساتذة من

الفضلاء، دفعته نوازعه الإسلامية إلى التضلع من الأدب العربي، وكان فضل الله عليه عظيماً حين لم يتجه إلى نفرٍ من كُتَّاب الخلابة اللفظية في عصور الصنعة البديعية، بل اتجه إلى كتب أربعة هي كليلة ودمنة لابن المقفع، ونهج البلاغة للإمام علي، ودلائل الإعجازلعبد القاهر الجرجاني، وحماسة أبي تمام. وهي كتب تنشئ أديباً في مثل سنه، لأن كليلة ودمنة ونهج البلاغة مثلان للأدب الإبداعي، ودلائل الإعجاز مثل رائع للنقد البياني المستنير، أما حماسة أبي تمام فهي - في رأيي- من أبدع المختارات الممتازة في الشعر العربي القديم، وبعد هذا التضلع من التراث التحق أبو الحسن بجامعة لكهنؤ. وهي جامعة تدرِّس العلوم المدنية باللغة الإنجليزية. وفيها قسمٌ لآداب اللغة العربية اختاره أبو الحسن عن شوق، ووجد من أستاذه الدكتور تقي الدين الهلالي المراكشي رائداً بصيراً يهدي للتي هي أقوم في استيعاب التراث الأدبي للغة العرب، ومن بعد الجامعة التحق بالندوة ليلاقي كبار العلماء في الهند من أساتذتها. وليحضر دروس الشريعة عليهم، ولم يرو ظمأه من ذلك كله، بل دفعه هيامه بالمعرفة إلى الالتحاق بدار العلوم بديوبند مدة شهور، وكأنه رأى أنه ألمّ سلفاً بمقرراتها، فاقتصر الأمر، ثم سافر إلى (لاهور) وقرأ التفسير القرآني على كبار علمائها. وتحققت أمنيته السعيدة بلقاء شاعر الإسلام محمد إقبال، فحرص على مجالسته، والإفادة من توجيهه وهي صحبة عادت عليه بأجزل النفع علماً وسلوكاً، وسأخصها قريباً ببعض التفصيل.

أما بذرة الأديب المتطلع إلى السبق فقد برزت في هذا الأمر - أمر الطلب العلمي والتحصيل الثقافي - إذ دفعته همته الذاتية إلى كتابة مقال تاريخي، وهو في سن الثانية عشرة، يتحدث عن المجاهد أحمد بن عرفان شهيد الإسلام، وإمام أهل التوحيد، وقد ألمحنا إلى بعض حديثه من قبل، وقد كتبه باقتراحٍ من أخيه، فصادف إعجابه، وبعث به إلى مجلة (المنار) المصرية التي يقوم على إصدارها حجة الإسلام في هذا العصر السيد محمد رشيد رضا،

وهي ذات صدى مسموع في ربوع الإسلام. فوجد السيد رشيد في المقال ما يرشحه للنشر عن إعجاب. وكان أول مقال كتبه الأديب الناشئ، ولا شك أن نشر المقال في هذه المجلة الممتازة، قد بعث في نفس أبي الحسن ثقة تمدّه بالعزم الطامح، والجدّ المثابر، إذ وجد المنار تضعه في صفوف كتابها، وإذا كانت أعداد المنار التي تصل إلى الهند ذات قدر محمود،فقد حرص أبو الحسن على أن ينشره مستقلاً في رسالة طبعها تحت عنوان(ترجمة السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد)، وقد ظهرت في سنة ١٣٥٠هـ، فأحدثت صدىً قوياً بين العلماء والباحثين، وكانت بمثابة فجر صادق يبشر ضوؤه المشعُّ بقدوم صبح مبين.

اهتدى أبو الحسن بعد نشر مقاله في المنار إلى صميم رسالته التي يجب أن يحملها إلى العالم جميعه، لا إلى العالم الإسلامي وحده، هذه الرسالة، هي الدعوة إلى الله كاتباً ومتحدثاً. أما كاتباً فقد ظهرت بشائر توفيقه فيما كتب في المنار. وفيما نشر في صحف الندوة. وأما متحدثاً فقد ألِفَ - على حداثة سنة- أن يصعد على المنبر خطيباً. وأن يحادث المستمعين في الندوة محاضراً،فيحظى بالقبول إن لم يكن يحظى بأكثر من القبول، وذلك وحده زاد يعين المدلجين على السرى في ظلمات الطريق..

قلت: إن أبا الحسن ألِفَ أن يصعد المنبر خطيباً، وذلك توفيق من الله ساقه إليه على يد أحد أساتذته، فقد سافر إلى (دلهي) في رحلة علمية فشاء - الله سبحانه - أن يلتقي بداعيتها المجدد الكبير الشيخ محمد إلياس، والشيخ إلياس لا يعتمد في دعوته على الكتابة الصحفية، أو التأليف العلمي، ولكنه يرحل إلى الجماهير في كل مكان، فينتصب واعظاً مرشداً، يتفجر البيان من جوانبه كما ينبثق الماء من النبع الصافي، وهو رحالة لا يهدأ، تراه كل

يوم في قرية أو مدينة، يقابَل بالتجلة والترحاب، وتنتظر الجموع هديه كما تترقب الأرض الجديبة نمير الماء، وقد تتصل الرحلة إلى هذه الربوع المتجاورة شهراً أو شهرين، دون أن ينقطع يوماً واحداً عن ارتقاء المنبر، وترديد الإرشاد، وأبو الحسن يسمع معجباً مسروراً، ويرى انفعال السامعين بما يسمعون، فيعلم أن اللقاء المباشر يفوق تأثيره الحماسيُّ ما يكتب في صحيفة أو يُرصد في كتاب، ومن ثم عزم أبو الحسن على أن يكون داعيةً في المجتمع بلسانه، كما هو كاتب للقارئ في مؤلفاته، وكان أستاذه الشيخ إلياس صادق النيّة مخلص السريرة، أسلم وجهه إلى الله وهو مؤمن، فعظم تأثيره النفّاذ، وأصبحت لكلمته التي ينطق بها أشعةً من الضياء تنتقل إلى الربوة فتملؤها نوراً، وإلى القلوب فتصقلها صقلاً يطرد عنها نوازع السوء، وهوابط الوساوس، وهنا كان الرجل قدوة في خلقه كما هو قدوة في وعظه، واعتزم أبو الحسن أن ينحو منحاه! وقد كان منه بمكان قريب، فالمبادئ هي المبادئ، والسرائر هي السرائر، ولم يترك الشيخ حتى صمم على أن يدعو بلسانه كما يدعو بقلمه، ووفقه الله في إرشاده اللفظي، إذ كان يملك أسلحته الماضية، بل كان يملك أكثر مما يملك أستاذه، لأن الشيخ الكبير خطيب منبر، يحدث العامّة بما يجذبهم، وليس له سبحات أبي الحسن في مطاوي الأسفار، وحواشي المجلدات، فإذا دهشت الجموع إعجاباً به خطيباً داعية، فلنحمد الله أن اجتاب هذا السبيل.

على أن أستاذاً ملهماً آخر أذكى جمرة الشوق في قلب أبي الحسن، أذكى جمرة الشوق في قلبه، ثم زاد فطار بروحه إلى آفاق طيبة تشرق بالنجوم، ويهبّ بها النسيم المنعش محملاً بأطيب العبير، هذا الملهم هو الشاعر العالمي محمد إقبال،فقط كان لقاؤه به في (لاهور) مصدر ارتقاء شعوري لا يسهل مرتقاه، وكل المثقفين في العربية يقرؤون إقبالاً، ويرددون مترجماته عن الأردية والفارسية، ولكنهم لا يلمسون تأثيرها النفاذ، الذي تتموج كهرباؤه في اللغة

الأصلية التي نظم بها إقبال، وأذكر أني قلت في قصيدتي عن الشاعر الكبير متحدثاً عن شعره[1]:

مَعانٍ جلتْها حكمةُ الشرق فانثنت ... تُدلّ على أهلِ الحجا أيّ إدلالِ
وتُغمض أحياناً فتبدو عويصةً ... كأنك منها واقفٌ بين أجْبَالِ
إذا أنقصَ التعريبُ بعض بريقها ... فإنّ سياق النصّ يُوحي بإكمالِ

قلتُ ذلك قبل أن أقرأ ما حكاه أبو الحسن عن الشاعر إقبال، فقد قدمه لقراء العربية خير تقديم، حين أصدر مؤلفه اللطيف (شاعر الإسلام، الدكتور محمد إقبال) فتحدث حديثاً رائعاً عن حياته، وعن العوامل التي كونت شخصيته، وعن آرائه في التعليم والعلوم والجيل الجديد، وحين تحدث أبو الحسن عن الإيمان، بيّن هذه العوامل،! هذا الإيمان الذي رفع الشاعر عن الاحتفال بمغريات المادة، وعن تيار الحضارة الغربية الجارف، ودفعه إلى مقومات الحياة لدى الأمة الإسلامية، كما تغنى بها إقبال، مبيناً جناية المدنية الحديثة على الإنسانية، وحديثه عن القرآن الكريم وأثره الضخم في تحديد رسالة الشاعر الكبير، وعن خبرته بالنفس الإنسانية شرقاً وغرباً، حين تحدث عن ذلك كله خلت أن أبا الحسن يتحدث عن نفسه لا عن نفس إقبال، وليس معنى ذلك أنه أضاف إلى شاعر الإسلام ما لم يقله، فقد استشهد بنماذج من شعره ليس مكانها في هذه السيرة الذاتية، ولكنَّ معناه أن المصلحيْن العظيمَيْنِ التقيا على هدف واحد، وأن إقبالاً قد صدق التعبير عن نفس كل مؤمن صادق الإيمان، بعيد النظرة، واسع الأمل في عون الله، وكان تجاوب أبي الحسن معه، تجاوب حمامتين أليفتين تصدحان بالغناء في دوحة واحدة، إذا حنّت الأولى ردّ صداها في نفس الثانية فهتفت بالشجو المديد، أما مآخذ إقبال على التعليم

---

(١) صدى الأيام، الدكتور محمد رجب البيومي ص ١٤٦. مجلة الأزهر : عدد رمضان سنة ١٣٨٠هـ.

المعاصر، وأما آراؤه في العلوم والآداب، وأما تصويره للشباب المسلم، فيستطيع باحث فاضل أن يشرح كل ذلك مقارناً بما سجّله أبو الحسن من آراء تتقارب، إن لم تكن تتماثل مع هذه الأراء ويكفي إقبالاً أن يسجل أن المسلم هو الإنسان الوحيد الذي يعدّ خطراً على الباطل في كل زمان ومكان، وأن المسلم قد بنى العالم المستنير في الزمن البعيد، وهو مهيأ اليوم لإعادة البناء في العالم الحديث، وهي عناصر موجزة نجد تحليلها الشافي المبسوط في مؤلفات أبي الحسن على نحو مبهج أنيق، لقد أحببت إقبالاً قبل أن أفهمه، أحببته عاطفياً وجدانياً، ووقفت أمام غوامضه حائراً لا أهتدي إلى منار وضيء، ثم قرأت أبا الحسن، وما كتبه عن إقبال، فأحببته وجدانياً وفكرياً، وزالت أكثر الغوامض عن نفسي، وهتفت من أعماقي، رحم الله إقبالاً، وأمدَّ في حياة أبي الحسن، وبارك في عمره السعيد..

رجع أبو الحسن من دلهي، وفي نفسه قبس من روح شيخه إلياس، كما رجع من لاهور وفي نفسه جذوة من شعلة إقبال، وقد صمم على أن يرحل كما أستاذه الداعية، ولكن إلى أين يرحل، لقد قصر الأستاذ الشيخ جهده على الربوع الهندية وحدها، وقد استيقظت على دعوته من سباتها الطويل، وأولى بأبي الحسن أن يرحل لا إلى قرى الهند وربوعها المترامية، بل إلى العالم الإسلامي في حواضره الزاهرة، إن العالم الإسلامي في حاجة إلى رحالة مثله، يقابل علماءه، ويناقش مفكريه، ويجتمع مع شبابه، ويدرك أغوار هذه النفوس الحائرة بين أمواج الفكر المضطرب شرقاً وغرباً، وتلك رسالة صعبة، وهي رسالة جمال الدين الأفغاني من قبل، ولكن جمال الدين الأفغاني كان نوراً وناراً، وأبو الحسن نورٌ فحسب، إذ لا يميل إلى إشعال الثورات، ولكنه يدعو إلى سبيل ربِّه بالحكمة والموعظة، ويجادل بالتي هي أحسن، كما أشار القرآن الكريم.

رحل أبو الحسن إلى الحجاز مرَّات، وإلى مصر والمغرب، والشام وتركيا، وزار أمريكا والدول الأوروبية، وطوّف أكثر عواصم العالم الإسلامي، وكانت رحلاته عظيمة التأثير لأن اسمه كان يسبق شخصه، وكان أحباؤه وخصومه في الرأي يحرصون على لقائه، فالأحباء ليطفئوا غليل الشوق برؤيته، وليمتعوا أنفسهم بكلماته، والخصوم يريدون أن يسمعوا الجديد مما يبدعه كل يوم دون إمهال. وعسى أن يجدوا مجالاً للردِّ، وموضعاً للحوار، والرجل يعرف مكانته من هؤلاء وأولئك، ويلبس لكل حالة لبوسها، ويؤوب مؤزراً بنصر الله.

تحدث عن رحلاته في كتبٍ مستقلة، وفي مقالات سائرة، وعبّر عن شعوره الصادق دون مجاملة للباطل، إذ رأى أن رحلته لا تتم على وجهها الصحيح إلا إذا أفصح عن مراده دون لثام، والحقيقة لا تؤلم إذا سيقت في أسلوب أدبي يترفع عن التعريض، وينأى عن الاستعلاء، وكم كان عجباً لأبي الحسن أن يدرك أن المسلمين في العالم الفسيح لا يكادون يعرفون شيئاً عن مسلمي الهند، فهو يقول في مطلع مقال سجّله بمجلة الأزهر[1]: كنت في رحلتي إلى الشرق الأوسط أواجه سؤالاً يتكرر ويوجه في كل مجلس، وفي كل مناسبة عن عدد المسلمين في الهند فأجبت بأنهم أربعون مليوناً (كان ذلك سنة ١٣٨٠هـ) فيندهش الناس ويقول بعضهم: يا سلام! ولولا ثقتهم بالضيف لسارعوا بالتكذيب، لأنهم كانوا ينتظرون أن يكون المسلمون في الهند بعد ما سمعوا عن موجات الهجرة الكبيرة مليوناً واحداً! لقد كانت هذه مفارقة لا تفارقني أينما حللت ونزلت، مفاجأة للطرفين، مفاجأة للمسلمين عن عدد زملائهم في الهند، ومفاجأة للمجيب عن استغرابهم، وهناك كانت مفاجآت أخرى، منها ما يتصل بالمسلمين في الهند، فالذين كانوا يعرفون أن في الهند عدداً كبيراً من المسلمين على قلة هؤلاء كانوا يعتقدون أن المسلمين لا شأن لهم في هذا القطر

(١) مجلة الأزهر: عدد رمضان سنة ١٣٨٠هـ.

العظيم، ليست لهم حضارة خاصة، ولا ثقافة واسعة، ولا آداب سامية، ولا مؤسسات علمية، ولا نشاط ولا إنتاج في علم وأدب، إنما هم أمة أفلست في كل مقومات الحياة، وفي كل ما تعتز به أمة من علم وأدب، ودين واجتماع، وأخلاق ومروءة، بل كان البعض يسأل هل في الهند مساجد؟ هل فيها مدارس دينية، هل عندكم علماء؟ هل يوجد من يحسن أن يقرأ القرآن؟ هل فيها من يفهم العربية؟

مضى الكاتب الكبير يجيب في مقاله الرائع عن هذه الأسئلة، ولكنه عاد باللوم على تقصير علماء الهند في القيام بمهمة التعريف بهذا القطر العظيم، ومضى ينقل ما أنتجت الأمة الهندية المسلمة من آثار علمية رائعة في الحديث والفقه والأصول وعلم الكلام والسيرة النبوية، ويعدد أسماء العلماء الكبار من مؤلفي الموسوعات والأجزاء المتتابعة، ويفيض في القول حين يتحدث عما أضافه المسلمون إلى ثروة البلاد، وما قاموا به من إصلاحات قائلاً في حديثه الرائع: (لقد كان ما اكتسبته الهند من المسلمين أعظم وأغلى مما استفاده المسلمون منها، وكان دخولهم في هذه البلاد فتحاً جديداً في تاريخها وحياتها ومكسباً عظيماً). والبحث شافٍ وافٍ، والرجوع إليه يصحح أوهاماً كثيرة يجب أن تزول.

على أن لأبي الحسن شجاعةً أدبيةً تكاد تكون منقطعة النظير. فهو في كل مكان يرحل إليه، يخطب في النوادي العامة، ويلقي المحاضرات الثقافية في ساحات العلم، وينشر ما يريده في أمهات الصحف، لأن اسمه الكريم يسبقه كما قلت من قبل، معلناً قدره العظيم، ومن مظاهر هذه الشجاعة الأدبية أنه في مقالاته هذه يرسل نقداته الجريئة لبعض ما لا يوافق عليه مما يرى ويسمع، يرسلها في أمهات المجلات المقروءة ليصدع بكلمة الحق دون محاباة، أذكر أنه زار مصر في سنة ١٩٥٠م، وخالط كتابها ومفكريها، وعقد ندوات ممتازة بجمعية الشبَّان المسلمين وغيرها، ثم عنَّ له أن يكتب في مجلة الرسالة كلمة تحت عنوان (اسمعي يامصر) بدأها بالإشارة بما رآه من

محاسن، ثم وجه الأمة المصرية إلى رسالتها الحضارية في إفهام الغرب ما يجهله من مزايا العرب والإسلام، لأنها بكتابها وجامعاتها ومفكريها، أقدر بلدٍ يقوم بهذه الرسالة حتى إذا انتهى من ذلك، جاهر بنقداته الجريئة في مثل قوله[1]:

«احرصي يا مصر على رجولة أبنائك وأخلاقهم، وصوني شبابهم وشرفهم ودينهم وصحتهم من أن يعبث بها العابثون أو يتجر بها المتجرون، ممن يعيشون على أثمان الأعراض والأخلاق، ويحبّون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، لتروج بضاعتهم وتزدهر تجارتهم، أولئك هم أصحاب الروايات الخليعة، والصور العارية، والأدب المكشوف، كافحي يا مصر الوباء الخلقي الذي يقضي على حيوية الأمة، وطاردي كل من يحاول أن يزعزع العقيدة في شعبك، إن العالم العربي قد أحلّكِ من نفسه محلاً رفيعاً، ووضع ثقته فيك، فلا تصدري إليه من أدبك وموضوعاتك ما يزرؤه في إيمانه وأخلاقه، إن هذه الروايات الخليعة، والأدب الماجن أفسد وأضرُّ بالأمة من الحبوب المسمومة، والفواكه الموبوءة.. إن القارة الإفريقية لا يزال جزء كبير منها على فطرته، وهو حقل لجهودك وتربيتك فأرسلي إليها دعاتك المبشرين لتنقذي نفوس هؤلاء، وتكتسبي قلوباً تكون خيراً لك من الأمم الغربية التي تخطبين ودها، وتحرصين على صداقتها، وهي لا تدوم على حال».

وأذكر أن مقال الأستاذ الكبير قوبل بالاستحسان، وفسحت له المجلات الملتزمة مجال التحليل والتعقيب، حين رأت فيه صيحة مخلصة يقوم بها مرشد أمين.

هذا في مصر وكذلك في غيرها من الدول التي سعدت برحلة الأستاذ الكبير إليها، أذكر أنه في زيارته لعمّان عاصمة الأردن عقد ندوة تتحدث عن

(١) مجلة الرسالة سنة ١٩٥٠ ص ٢٦٦ السنة التاسعة عشرة.

(حيرة الشباب المسلم: أسبابها وعلاجها)[1] فكان الرجل صريحاً كعادته حين جعل من أسباب هذه الحيرة التناقض الصريح في التوجيه والإعلام والتربية، (لأن الشاب يجد في تقاليد بيته المسلم ما يسمع نقيضه في الصحف والمجلات، بل قد يسمع في المدرسة ما لا يتفق وتعاليم الإسلام، فيقع في صراع فكري عنيف، وقد يقرأ صحيفة يحررها غير مسؤول عن دينه وشرف أمته، فيجد بها ما يدعو إلى الغواية والإلحاد، وقد شاعت بدعة القديم والجديد لترمي تراثنا بكل تأخر، وتدفع إلى محاكاة أعدائنا في كل ما يقترفونه، وهذا كله يحتاج إلى قلب نظام التعليم رأساً على عقب، يحتاج إلى أناس لديهم الأصالة الفكرية، فلا يعيشون متطفلين على مائدة الغرب. كما أننا نعيش في عزلة عن الشباب، ولدينا نحوهم كثير من سوء التفاهم وإساءة الظن، ولا بد أن نسعى إليهم لننقذهم من الانحراف، وذلك يحتاج إلى مخططات دقيقة، مخططات علمية مدروسة، يحتاج إلى أقلام بليغة، ولست متشائماً ولا يائساً ولكني أدعو إلى الإصلاح).

قد يكرر الأستاذ ما قاله في دولة زارها من قبل، لا لأنه لا يجد ما يقول، بل لأنه يجد الداء مشتركاً، والطبيب حين يكتب دواءً مماثلاً لمريضين يعانيان من حالة واحدة، لا يكون مكرراً للدواء، بل يضع الأمر في موضعه الصحيح، وقد كانت المملكة العربية السعودية ذات نصيب كبير من رحلات الأستاذ، لأنها أقرب البلاد إلى قلبه، ولأن الإسلام بها يجد متنفسه الذي لا يجده في دول شقيقات! وقد حظي بلقاء الملك فيصل، وقدم له خطاباً يحمل مقترحات مخلصة صادفت قبول الملك الكريم. وهكذا كان أبو الحسن يرحل ليدق الناقوس، فهو سفير متنقل في بلاد الإسلام، ولا أنسى أن أشير على كتبه الثلاثة:

---

(١) : في مجلة الأزهر عدد شعبان سنة ١٣٩٨ تلخيص لندوة عمّان.

١- مذكرات سائح في الشرق العربي.

٢- من نهر كابل إلى نهر اليرموك.

٣- أسبوعان في المغرب الأقصى.

ففي هذه الآثار القوية بتوجيهها وتشخيصها ونقدها الصائب، ما يضع الرحالة الكبير في مقدمة المصلحين الكبار من أبناء هذا القرن دون نزاع، وكم يروع القارئ أن يجد في صفحات هذه الكتب الخالدة، أوصافاً دقيقة لبلاد عزيزة علينا جميعاً، هي أفغانستان وإيران وسوريا ولبنان والعراق والأردن، أوصافاً لا تتجاهل ما بهذه الدول من مؤسسات ثقافية وهيئات علمية. ومبلغ تمسكها بالعقيدة الإسلامية أو مجافاتها في بعض اتجاهاتها، وما أحدث ذلك كله من آثار سلبية.

أما رحلة الداعية الكبير إلى الولايات المتحدة وكندا بدعوة من الطلاب المسلمين في الدولتين، فقد وصفها الكاتب في سفر خاص، وهي ذات مذاق مختلف عن الرحلات الخاصة ببلاد الإسلام، لأن المسلمين في أمريكا وكندا محدودو النشاط، ولكن عليهم في رأي الأستاذ أن يحافظوا على كيانهم الإسلامي في بلاد الغربة، وأن ينظروا نظرة واعية إلى الحضارة الغربية، فيعرفوا أوجه النفع وأوجه الضرر، وهم بعد المثل الناطق للمسلمين في مرأى جيرانهم من ذوي الديانات المختلفة، أو ممن لا يدينون بدين مطلقاً، وإذا كانت حضارة أوروبا وأمريكا تجد الدعاية الكافية ذات الإغراء الخالد، فعلينا أن نقيسها بمقياس الحضارة الإسلامية التي تعتمد أصولها من شريعة الإسلام، وقد قوبل الداعية الكبير بأسمى مظاهر التبجيل، وأقيمت الحفلات المتعاقبة لتكريمه، وما جاء الرجل المتواضع ليتصدر حفلات التكريم، بل قدم حاملاً مصباح الهداية لمن يفتح عينيه على النور المبين.

عاد الأستاذ الداعية من رحلاته المتتابعة لا يكتفي بانطباعه الخاص، بل ليسجل ما رأى وما سمع، والتسجيل لديه لا يعني وصف ما شاهده فحسب، بل لا بد أن يعرض الداء ثم يكتب الدواء، واطلاع الأستاذ الكبير على روعة الماضي، وفداحة الحاضر، هذا الاطلاع الشاسع الممتد في آفاق التاريخ الإسلامي في شتى ربوعه ماضياً، وهذه النظرات المتأملة الممتدة في آفاق العالم الإسلامي حاضراً حملت الكاتب على السرعة في العلاج وعلى النظر الباهر للماضي والحاضر، ليصير علاج المريض الهامد، الذي كان بالأمس عملاقاً يتوثب نافعاً مصيباً، وللأستاذ خيال رائع يقرب به الحقيقة التي يريد أن يتحدث عنها، فليس خياله الأدبي تهويمات طائرة في الفضاء، كما نرى لدى بعض من يرسمون الصور الباهتة، دون أن تلفت الأنظار إلى ما وراء الصورة من الحقيقة، وقد قال النُّقَّاد وأكثروا من القول بأن وظيفة الخيال تقريب الحقيقة، وتدعيمها وتأكيدها، وليست وظيفة الخيال الشطح البعيد عن الحقائق، والإغراق في تصورات تضل ولا تهدي! لقد أراد الداعية الكبير أن يتحدث بعد رحلاته المتتابعة عن المسلمين بين الأمس واليوم فكتب مقالاً[١] هو من أنفس ما قيل في موضوعه، كتبه تحت عنوان (بين الصورة والحقيقة)، وهو جيد أن يُدَرَّس على الطلاب في جميع المعاهد والكليات نظراً لمغزاه الدقيق. فقد جعل الأستاذ الصورة البعيدة عن الحقيقة مثل الثمار المصنوعة من الخزف تتراءى للناظر كأنها تفاح أو رمان أو عنب أو موز أو برتقال في لونها وشكلها، ولكن أين الصورة من الحقيقة؟ وأين طعم الثمار ورائحتها؟ إنها ليست إلا للزينة أو المثال، لأن الصورة لا تستطيع أن تسد مكان الحقيقة وتنوب عنها، ولا تمثل دورها، فإذا وقع صراع بينهما انهارت الصورة لا تتحمل عبء الحقيقة، إن صورة إسلامنا اليوم وصورة كلمتنا لا تقدران أن تتغلبا على

(١) مجلة المسلمون - العدد الثامن من السنة الثالثة ص٤٣ وما بعدها.

عاداتنا الحقيرة، وتقهرا شهواتنا، إننا نتلذذ بكلمة الشهادة والتوحيد، ومنا من يعرف ما يقول، ولكن الصورة شيء والحقيقة شيء آخر، إن أصحاب النبي ﷺ كانوا على حقيقة هذه الشهادة، فإذا قالوا: لا إله إلا الله اعتقدوا أنه لا إله غيره ولا ربَّ سواه، ولا نافع ولا ضارّ إلا هو، أما نحن فنقولها ونغفل عن معناها حين نرجو الخير من الأعداء، ونترك إله الكون الوهّاب، إن أكبر انقلاب وقع في تاريخ هذه الأمة هو أن الصورة احتلت مكان الحقيقة، واستولت على حياة الأمة من عهد بعيد من التاريخ، والذين كانوا يرون الصورة من بعيد يعتقدون أنها الحقيقة، ولذلك يذعرون ويشفقون من قربها، لقد حرس الإسلام المسلمين بالصورة مدة طويلة فلم يجترئ عليهم أحد، ثم تجرأ التتار عليهم في بغداد وما وليها، فانهارت الصورة. وأصبحت عاجزة عن أن تدفع المكروه، وكل ما نقرأ في تاريخ الإسلام من أخبار انكسار المسلمين وهزيمتهم في ميادين القتال، هو أثر انخذال الصورة وفضيحتها لا غير، لقد فضحتنا الصورة في كل معركة أو اصطدام، والذنب ذنبنا لأننا حمَّلنا عبء الحقيقة على الصورة فجاء الخذلان!.

هذا المقال الناري (وأرجو ألا أكون أخفقت في تلخيص نقاطه الهادفة) يرسم وجوه الإصلاح إذا أردنا أن نسير في الطريق الصحيح، وقد كرر الأستاذ الكبير معناه الرائع في أبواب شتى من تآليفه، لأنه يعتقد أن بدء البرء العاجل أن نعرف مكامن الداء القاتل، وها هو ذا قد عرف موضع الداء ووصف الدواء..

ولكن كيف السبيل إلى النهوض من هذه الكبوات المتلاحقة؟ لقد فكّر الأستاذ في رجال اليوم وفي بعض شبابه، فوجد التربية المدرسية والإعلامية في أكبر بلاد الإسلام قد ضلّت سواء السبيل، إذ خضعت أجهزة التعليم إلى النظام الأوربي، فأحدثت فجوات هائلة بين عقيدة الطالب المسلم، وما توحي

به المقررات المستوردة من انفصام عن مبادئ هذه العقيدة، والعلاج الصحيح في خطواته الأولى أن نبدأ بالنظر في أساليب التربية المتخذة دستوراً راسخاً لا تتخطاه بعض هذه الدول، ثم ننظر في تربية النشء وفق مقررات هادفة تعرف طريقها الصحيح، بدل الكتب المترجمة، وأشباه المترجمة مما يضل النشء عن حقيقية تاريخهم المجيد، وذينهم الرشيد، لقد ألقى الأستاذ أبو الحسن محاضرة هادفة في مهرجان ندوة العلماء المنعقد بتاريخ ٢٦/١٠/٩٥ هجرية، تحت عنوان (أهمية نظام التربية والتعليم في الأقطار الإسلامية)، وكلمة الأقطار الإسلامية لا يلتفت إليها إلا أمثال أبي الحسن الندوي ممن يُحسُّون أن العالم الإسلامي وطنٌ واحد، فقد رأينا من أشياع أوروبا، من يجزِّئون الوطن الواحد إلى عدة مناطق، مدعين أن كل منطقة لها بيئتها الخاصة التي تحتِّم أن يُقَّدم لها مقرَّرٌ خاص يختلف عن مقررات جاراتها، ومراعاة البيئة وظروفها المحلية قد تكون نافعة في علوم الزراعة والتجارة والاقتصاد! ولكن كيف يختلف المقرر في مناهج التاريخ واللغة والدين تحت ستارٍ مموهٍ كاذب مفضوح، لقد التفت الأستاذ إلى خطر التجزئة حين تحدث عن أساليب التربية في الأقطار الإسلامية بعامة، فذكر أول ما ذكر أن كثيراً من التربويين في هذه البلاد يحكّمون في مناهجهم التعليمية، ومؤسساتهم التربوية نفراً من الأخصائيين والمستشارين من البلاد الأوربية، ثم هم يرسلون البعثات من أبنائهم ليرجع الطلاب ملزمين بما رأوه من المناهج هناك. وكأنها قرآن منزل! فكانت النتيجة وجود طبقة مضطربة العقائد والسير والأخلاق، وهي في أحسن أحوالها مذبذبة بين الفكرة الغربية والفكرة الإسلامية، وفي كثير من الأحيان تنسلخ عما يدين به مجتمعها الإسلامي كل الانسلاخ، إن عملية التربية في أمة من الأمم، ليست بضاعة تصدر إلى الخارج أو تستورد إلى الداخل كالمصنوعات والمواد الخام والمخترعات التي لا تخص بلداً دون بلد، وإنما هي لباس يفصّل على قامة الشعوب، وملامحها القومية وتقاليدها

الموروثة، والتربية في صميمها وسيلة راقية مهذبة لدعم العقيدة التي يؤمن بها شعب أو بلد، وتغذيتها بالاقتناع الفكري القائم على الثقة والاعتزاز.

وقد دارت مناقشات الندوة حول كلمة الأستاذ، ولاقت من القبول التام ما جعلها موضع التنفيذ المباشر لدى من يستمعون القول فيتبعون أحسنه، أما رعاية النشء فذات عبءٍ خاص يجب أن ينهض به كل من يستطيع المشاركة في تحمله. وقد بدأ الأستاذ بتأليف سلسلة كتب خاصة بالأطفال، ثم بمن يعلوهم من تلاميذ المدارس متوسطة وثانوية، وتأليف الكتب للأطفال شاقٌ عسرٌ، لأنه يتطلب مراعاة العقول الغضة، واختيار ما يناسبها تعبيراً وتفكراً وتوجيهاً، وقد اقتحم هذا الباب نفرٌ من مقلدة الغرب، فكتبوا للأطفال سلاسل الرعب والفزع، وملؤوا كتبهم بأساطير المردة والشياطين، وفيه من حاول أن يقتطع قصصاً من إلياذة هوميروس لتكون غذاء الأطفال في الشرق الإسلامي، ويعد ذلك سبقاً حضارياً لا مثيل له، هذا الغثاء المتراكم في كل مكان قد دفع الأستاذ أبا الحسن إلى أن يكتب للطفل كما يكتب للشاب، وكما يكتب للرجل، لأنه جندي كان من قدره المحتوم أن يحارب في شتى الجبهات، وقد أصدر سلسلة (قصص النّبيين للأطفال) في خمسة أجزاء، جعلها على صغرها في الحجم ميداناً لغرس الفضائل الخلقية، بل لغرس العقيدة الإسلامية الصحيحة بحيث تغني عن بعض ما يسمى بدروس التوحيد، وقد قرأ الشهيد سيد قطب بعض أجزاء هذه السلسلة النادرة، وقال في تقديمه: (لقد قرأت الكثير من كتب الأطفال بما في ذلك قصص الأنبياء عليهم الصلوات والسلام، وشاركت في تأليف مجموعة القصص الدينية للأطفال في مصر مأخوذاً كذلك من القرآن الكريم، ولكن أشهد في غير مجاملة، أن عمل السيد أبي الحسن في هذه القصة - يريد قصة موسى عليه السلام- جاء أكمل من هذا كله، وذلك بما احتوى من توجيهات دقيقة وإيضاحات كاشفة لمرامي القصة , وحوادثها ومواقفها، ومن تعليقات داخلة في ثنايا القصة، ولكنها توحي بحقائق إيمانية ذات خطر، حين تستقر في قلوب الصغار أو الكبار.

فإذا تركنا مرحلة الطفولة، إلى ما يليها من مرحلة الصبا فإننا نجد السيد أبا الحسن لا يغفل عن توجيه الناشئة في هذه السن الغضة، فقد كتب سلسلة كتب تحت عنوان (القراءة الراشدة) من ثلاثة أجزاء، فاختار من الموضوعات ما يهدف إلى بناء الكيان الإسلامي الصحيح، ومن التعبيرات ما يصلح أن يكون زاداً للقارئ المتطلع، يحفظه ويحرص عليه ليكون مدداً له في التعبير الصحيح، أما قواعد اللغة من نحوٍ وصرف وبلاغة فقد كلّف بعض الأساتذة بالتأليف فيها، ورسم الخطة في التيسير، وقام بمراجعة هذه المؤلفات قبل أن يتداولها الطلاب! لقد كان الإمام محمد عبده يرى بعد إخفاق الثورة العرابية في مصر أن تكون التربية الإسلامية وسيلة لإعداد جيلٍ ناشئ ينهض بمكافحة المستعمر الغاصب، كما يفهم أصول دينه على وجهها الصحيح، نادى الإمام محمد عبده بذلك، ودعا المؤلفين إلى إعداد الغذاء الروحي الكفيل بتربية الشبيبة المسلمة، وقد انتظر الأستاذ الإمام طويلاً، حتى نهض نفرٌ من المخلصين في تنفيذ خطته، وكان السيد أبو الحسن الندوي في طليعة من قاموا بهذا العبء عن كفاءة تامة، ضربت المثل لكثير من تابعيه فجعلوا يقتفون أثره مغتبطين.

إن مما يشغل الأستاذ أبا الحسن غذاء الشبيبة من الأدب العربي، فقد نظر إلى السائد المشتهر من هذا الغذاء في دراسات المدارس والجامعات فوجده يقف عند حدود الأدب الصناعي، إذ احتل الميدان أمثال ابن العميد والصابئ والصاحب ابن عباد والحريري والقاضي الفاضل، وأدب هؤلاء أدب صنعة - في أكثره - واقتصار الشباب على مطالعة هؤلاء يعد إجحافاً بالأدب العربي في أفقه الفسيح، لذلك كانت رياسته المباركة لرابطة الأدب الإسلامي العالمية توجيهاً جديداً في الأدب الإسلامي بعامة والأدب العربي بخاصة، وقد لاقت الرابطة في ضوء توجيهاته السديدة من الترحيب في العالم الإسلامي جميعه ما عقد عليها أكبر الآمال، فبدأت تؤتى أكلها بإذن الله، وقد افتتح أبو

الحسن كتابة (نظرات في الأدب) بكلمة ممتازة تحت عنوان: (نظرةٌ جديدة إلى التراث الأدبي العربي)، بدأها بالإشارة إلى المحنة القاسية التي أصيب بها الأدب العربي حين تسلط عليه من سماهم بأصحاب التصنع والتكلف، الذين اتخذوا الأدب حرفة وصناعة، ليصلوا به إلى أغراض شخصية محضة، فحجب هذا الأدب فيضاً من الأدب الإسلامي الذي يملأ صحف المكتبة العربية، وقد جاء في بحثٍ ديني أو كتاب علمي أو موضوع فلسفي، جاء في كتب السيرة المطهرة، وفي نصوص الحديث النبوي الشريف، وفيما تركه أمثال أبي حامد الغزالي وأبي الفرج الجوزي وأبي حيان التوحيدي وابن حزم وابن القيم، وأصحاب الرحلات الجغرافية الذين وصفوا الأماكن المشاهدة وصف استقصاء وشمول، وأصحاب التراجم والطبقات من أمثال الخطيب البغدادي وابن عساكر وياقوت وابن خلكان، مؤكداً أن وصف الشخصية أو ترجمة الذات ليستا من السهولة بحيث يستطيعهما الجميع، ولكن العالم الدقيق، والأديب الحساس هما اللذان يقومان بهما على أحسن وجه يتاح: وقد باشر أبو الحسن فيضاً من هذه التراجم في مؤلفاته البارعة، فمؤلفه عن رجال الفكر والدعوة في الإسلام في أجزاء أربعة يعد موسوعة أدبية حافلة، ومن خصائص المؤلف البارع أن يفطن إلى مضمون كلمات قد يمر بها القارئ مراً عابراً، ولكنها تحتمل من المعاني ما يفتح الله به عليه، فيمد القارئ بفيض من الخواطر يعجب كيف أدركه هذا الباحث الحساس، إذ قد قرأت ترجمات لبعض من خصهم أبو الحسن بشيء عند من كتبوا عنهم سواه، فوجدت الفرق ملموساً بين ترجمة وترجمة، فمن التراجم ما يكون ملفاً في دائرة حكومية، يقدم المعلومات وكأنها إحصاءٌ حسابي يعتمد على التواريخ والأرقام فحسب، ولكن تراجم أبي الحسن ذات نبض حيّ جذاب، حتى ليصلح بعضها أن يكون شعراً منثوراً، ويرجع ذلك لاعتماده على إحساسه الحي بمسايرة من يتفقون مع مشاعره الدينية، وأهوائه الإسلامية ممن صدقوا الله فاجتباهم بفضله، وأذكر أن أبا الحسن جعل الصدق أساساً للتعبير الجيد، فهو باعث الحرارة

والنشاط، كما التفت إلى مقاييس أخرى ليس من وظيفة هذا البحث أن يستقصيها، ولكني أنتهي من هذه النقطة البارزة في اتجاه الباحث الكبير لأقول: إنه فتح الأبصار على كنوز مطمورة تراكم عليها الصخر بثقله الضاغط، ونسيها الوارثون من أهلها، بل ربما عدوا كنوزها مزورة لا تصلح للتداول في أسواق الأدب والعلم، فانبرى الأستاذ الكبير ليحفظ لهذه الكنوز حرمتها، وليفسح لها الطريق كي تطمئن في مستقرها المريح!

قلت: إن أبا الحسن قد يفطن إلى مضمون كلمة يمر بها القارئ مروراً عابراً فلا يهتدي إلى أبعادها الشاسعة وأغوارها العميقة، وأضرب المثل بوقوفه عند كلمة واحدة جاءت في حديث البطل (ربعي بن عامر) حين واجه قائد الفرس رستم فسأله القائد: ما جاء بكم؟ فقال ربعي على البديهة: جئنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عباة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، فقد وقف عند كلمة ضيق الدنيا وقفة ما أظن أحد وقفها من قبل، فقال فيما قال محللاً قولة ربعي: إني لأتساءل ما هو الضيق الذي كان فيه الفرس؟ وما هي السعة التي كان فيها العرب، لقد قرر التاريخ وأجمع المؤرخون على أن الفرس والروم كانوا يعيشون في رغد من العيش، ويتقلبون في أعطاف النعيم، لقد اتسعت لهم الدنيا ولانت لهم الحياة أما العرب فيعيشون في شظف، والمدنية لم تتعقد أمامهم بعد، فأين هي السعة؟ إن ربعي بن عامر كان ينظر إلى هؤلاء الملوك والأمراء كما ينظر العاقل إلى دمى قد كسيت ملابس فاخرة جميلة، وإلى تماثيل قد أحكمت صياغتها، وتأنق صانعوها في تصوير قسماتها وملامحها، ولكنها تمثيل من حجر أو جبس لا حياة فيها ولا حراك لها! وكان ربعي -كبقية المسلمين- يتمتع بالحرية التي عرَّفه بها الإسلام، فنقلته من دنيا ضيقة محدودة خائفة، دنيا المعدة والمادة، ودنيا الشهوات والأغراض، ودنيا الاستعباد إلى دنيا القلب والروح، والإيثار والمساواة والعدل والرحمة، وتلك هي السعة!.

هذه سطور تنبئ عن صفحات أبدع الكاتب بها في تحليل كلمة الضيق، وكلها معجب رائق، فهل يصل أحدٌ إلى استبطان هذه المعاني الرائعة من لفظ واحد غير ملهم بصير.

لقد طوقت في حديثي عن أبي الحسن ونسيت أن أذكر في مجال السيرة الذاتية، أنه انتخب أميناً عاماً لندوة العلماء بعد وفاة أخيه الأكبر الدكتور عبد العلي الحسني سنة ١٣٨٠هـ وأنه اختير عضواً مراسلاً في مجمع اللغة العربية بدمشق ١٣٧٥هـ، وأنه دعي لإلقاء محاضرات كأستاذ زائر في جامعة دمشق سنة ١٣٧٥هـ، واختير عضواً في المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة سنة ١٣٨٠هـ، وعضواً في المجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وانتخب رئيساً لهيئة التعليم الديني في الولاية الشمالية في الهند سنة ١٣٧٧هـ، وهو بعد ذلك إمام العصر ورائد الإصلاح الديني والأدبي في وطنه الإسلامي الكبير، ولا أقول ذلك دون دليل، فمؤلفاته ساطعة، ومواقفه ناصعة، وألسنة القلوب تهتف بذكره في كل مكان ترفرف عليه راية الإسلام، وما عند الله أوفى وأجزل.



البحث الثاني

ركائز الفقه الدعوي
عند العلامة أبي الحسن الندوي

الدكتور يوسف القرضاوي (*)



(*) الداعية والمفكر الإسلامي المعروف، عميد كلية الشريعة، ومدير مركز بحوث السنة والسيرة بجامعة قطر .

يقوم فقه الدعوة عند العلاّمة أبي الحسن الندوي على ركائز وأسس تبلغ العشرين، منها ينطلق، وإليها يستند، وعليها يعتمد. نجملها هنا، ونفصّلها فيما بعد -إن شاء الله -.

١- تعميق الإيمان في مواجهة المادية:

أولى هذه الركائز: تعميق الإيمان بالله تعالى، وتوحيده سبحانه: ربّاً خالقاً، وإلهاً معبوداً، واليقين بالآخرة، داراً للجزاء، ثواباً وعقاباً، في مواجهة المادية الطاغية، التي تجحد أن للكون إلهاً يدبره ويحكمه، وأن في الإنسان روحاً هي نفخة من الله، وأن وراء هذه الدنيا آخرة، وليس كما تقول المادية إن هي إلا أرحام تدفع، وأرض تبلع، ولا شيء بعد ذلك. أو كما حكى الله عنهم: ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ (الأنعام: ٢٩)، وقد تخللت هذه الركيزة الفكرية المحورية معظم رسائله وكتبه، وخصوصاً: الصراع بين الإيمان والمادية.. ماذا خسر العالم.. الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية.

٢- إعلاء الوحي على العقل:

وثانية هذه الركائز: هي اعتبار الوحي هو المصدر المعصوم، الذي تؤخذ منه حقائق الدين وأحكامه، من العقائد والشرائع والأخلاق، واعتبار نور النبوة فوق نور العقل، فلا أمان للعقل إذا سار في هذا الطريق وحده من العثار، ولا أمان للفلسفات المختلفة في الوصول إلى تصور صحيح عن الألوهية والكون والإنسان والحياة، حتى الفلسفة الدينية أو علم الكلام حين خاض هذه اللجة غرق فيها. وقصور العقل هنا شهد به بعض كبار المتكلمين كالفخر الرازي، والآمدي وغيرهما، وبعض كبار الفلاسفة، وأحدثهم (كانت). وكذلك فلسفات

الإشـراق لـم تصل بالإنسـان إلى بـر الأمـان. وقـد بين ذلك الشـيخ الندوي في عدد من كتبه، منها: النبوة والأنبياء في ضوء القرآن. ومنها: الدين والمدنية، وأصله محاضرة ألقاها في مقتبل الشباب (في الثلاثين من عمره).

٣- توثيق الصلة بالقرآن الكريم:

والركيزة الثالثة: هي توثيق الصلة بالقرآن، باعتباره كتاب الخلود، ودستور الإسـلام وعمدة الملة، وينبـوع العقيـدة، وأسـاس الشـريعة، وهـو يوجب اتبـاع القـواعد المقـررة في تفسـيـره، وعـدم الإلحـاد في آياتـه، وتأويلهـا وفق الأهواء والمذاهب المنحولة، ولهذا أنكر على القاديانيين هذا التحريف في فهم القرآن.

ومن قرأ كتب الشيـخ وجده عميق الصلة بكتاب الله، مستحضراً لآياته في كل موقف، محسناً الاستشهاد بها غاية الإحسان. وله ذوق متفرد في فهم الآيات، كما أن له دراسـات خاصـة في ضوء القـرآن مثل: تأملات في سورة الكهف (التي تجلي الصـراع بين المادية والإيمان بالغيب)، والنبـوة والأنبيـاء في ضوء القرآن.. ومدخل للدراسات القرآنية.. وغيرها من الكتب والرسائل، وقد عمل مدرساً للقرآن وعلومه في دار العلوم بلكهنؤ عدة سنوات.

٤- توثيق الصلة بالسنة والسيرة النبوية:

والركيـزة الرابعة: هي توثيـق الصلة بالسنة والحـديث الشـريف، والسـيرة النبوية العاطرة باعتبار السنة مبيّنة القرآن وشارحته نظرياً، وباعتبار السيرة هي التطبيق العملي للقرآن، وفيها يتجلى القرآن مجسداً في بشر (كان خلقه القرآن) وتتجلى (الأسوة الحسنة) التي نصبها الله للناس عامة، وللمؤمنين خـاصـة، لهـذا كـان المهم العيش فـي رحـاب هـذه السـيـرة، والاهتـداء بهـديهـا والتخلق بأخلاقها لا مجرد الحديث عنها، باللسان أو بالقلم.

وقد بيّن الشيخ أثر الحديث في الحياة الإسلامية، كما أبدع في كتابة السيرة للكبار وللأطفال، وهو هنا يجمع بين عقل الباحث المدقق، وقلب المحب العاشق، وهذا يكاد يكون مبثوثاً في عامة كتبه.

٥- إشعال الجذوة الروحية (الربّانيّة الإيجابية):

والركيزة الخامسة: هي إشعال الجذوة الروحية في حنايا المسلم، وإعلاء (نفخة الروح) على قبضة الطين والحمأ المسنون في كيانه، وإبراز هذا الجانب الأساسي في الحياة الإسلامية الذي سماه الشيخ (ربانية لا رهبانية) وهو عنوان لأحد كتبه الشهيرة. وقد سمّاه بهذا الاسم لسببين:

أولهما: أن يتجنب اسم (التصوف) لما علق به من شوائب، وما ألصق به من زوائد، على مرِّ العصور، وهذا من (جناية المصطلحات) على الحقائق والمضامين الصحيحة. وما التصوف في حقيقته إلا جانب (التزكية) التي هي إحدى شعب الرسالة المحمدية، أو جانب (الإحسان) الذي فسّره الرسول في حديث جبريل الشهير.

والسبب الثاني: إبراز العنصر الإيجابي في هذه الحياة الروحية المنشودة، فهي روحية اجتماعية، كما سمّاها أستاذنا البهيّ الخولي رحمه الله، وهي ربّانية إيجابية تعمل للحياة ولا تعتزلها، ولا تعبدها، وتجعل منها مزرعة للحياة الأخرى: حياة الخلود والبقاء.

كما وضَّح الشيخ الندوي الجانب التعبّدي الشعائري في حياة المسلم في كتابه المعروف (الأركان الأربعة) وهو يمثل نظرة جديدة في عبادات الإسلام الكبرى: الصلاة والزكاة والصيام والحج، وآثارها في النفس والحياة.

٦- البناء لا الهدم، والجمع لا التفريق:

والركيزة السادسة: أن الشيخ الندوي جعل همّه في البناء لا الهدم، والجمع لا التفريق، وأنا أشبِّهُهُ هنا بالإمام حسن البنّا رحمه الله، الذي كان

حريصاً على هذا الاتجاه الذي شعاره: نبني ولا نهدم، ونجمع ولا نفرّق، ونقرّب ولا نباعد، لهذا تبنّى قاعدة المنار الذهبية: (نتعاون فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه) وهذا هو توجه شيخنا الندوي فهو يبعد ما استطاع عن الأساليب الحادة، والعبارات الجارحة، والموضوعات المفرّقة، ولا يقيم معارك حول المسائل الجزئية، والقضايا الخلافيّة.

ولا يعني هذا: أنه يداهن في دينه، أو يسكت عن باطل يراه أو خطأ جسيم يشاهده، بل هو ينطق بما يعتقده من حق، وينقد ما يراه من باطل أو خطأ، لكن بالتي هي أحسن، كما رأيناه في نقده للشيعة في موقفهم من الصحابة (صورتان متضادتان) وفي نقده للعلامّة أبي الأعلى المودودي والشهيد سيد قطب، فيما سمّاه (التفسير السياسي للإسلام) وإن كنت وددت لو اتخذ له عنواناً غير هذا العنوان، الذي قد يستغله العلمانيّون في وقوفهم ضد (شمول الإسلام) وقد صارحت الشيخ بذلك، ووافقني عليه حفظه الله.

٧- إحياء روح الجهاد في سبيل الله:

والركيزة السابعة: هي إحياء روح الجهاد في سبيل الله، وتعبئة قوى الأمة النفسية للدفاع عن ذاتيتها ووجودها، وإيقاد شعلة الحماسة للدين في صدور الأمة، التي حاولت القوى المعادية للإسلام إخمادها، ومقاومة روح البطالة والقعود، والوهن النفسي، الذي هو حب الدنيا وكراهية الموت، وهذا واضح في كتابه (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) وفي كتابه (إذا هبّت ريح الإيمان) وفي حديثه الدافق المعبّر عن الإمام أحمد بن عرفان الشهيد وجماعته ودعوته، وعن صلاح الدين الأيوبي وأمثاله من أبطال الإسلام.

ومنذ رسائله الأولى وهو ينفخ في هذه الروح، ويهيب بالأمة أن تنتفض للذود عن حماها، وتقوم بواجب الجهاد بكل مراتبه ومستوياته حتى تكون كلمة الله هي العليا.

٨- استيحاء التاريخ الإسلامي وبطولاته:

والركيزة الثامنة: استيحاء التاريخ - ولا سيمّا تاريخنا الإسلامي- لاستنهاض الأمة من كبوتها، فالتاريخ هو ذاكرة الأمة، ومخزن عبرها، ومستودع بطولاتها، والشيخ يملك حسّاً تاريخياً فريداً، ووعياً نادراً بأحداثه الكبار، والدروس المستفادة منها، كما تجلى ذلك في رسالته المبكرة (المد والجزر في تاريخ الإسلام) وفي كتابه: (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) وفي غيره، والتاريخ عنده ليس هو تاريخ الملوك والأمراء وحدهم، بل تاريخ الشعوب والعلماء والمصلحين والربّانيين. ليس هو التاريخ السياسي فقط، بل السياسي والاجتماعي والثقافي والإيماني والجهادي. ولهذا يستنطق التاريخ بمعناه الواسع، ولا يكتفي بمصادر التاريخ الرسميّة، بل يضم إليها كتب الدين، والأدب، والطبقات المختلفة، وغيرها، ويستلهم مواقف الرجال الأفذاذ، وخصوصاً المجددين والمصلحين، كما في كتابه: (رجال الفكر والدعوة في الإسلام) الذي بيَّن فيه أن الإصلاح والتجديد خلال تاريخ الأمة: حلقات متصلة، ينتهي دور ليبدأ دور، ويغيب كوكب ليطلع كوكب. والنقص ليس في التاريخ، إنّما هو في منهج كتابته وتأليفه.

٩- نقد الفكرة الغربية والحضارة الماديّة:

والركيزة التاسعة: هي نقد الجاهلية الحديثة، المتمثلة في الفكرة الغربية، والحضارة المادية المعاصرة، ورؤيته هنا واضحة كل الوضوح لحقيقة الحضارة الغربية وخصائصها، واستمدادها من الحضارتين: الرومانية واليونانية، وما فيهما من غلبة الوثنية، والنزعة الماديّة الحسّية، والعصبيّة القوميّة، وهو واع تماماً للصراع القائم بين الفكرة الغربية والفكرة الإسلامية، وخصوصاً في ميادين التعليم والتربية والثقافة والقيم والتقاليد. وقد أنكر الشيخ موقف الفريق المستسلم للغرب، المقلد له تقليداً أعمى في الخير والشر، ومثله: موقف

الفريق الرافض للغرب كله، المعتزل لحضارته بمادياتها ومعنوياتها.. ونوَّه الشيخ بموقف الفريق الثالث، الذي لا يعتبر الغرب خيراً محضاً، ولا شراً محضاً. فيأخذ من الغرب وسائله لا غاياته، وآلياته لا منهج حياته، فهو ينتخب من حضارته ما يلائم عقائده وقيمه، ويرفض ما لا يلائمه. واهتم الشيخ هنا بشعر د. محمد إقبال باعتباره أبرز ثائر على الحضارة المادية، مع عمق دراسته لها، وتغلغله في أعماقها.

وقد تجلى هذا في كثير من كتبه ورسائله، ولا سيما: حديث مع الغرب..، ماذا خسر العالم..، الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية، أحاديث صريحة في أمريكا، محاضرة (الإسلام والغرب) في أكسفورد.

١٠- نقد الفكرة القومية والعصبيات الجاهلية:

والركيزة العاشرة: نقد ما شاع في العالم العربي والعالم الإسلامي كله، من التنادي بفكرة (القومية) القائمة على إحياء العصبيات الجاهلية، بعد ما أكرم الله به هذه الأمة من الأخوة الإسلامية، والإيمان بالعالمية، والبراءة من كل من دعا إلى عصبية، أو قاتل على عصبية أو مات على عصبية. وأشد ما آلمه: أن تتغلغل هذه الفكرة بين (العرب) الذين هم عصبة الإسلام، وحملة رسالته، وحفظة كتابه وسنته، وهو واحد منهم نسباً وفكراً وروحاً.

لذا وقف في وجه (القومية العربية) العلمانية المعادية للإسلام، المفرقة بين المسلمين، والتي اعتبرها بعضهم (نبوّة جديدة) أو (ديانة جديد) تجمع العرب على معتقدات ومفاهيم وقيم غير ما جاء به محمد ﷺ. الذي هدى الله به أمة العرب، وجمعهم به من فرقة، وأخرجهم به من الظلمات إلى النور. وهو رغم رفضه للقومية، لا ينكر فضل العرب ودورهم وريادتهم، بل هو يستنهض العرب في محاضراته ورسائله وكتبه للقيام بمهمتهم، والمناداة

بعقائدهم ومبادئهم في وجه العالم كما نادى ربعي بن عامر، في مواجهة قادة الفرس، وهو يقول في: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين (محمد رسول الله روح العالم العربي) ويوجه رسالة عنوانها: اسمعوها مني صريحة أيها العرب.. ورسائل أخرى: العرب والإسلام.. الفتح للعرب المسلمين.. اسمعي يا مصر.. اسمعي يا سورية.. اسمعي يا زهرة الصحراء (يعني: الكويت).. كيف ينظر المسلمون إلى الحجاز وجزيرة العرب؟.. كيف دخل العرب التاريخ.. العرب يكتشفون أنفسهم: تضحية شباب العرب. إلى آخره..

١١- تأكيد عقيدة ختم النبوة ومقاومة الفتنة القاديانية:

والركيزة الحادية عشرة: هي تأكيد (عقيدة ختم النبوة) وهي عقيدة معلومة من الدين بالضرورة بين المسلمين طوال القرون الماضية، ولم يثر حولها أي شك أو شبهة، وإنما أوجب تأكيد هذه العقيدة: ظهور الطائفة القاديانية بفتنتهم الجديدة التي اعتبرها الشيخ (ثورة على النبوّة المحمدية). ولقد كُتِبَ في هذه القضية ما كتب من مؤلفات ومقالات، ولكن الشيخ شعر بمسؤولية خاصة إزاءها، فكتب في بيان أهمية ختم النبوة: في اعتبارها تكريماً للإنسانية بأنها (بلغت الرشد)، وأنها انتهت إلى (الدين الكامل) الذي يضع الأسس والأصول، ويترك التفصيلات للعقل البشري، الذي يولد ويستنبط في ضوء تلك الأصول ما تحتاج إليه المجتمعات في تطورها المستمر، وهي تغلق الباب على المتنبئين الكذّابين، وتمنع فوضى الدعاوى الكاذبة المفترية على الله تعالى.

وقد أكّد الشيخ ذلك في فصلٍ من كتابه (النبوّة والأنبياء) عن (محمد خاتم النبيين)، ثم ألّف كتاباً عن (النبي الخاتم)، وجعل السيرة النبوية للأطفال بعنوان (سيرة خاتم النبيين) [١]، ثم صنّف كتاباً خاصاً عن (القادياني

---

(١) كتاب (سيرة خاتم النبيين) للأطفال، نشرته مؤسسة الرسالة في بيروت، وأعادت نشره في عدة طبعات.

والقاديانية) تضمن دراسة وتحليلاً لشخصية (غلام أحمد) ودعوته، ونشأته في أحضان الاستعمار الإنجليزي، واعترافه المتكرر بذلك في رسائله وكتاباته، ودعوته المسلمين إلى طاعة الإنجليز، وإلغاء الجهاد، وبين الشيخ الندوي بكل صراحة: أننا -مع القاديانية- في مواجهة دين إزاء دين، وأمة إزاء أمة. كما اشتد نكيره عليهم في تحريفهم للقرآن، وتلاعبهم باللغة العربية، وهذا الكتاب مرجعٌ علميٌّ موثق بالأدلة من مصادرها القاديانية ذاتها.

١٢- مقاومة الردّة الفكرية:

والركيزة الثانية عشرة: هي (مقاومة الردة الفكرية) التي تفاقم خطرها بين العرب والمسلمين عامة، والمثقفين منهم خاصة. فكما قاوم الشيخ (الردة الدينية) التي تمثلت في القاديانية، التي أصرّ علماء المسلمين كافة في باكستان على اعتبارهم أقلية غير مسلمة، لم يأل جهداً في محاربة هذه (الردة العقلية والثقافية). ولا غرو أن جنَّد قلمه ولسانه وعلمه وجهده في كشف زيفها، ووقف زحفها، ومطاردة فلولها، وقد ألّف فيها رسالته البديعة الشهيرة (ردة ولا أبا بكر لها)!.

١٣- تأكيد دور الأمة المسلة واستمراره في التاريخ:

والركيزة الثالثة عشرة: هي تأكيد دور الأمة المسلمة في هداية البشرية، والشهادة على الأمم، والقيام على عبادة الله وتوحيده في الأرض، كما أشار على ذلك الرسول ﷺ يوم بدر: «**اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض**». وهذه الأمة صاحبة رسالة شاملة، وحضارة متكاملة، مزجت المادة بالروح، ووصلت الأرض بالسماء، وربطت الدنيا بالآخرة، وجمعت بين العلم والإيمان، ووفّقت بين حقوق الفرد ومصلحة المجتمع، وهذه الأمة موقعها موقع القيادة والريادة للقافلة البشرية، وقد انتفعت منها البشرية يوم كانت الأمة الأولى في العالم.. ثم تخلفت عن الركب لعوامل شتى، فخسر العالم كثيراً

بتخلفها، وهو ما عالجه كتاب (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟) الذي عرفت به الشيخ قبل أن ألقاه، والذي استقبله العلماء والدعاة والمفكرون المسلمون استقبالاً حافلاً، وقال شيخنا الدكتور محمد يوسف موسى: إن قراءته فرضٌ على كلِّ مسلمٍ يعمل لإعادة مجد الإسلام!.

وما زال العلامة الندوي يبدئ ويعيد في تنبيه الأمة المسلمة على القيام بدورها الرسالي، ومهمتها التي (أخرجت) لها، فقد أخرجها الله (للناس) لا لنفسها. وآخر إنتاجه في ذلك: محاضرته التي ألقاها في دولة قطر، بعنوان (قيمة الأمة الإسلامية بين الأمم ودورها في العالم).

١٤- بيان فضل الصحابة ومنزلتهم في الدين:

والركيزة الرابعة عشرة: هي (بيان فضل الجيل المثالي الأول) في هذه الأمة، وهو جيل الصحابة رضوان الله عليهم، أبر الناس قلوباً، وأعمقهم علماً، وأقلّهم تكلفاً، اختارهم الله لصحبة نبيه، ونصرة دينه، وأنزل عليهم ملائكته في بدر والخندق وحنين، وهم الذين أثنى عليهم الله تعالى في كتابه في عدد من سوره، وأثنى عليهم رسوله في عدد من أحاديثه المستفيضة، وأكّد ذلك تاريخهم وسيرتهم ومآثرهم، فهم الذين حفظوا القرآن، والذين رووا السنة، والذين فتحوا الفتوح، ونشروا الإسلام في الأمم، وهم تلاميذ المدرسة المحمدية، وثمار غرس التربية النبوية. وهم أولى من ينطبق عليه قول الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ (البقرة: ١٤٣)، وقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (آل عمران: ١١٠).

وهم طليعة الأمة وأسوتها في العلم والعمل، وأئمتها في الجهاد والاجتهاد، وتلاميذهم من التابعين على قدمهم، وإن لم يبلغوا مبلغهم، (خير القرون قرني ثم الذين يلونهم). فمن شكك في عظمة هذا الجيل وفي أخلاقه ومواقفه، فقد شكك في قيمة التربية المحمدية، وهي الصورة المعتمة التي رسمها الشيعة لجيل الصحابة، مناقضة الصورة المشرقة الوضيئة التي رسمها أهل

السنة والجماعة، وهذا ما وضحه علاّمتنا في رسالته الفريدة (صورتان متضادتان) لنتائج جهود الرسول الأعظم الدعوية والتربوية، وسيرة الجيل المثالي الأول عند أهل السنة والشيعة الإمامية.

١٥- التنويه بقضية فلسطين وتحريرها:

والركيزة الخامسة عشرة: هي (التنويه بقضية فلسطين) فقضية فلسطين ليست قضية الفلسطينيين وحدهم، ولا العرب وحدهم، بل هي قضية المسلمين جميعاً، فلا بد من إيقاظ الأمة لخطرها، وتنبيهها على ضرورة التكاتف لتحريرها، واتخاذ الأسباب، ومراعاة السنن المطلوبة لاستعادتها. وليست هذه أول مرة تحتل فلسطين من قبل أعداء الدين والأمة، فقد احتلت أيام الحروب الصليبية نحو مئة عام حتى هيأ الله لهذه الأمة رجالاً أفذاذاً، جددوا شباب الأمة بالإيمان , وإحياء روح الكفاح ومعنى الجهاد في سبيل الله، مثل نور الدين وصلاح الدين، الذي أشاد به الشيخ الندوي كثيراً في كتبه ورسائله.

ولا سبيل إلى تحرير فلسطين إلا بهذا الطريق، وعلى نفس هذا المنهاج: تجميع الأمة على الإسلام، وتجديد روحها بالإيمان، وتربية رجالها على الجهاد، وقد كتب في ذلك الشيخ مقالات ورسائل، أظهرها (المسلمون وقضية فلسطين).

١٦- العناية بالتربية الإسلامية الحرة:

والركيزة السادسة عشرة: هي (العناية بالتربية الإسلامية الحرة) التي لا تستمد فلسفتها من الغرب ولا من الشرق، إنما تستمد فلسفتها من الإسلام: عقيدة وشريعة وقيماً وأخلاقاً، في حين تقتبس وسائلها وآلياتها من حيث شاءت، في: إطار أصولها المرعية، فالحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها، وهو ينكر على التعليم القديم طرائقه في العناية بالألفاظ والجدليات، كما ينكر على التعليم الحديث إغفاله للروح وأهداف الحياة،

وينقل عن إقبال قوله: إن التعليم الحديث لا يعلم عين الطالب الدموع، ولا قلبه الخشوع!.

ولقد أولى شيخنا جانب التربية اهتماماً بالغاً، لأنها هي التي تصنع أجيال المستقبل، والتهاون فيها تهاون في الثروة البشرية للأمة، وقد نقل الشيخ عن بعض شعراء الهند: أن فرعون كان يكفيه عن تذبيح بني إسرائيل: أن ينشئ لهم كلية يكيّف عقولهم فيهاكمايريد، ولكنه كان غبياً!..

كتب الشيخ في ذلك رسائل، أبرزها: التربية الإسلامية الحرة، كما ناقش كثيراً من قضايا التربية في كتابه: كيف ينظر المسلمون إلى الحجاز وجزيرة العرب؟. كما شارك الشيخ بنفسه في هذا المجال علماً وعملاً.

١٧- العناية بالطفولة والنشء:

والركيزة السابعة عشرة: هي (العناية بالطفولة، والكتابة للأطفال والناشئين) بوصفهم رجال الغد، وصنّاع تاريخ الأمم. وقد التفت الشيخ إلى هذا الأمر الخطير، وهو في الثلاثينات من عمره. وكتب مجموعة من قصص النبيين للأطفال، في لغة سهلة، وأسلوب عذب، وطريقة شائقة، مضمناً إياها ما يجب من المعاني والقيم، ومن الدروس والعبر، ومن العقائد والمثل، حتى قال بعض العلماء: إنها (علم توحيد) جديد للأطفال، وأثنى عليها أديبٌ كبير كالشهيد سيد قطب الذي مارس هذا العمل أيضاً وبعد ثلاثين سنة أو أكثر عاد فأكمل قصص الأنبياء[١]، وختمها بسيرة خاتم النبيين (كما أنشأ مجموعة (قصص من التاريخ الإسلامي)[٢] للأطفال أيضاً، وقال: إنه يرجو أن ينال بهذه الخطوة تقدير رجال التربية، وأن تليها خطوات، تؤلف مجموعات.

---

(١) كتاب (قصص النبيين) للأطفال، نشرته مؤسسة الرسالة في بيروت، وأعادت نشره في عدة طبعات.

(٢) كتاب (قصص من التاريخ الإسلامي) للأطفال، نشرته مؤسسة الرسالة في بيروت سنة ١٩٩٢م، وأعادت نشره في عدة طبعات بالتعاون مع رابطة الأدب الإسلامي العالمية.

١٨- إعداد العلماء والدعاة الربانيين المعاصرين:

والركيزة الثامنة عشرة: هي العمل الدؤوب لإعداد العلماء والدعاة الربانيين، الذي يجمعون بين المعرفة الإسلامية، والرؤية العصرية، مع الغيرة الإيمانية والأخلاق الربانية، وهذا ما اجتهد الشيخ في أن يسهم فيه بنفسه عن طريق التدريس في (دار العلوم) ثم عن طريق تطوير المناهج، وعن طريق وضع المقررات والكتب الدراسية، ثم عن طريق الاشتراك في مجالس الجامعات والمؤسسات التعليمية في الهند، وفي غيرها، مثل المجلس الأعلى للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

وهو يرى أن المسلمين أحوج ما يكونون اليوم إلى الداعية البصير، والعالم المتمكن، الذي إذا استقضي قضى بحق، وإذا استفتي أفتى على بيّنة، وإذا دعا إلى الله دعا على بصيرة.

١٩- ترشيد الصحوة والحركات الإسلامية:

والركيزة التاسعة عشرة: هي ترشيد الصحوة الإسلامية، التي يشهدها العالم الإسلامي، بل يشهدها المسلمون في كل مكان،حتى خارج العالم الإسلامي، حيث توجد الأقليات والجاليات الإسلامية في أوروبا والأمريكتين والشرق الأقصى وغيرها. وهي صحوة عقول وقلوب وعزائم، ولكن يخشى على الصحوة من نفسها أكثر من غيرها. فتتآكل من الداخل قبل أن تضرب من الخارج.

وأعظم ما يخشى على الصحوة: الغلو والتشديد في غير موضعه، والتمسك بالقشور وترك اللباب، والاشتغال الزائد بالجزئيات والخلافيات، وسوء الظن بالمسلمين إلى حد التأثيم والتضليل، بل التكفير.

والشيخ بطبيعته رجل معتدل في تفكيره، وفي سلوكه وفي حياته كلها: فهو قديم جديد، وهو تراثي وعصري، وهو سلفي وصوفي، ثابت ومتطور، في لين الحرير، وصلابة الحديد. وهكذا يريد لجيل الصحوة أن يكون.

لم يقيد الشيخ الندوي نفسه بالالتزام بجماعة معينة، فقد بقي حراً، يشرف على الجماعات من خارجها، فيرى من نواقصها ما لا يراه أعضاؤها، ويبصر نقاط ضعفها، فيوجه وينصح، وينقد ويسدد، ولعل في ذلك خيراً. كما لا يدخر وسعاً في النصح لحكام المسلمين وزعمائهم ما وجد إلى ذلك سبيلاً. وخصوصاً أنه لا يطمع في شيء من أحد منهم.

٢٠- دعوة غير المسلمين:

وآخر هذه الركائز وهي المكملة للعشرين: دعوة غير المسلمين للإسلام، استكمالاً لما قامت به الأمة في العصور الأولى، وقد ساهم الشيخ في ذلك منذ عهد مبكر - وهو ابن الثانية والعشرين - بدعوة الدكتور أمبيدكر- زعيم المنبوذين إلى الإسلام، ورحلته إليه في بومباي.

وهو يرى أن فضل الأمة الإسلامية على غيرها في قيامه بواجب الدعوة إلى الله، وأن البشرية اليوم - رغم بلوغها ما بلغت من العلم المادي والتطور التكنولوجي - أحوج ما تكون إلى رسالة الإسلام، حاجة الظمآن إلى الماء، والسقيم إلى الشفاء، والأمة الإسلامية هي وحدها التي تملك قارورة الدواء، ومضخة الإطفاء.

تلك هي الركائز العشرون، التي قام عليها فقه الدعوة، عند الإمام الندوي، وكل ركيزة منها تحتاج إلى شرح وتفصيل، أسأل الله تعالى أن يعين عليه، ويوفق لإتمامه إنه سميع مجيب.



البحث الثالث

الشيخ أبو الحسن الندوي والسيرة النبوية

الدكتور عماد الدين خليل (*)

(*) كاتب وناقد عراقي، ورئيس قسم التراث في المتحف الحضاري في الموصل - العراق.

تشكل المقدمة التي كتبها الشيخ الندوي للطبعة الأولى من مؤلفه القيم عن (السيرة النبوية)[1] مفتاحاً، أو مدخلاً، لا بد من التوقف عنده قليلاً، لفهم ما الذي أراد أن يقوله أو يفعله وهو يؤلف كتابه هذا.

ومن أجل ذلك فإن من الضروري - كما يقول النقاد البنيويّون - (تفكيك النص) في محاولة للتأثير على العناصر الأساسية للمقدمة، باعتبارها مرتكزاً للعمل، ومبرراً لإخراجه في الوقت نفسه.

إن هذه العناصر تمنح القارئ - حتى قبل مطالعة فصول الكتاب- القناعة بمبرر ظهور بحث جديد عن السيرة، بل بضرورته. فليس الأمر - كما قد يتوهم البعض- مجرد رغبة مخلصة لإضافة كتاب جديد إلى قائمة المؤلفات الحديثة في سيرة الرسول ﷺ، وإن كانت هذه الرغبة في حدٍّ ذاتها تحمل على المستوى الديني، مبرراتها ودوافعها المقنعة. إنما بالنسبة لباحث متمرس كالأستاذ الندوي، فإن خطو ة كهذه ما كان لها أن تكون لو لم يعرف مسبقاً أنها ستقدم إضافة جديدة إلى مكتبة السيرة، إن على مستوى المنهج أو الموضوع. ويكفي أن يقع الاختيار على كتاب (الندوي) من بين عشرات وربما مئات من البحوث في السيرة، لنقله إلى الإنجليزية، وعدد من اللغات الحية، ومخاطبة العقل الغربي، وغير المسلم عموماً، بمفردات هذه السيرة ودلالاتها، مهندسة وفق منهج الندوي وأسلوبه، لكي يتبين أن هذا من بين عوامل عديدة متشابكة كالتي سنؤشر عليها، ما يجعل الكتاب إضافة جادة وليس تقليداً، أو تكراراً.

---

(١) المكتبة العلمية -المدينة المنورة - ١٣٨٥هـ.

طبع الكتاب سبع طبعات، كانت أولاها في القاهرة عام ١٣٩٧هـ- ١٩٧٧م، وثانيتها في بيروت عام ١٣٩٩هـ١٩٧٩م، وقد صدرت بمناسبة انعقاد (المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية) في محرم عام ١٤٠٠هـ - تشرين الثاني ١٩٧٩م وعني بطبعها ومراجعتها الأستاذ عبد الله بن إبراهيم الأنصاري رحمه الله، مدير الشؤون الدينية في الدوحة - قطر. ثم توالت بعدها الطبعات، حتى كان آخرها - مما وصل إليّ - الطبعة السابعة، المزيدة والمنقحة، التي أصدرتها دار الشروق في جدة عام ١٤٠٨هـ-١٩٨٧م، وهي الطبعة التي ستعتمد في هذا البحث، الذي كتب في الأساس ليكون مقدمة للطبعة التي تليها، وفق رغبة الشيخ الندوي التي نقلها إليّ مدير دار الشروق في جدة قبل عدة سنوات. ولكن ظروفاً فنيّة - على الأرجح - حالت دون ذلك.

ومهما يكن من أمر، فإننا لو قمنا بإعادة ترتيب العناصر الأساسية للمقدمة، في سياقات رئيسية من أجل وضع اليد على قيمة الكتاب، فإننا سنجد محاولة (الندوي) هذه تقوم على المحاور التالية:

أولاً: بيئة ثقافية ذات توجه إسلامي، ينشأ فيها المؤلف، فيجد نفسه منذ تفتح وعيه على الحياة، قبالة رسول الله ﷺ، قراءة ومعايشة وتعلماً.. وبمرور الوقت فإنه يسعى لتنمية خبراته عن السيرة بمزيد من القراءة والدراسة في المصادر (القديمة) والمراجع (الحديثة)، بالعربية وغيرها من اللغات. هذه المتابعة الفكرية التي لم تنفصل يوماً عن بطانتها الوجدانية، بسبب من عقيدة الرجل وانتمائه البيئي، وبالتالي فإنها بصيغتها الشمولية هذه، والقائمة على ما يسمى في العصر الحديث بـ (المعايشة التاريخية)، كانت أقدر على تحقيق المقاربة بين الندوي وبين عالم السيرة الخصب المؤثر، المتجذر في الغيب، والذي لم يقدر باحث من الخارج، أو من بعيد، على فهمه وإدراكه.

ويجب أن نضيف ها هنا أن الندوي من أجل استكمال أبعاد تجربة المعايشة هذه، ذهب أكثر من مرة إلى أرض النبوة، واجتازها شبراً شبراً، وكان وهو يعاين المعالم والمواقع ويدققها، يعيش في الوقت ذاته، المناخ الذي تخلقت فيه مفردات السيرة، ونسجت خيوطها.

ويكفي أن نرجع إلى كتاب (الطريق إلى المدينة) [1] لكي نتلمس طبيعة المعاناة الوجدانية التي حملها الرجل بين جنبيه وهو يتقلب هناك. إن هذه الخطوات كافة منحت الندوي، كما منحت قلة محدودة من الباحثين المعاصرين، السلاح الذي مكنهم من دخول الساحة، والقدرة على التعامل مع السيرة بأكبر قدر ممكن من النفاذ والصدق.

(١) المكتبة العلمية - المدينة المنورة - ١٣٨٥ هـ.

ثانياً: لم يقدم الندوي مباشرة علىَ الكتابة في السيرة، كمشروع شامل، قبل أن يمارس البحث في جوانب منها، كانت أشبه بخطوات على الطريق بتمرينات أولية، إذا صح التعبير، تمهيداً للعرض الجامع الأخير[١] وكان فضلاً عن هذا يمارس التعامل مع السيرة باتجاه موازٍ آخر: الاستمداد من مادتها الخصبة، وتعاليمها الغنية في الكثير من كتاباته ومحاضراته.

ثالثاً: بمرور الوقت يتبلور لديه إحساس متزايد بضرورة كتابة مؤلف شامل عن السيرة، وكانت تغريه بذلك، فضلاً عن المؤثرات الذاتية والثقافية والمنهجية آنفة الذكر، خصائص ومواصفات كان يرى، محقاً، أن أية دراسة في السيرة لا تستكمل أسبابها بدون حضورها جميعاً، فكيف إن غاب عامل أو أكثر عن رؤية الباحثين، كما حدث ويحدث لدى العديد من الذين تناولوا الموضوع من المستشرفين، والمنتمين لعالم الإسلام نفسه؟ كيف إن غاب معظمها أحياناً، ألا يتحتَّم في مقابل هذا أن تتعزّز المحاولات المنهجية التي تسعى جهدها لاستكمال الأسباب، وأن تزيد وتتكاثر، على الأقل لمجابهة هذا السيل من الأعمال الناقصة وموازنتها؟.

إذن (فالسيرة) التي ينادي الندوي بها ويسعى إلى تنفيذها في مؤلفه الذي بين أيدينا، يتحتم قيامها على الخصائص وصيغ العمل التالية:

١- أن تبنى بأسلوب عصريٍّ علمي، فما من شك في أن مناهج البحث المعاصر ومعطيات العلوم الحديثة، تقدم وسائل جيدة للمؤرخ ما كان يملكها الباحثون القدماء، وبالتالي فإنها تساعد على الاقتراب أكثر من طبيعة الحدث التاريخي وتركيبه وعرضه بالصيغ الأكثر دقة، ويبدو أن من فضول القول، أن

---

(١) انظر بشكل خاص (الطريق إلى المدينة) والفصول الأولى من كتاب (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) ورسالة (دراسة للسيرة النبوية من خلال الأدعية المأثورة المرويّة) التي نشرها المختار الإسلامي مترجمة إلى العربية، وكذلك كتاب (النبيّ الخاتم)، وهو على ما يبدو مجموعة مقالات صدرت عن المجمع الإسلامي العلمي في الهند بالعربية والإنجليزية عام ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤م.

نشير ها هنا إلى أن هذه المناهج وتلك المعطيات العلمية، ترتد في أصولها وبدرجة كبيرة إلى معطيات الحضارة الإسلامية في هذه المجالات، وهي مسألة أكّدها الباحثون الغربيون أنفسهم في العديد من مؤلفاتهم.

وبمقدور المرء أن يلقي نظرة على السياق المنهجي للكتاب، وعلى تهميشاته، لكي ما يلبث أن يتبين له ما يتميز به مؤلف الندوي من تركيز، وتماسك، ومتابعة للحدث التاريخي الأساسي، دون خروج إلى تفاصيل جانبية، وما يلتزم به من توثيق للمعلومات من خلال تثبيت، المصادر والمراجع، بأجزائها وصفحاتها، وبشرح المفردات وتحديد الأعلام. أما اللغة فهي سلسة واضحة، تسعى إلى التوصيل بأكبر قدر من الوضوح، وتتجاوز التعقيد والإغماض حتى في تعاملها مع النصوص المستمدة من المصادر القديمة. وقد يختلف المرء مع المؤلف في أمر واحد، وهو أنه لم يعتمد منهج التقسيم الموضوعي لأحداث السيرة ومفرداتها، وإنما التزم خط التسلسل الزمني للأحداث رغم تقاطعها النوعي من حين لآخر، وهو منهج اعتمده معظم الباحثين المعاصرين في السيرة.

٢- أن تعتمد على خير ما كتب في القديم والحديث، ذلك أن البحث الجاد هو بشكل من الأشكال، عمل نقدي انتقائي، لا يستسلم بسهولة لركام الروايات، ولا يغريه أحياناً التضخم في المادة التاريخية. ومعروف أن السيرة قد عانت الكثير بمرور الزمن من الإضافات في الخبر التاريخي، بموازاة ما كان يحدث في الحديث النبوي مما هو معروف، ومن ثم فإن أية محاولة لكتابة السيرة، أو إعادة كتابتها بشكل أدق، يتحتم أن تمارس اختياراً - مسؤولاً بطبيعة الحال، وليس مجرد هوى عشوائي - لخير ما قدمته المصادر القديمة عن السيرة من روايات موثقة أصيلة، ولأحسن ما طرحته الدراسات الحديثة من تحاليل ومواقف واستنتاجات قد تعين على إضاءة أشد تركيزاً لموضوعات

السيرة الخصبة المتشابكة. ولكن تبقى (المصادر الأولى الأصيلة) الأساس الذي يقوم عليه البناء، لأن المادة الأولية التي يقام عليها الصرح موجودة هناك، ويكفي أن نلقي نظرةً على قوائم المصادر التي اعتمدها المؤلف، لكي يتبين لنا أنه لم يكد يترك مصدراً أساسياً إلا ورجع إليه، وإن كان اعتماده المحوري كما هو واضح على (سيرة) ابن هشام، و(زاد المعاد) لابن قيم الجوزية، فضلاً عن كتب (الصحاح) [1].

٣- أن تحقق تطابقاً مدروساً بين مفرداتها كافة وبين ما جاء في القرآن الكريم والسنة الشريفة الموثقة. ذلك أن المصدرين الأخيرين يحملان الصدق المطلق في تعاملهما مع الواقعة التاريخية، سواء بالنسبة للمنظور الإسلامي، أو حتى بالنسبة للمنظور المنهجي العام الذي أخذ يدرك أكثر فأكثر مصداقية المعطى التاريخي للقرآن والسنة، وهذا يعنى بالمقابل، رفض واستبعاد كل ما يتعارض مع هذين المصدرين من مفردات أقحمت على السيرة عبر الزمن، فيما أصابها بالتضخم وأضاف إليها الكثير مما لم يكن فيها ابتداء. ولهذا السبب يدعو الندوي إلى تجاوز ما يسميه (الأسلوب الموسوعي الحاشد للمعلومات في غير نقد وتمحيص)، فإن بعض مؤرخينا القدماء، أسوة ببعض أدبائنا القدماء، كان مغرماً في سياق نزعة موسوعية جمَّاعة، إلى أن يضيف ويحشد وينوّع، مؤثراً الحصيلة الكمية على حساب التركيز النوعي، مفتقداً -أحياناً- المنهج النقدي، الانتقائي، الممحّص. وهذا المنهج يقتضي أول ما يقتضي الإحالة المنضبطة على كتاب الله وسنة رسوله (فضلاً عن اعتماد معطيات المناهج الحديثة، لما يمكن اعتباره إعادة للأمور إلى نصابها الحق

---

(١) وانظر على سبيل المثال الصفحات ٩٩-١٠٠ لمتابعة حديثه عن ميلاد رسول الله ﷺ دون تحميله بالمعجزات التي تضخمت بمرور الوقت، ودونما توثيق تاريخي كاف. وكذلك الصفحات ١٠٣-١٠٥ لمتابعة نقده وتفنيده لرواية لقاء الرسول ﷺ أيام رحلته الأولى إلى الشام بالراهب النصراني بحيرى. لكن هذا لا يعني -بداهةً- رفض المؤلف لكل الروايات التي تتجاوز المألوف، وتستمد مفرداتها من عالم الغيب (انظر مثلاً حادثة شقّ الصدر ص١٠٢).

فيما يتعلق بنسيج السيرة.. ويكفي أن يلقي المرء نظرة على هوامش الكتاب لكي تتبين له المساحات الواسعة التي اعتمد فيها المؤلف على المعطيات التاريخية عن السيرة في كتاب الله، وأحاديث رسوله عليه الصلاة والسلام.

ومن أجل ألا يتصور أحد، أو يخطر على باله، بأن دعوة الندوي هذه قد تقود العمل باتجاه الانسياق وراء الاتجاهات الغربية المعاصرة في دراسة السيرة، فإنه يدعو إلى رفض تقليد هذه الاتجاهات أو (الخضوع لكتابات المستشرقين وأقوال المشككين)[1]. وها هنا بصدد النقطة الأخيرة، فإن منهج البحث الغربي، في حقل السيرة بالذات، قد يتعامل بصيغ نقدية حادة ومبالغ فيها، تقود بالضرورة إلى التشكيك بالكثير من أهم وقائع السيرة ومرتكزاتها، خاصة إذا تذكرنا المنظور المادي للرؤية الغربية، أو العلماني على أحسن الأحوال، هذا المنظور الذي يرفض البعد الغيبي في تعامله مع التاريخ، أو يدفعه إلى الظل، الأمر الذي يلحق بالسيرة أذىً كبيراً.

أما الموقف (الإسلامي) الأصيل من السيرة (الموقف المتوحد الذي تتغلغل في نسيجه مشاعر الاحترام والتقدير والإعجاب والمحبة واليقين، والذي يجد في السيرة تعبيراً متكاملاً عن العقيدة التي ينتمي إليها)، فإنه يجد في الدراسات الاستشراقية (الخارجية) عن السيرة، تغرباً عن مسلّماته، وخروجاً صريحاً على بداهاته، وما يمكن اعتباره محاولات متعمدة لإصابة هذه المسلمات والبداهات بالجروح والكسور، وهي -لحسن الحظ- لن تفعل فعلها في يقينه، إلا في حالات معينة، بينما نجدها تدفعه في أغلب الحالات وأعمها إلى الاشمئزاز والنفور. هذا مع أن معالجة واقعة تمتد جذورها إلى عالم الغيب، وترتبط أسبابها بالسماء، ويكون فيها (الوحي) همزة وصل مباشرة بين الله سبحانه ورسوله الكريم، ويتربى في ظلالها المنتمون على عين الله

(١) انظر على سبيل المثال الصفحات ١٠٥-١٠٨ لمتابعة إحدى محاولاته النقدية للمعطيات الاستشراقية.

ورسوله، ليكونوا تعبيراً حيّاً عن إيمانهم، وقدوة حسنة للقادمين من بعدهم.. واقعة كهذه لا يمكن بحال أن تعامل كما تعامل الجزئيات والذرات والعناصر في مختبر للكيمياء، أو كما تعامل الخطوط والزوايا والمنحنيات والمساحات والكتل على تصاميم المهندسين، بل ولا حتى كما تعامل الوقائع التاريخية التي لا ترتبط بأي بعد ديني أصيل. إننا هنا بمواجهة تجربة من نوع خاص، وشبكة من العوامل والمؤثرات تند عن حدود مملكة العقل الخالص، وتستعصي على التحليل المنطقي الاعتيادي المألوف، ومن ثم فإن محاولة قسرها على الخضوع لمقولات العقل الصرف ومعطيات المنطق المتوارثة، لا يقود إلى نتائج خاطئة حيناً، ولا تستعصي عليه بعض الظواهر حيناً آخر فحسب، بل إنه قد يقوم بما يمكن اعتباره جريمة قتل بشكل من الأشكال، أو محاولة لتفحص الجسد البشري كما لو كان في حالة سكون مطلق، بعيداً عن تأثيرات الروح وتعقيدات الحياة.

(إن الدين، والغيب، والروح، لهي عصب السيرة وسداها ولحمتها، وليس بمقدور الحس أو العقل أن يدلي بكلمته فيها إلا بمقدار، وتبقى المساحات الأكثر عمقاً وامتداداً بعيدة عن حدود عمل الحواس وتحليلات العقل والمنطق.

إننا – ونحن نتعامل مع هذا المستشرق أو ذاك في حقل السيرة النبوية – يجب أن ننتبه إلى هذه المسألة مهما كان المستشرق ملتزماً بقواعد البحث التاريخي وأصوله. فإنه من خلال رؤيته الخارجية، وتغربه، وعلمانيته، أو ماديته، يمارس نوعاً من التكسير والتجريح في كيان السيرة ونسيجها، فيصدم الحس الديني ويرتطم بالبداهات الثابتة، وهو من خلال منظوريه العقلي والوضعي يسعى إلى فصل الروح عن جسد السيرة. ويعاملها كما لو كانت حقلاً مادياً للتجارب والاستنتاجات وإثبات القدرة على الجدل.

وهو في كلتا الحالتين لا يمكن أن يخدم الموقف الإسلامي الجاد من سيرة رسول الله ﷺ، أو يحتل موقفاً جاداً منها بوجه من الوجوه) [١].

فلم يكن الندوي مبالغاً إذن باعتباره هؤلاء الباحثين من المشككين الذين يتحتم أن نحذرهم، ونحن نسعى للإفادة من أعمالهم واستنتاجاتهم في هذا الموضوع أو ذاك من مواضيع السيرة ونحاول - بدلاً من ذلك - أن ننطلق من منهج إسلامي أصيل يضع النبوة والغيب موضعهما الحق.

٤- أن يكون النص، أو الرواية التاريخية، هو الحكَمُ، هو مادة البناء الأساسية.. أن يحرر من أية محاولة لتقييده بحكمٍ مسبق، أو إغراقه بالتعليل والتحليل على حساب الواقعة نفسها.. أن تترك له حرية التعبير عن ذاته، لكي ينطق بما كان فعلاً، لا بما يراد له أن يكون.

وبما أن النصوص التاريخية للسيرة على قدرٍ كبير من الاستيعاب للدقائق والتفاصيل، فيما لم يتهيأ بهذا الخصب والغنى لأية سيرة أخرى في تاريخ البشرية، وذلك بفضل الروافد العديدة التي قدمت هذه التفاصيل، وغذتها، وحمتها من الضياع في الوقت نفسه (وبخاصة القرآن الكريم، ومجاميع الحديث، وكتب السير والشمائل، فضلاً عن كتب المغازي والمدونات التاريخية).. فإن النشاط المحوري في كتابة سيرة رسول الله ﷺ ومهمته الأساسية تنصب على العرض والترتيب والتركيز، واعتماد منهج سليم في العمل، ولغة مناسبة قديرة على التوصيل بشروطه المعاصرة.

وبالتالي فإن التأليف في السيرة لا يجابه، بالضرورة وكما يؤكد الندوي، صعوبة وغموضاً، ولا يقتضي افتراضاً ولا قياساً، كما هوالحال في التراجم

---

(١) المستشرقون والسيرة النبوية: بحث مقارن في منهج المستشرق البريطاني المعاصر مونتغمري وات، لكاتب السطور، جزء ١ ص ١١٦-١١٧ من مجلد (مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية) الذي أصدرته المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ومكتب التربية العربي لدول الخليج في إطار الاحتفال بالقرن الخامس عشر الهجري (الرياض ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م).

الأخرى حيث تشح المادة، وتتضارب الروايات، وتنتشر الفجوات الزمنية، وتتناقض الشواهد التاريخية. ولعل هذا هو الذي يفسر ما يلحظه القارئ في سياق الكتاب من اعتماد متزايد على النصوص (الحرفية)، ذلك أن هذه النصوص إذ تستكمل شرطيها الأساسيين، وهما: الوضوح في العرض، والغنى في التفاصيل، لا تحتاج في كثير من الأحيان إلى بيانٍ أو إضافة أو تعليل.

ورغم ذلك كله فإن تقديم صورة مطابقة أمرٌ مستحيل، لاسيما وأننا نتعامل ها هنا مع ظاهرة النبوة ذات الارتباطات الغيبية المتشابكة، فكل ما كتب، وما سيكتب لا يعدو أن يكون محاولات للمقاربة في نهاية الأمر.

ولعل هذه المسألة الأساسية، إلى جانب عوامل ثانوية أخرى، هي التي جعلت المؤلف يتردد حيناً من الزمن في الكتابة عن الموضوع، لولا أن إلحاح المخلصين، وإلحاح الحاجة إلى مؤلف بالعربية يتعامل مع الأجيال الجديدة على مستوى المنهج واللغة، دون وقوع في سلبيات المحاولات المعاصرة، فضلاً عن تمرس الندوي في كتابة الترجمة التاريخية، هي التي تغلبت في نهاية الأمر، وجعلت الرجل يقدم على تنفيذ المشروع.

٥- هنالك أيضاً محاولة لتحقيق توازنات بين ثنائيات شتى وبخاصة:

أ- الموضوعية والوجدان الديني.

ب - العلمية والضرورات التربوية.

جـ - التوجه بالخطاب إلى المسلم وغير المسلم.

فلا يكفي، بالنسبة للمسألة الأولى أن يكون الباحث في السيرة (موضوعياً)، أي أن يتعامل معها من الخارج، بل لا بد أن تكون هنالك مساهمة على مستوى الذات.. مشاركة وجدانية تقرّب الباحث أكثر فأكثر من صميم

حدث تاريخي ليس كالأحداث، وتجعله ينفعل به ويقدر بالتالي طبيعته التكوينية.. نبضه وإيقاعه.. يلمس، قدر ما يستطيع، الخيوط التي نسجتها فيعرف مكوناتها [(١)]، وهذا بالنسبة للسيرة بالذات، ليس نقيض الموضوعية، بل هو مع الموضوعية ومن شروطها، فإن النبوة ليست تجربة وضعية لا يتحقق فهمها إلا بالانفصال والمعاينة من بعيد.. بالعكس.. إن الاندماج، والتأثر، والمعايشة الوجدانية لهي من ضرورات الإدراك والمقاربة، ومن ثم كان المؤرخ المسلم، المتسلح -طبعاً- بسلاح المنهج العلمي، أقدر من غير المسلم على خوض غمار التجربة وتقديم بحث أكثر أصالة وأعمق تعبيراً عن هذه الواقعة التاريخية المتفردة.

(لنحاول أن نقرب المسألة أكثر، إن العمل المعماري الكبير إذا أقيم على أسسٍ خاطئة فإنه سيفقد شرطين من شروطه الأساسية: التأثير الجمالي الذي يمكّنه من أداء وظيفته الوجدانية، والمقومات العلمية التي تمكّنه من أداء وظيفته العملية).

(إن البحث في (السيرة) بوجه خاص، ليستلزم أكثر من أية مسألة أخرى في التاريخ البشري هذه الشرطين، اللذين يمكن أن يوفرهما منهج متماسك سليم، يقوم على أسس علمية موضوعية لا تخضع لتحزب أو ميل أو هوى، ويمتلك عناصر جماليته الخاصة التي تليق بمكانة الرسول المتفردة ﷺ، ودوره الخطير في إعادة صياغة العالم بما يرد إليه الوفاق المفقود مع نواميس الكون والحياة. وقد كانت مناهج البحث الغربي (الاستشراقي) في السيرة تفتقر إلى أحد هذين الشرطين أو كليهما، وكانت النتيجة أبحاثاً تحمل اسم السيرة،

(١) انظر على سبيل المثال الصفحات ١٦٨، ٢٥٠-٢٥٢، ٣٢٧-٣٢٨، ٤١٦-٤٥١ لمتابعة بعض نماذج هذا النمط من التوازن.

وتتحدث عن حياة الرسول ﷺ، وتحلل حقائق الرسالة، ولكنها - يقيناً- تحمل وجهاً وملامح وقسمات مستمدة من عجينة أخرى غير مادة السيرة، وروح أخرى غير روح النبوة، ومواصفات أخرى غير مواصفات الرسالة).

(إن نتائجها تنحرف عن العلم، لأنها تصدر عن الهوى، وتفقد القدرة على مسامتة عصر الرسالة، وشخصية الرسول ﷺ ونقل تأثيراتهما الجمالية بالمستوى العالي نفسه من التحقق التاريخي، لأنها تسعى لأن تخضع حقائق السيرة لمقاييس عصرية تنسخ كل ما هو جميل، وتزيف كل ما هو أصيل، وتميل بالقيم المشعة إلى أن تفقد إشعاعها وترتمي في الظلمة، وقد تؤول إلى البشاعة) [١].

وتكاد المسألة الثانية التي يسعى الندوي إلى تنفيذها، أن تكون امتداداً للأولى، ولكن المعني بالتوزان هذه المرة هو القارئ وليس الموضوع، فإلى جانب ضرورة التزام الجانب العلمي بالبحث في السيرة فإن هناك ضرورة لا تقل أهمية هي الضرورة التربوية.. أن تقدم السيرة بصيغة عمل ذي رسالة تربوية، تملك قدرتها على التأثير في القارئ، وكهربته بتيار الرسالة القادم من السماء.[٢] وها هنا يمكن أن يكون اعتماد منهج حيوي مؤثر يجانب الجمود والجفاف، ويتشكل بالمؤثرات التي مرت بنا عبر الفقرات السابقة، مسألة ضرورية لتحقيق الهدف، وها هنا أيضاً يرفض الندوي ما يسميه (بالتجميل الخارجي أو التزيين الصناعي) لأن هذا في نهاية الأمر نقيض للجمال الباطني ولقوة التأثير وصدقه.

يبقى التوزان الثالث وهو التوجه بالخطاب إلى المسلم وغير المسلم، وهي مسألة محسومة بمجرد أن نتذكر إلحاح الندوي على اعتماد مناهج البحث

(١) المستشرقون والسيرة النبوية لكاتب المقدمة جزء ١ ص ١١٧.

(٢) انظر على سبيل المثال الصفحات ١٤٩-١٥٠، ٢٢١-٢٢٢، ٢٤١-٢٤٢، ٣٨٥ لمتابعة بعض نماذج هذا النمط من التوازن. وانظر كذلك صفحة ٦ من تقديم الطبعة السابعة، المزيدة والمنقحة للكتاب.

الحديث وأدوات التوصيل المعاصرة.. فإن هذا بحد ذاته يعقد جسراً بين مفردات السيرة وبين القارئ الحديث، مسلماً كان أم غير مسلم.

ولعل اختيار كتابه هذا لكي يترجم إلى الإنجليزية، وعدد آخر من اللغات الحية، إنما كان اقتناعاً بقدرته على التواصل مع غير المسلمين.(١)

٦- يرى الندوي ضرورة تسليط الضوء على البيئة التي ظهر فيها الرسول ﷺ وتشكلت سيرته على أرضيتها.. البيئة ببعديها التاريخي والجغرافي، وبامتداديها المحلي والعام (ويمكن أن تكون الخرائط الدقيقة التي أرفقت بالكتاب امتداداً لهذه الضرورة).

ويكاد يكون مؤلف الندوي، من بين قلة من المؤلفات الحديثة، التي تناولت السيرة، من أولى اهتماماً ملحوظاً بهذه المسألة، وخصص لها مساحات واسعة في كتابه (٢).

ورغم أن معطيات السيرة، في المنظور الإسلامي، تتجاوز في نهاية الأمر حدود الزمن المرحلي والمكان المحدود، باتجاه كل زمن وكل مكان، ورغم أنها، في هذا المنظور نفسه، تشكلت في جانبها الخاص بظاهرة النبوة، بعلم الله اللدني الشامل الذي يعلو على نسبيات الجغرافيا ومتغيرات الحركة التاريخية، فإنها -أي السيرة- وفي المنظور الإسلامي كذلك، ابنة بيئتها، وليدة زمنها وجغرافيتها، إذ لا يمكن بحالٍ فصل نسيجها عن ارتباطه المتشابك بالبيئة.. بل

(١) انظر على سبيل المثال الصفحات ٢٦٣-٢٦٤، ٣١٧، ٣٧٣-٣٨٣، ٤١١-٤١٥، وانظر بشكل خاص المحاضرة التي اختتم بها الكتاب بعنوان (فضل البعثة المحمدية على الإنسانية ومنحها العالمية الخالدة) ص ٤٥٣-٤٨٦ والتي سبق أن ألقاها في ربيع عام ١٩٧٥ بمدينة لكهنؤ بالهند، وحضرها جم غفير من المسلمين وغير المسلمين، للاطلاع على تفنيذ الندوي لهذه المسألة في كتابه.

(٢) انظر الصفحات ٢٣-٩٨ حيث يفرش المؤلف تحليله للبيئة الجاهلية لدى ظهور الإسلام عبر حلقاتها الثلاث: العالم، الجزيرة العربية، ثم مكة، على هذا المدى الواسع من الكتاب. وانظر -كذلك- الصفحات ١٥٤-١٥٨، و١٧١-١٩١ للاطلاع على طبيعة تحليله للبيئة المدنية (في يثرب). ولا ينسى المؤلف أن يعرف القارئ بالملوك والحكام الذين كتب إليهم رسول الله ﷺ رسائله المعروفة، يدعوهم فيها إلى الإسلام انظر الصفحات ٢٩٠-٢٩٩ .

إننا لو تابعنا مفردات السيرة واحدة واحدة لرأيناها لا تكاد تتحول إلى العام إلا بعد اجتيازها (الخاص) وتعاملها معه. وسنكون غير علميين بالمرة لو أننا أغفلنا هذا الارتباط بحجة عالمية الرسالة وديمومتها، وعدم تقيدها النسبي أو المحدود، وسنقع كذلك في المظنة التي أسرت الفكر الغربي وهي النظرة أحادية الجانب، تلك التي تتشنج على مساحة محددة من الظاهرة، وتتشبث بها دون أن تقلبها على وجوهها لمتابعة الجوانب الأخرى. وها هنا بصدد السيرة، فإننا يجب أن نولي اهتماماً للوجهين معاً: العام والخاص، المطلق والبيئي، لأن إغفال الجانب الأول سيقودنا إلى العلمانية، وربما إلى الرؤية المادية، ولأن إغفال الجانب الثاني سيجرنا إلى المثالية بمفهومها التجريدي المنفصل عن الواقع والأرضية.

وإننا بمجرد أن نلقي نظرة سريعة على أسباب النزول في القرآن الكريم، فلسوف نرى بأم أعيننا كيف أن كثيراً من التعاليم والقيم القرآنية، تخلقت من تفاصيل بيئية صرفة.. من حدث تاريخي عابر أو تحدٍّ جغرافي محدود.. من تجربة هذا الرجل أو ذاك، ومن محنة هذه الجماعة أو تلك.. من سؤال أو اقتراح قد يتقدم به هذا الصحابي أو ذاك، فيما يعايشونه يوماً بيوم وخطوة بخطوة.. لكن هذه التعاليم والقيم لم تأسرها موضوعات البيئة ونسبياتها، ولا أريد لها أن تكون كذلك، إذ إنها سرعان ما تجاوزت ظروف تشكلها الخاصة صوب العام.. صوب المطلق، بعيداً عن متغيرات الجغرافيا والتاريخ، لكي تتعامل مع الإنسان في كل زمن ومكان.

ولقد شاء الله الذي هو سبحانه أعلم ممن خلق ألا يصوغ القيم والتعاليم في كتابه الكريم، وسنة نبيه عليه أفضل الصلاة والسلام، في الفراغ أو من الفراغ، إنما جعلها سبحانه تتشكل في البيئة، في الجغرافيا والتاريخ، وبتبادل واقعي

منظور بين الطرفين لكي تكون أشد حضوراً وأعمق تأثيراً. وذلك مذهب خطير من مذاهب التربية العقيدية عبر التاريخ. ونحن نعرف، على سبيل المثال فحسب، لماذا لم تتنزل المقاطع القرآنية الخاصة بمعركة أُحد.. المقاطع المترعة بالقيم والتعاليم، إلا بعد هزيمة أُحد مباشرة، وليس بعيداً عنها أو بدونها.. وقل مثل ذلك عن حشود كثيفة أخرى من مفردات السيرة.

إذن فإن سعي الندوي لإضاءة البيئة التي تشكلت فيها هذه المفردات، وتأكيده على تأثيراتها المتشابكة في الحديث النبوي، أمرٌ بالغ الأهمية، و هو يشكل في الواقع واحدة من أهم الإضافات التي تقدمها دراسته إلى حقل السيرة، بل واحدة من أهم مبررات إخراجها إلى الوجود..



البحث الرابع

قضايا المسلمين في الهند
ومساعي الشيخ أبي الحسن علي الندويّ في حلّها

الشيخ/ محمّد الرّابع الحسنيّ الندويّ (*)



(*) نائب رئيس رابطة الأدب الإسلامي العالمية. ورئيس مكتب شبه القارة الهندي للرابطة. وعميد كلية اللغة العربية والدعوة لدار العلوم في ندوة العلماء بلكهنؤ في الهند.

لقد ورث سكّان الهند من الأوضاع التي كانت فيها قبل الاستقلال، حزازات طائفيّة، وذلك بتأثير السياسة الاستعمارية إضافة إلى كتب التاريخ التي استكتبها الاستعمار، وأسهم في ذلك بعض المؤلفين المنطوين على حزازات طائفية، ثم بتأثير الإعلام المعادي للإسلام والمسلمين، فحدثت بسببها مشكلات وأزمات، هددت سلامة المسلمين وحسن صيتهم، رغم أن المسلمين مع كونهم أقليّة في البلاد، كانوا ممتازين بفكرهم النيّر، وبثقافتهم التي استفادت منها أغلبية البلاد تلقائياً، وتغيرت بها أوضاع اجتماعيّة وثقافية مختلفة، وتحولت من الحالة البدوية المتخلفة إلى الحالة المدنيّة المهذّبة، وكانوا محافظين على شخصيتهم الإسلامية، وامتيازهم الثقافي فيها، لكن الحكومة الاستعمارية كانت تراهم خطراً على نفسها، لأنها انتزعت منهم الحكم في البلاد، فلم تكن تريد أن تبقى للمسلمين قوة أو شوكة في البلاد، فكانت تنظر إليهم نظرة قاسية غير متلائمة مع حقهم، أفادت من ذلك الأغلبية الهندوسية، وناصرها الاستعمار، وقام بالتعاون معها في نهضتها العلمية والتعليمية، ولما حصل الاستقلال كان للأغلبية حق سياسي أكبر على أساس الأصوات، فاستخدمت هذا الحق في معاملتها معاملة غير متكافئة بين أبنائها وبين المسلمين، وأدى ذلك إلى بروز مشكلات بين الطرفين، منها ما كانت دينية، ومنها ما كانت تعليمية، ومنها ما كانت ثقافية، ونادى المتشددون الطائفيون الهندوس – بعدما قبض أبناء دينهم الحكم في البلاد– ببخس حق الأقلية مبررين ذلك بحصول المسلمين على رقعة من الأرض وهي باكستان، فاقترحوا عليهم أن يذهبوا إليها، ويتركوا الهند للهندوس، ونادوا بتهنيد البلاد تهنيداً دينياً وطائفياً خالصاً، فطالبوا بأن تهدم المساجد التي بنيت في عصر حكم المسلمين في البلاد، وأن تغيّر الملامح الثقافية التي وجدت منذ حكم المسلمين، وطالبوا بتقليص حجم المسلمين السياسي، مستدلين بأنهم نالوا سهمهم السياسي والوطني بنيلهم للسلطة في باكستان، فليس لهم إذن حق في هذا

الجزء من البلاد، وطالبوا بالحكم الديني الهندوسي، وأن تكون الهندوسية غالبة وعالية فوق كل شيء، وسعوا أن يكون التعليم ذريعة لتهنيد الأذهان وإبعادها عن معرفة الإسلام، وأن تغلب عليها العقائد الهندوسية، والثقافة الهندوسية، والتراث الهندوسي، وأن لا يبرز فيها طابع إسلامي، وطالبوا المسلمين بأن يكونوا منقطعين إلى الوفاء للتراث الهندي، ولا يحملوا في قلوبهم حباً لبلاد العرب أو المسلمين، وبخاصة بلاد باكستان، وأن يتركوا الاحتكام إلى الشريعة الإسلامية في الأحوال الشخصية والقضايا المدنيّة، وطالبوا بمنع الدعوة إلى الإسلام.

هذه المطالب التي جاءت من قبل المتطرفين الهندوس، لم يوافق عليها حزب المؤتمر الوطني الحاكم، لأنه كان قد وافق على دستور علمانيّ للبلاد، يسمح لأبناء الهند باختلاف طبقاتهم وأديانهم وثقافتهم أن يعملوا وفق دينهم وثقافتهم، كل في محيطه الخاص غير متدخلين في محيط غيرهم، وكان قادة الحزب الحاكم من الهندوس والمسلمين والسِّيخ والنصارى جميعاً، ولكن أبناء الشعب الهندوسي بما فيهم موظفو الحكومة، وأصحاب العلم والتعليم، وغيرهم كانوا متأثرين بالدعوات الهندوسية المتطرفة، ولم تكن الحكومة المركزية تريد مخالفتهم لوحدتهم ووئامهم الديني معهم، فكانت تتهاون في إخضاعهم للحق إذا كان هذا الحق في غير مصلحتهم الهندوسية، وكانت ترفض أهمية المسلمين إلا في الانتخابات لأن أصوات المسلمين تحمل تأثيراً بسبب عددهم الضخم في البلاد، فيتجامل القادة ورجال الحكم مع المسلمين في زمن الانتخابات، ولكن الأغلبية هي من الهندوس وأكثر قادة البلاد منهم، فتهاونت الحكومة في مناصرة المسلمين كل المناصرة، بل ومال بعض أعضائها مع القوى المتطرفة، وبذلك نشأ جو اجتماعي وسياسي غير ملائم للمسلمين، ولذلك كله رأى رجال الفكر الصحيح، والشعور الحي من المسلمين، أن يقوموا بمعالجة شؤونهم بأنفسهم، ولما كان المسلمون في الهند قد بدؤوا يواجهون

الجفاء والضغط من قبل الاستقلال تحت حكم الإنجليز -كما ذكرنا فيما سبق- فبناءً على ذلك بدؤوا جهدهم واهتمامهم بمعالجة قضاياهم المهمة من قبل الاستقلال، وكانوا قد اهتموا بصورة خاصة بجانبين اجتماعيين، أولهما بذل السعي لإنهاء الاحتلال الإنجليزي الغاشم، واستصحبوا الهندوس أيضاً في هذا الجهد الوطني، وثانيهما جانب التعليم الإسلامي الذي أنشؤوا له المدارس الإسلامية.

أما بالنسبة لتحرير البلاد، فقد كان في مقدمة المكافحين لهذا الهدف، من المسلمين: العلماء المخلصون، لأن شعورهم ببقاء إسلامية أمتهم كان أشد، ولكنهم رغم تباعد ثقافتهم الإسلامية عن الثقافة الهندوسية استصحبوهم في الجهد، واستمروا على ذلك إلى ما بعد الاستقلال، ولذلك لما حدثت فجوة شديدة بين الأغلبية الهندوسية والأقلية المسلمة، استخدموا حق زمالتهم مع قادة حركة التحرير الهندوسية لتخفيف التطرف الهندوسي، واستعملوا هذا الحق في تمثيل المسلمين للحفاظ على حقوقهم الوطنية كمواطنين وحقوقهم الدينية حسب الدستور العلماني، واستمرت جهودهم من خلال جماعات وأحزاب ألّفوها لهذا الغرض، مثل جمعية علماء الهند، وجمعية علماء الإسلام، والرابطة الإسلامية، وذلك قبل الاستقلال، وأنشؤوا أحزاباً وجماعات بعد الاستقلال مثل: مجلس مشاورت الإسلامي، والمجلس التعليمي الديني، ومجلس ملت، وأخيراً ملي كونسل، وذلك بجنب أحزاب سياسية مختلفة، منها ما هي خاصة بالمسلمين، ومنها ما هي مشتركة بين الطوائف، وهي تحت الفكرة العلمانية تحت قيادة الساسة العلمانيين.

لقد رأى علماء الدين الإسلامي ورجال التعليم المسلمون، أن إنقاذ أمتهم من الذلة أولاً، ومن الانحراف الديني ثانياً، ومن التخاذل والفناء ثالثاً، لا يمكن إلا إذا قاموا هم ببذل جهود مخلصة في ثلاث جبهات: جبهة تعليمية، وجبهة

المحافظة على ثقافة المسلمين وشخصيتهم الإسلامية، وجبهة تحرير البلاد من الاستعمار، لأنهم كانوا يواجهون بصورة خاصة خطراً كبيراً في هذه الجبهات، وبخاصة بعد فشل ثورتهم ضد الإنجليز، فقام الإنجليز بعمليات انتقامية ضدهم، وأرادوا قمعهم في مختلف مجالات حياة العز والقوة، وقام قادة المسلمين بمقاومة القمع، أما في الجبهة التعليمية فقد انقسم زعماء المسلمين إلى أقسام: قسم منهم أراد الحفاظ على علوم الدين والشريعة الإسلامية، لأنها كانت الهدف الأكبر للقمع الذي يمارسه الأعداء، فإذا لم يَسْعَ المسلمون ليحافظوا عليها، فلا يمكن بقاء المسلمين على دينهم ما دامت قوى العداوة نشيطة ومغرية.

فهؤلاء أسسوا مدرسة دينية إسلامية باسم دار العلوم بديوبند على العقيدة السنيّة الصحيحة، معتمدة على سنة رسول الله ﷺ، قام بإنشائها رجال ربّانيون صالحون من المسلمين، وكان من نتيجة إخلاصهم أن نجح عملهم هذا نجاحاً كبيراً جداً، فقد قامت هذه المدرسة بتخريج آلاف من العلماء والدعاة الذين انتشروا في الهند، وقاموا في مختلف أنحائها بأعمال الدعوة، والتعليم، والإفتاء، وإصلاح العقيدة، والتوجيهات الدينية، وفي نفس الوقت قام رجال من مسؤولي هذه المدرسة بالكفاح الوطني، كذلك لتخليص الهند من العدو المستعمر، فغضب عليهم الإنجليز، وعاملوهم بالأسر والاضطهاد.

ورافق إنشاء هذه المدرسة إنشاء مدارس متعددة من نفس الطراز، بعضها من نفس الخصائص، وبعضها الآخر بخصائص أوفق للعصر، ومن أهمها: ندوة العلماء بلكهنؤ، فإذا كانت دار العلوم بديوبند قد اتخذت العلوم الإسلامية من الفقه والحديث والتفسير قاعدتها التعليمية، جعلت ندوة العلماء قاعدتها التعليمية مواكبة العلوم الإسلامية لمقتضيات الدعوة الإسلامية، ودعت إلى

الجمع بين القديم الصالح والجديد النافع من المعارف وأسباب الحياة، واتبعت هاتين المدرستين مدارس إسلامية كثيرة، وأفادت كل منها في ميدانها من الميدانين، وأثرت المدرستان في الشعب المسلم الهندي تأثيراً كبيراً، وأنقذتاه من الذوبان في أوضاع الضلال والانحراف.

وكان من تأثير المدرستين أن ظهر علماء نابغون أقوياء في العمل الإسلامي وخدمة الشعب المسلم الهندي، وخرجتا شخصيات فكرية ودعوية واجتماعية قامت بمواجهة الظروف السيئة، وإخضاعها لما فيه مصلحة الإسلام والمسلمين.

وكان من هذه الشخصيات البارزة، من أبناء جامعة ندوة العلماء الفكرية والتعليمية، سماحة الأستاذ الكبير السيد سليمان الندوي رحمه الله تعالى، والعلامة الكبير عبد الباري الندوي رحمه الله في السابق، ويمثلها اليوم سماحة الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي، الذي يخدم الإسلام والأمة الإسلامية في مجالات عديدة من الحياة، منها مجال التربية، ومجال الأدب والعلم، ومجال الدعوة والإصلاح، ومجال صيانة الشريعة الإسلامية من التغيير، ومجال دعوة غير المسلمين إلى الإسلام، ومجال السياسة الهادفة بطرق الحوار والإقناع.

ولقد أحرز سماحته انتصارات بالغة في هذه المجالات، بحكمته ورزانته وإخلاصه وزهده في الدنيا، وتأثر به أناس ذوو مكانة وأهمية في البلاد، حتى الزعماء الهندوس، وقد غير عدد منهم رأيهم المعارض للمسلمين، رغم شدة إصرارهم عليه سابقاً.

وأصبحت لكل ذلك شخصية سماحته شخصية يثق بها الأكثرية، حتى المعارضون له في الرأي، وإذا حضر حفلةً أو اجتماعاً يرفعون منزلته، وقد

يقدمون إليه رئاسة الحفل، وهو من علماء الشريعة الإسلامية، ومن المحافظين في الدين والربانيين من المسلمين، وشخصيته موقرة حتى بين رجال الأدب والعلم والسياسة المختلفين عن فكرته ورأيه كذلك.

لقد كانت الخصائص التي تربى عليها سماحته هي أولاً سمو النفس وصفاؤها، والرقة والرحمة في السلوك مع الناس، فقد كان والده العالم الجليل تقيّاً صالحاً، وكانت أمه من أعظم الصالحات بين أقرانها من أسرتها، فكانت تؤكد لأبنائها على السيرة الحسنة والمحافظة على الدين، وتوفي والد سماحته وهو ابن تسع سنين، فربته والدته على السلوك الإسلامي الممتاز، والسيرة الإنسانية الطيبة، وألزمته بأن يكون على طريق السلف الصالح، وكان والده عالماً وأديباً ومؤرخاً ومؤلفاً، وكان شقيقه الأكبر جامعاً بين الدراسات العصرية من علوم وثقافة، والدراسات الإسلامية من علوم الدين، كان حاملاً لشهادة الطب العصري والطبِّ البلدي، وحائزاً لشهادة الدراسات العليا في العلوم الدينية، كان له بصفته الشقيق الأكبر تأثير على تربية سماحة الشيخ أبي الحسن الندوي وتعليمه، فكل ذلك كان له أثر في صياغة سيرته وسلوكه وثقافته ومنهج عمله في الحياة، حتى اشتهر في الناس بفهمه للأوضاع واختياره لأفضل السبل لمعالجتها، من توجيه وسلوك وعمل، ونال أيضاً الاحترام اللائق من أصحاب العلم والدين.

ودخل سماحته في حياة الكفاح والعمل، فأصبح عالماً وأديباً وأستاذاً في جامعة ندوة العلماء، التي كان درس فيها على منهج الجمع بين القديم الصالح والجديد النافع، واختار سماحته هذا المنهج في ممارسته للدعوة والتوجيه الفكري، والعمل التربوي بمعرفته للعصر، وأسباب تقدمه، والإسلام وقيمه وواجباته، فسار على هذا المنهج في تربيته لتلاميذه، بتعريفهم بالفكر المعاصر والمذاهب المعاصرة، وأراد إنشاء الشعور بالاعتزاز بالإسلام وعلومه في

نفوسهم، أما في مجالات عمله فقد جمع بين مهنة التعليم في جانب، وعمل الدعوة بلسانه وقلمه في جانب آخر، فاشتهر بخطبه ومحاضراته في أنحاء البلد، حتى تجاوزت شهرته في ذلك إلى خارج الهند، بخاصة البلدان العربية، مع اشتهاره بتأليفه وكتاباته في اللغتين الأرديّة لغة وطنه، والعربية لغة المسلمين الأولى، وكان قادراً مجيداً فيهما، مع معرفته للغة الإنجليزية قراءة وتحدثاً.

اختار سماحته ثلاثة مجالات لعمله الاجتماعي، وهي: **أولاً**: تربية النفوس على الأخلاق الكريمة، وتحسين مستوى التعليم في المسلمين وتوسعته، **وثانياً**: نصرة القضايا الإسلامية في بلده العلماني، **وثالثاً**: تقريب الفئات المبتعدة عن السيرة الصالحة، والمعادية للإسلام والمسلمين إلى فهم الإسلام، ووضع المسلمين الأصيل.

ففي المجال الأول قام بتربية النفوس على الصلاح بمؤازرة التعليم بجانبيه العصري والديني، في المعاهد والجامعات للمسلمين، منها: جامعة (علي كراه-عليكرة) للعلوم العربية، فقد كانت هذه الجامعة أخص الجامعات بالمسلمين، وكانت رفيعة المستوى، وعديدة الأقسام، وقد واجهت منذ استقلال الهند صعوبة في المحافظة على صفتها الإسلامية، بسبب الإشراف الحكومي عليها، فقام المسلمون بمكافحة الضرر الذي كان يلحق بها، فكان سماحته متعاوناً مع المدافعين عنها بتأثير شخصيته التي كان عدد من أصحاب السلطة العليا مقدّرين لها، لأسباب لها أهميتها، كما رأس سماحته حركة التعليم الديني لطلبة الصفوف الابتدائية، التي هي قاعدة المراحل التعليمية كلها، ومنها ينتقل في نفوس الطلبة الأثر الذي تلقوه فيها، وأنشأت هذه الحركة آلافاً من المدارس الجانبية للتعليم الديني، كانت تغذي الأطفال واليافعين المسلمين بالمعاني الإسلامية، التي تحفظهم من ذوبان شخصيتهم في التيار الثقافي

العلماني أو المشرك السائد في مدارس البلاد، وبتأثير هذه الحركة نجا مئات الآلاف من أطفال المسلمين من ذوبان شخصيتهم الإسلامية، كما اعتنى سماحته بنشر المنهج التعليمي الجامع بين علوم التراث الإسلامي ومواد التعليم العصري، وبخاصة المواد الاجتماعية مع المهارة في التعبير، والأخذ من الحضارة الغربية وسائل النهوض المفيدة، والاعتماد على التوفيق الإلهي والمعرفة الدينية، وتبلورت مساعيه في ندوة العلماء، فتخرج منها جيل بل جيلان من أصحاب الكفاءة العلمية، والقدرة الأدبية، والعمل الدعوي، كما ظهرت لسماحته كتب قيمة ذات تأثير أخّاذ للنفوس.

أما في المجال الثاني، وهو نصره للقضايا الإسلامية في بلده العلماني، فقد قام في هذا المجال بالدفاع عن الأحوال الشخصية الإسلامية، التي كانت ولم تزل باقية محفوظة للمسلمين تحت نصوص الدستور الهندي، الذي كان يسمح لكل طائفة بالعمل في مجالها الخاص بدينها وثقافتها، ولكن أصحاب السلطة كادوا ينسون أو يتناسون حق المسلمين في هذا، فأنشأ علماء المسلمين ووجهاؤهم في الهند -وكان سماحته في مقدمتهم- مجلساً إسلامياً استشارياً عاماً للهند، جمع فيه جميع الفئات المسلمة في البلاد، فكان ذلك اتحاداً فريداً للمسلمين، فقام بجهد كبير، وذلك بالحوار والاتصالات حتى نجح في صيانة أمن المسلمين والمحافظة على صفتهم الإسلامية، وقاموا عن طريقه بالدفاع عن بعض جوانب الشريعة الإسلامية، التي تصدى لإلغائها المتطرفون الهندوس، ووافقهم في ذلك قضاتهم بمحكمة النقض العليا، فتصدى لهذا الحادث الفاجع المجلس الإسلامي، وكان ترجمانه الأكبر ورئيسه هو سماحة الشيخ الندوي لدى رئيس وزراء الهند، وقد استطاع هو وزميله الأمين العام للمجلس، إقناع صاحب الحكم في البلاد بجدارة الحكم الإسلامي في معاملة الزوج المسلم مع زوجته المطلقة، فقام رئيس الوزراء بالاستجابة لطلبه بتعديل

مادة ذات صلة بهذا الجانب من الأحوال الشخصية في الدستور الهندي، حتى تصبح فسحة للمسلمين للعمل بشريعتهم، فكان ذلك نجاحاً باهراً فريداً للمسلمين، وهم أقلية مكروهة في البلاد، أمام أغلبية قاهرة معارضة للمسلمين في هذه القضية، ولا يزال المجلس تحت رئاسته يؤدي دوره في كل ما يواجه من صعوبات في طريق عمل المسلمين في الهند بشريعتهم الإسلامية.

أما في المجال الثالث تقريب الفئات المبتعدة عن السيرة الصالحة، فدأب سماحته منذ شبابه على عمل الدعوة والإصلاح، وأضاف إليه أخيراً سعيه لإصلاح الفساد العملي في حياة المسلمين، وانحرافهم عن الحياة الإسلامية السليمة، ومنها: التبذير والطقوس الجاهلية وتقليد غير المسلمين في الأحوال الشخصية، ولقد أثّر سعيه وسعي زملائه من العاملين في هذا المجال تأثيراً كبيراً، فكم من حفلات الزواج عقد المتزوجون فيها زواجهم في إشراف سماحته بدون أي تبذير وطقوس جاهلية، وكم من الناس تركوا طقوساً غير إسلامية، وأصبحوا ملتزمين بالتوجيهات الإسلامية للحياة.

أما في شأن المعادين للإسلام والمسلمين من هندوس وغيرهم، فقد قام سماحته بحركة (رسالة الإنسانية) يعقد لها اجتماعات لأبناء الطبقة المتعلمة من الطائفتين المسلمة وغير المسلمة، ويدعو فيها الحاضرين إلى إصلاح نفوسهم وسلوكهم في الحياة، وإخضاعها للأخلاق الإنسانية الرشيدة، مما لا يختلف في خيرها وصلاحها دين عن دين آخر، وهي مثل: خدمة الضعفاء والمحتاجين، والتعاون على طلب الخير للجميع، والسعي لإنقاذ الناس من الوقوع في فساد ودمار، ومن نشر السلام والوئام فيما بين أبناء الوطن الواحد، والمواطنين بعضهم مع بعض.

لقد عقد سماحته اجتماعات كبيرة في مدن هندية مختلفة، وساعده في ذلك تلاميذه وإخوانه ممن أحبوه وصاحبوه، وبعض ذوي الإحساس الإنساني

من الطبقة المتعلمة من غير المسلمين، وأثر ذلك على نفوس عدد لا بأس به من المتعلمين الكفّار، حتى بعض القضاة والحكام منهم، واعتنق عدد منهم الإسلام بعدما انشرحت صدورهم إلى فهم دعوة سماحته والدين الذي يتبعه، وقرؤوا مؤلفاته والكتب الشارحة للإسلام، ويرى سماحته أن هذه الطريقة هي الطريقة النافعة في بلد يختلط فيه المسلمون مع غير المسلمين، وهي طريقة الحوار والتعريف بالإسلام، ومعاملة الأجانب معاملة الأخوة والمحبة على الأساس الإنساني الكريم.

ولقد استطاع سماحته بذلك وضع خطة مؤثرة ناجحة لتقريب النفوس إلى الإسلام، وإذابة مشاعر الحقد والعداوة في نفوس المعادين للإسلام، وإيناسها بالإسلام، وبذلك يكسب المسلمون في البلد الكافر صداقة أعدائهم معهم أو ذوبان عداوتهم ضدهم على الأقل.

ويرى سماحته أن الحوار البليغ المؤثر يفعل في النفوس ما لا يفعله غيره إلا نادراً، ويرى أن الاتصال بالمعارضين بالحوار الحكيم معهم يأتي بنتائج باهرة، ويرى في معاملة الحكام الجائرين أو المعادين للمسلمين أن مواجهة مخالفتهم وعداوتهم بأسلوب المعاداة يجعلهم أكثر نفوراً وابتعاداً، وقد تلجئهم المجابهة إلى اختيار سبل الظلم والقمع أكثر، فخير منهج في ذلك هو القول اللين والمعالجة الحكيمة، اتباعاً لقول الله تعالى لسيدنا موسى وأخيه هارون عليهما السلام عندما أمرهما بمخاطبة فرعون: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾[1] وقوله جلَّ وعَلا لرسوله محمد ﷺ: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾[2].

ويرى أن السعي لوصول المؤمنين الصالحين إلى كراسي الحكم قد لا يجدي كثيراً، كما يجدي إيصال الإيمان والصلاح إلى المتربعين على كراسي

(١) سورة طه، الآية: ٤٤ .
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩ .

الحكم، ويستشهد بمقولة لحاكمٍ مسلم: «إنهم يريدون أن ينتزعوا الكرسي مني، فإني أكسر الكرسي ولا أعطيهم».

فسماحة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي يقوم بحل قضايا المسلمين في الهند بهذه الطريقة، طريقة المحبة والحوار والتعبير الدعوي المؤثر، والعمل السلمي الحكيم، مع محافظة كاملة على القيم والعقائد الإسلامية العالية، وحياة صالحة تقية فيها الزهد والقناعة لنفسه، والإخلاص وطلب الخير للجميع، وقد أحرز بمنهجه هذا حباً في قلوب الجميع، كما أحرز نجاحاً كبيراً في هدفه التربوي والإصلاحي وفي طلبه لتغيير الأوضاع الفاسدة.



مصادر البحث

١- مسيرة الحياة للشيخ أبي الحسن الندوي.

٢- المسلمون في الهند.

٣- الدعوة الإسلامية وتطوراتها في الهند للشيخ أبي الحسن الندوي.

٤- تاريخ ندوة العلماء للأستاذ المرحوم إسحاق جليس وزميله.

٥- منهج أفضل للدعاة والعلماء للشيخ أبي الحسن الندوي.

٦- منهج علماء الهند في التربية الإسلامية.

٧- ندوة العلماء للكاتب محمد الرابع الحسني الندوي.

٨- الخطابات الرئيسية في مؤتمرات هيئة الأحوال الشخصية الإسلامية للشيخ أبي الحسن الندوي.

٩- الخطابات الرئيسية في مؤتمرات المجلس الديني التعليمي.

١٠- الخطابات الرئيسية في مؤتمرات الرسالة الإنسانية.

١١-علماء هند كاشندار ماضي (بالأردية) للشيخ المرحوم محمد ميان الدهلوي.

١٢- مقام إنسانيت للشيخ أبي الحسن الندوي (بالأردية).

١٣- پيام إنسانيت للشيخ أبي الحسن الندوي (بالأردية).

١٤- ديني عربي مدارس كا تعليمي، تربيتي كردار للشيخ أبي الحسن الندوي (بالأردية).

١٥- مسلم برسنل لاكي صحيح نوعيت أور اهميت للشيخ أبي الحسن الندوي (بالأردية).

١٦- ايك بهتر هندوستاني سماج كي تشكيل مين إسلام كيا حصه لي سكتاهي؟ للشيخ أبي الحسن الندوي.

١٧- فسادات أور هندوستاني مسلمان للشنيخ أبي الحسن الندوي (بالأردية).

١٨- مسلمانان هند كيلئى صحيح راه عمل للشيخ أبي الحسن الندوي (بالأردية).

١٩- مسلمانان هندسي صاف صاف باتين، للشيخ أبي الحسن الندوي (بالأردية).

٢٠- تحفة إنسانية، للشيخ أبي الحسن الندوي (بالأردية).



البحث الخامس

الشيخ أبو الحسن الندوي وقضايا الأمة العربية

الدكتور عبد الحليم عويس (*)

(*) كاتب ومفكر إسلامي ، عضو مجلس الأمناء، وعضو مكتب الرابطة في القاهرة.

ينطلق العلامة الشيخ أبو الحسن علي بن الشيخ عبد الحي[1] بن السيد فخر الدين الحسني، المعروف بأبي الحسن علي الحسني الندوي (نسبة إلى ندوة العلماء دار العلماء بلكهنؤ).. ينطلق في حبه للعرب، واهتمامه الكبير بقضاياهم من مجموعة من الحقائق الدينية والحضارية والعرقية...

ففي مكة المكرمة ظهر الإسلام، ونزل القرآن على خاتم الأنبياء والمرسلين النبي العربي الأمي محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام، ثم حملت المدينة المنورة الراية، حتى عمَّ نور الإسلام الجزيرة العربية، ثم انطلق الإسلام إلى العالم يحمله العرب - بالدرجة الأولى- فانتشرت أشعته في أرجاء المعمورة.. فمن هنا.. من الأراضي العربية التي قدسها الله تحقق خلاص البشرية، وتم سعد الإنسانية كلها، مقترناً ومرتبطاً ارتباطاً عضوياً بسعد الأمة العربية، ونزل الوحي الأول على محمد العربي القرشي الهاشمي، فوُلِد العالم من جديد، وعاشت الإنسانية من جديد، واكتشف العالم كل ما كان قد فقده وجهله من الحقائق الثابتة، والمعاني الكريمة والأخلاق النبيلة والغايات الرشيدة، والعلم الصحيح والإرادة الخيّرة..

لقد كان للعرب -بدون ريب- دورٌ كبير - بفضل الإسلام- في اكتشاف طاقاتهم وأعماق نفوسهم، فجاهدوا ونجحوا إلى حدٍّ كبير في الارتفاع إلى مستوى الرسالة السامية التي جاءهم بها القرآن الكريم، وبلّغها- بالقول والفعل- محمد رسول الله، فحملوها إلى العالم، وقاتلوا الذين أوصدوا الأبواب في وجهها، وقد آمنوا بأنهم مبتعثون[2] ومكلّفون ومأمورون من الله

(١) الشيخ عبد الحي الحسني والد العلامة أبي الحسن الندوي : هو مؤرخ الهند الأكبر ومن كبار العلماء في القرن العشرين، ومؤلف موسوعة تاريخ علماء الهند الكبرى (نزهة الخواطر) التي كتبت بالعربية في ثمانية مجلدات، وتضم نحو خمسة آلاف ترجمة، ومؤلف كتاب (الثقافة الإسلامية في الهند) و(تاريخ كجرات) و (تذكرة شعراء أردو) وغيرها (انظر العلامة السيد عبد الحي الحسني نشر دار الشروق بجدة ط١/١٤٠٣هـ).

(٢) هذا المعنى تكرر كثيراً في فكر الشيخ الندوي، بل نستطيع القول إن شخصية ربعي بن عامر التي رددت هذه المعاني شخصية بارزة في فكر الشيخ الندوي.. انظر على سبيل المثال كتابه (العرب يكتشفون أنفسهم ص١١، ص٢١، وما بينهما طبع المجمع الإسلامي لكهنؤ ١٩٨٠) وانظر : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، والإسلام والحضارة الإنسانية.

بهداية الأمم، وإنقاذ العالم، وإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، ومن جَوْر الأديان إلى عدل الإسلام [١].

هذا الدور العربي الذي يرتبط بعربية القرآن الكريم لغةً، وعروبة محمد عليه الصلاة والسلام نسباً، وقيام العرب بالرسالة خير قيام حتى بلغوا بالرسالة إلى تخوم الصين وأعماق الهند، وإلى جبال البرانس في إسبانيا وما بعدها.. يدفع كل مخلص للإسلام إلى حب هؤلاء القوم الذين شرفهم الله واختارهم، فحملوا الرسالة وبلغوا الأمانة.. كما يدفعه إلى استنهاض همم هؤلاء العرب ودعوتهم -بكل طرق الدعوة- إلى أن لا يخونوا الرسالة، ولا يكونوا شر خلف لخير سلف، وأن يدركوا أن مجدهم وشرفهم وتمكينهم في الأرض وحب المسلمين في العالم لهم.. كل ذلك مرتبط بارتباطهم بهذه الرسالة، وحملهم لرايتها، وذودهم عنها، لأنها رسالة لا تقف عند جيل، ولا تنتهي عند حدود مكانية، ولا ترتبط بطائفة عربية أو إسلامية دون طائفة.. بل هي مرتبطة بالعرب المسلمين كلهم بالدرجة الأولى، وبالمسلمين غير العرب بالدرجة الثانية.

ومن تمام هذا المعنى الديني الإسلامي في فكر الشيخ أبي الحسن الندوي، أن (ختم الرسالة) وانقطاع الوحي من السماء إلى الأرض منذ وفاة الرسول ﷺ وكمال الدين: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً﴾[٢] يقضي أن يكون هناك حملة دائمون لراية السماء التي تركها نبي الله خاتم الأنبياء أمانة في عنق أمته، وهذا من لوازمه أن تكون هذه الأمة كلها -إلى يوم القيامة- (أمة دعوة) فكأنها وهي تؤمر بالاقتداء بنبيها والتأسي به -تؤمر - في الوقت نفسه- بالثبات على الدعوة لدين الإسلام.. وارثةً للنبوة!!.

(١) انظر المراجع السابقة (الصفحات نفسها).
(٢) المائدة آية ٣ .

لقد أرسل الله نبيه محمداً ﷺ في الجزيرة العربية، وبعثه بِعْثَةً نبي، ولكن بعثته -كما يقول الشيخ الندوي- كانت بعثة مقرونة ببعثة أمة، بخلاف كثير من بعثات الأنبياء..

إنها كانت بعثة ثنائية!!.

وهذا ما لا يفطن له كثير من المتأملين في القرآن الكريم!!

«وإنني -والحديث للشيخ الندوي- في دراسة مقارنات الديانات والكتب السماوية، لا أجد هذا الوصف الدقيق الشامل، وهذا الخط الفاصل بين أمة وأمة، أمة قلدت مسؤولية ليس فوقها مسؤولية إلا مسؤولية النبوة فقط، فكانت بعثة النبي محمد ﷺ بعثة مقرونة مشفوعة مرتبطة ببعثة أمة، هذا هو الشيء الذي أثر في مصير الإنسانية، وكانت تجربة جديدة في تاريخ الديانات، وفي تاريخ مصائر الأمم وفي تاريخ الاتجاهات» (1)، وقد أخذ الشيخ هذا المعنى الطيب.. (معنى ابتعاث الأمة كلها، عربية أولاً، وإسلامية ثانياً) من قوله عليه الصلاة والسلام لبعض الصحابة: «**إنما بعثتم ميسرين، ولم تبعثوا معسرين**».. ولم يقل لهم الرسول: (إنما بعثت)، مقصراً الضمير على نفسه.. كما أخذه الشيخ كذلك من قولة ربعي بن عامر لرستم قائد الفرس: (لقد ابتعثنا الله) بهذه النسبة الكريمة الجامعة للابتعاث، وبهذا الضمير الجماعي الإسلامي!! هذا بالإضافة إلى الآيات الكريمة التي يؤخذ منها معنى التكليف الجماعي للأمة: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (2) وأيضاً ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ (3)- فالأمة الإسلامية كلها، والعرب قادتها بالإسلام، مبتعثة إلى يوم القيامة بدين الإسلام، دين كل الأنبياء، بعد انقطاع الوحي وختم النبوة.. لأنه ليس من المعقول ولا من العدل

(1) الإسلام والحضارة الإنسانية - أبو الحسن علي الندوي - دار القلم ص٢٠- الكويت.

(2) سورة آل عمران، آية: ١١٠ .

(3) سورة البقرة، آية: ١٤٣ .

أن يترك الله البشرية بلا وحي سماوي صحيح يضع لها الموازين القسط، ويقدر الله حق قدره، ويرسم طرائق عبادته، وطرائق معاملة الناس بعضهم لبعض وفق ما يرضيه سبحانه وتعالى!! «كانت بعثة هذه الأمة، الفريدة في إيمانها، الفريدة في بساطتها وجديّتها، الفريدة في اتصالها بالأسرة الإنسانية وبتألمها لواقع الإنسانية الذي كانت تعيشه في كل بقعةٍ من بقاع الأرض، كانت تجربة جديدة، كانت هذه البعثة الجماعية، البعثة التي انخرط في سلكها العرب كلهم، فأصبحوا رواداً، وأصبحوا حملة رسالة، وأصبحوا حملة المشعل، فأحدث هذا تحولاً في التاريخ[1]».

إن هذا المعنى المتألق في فكر الشيخ أبي الحسن، والذي نجده مبثوثاً في كثير من مؤلفاته التي تطرق فيها للعرب ودورهم، بينما هو معنى ديني إسلامي، هو كذلك معنى حضاري.. فالإسلام دينٌ وحضارة في نسيج واحد، وهذه الوظيفة السامية التي يربط الشيخ الندوي العرب بها تعد أكبر بواعثه للاهتمام بقضاياهم، فكأنه- وهو يتابع قضاياهم من منظوره الإسلامي- يدفعهم بكل ما يستطيع لكي يعرفوا حقيقتهم ويكتشفوا ذاتهم، ويستأنفوا دورهم، ويقودوا المسلمين المبعثرين في الأرض - أقليّات وأكثريّات- للعودة الرشيدة الفاعلة إلى الإسلام، إنقاذاً لأنفسهم من واقعهم الأسيف، وإنقاذاً للبشرية التي خسرت الكثير جداً بسبب انحطاط المسلمين، هذا الانحطاط الذي كان النتيجة المباشرة لترك العرب لموقعهم القيادي، وانشغالهم بالترف والصراع القبلي والعرقي على السلطان، ولولا استبدال الله بالعرب المارقين أقواماً آخرين مثل الأكراد أبطال حطين، والمماليك أبطال عين جالوت، لكان مصير الحضارة الإسلامية الزوال!! إنه فراغ هائل ذلك الذي تركه العرب، وتركه بالتالي المسلمون، حين تركوا -كأمة - رسالتهم الجماعية الإسلامية التي كلفهم الله بها.. وتخبطوا في عالم الأفكار يلتقطون أيديولوجيات من

---

(١) الإسلام والحضارة الإنسانية- أبو الحسن علي الندوي ص٢٢ .

الشرق أو الغرب.. لقد سقطوا -بل انحطوا- كأمة كان من الواجب أن يتخذها الناس مثالاً وقدوة للأمم. الأمم التي لا يمكن أن تتحول عن طريق النماذج الفردية، لأن الأمم لا تحسب للأفراد المبعثرين حساباً، خصوصاً أن بعض الصالحين يوجدون في كل أمة وكل دين..

«وإنما تتطلع الشعوب إلى شعب مثالي، إلى شعب قائد، قائد الإنسانية، شعب يمتاز عن الشعوب الأخرى في متانة العقيدة وقوتها، وفي روح الإيثار والتضحية، وفي البساطة في المعيشة وفي التسامي على الشهوات والأنانيات، لا يستهويهم الشيء الذي يستهوي هذه الشعوب رغم سيادتها وقيادتها، ورغم تقدمها في الثقافات وفي الفلسفات وفي العلوم»[1].

-إن جريمة العرب في حق الإسلام- حين يتخلون عن رسالته- جريمة جماعيّة، ذلك لأن بعثتهم بعثة جماعية، هكذا كانوا منذ نزل القرآن يطلب منهم أن يحافظوا على شروط (خير أمة).. وحتى اليوم فما زال العرب، ومن خلفهم المسلمون، مدعوون للعودة إلى رسالتهم العامة وابتعاثهم الجماعي لملء الفراغ العالمي الكبير...

وبتحديد دقيق، وانطلاقاً من حبه الكبير للعرب، ومن وعيه بحقيقة مكانتهم، يتوجه الشيخ الندوي بخطابه إلى العرب مشيراً إلى الفراغ العالمي ودور العرب في ملئه قائلاً في محاضرة ألقاها في جامعة الإمارات العربية المتحدة: «إن هذا هو الفراغ الوحيد الموجود الآن في خارطة العالم الإنساني، ولا يملأ هذا الفراغ إلا المسلم، ولا تملأ هذا الفراغ إلا الأمة العربية الإسلامية.. لقد كانت رائدة للإنسانية في القرن السابع وما بعده من القرون، ولا تزال رائدة للرسالة الإسلامة الإنسانية في هذا القرن، لو عرفت قيمتها، ولو عرفت منابع قوتها، ولو عرفت ضخامة رسالتها، ولو عرفت عظم

(١) الإسلام والحضارة الإنسانية -أبو الحسن الندوي - دار القلم ص ٢٣.

مسؤوليتها، فمتى تنهض الأمة العربية الإسلامية وتحمل الرسالة من جديد والنور الوحيد وهو نور الإسلام، وهو النور الذي لا يزال عند العرب في صفحات القرآن وفي صفحات السيرة النبوية، وإننا أبناء القارة الهندية، ننظر إلى هذه الجزيرة كأمة رائدة وكحاملة لهذه الرسالة» [١].

وبالإضافة إلى هذا الباعث الإسلامي الحضاري ثمة باعث نفسي وعضوي آخر يدفع الشيخ الندوي للاهتمام الدؤوب بالقضايا العربية.

- فالشيخ أبو الحسن علي بن أحمد المعروف بعبد الحي بن السيد فخر الدين الحسني، ينحدر من سلسلة النسب الكريم الذي ينتهي إلى أمير المؤمنين الراشدي الرابع، عن طريق السيد محمد الثاني بن أبي محمد عبد الله الأشقر بن السيد محمد صاحب النفس الزكية، بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الإمام الحسن بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه[٢]. وفي محيط مثل المحيط الهندي بطوائفه الهندوسية واللادينية، وتموجاته العرقية والفكرية، يقف (الوعي بالذات) و(الحفاظ على الهوية الروحية والحضارية) دافعاً قوياً للتمسك بالجذور، فكيف إذا كانت الجذور سامية تحمل معها رسالة حضارية شامخة، وليست مجرد نزعة عنصرية أو عرقية يراد من التشبث بها تحقيق استعلاء عنصري، أو مكانة اجتماعية، أو امتيازات طبقية أو عرقية.

إن الانتماء الشريف إلى آل البيت لم يكن هذا - فقط - في وعي الأسرة الحسينية الندوية، بل كان نسيجاً آخر مختلفاً كل الاختلاف.

---

(١) المرجع السابق ص ٢٧ .

(٢) ورد نسبه كاملاً في سيرة السيد أحمد الشهيد عرفان الدين بتأليف الشيخ أبي الحسن الندوي نفسه منقولاً من كتب الأنساب والوثائق التاريخية المحفوظة في مكتبات الأسرة الحسنية، كما ورد في كتاب : الدكتور السيد قدرة الله الحسيني عن : (العلامة السيد عبد الحي الحسني، ص ٧٤ ، ٧٥ نشر دار الشروق بجدة ط١ / ١٤٠٣).

- لقد كان هذا النسب الكريم الذي يملأ الشعور به كيان أفراد الأسرة سبيلاً للحفاظ على الخصائص العربية والإسلامية، وانتقالها من بطن إلى بطن عبر القرون.

- وقد كان أفراد الأسرة يشعرون بأنهم- كما يذكر الدكتور السيد قدرة الله الحسيني [١]- حماة للعقيدة الإسلامية الصحيحة بالتزام التوحيد الخالص، ونبذ العقائد الشركية وما أكثرها في محيط المجتمع الهندي!!

- وكانوا يشعرون بأن عليهم أن يعتنوا عناية زائدة بالعلوم الدينية دراسة وتعليماً ونشراً..

- وبأنهم يجب أن يكونوا السباقين في مجال الغيرة على الإسلام والحماس في الدفاع عنه، والقيام بتحركات عسكرية وحركات جهادية إذا اقتضى الأمر ذلك.

وكانوا يجاهدون في سبيل أن يكون في الأسرة علماء ربانيون مُتَّبعون لكتاب الله وسنة رسوله وسيرة السلف الصالح من هذه الأمة، فلم تخْلُ فترة من فترات هذه الأسرة من وجود علماء ربانيين وشيوخ مربين.

- وكان من خصائص الأسرة-أيضاً- الابتعاد عن مناصب الحكومة والوظائف الرسمية ما أمكن، والقناعة بالميسور..

- ومنها البعد عن استخدام الذكاء في تحقيق المآرب الدنيوية، فيغلب على أفراد هذه الأسرة - في غالب الأحوال- الوداعة، وما عبر عنه لسان النبوة (الغر الكريم).

- وهكذا أصبح هذا الشعور العرقي شعوراً بناء إيجابياً مسؤولاً، بل طريقاً لمزيد من المزج بين الإسلام والعرب في مركب واحد، وأصبح شعوراً

(١) انظر العلامة السيد عبد الحي الحسني : ص ٧٦.

مرتبطاً بالمسؤولية تجاه الإسلام والعروبة المؤمنة، وبالتالي فقد تجرد من كل أوزار السلبيات العرقية العنصرية، بل إنه -في تصوري- قد حل لنا- من خلال تجربة نموذجية تعيش في بلاد الهند- معادلة العلاقة بين العرب والإسلام، وما يجب أن يكون عليه الفكر القومي العربي الذي يجب أن يمتزج بالإسلام امتزاجاً كاملاً، وأن يدرك أنه بغير هذا الامتزاج يصبح العرق العربي جسماً خاملاً ميتاً فاقداً للروح والعقل ومؤهلات الحياة..!!

- وبإيجاز، فإنه بتأثير هذين المؤثرين العظيمين: المؤثر الديني والحضاري، والمؤثر العرقي والنفسي، كان الشيخ أبو الحسن الندوي مرتبطاً كل الارتباط بقضايا الأمة العربية، يعيش معها، ويعالجها، ويخطب فيها، ويكتب من أجلها، أكثر مما يتفاعل معها آلاف من هؤلاء المثقفين الذين ولدوا في بلاد عربية، ويحملون جنسيات عربية، ويعيشون في أرض العروبة..

- والأهم من ذلك أنه كان يتفاعل معها برؤية إسلامية نقية، محافظاً على وعي إسلامي وحضاري كبير لم يتحقق لكثير من العرب، وعلى وضوح في التحليل، وصراحة في قول الحق لم تتوافر لأكثر المتحدثين من العرب، عن قضايا العرب!!

- ومنذ برز اسم الشيخ أبي الحسن الندوي في الثلاثينات من القرن العشرين، وجهوده لم تتوقف أينما حل عن الصدع بالحق، حتى في عناوين الكتب والمحاضرات التي يوجهها للعرب.. كانت هذه الصراحة واضحة.. وحسبنا من عناوين هذه الكتب والمحاضرات أن نقدم العناوين التالية:

١. اسمعي يا مصر.

٢. اسمعي يا سورية.

٣. المأساة الأخيرة في العالم العربي.

٤. اسمعي يا زهرة الصحراء (الكويت).

٥. اسمعوها مني صريحة أيها العرب.

٦. الخطر الأكبر على العالم العربي (عاصفة يواجهها العالم الإسلامي والعربي).

٧. كيف يستعيد العرب مكانتهم؟

وبالإضافة إلى هذه الصراحة الواضحة في عناوين الكتب، وحتى لا يظن أن هذه العناوين إنما اختيرت لعوامل تشويقية أو فنية إعلامية - نسوق بعض ما قاله الشيخ الندوي محدداً فيه معالم منهجه هذا دون مواربة، مبيناً أسبابه ومبرراته، مقتطفين بعض ما كتبه عن هذا المنهج في صدر كتابه: (اسمعوها مني صريحة أيها العرب).. يقول: «لو كانت أمة على وجه الأرض تستحق مني أكبر تقدير وأعظم إعجاب وإكبار، لكان العرب من غير نزاع..

ولو كانت نفسي تدفعني إلى المجاملة مع أمة من الأمم وتزينها لي كانت أمتي العربية العظيمة.

ولكني أعتبر هذه المجاملة في هذه المناسبة جريمة خلقية، وأعتبرها خيانةً عظيمة في حق هذه الأمة التي أدين لها في الدين والأخلاق والإنسانية والشرف، ويدين لها العالم والإنسانية في حياتها الجديدة وفي عقيدتها وخلقها، وليست أمة أحق بالأمانة وأحق بالصراحة وأحق بالنصح من هذه الأمة..

إن عقيدتي وديني الذي أؤمن به وأدين، يفرض عليّ أن أكون صادقاً وصريحاً، وصلتي بهذه الأمة - الدينية والنسبية والثقافية - تلزمني بالصدق والصراحة والوفاء والأمانة، ثم اقتناعي بأن العرب هم الأمة المختارة لحمل رسالة الإسلام قد كتب لهم الوصاية على العالم ما داموا يدينون بهذا الدين الذي جاء به محمد ﷺ، وعلمي بأن هذه الوصاية لم تحول عنهم بعد، ولم تبرز أمة على منصة العالم تخلف هذه الأمة وتضطلع بالإمامة.

والذي يطمعني في هذه الكلمة ويغريني بها هو حبي وحرصي على أن يستعيد العرب مكانتهم العالمية، ويتسلموا هذه القيادة المباركة التي يقول الله عن حملتها: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾[1] وأن يتحولوا عن المعسكر الذي يقول الله عن قادته وزعمائه: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنصَرُونَ﴾[2] بل يثوروا عليه ويعارضوه ويحاربوه وينادوا بأعلى صوتهم: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾[3]، نادى بها جدهم إبراهيم في عصره: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[4]».

فبهذا المنهج الكريم، ومن أجل الغاية السامية المنوطة بالعرب منذ جاء الإسلام حتى يرث الله الأرض ومن عليها، ومن خلال عدد كبير من الكتب والرسائل والمحاضرات، وانطلاقاً من عقيدة إيمانية، ورؤية حضارية، وانتماء عرقيّ ونفسيّ. من خلال هذا كله.. عالج الشيخ أبو الحسن الندوي قضايا الأمة العربية، معالجة الحكيم والوالد الرحيم والمربي الصادق العليم.

الشيخ الندوي وعودة العرب لقيادة سفينة الإنسانية:

احتلَّ اهتمام الشيخ أبي الحسن الندوي بشخصية النبي محمد ﷺ وبالجيل العظيم الذي صنعه الرسول عليه السلام من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين، وجلهم من العرب، مساحةً كبيرةً من فكره!!.

ومن خلال الطرق الفنية غير المباشرة أحياناً وبوسائل صريحة مباشرة في أحيان أخرى، كان الشيخ أبو الحسن، يشير إلى أنه لا يكتب التاريخ مجرداً، ولا يكتبه لكي يقدم دراسة تاريخية جامدة، كما أنه لا يكتب عن سيرة

---

(١) السجدة : ٢٤ . (٢) القصص: ٤١ .
(٣) الممتحنة: ٤ . (٤) أبو الحسن الندوي –اسمعوها مني صريحة أيها العرب ص (٣–٤–٥–٧).

الرسول ﷺ لمجرد البواعث العلمية والتاريخية، وكذلك هو لا يقدم تاريخ الصحابة لغاية ثقافية ومعرفية... بل إنه إنما يكتب في ذلك كله لغايات تربوية وتعليمية، ولكي يستوعب العرب القيمة الحقيقية للإسلام، ويربطوا بالتالي ماضيهم الإسلامي العظيم بحاضرهم، ولتقود إليهم ذاكرتهم الفاعلة ووعيهم الحضاري، وليدركوا إمكانات الإقلاع الحضاري وقواعد الانطلاق الصحيح.

إن على هؤلاء العرب - كما يؤكد الشيخ الندوي - أن يدركوا أنهم بدون محمد عليه الصلاة والسلام، والقرآن الكريم، ما كان بإمكانهم أن يصنعوا هذا التحول الخطير في التاريخ!!.

وفي كثير من المواضيع كان الشيخ الندوي ينقل للعرب كلمات جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه للنجاشي، وغيرها من تلك الكلمات التي تصف وضع العرب قبل الإسلام، وذلك لكي يدرك العرب عظم التحول الذي أحدثه الإسلام فيهم..

ولئن كان بعض المثقفين والمفكرين العرب من أصحاب الثقافة الضحلة أو الوافدة أو المغلوطة، ما زالوا يتحدثون عن علاقة العرب بالإسلام بطريقة مشوهة، غير مدركين للتحولات الكبرى التي صنعها الإسلام في تاريخ الحضارات..فضلاً عن مسيرتهم هم أنفسهم.. فإن الشيخ أبا الحسن- كان على العكس من ذلك.

- لقد كان مدركاً تمام الإدراك للأثر العظيم الذي أحدثه الإسلام في حياة العرب، ولعظمة ما أعطاه العرب والمسلمون الأول -بالإسلام- للتاريخ البشري..

- وفي مواضع كثيرة من كتبه ورسائله يُفَصِّلُ الشيخ الندوي ما أعطاه الرسول ﷺ - كمثل أعلى للتاريخ والإنسانية والحياة من حلول للألغاز الكبرى،

ومن إبراز لِقِيَم الخير المطلقة، وإحياء للحقائق العليا والموازين القويمة التي تاهت عنها البشرية..

لقد كانت أول مآثره ﷺ أنه أغمد ذلك السيف المصلت على رقبة الجيل البشري التي كانت كل لحظة تنذر بفنائه وانقراضه، ووهبه الرسول ﷺ هدايا غالية وتحفاً ثمينة أعادت إليه حياةً جديدة، وشحنته بهمة عالية وقوة فتية وعزة كريمة، ومنحته هدفاً عالياً جديداً لرحلته الشاقة الطويلة، وبدأ بعهده الميمون السعيد دورٌ جديد للإنسانية والحضارة والمدنية والعلوم والفنون والإخلاص والروحانية وبناء الإنسان من جديد..

- إنه قَدَّمَ للمجتمع البشري ثروةً عظيمةً تعتمد عليها الإنسانية لخيرها ورشدها وبركتها وتستفيد منها المدنية لازدهارها ورقيها[1].

- وفي شمول وإيجاز رائعين يلخص الشيخ الندوي (القيم العليا) و(المبادئ) المطلقة التي أعطاها الإسلام للتاريخ والحضارة البشرية والتطور الإنساني، ونشرها العرب الأسلاف - بفكرهم وسلوكهم وجهادهم بين الناس- في مبادئ عشرة، يصح أن تسمى (الإعلان الإسلامي العالمي للرقي البشري والوحدة الإنسانية).. وهذه القيم والمبادئ المطلقة هي:

١. عقيدة التوحيد النقية.
٢. مبدأ الوحدة الإنسانية والمساواة البشرية.
٣. إعلان كرامة الإنسان وسموه.
٤. رد الاعتبار إلى المرأة ومنحها حقوقها وحظوظها.
٥. محاربة اليأس والتشاؤم وبعث الأمل والرجاء والثقة.
٦. الجمع بين الدين والدنيا.

(١) أبو الحسن الندوي، محمد الرسول الأعظم وصاحب المنة الكبرى على العالم، ص ١٧، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م، دار الصحوة للنشر والتوزيع.

٧. إيجاد الرباط المقدس الدائم بين الدين والعلم.

٨. استخدام العقل والانتفاع به حتى في القضايا الدينية والحثّ على النظر في الأنفس والآفاق.

٩. حمل الأمة الإسلامية-والعرب طليعتها- على قبول مسؤولية الوصاية على العالم والحسبة على الأخلاق والاتجاهات.

١٠. الوحدة العقائدية الحضارية العالمية[١] (في إطار الإيمان بالتنوع والحوار المنهجي بين الأفكار، وضمان حرية العقيدة).

- ويرى الشيخ الندوي أن التقاء البشرية ممثلة في صفوتها المفكرة وعقولها المبدعة -على هذه المبادئ العشرة- ضرورة لاستمرار الإنسانية، ولتهذيب عوامل الصراع بين فروع الجنس البشري ولتحقيق نوع من التفاعل البنّاء بينها..

يقول الشيخ: إن قوام هذا العالم المتحضر وبقاءه، وقيمة الحضارة والتاريخ والأخلاق والأدب والشعر والفن، ليست إلا في الاعتراف بالحقائق الثابتة، والتسليم للواقع، وإظهاره والتعبير عنه، وتقدير الفضل والكمال والإشادة بهما، وشكر المحسنين وأصحاب الفضل والعطاء والاعتراف بمنتهم... وحين يتجرد هذا العالم من الآداب والأخلاق فلا لذة في العيش في هذا العالم ولا كرامة، وتتحول الدنيا إلى حظيرة للوحوش والأنعام السائمة، حيث لايبقى من الدوافع والقوى المحركة إلا شهوة ملء البطون، وقضاء المآرب الجنسية، والأهواء والنزعات الحيوانية، ولا تبقى أية صلة بين الأستاذ والتلميذ، والمعطي والآخذ، والمريض والطبيب حتى بين الأبناء والآباء والأمهات، ولا يبقى أي شعور بالفارق بين النّاهب والحارس، والخائن والأمين [٢].

---

(١) أبو الحسن الندوي - محمد الرسول الأعظم - صاحب المنة الكبرى على العالم ص ١٩-٢٠ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٠-٢١ وانظر: الإسلام والحضارة الإنسانية ص ٦٨-٦٩ .

هذا النبي الكريم والأسوة العليا والنموذج الأسمى للبشرية... وهذا الجيل العربي العظيم الذي فتح الدنيا -بالإسلام- وحوّل مجرى التاريخ البشري، وأدار قيادة السفينة الإنسانية إلى الشاطئ الرباني الإنساني اللائق بإنسانية الإنسان.. وهذه المبادئ والقيم الإنسانية المطلقة التي تحقق للبشرية الصعود الدائم، وتحل لها ألغاز التقدم والسلّم العالمي..

وهذه التجربة التاريخية التي تجمّع فيها كل ذلك، ورآها الناس وسجّلها التاريخ، وشهد لها الأعداء المنصفون.. وكتب فيها الشيخ الندوي -كذلك- صفحات كثيرة، يبرز فيها التلاحم بين التزام العرب بالإسلام، وإبداعهم في المجالات العسكرية والسياسية والأخلاقية والمعرفية، بكل ما تحويه كلمة المعرفة من فروع علمية دينية ودنيوية..

- فلقد كان إبداعهم في المجال العلمي ثمرة فقههم بالإسلام، وسيرهم في الأرض بتوجيه القرآن الذي يأمر باكتشاف الأنفس والآفاق.

- وهكذا فعندما يتحدث الشيخ الندوي عن أمجاد العرب العلمية إنما يتحدث عنها كنفحة من نفحات النبوة المحمدية والنبي الأمي، وذلك لتذكير العرب بهذا المجد حتى يعرفوا معالم الطريق المحدد لهم للإقلاع الحضاري - فلا طريق لهم إلا طريق محمد والإسلام، فإن الحماس العلمي العربي، إنما انبثق من النبوة المحمدية ومن تعاليمها، وبتوجيه الإسلام انطلقت حركة علمية عالمية خالدة مساحتها الزمنية من أكبر المساحات الزمنية، ومساحتها المكانية من أكبر المساحات المكانية، ومساحتها المعنوية أوسع من كلتا المساحتين... ويؤكد الشيخ الندوي أقواله في هذا السياق بشهادة للباحث الغربي والمؤرخ الفرنسي الدكتور غوستاف لوبون الذي يقول في كتابه المشهور (حضارة العرب): «والإنسان يقضي العجب من الهمة التي أقدم بها العرب على البحث، فالعرب كانوا إذا ما استولوا على مدينة صرفوا همّهم إلى إنشاء مسجد

بإقامة مدرسة فيها، وإذا ما كانت تلك المدينة كبيرة أسسوا فيها مدارس كثيرة، ومنها المدارس العشرون التي روى (بنيامين التطبلي) المتوفى (١١٧٣م) أنه شاهدها في الإسكندرية، وهذا عدا اشتمال المدن الكبرى كبغداد والقاهرة وطليطلة وقرطبة... إلخ على جامعات مشتملة على مختبرات ومراصد ومكتبات غنية وكل ما يساعد على البحث العلمي... وكان للعرب في إسبانية وحدها سبعون مكتبة عامة... وكان في مكتبة الخليفة الحكم المستنصر (ت٣٦٦ هـ) بقرطبة ست مئة ألف كتاب منها أربعة وأربعون مجلداً من الفهارس، كما روى مؤرخو العرب، وقد قيل بسبب ذلك: إن شارل الحاكم، لم يستطع بعد أربع مئة سنة أن يجمع في مكتبة فرنسا الملكية أكثر من تسع مئة مجلد، ويكاد ثلثها يكون خالصاً بعلم اللاهوت [1].

- إن هذه التجربة النبوية الكريمة، وهذا الجيل الذي رباه محمد عليه السلام وفتح به العالم... وهذه المبادئ والقيم المطلقة التي جاء بها الإسلام وكلف العرب بأن يكونوا طليعة إبلاغها... هذا كله يلزم العرب المعاصرين - أمام الله ثم أمام التاريخ والإنسانية أن يتقدموا لاستئناف حمل راية الحضارة الإنسانية، فهم مصطفون إلى يوم القيامة لهذه الغاية، ولا سبيل إلى سعادتهم أو رفعتهم بغير هذا الطريق، ومهما جربوا من طرق أخرى فلن يتحقق لهم شيء إلا إذا مزجوا الإسلام بعقولهم وقلوبهم، وجعلوه الروح والدم والقلب لكل حركاتهم وأجسامهم!!...

ولئن كانت أجناس أخرى قد سيطرت على العالم عن طريق الغزو والغلب، أو عن طريق الإسلام وحده، فلم يغرس الله حبهم في النفوس والقلوب، ولم تنتشر لغتهم هذا الانتشار الواسع ولم يكتب لها الخلود والبقاء،

١) حضارة العرب ص٢٤٣ تأليف غوستاف لوبون - ترجمة الأستاذ عادل زعيتر - (مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه في مصر) نقلاً عن أبي الحسن الندوي (جوانب السيرة المضيئة في المدائح النبوية الفارسية والأردية ص١٣ الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ ١٩٨٩م دار الصحوة للنشر والتوزيع القاهرة (وهناك روايات تاريخية بأن مكتبة الحكم المستنصر كان فيها أربعمائة مجلد -المؤلف).

ولـم تُدوّن بهـا العـلوم الكثـيـرة.. لـم يتـحـقق كل ذلك إلا بفـضل القـرآن والشريعة الإسلامية...

وليس أمام العرب، كي يدخلوا التاريخ، ويقودوا سفينة الإنسانية إلا عن طريق «الرسالة والهداية والرحمة للإنسانية، والخدمة المخلصة المجردة من الأغراض، وكما كان أمرهم مع الحضارة والتاريخ في الماضي، فإنهم -كذلك- لن يدخلوا التاريخ مرة أخرى إلا من هذا المدخل الذي دخلوا منه أول مرة» [1].

موقف العرب من المدنية الأوربية (المادية) في فكر الشيخ الندوي:

كان موقف العرب خلال القرنين الأخيرين من الحضارة الأوربية بشقيها المادي الشيوعي والمادي العلماني مناط اهتمام الشيخ أبي الحسن، فكراً، وحديثاً، وجهاداً، ودعوة...

- وكان يؤلمه أن هؤلاء العرب الذين حكمت قيمهم وعلومهم الدنيا عشرة قرون، ينسحقون هذا الانسحاق الشنيع، ويركعون هذا الركوع الذليل المخجل -حكاماً ومثقفين- أمام هذه المدنية الأوروبية التي يسميها الشيخ (بالمسيح الدجّال) غير مستوعبين لحقيقة القيم التي يملكونها، والرسالة العالمية الربانية التي نيطت بهم، وغير مستفيدين من إحدى التجارب التي تجاورهم ويشاهدونها، وتعتبر - على الرغم من باطلها وسلبياتها - من أقوى أدلة الصمود العقائدي، وهي تجربة اليهود الذين أقاموا دولة يهودية صريحة الانتماء، وناضلوا آلاف السنين دفاعاً عن هذه العقيدة الباطلة، وحكموا كل طاقات العصر لخدمة عقيدتهم وشعبهم.. فكيف يسقط العرب هكذا لمجرد هذا الخلل الطارئ في مسيرتهم التاريخية؟.

(١) الشيخ أبو الحسن الندوي: كيف دخل العرب التاريخ: ص١٥، ٢٦ نشر المجمع الإسلامي العلمي لكهنؤ ١٩٨٠ .

- وكيف يقبلون- بل يكرِّمون أحياناً- من يدعوهم لخيانة الإسلام كله، والرضا بالذوبان في الحضارة الأوروبية، معتقداً وفكراً وسلوكاً وأخلاقاً..؟؟

- لقد أحزن هذا السقوط الشيخ الندوي كل الحزن، لكنه لم ييأس، ولم يستسلم، بل جرد فكره وقلمه، وقدَّم دراسات كثيرة يفضح فيها هذه الحضارة المادية الأوروبية، ويقارن بينها وبين الحضارة الإسلامية، ويتتبع نواحي السقوط في الحياة العربية، وأبطال هذا السقوط من حكام ومفكرين شيوعيين وعلمانيين وماديين وقوميين ومسيحيين...

وهو في كل ذلك يقدم الأدلة الناصعة، والحجة المستقاة من ماضي المسلمين، ومن حاضر الأوروبيين، ومن نتائج الذوبان والتبعية في المجالات السياسية والعسكرية والحضارية... وهي نتائج مُرَّة، وهو حصاد أليم... أضاع على العرب والمسلمين ثروات هائلة وسنوات طويلة، وجلب إليهم هزائم مخزية، وجعل بأسهم شديداً بينهم، وجعل رحمتهم تتجه كلها إلى أعداء دينهم وأوطانهم، بينما تكاد شدتهم تنحصر في إخوانهم الذين يحكمونهم، أو مع إخوانهم الذين يجاورونهم، فيما يسمى بالخلافات على الحدود والسيادة الوطنية!!.

وكان كتاب الشيخ الندوي: (الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية) من أشمل وأعمق ما قدمه الفكر الإسلامي في فضح الفكرة الغربية، وفي تتبع نواحي سقوط العرب- حكاماً ومثقفين - في حبالها...

- ومع أن الكتاب لم يكن محصوراً في الدائرة العربية، بل كان شاملاً لآفاق الصراع على امتداد العالم الإسلامي، إلا أن العالم العربي الذي لا يزيد سكانه عن سدس المسلمين قد أخذ حيِّزاً من الكتاب يزيد -في مساحته- عن نصف الكتاب، إذ ما استثنينا المساحة التي تتحدث عن قضايا فكرية وتغريبية عامة، سواء في مجال تشخيص المرض، أم في مجال تأصيل علاجه من منظور إسلامي حضاري.

- وهذه المساحة - في حدٍّ ذاتها- دليلٌ قوي على ما يوليه الشيخ الندوي لقضايا العالم العربي في فكره، وحسبنا أن رصده للصراع في شبه القارة الهندية - بمفهومها الشامل - لا يزيد عن ثلث ما كتب عن العرب، مع أن عدد المسلمين الهنود يبلغ ضعف عدد العرب، ومع أن الشيخ الندوي يعيش في الهند، ويعاني مشكلاتها، ويجاهد في أرضها، هو وأسرته من قرون متطاولة بعد هجرة الأسرة من البلاد العربية.

- لكنه الإدراك العميق من الشيخ بأهمية الدور القيادي للعرب، وبمدى تأثيرهم العالمي - إذا عادوا للتمسك بالإسلام حكاماً ومحكومين!!.

- كانت مصر في طليعة البلاد العربية التي رصد الشيخ الندوي الصراع بين الإسلام والتغريب فيها..

وقد تتبع الشيخ رحلة التغريب في مصر منذ محمد علي باشا ورفاعة الطهطاوي، والخديوي إسماعيل، وحفر قناة السويس التي وصلت الشرق بالغرب لصالح الغرب!!

ولم يفت الشيخ أن يلمع هنا إلماعة رائعة تدل على إدراكه العميق بمسؤولية مصر ومكانتها، حين دعا مصر إلى أن تحفر قناةً جديدة: «أفضل من قناة السويس ألف مرة، وأعود منها على الشعوب الإنسانية بالخير والسعادة، وأعمق منها تأثيراً في اتجاه العالم ومصير الشعوب والأمم، وأوسع تأثيراً في التاريخ الإنساني، هي قناة التعارف الصحيح المتبادل المتوازن بين الشرق والغرب، قناة تصل الشرق المتخلِّف في العلوم الطبيعية والصناعات المفيدة بالغرب الذي قد بلغ الذروة فيها، وتصل الغرب الحائر المتخم بقوته المادية، والمفلس في الروح والأخلاق، واليائس المتشائم، السالك في سبيل الانتحار، بمنابع الرضا والهدوء والأمن العاطفي، والثقة المتبادلة، والأمل القوي في مستقبل الإنسان، الكامنة في رسالات الشرق الدينية والروحية التي يمثلها الإسلام في شكلها الكامل النهائي، وتصل وسائل الغرب الهائلة الجبارة

المكدسة التي لا تعرف غاية، بغايات الشرق النبيلة الكريمة الرحيمة التي لا تملك وسيلة، تصل الغرب الذي يستطيع ولا يريد، بالشرق الذي يريد ولا يستطيع، فيفيض كل واحد منهما على الآخر أفضل ما عنده ويتعاونان -تعاون الشقيقين- في إسعاد البشرية، وتهذيب المدنية، هذه القناة الثقافية العقلية التي تعتبر -لو تحققت وظهرت إلى الوجود- كانت فتحاً جديداً في العالم، ومأثرة تاريخية تشغل أعظم مكان مشرق في التاريخ الحديث، وتكسب لمصر الزعامة الخالدة، وأشرف مركز تطمح إليه القلوب والأبصار»[١].

لكن مصر -كما هو معروف في التاريخ وكما رصد الشيخ الندوي- تميزت بموقف ضعيف تقليدي، على الرغم من محاولات جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده وحسن البنا، فقد استطاع تلامذة أوروبا المتخرجون من مدارسها في أوربا أو في مصر أن يعكروا صفو الوصول إلى صيغة حضارية صحيحة للنهضة، وأججوا الصراع مع الأزهر، ومع دعاة الحل الحضاري الصحيح الذي يقوم على (التحديث) في ظل الإسلام -كما فعل اليهود واليابانيون وغيرهم- بدلاً من (التغريب) القائم على الذوبان والتبعية والإلحاد والانحلال...

- وكان (قاسم أمين)[٢] و(طه حسين)[٣] من طلائع الانهزامية والتبعية والجرأة على الإسلام بدعوى التقدم والحرية الفكرية، كما كان لثورة يوليو ١٩٥٢م[٤] دور كبير في فرض المفهوم المادي الشيوعي والتغريبي ومحاربة الإسلام بصفة عامة، تحت أسماء مختلفة.

- وكانت نكبة ١٩٦٧م نهاية طبيعية ومأساوية لنظام عسكري دكتاتوري مادي مقطوع الوشائج بالإسلام، محارب له في كل مجال.

(١) الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية -أبو الحسن الندوي ص٩١-٩٢ دار القلم - الكويت.

(٢) الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية ص ١٠٠.

(٣) المرجع السابق ١٠٦.

(٤) المرجع السابق ص ١١١ .

- وقد دفع الشعب كله ثمن استسلامه لهذا النظام وأيديولوجيته والمنتفعين به!!

كما تتبع الشيخ الندوي المد التغريبي العلماني المادي الذي سيطر على عدد من الدول العربية، وكل ذلك كان له أثره في نكبة عام ١٩٦٧م.

- وقد رزئت (تونس) بالرئيس (الحبيب بورقيبة) الذي حكمها بعد استقلالها سنة ١٩٥٧م لنحو ربع قرن، وكان من أكثر الحكام صراحة في التجرؤ على القرآن الذي لم يقرأه، وفي الانتقاص من الإسلام الذي لم يعرفه، والذي لم يكلف نفسه مشقة التعرف عليه، بينما كان يستجيب لأقوال المنصِّرين والمستشرقين وتلامذة الكنيسة الفرنسية، كما يستجيب التلميذ لأستاذه والابن لأبيه، دون إعمال فكر..

وقد اتضح من تصرفات بورقيبة وبياناته كما يذكر أستاذنا الشيخ الندوي - أن الرئيس بورقيبة «الذي رمى القرآن بالتناقض، والرسول بالبداوة، والمسلمين بالوثنية وعبادة محمد عليه السلام» كان يعاني من مركب النقص والتبعية الفكرية، حيث لم يدرس أي علم من العلوم الإسلامية، في الوقت الذي لم يستطع فيه أن يفهم كلياً الاعتراضات والشكوك التي أثارها الناقدون، وتدل الأفكار التي أعرب عنها الرئيس بورقيبة حول حياة النبي ﷺ، والعقائد الإسلامية، وطرق العبادة، على أنه لا يختلف مع المبادئ الأساسية للإسلام والشريعة فحسب، بل إنه يريد أيضاً أن يقود مسلمي تونس إلى نفس الجهة ويثير شكوكاً وريباً في قلوبهم»[١].

ولئن كان الرئيس بورقيبة قد تخصص لربع قرن في الهجوم على القرآن، فإن العقيد معمر القذافي الذي قاد انقلاباً عسكرياً ضد الحركة السنوسية الجهادية الإصلاحية في ليبيا قد تخصص في الهجوم على السنة،

---

(١) الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية - أبو الحسن الندوي ص ٧٨- دار القلم - الكويت.

مع أنه بدأ حكمه بمحاولة خداع الأمة عن طريق بعض الإجراءات التي نظر الجميع إليها على أنها لصالح الإسلام والعروبة، لكنها كانت محاولة لتثبيت الأقدام، وخداع الجماهير المسلمة، فلم تكد تمر سنوات قليلة استطاع فيها إحكام دكتاتوريته العسكرية على الشعب الليبي المسكين، حتى كشف عن مهمته وبدأ يقوم ببعض حركات ساذجة لا تدل على اتزان في الفكر، داعياً الناس إلى قبول الأحاديث النبوية -إذا كان لا بد من قبولها- في دائرة العبادات فقط، أما الأحاديث الأخرى التي تتناول مختلف مجالات الحياة الإنسانية فلا يمكن -عنده- تطبيقها على الحياة المعاصرة، وكما يقول أستاذنا الشيخ الندوي، فإن القذافي إنما يريد من ذلك حصر الإسلام في العبادات المحدودة ليقطع صلة الإسلام المستمرة بالحياة على غرار النصرانية.

وقد ذهب الرجل متمادياً في طريقه فزعم -وكأنه مجتهد إسلامي كبير- وجود تعارض في الأحاديث النبوية، وكان رائداً للعلمانيين عندما زعم أن جُلَّ أقوال الرسول عليه السلام إنما هي وحي لبيئته وعصره، وقد تغيرت الأوضاع والظروف، فلا سبيل إلى تطبيقها في الأمور الدنيوية في هذا العصر، وهذا هو معنى (أنتم أعلم بأمور دنياكم) عنده، وهو فقه يلتقي مع الفقه الشيوعي الذي يحصر الإسلام في عصر النبوة والراشدين، ويزعم بعدم صلاحيته لكل زمان ومكان.

وتغطية لتبديد ثروة شعبه المسكين وفشله في المجالات السياسية زاد الطين بلة وشغل المسلمين (بالكتاب الأخضر) الذي يدل على خلل في الرؤية، وإنكار التقويم الهجري الإسلامي، ودعوى أن التقويم يجب أن يبدأ بوفاة الرسول، لأنه كما يقول أكبر أحداث التاريخ الإسلامي مع أنه ينكر سنة هذا الرسول.

وهكذا عرض الشيخ الندوي -أكرمه الله- لهذه التيارات التغريبية التي انتظمت الجزائر والمغرب وغيرهما مبيناً التخصص الدقيق لكل حاكم مسلم في الإجهاز على الإسلام من زاويته، ومن ثم قدم الشيخ الندوي نماذج رائعة

في الوقوف ضد هذه الغارة التغريبية، كان من أبرزها وأعظمها النموذج الذي قدمه الشاعر العظيم محمد إقبال الذي كان يقول في الحضارة الغربية «إن شعار هذه الحضارة الغارة على الإنسانية والفتك بأفراد النوع البشري، وإن شغلها الدائم التجارة، إن العالم لا يسعد بالسلام والهدوء وبالحب البريء النزيه والإخلاص لله إلا حين تنهار هذه الحضارة الجديدة» [١].

وهو يناشد الإنسان المسلم أن يلتفت إلى حقيقة النعومة والفتنة في هذه الحضارة الداعرة فيقول له: «إياك والحضارة اللادينية التي هي في صراع دائم مع أهل الحق، إن هذه الفتانة تجلب فتناً، وتعيد اللات والعزى إلى الحرم، إن القلب يعمى بتأثير سحرها، وإن الروح تموت عطشاً في سرابها، إنها تقضي على لوعة القلب، بل تنزع القلب من القالب، إنها لص قد تمرن على اللصوصية فيُغير نهاراً وجهاراً، وإنها تدع الإنسان لا روح فيه ولا قيمة له.

إنها حضارة شابة -بحداثة سنها، والحيوية الكامنة فيها- ولكنها محتضرة تعاني سكرات الموت، وإن لم تمت حتف أنفها فستنتحر وتقتل نفسها بخنجرها»[٢].

وفي غير موضع من كتبه يشخص الشيخ الندوي أسباب نجاح محاولات تغريب المسلمين، ووسائل علاج هذا المرض الخبيث، وينتهي إلى دعوة العرب والمسلمين إلى ما يسميه (بالموقف الثالث) وهو الموقف الذي يأخذ من الحضارة الغربية بعض ما توصل إليه العلم والصناعة بعيداً عن الأفكار والقيم والمفاهيم والمثل وصبغ الحياة بطريقة مادية، وذلك على النحو الذي بسطه المفكر المسلم (اليهودي سابقاً) (محمد أسد) في كتابه: (الطريق إلى مكة) حيث تتوافر لرؤيته التي ارتضاها الشيخ الندوي ونرتضيها معه، عوامل

---

(١) الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية -أبو الحسن الندوي ص٧٨ - دار القلم - الكويت .-٢١١- دار القلم - الكويت.

(٢) المرجع السابق نفسه، ونفس الصفحة.

الرصانة والاتزان والحصانة الفكرية فضلاً عن أنها تحدد بلباقة فائقة ومقدرة كبيرة -الخط العادل المتزن الذي يجب أن يسير عليه العالم العربي الإسلامي في الإفادة من الغرب وتبني الوسائل الحديثة، يقول (محمد أسد): «إن عالَمَيْ الإسلام والغرب لم يكونا يوماً أقرب أحدهما من الآخر، كما هو اليوم، وهذا القرب هو صراع ظاهر وخفي، ذلك أن أرواح الكثيرين من المسلمين والمسلمات لتتعفن رويداً رويداً، تحت تأثير العوامل الثقافية الغربية، إنهم يتركون أنفسهم يبتعدون عن اعتقادهم السابق، بأن تحسين مقاييس المعيشة يجب ألا يكون سوى واسطة لتحسين أحاسيس الإنسان الروحية، وإنهم يسقطون في وثنية (التقدم) نفسها التي تردى فيها العامل الغربي، بعد أن صغَّروا الدين إلى مجرد صلصلة رخيمة في مكان ما من مؤخرة الأحداث.

لذلك تراهم يصغرون مقاماً ولا يكبرون، ذلك أن كل تقليد ثقافي، بخلاف الخلق والإبداع لا بد أن يحقِّر الأمة ويُقَلِّل من شأنها»[1].

«والمسلمون إذا تبنوا، كما هو من واجبهم أن يفعلوا، الطريق والوسائل الحديثة في العلوم والفنون الصناعية، لا يفعلون أكثر من اتباع غريزة التطور والارتقاء التي تجعل الناس يفيدون من خبرات غيرهم، ولكنهم إذا تبنوا- وهم في غير حاجة إلى أن يفعلوا ذلك-أشكال الحياة الغربية والآداب والعادات والمفاهيم الاجتماعية الغربية فإنهم لن يفيدوا من ذلك شيئاً، ذلك أن ما يستطيع الغرب أن يقدمه لهم في هذا المضمار لن يكون أفضل وأسمى مما قدّمته لهم ثقافاتهم نفسها ومما يدلهم عليه دينهم نفسه.

ولو أن المسلمين احتفظوا برباطة جأشهم وارتضوا الرقي وسيلة لا غاية في ذاتها إذن لما استطاعوا أن يحتفظوا بحريتهم فحسب، بل ربما استطاعوا أيضاً أن يعطوا إنسان الغرب سر طلاوة الحياة الضائع»[2].

---

(١) الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية -أبو الحسن الندوي ص ٢١٠ - ٢١١ - دار القلم - الكويت.

(٢) المكان السابق ص ٢١٢ .

ولقد تعددت دراسات الشيخ الندوي ضد هذه الغارة التغريبية والمادية، وهي لم تقف عند حدود كتابه العظيم: (الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية) بل أضاف إليها الشيخ دراساته التي نراها داخلة في صلب القضية، ومنها كتابه عن (روائع إقبال) الذي حفل بأسفار كثيرة وفصول موجهة إلى العرب، حرص الشيخ على التركيز عليها، بعد أن استخلصها من شعر محمد إقبال..

ومن هذه الدراسات أيضاً كتابه: (ردة ولا أبا بكر لها)، وهو الكتاب الذي أطلق فيه على نزعات الحضارة الأوروبية (الدين الجديد) حيث اعتبر عبادة نزعاتها الحيوانية واللادينية (ردَّة) و(ديناً جديداً) انحدر إليها كثيرٌ من المسلمين!!

ومنها كتابه (حول الإسلام والحضارة الإنسانية وواقع العالم الإسلامي).!!

ومن تراثه في هذا الميدان أيضاً، تحليله للصراع بين الإيمان والمادية من خلال سورة الكهف.

ومنه رسالته: (حاجة البشرية إلى معرفة صحيحة ومجتمع إسلامي)..

ورسالته حول (الأمة الإسلامية: وحدتها ووسطيتها وآفاق المستقبل).

فكل هذه الدراسات تصبُّ مباشرةً في هذه القضية الخطيرة، فضلاً عن جهوده المبثوثة -غير المباشرة- في كتبه الأخرى.

وجزى الله الشيخ أبا الحسن الندوي عن هذا الاهتمام الكبير والتتبع الدقيق لأوضاع العالم العربي، وهذا الحرص الشديد على الأمة العربية، وعقيدتها، وحضارتها ورسالتها في مواجهة الحضارة الغربية -خير الجزاء!!.

الشيخ أبو الحسن الندوي والقومية العربية:

كان من بين ما رزأ به الاستعمار الصليبي واليهودي الأمة العربية - أن سرَّب بين بعض مثقفيها، وبخاصة الذين تتلمذوا في معاهد الغرب ومدارس التنصير، مفهوماً للقومية العربية معادياً للإسلام، يجعل من القومية عقيدةً وأيديولوجية قائمة بذاتها، وينظر للإسلام عند أحسن التقديرات على أنه مجرد رافد ثقافي، وأنه ليس هذا الدين الذي انتشل العرب من وهدة الجاهلية، وبعث فيهم الحياة التي جعلتهم خلال عقود قليلة الأمة المسيطرة على العالم عقيدةً وعلماً وأخلاقاً وسياسة..

وكان من جراء ذيوع هذا المفهوم الذي روَّج له بعض النصارى العرب الكارهون للإسلام، وبعض المسلمين المهزومين والمأجورين - أن تنحى الإسلام من مواقع القيادة الفكرية والسياسية في بعض البلاد العربية، وعلى رأسها مصر وسوريا والعراق، وما كان يسمى باليمن الجنوبي، وغيرها... بالإضافة إلى أن هذا المفهوم كان ورقة رابحة استخدمها الاستعمار الصليبي واليهودي في تجنيد العرب في الحرب العالمية الأولى ضد الخلافة العثمانية.

ومن الطريف أن قائد الجيوش العربية (القومية) كان ضابط مخابرات يهودي بريطاني (لورنس) الذي كان يعمل تحت إمرة القائد الصليبي الحاقد (اللنبي).

وفي تحليل الشيخ الندوي لحركة القومية العربية وعواقبها، يرى أنها أخطر من كل الحركات القومية التي ظهرت في العالم الإسلامي، لأن الأتراك والإيرانيين والأكراد والأفغان، كانوا جزءاً من الملة الإسلامية، ويعد انحرافهم انحراف ملة، أما العرب فلم يكونوا ملة فحسب، وإنما كانوا منبع الدعوة الإسلامية، وحملة لوائها الأولين وروادها السابقين، وكان بلدهم المنبع الأول للإسلام، ومأواه وملجأه الأخير، فكان قبولهم لدعوة القومية وانحصارهم في القالب المحدود للقومية والعروبة، أو احتضانهم لدعوة البعث العربي القومية،

بدلاً من كونهم حملة الدعوة الإسلامية العالمية، كارثة تاريخية، فإذا كان انحراف الأمم الأخرى، انحرافاً لها وحدها، كان انحراف العرب تحريفاً، لذلك فإن القلق والهم اللذين يساوران النفوس، والحذر الذي يطير النوم عن عيون المحبين للدين والعاملين له والمهتمين به، لا يُستغرب ولا يثير الدهشة والتساؤل، بل العكس، فعدم الاضطراب على هذا الحادث الأليم، يدل على عدم الشعور بضخامته ووخامة نتائجه [١].

وهو يرى - في هذا السياق- أن عدم مبالاة بعضهم بخطورة حركة القومية العربية الخائنة للإسلام، والمنفصلة عنه، تقود إلى عدم معرفة هؤلاء الناس البسطاء بحقيقة أفكار دعاة القومية العربية وبعجزهم عن إدراكها، وذلك لأن عدداً قليلاً من العلماء وحملة الدين هم الذين يتمكنون من دراسة منشورات القومية العربية الموثوق بها، وتتاح لهم فرصة السماع والقراءة للأحاديث والبيانات والتقارير الصحفية لقادة تلك الحركة وزعمائها، أما الفئة التي تكتفي بالتصفح للجرائد والمجلات الصادرة من الدول التي تعبر عن هذه الأفكار والاتجاهات، فتقتصر معرفة هذه الفئة من الناس على معلومات سطحية طافحة، وتعتمد على بيانات سياسية في أغلب الأحوال[٢].

وبالتالي لا يدركون مدى خطورة الدعوة للقومية العربية، وتوغُّلها في النفوس، وتأثيرها وأبعادها، وأهدافها، وغاياتها، وإلى أي مدى سرت فيها عدوى الإلحاد واللادينية وتفاقمت، وما هي انعكاسات هذه الدعوة على قلوب الشباب والمثقفين الذي تأثروا بأهدافهم التي يعبرون عنها ويجهرون بها: ﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [٣].

وكما يقول الكاتب الكبير الأستاذ (أنور الجندي)، فإن الأستاذ الندوي لم يهاجم شيئاً في عنف وقوة، كما هاجم الاتجاه العربي إلى القومية الضيقة

(١) الخطر الأكبر على العالم العربي - أبو الحسن الندوي - دار الصحوة للنشر - ص١٤ .

(٢) المرجع السابق ص١٥-١٦.

(٣) المرجع السابق ص١٦.

والعصبية اللا إسلامية، التي تمثلت في ذلك التيار العنيف الذي أراد أن يضرب الإسلام بالعرب، والعرب بالمسلمين، ضرباً قوياً...

- ويتساءل الشيخ الندوي: هل كان للعرب أن يمثلوا هذا الدور العظيم، وأن يشغلوا سمع الزمان، وأن يغيروا مجرى التاريخ لولا هذه الرسالة السماوية التي تسمى بالإسلام، ولولا هذا الكتاب العظيم الذي يُعرف بالقرآن، ولولا تبنّيهم لهذه الدعوة الجديدة وجهادهم في سبيلها[١] ؟!!

- ولم يتوقف أستاذنا أبو الحسن الندوي عن مقاومة هذا الاتجاه القومي اللاديني، كاشفاً زيفه في كل مكان وكل خطاب، كاشفاً - في الوقت نفسه - عن ذلك العقد الرباني الأبدي بين العرب والإسلام.. يقول: لقد عقد الله بين العرب والإسلام للأبد، وربط مصير أحدهما بالآخر، فلا عز للعرب إلا بالإسلام، ولا يظهر الإسلام في مظهره الصحيح إلا إذا قاد العرب ركبه وحملوا مشعله، وقد حرص رسول الله ﷺ على بقاء هذا الرباط الوثيق المقدس بين العرب والإسلام، فجعل جزيرة العرب مركز الإسلام الدائم وعاصمته الخالدة، وحرص على سلامة هذا المركز وهدوئه وشدة تمسكه بالإسلام، لأن العاصمة يجب أن تكون بعيدة عن كل تشويش وفوضى وصراع، وظل العرب والإسلام زميلين مترافقين، وأخلص كل منهما للآخر وأقسم ألا يفارقه، وعاش العرب وعزوا بالإسلام وسادوا الدنيا، وانتشرت لغتهم وثقافتهم في بلاد وأقطار وبيئات لم تكن تنتشر فيها ويرسخ قدمها لولا الإسلام ولولا القرآن، واتخذها العلماء والأذكياء لغة دين وعلم وتأليف، ولم يكونوا فاعلين ذلك لولا أنها لغة الإسلام الرسمية، ومفتاح المكتبة الإسلامية [٢].

والإنسان يعجب، ويشارك الشيخ الندوي العجب، في أمر هؤلاء القوميين العرب، الذين يريدون حصر القومية في نطاقها العنصري الضيق،

---

(١) أنور الجندي: أعلام القرن الرابع عشر الهجري. ج -١ أعلام الدعوة والفكر. مكتبة الأنجلو المصرية ص٤١٦، ٤١٧ .

(٢) المرجع السابق: ص٤١٨ .

ويقطعون صلتهم بالمسلمين الذين يتعبدون بالارتباط بهم، ويشعرون بالمنة نحوهم، ولا ينازعونهم القيادة إذا ملكوا مؤهلاتها، وحملوا راية الإسلام... راية عزهم ومجدهم..

ويضرب أستاذنا الندوي أمثلة رائعة تدل على هذا الارتباط العميق بالعرب، وهذا التقدير الإسلامي العام للغتهم.. لغة القرآن الكريم.. التي هي فيصل الارتباط بالعروبة المؤمنة، التي لا تقوم على الجنس بمعناه العنصري، بل على رابطة الفكر واللسان، وما يفرزانه، من عقيدة ومنهج حياة وغاية..

وفي يوليو سنة ١٩٧٨م، في كراتشي بباكستان، التقى الشيخ الندوي بالعلامة عبد العزيز الميمني الراجكوتي صاحب سمط اللآلئ، وأحد أعضاء لجنة تصحيح (لسان العرب لابن منظور)، فسأله الشيخ أبو الحسن: كم تحفظ من شعر العرب؟ فأجابه: أحفظ بين خمسة وسبعين ألف بيت ومئة ألف بيت.. فهل يوجد في العالم كله من يحفظ من لغة ليست لغته اليومية ولا القومية هذا القدر من الشعر.. اللهم إلا نموذج هذا المسلم العظيم الذي يرتبط بالعروبة، ثقافة وديناً...؟!!

وهل كان يمكن أن تكون اللغة العربية البدوية لغة عالمية إلا بنزول القرآن الكريم بها.. كما قرر الكاتب النصراني جورجي زيدان وغيره[1].

فما مصلحة العرب في قطع الوشائج الإسلامية، وترك هذا الرصيد الثقافي الهائل الذي يرتبط بلغتهم لارتباطها بالإسلام.

ويقدم الشيخ الندوي مثالاً آخر لهذه الدائرة الفسيحة للغة العرب وثقافتهم في ظل ارتباطها بالإسلام، فينقل عن شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي المعروف بالشيخ ولي الله الدهلوي المتوفى ١١٧٦هـ في رسالته التي أسماها: (المقالة الوضية في النصيحة والوصية) - قوله: «نحن

(١) الشيخ أبو الحسن الندوي: نفحات الإيمان ص ٤٢ط. دار الصحوة (أولى) - ١٤٠٥ القاهرة.

رجالٌ غرباء، هاجر آباؤنا إلى الهند، وإن عربية النسب وعربية اللسان مفخرتان لنا، وهي التي تقربنا إلى سيد الأولين والآخرين، وأفضل الأنبياء والمرسلين، ومفخرة الوجود ﷺ، السعيد منا من حصلت له مشاركة في لسان العرب والصرف والنحو، وكتب الأدب، واطلع على الحديث والقرآن، ولا بد لنا من حضور الحرمين الشريفين وتعلق القلب بهما، وفي ذلك سر سعادتنا، والشقي من أعرض عنهما».

ويعلق الشيخ الندوي على هذه الوصية الطيبة قائلاً:

أين رابطة الشعوب والبلاد بلغات حكامهم، ومستعمريهم، أو باللغات التي لا يتصلون بها إلا عن طريق السياسة أو الثقافة أو الاقتصاد، من هذه الرابطة التي تقوم على العقيدة والإيمان والحب والغرام (١)؟.

ولذلك لمّا سُمِحَ بالأذان باللغة العربية في تركيا - وكان ذلك ممنوعاً في عهد أتاتورك خرج الأتراك من بيوتهم، وبدؤوا يرقصون فرحاً، وذبحت مئات من النعاج شكراً وسروراً بأن الله مدَّ في حياتهم حتى أدركوا هذا اليوم السعيد، وسمعوا الأذان العربي في لغة نبيهم التي كان يؤذن فيها بلال، وأبو محذورة، وابن أم مكتوم، والذي كان يدوي على منابر مساجدهم قبل أن يصدر هذا الحكم القاسي السفيه.

هذا هو الرباط الذي يربط الشعوب بالعرب، وهو الذي تضمره قلوب غير العرب للعرب، وهو نابع عن شعور واحد، وهو الشعور بعظم نعمة الإسلام وضخامتها التي جاءتهم عن طريق العرب، إنهم ينظرون إليهم كحاملي رسالة الإسلام، وناقلي التعاليم الإسلامية، ينظرون إليهم كالمنقذ من الضلال، وكالمخرج من الظلمات.. ذلك الذي رفعكم أيها العرب إلى مستوى القيادة

(١) الشيخ أبو الحسن الندوي: نفحات الإيمان ص ٤٣-٤٤، ط. دار الصحوة (أولى) ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م بالقاهرة.

العالمية، فهل تتخلون عن هذه المنزلة الرفيعة، وتنزلون إلى مستوى القوميات والعصبيات، والنظريات الضيقة، والقوانين التي تتغير صباح مساء[1]!!.

الشيخ أبو الحسن الندوي وقضية فلسطين:

كان موقفاً طبيعياً من داعية كبير يعيش الهموم العربية بكل كيانه، ويتفاعل معها تفاعل العربي المؤمن الملتزم، أن تكون قضية فلسطين، من القضايا الرئيسية التي يوليها الشيخ الندوي اهتمامه..

وجدير بالذكر أن تأثر مسلمي الهند بمصائب العرب، وعلى رأسهم داعية كبير كالشيخ الندوي إنما هو تأثر مباشر، في مجتمع علماني وهندوكي، يعرف الذين يعيشون فيه مدى عمق الصلة بين العرب الذين تنزّلت فيهم الرسالة السماوية الإسلامية، وبين المسلمين الهنود الذين يعيشون معهم في أرضهم، لكنهم يتجهون في كل يوم إلى مكة المكرمة، قلبِ جزيرة العرب، خمس مرات، ولا تصح صلاتهم إلا بهذا الاتجاه إلى القبلة..

ولا نشك أنه أثناء تطورات قضية فلسطين خلال النصف الثاني من القرن العشرين، كانت للشيخ الندوي متابعاته المستمرة، وجهوده الإسلامية حول فلسطين في وسط المجتمع الهندي، بل وفي البلاد العربية نفسها..

بيد أن ما يهمنا أن نشير إليه، هو أن معالجة الشيخ الندوي لقضية فلسطين كانت تقوم على الرؤية الإسلامية التي ترى في هذه الكارثة نتيجة لا سبباً، وعقاباً إلهياً للعرب الذي خانوا الإسلام، وليس أمراً ابتدائياً وقع عفواً، أو ابتلاء محضاً، أو ظلماً... ولا سيما أن الشيخ يدرك أن خطر اليهود لن يقف أبداً عند حدود فلسطين، ولا عند الشعب الفلسطيني، وإنما سيمتد إلى العرب وبلادهم كلها...

(١) المرجع السابق: ص ٤٤-٤٥ .

وإن من رأى البلاد العربية عن كثب، وشاهد تذبذب الحكومات العربية في سياستها، وضعف إرادتها وخضوعها للدول الأوروبية الكبرى وارتباطها بإشاراتها، ورأى أخلاق الرؤساء والقادة ومن بيدهم الحل والعقد، ورأى إخلادهم إلى الراحة، وإيثارهم اللذة والمنفعة، ورأى بصفة خاصة في مصر التي كانت تتزعم العالم العربي وتقود الحركة الأدبية والعلمية والدينية، عبث الأدباء والكتاب والموجهين بالأسس الدينية والقيم الخُلُقية والاجتماعية، والمقررات التاريخية وتسخيرهم طاقة الأدب والأقلام، لتقويض دعائم الحياة الصالحة والأخلاق الفاضلة، وبعث فوضى فكرية، لا معروف فيها ولا منكر، ولا حق فيها ولا باطل، وإنما هي انتهازية وأبيقورية وإقليمية وفرعونية [١].

ورأى إحجام العلماء وقادة الدين عن قول الحق، ونقد الباطل، والشهادة بالقسط، ورأى خضوعهم للمُثُل الزائفة التي خضع لها عبَّاد المعدات والبطون من وجوب ارتفاع مستوى المعيشة وإرضاء الأهل والأسرة، وتحقيق مطالبها ولو من غير حق، ورأى افتتان العامة والطبقات الكادحة بالملاهي والمعازف والأواني وبكل ما تتمتع به الأذن والعين والخيال، والتقاء هذه الطبقات كلها على اختلاف مستوياتها وثقافتها - على حب الحياة والكراهة للموت، وبعدها عن كل مغامرة وإقدام..

- رأى ذلك كله وتحققه وعاش فيه جزم بأن هذه الشعوب لا تستطيع أن تتحمل أقل صدمة تأتيها من الخارج، ولا تستطيع أن تدافع عن دينها وشرفها ومقدساتها وكيانها [٢].

ووفق هذا التحليل الذي يقوم على رؤية داخلية للوقائع، تنطلق من إيمان عميق بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [٣] ينتهي الأستاذ

---

(١) أنور الجندي - أعلام القرن الرابع عشر - ج١ أعلام الدعوة والفكر - ص ٤٢٣ .

(٢) أنور الجندي - أعلام القرن الرابع عشر - ج١ أعلام الدعوة والفكر - ص ٤٢٣ .

(٣) سورة الرعد، الآية: ١١ .

الندوي إلى أن التخاذل في فلسطين قد مهدت له أسباب كثيرة من الأخلاق والتربية، وأن الاستعمار الغربي قد فتَّش عن منابع القوة الكامنة في نفوس المسلمين وقلوبهم، فوجد أن أكبر منابع القوة والحياة هو الإيمان فحاربوه، وسلطوا على المسلمين عدوين كانا أفتك بهم من المغول والتتار وهما: الشك، وضعف اليقين الذي لا شيء أدعى للضعف والجبن منه، والثاني ما نعبر عنه بالذل النفسي، وهو أن المسلمين صاروا يشعرون بالذل والهوان، في داخل أنفسهم، وفي أعماق قلوبهم، ويزدرون كل ما يتصل بهم من دين وتهذيب وأخلاق، ويؤمنون بفضل الأوروبيين في كل شيء، ويعتقدون فيهم كل خير [١].

والمشكلة في حقيقتها- أن العرب لم يحاولوا -إلا قليلاً- أن يضعوا قضية فلسطين في إطارها الصحيح كقضية إسلامية تتعرض لحملة دينية يهودية، فهي عقيدة زاحفة تحتاج إلى عقيدة لصدها.. وإنما بذلوا جهوداً كبيرة في معالجتها، كقضية سياسية، تدخل في نطاق التنافسات الاستعمارية ذات الأبعاد الاقتصادية والسياسية.. وقد كتبوا في هذا كتباً كثيرة، وخطبوا خطباً كثيرة أيضاً، وتحدثوا بإسراف وسذاجة عن (إزالة آثار العدوان) ولم يتحدثوا عن (إزالة أسباب الخذلان) معتمدين في حل قضية فلسطين من أول يوم على نفس الأساليب التقليدية التي تلقوها من عدوهم الغرب.. الذي حدد لهم المسار الذين يمشون فيه، فكل ما فعلوه كلام، وكله وقوف عند الآثار، وبعدٌ عن الجذور والأسباب..!!

وقد ظلَّت معركة الكلام حامية، ولم تقم محاولة جديّة، ولا برزت دعوة صريحة قوية إلى تغيير منهج الحياة في الشعوب والبلاد، التي اكتوت بنار هذه الخيانة الغربية الكبرى، التي لا مثيل لها في التاريخ الحديث، حتى تعرضت للخطر الصهيوني بطريق مباشر، ولا توجد دعوةٌ إلى إزالة أسباب السخط والخذلان التي بينها القرآن في أسلوبه البليغ السافر، لكسب أسباب النصر

(١) المرجع السابق ص٤٢٤.

الحقيقية التي دعا إليها الكتاب والسنة، وحفل بنتائجها وأمثلتها التاريخ الإسلامي، ولم يشعر أحد من الحكام أو جمهرة المثقفين بحاجة إلى استفتاء القرآن والعقل الإيماني الواعي المنصف، الذي لا يكذب ولا يخدع عن أسباب هذه النكبة (١).

ولا طريق لاستعادة فلسطين إلا بالإسلام.. وعندما تنتهي عوامل الهزيمة الأخلاقية والنفسية والفكرية، ويعود الإسلام إلى مكانه في نفوس المسلمين وفكرهم وسلوكهم، تنتهي تلقائياً مصادر الكارثة، بل تنتهي مصادر كل الكوارث، وتعود فلسطين إلى العرب والمسلمين.. يقول الشيخ الندوي:

«إن قضية فلسطين سهلةٌ هيّنة، وانتصار العرب مضمون إذا كانوا أحراراً في تصرفهم، مالكين لزمامهم، مدبرين لسياستهم، مغامرين بأرواحهم وجندهم، محكمين لسيفهم وسنانهم، واثقين بنصر الله، معتمدين على سواعدهم فقط، متمردين على المادة والشهوات مصممين على الكفاح والجهاد (٢).

- إن قضية إنقاذ فلسطين- كما تؤكد كتابات الأستاذ الندوي- قضية مرتبطة ارتباطاً عضوياً بالعقيدة، وسواء من الجانب اليهودي والصليبي أم من الجانب الإسلامي فإن جوهر المشكلة ديني بحت.. فنحن المسلمين لا بد لنا من أن نواجه الدين اليهودي الزاحف بالدين الإسلامي القوي الفعال.. إننا لسنا في حاجة إلى دين جديد -حاشا لله-، ولكننا في حاجة إلى إيمان جديد، إذا كانت الأحوال غير عادية احتاج الإنسان فيها إلى إيمان غير عادي، إلى إيمان قوي عميق إلى إيمان حي دافق، إلى إيمان إذا لم يكن إيمان الصحابة رضي الله عنهم فليكن إيمان صلاح الدين الأيوبي، وإيمان كثير من الجنود الذين قاتلوا تحت رايته، يقول القاضي بهاء الدين المعروف بابن شداد عن صاحبه صلاح الدين الأيوبي: «إنه تاب عن المحرمات وترك الملذات، ورأى أن الله سبحانه وتعالى خلقه لأمر

---

(١) أنور الجندي - أعلام القرن الرابع عشر - ج١ - ص ٤٢٦ مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨١ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٢٤ .

عظيم لا يتفق معه اللهو والترف، وكان رحمه الله عنده من القدس أمر عظيم لا تحمله الجبال، وكان كالفاقدة ولدها، الثاكلة واحدها» [١].

إن هذا هو الطريق الصحيح -والوحيد- لاستعادة فلسطين.

وكما عاش العرب مائتي سنة تحت الاحتلال الصليبي دون أدنى أمل لطرده عندما استولى على الرّها، وإنطاكية، وطرابلس، وبيت المقدس.. حتى ظهر الأبطال المؤمنون الأتقياء الصالحون: عماد الدين زنكي، وابنه نور الدين محمود، ثم صلاح الدين الأيوبي، فكذلك لن تتحرر فلسطين بالقيادات المنافقة التي تعطي الإسلام بعض الكلام، في بعض المناسبات، ولكن عقلها وقلبها يدور في فلك الأعداء، وربما يثق بعضهم في قدرة أمريكا وإسرائيل أكثر مما يثق في قدرة الله...!!!

وإذا كان نصف القرن الماضي قد أثبت فشل كل التجارب، وأعطى إسرائيل دفعة هائلة، بحيث أصبحت قوة عظمى، ترتعد فرائص الحكام العرب أمام جبروتها وطغيانها..

فلقد آن الأوان لنستجيب لذلك المنهج العظيم الذي أشار إليه الشيخ أبو الحسن.. أن نستفتي الإسلام.. ونستوعب درس التاريخ، ونثق في الله، وفي ديننا، وفي حضارتنا ورسالتنا..

ويومها ستعود فلسطين.. بإذن الله، كما أكّد الشيخ الندوي، وكما يؤكد لنا -من قبله- وعد الله الذي لا يخلف الميعاد!!.

الشيخ الندوي وأزمة الخليج:

بينما كان العالم الإسلامي يعيش فترة هدوء، وترقب على مشارف العقد الأخير من القرن العشرين، وبينما كان الشيخ أبو الحسن الندوي يقوم بجهود

---

(١) النوادر السلطانية ص ١٥٥ - نقلاً عن الشيخ أبي الحسن الندوي - نفحات الإيمان ص٨٠ .

طيبة توشك على الوصول إلى النجاح في داخل شبه القارة الهندية، لتحجيم حركات التطرف الهندوكي التي تسعى لإزالة الوجود الإسلامي في الهند..

بينما ذلك -وقع، وعلى غير توقع، ذلك الحادث المروع، الذي تمثل في هجوم الرئيس العراقي صدام حسين على الكويت، مجهضاً كل محاولات وحدة الصف العربي، وناقضاً كل كلماته الكبيرة عن الأخوة العربية والتضامن العربي، وعاقاً لكل الأيادي التي قدّمت إليه في مغامراته العسكرية الإجرامية، وغادراً بكل وعوده القومية والبعثية الزائفة.

وبينما كان الشيخ الندوي يطوي أوراق اجتماع ناجح مع بعض عقلاء الهندوس ومفكريهم للالتقاء حول (قضية مشتركة) تسمى (رسالة الإنسانية) تحترم حقوق المسلمين، وكل الأقليات الأخرى، وتزيل الأحقاد والعصبيات.. وظهرت لهذا اللقاء آثار طيبة في طول الهند وعرضها.. بينما يقوم الشيخ بهذه الجهود الناجحة فوجئ العالم الإسلامي المقهور بالهجوم على الكويت في الثاني من آب/ أغسطس ١٩٩٠م... فإذا بمسلمي الهند، وإذا بالشيخ الندوي، وإذا بالدعاة والمسلمين جميعاً.. تنكّس رؤوسهم داخل الهند وخارجها... وإذا بالأمة كلها تشعر بأنها في مأتم، من جراء هذه الفعلة الغادرة الشنعاء.. ولا تدري ماذا تفعل مع غادر جبار لا يعرف الحوار، ولا يحكمه دين ولا خلق.. ويصور الشيخ الندوي هذا الوضع وعواقبه قائلاً:

«وإني كدارس متواضع للتاريخ الإسلامي، ومؤلف فيه، لا أذكر أن المسلمين من حيث الملة أصيبوا بمثل هذه الصدمة العنيفة التي أدت إلى خجل وذلة ومهانة منذ قرون عديدة، وتزيد هذه المأساة شدة ووطأة، أنها وقعت في منطقة عربية مجاورة للمنطقة التي كان منها الإشعاع الأول لاحترام الإنسان والعدل والإحسان، وجزاء الإحسان الإحسان والكرامة، ونجدة المظلوم والضعيف» [1].

(١) المأساة الأخيرة في العالم العربي - أبو الحسن الندوي - ندوة العلماء لكهنؤ - الهند ص ٧ .

وكعادته يحلل الشيخ الندوي الحدث الخطر من جوانبه الدينية والخلقية والمبدئية، ويسميه (المأساة الأخيرة في العالم العربي)، ويعزو خطورته إلى عدد من الأسباب تتلخص في رأيه في العوامل التالية:

١- إن غزو بلد كبير كالعراق لبلد صغير كالكويت يقدم مثالاً سيئاً لا يتطابق مع التعاليم الإسلامية الخلقية، والتقاليد الإسلامية فحسب، بل إنه يتنافى مع الضمير الإنساني، ومبادئ الأخلاق العامة.

٢- وقد تعاقبت بعد غزو العراق للكويت واستيلائه عليها الأعمال والتصرفات الشنيعة والمخزية التي لا يوجد لها نظير إلا في تاريخ الغزاة والفاتحين الجبابرة المستبدين في تاريخ الحروب.

٣- ثم إن القائد العراقي الرئيس صدام حسين قام بنسخ كل ما سجله من انتصارات خلال حربه مع إيران بالصلح مع إيران، على شروط إيران، من طرف واحد.

٤- كان الرئيس صدام يعقد به الأمل في بعض الأوساط المتفائلة أنه قد يكون مؤهلاً لملء الفجوة التي كانت تُلمس في قيادة العالم العربي أو يوفقه الله تعالى للاجتهاد من أجل توحيد الصفوف لمواجهة إسرائيل.

- ولكن خابت هذه الآمال والتطلعات، ولم تلبث هذه الأماني حين انقلب هذا البطل المغوار على إخوته وأشقائه وفتح جبهة جديدة داخل البلاد العربية.

٥- إن غزو العراق للكويت، وعدم إصغائه إلى نداء القادة العرب والمسلمين وعدم إنصاته لنصيحتهم وتماديه في موقفه، وتغاضيه عن جميع المخاطر التي تترتب من مثل هذا الموقف الطائش، قد أثارت شبهات ومخاوف بأن يسوقه طمعه أو طموحه -لا قدر الله- إلى التعرض للجزيرة العربية وبالأخص المملكة العربية السعودية التي تتولى خدمة الحرمين الشريفين وحفظها وصيانتها، والاحتفاظ بقداستها [١].

---

(١) المأساة الأخيرة في العالم العربي - أبو الحسن الندوي - ندوة العلماء لكهنؤ - الهند ص ٨ - ١٢ .

ولا ينسى الشيخ أن يربط هذه المأساة بخروج العرب عن رسالة الإسلام، وبالقومية العربية الإسلامية التي هيمنت على حزب البعث العربي الاشتراكي، الذي يقوده في العراق (ميشيل عفلق)- فكراً وصدام سلوكاً.. إنها -مثل نكبة ١٩٦٧م، ومثل ضياع فلسطين، ثمرة من الثمرات المُرّة التي يجنيها العرب من خيانتهم للإسلام وسلبيتهم في مواجهة القيادات الحزبية والفردية الملحدة..

ولقد بلغ الهم من الشيخ الندوي كل مبلغ، وهو يعيش الأيام الكالحة التالية للغزو..

إن عاطفته نحو العرب والمسلمين، وما كان يأمله في اقتراب العرب -بالصحوة الإسلامية- من يوم العودة إلى منهج الله الذي يكفل لهم استئناف قيادتهم لسفينة الحضارة... كل ذلك قد جعله يعيش أياماً عصيبة، ويعاني من هم كبير إلى حد لا يذكر معه أنه تأثر هذا التأثر قبل حدوث هذه الفاجعة... ولا يفوت الشيخ أبا الحسن - في هذا المقام- أن يعزو ما أصابه من همٍّ وحزن وقلق إلى حبه للعرب وانتمائه لهم:

«لقد أقلق هذا الحادث ذهني وفكري، وأقضّ مضجعي إلى حد لا أنكر أني تأثرت مثله قبل حدوث هذه الفاجعة في حياتي، لأني -وذلك فضل الله وتقدير العزيز العليم- منذ أن تطورت في القدرة على الكتابة، والخطابة، والدراسة، كرست ما كنت أملكه من قدرة محدودة للتعبير، وما توفر لي من وقت، على قضايا العالم العربي، وكانت الأمة العربية والدول العربية مجال عملي وشغلي الشاغل وموضوع دراستي، وكانت معظم مؤلفاتي وكتاباتي باللغة العربية أصالة، ثم نقلت هذه المؤلفات إلى اللغات الأخرى، وأستعير هنا ما قاله شاعر الإسلام «محمد إقبال» تحدثاً بالنعمة، وتعبيراً عن حقيقة الحال:

«إن كان مزماري عجمياً، فإن ألحانه عربية ونغمي عربي» [1].

(١) المأساة الأخيرة في العالم العربي - أبو الحسن الندوي - ص١٦-١٧ .

- لقد لخص لنا الشيخ في هذا المقام وفي هذه المأساة - حقيقة انتمائه للعرب... إنه انتماء أصيل عميق... إنه ليس تعاطفاً.. أو غيرةً إسلامية تقف عند حدود فرض الكفاية... إنه جزءٌ من تكوينه وجبلته.. إنه فرض عين...

ولئن كان بعض العرب في البلاد العربية يعيش هموم العرب - في دائرته الفردية، وفي حدود مصلحته الشخصية، وفي إطار الحفاظ على كيانه الاجتماعي والاقتصادي.. فإنَّ الشيخ أبا الحسن - كما يلمس القارئ لكلماته- مستعدٌّ للتضحية في سبيل عودة العرب إلى رسالتهم وقضية وجودهم بكل دمه وماله ومكانته...

- إن ذلك واضح جلي في كلماته.. فكلماته كلمات محبٍّ مستعد لبذل كل شيء في سبيل محبوبه وعاشقه.. وليس في كلماته أي أثر للصنعة أو التكلف..

- لقد خاصم الشيخ على كره منه- كثيراً من القيادات العربية.

- وقد منع الشيخ من دخول كثير من البلاد العربية، لمجرد إخلاصه وصراحته في تقديم النصيحة..

- وقد أساءت به الظن بعض القيادات التي لم تستطع أن ترتفع إلى مستوى إدراك أنه يعمل لمجد بلادها، وإلى إدراك أن صديقك من صَدَقَكَ لا من صَدَّقَكَ!!.

- وانطلاقاً من تلك الروابط الكبيرة بين الشيخ الندوي والعرب.. ومن شعوره بعمق مأساة الخليج، ودور القومية العربية اللادينية الهدام فيها- انطلاقاً من كل ذلك كان موقفه من مأساة الخليج!!.

الشيخ أبو الحسن الندوي، ومحاولات التفاعل مع القادة والمفكرين العرب:

على الرغم من أن أكثر الحكام العرب لم يألفوا مراسلة الدعاة أو تلقي النصائح منهم، فقد أتيح للشيخ أبي الحسن الندوي، بأسلوبه الحكيم، أن ينصح كثيراً منهم، سواء بطريقة الالتقاء بهم مباشرة، أم بطريقة الكتابة إليهم..

- وقد تبادل الشيخ الرسائل مع عدد من الحكام والوزراء العرب، على رأسهم الملك فيصل بن عبد العزيز، والملك خالد بن عبد العزيز -رحمهما الله- والملك فهد بن عبد العزيز، والأمير عبد الكريم الخطابي، وسمو الأمير مساعد بن عبد الرحمن آل سعود، والأمير الحسن بن طلال، والشيخ حسن بن عبد الله آل الشيخ..

- أما مراسلته للمفكرين، والمثقفين العرب، فهي كثيرة، وموصولة، ومن أهم من راسلهم الشيخ أبو الحسن: الشيخ عبد الله بن حميد، والشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز، والشيخ محمد بهجت البيطار، والشيخ محمد بهجت الأثري، والشيخ عبد الله بن علي المحمود، والشيخ أحمد عبد العزيز المبارك، والشيخ عبد الفتاح أبو غدة، والدكتور الشيخ يوسف القرضاوي، والشيخ البهي الخولي، والدكتور مصطفى السباعي، والأستاذ سيد قطب، والشيخ محمد الغزالي، والشيخ علي الطنطاوي، والأستاذ محمد أسد، والأستاذ محمود محمد شاكر، والأستاذ أنور الجندي، والأستاذ أبو بكر القادري. وغيرهم[1].

وكان لبعض الحركات الإسلامية المشهورة في البلاد العربية نصيبها من حوارات الشيخ ونصائحه..

---

(١) الشيخ أبو الحسن الندوي : رسائل الأعلام. ص ١٨٣ طبع دار الصحوة بالقاهرة ١٤٠٥ وانظر صفحات الكتاب كله.

وكما كان يحرص على أن تكون (الدعوة) مناط أحاديثه مع الرؤساء، والمفكرين فكــذلك، كان محور (الدعوة) مناط تركيزه في حواراته مع الحركات الإسلامية..

إن الشيخ يرى - وقد ذكر ذلك بوضوح في خطابه لأقطاب هذه الحركات - أن الدعوة هي البذرة، وأن الوصول إلى التمكين السياسي في الأرض هو الثمرة، وأن الاهتمام يجب أن يتجه إلى البذرة، ويُتْرَك أمر الثمرة لله سبحانه يمنحها عندما تتوافر الأهلية، وتتحقق الشروط..

أما التركيز على الثمرة (أي الحكم والسياسية) دون السير في الطريق الطبيعي للأشياء، وهو الاهتمام ببذرة الإيمان، وبالتربية الفكرية والنفسية والدعوية والوجدانية، فهو قلب للأشياء، ووضع للعربة أمام الحصان، وهو منافسة ضمنية لأهل الدنيا، ذلك لأنه ليس من مصلحة الدعوة أن يعمل على أن يكون هو نفسه أو حزبه حاكماً لكي يطبق الإسلام... فدون ذلك أهوال كثيرة، بل من واجبه أن يعمل على أن يكون الحكام مسلمين حقيقيين، وأن يصل الحاكم المسلم إلى الحكم، من أي طريق فالمهم أن يصل الدين.. فذلك أدعى إلى تجاوز الشبهات والصراعات وصور العنف المعروفة..

وفي سنة ١٩٥١م زار الشيخ أبو الحسن الندوي مصر، وكانت حُبْلى بالأحداث، فأتيح له أن يتكلم في جمع كريم من أبناء الحركة الإسلامية.. وكان مما خاطبهم به قوله: «إن العالم العربي الذي تعيشون فيه أضعف أعضاء جسم العالم الإسلامي» [1].

وفي ظل هذا الواقع المريض، يرى الشيخ الندوي، أن التركيز على العلاج الدعوي، والتربوي آكد وآصل، وأعمق في التأثير الحضاري، بدل القفز إلى العمل السياسي وإتاحة الفرصة لزعماء الانقلابات العسكرية لإجهاض العمل

(١) الشيخ أبو الحسن الندوي: أريد أن أتحدث إلى الإخوان ص ١٨. ط لكهنؤ.

الإسلامي في مراحله المبكرة.. ذلك لأنهم مستعدون لتدمير كل شيء إذا تعارض ذلك مع مصالحهم ومقاعدهم الرئاسية..

وفي أسلوب حكيم يترجم عن ودٍّ عميق، وشعور أخوي صادق، يُلَفتُ الشيخ الندوي نظر أقطاب هذه الحركات الإسلامية إلى منهجه الدعوي الذي ينصحهم به. فيقول لهم:

«لقد امتازت دعوة الأنبياء وجهودهم بتجردها من التفكير في المنافع المادية والثمرات العاجلة، فكانوا لا يبتغون بدعوتهم وجهادهم إلا وجه الله، وامتثال أوامره وتأدية رسالته، تجردت عقولهم وأفكارهم من العمل للدنيا ونيل الجاه وكسب القوة لأسرتهم أو أتباعهم والحصول على الحكومة، حتى لم يخطر ذلك ببال أصحابهم وأتباعهم، وكانت هذه الحكومة التي قامت لهم في وقتها، والقوة التي حصلت لهم في دورها، لم تكن إلا جائزة من الله ووسيلة للوصول إلى أهداف الدين، وتنفيذ أحكامه، وتغيير المجتمع، وتوجيه الحياة كما قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ﴾[1]، ولم تكن هذه الحكومة قط غاية من غاياتهم، أو هدفاً من أهدافهم، أو حديثاً من أحاديثهم، أو حلماً من أحلامهم، إنما كانت نتيجة طبيعة للدعوة والجهاد كالثمرة التي هي نتيجة طبيعية لنمو الشجرة وقوة إثمارها [2].

ثم يتوجه الشيخ الندوي بعد هذا النصح العلمي غير المباشر إلى أقطاب الحركة الإسلامية بطريقة مباشرة، قائلاً لهم:

«فكذلك الدعوة الإسلامية التي تكلفتم بها، والجهاد الذي أخذتموه على عواتقكم يفرض عليكم إنشاء جيل جديد للإسلام: جديد في قوة إيمانه،

(١) سورة الحج، الآية: ٤١ .

(٢) الشيخ -أبو الحسن الندوي: أريد أن أتحدث إلى الإخوان ص ٣١-٣٢. ط لكهنؤ.

جديد في حماسته وثقته، جديد في أخلاقه، جديد في تفكيره وعقليّته، جديد في كفاءته العلمية واستعداده العقلي، وإن نجاحكم في هذا الإنتاج البشري مقياس نجاحكم في مهمتكم ودعوتكم» [١].

«إنكم أمام أنقاض عقلية، وركام بشري، وخامات مهملة تبنون بها بيتاً جديداً، وتصنعون بها سفينة جديدة، تمخر عباب الحوادث والموانع، إنكم ستبدؤون في عمل جديد، وجهاد جديد، يستغرق منكم وقتاً طويلاً ويستنفد جهوداً عظيمة» [٢].

(١) المصدر السابق : ص ٤٥-٤٦.

(٢) المصدر السابق : ص٤٧ .

و بعد:

فلقد عاش الشيخ أبو الحسن الندوي قضايا العالم العربي، في مستوياتها المختلفة، الفكرية والسياسية والدعوية.. عاشها وهو يتألم لواقعها الأسيف، ويرصده رصد الخبير به، ويُظهر انحرافاته نحو الشرق المادي الشيوعي والغرب المادي العلماني. وعاشها وهو يرصد الانحراف الشائن نحو القومية العربية بمعناها اللاديني، وكيف نجح الاستعمار الصليبي والضغط اليهودي في تمكين الأحزاب القومية (البعثية والعلمانية) من الوصول إلى الحكم وتوجيه التربية والإعلام والثقافة في الاتجاه المدمر..

وبذل الشيخ جهوداً مضنية ليفيق العرب من هذا التيه ويكتشفوا ذاتهم، ويدركوا أنهم طليعة المسلمين، وأنهم مبتعثون، وأنهم أرقى حضارياً من خصومهم، وأنهم الأمل في إنقاذ الحضارة الإنسانية..

وتألم الشيخ كما يتألم الوالد والمربي اللذان لم يُستجَب لهما.. وخُولفا.. بل وعوملا بعقوق.. لكنهما مع ذلك لم يستطيعا -ولا يستطيعان- التخلص من عاطفتهما ورسالتهما في الشدائد والمحن.. فعاش الشيخ مأساة فلسطين، بقلب عربي وعقل مسلم.. وعاش أزمة الخليج، كما يعيش الإنسان مأساة حقيقية..

وكان الإسلام في عقله وقلبه يضيء له الطريق، فيضيء به للتائهين من حكام العرب ومثقفيهم الطريق، ويصف به الدواء والعلاج.. فلعل المارد العربي النائم يفيق..

لم ييأس الشيخ من غفلة العرب، ولا من لهوهم وترفهم، ولا تشرذمهم، واستعلائهم، وخيانة بعضهم للإسلام، بل ظلَّ -أطال الله عمره- يواصل العطاء ويتعلق بكل أمل، ويكتب في كل يوم... مخاطباً كل بلد عربي، ومعالجاً كل أزمة عربية.. ومتفاعلاً مع كل حدث بما يلائمه..!!

وقد حاولت أن أكتب في هذه الصفحات الوجيزة -عن موقف الشيخ أبي الحسن من قضايا العالم العربي.. لكن الشيخ -جزاه الله خيراً- أبى ذلك عليَّ، بغزير فكره، وروائع بيانه.. فكانت نصوصه الرائعة تطغى على فكري، وترغم عقلي على أن يترك المجال لها.. ليكتب الشيخ موقفه بنفسه.. وليتضاءل -بالتالي- دوري..!!

إنني أشعر أنني فسرت الماء بالماء، ووصفت الشمس بالشمس.. لكنني.. مع ضيق الوقت وقلة الزاد -بذلت جهدي.. حباً وإكباراً.. وذلك حسبي..

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب!!.

د. عبد الحليم عويس

القاهرة في الثاني والعشرين من

صفر ١٤١٧ هـ - الثامن من يوليو (تموز) ١٩٩٦م

البحث السادس

ملامح قصة الأطفال الموجهة
في مجموعة (قصص من التاريخ الإسلامي للأطفال)
لأبي الحسن الندوي

الدكتور سعد الله أبو الرضا (*)



(*) أستاذ بكلية آداب بنها - مصر. أستاذ بكلية اللغة العربية - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، بالرياض- السعودية. ومدير تحرير مجلة الأدب الإسلامي.

مدخل:

القصَّة جنس أدبي يحقق إثراء الفكر وإمتاع الوجدان، وهي من أجل ذلك وسيلة لتحقيق كثير من الغايات التي اختلفت باختلاف المذاهب الأدبية، وربما كانت الواقعية بتوجهاتها الاجتماعية أكثر المذاهب توظيفاً لها في التعبير عن قضايا الفرد والمجتمع، والتبشير بالتغيير نحو الأفضل والأصلح، من هنا فقط اصطبغت القصة الواقعية بكثير من ملامح الواقع، واعتمدت على البيئة [١] في تشكيل بنيتها، ودقة رسم الشخصيات فيها، والكشف عن السلبيات، والإرهاص بتغييرها، وتوظيف لغة الحياد، وربما كان التزام الحياد الدرامي في الراوي المتكلم، من أهم السمات في القصة، لدرجة جعلت بعض النقاد يصفون هذا الموقف بالجمود المطلق وخلوه من المشاعر[٢].

وبرغم أن هذا المبدأ يكاد أن يكون ملمحاً مميزاً للقصة اليوم، لكن المعالجة الفنية للتاريخ في القصص يمكن أن تتجاوز هذا الحياد الدرامي، خاصة في قصص الأطفال الموجّهة، دون أن تستغرق المباشرة القصة.

حقاً إن التجرد والحيدة يدعمان البناء الفني، ومن هنا كانت صعوبة قصة الأطفال الموجهة، في وقوفها على الخط الفاصل بين الحيدة والمباشرة، وعند هذا الخط تتعدد وسائل التوجيه،كما سوف يتضح في مجموعة (قصص من التاريخ الإسلامي للأطفال) لشيخنا أبي الحسن الندوي.

وأعني بالتوجه هنا توظيف الكاتب للوسائل التعبيرية في الشرح والتفسير مع المحافظة على الشكل القصصي، وتحقيق غاياته الفنية والفكرية الإسلامية، وذلك يتصل بالرؤية والأداة الكاشفة عنها، وما بينهما من ارتباط عضوي[٣]، وسوف أشير إن شاء الله خلال معالجتي لهذه المجموعة

---

(١) انظر د. إحسان عباس كتاب العربي (٢٤) القصة العربية أجيال... وآفاق ٨٩/٧/١٥ ص٩.

(٢) السابق نفسه ص ١٦.

(٣) انظر د. عبد المحسن طه بدر الرؤية والأداة. ط٣ دار المعارف. القاهرة. المقدمة.

القصصية، إلى بعض هذه الوسائل التعبيرية، التي تشكل خاصية التوجيه، وإسهامها في بناء هذه القصص، وتجليها كملمح مميز لها في طريقة الكاتب في التأليف والإبداع.

العوامل المؤثرة:

ولقد كتب الشيخ أبو الحسن الندوي للكبار، وللناشئة، كما كتب للأطفال، ومن أهم ما كتبه في هذا المجال مجموعة (قصص النبيين للأطفال)، ثم (قصص من التاريخ الإسلامي للأطفال) معتمداً على كثير من المصادر التراثية في التاريخ الإسلامي وغيره منها: سيرة ابن هشام، وزاد المعاد لابن القيم، وصحيح البخاري، والكامل في التاريخ لابن الأثير، والبداية والنهاية لابن كثير، وغيرها، كما استفاد من بعض المصادر الأجنبية مثل كتاب (جنكيز خان) لهيرلد ليمب، وكتاب (الدعوة إلى الإسلام)، لتوماس آرنولد.

وإذا كان الشيخ قد ظهرت لديه موهبة الخطابة، فقد نمت وتجلت بفضل اتصاله بشيخه محمد إلياس، الذي التقى به في دلهي، وقد أعجب الشيخ أبو الحسن به: خاصة في توجهه للجماهير، وارتحاله إليهم، وحسن استقبالهم لخطبه، وتأثيره العظيم فيهم[1]، بفضل طريقته في الدعوة إلى الله، وعرضه للأدلة، وبسطها وسلامة ترتيبها، وتقديمه لما به تصلح أحوال المسلمين وتتطور، من هنا فقد أصبح شيخنا أبو الحسن خطيباً داعية، أو داعية خطيباً، ولقد شكل هذا التوجه معالجته لقصص التاريخ الإسلامي، إذ يغلب على هذه القصص أسلوب الخطيب الداعية، وهو مما يجلي فكرة القصة الموجهة لديه، كما سوف يتضح.

---

(١) انظر د. محمد رجب البيومي. أبو الحسن الندوي سيرة ذاتية.

ملامح التوجيه: الضمائر والعلاقات:

ففي قصته: (رسالة إلى رسول الله ﷺ) [١] يستثمر الشيخ ما روي من أن رجلاً جاء «يوم اليرموك إلى أبي عبيدة رضي الله عنه -قائد المسلمين- فقال: إنني قد تهيأت لأمري (أي للشهادة)، فهل لك من حاجة إلى رسول الله ﷺ. قال أبو عبيدة: نعم! تقرئه عني السلام، وتقول: يا رسول الله صلى الله عليك وعلى آلك وسلم! إنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً» [٢].

من ثم يتشكل الحدث في هذه القصة معتمداً على هذا الخبر، لتجسيد عنصر الحكاية بمعنييه اللغوي والفني [٣]، اللغوي على معنى النقل، أي النقل من التاريخ الإسلامي، وحكاية الكلام، والفني بمعنى توظيف هذا الحدث في بنية القصة لتحقيق الغايات الفنية، والإسلامية المنوطة بها، ومنها أن تثبت في ذهن الأطفال ما نعتقده نحن المسلمين من (وصول الميت إلى عالم الآخرة، واجتماع الشهيد برسول الله ﷺ) [٤]، وبرغم أنها فكرة مجردة لكن الشيخ يحاول بحسه الخطابي أن يقدم لها ما يسوغها بدليل بسيط يناسب مرحلة الطفولة المتأخرة (من ٩-١٢سنة)، منتقلاً عن طريق التماثل من علاقة مألوفة بسيطة يدركها الأطفال، هي علاقة الأب بالابن، وما بينهما من حب وحدب ورعاية، إلى علاقة أخرى تماثلها في كونها بين طرفين لكنها تحتاج إلى مستوى أرقى في الإدراك، وهي علاقة الأمة بالرسول ﷺ، وما أثر عنه من رعاية شديدة لها، ليقيس الطفل الثانية على الأولى، فتستقر الفكرة العقدية المبتغاة في ذهنه، ويستطيع استيعابها، فالطفل في هذه المرحلة السنية المشار إليها يكون قادراً على القياس، وإدراك بعض العلاقات [٥].

---

(١) أبو الحسن علي الحسني الندوي، قصص من التاريخ الإسلامي للأطفال، نشر مؤسسة الرسالة إصدار رابطة الأدب الإسلامي العالمية، العدد(٤) ١٤١٢ هـ١٩٩٢/م ص ٨٢.

(٢) السابق نفسه وصفحة ٨٣.

(٣) انظر المعجم الوسيط ج١ مجمع اللغة العربية، المكتبة العلمية طهران ص ١٩٠.

(٤) قصص من التاريخ الإسلامي للأطفال ص ٨٣.

(٥) انظر: غسان يعقوب (تطور الطفل عند بياجيه) دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٨٢م ص٨١ وكذلك انظر: النص الأدبي للأطفال، د. سعد أبو الرضا، ط١ إصدار رابطة الأدب الإسلامي العالمية ١٤١٤هـ ١٩٩٣/م ص٣١.

وهو يقدم هذا الدليل مقترناً بعدة وسائل تعبيرية أخرى أسهمت في تشكيل القصة، وإعطائها هذا الطابع الموجه الذي يعد من أهم سمات قصص الأطفال في هذه المجموعة عند الشيخ أبي الحسن، وهو ما خصصنا له هذه الدراسة، وهو في الوقت نفسه نتيجة لحسه الخطابي في الاتصال بالجماهير، من هذه الوسائل التعبيرية هيمنة ضمير الخطاب (ك) على الفقرة الأولى من القصة هيمنة تجسد قوة الاتصال بين المرسل والمستقبل، فيتأكد التواصل المرجو بينهما، والتعاطف وحسن التلقي بين الطفل والعمل الأدبي، يتضح ذلك في (جاءك - أباك - لك - منك بأبيك - أبوك - عنك - صحتك).

التصوير:

فإذا ما تحقق هذا المستوى من التواصل والإدراك والاستيعاب بالنسبة للطفل، لا يلبث الشيخ أن يدعمه بوسيلة تعبيرية أخرى في الفقرة الثانية هي التصوير البياني المتمثل في التشبيه، الذي برغم فنيته يمكن أن يناسب هذه المرحلة من مراحل الطفولة، فهو قياس على شكل صورة بيانية، تكشف عن علاقة الدنيا بالآخرة، وتوضح اعتقاد المسلمين أن الموت هو الجسر الذي يربط بينهما، و«كل من عبر هذا الجسر من المسلمين ووصل إلى الآخرة، واجتمع هنالك برسول الله ﷺ، وتشرف بزيارته، ولا بد أن رسول الله ﷺ سائل عن أمته» [1].

وإذا كان ضمير الخطاب هو المهيمن في الفقرة الأولى، فإن ضمير الغياب هو المسيطر في الفقرة الثانية، وذلك انتقال من المخاطب: الطفل الموجهة إليه القصة، إلى الغائب وهم المسلمون، الذين تتحدث القصة عن معتقدهم في الصلة بين الدنيا والآخرة، وعلاقة المصطفى ﷺ بأمته، ومكانة الشهيد، وصلته بذلك المعتقد، عندما ينتقل من الدنيا إلى الآخرة، وينال

(١) السابق نفسه والصفحة نفسها، وكذلك قصص من التاريخ الإسلامي للأطفال ص٨٣.

محظوة بلقاء المصطفى ﷺ، من ثم كان الانتقال من ضمائر الخطاب إلى ضمائر الغياب، وسيلة تعبيرية أُخرى لتثبيت الفكرة ودعمها في ذهن الطفل، عن طريق الالتفات بواسطة هذه المغايرة بين الضمائر، وأثر هذه المغايرة في تهيئة الطفل للتلقي والاستيعاب للفكرة.

وتأتي علاقة التخالف في الفقرة الثالثة ليستكمل بها شيخنا تقرير وتثبيت هذا المعتقد في نفس الطفل، فإذا كانت علاقة التماثل في الفقرة الأولى قد كشفت عن اهتمام الابن بالاتصال بأبيه، لإبلاغ سلامه إليه عن طريق القريب أو الصديق المسافر، وحرص الوالد على استقبال أخبار ابنه والاتصال به بواسطة هذا القريب أو الصديق المسافر، كما يحرص الرسول ﷺ بعد الموت على الالتقاء بالشهيد، وسؤاله عن أخبار أمته اهتماماً بهم، فإن الفقرة الثالثة تبين أن القريب أو الصديق المسافر قد لا يلتقي بالأب، ومن ثم لا تصل أخبار الابن وسلامه إلى أبيه ولا يتم الاتصال بينهما، وهنا تتحقق المخالفة في أننا نحن المسلمين لا نشك في وصول الميت إلى عالم الآخرة واجتماع الشهيد لمكانته برسول الله ﷺ واتصاله به، وسؤال المصطفى عن أحوال أمته، وذلك معتقد للمسلمين لا يتبدل أو ينتقض، وعلى أساس هذه المخالفة يمكن أن تتهيأ نفس الطفل لاستقبال ذلك المعتقد، ومن ثم يستقر في وجدانه.

التناص وحكاية الحدث:

ويشكل التناص مع القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف لَبِنَةً مهمة أخرى في بنية هذه القصة، خاصة وهي تتحدث عن انتصار المسلمين، ووعد الله لهم بذلك، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾[1] وكذلك حديث المصطفى ﷺ عندما بشر بذلك «**لتفتحن كنوز كسرى وقيصر**»، والنصان معاً في صلب القصة بشرى لكل مؤمن بالنصر، مما

(١) سورة الصافات، الآيتان: ١٧٢ - ١٧٣ .

يجلي الرغبة في الشهادة في ميدان الحرب غاية سامية إيجابية، يتطلع إليها المؤمنون، لأنها شهادة قرينة بالنصر، من ثم فقد جاء ذلك الرجل إلى أبي عبيدة وهو موقن بالأمرين معاً الشهادة والنصر، متطلع إليهما معاً، حريص على لقاء المصطفى ﷺ، وبذلك يسهم التناص في تشكيل الحدث مجسداً عنصر الحكاية، كما أشرت في بداية هذه الدراسة، والحكاية هنا، هي ما يحكى ويقص، من مرسل إلى مستقبل مباشرة أو استحضاراً، فيتأكد التواصل وحسن التلقي، والاستيعاب والتوجيه في القصة. وهكذا تتآزر هذه الوسائل التي تكشف عن محاولة الشيخ أبي الحسن تشكيل قصة للأطفال، تعتمد على الخبر التراثي، وتتوسل بوسائل الحس الخطابي لتثبّت في نفس الطفل ذلك المعتقد الإسلامي، وهو الاتصال بين الدنيا والآخرة، والتقاء الشهيد هناك بالمصطفى ﷺ.

والقصة بتركيزها على الحدث على هذا النحو، فقد لا يتاح للعناصر القصصية الأخرى، من عناية الكاتب ما يبرزها، وذلك لصغر حجم القصة، برغم فاعلية هذه العناصر الأخرى في هذه المساحة الضيقة، وهي فاعلية جلية في تحديد المكان والزمان والشخوص، إذ يتجلى ذلك في كون هذه المعركة معركة اليرموك التاريخية في الشام بقيادة أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه.

ويمكن أن تمثل هذه القصة بهذا التوجه وذلك التشكيل مجموعة من قصص هذا الكتاب منها (رحلة سيدنا عمر بن الخطاب إلى بيت المقدس) [١]، مع فارق جليّ بينهما أن قصة (رسول الله ﷺ) تعتمد في تشكيلها على الحدث بالدرجة الأولى، بينما حكاية (رحلة سيدنا عمر بن الخطاب إلى بيت المقدس)، تعتمد الشخصية في بنائها وتطورها، كما تعنى بالحدث وتجليه.

التوجه والحس الخطابي:

ومما يكشف عن التوجيه أيضاً كملمح في القصة نتيجة للحسّ الخطابي في هذه المجموعة القصصية: أن الكاتب قد يتجه مباشرة إلى متحدث أمامه،

(١) انظر السابق نفسه ص ٩٠.

وكأنه يخاطبه، وذلك امتداد لتوظيف ضمائر الخطاب التي سبقت الإشارة إليها كوسيلة تعبيرية، يتضح ذلك في قصته (قدْر الشيء حق قدره والجزاء الأوفى عليه) [١]، التي تتناول موقفاً للحسن بن علي رضي الله عنهما، عندما رأى عبداً يأكل رغيفاً، فيضع لقمة في فمه، ويقدم الأخرى للكلب دون مغابنة حتى انتهى الرغيف، فما كان من الحسن رضي الله عنه، وإعجابه بموقف العبد إلا أن اشتراه وأعتقه، كما اشترى له البستان الذي وجده يؤاكل الكلب بجواره، يقول الكاتب في هذه القصة:

«كلكم تعرفون الحسن بن علي ابن السيدة فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ وابن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه... وإليكم حكاية تدل على علو همته، وأنه قدَّر الفعل الحسن حق قدره، والجزاء الأوفى عليه...» [٢].

وكذلك في قصة (جواب كان السبب في إسلام مئات ألوف من الناس) [٣] التي يكشف فيها الكاتب عن إسلام التتار بفضل حكمة ولباقة داعية إسلامي هو الشيخ جمال الدين من بخارى عندما رد بحكمة على تغلق بن تيمور خان ملك كاشغر، الذي أسلم ودعا غيره من مواطنيه إلى الإسلام، وبذلك تغير مستقبل الأسرة الحاكمة في تركستان من الكفر إلى الإسلام.

يقول الكاتب في هذه القصة:

«لعلكم سمعتم أو ستقرؤون في كتب التاريخ قريباً -خبر غارة التتار على العالم الإسلامي في القرن السابع الهجري..»

«إليكم حكاية من حكايات هؤلاء الربانيين الكثيرة الذي يرجع إليهم الفضل في إقبال هؤلاء التتر على الإسلام..».

---

(١) السابق نفسه ص ٩٧ .

(٢) انظر السابق نفسه ص ٩٠.

(٣) السابق نفسه ص ١٤٤.

ويلاحظ في كلتا القصتين أثر (ضمير الخطاب الجمع) في استحضار الكاتب للمتلقين من الأطفال كلون من ألوان الاتصال والتجاوب مع النص، والتوجيه المباشر لهؤلاء المتلقين، وذلك ملمح يتضح في كثير من حكايات هذه المجموعة، وهو في الوقت نفسه نتيجة من نتائج الحس الخطابي لدى الشيخ أبي الحسن الندوي وهو يتوجه إلى الأطفال بحكاياته المستمدة من التاريخ.

وتأمل استخدام الشيخ للفظة (حكاية) بدلاً من قصة، لأنها أبسط في شكلها، وأقرب إلى المتلقين من الأطفال، لوضوح الحدث فيها، وبساطة التعقيد، وقلة الشخصيات، واستخدام لفظة (كان..) بصورة لافتة للنظر، مؤكدة اتصال المرسل بالمستقبل وتواصلهما، وتجلي الدرس التعليمي المتمثل في لباقة الداعية إلى الله، وملاءمة الإسلام بمبادئه وتعاليمه لكل البشر.

بالإضافة إلى أن هذه الحكايات يمكن أن تكون امتداداً للرصيد الموروث على المستويين المحلي والعالمي لحكايات الأطفال، خاصة والفعل الماضي (كان) مع تغير ما يسند إليه كملمح لغوي مهيمن على كثير من قصص هذه المجموعة، وارتباط هذا الفعل بمعنى الحكاية اللغوي الذي أشرت إليه سابقاً، بالإضافة إلى ما أثر من حكايات (كان.. يا مكان) للأطفال التي تعتمد على الراوي، وحشد الوسائل اللغوية التي أشرت إلى بعضها، من أجل تقريب المتلقي الطفل من المبدع الذي يحكي ويفسر ويسرد أحياناً، وتجلي ملمح التوجيه مشكلاً لبنية هذه القصص.

كل ذلك من الأسباب التي تجعلني أقترح عنواناً آخر لهذه المجموعة، هو: (حكايات للأطفال من التاريخ الإسلامي) بدلاً من (قصص من التاريخ الإسلامي للأطفال)، خاصة والمؤلف نفسه استخدم لفظة حكايات [1] في معالجاته للقصص الأخيرة من هذه المجموعة.

---

(١) انظر على سبيل المثال الصفحات: ١١٧، ١٢٤، ١٢٠.

المقدمة التفسيرية السردية:

وفي قصته (الله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين) [١]. نلاحظ أولاً التناص في العنوان مع سورة يوسف عليه السلام، بتوظيف مادة (حفظ)، ونسبة الحفظ لله سبحانه وتعالى في كلا الموقفين: في الآية الكريمة عندما جاء إخوة يوسف عليه السلام يستأذنون أباهم في اصطحاب أخيهم الصغير إلى مصر، حيث يوسف أمين على خزائنها، دون أن يعلموا حقيقته، وكذلك في القصة الأولى من المجموعة التي نعرض لها، حيث يشير الكاتب إلى حفظ الله تعالى لرسوله الكريم ﷺ ورعايته له، ومن ثم يتشكل الحدث بأجزائه وقد هيمنت عليه فكرة حفظ الله للرسل.[٢]

ومن مقومات الحس الخطابي هنا أيضاً محاولات الكاتب التفسير والشرح والبسط ليصل إلى عقل المتلقي ووجدانه، سواء كان هذا الشرح لبعض مفردات اللغة الموظفة، أو للمواقف والأحداث، ومن ثم تتعدد وسائل ذلك الشرح، ليتحقق التواصل بين المرسل والمستقبل، ويتحقق التأثير والإمتاع، وهما عماد الخطاب في الخطبة، ولقد تجلى ذلك في هذه القصة كأدوات للكشف عن رؤية الكاتب التي يبغي تقديمها للأطفال، لتشكيل وجداناتهم بها، وتثبيت العقائد الصحيحة، والأخلاق القويمة في عقولهم وقلوبهم، وهي هنا يمكن أن تتمثل في الإيمان بالرسول ﷺ ورسالته، ورعاية الله سبحانه وتعالى وحفظه له، والحث على الجهاد في سبيل الله.

ويتصل بهذا الموقف الفني الموجه للقصة، المتمثل في الشرح والتفسير، والذي هو صدى للحس الخطابي لدى شيخنا، المقدمة السردية التمهيدية للقصة، التي يحاول الكاتب فيها الإضاءة للمواقف المشكلة للقصة، عندما

(١) انظر قصص من التاريخ الإسلامي ص ١٣، وكذلك انظر سورة يوسف آية (٦٤).
(٢) انظر على سبيل المثال القصص التالية في هذه المجموعة : المضيف الجائع ص ٢٠ ، شهامة اليتيم ص ٢٣، من دون أحد ص ٤٥، على الخشبة ص ٦١، رسالة إلى رسول الله ﷺ ص ٨٢، الغرم بدل الغنم ص ٨٥، رحلة سيدنا عمر بن الخطاب إلى بيت المقدس ص ٩٠، قدر الشيء حق قدره والجزاء الأوفى عليه ص ٩٦، لاحاجة إلى ذكر اسمي ص ١٠٥، جواب كان السبب في إسلام مئات ألوف من الناس ص ١١٤.

يحين حديثه عنها والتحامها بجسم الحدث مشكلة له، ولذلك تبدو هذه المقدمة كتمهيد، برغم اتصالها بما يليها من أحداث جزئية، وهي في الوقت نفسه ذات طابع تفسيري سردي، وذلك ملمح يتجلى في كل قصص هذه المجموعة تقريباً.

أثر الاستفهام في تشكيل الحدث:

ويتضح الأسلوب الإنشائي المتمثل في الاستفهام، والإجابة عنه وسيلة تعبيرية أخرى تكشف عن الحس الخطابي الموجه عندما يوظفها الكاتب للشرح والتفسير في القصة، مستحضراً جمهور الأطفال الذين (يوجه) إليهم هذه القصة، وفي الوقت نفسه: يبني به حدثه خلال تشكيلها، وقد يكون هذا السؤال نصاً تراثياً لكن الكاتب يجعله وإجابته يلتحمان ببنيته القصصية، ويسهمان في نموها، من هذه المواضع، قول الرسول ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه، عندما كان يتعجب من عدم اكتشاف الكفار لهما برغم يسر ذلك وهما مختفيان بغار ثور: «**ماظنك باثنين الله ثالثهما**»[1] ثم يقرن الكاتب بذلك السؤال النص القرآني تأكيداً لحفظ الله لرسوله ﷺ وصاحبه رضي الله عنه، وكأنه إجابة عن السؤال: ﴿**إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا**﴾ [٢] مما ينمي الحدث، ويكشف عن الغاية الفكرية التي يجسدها العنوان، والمتمثلة في ﴿**فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**﴾ [٣]، فيستقر في ذهن الأطفال الإيمان بالله ورسوله ﷺ، وحفظه له.

وهناك أسئلة تسهم في تشكيل حدث القصة أيضاً، لكن الكاتب لا يقدم إجابة عنها، ومع ذلك تحقق جانب الشرح والتفسير، لأن السياق القصصي يوحي بهذه الإجابة تصريحاً أو تلميحاً، كما أنها ترتد شاهدة على عنوان القصة، مجسدة لتحققه، وذلك كقول الكاتب تعليقاً على عدم اكتشاف

---

(١) السابق نفسه ص ١٥.

(٢) سورة التوبة، آية ٤٠.

(٢) سورة التوبة، آية ٦٤ .

المشركين للرسول ﷺ وصاحبه، برغم وصولهم إلى مدخل الغار، ولكن إرادة الله وحفظه جعلت العنكبوت تنسج نسجها على باب الغار!! (وكيف يدخل أحد الغار، ولا يقطع نسج العنكبوت، ويبقى على حاله؟) (١).

من ثم يتآزر هذان السؤالان بإجابتيهما في تشكيل هذا الموقف الكاشف عن حفظ الله لرسوله ﷺ، وتدعم طريقة الكاتب هذه في الحكاية (بمعنى ما يحكى ويقص) غايته في تثبيت ما ينيطه بالقصة من معتقدات إسلامية.

وبرغم أن الاختفاء في الغار حدث مستقل، لكن الكاتب يربطه بغيره من المواقف التي يلتقطها من التراث، للكشف عن حفظ الله للرسول ﷺ كما سوف يتضح، وليس هذا الربط ربطاً تاريخياً، وإنما هو ربط قصصي منطقي، وبذلك يستثمر الكاتب السيرة النبوية الكريمة وأحداث التاريخ في بناء حكاياته للأطفال.

ويشير الكاتب في حديثه إلى بعض التفاصيل المتعلقة ببعثة المصطفى ﷺ وجهاده ضد الشرك والمشركين، وهجرته إلى المدينة، مبرزاً لبعض مظاهر رعاية وحفظ الله لرسوله عليه الصلاة والسلام في هذه الأحداث، حتى تهيأ الرسول للغزو دفاعاً عن الحق، ورداً لكيد المشركين، وفي إحدى هذه الغزوات، نام الرسول أثناء العودة منها، تحت شجرة، وترك سيفه معلقاً بها، وانتهز أحد المشركين هذه الفرصة، والتقط السيف ووقف به على رأس الرسول مهدداً إياه، سابراً شجاعته وثباته، قائلاً له: من يحميك مني الآن؟ فيجيبه الرسول ﷺ في ثقة وتلقائية: الله، مما أذهل المشرك فسقط السيف من يده، وبذلك ينقلب الموقف، إذ يلتقط الرسول ﷺ السيف، ويسأل خصمه عما يمنعه هو منه الآن؟ وبينما يستجدي المشرك عفو الرسول، يطلب منه ﷺ الشهادة، لكن الرجل يرفض، ويعاهد الرسول ﷺ على أن لا يقاتله، ولا يكون مع قوم يقاتلونه، مما

(١) قصص من التاريخ الإسلامي للأطفال ص ١٤ .

جعل الرسول ﷺ يعفو عنه، ويذهب الرّجل إلى أصحابه، مقرراً لهم أنه التقى بخير البشر.

وإذا كانت معظم الأحداث السابقة في هذه القصة مقررة في مصادر التراث الإسلامية، فإن أول مسوغات التقاط الكاتب لها ومحاولة الربط القصصي بينها، أنها جميعاً تكشف عن مظاهر حفظ الله للرسول ﷺ ورعايته له، كما أوضحت.

ويتضح السؤال والإجابة عنه كوسيلة تعبيرية توجيهية في هذه القصة أيضاً، عندما يتناول الكاتب فيها موقفاً آخر من المواقف المشكلة لحدثها، وهو تلك الغزوة التي نام الرسول ﷺ تحت شجرة ليستريح أثناء العودة منها، يقول الكاتب في هذا الموقف من القصة، شارحاً معنى (الغزوة): (وخرج رسول الله ﷺ وآله في غزوة، هل تعرفون ما هي الغزوة) ؟ وتصبح الإجابة عن هذا السؤال شرحاً للمفردة، ومدخلاً لبناء الحدث في هذا الموقف ليتكامل مع غيره في تشكيل القصة:

«لعلكم تعلمون أن المسلمين كانوا يخرجون للجهاد في سبيل الله، وكانوا يقاتلون المشركين والكفار لوجه الله تعالى، ولعلكم تعلمون فضيلة الجهاد في سبيل الله؟ وكان النبي ﷺ يخرج أحياناً مع المسلمين وأحياناً يمكث في المدينة لشغل أو مصلحة، ويبعث جنداً من المسلمين.

فالغزوة ما خرج فيها رسول الله ﷺ في جند من المسلمين للجهاد في سبيل الله.

نعم، فخرج رسول الله ﷺ في غزوة ورجع عنها في الظهيرة، وكانت أيام الصيف، فأراد رسول الله ﷺ أن يستريح..» [1].

وتأمل فيما سبق تكرير (لعلكم) بما تتضمنه من خطاب يهيمن على هذه الفقرة وسياقها، ليستحضر المخاطبين، ويتحقق التواصل والتوجيه.

---

(١) السابق نفسه ص ١٦، ١٧ .

محورية الفعل الماضي (كان):

ومن الطبيعي في مثل هذا السياق القصصي الحكائي أن يسود الفعل الماضي، كملمح لغوي آخر، خاصة الفعل (كان) مع تغير ما يسند إليه، كما تتخذ الأفعال المضارعة، الدلالة الزمنية نفسها في هذا السياق، مسهمة في تشكيل عنصر الحكي القصصي الذي يجسد التوجيه، وهو في الوقت نفسه يجتذب الأطفال في جميع مراحل عمرهم، لكون هذا الزمن يدل على أحداث قد تمت وتحققت، خاصة عندما تتضمن ما يثير دهشتهم، بكشفها عما لا يتوقع؛ كاختفاء الرسول ﷺ وصاحبه رضي الله عنه بالغار، ووصول المشركين إليه دون اكتشافهم لمن فيه، وعدم خوف الرسول ﷺ من تهديد المشرك والسيف في يده.

وقد يكون مصدر الدهشة التحولات غير المتوقعة، خاصة عندما ترتبط ببعض مظاهر البطولة، كسقوط السيف من يد المشرك، والتقاط الرسول ﷺ لهذا السيف، وتحوله من مُهدَّدإلى مُهَدِّد، ولا تفسير لغير المتوقع فيما سبق إلا إرادة الله سبحانه وتعالى الحافظة لرسوله ﷺ، وصاحبه رضي الله عنه، وهو ما يجسد عنوان هذه الحكاية أو القصة، كما أن مظاهر البطولة والشجاعة هنا مما يناسب نمو الطفل في هذه المرحلة السنيّة التي تلائمها هذه القصة، وهي مرحلة الطفولة المتأخرة [1]، التي يميل الطفل فيها إلى المغامرة والبطولة والمنافسة والشجاعة، وهذه الحكاية من الحكايات التي يمكن أن تشبع هذه الميول.

بُعْدٌ جديد لمفهوم التاريخ الإسلامي:

والقصتان الأخيرتان في هذه المجموعة وهما: (فمن عفا وأصلح فزجره على الله)، و (رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه) يتضح فيهما كثير من

---

(١) انظر : ذكاء الحر: الطفل العربي وثقافة المجتمع، دار الحداثة - بيروت لبنان ط١ سنة ١٩٨٤ م ص٤٧ وكذلك انظر النص الأدبي للأطفال ص ٣٨ .

خصائص (التوجيه) التي أشرت إليها سابقاً، لكنهما تضيفان بعداً جديداً لمفهوم التاريخ الإسلامي في ذهن الأطفال، بكشفهما عن جانب من صراع المسلمين في الهند، ونضالهم من أجل عقيدتهم، والدعوة إليها، وهو جانب مجهول، به تكتمل حلقات هذا التاريخ وتتصل، ويتمثل ذلك في جهاد الإمام السيد أحمد بن عرفان الشهيد (١٢٠١-١٢٤٦هـ) الذي بويع بالإمارة سنة ١٢٤١هـ منشئاً دولة إسلامية على الحدود الشمالية للهند، قاومت المستعمر وروعته، بفضل أولئك الرجال الذين ربّاهم على الإسلام وتعاليمه.

كما تكشف هاتان القصتان أيضاً عن (التناص مع القرآن الكريم) في العنوان، وأن ذلك وسيلة تعبيرية يعتمد عليها الكاتب، للتأثير بها في المتلقين وتوجيههم خاصة عندما يسهم هذا العنوان في تشكيل الحدث في الحكاية، في بعض قصص هذه المجموعة، والتي منها أيضاً:﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ التي سبقت الإشارة إليها كنموذج لهذه الوسيلة التعبيرية.

ولعل ما أشرت إليه من وسائل تعبيرية في تشكيل مجموعة (قصص من التاريخ الإسلامي للأطفال) للشيخ أبي الحسن الندوي، قد كشفت عن أثر الحس الخطابي لديه في إبراز ملامح التوجيه في هذه المجموعة القصصية، مجلية نموذجاً من نماذج قصص الأطفال وحكاياتهم، وهي قصة الأطفال الموجهة.



البحث السابع

سماحة العلامة السيد
أبي الحسن علي الحسني الندوي
ونماذج من أسلوبه الدعوي المتميز في أدب السياحة

أ/ سعيد الأعظمي الندوي (*)



(*) عضو مجلس الأمناء، ورئيس تحرير مجلة البعث الإسلامي.

في مستهل العام الحادي والخمسين وتسعمائة وألف الميلادي، الموافق عام سبعين وثلاث مئة وألف الهجري، قام سماحة العلامة السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي بجولة دعوية وسياحة علمية أدبية لبلدان الشرق العربي، وفي مقدمتها مصر القاهرة، بلد الكنانة، ومقر الفراعنة، مصر ذات النيل الأزرق، والأهرامات الشامخة، مصر ذات الأزهر العتيق، وقبلة اللغة العربية وآدابها، وموئل الأدباء والكتاب والمؤلفين، ومركز الإشعاع الديني بمراكزها الدينية وعلمائها البارعين في العلوم الإسلامية، وقادتها المخلصين، وزعمائها البارزين، وحكامها العادلين.

لقد وفق العلامة الندوي إلى زيارة مصر التي كانت قد سبقت إليها معرفته كداعية مخلص، ومفكر إسلامي كبير، وكاتب باللغة العربية قدير، فقد كان كتابه الجليل الشهير (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) ظهر، ونزل في المكتبات والأسواق، ونال إعجاباً كبيراً من قرائه العلماء والدعاة والأدباء والشباب، فصادف ذلك رحلته إلى مصر، وكان الناس متطلعين إلى لقاء هذا المؤلف العظيم الذي سدّ فراغاً كبيراً بمؤلفه في مكتبة الفكر الإسلامي والدعوة، فلما وصل إلى القاهرة نال ترحيباً كبيراً من كل جانب، والتف حوله الشباب والدعاة، والعلماء والأدباء، وانفسح المجال للتبادل الفكري والثقافي، وسنحت فرص اللقاءات والزيارات والبحث والنقاش، والتعارف والاطلاع، في مصلحة الدعوة والفكر الإسلامي الخالص، لأن رحلة الشيخ هذه كانت في سبيل الله والدعوة، لا للاستجمام وطلب الراحة أو الاطلاع على الآثار التاريخية والجغرافية، والتمتع بجمال الطبيعة، والتنشق من الأجواء اللطيفة، وقضاء الوقت في نزهة سياحية أو متعة نفسية.

وهكذا تميزت سياحته لبلدان الشرق العربي والعواصم العربية بطابع دعوي وفكري، ولون توجيهي تربوي، يتطلع فيها صاحبها نحو التعرف على الأعمال الدينية والحركات الفكرية، والتطورات العقلية التي يعيشها الشعب

المسلم في مجالات الحياة المختلفة بتأثير الحضارات المادية الغربية والعقل الأوروبي، الذي كان يقود الحياة الاجتماعية في هذه البلدان والأقطار إلى أمد طويل، وكانت مخلفاته باقية في المجتمع المسلم؛ ولم يكن أهله قد تحرروا من آثاره بالكلية في أنماط حياتهم ونشاطاتهم، وحتى في طرق تفكيرهم، إن السائح العبقري الجليل أدرك بذكائه وفي ضوء مشاهداته أن أمة الإسلام في هذه الديار تعيش مرحلة الانتقال من عهد الاستعمار والاستعباد إلى عهد الاستقلال والانفتاح، فهي بأمسّ حاجة لأن تعاد إليها ثقتها الكاملة بالإسلام إلى نفسها من جديد، وتنقى أفكارها من شوائب الحضارة الغربية وإغراءاتها المادية التي لا تزال ملتصقة بغضون نفسها، وتسبب لها إثارة شبهات حول صلاحية الإسلام في عصر التقدم العلمي والتطور الحضاري.

كان العلامة الندوي قد أعد العدة قبل أن يبدأ رحلته هذه، إذ كان قد درس أوضاع العالم الإسلامي واطلع على جميع ما يجري فيه من ظروف سياسية وحضارية وقد شاهد بعين قلبه كل ما وجد فيه من اتجاهات دينية وميول فكرية ومن إبداعات في الأساليب الدعوية، ومن حركات قوية نابعة من الفكر الإيماني الخالص في سبيل الدعوة والفكر الأصيل، وما جد من تطرفات فكرية تدعو إلى تطوير الشريعة الإسلامية وصوغها في قوالب الحاجات المادية والظروف الحضارية، إنه كان قد عرف نفسية الشعب الإسلامي العربي وواقعيته في مجال العلم والدين، والحضارة، كما أنه كان وطيد الصلة بالمراكز العلمية والدينية في العالم الإسلامي، ويعرف مدى تأثيرها في نفوس الشعب وعلاقتها به، وكان كثير القراءة للمؤلفات والكتب والمجلات التي تصدر من العالم العربي ومكتبات القاهرة، ودور نشرها بأقلام أهل العلم والأدب والدعوة والإصلاح، ممن كانوا يتزعمون البلاد دينياً وعلمياً وأدبياً وفكرياً، فلما وفقه الله تعالى لزيارة الشرق العربي ومصر الكنانة وجد نفسه مطمئنة لأداء المسؤولية التي توخاها في هذه الرحلة، وهي إبلاغ دعوته

النقية الصافية إلى طبقة العلماء و الأدباء والدعاة وأصحاب الفكر، والإشارة إلى مواضع الضعف ومكامن الداء في النفس والفكر، فكان صريحاً في حواره وآرائه ونقاشه، مبيناً الطريق الواضح النيّر لتصحيح الأفكار، والخروج من زوايا الغموض إلى ساحة الوضوح والاقتناع، فكان عمله أقرب إلى غربلة فكرية مصحوبة بالبراهين التاريخية والدلائل العلمية.

خرج المفكر الإسلامي الكبير العلامة الندوي لسياحة الشرق العربي وزيارة عواصمه الكبيرة، وبدأ رحلته من جدة إلى السويس على متن سفينة أوندا الإيطالية برفقة من تلاميذه وأصدقائه، وكان سائق الشوق يحدوه إلى زيارة هذا البلد العربي والنزول بأرضه والاطلاع على معالمه ومراكزه ولقاء رجاله وأبنائه، وكان يبث أشواقه وآماله، إلى أصحاب الامتيازات والمسؤوليات وقادة الفكر، ويحقق أمنيته التي طالما راودته لزيارة هذا البلد العريق في العلم والأدب والدين، إنه تحدث عن هدف هذه السياحة والغرض الذي أراده من خلال هذه الرحلة المهمة في مقدمة (مذكرات سائح في الشرق العربي) يقول: «خرج مؤلف هذا الكتاب (مذكرات سائح في الشرق العربي) في رحلة إلى عواصم الشرق العربي ؛ ليدرس وضع هذه الأقطار الديني والعلمي والاجتماعي، ويتعرف برجالاتها وقادة الفكر فيها، ويتذاكر معهم في الشؤون الدينية والعلمية والقضايا الإسلامية، والمناهج الإسلامية والمشاريع التعليمية، ويعرفهم ببلاده شبه القارة الهندية... ويستفيد مما جدّ في العالم العربي، من آراء ونظريات، ونشأ من حركات ودعوات، ونبغ من رجال وشخصيات، وقام من مدارس فكرية ومؤسسات، وظهر من أساليب وثار من مشاكل، وقد أراد الله أن ينشأ قبل أن يزور هذا البلد نشأة علمية دينية أدبية.. يتذوق الشعر والأدب، والتاريخ، والاجتماع، والحضارة وفلسفة الحياة، وقد مارس الحياة العلمية، وعمل في حقل الإصلاح والدعوة، وباشر مهنة التعليم، وعالج الكتابة والتأليف، وعرف الأساليب الأدبية، والمدارس الفكرية والاتجاهات المتعارضة

في مصـر والـشـام، فزار هذه البلاد على بصيرة وبيّنة من الأمر وبعد أن لم يكن ينقصه إلا اللقاء»[١].

أول كلمة:

وهذه أول كلمة ارتجلها في اجتماع ضم أعضاء البعثة التركية إلى الأزهر وطلبة سوريا وفلسطين، فكانت كلمة فياضة بليغة تعبر عن مدى فكره الإسلامي النيّر في عصر العلم والحضارة جاء فيها:

«إن الإسلام رسالة خالدة ليس فيها قديم وجديد، إنما القديم والجديد في الحضارات والأدب وغيرها، وكل جماعة تدمج نفسها وشخصيتها في هذه الرسالة وتربط حياتها بها يكتب لها الخلود والبقاء، وتخرج من سلطان الأزمنة والأمكنة الخاضعة لناموس التغير والانقلاب، وتنتصر على القوى المادية، وعلى جميع المعارضات والمنافسات، وكان هذا سر انتصار الصحابة رضي الله عنهم وسر عظمتهم، فقد قدّروا قواهم ومواهبهم تقديراً صحيحاً، ووزنوها وزناً دقيقاً، فرأوا أنهم لا يستطيعون أن يجاروا الفرس والرومان في مدنيتهم وماديتهم وقوتهم الحربية، فأدمجوا أنفسهم في هذه الرسالة الخالدة التي جاء بها محمد ﷺ، والتي قضى الله بظهورها وانتصارها وذيوعها في العالم، وأخلصوا لها، وربطوا حياتهم ومستقبلهم بها، بحيث أصبحوا والإسلام شيئاً واحداً، لا يعيش إلا بهم ولا يعيشون إلا به، فلما كان ذلك وامتحن الله قلوبهم للتقوى استحقوا النصر من الله، وقضى الله بظهورهم وغلبتهم وتمكينهم في الأرض، وكذلك إذا أخلصتم يا طلبة الأزهر لرسالة الإسلام وأدمجتم أنفسكم فيها، وربطتم حياتكم ومستقبلكم بالقيام بها والدعوة لها، وقامت هذه الرسالة بكم وقمتم بها لانتصرتم وخضع لكم الزمان وأطاعكم».

(١) مذكرات سائح في الشرق العربي ص ٤٨-٥٨ ط ٢ مؤسسة الرسالة.

وأثناء وجوده في مصر قابَل الأستاذ الأكبر فضيلة الشيخ عبد المجيد سليم شيخ الأزهر، وكانت معه جماعة من كبار الأساتذة والعلماء الأزهريين، ورجال الوزارة من بينهم الشيخ عبد اللطيف دراز مدير الأزهر ولمّا علم شيخ الأزهر صلة سماحته بندوة العلماء رحب به ترحيباً كبيراً، وانفتح معه في الحديث، وسأله عن الوضع التعليمي الديني في الهند فتحدث سماحته عن المدارس الدينية الإسلامية في الهند، وما تُمثله من دور في تخريج علماء متشبعين بالهمة العالية وروح المقاومة والجهاد والتطوع والاحتساب، وتحدث عن ندوة العلماء، وشرح له الفكرة العالية والأهداف السامية التي قامت عليها، وذكر له ماقامت به من إنجازات، وما تركته من آثار ونتائج موفقة في مجال التعليم والتربية، والدعوة والإصلاح والتأليف والتدوين، وتمثيل فكرة الإسلام النقية الواضحة.

رأي العلامة الندوي عن الأدب المكشوف:

ودار الحديث في دار الأرقم [1] مركز شباب سيدنا محمد ﷺ حول الأدب الخليع والصحافة الماجنة، وذلك مع الأستاذ حسين يوسف رئيس شباب سيدنا محمد ﷺ، الذي كان يكتب في موضوعات إسلامية بقلم قوي مؤمن وإيمان صادق، وإنكار صارخ على الإلحاد والإباحية والمجون، فتكلم معه سماحة العلامة الندوي بصراحة، وبيّن له ما لهذه الصحافة الخليعة من دور سيئ في إفساد الشباب المسلم وإقصائه عن الأخلاق والقيم المثلى وقال له فيما قال:

«لا بد من تكوين جبهة قوية ومعسكر ضد هذا الأدب المكشوف وهذه الخلاعة والاستهتار، وإنه لا يخلو من فائدة».

وقد وافق الأستاذ حسين يوسف رأي سماحته، وتحدث عما كان له من تأثير إيجابي للإنكار على الصحف والمجلات الخليعة وتهديدها، وذكر أمثلة لذلك.

ثم لما سأله سماحة العلامة الندوي، وقال: كيف يوجِّهُ الأدب التوجيه الديني؟!

---

(١) مذكرات سائح في الشرق العربي ص٨٤-٨٥ ط٢ مؤسسة الرسالة.

قال: «الأدب يتجه إلى الدين بوجود حركة دينية وحياة إسلامية، فإن الأدباء والمؤلفين ينتجون ما يروج في السوق وما يقبل عليه الناس، فإذا كان في الناس إقبال على الدين، أنتجوا ما ينال إعجابهم وتقديرهم».

محاضراته القيّمة حول رسالة المسلمين في العهد الحاضر:

وفي جمعية الشبان المسلمين ألقى سماحة الشيخ أبو الحسن الندوي محاضرة قيّمة نوجزها فيما يلي [١]:

إن الحياة الإنسانية تشتمل على ناحيتين: الناحية الطبيعية: وهي التي تفرض على كل إنسان أن يأكل ويشرب ويتكسب ويحصّل القوت، وإذا مرض فيتعالج إلى غير ذلك من طبائع الحياة الإنسانية، والناحية الثانية: هي الناحية الإيمانية وهو تلقي الإنسان الأحكام من خالقه والعمل بها، فيعرف ماذا يحل أكله وماذا يحرم، ومن أين يكسب، وما هي الطريق المشروعة للكسب وتحصيل القوت وجمع الأموال، وما هي الطرق المحظورة، وما غاية هذه الحياة، وما مصير هذا العالم، وماذا يُرضي الله وماذا يُسخطه، والأنبياء عليهم السلام لم يُبعثوا لبيان الناحية الأولى فهي ناحية فطرية يهتدي إليها الإنسان بسائق فطرته، ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ [٢] ولم يبعثوا ليزيدوا في نشاطها، وبحثوا على زيادة العناية بها، فإن العالم لم يزل يعاني طغيان هذه الناحية وثورتها على الناحية الإيمانية، وطالما تضخمت هذه الناحية وكبرت على حساب الناحية الإيمانية، وإنما بعثوا لينصفوا لها من الناحية المادية الطاغية ويوجدوا التوازن الصحيح بين الناحيتين، وإذا أردتم أن تعرفوا رسالة المسلمين فارجعوا إلى العصر الذي بعث فيه النبي ﷺ وتلمسوها، وستجدون أن الغاية الأولى لهم كانت كافية في نشر الإسلام، والدعوة إليه، وحينئذ يجب أن تعلموا أن هذه الغاية هي رسالة المسلمين في كل عصر.

---

(١) مذكرات سائح في الشرق العربي ص١٢٧ ط٢، مؤسسة الرسالة.

(٢) سورة النحل، الآية: ٦٨ .

وإلى ذلك أشار النبي ﷺ يوم بدر في دعائه للمسلمين وشفاعته لهم: «**اللهم إن تهلك هذه العصابة لن تُعبد**» فذكر الغرض الحقيقي الذي بعث له المسلمون.

ولقد كان لسماحته خلال هذه السياحة العلمية والدينية أحاديث ومحاضرات كثيرة كلها تدور حول الدعوة والفكر الإسلامي ألقيت بأسلوب دعوي متميز.

والتقى الشيخ أبو الحسن الندوي بأعلام آخرين نذكر منهم الأستاذ أحمد الشرباصي، والأستاذ صاوي شعلان، والأستاذ عبد العزيز كامل، والدكتور محمد يوسف موسى، والأستاذ أحمد لطفي السيد، والشيخ حسنين محمد مخلوف -مفتي الديار المصرية-، والشيخ محمد الشربيني رئيس جبهة علماء الأزهر، والشيخ محمد عبد اللطيف دراز مدير المعاهد الدينية بالأزهر، والدكتور أحمد فهمي، والأستاذ مصطفى مؤمن، والأستاذ عبد الرحمن عزام باشا، والأستاذ عبد المنعم خلاف، والشيخ السعيد الشرباصي، والشيخ علي رفاعي، والشيخ أحمد ماضي أبو العزائم، والشيخ محمد صادق المجدي، والأستاذ لقمان الهندي شيخ رواق الهنود.

أما المحاضرات والأحاديث المهمة التي ألقاها سماحته فنذكر منها ما يأتي:

محاضرة عن الدكتور محمد إقبال في دار العلوم، حديث إلى الطلبة الأتراك. دور الشباب في توجيه البلاد الإسلامي. وحديث مهم جداً مع سماحة المفتي السيد أمين الحسيني رحمه الله. وحديث مع الأستاذ سيد قطب في منهاج الدعوة الإسلامية. وحديث مع الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت.

لقد كان سماحته في جميع هذه الأحاديث والمحاضرات واللقاءات والكلمات معتمداً على التعبير العربي الجميل، والكلام المؤثر القوي، وقد وفق إلى إنشاء مدرسة أدبية تخرج منها جيل من الأدباء والكتاب الإسلاميين ممن

عرفوا بأسلوب دعوي مبدع، وتلك هي المدرسة الأدبية التي كان لمؤسسها سبق في توجيه الأدب إلى الدين والأخلاق الفاضلة، وإخضاع الأقلام للفكر الإسلامي النقي، وليست رابطة الأدب الإسلامي العالمية التي نجتمع تحت مظلتها اليوم والتي تعقد في هذه العاصمة [1] الإسلامية العريقة ندوة تكريم لصاحب هذه المدرسة الأدبية، إلا نفحة أدبية من نفحات هذا الرجل العظيم، وهو سماحة العلامة الكبير الشيخ السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي حفظه الله تعالى، وأطال بقاءه لخدمة الإسلام بالقلم واللسان.

وصلى الله تعالى على خير خلقه محمد

وعلى آله وصحبه أجمعين.

(١) مدينة إستانبول بتركيا، مكان انعقاد المؤتمر الرابع للهيئة العامة للرابطة، وكرم فيه الشيخ أبو الحسن الندوي.

البحث الثامن

المنهج السياسي
لسماحة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي
ودوره في حلٍّ قضايا المسلمين في الهند

أ/ محمد واضح رشيد الندوي (*)



(*) مدير المعهد العالي للدعوة والفكر الإسلامي. وأستاذ كلية اللغة العربية وآدابها بدار العلوم ندوة العلماء، ورئيس تحرير صحيفة الرائد العربية - لكهنؤ - الهند.

إن الهند بلد علماني ديمقراطي أساسه النمط الاشتراكي في الحكم، وقد وضع الواضعون للدستور الهندي الدستور في ضوء هذه القواعد الثلاث، لأن الهند بلد ذو أديان مختلفة، وإن كان بعضها خارجية الأصول، لكن الأجيال الناشئة عبر القرون نمت على التربة الهندية، واختمرت مناهجها وطبائعها بطينتها، وأخذت منها وأعطت الكثير فأصبحت جزءاً من الحياة الهندية، كان منها المسلمون والمسيحيون والمجوس واليهود، ومنها أديان نشأت في الهند لكنها تختلف في تعاليمها ومثلها وعقائدها اختلافاً بيّناً، كالجينيين والبوذيين والسيخ. أما الهندوس فإنهم أيضاً ينقسمون إلى فرق تكاد تشكل ديانات مستقلة بذاتها، في الآلهة، والأبطال، والأمجاد، والعادات، والتقاليد.

وقد سبب هذا الاختلاف صراعات وحروباً في الماضي، وهناك اختلاف سلالي، ولغوي، وثقافي، وتاريخي كذلك، وفي الشمال والجنوب أيضاً فرق وقبائل تختلف فيما بينها اختلافاً بائناً، ولا يربط هذه الفرق إلا الانتساب الموسع إلى الهندوكية، وهناك أيضاً اختلاف طبقي، وهو اختلاف عنيف يؤدي إلى صراعات دامية.

كذلك توجد فوارق واسعة في المجال الاقتصادي. هناك أسر تملك ثروات البلاد، بينما الفقر سائد، تعيش الأغلبية تحت مستوى الصفر، وطوائف ترتحل بصورة مستمرة طلباً للرزق، وطوائف توصف بالمنبوذين. إن الدستور الهندي الذي وضع في عام ١٩٥٠م، أي بعد ثلاث سنوات من الاستقلال، ينص على المساواة وعدم التمييز على أساس العقيدة، واللون، والطبقة، والجنس، ويؤكد على إتاحة فرص متساوية لجميع المواطنين، وفرض عقوبات على ممارسة التمييز، ومنح الدستور حقوقاً للأقليّات اللغوية، والدينية، والثقافية.

كان الدستور الهندي الذي تم إعداده بعد دراسة عميقة لدساتير العالم المختلفة من أفضل دساتير العالم باعتبار صلاحيته لخلق الانسجام بين

مختلف الطبقات، واحتفظ بهذه الروح قادة البلاد الأولون كغاندي، وجواهر لال نهرو، ومولانا أبو الكلام آزاد، ورفيع أحمد القدوائي، ولكن بعد انقضاء هذا الجيل الأول الذي قاد حركة التحرير، والذي كان يدعي الانتماء إلى التصور العلماني، والتسامح مع الأقليات والمساواة نشأت في الهند حركات متزمتة طائفية تدعو إلى تحويل كل أثر إسلامي إلى الهندوكية، وتعارض الطبيعة العلمانية للدستور، بل تدعو إلى إنشاء دولة هندوكية وفرض الثقافة الهندوكية، ويوجد في رجال الحكم قادة يتسامحون مع أصحاب الميول الطائفية والحركات الطائفية، ويدعمونهم سراً.

كانت هذه الطائفة المتزمتة محدودة، لكن النزعة الطائفية المتزمتة التي تطالب بإنشاء بلد هندوكي، وفرض الثقافة الهندوكية، ومكافحة آثار الحكم الإسلامي تضخمت بمر الأيام، وتجاوزت بعض الحركات إلى مكافحة الوجود الإسلامي، وطمس معالم الحضارة الإسلامية، ورفض معالم كل فضل في التاريخ الإسلامي، وقامت هذه الحركات بتربية عصابات بصورة سرية للهجوم على المسلمين، والقيام بأعمال النهب والسلب، وتخطيط الاضطرابات الطائفية في فترات مختلفة تخطيطاً دقيقاً بانتهاز فرص وأعذار عادية، وتساعدها وسائل الإعلام التي يملكها الرأسماليون من الأغلبية، وكانت أجهزة الأمن تغض البصر عن نشاطات هذه الحركات الحاقدة على الإسلام والمسلمين. وتحمل الكتب الدراسية كثيراً من المواد السامة، وتنشر الصحف مقالات وقصصاً ذات النزعة الهندوسية، وما يحمل الكراهية للمسلمين.

إن جمهور الشعب الهندي مسالم ومتسامح، لكن هذه المؤسسات تسمم أذهان السذج من الناس كما تسمم أذهان المثقفين.

كانت المسألة الأساسية في الهند هي إعادة الحكومة إلى التمسك بالدستور العلماني، والحياد في السلوك مع مواطني البلاد أولاً، وإزالة الكراهية والعداء ضد المسلمين التي تتصاعد بنشاطات الحركات الطائفية،

يعيشوا كمواطنين بدون خوف وذعر، ويشاركوا في تقدم البلاد، وإصلاح أحوال المسلمين، وتصحيح عقيدتهم وتعليمهم وتوعيتهم، ومنعهم من اللجوء إلى أعمال طائشة تثير سخط رجال الحكم والأغلبية.

شعر سماحة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي بخطورة الوضع، وأدرك بفراسته ودراسته للتاريخ ومتابعته للأحداث أن مستقبل المسلمين في خطر إذا لم يُتخذ مجهود جبّار لإزالة سوء الظن بهم، ومكافحة الكراهية السائدة والشحناء المتصاعد ضدهم، ولم تبدأ حركة لمعالجة النزعات الطائفية ومجابهتهم لإخوانهم في العقيدة، وكان هذا الطريق الذي اختاره الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي تختلف اختلافاً بائناً عن طريق الزعماء المسلمين الآخرين الذين كانوا إما مسالمين متسامحين يلازمون الصمت، وإما متهورين يواجهون كل قضية بالعنف والمجابهة مع الأغلبية ورجال الحكم، وكان هذا الطريق يحدث مشاكل في سبيل حل قضايا المسلمين، ويثير الكراهية في النفوس.

كتب سماحته رسائل إلى كبار قادة البلاد، وزعماء الحركات والمنظمات الشعبية والاجتماعية والسياسية، وجمع المثقفين من رجال الأغلبية على منابر مختلطة العناصر، وحثهم على تفهم الظروف، ومواجهة العناصر المتطرفة، فإن التطرف يعرض البلاد للحرب الأهلية ؛ لأن النظام والقانون إذا كانا في موضع الخطر فإن الأعمال الإنشائية، والعلمية والأدبية لا تستطيع أن تستمر، واختار سماحته أسلوب الإقناع والتفهيم، وقدّم نماذج من الخُلُق الإنساني النبيل، وحاول أن يحدث في القلوب العواطف الإنسانية، ويمحو الشحناء والكراهية، وخاطب الشعب الهندي كأنه يتحرّق لمستقبل البلاد، وكأنه هو المنذر المخلص للوطن. أقام سماحته اتصالات بالحكام وراسلهم، وكتب رسائل إلى كبار الوزراء والحكام يستلفت انتباههم إلى إيجاد الوئام الطائفي في الهند، ومكافحة الطائفية والعنصرية والفساد الخلقي، بعيداً عن كل نشاط سياسي حزبي، والتزم الحياد، فكان يقيم الاتصال بكل حاكم مهما كانت ميوله الحزبية

أو السياسية، ويبعد نفسه عن كل إغراء مادي وسياسي، ويثبت أنه لا يريد مقابل ذلك إلا النصح، وأنه لا يجري وراء أي مصحلة مادية، وفي الوقت نفسه واصل جهوده لتوعية المسلمين وتعليمهم وتربيتهم ومعالجة قضاياهم، وتهدئة أعصابهم، والتوسط بينهم وبين الحكومة.

يقول سماحته في كتاب (مسيرة الحياة) وهو يذكر هذا المنهج أو الانتقال من المجال الخاص للدعوة إلى المجال العام، ومن التأليف والبحث إلى مخاطبة الشعب ومعالجة مسائله:

«قادني جهازي الفكري والتربوي الذي لم يكن قد ترك عمله، ولم يطبق عينه عن الظروف والأوضاع المخيفة، والذي وضع نصب عينه دائماً تجارب الماضي وحقائق الحاضر وأخطار المستقبل، إلى اتجاه جديد وتجربة جديدة في المجال الدعوي الشعبي وهو عقد اجتماعات مشتركة شعبية، يدعى فيها غير المسلمين أيضاً باهتمام بالغ لا سيما المثقفين منهم، وتلقى فيها خطابات مع مراعاة أجوائهم وعقلياتهم تعرّفهم بالإسلام، وتزيل الوحشة منه وسوء التفاهم، وتحثهم على دراسة الإسلام والسيرة بعمق وإنصاف، وتجسّم لهم الأخطار المحدقة بالبلاد، للإفلاس الروحي والعقائدي، والانهيار الخلقي وسيطرة النظر المادي والشره للمال على المجتمع».

عقدت عدة اجتماعات ضخمة في مدن الهند الكبرى، تحدث فيها سماحة الشيخ الندوي وعدد من الزعماء الآخرين، بمراعاة الأذهان لغير المسلمين، واشترك فيها عدد من غير المسلمين الذي يحملون عواطف إنسانية.

يصف سماحته تأثير هذه التجربة، بعد أن ألقى خطاباً في مدينة سيوان في ولاية بيهار، وقد حدثت في المنطقة قبل ذلك اضطرابات عنيفة ذهب ضحيتها عدد كبير من المسلمين، وكانت العواطف ملتهبة والجو مكفهراً، وسوء الفهم عن الإسلام والمسلمين سائداً، وقد كانت الصحافة القومية

كعادتها في مثل هذه المناسبة قد عرضت المسلمين كالفئة الباغية المثيرة للفتن، يقول سماحته في سيرته الذاتية (في مسيرة الحياة):

«بعد انتهاء الخطاب، تقدم إليّ شيخ هندوكي معمر، وهو يقول بالإنجليزية: رائع، رائع، ثم قال: أريد أن أقول شيئاً، وقال: إنني سمعت في حياتي خطابين تأثرت بهما جداً، أحدهما خطاب س.ر.داس. والثاني خطاب مولانا اليوم، وأقول بصراحة إن محمداً ﷺ حق، ويا مولانا! إنك لست للمسلمين فحسب، بل إن لنا حقاً عليك، وسوف نكلفك بزيارة هذه المدينة مرة ثانية».

وبهذه التجربة الطيبة نبتت فكرة (رسالة الإنسانية). وهي الخطوة الأولى في هذا الاتجاه.

كانت هذه الاجتماعات التي يتحدث فيها الشيخ الندوي تجربة فريدة في تاريخ الهند الحديث، فقد عرفت الهند في العهد القريب اجتماعات سياسية، يتحدث فيها الزعماء السياسيون الذين كانوا يخوضون معركة تحرير البلاد، فكانوا يشنون هجوماً على الاستعمار البريطاني، أو اجتماعات للأحزاب السياسية التي كانت تبحث القضايا السياسية، أو كانت تعرف الاجتماعات الدينية التي كان لها منهج خاص وهو منهج الوعظ والإرشاد، باعتماد زائد على القصص والحكايات، وذكر البطولات، وقصص التاريخ، أو اجتماعات جدلية كانت تعقد بين مختلف الفرق، وقد زادت هذه الاجتماعات من الخصومة والعداء. وقد اتخذ سماحة الشيخ الندوي منهجاً جديداً، وهو حديث القلب مع القلب لعرض ما يؤثر على القلوب من تعاليم الإسلام والتاريخ الإسلامي من الناحية الإنسانية، وعرض حياة الرسول ﷺ مربياً للإنسانية والذي بعث متمّماً للأخلاق، رحمة للعالمين، واستعراض التاريخ الإسلامي بإبراز جوانب المساواة والتسامح، والعدل بين الناس، ورعاية حقوق غير المسلمين، واحترام الأديان، وكرامة الإنسان، والدعوة إلى إنشاء مجتمع إنساني نبيل، وينتقد ما وقع في حياة المسلمين من انحراف عن الجادة، ويسلك مسلك التأليف للقلوب، فنال هذا المنهج إعجاب غير المسلمين الذين كانوا

يعرفون عن الإسلام أنه دين القتال وسفك الدماء والتحجر، والانعزال عن الحياة، وأن الحكم الإسلامي حكم القسوة والإكراه، ولذلك كان عدد غير المسلمين في الاجتماعات التي يتحدث فيها الشيخ الندوي يتزايد كل يوم، ونالت هذه التجربة قبولاً، فوجهت الدعوة للخطاب في مدن الهند المختلفة وفي الاجتماعات المختلفة.

عندما تحدث الاضطرابات الطائفية أو كارثة طبيعية تتجه عناية العاملين المسلمين إلى إسعاف المنكوبين، وإعداد تقارير عن ضخامة الحوادث ومعرفة أسبابها.

اتجه تفكير سماحة الشيخ الندوي كدارس ومؤرخ إلى دراسة أسباب الاضطرابات ومعالجتها معالجة دائمة، ومن أجل ذلك قام بالاتصال برجالات الفكر، وأصحاب النفوذ لمنع الحوادث من الوقوع.

اشتعلت في أواخر عام ١٩٦٣م نار الاضطرابات الطائفية في المناطق الصناعية في شرق الهند، تكبد فيها المسلمون خسائر فادحة، وعكفت الجماعات الإسلامية باختلافها في الفكر على أعمال الإسعاف، وكانت قوة المسلمين موزعة، كل يحمل لواء خاصاً لحزبه.

وتجددت الاضطرابات في عام ١٩٦٤م حيث قتل في (جمشيد بور) و (راور كيلا) أكثر من ثلاثة آلاف من المسلمين، وفكر سماحته أن هذا الاتجاه للعنف ضد المسلمين لا يمكن أن يحول إلا بمساعدة أصحاب الشعور النبيل من غير المسلمين لأنهم في الأغلبية، وهم يستطيعون أن يؤثروا على أذهان رجال طبقتهم، وعن طريقهم يمكن التأثير على رجال الحكم لاتخاذ تدابير رادعة لوقف هذه الاضطرابات، ووقع الخيار على (جي بركاش نارائن) و(أشاريه) و(نوبا بهاوي)، وفي الوقت نفسه فكر الشيخ الندوي في وسائل نفخ روح المقاومة، والاعتداد بالنفس والاعتماد على الله في المسلمين أنفسهم، لكيلا يصيبهم الخور والجبن والاستكانة، فأجرى اتصالات مع القادة المسلمين

من مختلف الأحزاب السياسية لتكوين منظمة للأحزاب الإسلامية ليكون منبراً إسلامياً، يرفع عن طريقه صوت المسلمين موحداً.

عقد الاجتماع الأول الذي كان نواة لتأسيس المجلس الاستشاري الإسلامي بلكناؤ في أغسطس ١٩٦٤م، وقرر المجلس كخطوة أولى القيام بجولات في المناطق المفجوعة بالاضطرابات، والتحدث للمنكوبين، والاتصال بالمثقفين من رجال الأغلبية لدعوتهم إلى التآخي والتضامن، فقامت هذه المؤسسة بهذه الجولة باشتراك عدد من غير المسلمين، وبفضل هذه الحركة تجرأ عدد من المثقفين من غير المسلمين على الدفاع عن المسلمين، والتنديد بنشاطات الحركات الطائفية المعادية للمسلمين، وكتب عدد من الصحافيين وأصحاب القلم مقالات في الصحف للدفاع عن المسلمين، وطالبوا بتحديد نشاطات المتزمتين من الهندوس.

بالإضافة إلى هذه المجهودات الرامية إلى إيجاد منبر مشترك لمختلف الطوائف والفئات الإسلامية، وتوحيد صفوف المسلمين التي تمثلت في المجلس الاستشاري الإسلامي، وتوعية المسلمين، وإيجاد منبر لجمع المسلمين وغير المسلمين، وإيجاد التقارب بينهم بالبحث عن أصحاب العواطف الإنسانية في غير المسلمين، وعقد اجتماعات مشتركة يخطب فيها المسلمون وغير المسلمين، وعقد حوارات بين قادة مختلف الأديان، والأحزاب، والذي تمثل في رسالة الإنسانية. انتهز سماحة الشيخ الندوي فرصة اللقاء بكبار الزعماء والقادة، والتحاور معهم والبحث عن مجالات التفاهم، وإزالة سوء تفاهمهم عن الإسلام والمسلمين، ولم يكتف باللقاءات بل أرسل إليهم رسالة مفصلة يشرح فيها قضايا البلاد وفيها قضايا المسلمين، ويلقنهم أن المسلمين جزء من الشعب الهندي، إن هذا الجزء إذا كان غير متفاهم ومنسجم فإن الشعب الهندي بكامله سيتعثر في مسيره، ولفت انتباههم إلى الاتجاهات الفاسدة في البلاد، وألّف رسائل تشرح خاصة هذه الاتجاهات، كالطائفية والعنصرية، والقومية المتطرفة، والحب الزائد للمال، والقتل والنهب، والفساد والرشوة.

ونقدّم رسالة واحدة من هذا القبيل، كتبها إلى آنديرا غاندي في أيام حالة الطوارئ، وقد كانت رئيسة الوزراء في تلك الفترة، قد اتخذت الإجراءت القاسية الدكتاتورية لقمع حركة مناوئة لها، لكن سماحة الشيخ الندوي تحدث في الرسالة بأسلوب رقيق مؤثر في النفوس، وبصراحة تامة، وكان رد فعل رئيسة الوزراء رغم هذا النقد اللاذع لحكمها إيجابياً، فأرسلت أحد مبعوثيها للتفاوض مع سماحته وإرضائه، في منزله في قريته رغم وُعورة الطرق، وتعرض القرية للفيضان الذي جعل المرور متعذراً.

وليست هذه الرسالة وحيدة بل كتب سماحته رسائل إلى راجيف غاندي -وكان لرسائله ولقاءاته الشخصية ومحاولته لإقناعه بقضية المرأة المسلمة المطلقة دور فعال في إجراء التعديل في قانون المرأة المسلمة المطلقة - وكتب إلى وي بي. سنكه، وجندار شيكر، ونارا سمها راؤ، والمستر دي وي، وجورا وغيرهم من الرؤساء والمسؤولين.

ونقتبس من الرسالة التي أرسلها إلى آنديرا غاندي رئيسة الوزراء في العهد الذي فرضت فيه حالة الطوارئ، وزجّ في السجون كبار زعماء البلاد من المسلمين وغير المسلمين.

كتب سماحة الشيخ الندوي يشرح فيها الوضع السائد في البلاد في أيام حالة الطوارئ:

«لقد توتر الوضع وازداد سوءاً من ستة أشهر من حين بدأ تنفيذ تحديد النسل بشدة وعنف، وأخاف أن الأخبار الصحيحة لا تصلك، وإلا فكان من غير المعقول أن تتركي الأوضاع تتحول من سوء إلى أسوأ، وأن الوضع الصحيح أن حكومات الولايات -على عكس مقاصد المشرفين على الحكومة والمسؤولين عنها- قد اتخذت تنفيذ هذا القانون، والحصول على النجاح وسيلة هنية في السلطة والجاه، وهم يتسابقون في هذا، ويقع بسبب ذلك من المعاملة ما يقع من حكومة أجنبية ذات عقلية إدارية معلومة وعملائها وأذنابها مع المواطنين

الآمنين الوادعين، وقد أنتج ذلك أن تحولت هذه البلاد إلى ثكنة يسودها القلق والرعب والخوف، ويرتكب الناس لتحقيق مآربهم التافهة والوصول إلى الهدف المطلوب من تحديد النسل كل الأعمال الخسيسة والوحشية، فيصطاد العمال المساكين والقرويون والمحترفون مثل اصطياد الوحوش والطيور في الغابات، وتستخدم وسائل الترهيب والعنف والإطماع والتغريب حتى يكملوا هدفهم».

«وكان نتيجة هذه الأوضاع الطبيعية ذلك الانحطاط الخلقي الذي يسببه الخوف والطمع في بلاد عمّ فيها الجهل من سابق، ومن أخطر الجوانب وأشدّها أسفاً أن أهل البلاد يكادون يحرمون من الشعور بكرامتهم وثقتهم بأنفسهم، التي كانت وجدت بفضل جهود حركة المؤتمر الوطني، وجهود حركة الخلافة، ومساعي قادتنا السياسيين: غاندي، ومولانا آزاد، ومحمد علي، وأسرة نهرو، وظلت البلاد تشعر بأنها لا تزال تعيش حياة العبودية والقهر، ولعله ما تمر لحظة يشعر فيها أي إنسان في هذه البلاد بأنها بلاد حرة ديمقراطية، بعيدة عن كل إجبار وإكراه وعنف، استطاعت بجهودها أن تنال حريتها واستقلالها من حكومة أجنبية، وأخذت بيدها زمام أمورها».

«ولا أرى أحرص على إيجاد هذه الثقة والاعتماد عليه ومن هو أقدر لها وأكثر شعوراً بقيمتها وضرورتها من أعضاء أسرة نهرو، فإن لهذه الأسرة نصيباً أساسياً في هذه الجهود، وقد سقوا هذه الشجرة بعروقهم ودمائهم، فكيف يسوغ أن يروا هذه الشجرة في عهد حكمهم وهي تذوي وتصفر، لقد مست الحاجة الآن إلى مراجعة الأوضاع في البلاد، فإن أي شعب إذا تعود على العبودية والجبن والخوف. وفقد صفات الجرأة والطموح، والثقة، وعمل -عكس ما يحب ويريد- تحت ضغط الخوف، أو طمع المال، وأعتقد أن المحافظة على الحياة والمنصب والوظيفة أهم شيء ولو على حساب الضمير، والغيرة، والثقة بالنفس، فإنه لا موضع للطمأنينة والاستبشار لهذا الشعب مهما تقدم سياسياً أو اقتصادياً وتعليمياً في الظاهر، فإن البلاد بالشعوب، وليست الشعوب بالبلاد،

والشعوب لا تعيش إلا بسيرتها وصفاتها الباطنة الصالحة، وعزتها وجرأتها الخلقية، لا بوسائل معيشتها وارتفاع مستوى حياتها».

«إنه لمن الفشل والخيبة لحركة تحريرِ البلاد وجهودها وقادتها أن يضطر الناس إلى تذكر عهد العبودية والحكم الأجنبي، وإنه لمن العار أن يتذكر الناس اليوم العهد الإنجليزي. ويتمنوه».

بالإضافة إلى دور سماحة الشيخ الندوي الرائد في كسب ودّ الحكام وأصحاب النفوذ والتأثير في الأغلبية الهندوسية للمسلمين، ولفت انتباههم إلى قضاياهم شارك سماحته مشاركة فعّالة في نشر التعليم الديني في المسلمين وتربيتهم تربية دينية لمنعهم من الذوبان في الثقافة الوثنية، فكان من مؤسسي هيئة التعليم الديني، ورئيساً لها، وتدير هذه الهيئة آلافاً من الكتاتيب الدينية التي تدرس المقررات الدراسية العصرية بجانب الموضوعات الدينية.

كما تولى سماحته رئاسة مجلس الأحوال الشخصية الإسلامية لعموم الهند، وقاد هذه الحركة بمنهجه الخاص لعدم المجابهة مع الحكومة أو الأغلبية، بل بتفهيم القضايا الإسلامية والرجوع إلى الدستور العلماني، وحل القضايا في المحكمة لا على الشوارع، بقرع أبواب القضاء والقانون بدلاً من حركة المقاومة، ووسائل العنف، إنه يرى أن تغيير القلوب وإثارة الضمير الإنساني خير من تغيير الحكام. وقد كسب سماحته بهذا المنهج السلمي الإيجابي، ودّ الحكام وثقتهم في جميع مراحل حياته، وقد تغير الحكام وتغيرت مناهج الحكم، بتولي أحزاب سياسية مختلفة للحكم، لكن سماحته ظل على صلته بجميع هؤلاء الحكام، وكان رأيه مقبولاً لديهم، ويحرص كل حاكم على التقرب إليه والحصول على تأييده.



البحث التاسع

أدب الرحلة في كتابات الشيخ أبي الحسن علي الندوي بين العربية والأردية

د. محمد سمير عبد الحميد إبراهيم(*)



(*) أستاذ اللغة الأردية وآدابها بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

كلمة المؤلف

حين طلب مكتب رابطة الأدب الإسلامي العالمية بالرياض من المؤلف أن يكتب عن أدب الرحلة عند الشيخ الجليل أبي الحسن علي الحسني الندوي، شعر بالغبطة والسرور، وشكر القائمين على المكتب حسن ظنهم بالعبد الفقير، وراحت ذكرى زيارته الندوة تخامره، وتعيد إليه صوراً جميلة لا زال الفؤاد يحتفظ بها رغم مرور السنين، فقد هيأ الله له فرصة السفر مبتعثاً من جامعة القاهرة للحصول على الدكتوراه في اللغة الأردية وآدابها من جامعة البنجاب بلاهور، وبعد أن وفقه الله وانتهى من مهمته، فكر في زيارة شمال الهند لجمع بعض المصادر والمراجع لحملها إلى القاهرة، وزيارة بعض الجامعات ولقاء بعض الأساتذة والعلماء، كان ذلك عام ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م. وكانت ندوة العلماء في لكهنؤ من أهم الأماكن التي كان يهفو قلبه إليها، وكان اللقاء بالشيخ أبي الحسن الندوي هو الهدف الحقيقي:

وما حب الديار شغفن قلبي　　　ولكن حب من سكن الديارا

وصل المؤلف إلى مدينة لكهنؤ قادماً من مدينة عليكره، ومن محطة السكة الحديد إلى (ندوة العلماء)، إلى عبق التاريخ، حيث نزل ضيفاً على الندوة لأسبوع، شعر فيه أنه يعيش تاريخ المسلمين العظام،... فلا تزال الصورة بداخله رغم مرور ما يقرب من عشرين عاماً، تقابل مع الأساتذة ومع الطلاب، وبحث عن الشيخ أبي الحسن فعرف أنه خارج البلاد.. وتمنى لو بقي بالندوة حتى يلقاه، لكن الظروف لم تكن تسمح له بالبقاء، فغادر الندوة وهو يفكر في مشوار العودة إليها، وأهداه الإخوة بمكتب حراء بعض الكتب ورافقه الأخ سعيد الندوي -الذي يعيش منذ سنوات بالرياض وكان صبياً آنذاك - إلى محطة السكة الحديد، ذكرى طيبة لا تزال تعطر فؤاده فيطرب لها، ويهتز كلما ذكر اسم ندوة العلماء أو من ينتسب إليها. فما بالنا لو ذكر اسم شيخها، شيخ الندوة؟!

لقد سعد المؤلف حين ترجم مقدمة الشيخ أبي الحسن علي الندوي الرائعة لكتاب الشيخ محمد منظور النعماني عن الثورة الإيرانية، وأثبتها مع ترجمته للكتاب[١] وعلم فيما بعد أنها ترجمت إلى العربية ضمن كتاب (صورتان متضادتان في الإسلام)[٢].

وسعد اليوم أكثر حين طُلب منه الكتابة عن أدب الرحلة عند الشيخ أبي الحسن الندوي.. ولا يدعي المؤلف بأنه جدير بالكتابة عن الشيخ، وقد تردد كثيراً قبل البدء في الكتابة، عقد العزم داعياً أن يكون عند حسن ظن الجميع، وخاصة أن الشيخ الندوي معروف ومنذ زمان لدى جميع علماء وكتاب وأدباء العالم العربي والإسلامي بل والغربي أيضاً، ويعتذر المؤلف إن صدر عن قلمه قصور سببه قلة بضاعته من العلم، وقلة مصادره ومراجعه التي حاول أن يتصيدها من أكثر من مكان، من الندوة نفسها عن طريق مكتب الرابطة بالرياض، وعن طريق الأخ سعيد الندوي بالرياض، وعن طريق إخوة له بلاهور يخص منهم بالذكر الشيخ عبيد الحق الندوي صاحب ومدير المكتبة العلمية ومطبعتها، وعن طريق العديد ممن اتصل بهم في البلاد العربية، وعلى كل حال توافر له عدد لا بأس به، وإن كان يهفو إلى المزيد من المصادر والمراجع، والمزيد من الوقت.

تناول هذا البحث سطوراً مختصرة عن حياة الشيخ الندوي ودراسته ومشاغله، ثم صفحات قليلة عن إنتاجه الأدبي والفكري ومكانة أدب الرحلة عنده، وتلا ذلك نظرة على أدب الرحلة عند الشيخ، فدراسة تحليلية لأهم رحلاته طبقاً للترتيب الزمني، وقد وضع المؤلف أمامه معظم المصادر الأردية والعربية التي توافرت لديه، وحاول بقدر استطاعته أن يعبر عن الحقيقة من منطلق منهج علمي، يلقي الضوء على كتابات الشيخ أبي الحسن الندوي في

(١) طبع عدة طبعات منذ عام ١٩٨٤م وحتى الآن. بدار الصحوة بالقاهرة.

(٢) العنوان هو: صورتان متضادتان لنتائج جهود الرسول الأعظم ﷺ الدعوية عند أهل السنة والشيعة الإمامية.

هذا النمط الأدبي، أي أدب الرحلة، ولم يتوسع المؤلف في ذكر وبيان أنواع الرحلة عند الشيخ، نظراً لأن هدف رحلاته رغم تنوع الأسباب كان الدعوة إلى الله، وإحياء شعور المسلمين داخل الهند وخارجها، مستخدماً في ذلك موهبته الأدبية التي وهبه الله إياها في الكتابة بالأردية والعربية، والله أدعو أن يطيل لنا في عمره وأن يحفظه ويوفقه إلى المزيد من العمل في سبيل رفعة الإسلام ورفعة شأن المسلمين... آمين.

سمير عبد الحميد إبراهيم

أستاذ اللغة الأردية وآدابها

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

الرياض: غرة ذي الحجة ١٤١٦هـ

٨ إبريل (نيسان) ١٩٩٦م



الشيخ أبو الحسن علي الندوي

مولده وتعليمه:

لم يعرف القراء العرب الشيخ أبا الحسن الندوي إلا عام ١٣٦٩هـ / ١٩٥٠م حين ظهر كتابه (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟) الذي لقي رواجاً في الأوساط العلمية في البلاد العربية، وقد قدم الشيخ أبا الحسن إلى قراء العربية المرحوم سيد قطب والشيخ أحمد الشرباصي والأستاذ أحمد أمين، ومن الجدير بالذكر أنه حين صدرت الطبعة الرابعة للكتاب عام ١٣٨٩هـ ١٩٦٩/م كانت الطبعة السادسة بالأردية قد صدرت عام ١٣٨٨ هـ ١٩٦٨م.

ولد الشيخ أبو الحسن علي الندوي عام ١٣٣٢ هـ١٩١٣/م في أسرة جليلة، وفي بيت علم، فأبوه هو العلامة الشيخ عبد الحي صاحب كتاب (نزهة الخواطر) الشهير (٨ مجلدات) وأمه سيدة فاضلة وعالمة جليلة، لها عدة كتب ومجموعات شعرية تضمنت أشعار المناجاة والمدائح والدعاء، ولد شيخنا في قرية تكية بمديرية راي بريلي بالقرب من لكهنؤ، وبدأ وهو في الثانية عشرة من عمره يتعلم الإنجليزية والعربية بالإضافة إلى الأردية والفارسية. قرأ كتب الأدب العربي وشغف بها، واهتم بكتاب الحماسة لأبي تمام ودلائل الإعجاز للجرجاني وكليلة ودمنة لابن المقفع، ودفعه حبه للأدب العربي إلى الالتحاق بقسم آداب اللغة العربية بجامعة لكهنؤ، كما درس الأدب العربي على يد الشيخ تقي الدين الهلالي المراكشي في ندوة العلماء، والتحق بالندوة لدراسة علوم الحديث كما مكث لشهور بدار العلوم ديوبند. [1]

---

(١) انظر د. سمير عبد الحميد إبراهيم. الأدب الأردي الإسلامي. نشرته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٩٩١م وأيضاً أبو الحسن الندوي في مسيرة الحياة دار القلم دمشق مجلد١ ط١٩٨٧م ص ٢٧ ذكر الشيخ أنه بدأ دراسة العربية على يد الشيخ خليل بن محمد اليماني (ص٧٧ وما بعدها) كما أشار إلى مطالعة الأدب الأردي (ص٨٠ وما بعدها) واستفادته علمياً من الشيخ السيد محمد طلحة الحسني (ص٨٥) والتحاقه بجامعة لكهنؤ (ص٨٥/٨٦).

ويقال إن أول محاولة أدبية له كانت مقالاً عن سيد أحمد شهيد إمام الدعوة إلى التوحيد والسنة والجهاد الإسلامي، أرسله لمجلة المنار فنشر وعمره لم يتجاوز الثامنة عشرة، يقول الشيخ الندوي:

(نشر العلامة السيد رشيد رضا رسالتي عن الإمام أحمد بن عرفان الشهيد بالعربية عام ١٣٥٠هـ/ ١٩٣١م بعنوان: ترجمة السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد) [١].

حياته العملية وأسفاره [٢]:

سافر الشيخ أبو الحسن الندوي في مقتبل حياته إلى معظم مدن شبه القارة الهندية (قبل التقسيم). سافر إلى لاهور والتقى بالعلامة المفكر الشاعر محمد إقبال، وذكر لإقبال بأنه ترجم بعض قصائده إلى النثر العربي [٣]، كما التقى الندوي بعدد كبير من علماء لاهور ولازم الشيخ الهلالي وخاصة أواخر عام ١٣٥٠ هـ١٩٣١/م، واتفقا على إصدار مجلة الضياء في مجلس ضمهم والعلامة السيد سليمان الندوي، وأقام الندوي فترة في لاهور، وفي ديوبند، وكان له مع إقبال لقاء طويل في شهر رمضان [٤] عام ١٣٥٦هـ/ ٢٢ نوفمبر ١٩٣٧ في منزل إقبال [٥]، وكان بينه وبين الشيخ المودودي صلة وعلاقة، وقد طلب منه المودودي في أغسطس عام ١٣٥٩هـ/ ١٩٤٠م في رسالة خطية أن تترجم الندوة كتابه (الحجاب) إلى اللغة العربية [٦].

---

(١) طبع المقال فيما بعد وصدر عن المجمع الإسلامي العلمي ندوة العلماء في طبعة جديدة ١٤٠٩هـ ١٩٨٩/م. انظر مقدمة المؤلف لكتابه في مسيرة الحياة بالعربية ج١.

(٢) نختصر الحديث هنا لأن القارئ العربي يستطيع الرجوع إلى كتاب الندوي في مسيرة الحياة والذي صدر أولاً بالأردية ثم صدر بعدها بالعربية وقد قام السيد سلمان الحسيني الندوي بمهمة ترجمة الكتاب من الأردية إلى العربية وهو ابن أخت المؤلف، وقد تصفح المؤلف الترجمة وتناولها بشيء من التهذيب والتنقيح والحذف والزيادة. انظر مقدمة الندوي للكتاب ص٢٦.

(٣) في مسيرة الحياة ج١ ص٩٢.

(٤) المصدر السابق ص٩٨.

(٥) المصدر السابق ص١٣٠.

(٦) المصدر السابق ص١٦٢ .

وفي لكهنؤ انشغل أبو الحسن علي الندوي بالتأليف والكتابة بالأردية، واتصل بجامعة عليكره الإسلامية، ووضع للجامعة منهج الدراسات الإسلامية، كما ألقى عدة محاضرات بالجامعة الملية الإسلامة بدهلي، وألف كتباً لطلاب المدارس العربية بالهند.

وأصدر مجلة (تعمير) بالأردية، ورأس جمعية للدعوة الإسلامية بين الهنادكة، كما أسس المجمع الإسلامي العلمي في لكهنؤ أواخر عام ١٣٧٨ هـ/ ١٩٥٩م.

بدأ الشيخ أبو الحسن في تأليف كتابه الذي يتحدث عن (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) عام ١٣٦٣هـ/ ١٩٤٤م، واستمر هذا حتى عام ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٧م وفي هذا العام سافر إلى الحجاز، فالتقى بالشيخ عبد الرزاق حمزة أحد العلماء المصريين وإمام الحرم المكي وخطيبه، وعرض عليه مسودة الكتاب فطالعها وأبدى إعجابه بالكتاب. ويقول الشيخ الندوي: (بعد العودة إلى الهند أرسلته إلى لجنة التأليف والترجمة والنشر في مصر... ولما سافرت إلى مصر سنة ١٣٧٠هـ/ ١٩٥١م كان الكتاب قد شق طريقه إلى الأوساط العلمية) [١].

تأثر الشيخ أبو الحسن علي الندوي فكرياً بالإمام أحمد بن حنبل وبشيخ الإسلام ابن تيمية والشيخ أحمد سرهندي، والشيخ ولي الله الدهلوي وسيد أحمد شهيد والعلامة محمد إقبال، وسافر إلى معظم البلاد الإسلامية والأوروبية سائحاً ودارساً ومحاضراً وخطيباً، وقبل كل هذا وذاك داعياً إلى الله، وتقلد عدة مناصب في جامعات العالم الإسلامي ومجامعها العلمية، ولا يزال حتى يومنا هذا يبذل الجهد في سبيل الدعوة إلى الله، والعمل على رفع شأن الأمة الإسلامية، ورفع المعاناة عن مسلمي الهند، ودعم جهودهم للحفاظ على كيانهم وعقيدتهم، أطال الله في عمره ووفقه.

---

(١) في مسيرة الحياة ص١٧٦ .

أدب الرحلة ومكانته عند الشيخ أبي الحسن علي الندوي:

يرى أدباء الهند ومفكروها أن العلامة الشيخ أبا الحسن علي الندوي هو بحق خليفة أستاذه سيد سليمان الندوي، نظراً للخدمات التي أدّاها لحركة ندوة العلماء، كما يرون أيضاً أنه امتداد لمدرسة شبلي النعماني وسيد سليمان الندوي الأدبية، فالشيخ الجليل أبو الحسن علي الندوي يقول بالتضامن الإسلامي الشامل، ويؤمن به بل يوجه أيضاً رسالة الإسلام الإنسانية إلى غير المسلمين، فهو داعية يضع نصب عينيه النهضة الإيمانية، ويؤمن بصلاحية الإسلام وأبديته، ويؤمن بالانسجام التام بين الدين والسياسة، وبين الدين والأدب، بالإضافة إلى أنه يتبع منهجاً علمياً سليماً تزينه العاطفة، وهذا واضح من كتاباته في جميع الأنماط الأدبية.

يرى الشيخ أبو الحسن الندوي أن الأدب مثل الحياة تحت ظل الإسلام، ولا يرى الأدب وسيلة للحصول على الثروة، ولنيل السمعة أو التكسب أو التسلية، بل هو رسالة ورسالة سامية، وهكذا تمنى الشيخ أن يسود الأدب الإخلاص والصدق والقوة والحياة والعاطفة والوجدان والخلود، وهكذا جاءت كتاباته سواء العربية أو الأردية فهو أديب اللغتين بلا منازع[1]. وإذا أردنا أن نقدم مثالاً على تفوقه في الأدبين معاً فلنقرأ ما كتبه في روائع إقبال بالعربية، ولنقرأ نفس الكتاب بالأردية بعنوان (نقوش إقبال)، فقد صدر هذا الأدب من داخله، صدر عن عاطفة وعن عقيدة وعن فكر واقتناع، وما أروع الشيخ حين كتب في مختاراته (ص١٠/١٦) موضحاً هذه الفكرة:

(كان هؤلاء الكتاب المؤمنون الذين ملكتهم فكرة أو عقيدة يكتبون لأنفسهم، يكتبون إجابة لنداء ضميرهم وعقيدتهم، مندفعين منبعثين، فتشتعل

---

(١) د. سمير عبد الحميد إبراهيم. الأدب الأردي الإسلامي ص٦٥٧.

مواهبهم، وينبض خاطرهم، ويتحرق قلبهم، فتتهال عليهم المعاني، وتطاوعهم الألفاظ، وتؤثر كتاباتهم في نفوس قرائها لأنها أُخرِجت من القلب فلا تستقر إلا في القلب...

أما هؤلاء المتصنعون فإنهم في كتاباتهم الأدبية أشبه بالممثلين، قد يمثلون الملوك ويضعون أبهة الملك ومظاهره، وقد يمثلون الصعلوك فيتظاهرون بالقوة، وقد يمثلون السعيد، وقد يمثلون الشقي من غير أن يذوقوا لهذه السعادة طعماً أو يكتووا بنار الشقاء. وعلى العكس من ذلك اقرأ ما كتبه شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه الحافظ ابن قيم الجوزية في كتبهم، ترى مثالاً رائعاً للكتابات الأدبية الرفيعة، تتدفق قوة وحياة وتأثيراً، ذلك هو الأدب الحي الخليق بالبقاء، ولا سبب لذلك إلا أنه كتب عن عقيدة وعاطفة)[1].

أثرى الشيخ أبو الحسن الندوي الأدب الأردي، والأدب العربي على السواء بكتاباته التي ظهرت باللغتين، وكما ذكرنا بدأ الشيخ ينشر إنتاجه الفكري باللغة العربية عام ١٣٦٩هـ/ ١٩٥٠م حين أصدر كتابه: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، وبعدها عرفه العالم العربي، وبدأ الشيخ أبو الحسن يلقي محاضراته هنا وهناك، وعمل أستاذاً زائراً بجامعة دمشق والمدينة المنورة، وعيّن عضواً في أكثر من مؤسسة ومنظمة إسلامية.

ومن هنا جاء إنتاجه الأدبي مكتوباً تارة بالعربية أولاً ثم بالأردية، وتارة بالأردية ثم بالعربية، وهذا يجعلنا نختصر الحديث لأن القارئ العربي يستطيع أن يتعرف على مؤلفات الشيخ من خلال ما نشر بالعربية.

يكتب الشيخ بالعربية، وتصرفه أعماله أحياناً عن نقل ما كتب إلى الأردية، فيتولى أحد العاملين بالندوة ذلك، مثلما حدث حين نشر بعض مقالاته

---

(١) مجلة البعث الإسلامي مجلد ١٢٩ جمادى الثانية ١٤٠٥هـ مقال بعنوان: تطور الأدب الإسلامي، لشمس تبريز خان تعريب سردار أحمد.

بالعربية عام ١٣٧٢هـ/ ١٩٥٣م عن سيد أحمد شهيد في مجلة (المسلمون) ثم انشغل لفترة طالت لسنوات، وعاد مرة أخرى للكتابة في الموضوع نفسه، ونشر كتابه (إذا هبت ريح الإيمان) ولقي الكتاب رواجاً في العالم العربي كله، ثم قام الشيخ محمد الحسني بنقله إلى الأردية معتمداً على الكتاب الأصلي للمؤلف الذي صدر بالأردية تحت عنوان سيرة أحمد شهيد في جزأين، وهو نفسه مصدر الكتاب العربي، وهكذا نشر الكتاب بالأردية مترجماً عن العربية (حبب إيمان كي بهار آئى) ونشر عام ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م [١].

وهذا بالنسبة لبعض أعماله الأخرى [٢].

وبالنسبة لأدب الأسفار والرحلات صدر للشيخ أبي الحسن (مذكرات سائح في الشرق العربي) ونشر بالقاهرة عام ١٣٧٢هـ / ١٩٥٤م كما صدر كتابه (من نهر كابل إلى نهر اليرموك) في بيروت عام ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م. ومن الجدير بالذكر أن الطبعة الأردية لهذا الكتاب صدرت قبل ظهور الطبعة العربية وتختلف الطبعتان، فالطبعة العربية تخلو من الأشعار الفارسية الموجودة في الطبعة الأردية، وقد اكتفى المؤلف في الطبعة العربية بما أورده فيها من أشعار عربية، ونقل الكتاب إلى الأردية نور عظيم الندوي.

صدر للشيخ الندوي نوع يمكن أن نطلق عليه أدب الرسائل، وإن كان يدخل ضمناً في أدب الرحلات، ولنطالع كتابه: (كيف ينظر المسلمون إلى الحجاز والجزيرة العربية) الذي صدرت طبعته بعد سنتين من صدور الطبعة العربية وجاءت بعنوان (حجاز مقدس اور جزيرة عرب اميدون اور انديشون كى درميان) أي الأراضي الحجازية المقدسة وجزيرة العرب بين الآمال والمخاوف) [٣].

---

(١) مقدمة الطبعة الأردية، مجلس نشريات اسلامي ط. كراتشي.

(٢) انظر الأمثلة في الأدب الأردي الإسلامي ص٦٦٥ وما بعدها. ومقدمة كتاب منصب نبوت أوراسكا عالى مقام كي حاملين، ومقدمة كتاب تعمر انسا نيت، وكتاب معركة إيمان وماديت، ومقدمة كتاب مسلم مالك مين اسلاميت اور مغربيت كي كش مكش.

(٣) الأدب الأردي الإسلامي ص٦٦٥ .

دأب الشيخ أبو الحسن الندوي على تنقيح كتاباته وتصحيحها، وإضافة معلومات جديدة عليها، ومعظم كتبه كانت مجرد فكرة نشرها في مقال، فكانت الرحلة إلى هنا أو هناك دافعاً له لإعادة التفكير في الكتابة بالتفصيل عن الموضوع ذاته.

فكتابه الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية كان مقالاً كتبه في فبراير ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م بعنوان (موقف العالم الإسلامي تجاه الحضارة الغربية) وبعد سنوات وكما يقول المؤلف نفسه:

(أتيح لي السفر إلى أوروبا ورأيت مركز هذه الحضارة ومعقلها عن كثب، واستفدت من هذه الرحلة في الاطلاع على بعض المصادر العلمية الحديثة، فقدمت كتاباً جديداً ينشر الآن تحت عنوان (الصراع بين الفكرة.. إلخ) وقد صدرت طبعة أردية للكتاب بعنوان (مسلم ممالك مين اسلاميت اور مغربيت كي كش مكش) وقد ساعد الشيخ في إخراج الطبعة العربية الأساتذة سعيد الأعظمي ومحمد الندوي ومحمد الحسني، بينما ساعده في إخراج الطبعة الأردية، وترجمة الاقتباسات الطويلة إلى الأردية الدكتور آصف قدوائي والدكتور عبد القوي.

الشيخ أبو الحسن الندوي وأدب الرحلة

إذا قلنا إن الرحلة في حياة الشيخ أبي الحسن الندوي هي الدافع لمعظم كتاباته، فربما لا يجانبنا الصواب في هذا القول، فالندوي عالم جليل، عالم متبحّر في التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، حرص على أن يضيء مشعل الحضارة الإسلامية في الهند بنور التعليمات الإسلامية الأصيلة والمضي على درب سنة الرسول ﷺ، ولهذا اهتم كثيراً ببيان هذا الهدف في رحلاته خارج البلاد، والأمثلة على ذلك كثيرة سنوردها فيما بعد.

فالشيخ منذ بدء حياته العملية بل وقبلها، يسافر داخل الهند إلى هنا وهناك طلباً للعلم، ولقاء العلماء والتعرف على أحوال البلاد والعباد، كانت له رحلة تاريخية إلى بشاور عام ١٣٦٢هـ / ١٩٤٤م[1] ثم كانت له رحلتان للحج عام ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٧م و١٣٦٩هـ / ١٩٥٠م، وكانت له رحلة إلى سوريا عام ١٣٧٥هـ ١٩٥٦/م، ورحلة إلى تركيا، وأخرى إلى لبنان وإلى فلسطين، وكان قبلها قد ارتحل إلى مصر والسودان عام ١٣٧٠هـ / ١٩٥١م كما زار بغداد في طريقه إلى كراتشي.

وللشيخ أيضاً رحلة إلى بورما ١٣٧٩هـ/ ١٩٦٠م، ورحلة إلى الكويت ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٢م.

أما رحلاته للجزيرة العربية فكثيرة نظراً لوضعه الخاص، ومكانته بين علماء العالم الإسلامي، وعضويته للعديد من المؤسسات والهيئات الإسلامية.

وكان للشيخ رحلات إلى أوروبا بدأها في ١٣٨٣هـ/ سبتمبر ١٩٦٣م[2]. زار خلالها جنيف ولوزان وباريس ولندن وكمبردج ومدن إسبانيا، والتقى في سفره بالعلماء والمستشرقين، وعاود الرحيل إلى أوربا سنة ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م، فسافر إلى جنيف وبرلين وآخن وميونيخ ثم عرج على إستانبول فدمشق وكراتشي عائداً إلى الهند وسافر إلى أمريكا مروراً بأوروبا سنة ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م حيث قضى شهرين [3].

ثم تعددت أسفاره إلى البلدان العربية بعد عام ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م فسافر إلى دمشق وبغداد وشرق الأدرن وإلى دبي والمغرب والجزائر، كما سافر إلى أفغانستان وباكستان وإلى سري لانكا (سيلان) وغيرها [4].

(١) في مسيرة الحياة ج١ ص١٩٥ .

(٢) نفسه ص٢٩٨.

(٣) في مسيرة الحياة ج١ ص٢٩٧.

(٤) نفسه ص٣٢٥-٤٧١ والجزء الثاني من في مسيرة الحياة.

دراسة نقدية تحليلية لأدب الرحلة عند الشيخ أبي الحسن الندوي

من خلال قراءة ما كتب العالم الجليل الشيخ أبو الحسن الندوي يتضح أنه عشق السفر، لا للسياحة، ذلك لأن الإسلام الدين الحنيف يدعو إلى السفر طلباً للمعرفة وطلباً للعلم، ونشراً لدين الله الحنيف بين الناس، وهكذا جعل الإسلام السفر تراثاً ليتصل بالتاريخ الإسلامي لدى جميع الشعوب الإسلامية، والتاريخ الإسلامي له مكانة خاصة لدى شيخنا الندوي، ومن هنا كان السفر والارتحال جزءاً أصيلاً من فكره، وكان السفر والارتحال هو الدافع لمعظم كتاباته بلا مبالغة.

وإذا كانت كتب الرحلات تقدم قصصاً وحكايات قد يكون بعضها حقيقياً وبعضها من نسيج الخيال، إلا أن الأمر يختلف عند شيخنا، فهو لا يقدم حكاية ولا قصة، بل يقدم رسالة سامية تحمل هدفاً سامياً وهو الدعوة إلى الله، ورفعة شأن المسلمين.

لقد تعددت أسباب الرحلة وتنوعت، وقسم البعض الرحلات إلى أقسام عديدة وصلت أحياناً إلى خمسة عشر قسماً[1] إلا أن أهم الرحلات كانت رحلات الحج، ورحلات الدعوة والتبليغ، ورحلات العمل خارج الوطن أو جمع تبرعات لأهداف دينية، ورحلات علمية الهدف منها طلب العلم، وهو سبب من أقدم الأسباب التي دفعت الناس للرحلة.

وإذا كنا نبحث عن أسباب الرحلة لدى شيخنا الندوي، فإن طلب العلم كان من الأسباب الرئيسة التي دفعته للرحلة خارج وداخل شبه القارة الهندية، كما كانت رحلة الحج رحلة تاق إليها قلبه منذ صغره كما سيتضح لنا بعد ذلك، وإذا كان قد ارتحل لأداء مهمة عمل بجامعة أو مؤسسة فإنه حوّل هذه المهمة إلى هدفه الأساسي وهو الدعوة إلى دين الله، وهذا واضح من خلال الكتب

---

(١) د. حسين نصار. أدب الرحلة. مكتبة لبنان ص١٩/ ٢٠ وما بعدها.

التي صدرت بعد فترة الرحلة التي كان هدفها الظاهري عمل ما أو القيام بمهام علمية هنا أو هناك، فلم تكن للرحلة الشخصية، التي يقوم بها الشخص حباً منه في السفر والترحال، ورغبة منه في التمتع بالحياة، مجال في حياة شيخنا. فهو يسافر لهدف ويسافر لغاية، وإلا فالأعمال في موطنه تحتاج إليه دائماً. وكان الشيخ يتجول أحياناً عبر التاريخ، يغمض عينيه، وتتراءى أمامه صور الماضي، عظمة الإسلام، ويظل يطالع هذا التاريخ حتى ينتبه إلى الواقع، وكان الشعور التاريخي لا يفارق شيخنا أبداً، وقد اعترف بهذا حين قال:

(عفا الله عن المؤرخين والمشتغلين بالتاريخ إنهم لا يفارقهم الشعور التاريخي والتفكير التاريخي مكان طاهر (يقصد المسجد النبوي) إنهم أينما كانوا يعيشون فيما درسوه ويصلون الحاضر بالماضي)[١].

ويجول الشيخ في أعماق التاريخ، رحلة في الخيال:

(حانت مني التفاتة فرأيت فريقاً يدخل من باب جبريل -وهو أقرب الأبواب إليّ- عليهم السكينة والوقار، يعلوهم نور العلم وسيماء التفكير، وقد ملؤوا الرحاب بين باب جبريل باليسار إلى باب الرحلة باليمين، منعت كثرتهم عن العد والتشخيص، سألت البواب عنهم، فقال: هؤلاء أعلام الأمة وأئمة العلم وعباقرة الإنسانية ونوابغ الوجود وكل واحد منهم إمام أمة ومؤسس مكتبة.. وقد سمى منهم على عجل واحتشام، مالك بن أنس، وأبا حنيفة النعمان، ومحمد بن إدريس الشافعي وأبا عبد الله أحمد بن حنبل.. و.. و.. وتقي الدين بن تيمية.. وأحمد بن عبد الرحيم الدهلوي على تفاوتهم في الزمان والمكان وأصالة العلم وعلو الشأن..

---

(١) أبو الحسن الندوي، الطريق إلى المدينة. المجمع الإسلامي لكهنؤ ط. الخامسة ١٩٨٧ ص٣٥.

رأيتهم بدؤوا بتحية المسجد وصلوا ركعتين في خشوع وقنوت.. ولم أكن قد قضيت لباناتي من هذه الجماعة، حتى لفت نظري فريق آخر يدخل من باب الرحمن عليهم سيما الصلاح والعبادة، وفي وجوههم أثر التقشف والزهادة..

ولم أستوف كلماتهم الحكيمة حتى لفت نظري فريق يدخل من باب النساء في حشمة وتستر..).

ويظل المؤلف ينظر ويشاهد جماعات وجماعات، ويستمع إلى دعائهم ومناجاتهم حتى انتبه على صوت المؤذن يرتفع عالياً على منابر مسجد رسول الله ﷺ الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر..

(وأفقت من غفوتي، وما كنت أسبح فيه من عالم الخيال والتاريخ، وإذا بي أمام الواقع رجال في الصلاة ورجال في تلاوة القرآن، وجموع من المسلمين ووفود من العالم الإسلامي، وخليط من الأصوات والانطباعات والعواطف) [١].

وهكذا يرتحل الندوي في التاريخ ويدون مشاهداته لنا، وقد دوّن أيضاً مشاهدات إقبال في رحلته إلى جزيرة العرب، وكان شيخنا حريصاً على ذلك أشد الحرص لأنه كان يشعر بنفسه مكان إقبال، واتحدت مشاعر الأديبين معاً، ولهذا حرص الندوي على أن يحكي رحلة إقبال، وهو قادم إلى مدينة رسول الله ﷺ، وخاصة أن إقبالاً كان كلما ذكرت المدينة فاضت عينه وانهمرت الدموع منها، فلم يقدر له الحج وزيارة مسجد الرسول لمرض ألمّ به ولكنه رحل إلى الحجاز بخياله القوي [٢].

وهكذا دخل الندوي مجال تدوين الرحلة الخيالية، سواء رحلة قام بها هو أو قام بها غيره، كما أن رحلاته إذا ما تعددت أهدافها إلا أنها اتحدت كلها

---

(١) الطريق إلى المدينة ص٣٦-٤٧ .

(٢) الندوي، الطريق إلى المدينة ص ٢٢-٣٤، وانظر سمير عبد الحميد إقبال وهدية الحجاز ط٢ تصدر عن رابطة الأدب الإسلامي العالمية.

في هدف واحد هو الدعوة الإسلامية، وهذا يتضح من بيانه للأمور التي اعتنى بها، والمنهج الذي سلكه في تدوين الرحلة، فهو لم يهتم بالأمور الجغرافية أو الاقتصادية إلا قليلاً، وركز على الأمور الثقافية والاجتماعية والحضارية، فنراه يذكر الأحوال العلمية في البلاد التي زارها ويذكر العلماء والأدباء والمدارس، وحلقات الدرس والأدب والجامعات، والمؤسسات التعليمية والثقافية وما إلى ذلك.

أما عن لغة الرحلة فماذا نقول؟ إن شيخنا لأديب يشهد له الجميع إذا ما كتب بالأردية أو بالعربية، ولهذا ساد الطبع الأدبي كتاباته، وزخرت مادة رحلاته بالعناصر الأدبية، مما يجعلنا نطلق هنا على كتاباته: أدب الرحلة، فرحلاته صدرت على مستوى أدبي رفيع ضمنها الأشعار والأمثال والحكم، وأدمج في سطورها آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية، التي ربما احتاج إليها للتعليق على موقف، أو الفصل في قضية ما.

وعادة ما كانت المشاعر الفياضة تغلب على شيخنا، فتفيض على أسلوبه، فتأتي لغته العربية أو الأردية رفيعة المستوى، عظيمة التأثير والإمتاع، مما يجعل لرحلاته قيمة أدبية، نظراً إلى روعة الأسلوب الذي يصل بها إلى مستوى الخيال الفني في معظم الأحيان (١).

انطلاقاً مما سبق لا نرى ضرورة لتقسيم رحلات الشيخ الندوي طبقاً للموضوع، لأن موضوع رحلاته كما ذكرنا، كان رغم اختلاف الوسيلة، هو الدعوة إلى الله، والدعوة إلى استعادة الأمجاد القديمة، ومن هنا سنحاول اتباع الترتيب التاريخي قدر الإمكان لعرض نماذج من كتابات الشيخ في رحلاته المختلفة.

---

(١) سمير عبد الحميد. مقدمة كتاب الجزيرة العربية في أدب الرحلات الأردية. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. تحت الطبع، (وقد صدر الكتاب سنة ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م).

الرحلة الحجازية

الرحلة الحجازية الأولى:

لقد توزعت رحلات الشيخ ما بين الكتب التي صدرت بالعربية، والكتب التي صدرت بالأردية. وقد حاولتُ جاهداً على قدر إمكانياتي المتواضعة، وما أتيح لي من مصادر أردية وعربية، أن أحيط بما كتبه الشيخ في مجال الرحلات، ولم يكن الأمر بالسهولة التي تخيلتها، لأن آراء الشيخ وأفكاره ومشاهداته وانطباعاته كما ذكر هو -وهو محق فيما ذكر- (مبعثرة في كثير من مقالاته ومحاضراته ومؤلفاته، التي بلغت أكثر من خمسة وسبعين مؤلفاً) [١].

وهكذا حين بدأت أطالع رحلة الشيخ إلى الحج، والتي طبعت بالأردية في مجلة قومي دائجست مجلد ١١ عدد خاص بالحج بعنوان (مركز جلال وجمال ١٣٦٦هـ / ١٩٤٧) [٢]، وبدأت أترجم بعض سطورها، أحسست أنني قرأت هذا الكلام بالعربية قبلاً فرجعت إلى ما لدي من مصادر عربية ووفقني الله في العثور على بعض الصفحات من الرحلة في كتاب (الطريق إلى المدينة) تحت عنوان (في مهد الإسلام). حديث أذاعته محطة دهلي الهندية في سلسلة أحاديث تحدث فيها المؤلف عن مشاهداته وانطباعاته على إثر زيارته للشرق العربي عام ١٣٧٠هـ / ١٩٥١م [٣]، ثم وجدت أيضاً الترجمة العربية لبعض الصفحات في كتاب (في مسيرة الحياة) تحت عنوان (الرحلة إلى الحجاز والإقامة بالحرمين الشريفين) [٤].

---

(١) أبو الحسن الندوي في مسيرة الحياة. دار القلم. دمشق، ط١ ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م ص٢٥ وقد اطلعت على ورقة أعدها الأستاذ عبد الرحمن الباني سنة ١٤١٦هـ، وتتضمن قائمة بآثار الشيخ العلمية ومؤلفاته العربية، ووصل عددها ١٢٢ عنواناً والقائمة تحتاج إلى تأصيل مع ذكر مكان النشر وتاريخه.

(٢) ص ١٧٧ وما بعدها.

(٣) ص٦٨ وما بعدها.

(٤) ص ١٩٥ وما بعدها.

وأثبت هنا الترجمة العربية نقلاً عن الأردية، وللقارئ الرجوع إلى كتاب الشيخ الندوي في مسيرة الحياة، وإلى كتابه الطريق إلى المدينة المنورة للوقوف على النص العربي لبعض صفحات الرحلة الحجازية التي كتبها الشيخ الندوي.

(في أواخر يونيو عام ١٩٤٧م شعبان١٣٦٦هـ أشار عليّ شيخ الحديث العلامة محمد زكريا بالاستعداد للسفر إلى الأراضي الحجازية بنية الحج والدعوة والتبليغ فقررت أن أصطحب معي والدتي وزوجتي، وقرر شيخ الحديث -بناء على بصيرته المنيرة التي وهبه الله إياها، وتجربته وخبرته الطويلة- أن يكون معي في سفري هذا من يجعلني لا أفكر في أمور المعيشة اليومية، حتى أتمكن من التفرغ تماماً لهدفي الرئيسي، وهكذا اخترت ابن أختي مولوي سيد محمد الثاني الذي يتولى -من قبل- مساعدتي في أموري المتعلقة بالتأليفات العلمية والدينية، ثم أضيف إلى هذه القافلة الصغيرة شخصية أخرى عزيزة علينا هي شقيقتي (سيدة أمة الله تسنيم).

لا شك أن كل مسلم يتمنى ويشتاق ويتوق إلى أداة فريضة الحج، لكن مطالعة السيرة النبوية، وشغفي بها، ودرسي للحديث وحبي للغة العربية، كل هذا جعل غاية مرامي وأمنيتي القدوم إلى الحرمين الشريفين، ولا أزال أتذكر أنني كنت حين أشاهد العربات التي تجرها الخيول تنطلق بسرعة من أمين آباد إلى محطة السكة الحديد، كان قلبي يمتلىء بالأماني، وأظل أفكر: هل سيأتي هذا اليوم الذي سأذهب فيه أنا أيضاً إلى المحطة في طريقي إلى الحج ؟! وفي النهاية جاء اليوم، وكما يقول الشاعر:

رحنا نعد الأيام تحسُّباً لذلك اليوم

في ذلك الوقت كان قد مرّ عام على فتح طريق الحج بعد إغلاقه بسبب الحرب العالمية الثانية، ولهذا حصلنا على تصريح لاختيار الميناء الذي سنسافر منه، وكان للجميع مطلق الخيار، فمن أراد السفر من بمباي كان له ما أراد،

ومن أراد السفر من كراتشي كان له ما أراد، كان ذلك قبل تقسيم شبه القارة إلى هند وباكستان.

واخترت ميناء كراتشي، وكنت قد تعرفت في «نظام الدين» على حاجي عبد الجبار الدهلوي، وهو من كبار التجار في مدينة كراتشي، وهكذا بدأت الرحلة من لكهنؤ في السادس والعشرين من يونيو، ومنها إلى لاهور حيث غيّرنا القطار للتوجه إلى كراتشي، كانت الاضطرابات الطائفية قد بلغت ذروتها، فلم يبقَ على تقسيم البلاد إلا أقل من شهر ونصف، ولهذا لم أتمكن من مقابلة الشيخ أحمد علي في لاهور، وبقيت في كراتشي أحد عشر يوماً قام بخدمتنا خلالها حاجي عبد الجبار وأخوه حاجي عبد الستار وأنجالهما وأهل بيتهما الكرام، ولم يقصروا أبداً في ضيافتهم لنا.

وفي التاسع من يوليو ركبنا الباخرة (إسلامي) - وهي من بواخر شركة (مغل لاين) من كراتشي متجهين إلى جدة، وكنا اشترينا تذكرتين درجة أولى، وبهذا حصلنا على التسهيلات الخاصة (بكابينة) بأكملها، وكان بجوار هذه الكابينة كابينة القنصل البريطاني العام في جدة، وشهجهان أمير كبير الذي تعرفت عليه أثناء حضور دعوة مير غلام على تالبور وزير السند، وفي هذا السفر شهدت وقائع غيبية تتعلق براحة والدتي العجوز ومرافقيها، عرفت أنها نتيجة لكرم الله تعالى ولطفه الخاص بنا... فبالقرب من كبائن الدرجة الأولى بدأ اجتماع النساء في صالة المكتبة، وقامت شقيقتي [1] بإلقاء محاضرة في هذا الاجتماع النسائي، مما أوجد لها مكانة طيبة واحتراماً كبيراً في قلوب

(١) تحدث الشيخ أبو الحسن عن وفاتها في كتابه في مسيرة الحياة ج١، وذكر أن أخته الكريمة العالمة الفاضلة سيدة أمة الله تسنيم توفيت في ٢٨ يناير ١٩٧٦م، لقد كانت صالحة عابدة مؤلفة فاضلة، شاعرة أديبة، ترجمت كتاب رياض الصالحين للإمام النووي إلى الأردية وألفت عدداً من الكتب الأخرى للأطفال وكانت تقيم ندوة دينية أسبوعية للنساء. ومن شعرها في الدعاء لله قولها: (بقيت سحابة النهار واقفة مستجدية متلهفة. وها قد حان وقت الأصيل، لقد جرت عادة الكرام الأسخياء العطف على المتسولين في آخر النهار، يا ربي يا كريم، ارحمني لا تردني خائبة، فإن لم أكن أستحق ذلك لفضل فيّ، فها هي رحمتك وسعت كل شيء) ص ٣٦٣/٣٦٤ .

السيدات الذاهبات إلى الحج، والكابينة المتصلة بكابينتنا كان فيها أحد تجار عائلة (ميمن) من بمباي وهو (حاجي أحمد) الذي يطلقون عليه (ملك تجارة ألعاب الأطفال).

كان حاجي أحمد مسافراً مع أسرته، فتوطدت العلاقات بين شقيقتي وبين جميع أفراد أسرته، حتى إنهم راحوا كل وقت يهتمون بخدمتنا ورعايتنا، وظلت علاقتنا مستمرة مع هذه الأسرة الطيبة لسنوات وسنوات بعد انتقالهم إلى كراتشي[1].

وصلنا إلى جدة في ١٩ يوليو (١٩٤٧م/٢٩ شعبان ١٣٦٦هـ) ولا أستطيع أن أصف مشاعري حين وطأت قدماي أرض جدة، أما عن حالة والدتي والسرور الذي ملأ فؤادها فهو أمر عجيب يصعب وصفه. ولما كان بيننا وبين وقت الحج ثلاثة أشهر، لهذا قررنا أن نقضي هذه المدة في المدينة المنورة، شاهدنا هلال رمضان المبارك في جدة وصمنا يومين أيضاً في جدة، خرجنا ليلة رؤية الهلال أنا وعزيزي محمد الثاني إلى السوق لشراء لوازم السحور، وهناك سمعنا من ينادي بصوت جميل: تمر تمر يا صائم، تمر تمر يا صائم، كان النداء يصدر بلهجة خاصة، تأثرنا كثيراً بصداها العذب، وحينئذ قدّرنا مدى ما يطرأ على أصحاب القلوب من رقة وشفافية، حين يستمعون إلى الأشعار المفعمة بالشوق والحرقة، وفي الليلة التالية جاءت الحافلة التي ستقلنا إلى المدينة المنورة... قطعنا الطريق في يوم وليلتين، ولا يمكنني هنا أن أعبّر

---

(١) لم ترد الصفحات السابقة في كتاب في مسيرة الحياة تحت عنوان رحلتان للحج. وهذه هي السطور التي وردت تحت عنوان الرحلة إلى الحجاز والإقامة بالحرمين الشريفين: (سافرنا ١٩ من شعبان عام ١٣٦٦هـ الموافق ٩ يوليو عام ١٩٤٧م بالباخرة الإسلامية من كراتشي إلى جدة.
وصلنا جدة في ٢٩ من شعبان الموافق ١٩ يوليو وقد شعرنا لدى نزولنا على ميناء جدة بسرور ولذة غامرة وكيفية عجيبة قد يشعر بها السعداء المحظوظون في الحرمين الشريفين، وكانت السيدة الوالدة في حالة عجيبة من السرور والاستبشار..) إلخ ص١٩٥ وما بعدها.

عن مدى السرور وما طرأ على قلوبنا من رقة، ونحن نمضي على هذا الطريق، ويحضرني هنا فقط بيتان من الشعر الأردي كانا يجريان على لساني رغماً عني:

باد نسيم آج بهت مشكبار هي

شايد هواكي رخ به كهل زلف يا رهي

وه ايك بار ادهر سي كئى مكر ابتك

هواكي رحمت برورد كار آتى هي

«هواء النسيم اليوم مفعم بالمسك والطيب.. لعلها تناثرت تجاه الريح القادم إلينا.. خصلات شعر الحبيب.. مرّ من هنا مرةً ولكن: لا تزال حتى الآن نسمات الرحمة الإلهية تحف بنا، تنثر علينا الورود والطيب...»

حين وصلت إلى المدينة المنورة، صليت قبل كل شيء ركعتين، وشكرت الله على نصيبي من هذه السعادة الغامرة، ثم قدمت فسلمت على رسول الله ﷺ، وشهدت أنه بلغ الرسالة وأدى الأمانة، وهدى الأمة إلى الطريق القويم، واتجهت بعدها إلى جنة البقيع... فقرأت الفاتحة، ثم اتجهت ناحية أُحد وتذكرت أحاديث الرسول ﷺ.

وفي المدينة التقيت بالشيخ الجليل سيد محمود أحمد مدني [1]... وفي المدينة وعلى بعد عدة أقدام من باب جبريل، توجد مكتبة عارف حكمت الشهيرة، وهي خزانة عامرة بالمخطوطات ونوادر الكتب، والقائم عليها رجل تركي فاضل يدعى الشيخ إبراهيم قدم إلى الهند منذ فترة بعيدة، وأقام في

---

(١) تم حذف بعض السطور في الترجمة في مواضع النقط بهدف التلخيص اردو دائجست مجلد ١١ عدد خاص بالحج. ص١٧٩ .

الندوة (ندوة العلماء) وفي دار المصنفين (أعظم كره) عدة أيام، وبينه وبين الشيخ مسعود علي الندوي علاقات طيبة، وقد دعانا ذات يوم فلبينا الدعوة، وذكر لنا أن المكان الذي توجد فيه المكتبة هو بيت جدكم حسن المثنى ابن سيدنا حسن بن علي رضي الله عنه، وهذا الأمر ثابت بالمستندات التاريخية، فأقيموا هنا ليلة، وقبلنا عرضه الطيب، وهكذا أقامت الوالدة مع شقيقتي في قسم النساء، وأقمت أنا ومحمد الثاني على السطح..

وأقمنا ليلة في بيت الشيخ سيد محمود أحمد، وهو متصل بالمكان الذي استشهد فيه مجاهدو أُحد، وهناك مسجد صغير بناه الأتراك قريب من مرقد سيدنا حمزة رضي الله عنه، وهنا قمت بتلخيص ما ورد في (زاد المعاد) عن غزوة أُحد.

بعد أن قضينا بالمدينة شهرين ونصف، سافرنا إلى مكة المكرمة، والمشاعر التي انتابتنا حين دخلنا من باب السلام إلى الحرم لا يمكن الكتابة عنها ولا يمكن وصفها لأنه لا يعرفها إلا من ينال شرف المرور بهذه التجربة.

أقمنا أيام الحج في محلة الشامية (رباط تونك) وهو بعيد إلى حد ما عن الحرم الشريف، وكانت الوالدة ضعيفة لكن الله سهّل لنا كل صعب.. قدم إلينا أحد الأصدقاء، وأصرّ على أن ننتقل من الرباط إلى المدرسة الفخرية العثمانية، ومبناها أمام باب إبراهيم مباشرة، وأصبحنا وكأننا داخل الحرم الشريف...

وبعد الحج قضينا مدة طويلة قاربت الثلاثة أشهر قضيناها وكأننا فعلاً داخل الحرم الشريف) [1].

---

(١) قومي دائجست حج نمبر ص ١٨٠.

بعد أن حكى الشيخ الندوي مسيرة الرحلة، راح يذكر خواطره حين كان طفلاً، وقد عثرت على الترجمة العربية للصفحات الأردية التالية، والتي يتحدث فيها عن مشاعره تلك عثرت عليها في كتاب الطريق إلى المدينة تحت عنوان في (مهد الإسلام) [(١)]، ولهذا أقتطف بعض الصفحات من الترجمة العربية الرائعة للنص الأردي (حج نمبر ص١٨٠/١٨١) مع تبديل بعض العبارات محافظة على ترتيب النص الأردي:

(نشأت شأن أولاد المسلمين في بيئة لا ينقطع عنها ذكر الحجاز وبلديه المشرفين، وكان أهل البلاد دائماً ينطقون بسرعة اسم مكة والمدينة بدون حرف عطف، فيخيل إليّ وأنا طفل صغير أنهما بلد واحد، وكلما ذكروا مكة ذكروا المدينة وكذا بالعكس، فلم أميز بينهما إلا بعد ما كبرت سني وصرت أعقل، وعرفت أنهما بلدان مستقلان بينهما مسافة لا يستهان بها.

لقد سمعت في صغري عن الجنة ونعيمها، وسمعت بنفس الحنين وبنفس الإجلال عن الحجاز وبلديه، فنشأت على الحنين إلى المجموع، نشأت على الحنين إلى الجنة والحجاز. فلما تقدمت في السن عرفت أن الجنة لا سبيل إليها في هذه الحياة فصبرت وتجلدت وعزيت نفسي، أما الحجاز فقالوا الوصول إليه ميسور، وقرأت أن قوافل الحجاج غادية رائحة فلم أجد عنه عزاء، ولم أجد لنفسي عذراً في عدم الوصول إليه، ثم تقدمت بي السن أيضاً وقرأت سيرة الرسول ﷺ وتاريخ الإسلام، فتجدد الشوق القديم، واشتعل الحنين في الضلوع وحقق الله أمنيتي وتشرفت بالحج والزيارة...).

ويمضي المؤلف الجليل فيتحدث عن مكة ويقول [(٢)]:

(أما لولا مكة لتجردت الإنسانية من أجمل ما عندها من معان وحقائق وعقائد وأخلاق وعلوم وفضائل، هنا وجد العالم إيمانه الذي فقده منذ قرون،

---

(١) ص ٦٨ وما بعدها.

(٢) الطريق إلى المدينة ص٦٩.

ووجد العلم الصحيح الذي ضيعه في غياهب الجهل والظنون، ووجد الكرامة التي أهدرها الطغاة والظالمون، وبالإجمال هنا وجدت الإنسانية من جديد ووضع التاريخ من جديد) [١].

ويمضي المؤلف فيحكي عن زيارته للمدينة، وزيارته لجبل أُحد، وهنا يتضمن حديثه ما حذفناه قبلاً (انظر الصفحات السابقة مكان النقط ص ١٦٢).

(وتوجهت إلى أُحد تلك القطعة التي مثلت أروع رواية وأعظمها تأثيراً على تاريخ الإنسانية، رواية الإيمان واليقين، رواية البطولة والوفاء، رواية الحب والولاء النادر، وكأني أسمع مع أنس بن النضر (إني لأجد ريح الجنة من دون أُحد) ويقول سعد بن معاذ (ماذا تصنع بالحرب بعد محمد ﷺ وقد طار في الناس أنه قتل، فيقول أنس: ماذا نصنع بالحياة بعد محمد ﷺ...إلخ) [٢].

وهكذا توزعت كتابات الشيخ أبي الحسن الندوي بين مؤلفاته المختلفة، حتى الرحلة الواحدة نجدها في أكثر من موضع في أكثر من كتاب، وهو أحياناً يحيل القارئ إلى مصدر آخر وعن نفس الرحلة. وعودة إلى ما نقلناه من كتابه في مسيرة الحياة نكمل هذه السطور: (... كان اليوم الأول من رمضان وكنت أصلي التراويح بالناس في ساحة، إذا بالحافلة للمدينة قد وصلت فركبنا مع رفقتنا الحجاج الذين جاؤوا مع جماعة التبليغ من ميوات ومراد آباد وسرنا على بركة الله، واستغرق هذا السفر يوماً وليلتين، ولا نستطيع أن نعبر بالألفاظ والكلمات عن الأشواق والسرور واللذة التي عشناها، ويمكن أن يقدر ذلك من مقالي بعنوان في مدينة الرسول (كتاب الطريق إلى المدينة) أو من تلك الرسائل التي بعثت بها إلى الشيخ محمد زكريا في أثناء تلك الأيام...) [٣].

(١) نفسه ص ٧٠.
(٢) المصدر السابق ص٧٣/٧٤ وانظر أردودائجست حج نمبر ص ١٧٩ النص الأردي.
(٣) في مسيرة الحياة ج١ ص ١٩٥/١٩٦.

وبالرجوع إلى كتاب (الطريق إلى المدينة ط٥ عام ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م لكهنؤ) يجد القارئ أن الشيخ الندوي يحيله إلى مقال بعنوان (محمد إقبال في مدينة الرسول ﷺ). (ص١٢ وما بعدها) [1].

أهداف الرحلة الحجازية الأولى:

كان هدف الدعوة إلى الله هو أساس كل سفر وأساس كل حركة أو نقلة للشيخ، وهكذا طبع مقاله: إلى ممثلي البلاد الإسلامية، وبادر بإرساله إلى قاضي كامران على أثر توقف الباخرة على خلاف العادة هناك، كما أرسله إلى كبار العلماء هناك، وجاءته رسالة شكر وتقدير من القاضي، أما عن مهمته في الحرمين فيقول عنها:

«كانت منطقة الحرمين حينئذ لم تدخل أسواقها الكتب الدعوية الإسلامية إلا القليل الذي يستطيع أن يحرك ساكنهم، ويجمع بين الحديث إلى القلب والحديث إلى العقل، فيضرب على أوتار القلب ويؤثر في العقل في وقت واحد، إنما كانت هناك إما رسائل وكتب كلامية تتعلق بمسائل الصفات وغيرها، أو كتب علمية قديمة تتناول المباحث الفقهية، وهي كتب يزهد فيها الشباب المثقفون وأصحاب الذوق الأدبي..فكانت رسالة (إلى ممثلي البلاد الإسلامية) نموذجاً جديداً للأدب الإسلامي الدعوي.. فيها حرارة واندفاع ولوعة قلب وحرقة نفس.. وأذكر أن أحد كبار علماء نجد والحجاز ومدرسي الحديث في المسجد النبوي الشيخ محمد علي الحركان، الذي كان يدرس سنن أبي داود أو صحيح مسلم، وقف درسه يوماً وقرأ هذه الرسالة بنفسه على طلابه».

(١) وهذا يؤكد على أهمية إعادة تصنيف كتابات الشيخ أبي الحسن الندوي على ضوء كتابه في مسيرة الحياة، ومحاولة جمع كتاباته المبعثرة مقالات كانت أو كتباً.

ويذكر الشيخ الندوي (أنه ركز على العمل الدعوي في أوساط العلماء، وعقد اجتماعاً كل جمعة بعد صلاة الجمعة في قاعة مدرسة العلوم الشرعية بالمدينة المنورة بالإضافة إلى جولات هنا وهناك[١].

ويذكر الشيخ الندوي (أنه كان من ثمار الإقامة بمكة التعرف على الشيخ عمر بن حسن آل الشيخ.. فكان يقرأ كتبي ورسائلي ويقرؤها لمن يستمع إليها، وقضت هذه الصلة والثقة على تلك الأقاويل والإشاعات التي كان يثيرها بعض الناس لأسباب مختلفة، لإثارة الشكوك والشبهات حول جماعة الدعوة والتبليغ، وإساءة الظن بها، وقد دافع الشيخ عمر آل الشيخ بنفسه، عن الجماعة وأيدها وحماها من التعرض للمشاكل، ولم يزل الشيخ عمر آل الشيخ على هذه الصلة الوثيقة التي تحولت إلى صلة أخوية وصلة عطف وشفقة ويمكن أن يقدر ذلك من الرسائل الودية التي بعث بها إليّ) [٢].

وعبَّر الشيخ أبو الحسن الندوي عن رأيه في منطقة الحرمين الشريفين آنذاك (١٣٦٧هـ / ١٩٤٨م) فقال:

«إن الحجاز يمر بمرحلة انتقالية هي من أدق مراحل الشعوب العربية، قامت دولة واسعة تستطيع -إذا أراد الله- أن تعيد التاريخ على أعقابه، وتحقق من تكوين المجتمع الإسلامي المثالي ما كان يحلم به المعنيون بالإسلام، والذي هو من أشد حاجات هذا العصر..» [٣].

«وكان من نتائج هذه الرحلة المباركة أن توطدت العلاقات بين الشيخ وبين العلماء والأصدقاء الذين تعرف عليهم أثناء الرحلة».

---

(١) في مسيرة الحياة ج١ص١٩٩.

(٢) في مسيرة الحياة ج١ ص ٢٠٠، وانظر أيضاً رسائل الأعلام الذي طبع في ندوة العلماء بلكهنؤ وفي دار الصحوة بالقاهرة.

(٣) في مسيرة الحياة ج١ ص٢٠٠/٢٠١.

«وقد كان ذلك من كرم أولئك العلماء والأدباء وأصحاب الأقلام العرب وطيبة نفوسهم وميزتهم الخاصة التي جربتها مراراً، إنهم حافظوا على هذا الود والصلة التي قامت بيننا وبينهم في فترة قليلة، وداوموا على المكاتبة والمراسلة)[١] .

الرحلة الحجازية الثانية:

كانت الرحلة الثانية للشيخ أبي الحسن الندوي عام ١٣٦٩هـ / ١٩٥٠م برفقة الشيخ عبد القادر الرائي بوري، وكان السفر من بمباي في ٢٠ ذي القعدة ١٣٦٩ هـ/ ٤سبتمبر ١٩٥٠م، ورافقه أربعة من تلاميذه: الشيخ عبد الله عباس الندوي، الشيخ السيد رضوان علي الندوي، والشيخ محمد طاهر المنصور بوري والشيخ محمد الرابع الندوي[٢].

ويذكر الشيخ واقعة خاصة بهذا السفر يراها جديرة بالكتابة والتسجيل، وهي أن حامل مفتاح الكعبة حضرة السيد الشيبي قام بنفسه بدعوة الشيخ لدخول الكعبة (وسمح لي أيضاً بأن أصطحب معي من أشاء من الناس، وكان هذا توفيقاً من الله فلم أنل هذه السعادة من قبل أو من بعد!!! وبعدها اشتكى بعض معارفنا لأنهم لم يتمكنوا من دخول الكعبة، فطلبت من الشيبي أن يسمح لهم بالدخول، فقام بنفسه بترتيب دخولهم عن طريق الشرطة...)[٣].

انطباعات الشيخ في رحلته الثانية:

عبَّر الشيخ الندوي عن مخاوفه من الغزو الغربي وهجوم الحضارة الغربية الزائفة فقال:

---

(١) انظر مجموعة رسائل الأعلام. الصحوة والمصدر السابق ص٢٠٣.

(٢) في مسيرة الحياة ص٢١٢.

(٣) اردو دائجست حج نمبر مجلد ١١ ص١٨٢ .

«شعرت أثناء إقامتي بالحجاز بأن الحضارة الغربية قد أثّرت في البلدان العربية تأثيراً كلياً، بل شلّت قواها وحطمت أعصابها، ولا يستثنى من ذلك شباب جزيرة العرب بما فيها أرض الحرمين الشريفين، الذي رزق بهم العالم نعمة الإيمان والإسلام، وانقشعت بهم ظلماته وظهرت منهم أمة خلقت للقيادة والإمامة» (١).

وعبّر الندوي عن رغبته في عقد صلات أوثق مع الخواص والمثقفين والأدباء وخاصة أن الجهل باللغة والأساليب الجديدة كان يقوم حجاباً في عصر تضاعفت فيه أهمية اللغة والأدب، فأصبح الحجاب -كما يقول- سميكاً أكثر:

«ذهبنا إلى السيد محمود حافظ نائب مدير مطبعة الحكومة، فجمع بيننا وبين الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار، وكان عالماً أديباً ومحققاً وباحثاً وكاتباً معروفاً، قدمنا بدوره إلى جمع من الشباب والأدباء، والصحفيين كان من بينهم الشيخ سعيد العامودي مدير مجلة الحج، وعضو المجلس الاستشاري بالمملكة العربية السعودية والشيخ عبد القدوس الأنصاري مدير تحرير مجلة المنهل، والسيد علي حسن أحد الأدباء الموظفين بوزارة المالية والسيد محسن أحمد باروم أحد كبار الموظفين بالإذاعة، والشيخ حسين عرب الذي أصبح فيما بعد وزير الحج والأوقاف» (٢).

«وذهبنا إلى الشيخ محمد سرور الصبان.. فعرّفوني به ورغبوا إليه في أن ينظم لي أحاديث في الإذاعة وكنت قابلته أيضاً... وقَبِلَ الشيخ بكل رغبة وسرور.. وقد أصبحت بعد هذه الجلسة الناجحة والأحاديث التي ألقيتها في الإذاعة معروفاً في الأوساط الأدبية في جزيرة العرب وأرض الحرمين، وقامت بيننا وبين الأدباء وأصحاب الأقلام من الشباب روابط وصلات، فكنا ندعوهم إلى مقرنا تارة ويدعوننا إلى بيوتهم تارة أخرى» (٣).

---

(١) في مسيرة الحياة ج١ ص٢١٣.
(٢) في مسيرة الحياة ج١ ص٢١٤.
(٣) المصدر السابق ص ٢١٢/٢١٦.

الرحلة إلى البلدان العربية (الدور الأول)

أ- الرحلة الأولى إلى مصر والسودان

من جدة سافر الشيخ أبو الحسن الندوي إلى مصر وبرفقته مولوي محمد معين الندوي ومولوي عبد الرشيد الندوي، وذلك في ١٢ ربيع الثاني ١٣٧٠هـ/ ٢٠ يناير ١٩٥١م ويذكر الشيخ أنه التزم في هذه الرحلة بتسجيل مذكراته، مما يدل على أنه لم يكن يهتم قبلاً بتسجيل يوميات رحلاته وأسفاره: (.. كتبت عند بدء هذه الرحلة في الصفحة الأولى من مذكراتي ما يدل على أهداف الرحلة ودوافعها: وداعاً أيتها الجزيرة العربية غير مهجورة ولا مملولة، فليست هذه الرحلة إلا في سبيلك والاتصال بأسرتك العزيزة المنتشرة في ساحل البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط، أبلغها تحياتك وأرى ما فعلت الأيام بها بعد انفصالها عنك، وما فعلت برسالتك التي حملتها عنك للعالم والأمانة التي تقلدتها» [١].

أمضى الشيخ الندوي في القاهرة ستة أشهر، وكان هدف الرحلة يتلخص في عقد اللقاءات والاجتماعات وإلقاء الخطب والمحاضرات، وعقد الصلات والعلاقات بمختلف الأوساط، والتعريف بالهند والدعوة الإسلامية، وقد سجل المؤلف كل هذا بالتفصيل في كتابه (مذكرات سائح في الشرق العربي) [٢] وتجدر الإشارة هنا إلى لقاءات الندوي بالعلماء والمفكرين في مصر، سواء من كان مصرياً بالمولد أو بالإقامة أو من هاجر إلى مصر من البلاد العربية والإسلامية.

(١) في مسيرة الحياة ج١ ص ٢١٨/٢١٩.
(٢) طبع أول مرة عام ١٩٥٢ وصدرت له طبعة ثانية في بيروت.

«كان من تقدير العزيز العليم أنه هيأ لي فرصة زيارة مصر والسودان وإتمام التجول فيهما قبل طغيان القومية العربية الاشتراكية العلمية التي ظهرت عام ١٩٦٠ / ١٩٦١م (١٣٨٠هـ / ١٣٨١هـ) من مصر ثم احتوت العالم العربي كله..» [١].

«كان هناك نشاط ملحوظ وسط المفكرين والأدباء الذين كان لهم تأثير في العالم العربي كله، منهم أحمد أمين بك، والدكتور طه حسين باشا، وعباس محمود العقاد، والدكتور محمد حسين هيكل، وتوفيق الحيكم وأحمد حسن الزيات، ومنصور فهمي باشا، وفكري أباظة، وعدد من كبار العلماء وأصحاب الاختصاص في العلوم الدينية منهم: شيخ الأزهر الأستاذ الأكبر الشيخ عبدالمجيد سليم، والشيخ محمود شلتوت، والشيخ أحمد محمد شاكر، والشيخ حسنين مخلوف، والشيخ أحمد عبدالرحمن البنا الساعاتي (والد الإمام حسن البنا) والشيخ حامد الفقي، والشيخ عبدالوهاب الخلاف، والشخ زاهد الكوثري والشيخ محمد عبداللطيف دراز، والشيخ محمد فؤاد عبدالباقي، والشيخ مصطفى صبري أفندي (شيخ الإسلام سابقاً بالدولة العثمانية) - وكان من بين القادة والزعماء من هاجر من وطنه وأهله ولجأ إلى مصر، ومنهم سماحة المفتي أمين الحسيني، والمجاهد المعروف الأمير عبدالكريم الريفي، وفضيلة العلامة السيد مبشر الطرازي التركستاني، وعبدالرحمن عزام باشا، واللواء صالح حرب باشا (رئيس جمعية الشبان المسلمين) وأمين محمود خطاب (سكرتير الجمعية الشرعية) ومحمد علي علوبه باشا (وزير حزب الأحرار الدستوريين سابقاً) - وكان من الأدباء والدعاة والمفكرين الأستاذ محب الدين الخطيب صاحب مجلة الفتح، وسيد قطب، ومحمد أحمد بك الغمراوي

(١) في مسيرة الحياة ج١ ص ٢١٩.

ومحمود محمد شاكر، وأحمد الشرباصي، ومحمد الغزالي، وفريد وجدي وسعيد رمضان، وصالح العشماوي (مدير تحرير مجلة الدعوة) ويكفي في أسماء الدعاة إلى التحرر والفكر الغربي وممن يستحق أن نعتبره من مربي الجيل الجديد في مصر ذكر اسم أحمد لطفي السيد باشا (رئيس مجمع فؤاد الأول) هذا بالإضافة إلى الجماعات والمنظمات والمجلات الأدبية[١].

وعن الرحلة داخل القاهرة كتب الندوي ما يلي:

«لما وصلنا القاهرة انضم إلينا في هذه الرحلة الشيخ عبدالله البلياوي الذي كان قد سافر إلى السودان في رحلة دعوية، وأقمنا أياماً في فندق البرلمان بالعتبة الخضراء، ثم نزلنا في إدارة جمعية كانت بالطابق الأعلى في السكة الحديد (سوق الصيارفة)... لم يكن لنا نحن الشباب في مدينة القاهرة العامرة الصاخبة شيء يلفت أنظار الأوساط العلمية والأدبية والدعوية إلينا، وكنت أنا ترجمان الجماعة شاباً نحيفاً لم أبلغ من العمر إلا ٣٦ أو ٣٧ سنة وملابسي هندية، فلا عندي عباءة علماء الأزهر ولا بذلة الأفنديين.. فملابسنا لا تتجاوز قدراً من ملابس النوم في الشرق العربي إلا قليلاً، أما الإقامة فكانت في مكتب متواضع لجمعية خيرية بدلاً من فندق كبير يحدد مكانة الضيف الأجنبي.. لكن الله هيأ لي من قبل أسباب الاستفادة من هذه الإقامة..» [٢].

كتب المؤلف بعد ذلك عن نشاطاته العلمية، فقد ألقى محاضرات في دار الشبان المسلمين، علق عليها الأستاذ أحمد الشرباصي، وعبدالمتعال الصعيدي

(١) المصدر السابق ص ٢٢٠ .
(٢) المصدر السابق ص ٢٢٠ - ٢٢٢ .

والشيخ محمد الغزالي، والأستاذ عبدالمنعم خلاف، وكان اللواء محمد صالح حرب باشا الرئيس العام لجمعيات الشبان المسلمين في مصر قد عقد حفلة تكريم للشيخ أبي الحسن علي الندوي في الرابع من جمادى الآخرة ١٣٧٠هـ/ ١٣ / ٣ / ١٩٥١م بدار جمعية الشبان المسلمين.

وقد تحدث شيخنا في هذه المناسبة عن الدعوة الإسلامية في الهند وأدوارها وأطوارها [(١)].

كما ألقى محاضرة في دار العلوم عن محمد إقبال، وكان له لقاءات ومحاضرات في أروقة الأزهر والفنادق بالإضافة إلى جولاته في القرى والريف المصري [(٢)]. يقول الندوي:

«كان طلبة كلية الشريعة وأصول الدين بالأزهر أقرب إليّ وأكثرهم حفاوة بي، وقد زرتهم في مسكنهم كثيراً وكانوا يزورونني كثيراً، ومن أبرز هؤلاء الطلاب طالب اسمه يوسف القرضاوي والطالب عبد الله العقيل..» [(٣)].

«قمنا برفقة الشيخ محمد الغزالي بجولات في القناطر الخيرية، طنطا، بنها، الحامول، حلوان، سنتريس، المحلة الكبرى، ونكله، والعزيزية، وقويسنا ونبروه وغيرها..» [(٤)].

وزار الشيخ الصعيد أيضاً فخرج من القاهرة يوم ٢٨ شعبان ١٣٧٠هـ / ٣يونيو ١٩٥١م ومر بالأقصر حتى وصل إلى الشلال ومنها إلى الخرطوم، ونزل أحياناً عند أحد خلفاء الزعيم الديني السوداني ميرغني باشا ويدعى الشيخ

---

(١) كلمة الناشر للمحاضرة التي طبعت باسم الدعوة الإسلامية في الهند وتطوراتها مطبوعات المجمع الإسلامي العالمي، ندوة العلماء (رقم ١٩٥) ط٣، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م .

(٢) المصدر السابق: ص ٢٢٢ / ٢٢٤ .

(٣) ص ٢٢٥ والدكتور القرضاوي الآن عميد كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ومدير مركز بحوث السنة والسيرة النبوية في جامعة قطر، والشيخ عبد الله العقيل هو الآن وكيل رابطة العالم الإسلامي.

(٤) نفسه.

طيب عبد المقصود، والتقى عنده بعلماء كثيرين ورجع من السودان إلى القاهرة في ١٢ رمضان ١٣٧٠هـ / ١٧ يونيو ١٩٥١م وبعد خمسة أيام سافر إلى دمشق [١].

ب - الرحلة الأولى إلى الشام

وصل الشيخ أبو الحسن الندوي إلى دمشق قادماً من القاهرة في ١٩ رمضان ١٣٧٠هـ / ٢٤ يونيو ١٩٥١م وعن إقامته في الشام يقول:

«نزلنا في فندق قصر الأندلس بالمرجة المنطقة الرئيسية الجميلة بدمشق، ثم انتقلنا بعد أيام بإلحاح من الصديق الكريم السيد محمود الحافظ إلى بيت والد زوجة الشيخ عبد الوهاب الصلاحي أمام القصر الجمهوري، وأقمنا بالشام ٤٨ يوماً، منها ٢٤ يوماً في دمشق، وعقدنا صلات مع الشيخ مكي الكتاني والشيخ أحمد الدقر، والعلامة الشيخ محمد بهجة البيطار والشيخ أبي الخير الميداني، والدكتور مصطفى السباعي والأستاذ محمد المبارك والأستاذ مصطفى أحمد الزرقاء والشيخ محمد أحمد دهمان والدكتور أبي اليسر عابدين حفيد العلامة الشامي ومفتي الجمهورية والشيخ أحمد كفتارو والشيخ محمد سعيد البرهاني والشاعر محمد علي الحوماني والأستاذ تيسير ظبيان ومحمد كمال خطيب والعلامة محمد كرد علي والأستاذ محمد عزة دروزة، والأستاذ خليل مردم بك والعلامة عبد القادر المغربي، وكان له صلة خاصة بالسيد عبد الرحمن الباني [٢] الذي كان يساعدنا متطوعاً كسكرتير لنا، وكان شاباً ممتازاً لبقاً ومدرساً بكلية المعلمين» [٣].

وأشار الندوي إلى زيارته إلى مؤسسات في دمشق والشام ومراكزها العلمية والأدبية [٤].

---

(١) في مسيرة الحياة ج١ ص٢٣٥ .

(٢) أشير إليه سابقاً فقد أعد قائمة بآثار الشيخ الندوي العلمية ومؤلفاته بالعربية حتى العام الحالي ١٤١٦هـ وهي تحتاج إلى توثيق ومراجعة.

(٣) في مسيرة الحياة ج١ ص٢٣٧.

(٤) نفسه ص٢٣٨.

وقد ألقى محاضرة بجامعة دمشق في ٢٣ يوليو ١٩٥١م (٢٠شوال ١٣٧٠هـ)، تناولت موضوع العوامل الأساسية في كارثة فلسطين [١]. وكانت بعنوان (شهادة العلم والتاريخ في قضية فلسطين) وكان قد أعدها أثناء سفره ما بين عمّان وبيت المقدس، وألقى الندوي محاضرات وأحاديث أخرى في الشام [٢] .

ج - الرحلة إلى فلسطين

حرص الشيخ أبوالحسن الندوي -أطال الله في عمره- على زيارة بيت المقدس والخليل، كما التقى بالملك عبد الله حاكم الأردن والقدس [٣] وعبر عن رأيه في مأساة فلسطين بالعبارات التالية:

«علمنا في رحلتنا إلى عمان وبيت المقدس عن طريق الرجال والمسؤولين الثقات تلك الحقائق المؤسفة الأليمة عن مأساة فلسطين، التي لم نكن لنطلع عليها بدراسة الكتب، وخلاصتها أن قضية فلسطين كانت مسرحية، أخرجها الإنجليز وأصدقاؤهم من قبل، وكان الممثلون فيها الملوك العرب وحكوماتهم، وقد ظهرت هذه المسرحية على منصة فلسطين...

والواقع أن المسؤول الأول عن دماء فلسطين هو الحكومات العربية وقادتها والجامعة العربية، وقد حكى لي بعض الناس وهو يبكي هذه الحكاية المحزنة كان منهم إمام المسجد الأقصى وسكانه وعمّاره والشيوخ المعمرون وأصحاب الحمية من العرب، وقد شاهدت الفلسطينيين كاليتامى والغرباء والمساكين، قلوبهم مكسورة محطمة ورؤوسهم مطأطأة منكوسة، ووجدتهم مكلومين كئيبين منكسري الخاطر.. وقد زالت ثقتهم تماماً بالزعماء العرب وقادة البلاد ...» [٤].

---

(١) طبعت وصدرت بهذا الاسم.

(٢) يمكن الرجوع لكتابه المسلمون وقضية فلسطين.

(٣) في مسيرة الحياة ج١ ص ٢٣٨ .

(٤) المصدر السابق ص٢٣٩/٢٤٠ .

د- خاتمة الرحلة إلى البلدان العربية (الدور الأول)

عاد الشيخ الندوي من الشام مهموماً فأراد أن يريح قلبه وفؤاده، فوصل إلى المدينة المنورة في ١٢ أغسطس ١٩٥١م (حج عام ١٣٧٠ هـ) وانتقل بعدها إلى مكة المكرمة ثم الطائف، وكان دليله في الطائف الشيخ أحمد عبدالغفور عطار، ودعاه أمير الطائف إلى مأدبة حضرها مع بعض العلماء، واستمر الشيخ الندوي في أداء مهمته الدعوية بجميع ما تيسر له من طرق وأساليب، فنشر في صحيفة البلاد السعودية مقالاً بعنوان (كيف توجه المعارف) علق عليه عدد من العلماء من بينهم الشيخ محمد علي الحركان، وقام الشيخ الندوي أيضاً بإلقاء عدد من المحاضرات في أماكن متفرقة، وكانت عودته إلى الهند في أكتوبر عام ١٩٥١م (محرم١٣٧١هـ) بالباخرة رضوان.

هـ - الانطباع الأخير للشيخ الندوي عن سلسلة رحلاته إلى البلاد العربية

بعد أن انتقل الشيخ أبو الحسن الندوي ما بين أرض الحرمين وبين مصر والسودان، وبعد أن مكث فترة في الشام والأردن وفلسطين، في رحلة استغرقت سنة وشهرين أطلق عليها اسم (رحلة الحجاز والشرق العربي) عاد إلى وطنه فهرع إليه أهله وجماعته يسألونه ويتساءلون ويستفسرون منه عما رأى وشاهد وسمع، والشيخ يتطلع إليهم ماذا يقول لهم وكيف يعبر لهم عما في مكنون قلبه.. لخص لهم الشيخ الحكاية على عادة حكماء شبه القارة الهندية في عبارة بسيطة أبيات شعرية استعارها من إقبال، وكأنه كما يقولون جمع البحر في (الكوز) وأنقل ما ذكره الشيخ في كتابه (في مسيرة الحياة) [(١)]:

«طلب مني إخوتي التعليق على الرحلة وبيان انطباعاتي فأنشدت ما قاله إقبال: «لم أسمع في مصر ولا في فلسطين ذلك الأذان الذي ارتجفت له

---

(١) ص٢٤٥.

الجبال بالأمس، أين السجدة التي كانت تهتز لها روح الأرض لقد طال عهد المحراب بها واشتاق إليها المسجد كما تشتاق الأرض الجديبة الخاشعة إلى المطر».

الرحلة إلى البلدان العربية وتركيا (الدور الثاني)

يبدأ الدور الثاني لرحلة الشيخ إلى البلدان العربية (وتركيا) في أواخر عام ١٩٥٥م (جمادى الأولى ١٣٧٥هـ)، في وقت شهدت فيه المنطقة العربية تغييرات سياسية واجتماعية، ورغم أن هدف الرحلة بدأ محدداً في إلقاء سلسلة من المحاضرات في كلية الشريعة بدمشق، إلا أن الشيخ أبا الحسن استثمر وقته للمضي قدماً على الدرب الذي رسمه لنفسه، وهو الدعوة إلى الله داخل الهند وخارجها وداخل العالم العربي وخارجه، وداخل العالم الإسلامي وخارجه أيضاً، فحين قدمت له كلية الشريعة الدعوة للعمل بها ٢٢شوال ١٣٧٤هـ/ ١٢ يونيو ١٩٥٥م اعتذر عن هذا العرض واقترح السفر لإلقاء عدة محاضرات فقط، وأرسل الدكتور مصطفى السباعي إلى الشيخ الندوي أواخر عام ١٩٥٥م (أواخر ١٣٧٤هـ) قبول الجامعة لهذا الاقتراح ويقول الشيخ الندوي:

«وصلت إلى دمشق وكان في استقبالي بالمطار الأستاذ محمد المبارك والأستاذ مصطفى أحمد الزرقاء ونزلت ضيفاً على الجامعة في فندق اليرموك، وبدأت في إلقاء سلسلة المحاضرات» [١].

وواكب هذا أيضاً إلقاء الندوي لسلسلة من الأحاديث في الإذاعة السورية [٢]، كما حضر المؤتمر الإسلامي الذي بدأ في يونيو ١٩٥٦م- صفر١٣٨٥هـ وشارك فيه المفتي محمد شفيع الديوبندي [٣] وأبو الأعلى

(١) في مسيرة الحياة ج١ ص٢٥٧ . (٢) نفسه ٢٥٩.

(٣) من علماء شبه القارة الهندية الكبار ترجمنا له كتابه مقام الصحابة وعلم التاريخ مع تعريف به، نشر دار هجر بالقاهرة.

المودودي، والأستاذ ظفر أحمد أنصاري والدكتور محمد ناصر رئيس وزراء إندونيسيا سابقاً، واستمرت الرحلة ثلاثة أشهر شعر فيها الندوي بالراحة والسرور وعبّر عن مشاعره بقوله:

«كانت الإقامة الأخيرة بدمشق لثلاثة أشهر من أحلى أيام العمر وأطيب ساعاته، لم تصف لي ولم يتم السرور والأنس -غير الحرمين الشريفين- في أي مكان آخر، فقد كان مزيجاً من تفتح القلب وانشراح الصدر والصحة البدنية، وجمال الطقس ولطفه وحبّ الأصدقاء وحفاوتهم البالغة وجمال البلاد الطبيعي والروحانية الخاصة..» (١).

وظلت صلة الندوي بعلماء سوريا مستمرة، ومن معالم هذه الصلة الوثيقة أنه كتب افتتاحيات مجلة المسلمون التي كان يصدرها الأستاذ سعيد رمضان في دمشق عام ١٩٥٨ - ١٩٥٩م (١٣٧٨ - ١٣٧٩ هـ) حين سافر الأخير إلى ألمانيا للحصول على الدكتوراة وكانت أول افتتاحية كتبها بعنوان «ردة جديدة» (٢).

أ- الرحلة إلى لبنان

أثناء إقامة الشيخ في دمشق لإلقاء محاضراته بكلية الشريعة فكر في السفر إلى لبنان وكان قد فاته ذلك في رحلته الأولى عام ١٩٥١م (٧٠-١٣٧١هـ) لضيق الوقت، فأقام في لبنان لأربعة أيام متجولاً سائحاً بين الأماكن التاريخية والأثرية، وقابل شخصيات دينية وعلمية والتقى بقادة الحركات الدينية من مثل محمد عمر الداعوق مؤسس حركة عباد الرحمن وقائدها، والشيخ محمد مفتي جمهورية لبنان، كما التقى برئيس المحكمة الشرعية وأيضاً بالأستاذ محمد أسد (ليوبولد فايس سابقاً) الذي كان يقيم في بيروت آنذاك بعد كتابته للجزء الثاني من كتابه الطريق إلى مكة.

---

(١) المصدر السابق ص ٢٦٤ .

(٢) المصدر السابق ٢٦٩.

كما زار الندوي من المؤسسات مركز عباد الرحمن والكلية الشرعية وخلية الملك سعود، وهي مؤسسة تبرع لها الملك سعود بمبلغ من المال فسميت باسمه وتعد المركز الإسلامي في بيروت وبها قاعة للمحاضرات ومكان للاحتفالات.

وتجول بعدها ليوم واحد في طرابلس يقول:

(وذهبت ليوم واحد إلى طرابلس إحدى مدن الشام التاريخية، ومررنا في الطريق بـ (القلمون) موطن العلامة السيد رشيد رضا، ومضينا على ساحل بحيرة الروم وشاهدنا مناظر جميلة على طول المسافة إلى طرابلس) (١).

ولم يفوّت الشيخ الندوي هذه الفرصة فألقى محاضرة دينية في خلية الملك سعود (٢)

ب - الرحلة إلى تركيا

قام الشيخ برحلته إلى تركيا أثناء إقامته في دمشق وتوجه إلى هناك في الثاني من ذي القعدة عام ١٣٧٥هـ الثاني عشر من يونيو ١٩٥٦م يقول عن رحلته:

«أقمت ليلة في حلب، ثم وصلت أرض تركيا الكريمة الطيبة الندية، التي ازدانت وازدهرت مرات وكرات بدماء الشهداء الزكية، والتي كانت على مدى قرون وأجيال مركزاً لكرامة العالم الإسلامي، ووتداً راسياً في البلاد الصليبية بأوروبا، وحارسة للحرمين الشريفين، وقلعة حصينة للأماكن المقدسة والبلاد العربية، وشاهدت العظمة التركية ورأيت أُسود هذه الأمة وصقورها، ثم شاهدت الجهود المنظمة القوية التي قام بها أتاتورك للقضاء على الآثار

---

(١) المصدر السابق ٢٦١/٢٦٢.

(٢) للمزيد من المعلومات انظر الصفحات الأخيرة من مذكرات سائح في الشرق العربي.

الإسلامية والعربية ومحوها، ورأيت مناظر البعد عن الثقافة الإسلامية والحرمان من المكتبة الإسلامية بالتحول إلى الخط اللاتيني، وقد حكيت ذلك كله في كتابي أسبوعان في تركيا» [١]. وقد كتبه الشيخ بالأردية وترجم ونشر في مجلة البعث التي تصدر بالعربية من لكهنؤ.

والحقيقة أن الشيخ الندوي لم يتزحزح قيد أنملة عن هدفه ومساره، فهو دائماً يجعل من الرحلة وسيلة، ويضع نتائجها في كتاب يتضمن أفكاره جنباً إلى جنب مع مشاهداته، وأوضح مثال على ذلك رحلته هذه (أسبوعان في تركيا) فهي بيان صادق لمشاغله العلمية وأهدافه النبيلة، زار الشيخ الندوي المدن وزار بعض الإدارات العلمية التي بدأت تهتم بتدريس الفلسفة الإسلامية والتاريخ وعلوم الدين والشريعة والفقه وغيرها وكتب عن هذه الإدارات ما يلي: «ورغم أنها قطرة في بحر العلمانية، لكنها شعاع أمل، وهي نعمة كبرى وسط هذا الظلام الدامس» [٢].

كان هدف الشيخ الندوي البحث عن باطن المسلمين، لم يصرف نظره أبداً عن هذا الهدف، وقد ذكر في رحلته هذه النوادر العلمية في تركيا والشخصيات المشهورة في الوقت الحاضر ولقاءاته بهذه الشخصيات:

«بعد الصلاة ذهبنا لمشاهدة المتحف.. كان المبنى بجوار جامع أيا صوفيا، مبنى قديم يبدو أنه عمارة سلطانية، والدخول هناك بالتذاكر، شاهدنا مجموعة من التحف والنوادر الخاصة بالسلاطين الأتراك، وشاهدنا أشياء ثمينة وقيمة مرصعة بالذهب والفضة والجواهر، لا يمكن أن توجد في أي مكان آخر في العالم» [٣].

---

(١) المصدر السابق ص٢٦٣.

(٢) الرحلة بالأردية ص٥٧ نقلاً عن أردو أدب مين سفرنامه ص٣٤٦.

(٣) الرحلة نقلاً عن المصدر السابق ص ٣٤٨ .

وفي هذه الرحلة زار الندوي قونية وأنقرة والقسطنطينية وصلى في المسجد السليماني ووصفه وصفاً دقيقاً ووصف ما يقوم به الأتراك قبل أداء فرض الصلاة من أدعية وخلافها [١] أما المجتمع التركي فقد نال اهتمامه [٢].

والحقيقة أن رحلة (أسبوعان في تركيا) رحلة ألم المسلمين وقصة حزنهم وهوانهم، لكن زوال الحديث عن العظمة هذه والحزن عليها ينقلب إلى تعبير آخر يحمل معنى عظيماً:

«هـذا هـو الإسراف، والحضارة العجمية التي أدت إلى زوال هـذه السلطنة».

لقد غاص الشيخ الندوي -كما يقول الدكتور أنور سديد في كتابه عن الرحلات الأردية، في أعماق الأماكن والأشخاص في رحلته هذه فأسمعنا أحوال رحلته وأشعرنا بالتعاطف تجاه ما يرى وما يشاهد، ففي كتاباته تبدو مشاهدة الحرية الإسلامية والأخوة الإسلامية أكثر جاذبية وهو يقدم الحقيقة بطريقة بسيطة وبدون زخرفة وأهم ما يميز أسلوبه في الرحلة هو صدق البيان الذي لا يشوبه زخرفة الكلمات أو تقعرها[٣].

ج - الرحلة إلى بغداد

وهذه رحلة أخرى قصيرة إلى وجهة أخرى فقد سافر الشيخ أثناء إقامته في دمشق إلى بغداد، وكان في شوق إلى رؤية هذه المدينة، يقول:

«سافرت في يوم من أيام يوليو من دمشق إلى بغداد، إذ إنني لم أكن قد زرت بغداد من قبل، وأول اسم قرع أذني بعد مكة والمدينة كان بغداد، وقد كنا

---

(١) دوهفتي تركى مين ص ٥٩ .

(٢) الرحلة ص٨١ نقلاً عن د. محمد خالد اردو سفرنامون كاتنقيدي مطالعه ص٢٥٠/٢٥١.

(٣) أنور سديد اردو ادب مين سفر نامه ص ٣٤٩.

نقرأ القاعدة البغدادية، كتاب صغير للتعريف بالحروف الهجائية والتمرين على استعمالها وكنا نسمع بيتاً من شعر حالي [١] يقول:

«تلك البلدة التي كانت مفخرة البلاد، التي كانت تحكم البر والبحر، وأولئك الأبطال الذين ارتجت بهم البلاد وسُمعت أصداؤهم في الدول والحكومات ينامون النومة الأخيرة في مقابر بغداد».

أقمت في بغداد يومين أو ثلاثة أيام لا تساوي شيئاً لزيارة الآثار والأماكن التاريخية في مثل هذه المدينة العظيمة العامرة الواسعة ولكن انتهزنا هذه الفرصة لحكمة «ما لا يدرك كله لا يترك كله» [٢].

الرحلة إلى بورما والكويت وجزيرة العرب (الدور الثالث)

أ- إلى بورما

اتخذت المرحلة الثالثة من رحلات الشيخ أبي الحسن الندوي وجهة أخرى نظراً لزيادة المسؤوليات الملقاة على عاتقه، ولحرصه الشديد على إيجاد وسائل دعم للندوة ولطلاب الندوة الذين يدرسون بها ويقيمون بها إقامة كاملة تكلف أموالاً طائلة، ومن هنا كانت رحلة الشيخ إلى بلد مجاور وهو بورما، ويوضح الشيخ الهدف المباشر للرحلة في السطور التالية:

«بينما كان المسلمون في الهند بعد التقسيم يعانون من ضائقة مالية، كانت بورما هي الوحيدة من البلدان المجاورة التي كان فيها كثير من التجار المسلمين، كانوا ناجحين في تجارتهم وكانوا يساعدون من هناك كثيراً من المؤسسات بعزيمة وهمّة، ومن حسن حظي أن وجه إليّ أحد فضلاء ديوبند

---

(١) من شعراء الأردية الكبار اشتهر بمسدس حال الذي حكى فيه قصة عظمة المسلمين في الماضي.

(٢) في مسيرة الحياة ج١ ص٢٦٦.

المقرئ عبد الرحمن القاسمي دعوة لزيارة رنكون لتنشيط الوسط الديني والعلمي هناك، فسافرت ومعي الشيخ محمد معين الندوي»[(١)].

«وصل الشيخ الندوي إلى رنكون في ١٨ ديسمبر ١٩٦٠م/ ٢٧ رجب ١٣٨٠هـ ونشرت الصحف أنه لم يستقبل في بورما بعد استقلالها أي عالم ديني مثل هذا الاستقبال الرائع الذي استقبل به الشيخ الندوي الذي مكث في رنكون أكثر من شهر، قام فيه بإلقاء عشرات من الخطب ووجه المسلمين هناك إلى العناية بتعريف المواطنين من غير المسلمين بالإسلام، وركز الشيخ على موضوع هام يقلق المسلمين في كل مكان وزمان وهو موضوع الانتماء إلى الدين أو الوطن:

«شرحت أنه لا تعارض بين حب الوطن وبين الانتماء إلى الحضارة المحمدية، وليست الملة الإبراهيمية وقفاً لأحد أو حكراً على أحد إنها يمكن أن تمثل في ظل أي بلد وأي لغة، وأن اللغات كلها - سوى العربية - سواء، لذلك من الضروري أي يهتم المسلمون في بورما باللغة البورمية ويبرعوا فيها ويقوموا بتعريف الإسلام عن طريقها..»[(٢)].

ب - إلى الكويت

تشابه الهدف من سفر الشيخ إلى الكويت مع الهدف من سفره إلى بورما.

«بعد أن وقع الاختيار عليّ كرئيس للندوة في ١٨ يوينو ١٩٦١م/٣صفر ١٣٨١هـ بعد وفاة أخي تضاعفت بذلك مسؤوليتي، وكانت دار العلوم لا تزال تعاني الأزمة المالية ولم يعد لرحلة بورما - لعدم الحصول على المبالغ

---

(١) المصدر السابق ص٢٧٢ .

(٢) المصدر السابق ص٢٧٣.

المطلوبة- كبير الفائدة، وكان الدكتور عبد اللطيف من أصحاب الخير في الكويت، فوجه الدعوة لزيارة هذه الدولة الغنية المصدّرة للبترول والتي كان من السهل للغتها العربية تعريف الندوة بها وتأثيرها فيها، وكان الدكتور عبد اللطيف الحامل للجنسية الباكستانية الذي كان لا يقدر على اللغة العربية القدرة المطلوبة يعتمد في هذا الصدد على أحد تجار الكويت المخلصين المتدينين ومن أصحاب الخير، وهو فضيلة الشيخ عبد الرزاق الصالح، الذي وعد بمساعدتنا إذا ما زرنا الكويت.» (١).

وهكذا قرر الشيخ أبو الحسن الندوي زيارة الكويت وذلك في يناير ١٩٦١م/ شعبان ١٣٨١هـ.

«استقبلنا مضيفنا ومعه العالم النجدي الفاضل الشيخ عبد الرحمن الدوسري المقيم بالكويت، وكان داعية متحمساً وصاحب غيرة وحمية وعالماً جليلاً، ولم يدخر الدكتور عبد اللطيف والشيخ عبد الرزاق الصالح وسعاً في المساعدة» (٢).

قضى الشيخ الندوي الأيام الأولى من شهر رمضان ١٣٨١هـ بالكويت واتصل كعادته في أسفاره بالشخصيات الموقرة من أوساطها الدينية والعلمية، كما ألقى عدة خطب للجمعة وفي أماكن عامة وتجمعات، وعن نشاطاته بالكويت يقول:

« .. ألقيت في هذه الرحلة ذات يوم خطاباً بالإذاعة الكويتية بعنوان: اسمعي يا زهرة الصحراء، وكتبت رسالة إلى أمير الكويت ونبّهت إلى خطر معابد غير المسلمين في هذه الدولة المسلمة، التي بدأت تؤسس وتقام في الكويت والإمارات العربية المتحدة والتي تخالف صراحة وصية الرسول ﷺ لا يجتمع دينان بجزيرة العرب».

---

(١) المصدر السابق ص٢٧٦ .

(٢) نفسه.

وكان الشيخ الندوي قد قابل أمير البلاد الشيخ عبد الله السالم الصباح ودرس أوضاع البلاد واطلع على مشاريع تقدمها ونهضتها، وذكر كل هذا في خطابه للشيخ ثم قدّم له ملاحظاته في خطاب مؤرخ بتاريخ ٢٢شعبان١٣٨١هـ [١].

ج - إلى السعودية (رحلات متفرقة)

تعددت رحلات الشيخ الندوي إلى المملكة العربية السعودية وكانت في معظمها إما بدعوة رسمية للحج أو لحضور مؤتمرات دينية أو بدعوة من الجامعات، وهكذا في مايو ١٩٦٢م/ ذي الحجة ١٣٨٢هـ سافر الشيخ من بمباي إلى الظهران ومنها إلى مكة المكرمة حيث نزل ضيفاً على الحكومة في لوكاندة مصر أكبر فنادق مكة المكرمة على مقربة من الحرم الشريف.

وتعد هذه الرحلة من الرحلات الرسمية وهي تختلف بالطبع عن رحلاته الأخرى ويتضح هذا مما كتبه الشيخ:

«في ١٤ ذي الحجة تلقيت دعوة لحضور حفلة تقام في القصر الملكي يحضرها الملك سعود نفسه، وقد حضرها أيضاً الملك إدريس السنوسي وشخصيات أخرى ذات شأن، وقد أسست هناك منظمة عالمية باسم رابطة العالم الإسلامي، واختير الأعضاء المؤسسون وكنت أنا منهم، وقد ألقيت في الجلسة الأولى للرابطة مقالاً بعنوان الأخوة فوق العصبيات. » [٢]

وفي العام التالي ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٣م وجهت الدعوة للشيخ الندوي لإلقاء سلسلة من المحاضرات في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وقد رافقه في سفره هذا ابن أخته الشيخ محمد الرابع الحسني في ربيع عام ١٩٦٣م / ١٣٨٢هـ وبدأ الشيخ الندوي سلسلة محاضراته المشار إليها في الثالث من ذي

---

(١) انظر نص الخطاب في كتاب (كيف ينظر المسلمون إلى الحجاز وجزيرة العرب) دار عرفات الهند ص ١٣١/١٣٥.

(٢) نشر في كتاب العرب والإسلام، وقد ذكره الأستاذ عبد الرحمن الباني في قائمته الخاصة بمؤلفات الشيخ وكتب أمامه بين قوسين (كنت اقترحت عليه الكتابة في هذا الموضوع) القائمة ص٤.

القعدة عام ١٣٨٢هـ/ ٣٠مارس ١٩٦٣م [١] وذكر الشيخ الندوي أن سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز هيأ له لقاءً مع الأمير فيصل ولي العهد، فالتقى الشيخ بالأمير فيصل في جلسة خاصة بالقصر الملكي، كما التقى به بعد ذلك في جدة وفي مكة [٢].

(١) في مسيرة الحياة ٢٨٣.

(٢) نفسه ص٢٨٦/٢٨٧ .

رحلات الشيخ أبي الحسن الندوي إلى أوروبا

أ - الرحلة الأولى:

لم يسبق للشيخ أبي الحسن الندوي زيارة أوروبا قبل عام ١٩٦٣م / ١٣٨٣هـ لأنه شغل بأمور الدعوة الإسلامية في الهند والبلاد الإسلامية العربية، وشغل بهموم مواطنيه داخل الهند، وهموم أهل أمته خارج الهند، ثم واتته الفرصة للارتحال إلى أوروبا فارتحل إليها في ١٩ سبتمبر ١٩٦٣م/ ٢٨ جمادى الأولى ١٣٨٣هـ وبقى هناك لشهرين أو أكثر إذ رجع في نوفمبر من نفس العام، وكان يرافقه الدكتور اشتياق حسين القريشي.

كان هدف الرحلة المشاركة في اجتماع المركز الإسلامي في جنيف وذلك بدعوة من الدكتور سعيد رمضان، إلا أن الشيخ يظل يتجول في جنيف وفي خارج جنيف في مدن البلدان الأوروبية، وهكذا زار لوزان وبرن، وباريس ولندن وكامبردج وإكسفورد، وأدنبرة كما عرج على إسبانيا فزار مدريد وطليطلة وإشبيلية وقرطبة وغرناطة.

ولم يكتف بمشاهدة المدن بل قابل العلماء وزار المؤسسات الدينية والتعليمية، وأكثر من هذا ألقى سلسلة من المحاضرات في البلدان المختلفة وفي الإذاعات المختلفة، كان من أهمها المحاضرة التي ألقاها في جامعة لندن بعنوان (بين الشرق والغرب) وقد نقلها الدكتور ظفر إسحاق الأنصاري إلى اللغة الإنجليزية وألقاها بحماسة شديدة أحد الإنكليز ممن هداهم الله للإسلام وهو مصطفى إيوانس، واستفاد الندوي من لقاءاته مع علماء الغرب والمستشرقين، وأثناء إقامته بلندن استفاد أيضاً من مكتبة المتحف البريطاني وغيرها، وكتب مقدمة كتابه (الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية) [1].

---

(١) في مسيرة الحياة ج١ ص٢٩٠/٢٩١ .

ب - الرحلة الأندلسية:

رغم أهمية الرحلة إلى أوروبا داخل بلدانها المتفرقة إلا أن الرحلة إلى (إسبانيا) أو الأندلس لها أهميتها الخاصة لأسباب لا تخفى على أحد، وقد عبر الشيخ الندوي عن مدى هذه الأهمية:

«كان أحب أجزاء هذا السفر (أي السفر داخل أوروبا) زيارة الفردوس المفقود، الأندلس، ولا أذكر بلداً عاش فيه المسلمون ثم محيت عنه آثارهم واندرست ديارهم، وشعرت في زيارته بذلك الأنس والقرب والود والجاذبية والفتنة حتى كانت أجواؤها تعانقني وتضمني إلى جوانحها، وتحكي كل ذرة من ذراتها رسالة الحب والأنس، كما شعرت في زيارتي للأندلس، لقد وجدت في الصلوات هناك ووجدت في ذكر الله من الرقة والتأثير مالم أجده إلا في أماكن معدودة.. زرت أطلال مدينة الزهراء، وآثار الحمراء وسقوفها وجدرانها ونقوشها وجمالها..»[1].

ويتأسف الندوي لأنه لم يستطع أن (يقيد مذكرات هذه الرحلة)، وقد حرص الندوي على زيارة مسجد قرطبة والصلاة فيه، كما صلى محمد إقبال:

«وفي مسجد قرطبة صليت رغم عدم السماح ركعتين في مكان، وكان وقت العصر وخرجنا ثم صلينا في صحن المسجد صلاة العصر، بأذان وجماعة وكان سكان المدينة ينظرون في حيرة وعجب إلى هذا المشهد الغريب»[2].

ولا شك أن الرحلة الأندلسية لها مكانتها بين أدباء الأردية في شبه القارة الهندية، ولهذا الأمر مغزاه الذي يفهمه اللبيب، وقد ألهمت العديد من الأدباء والشعراء فسالت أقلام إبداعاتهم وسطروا أدباً رائعاً نثراً وشعراً، ولنا أن نطالع ما كتب الشيخ الندوي كنموذج ومثال على هذا الإبداع في التعبير

(١) في مسيرة الحياة ج١ ص ٢٩١.
(٢) نفسه ص ٢٩٣ .

عن المشاعر الجياشة التي اجتاحت فؤاده وفكره وهو يمضي على أرض الفردوس المفقود:

«لقد نكأت هذه الرحلة جروحي وقروح قلبي، وأصبح تاريخ المجد الحافل والقوة والشوكة والسلطان والعلم والفضل والكمال عبر القرون والأجيال الذي أثبت على آلاف من صفحات (نفح الطيب) و(الحلل السندسية) والذي كنت قرأته في (غابر الأندلس وحاضرها) للعلامة كرد علي، و(أخبار الأندلس) للشيخ خليل الرحمن ماثلاً في عالم الخيال أمامي، وعاد غضاً طرياً في ذاكرتي» [١].

«ووقفت عند الشباك في رحلتنا من مدريد إلى قرطبة على القطار أصدق قول إقبال:

لا تزال رائحة اليمن في أجوائها المعطرة ولا تزال صبغة الحجاز ولونها في أنغامها وألحانها [٢].. وأنشد قول الشاعر الأندلسي:

جادك الغيث إذا الغيث همى   يا زمان الوصل في الأندلس

ولما وصلت إلى قرطبة بدأت ترن في أذني قصيدة إقبال الرائعة بعنوان «مسجد قرطبة، التي هي آية في الأدب وتحتل في آداب العالم مكانتها الخاصة الفريدة..» [٣].

ومن الجدير بالذكر أن الشيخ الندوي فصل الحديث عن انطباعاته في أوروبا في كتاب صدر له بالأردية بعنوان (مكاتيب يورب) تضمن رسائله التي

---

(١) مسيرة الحياة ج١ ص ٢٩١.

(٢) أنشد هذه الأبيات شعراً الشاعر العربي الصاوي شعلان.

وتلك المحاسن طبع الحجاز   وهذا النسيم عبير يماني

نحيي الجنان وسكانها   وإن زال سكان تلك الجنان

كما نظمها أيضاً الشاعر العربي الزبيري هكذا:

إن انسام اليمن لم تزل في جوه   وصدى ارض الحرم مشرق في شدوه.

(٣) نقلاً عن مسيرة الحياة ج١ ص٢٩٧.

أرسلها إلى أقاربه وأحبابه [1]، وقد صدر الكتاب بالعربية بعنوان (رسائل أوروبا).

الرحلة الثانية ورحلاته الأخرى

كانت رحلة الشيخ الثانية إلى أوروبا في أكتوبر عام ١٩٦٤م/ جمادى الثانية ١٣٨٤هـ بهدف حضور جلسة مجلس المركز الإسلامي التنفيذي بجنيف، وقد نزل لدى أمير جماعة التبليغ بها السيد منور حسين البهاري الذي كان يحمل الجنسية البريطانية، وقد تجول الشيخ الندوي في برلين وآخن وميونخ ومر بمدينة بون، وشاهد بأم عينه قهر النظام الاشتراكي في برلين الشرقية [2] وفي عودته من رحلته زار إستانبول ليوم واحد ومكث في دمشق لثلاثة أيام ثم عاد إلى الهند عن طريق مدينة كراتشي الباكستانية. وكان للشيخ الندوي فيما بعد رحلات إلى أوروبا وأمريكا عام ١٩٧٨م وما بعدها سيرد ذكرها، وقد تحدث عن الرحلة إلى أمريكا الشيخ محمد الرابع في كتاب له صدر بالأردية بعنوان (شهران في أمريكا).

رحلات الشيخ أبي الحسن عام ١٩٦٧م/١٣٨٧هـ -١٩٨٢م/١٤٠٢ هـ (الدور الرابع)

في العقود الثلاثة الماضية تعددت أسفار الشيخ الندوي لدرجة يصعب الحديث عنها هنا في هذا البحث المختصر ولهذا نختصر الحديث عن هذه الأسفار، وعذرنا هنا أن القارئ العربي يستطيع بلا شك الاطلاع على ما يتعلق برحلات هذه الفترة من خلال ما نشر من كتب بالعربية في الفترة الأخيرة.

---

(١) مكاتيب يورب ط مكتبة الإسلام لكهنؤ.

(٢) في مسيرة الحياة ج١ ص ٢٩٧.

في أواخر عام ١٩٦٧م/ شعبان ١٣٨٧هـ سافر الشيخ إلى السعودية والتقى العلماء والأدباء والصحافيين وألقى محاضرة في نادي الوحدة الرياضي بعنوان: (ميزان الربح والخسارة)، حضرها أعيان مكة وأدباؤها.

وكانت له رحلة إلى الكويت بعد سنة كاملة في أواخر عام ١٩٦٨م/ شعبان ١٣٨٨هـ وهناك ألقى في جمعية الإصلاح الاجتماعي محاضرة جاء عنوانها هكذا:

«العالم العربي ليس في خطر من إسرائيل بل من ذلك الضمير الذي ترك عمله وتخلى عن مسؤوليته» [1].

وبعدها بسنوات بدأ رحلة في يونيو ١٩٧٣م/ جمادى الأولى ١٣٩٣هـ واستمرت حتى أواخر أغسطس/ رجب من العام نفسه، تجول أثناءها في دول غرب آسيا: أفغانستان وإيران ولبنان والعراق والأردن، وكان الشيخ أبو الحسن الندوي ولمدة شهرين ونصف على رأس وفد قدمت له الدعوة من رابطة العالم الإسلامي للقيام بالإطلاع على أحوال البلدان الإسلامية والاطلاع على نشاطات الهيئات والمؤسسات العلمية، ودعم العلاقات بين بلدان العالم الإسلامي، بالإضافة إلى شرح الخدمات التي يمكن لرابطة العالم الإسلامي أن تقدمها، وقد سطر الندوي الرحلة بالعربية بعنوان (من نهر كابل إلى نهر اليرموك) جولة في غرب آسيا. وقام منظر نور عظيم الندوي ومولوي محمد أجمل أيوب، ونذر الحفيظ بترجمة أجزاء مختلفة من الرحلة إلى الأردية، وتفضل الشيخ أبو الحسن الندوي نفسه بمراجعة الترجمة، ولهذا جاءت الترجمة كالأصل تماماً تحمل روح المؤلف وأسلوبه الجميل وعطر عباراته وطيب تلميحاته.

(١) في مسيرة الحياة ج١ ص ٢٩٧.

وكان للشيخ الندوي بعد عام من رحلته هذه رحلة إلى دبي وأبي ظبي وذلك في محرم من عام ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م وعاود زيارة هذه المنطقة مرة أخرى في ديسمبر عام ١٩٧٦م/ محرم ١٣٩٧هـ:

ثم كانت له أسفار متعددة إلى المغرب الأقصى وأمريكا وحضر ملتقى الفكر الإسلامي بالجزائر ،وعاود السفر إلى الكويت والإمارات، وتردد كثيراً على أرض الحرمين، هذا بالإضافة إلى أسفاره إلى البلاد المجاورة فكثيراً ما كان يذهب إلى الباكستان، كما سافر إلى سريلانكا [1] بدعوة من الجامعة النظيمية هناك، والهدف دائماً واحد لا يتغير وهو الدعوة إلى الإسلام وخدمة المسلمين في بلدان العالم.

الرحلة إلى البلاد العربية والإسلامية

(الدور الخامس ١٩٨٤م/١٤٠٤هـ - ١٩٨٨م/١٤٠٨هـ)

سافر الشيخ أبو الحسن الندوي في الفترة من سنة ١٩٨٤م إلى سنة ١٩٨٨م إلى عدد كبير من البلدان العربية والإسلامية وكذلك إلى عدد من بلدان أوروبا، وكان هدفه في جميع هذه الرحلات الدعوة إلى الله ودعم النشاط الدعوي لدى الجمعيات والمؤسسات الدينية في البلاد التي زارها، ورغم تقدم السن واعتلال الصحة أو كما يحلو له التعبير انحراف الصحة، كان دائماً يستجيب للدعوات الموجهة إليه، ولهذا تعددت أسفاره في هذه المرحلة ما بين بلدان آسيا وإفريقيا، فسافر إلى بنجلادش وباكستان وماليزيا والمملكة العربية السعودية واليمن والإمارات العربية المتحدة وتركيا ومصر والجزائر بالإضافة إلى سفره إلى إنجلترا.

---

(١) سافر عام ١٩٨٢م/ ١٤٠٢هـ وزار الجامعة في بيروالا التي تبعد عن كولومبور ٣٤ ميلاً والتقى بمؤسس الجامعة الحاج محمد نظيم تاجر المجوهرات الشهير الذي أسس الجامعة على نفقته ولا يزال يقوم بنفقتها الباهظة.

ونستعرض هنا رحلاته إلى البلدان المذكورة طبقاً للترتيب الزمني كلما أمكن ذلك.

أ- بنجلادش (مارس ١٩٨٤م)

كان السبب المباشر لسفر شيخنا إلى بنجلادش هو تلبية دعوة وصلته من بعض الجامعات والمؤسسات الإسلامية في دكا العاصمة، بينما السبب الآخر كان كما يذكر الشيخ (تضميد جراح الشعب المسلم في بنغلادش بعد مأساة الانفصال) [١].

كان السفر في مارس ١٩٨٤م واستغرقت الرحلة عشرة أيام زار فيها الشيخ دكا العاصمة وشيتا كونغ وغيرها حتى وصل إلى حدود بورما، وركز نشاطه في رحلته هذه على إلقاء عدة محاضرات في عدد من الجامعات البنغالية.

ب - الأردن (إبريل ١٩٨٤م)

سبق للشيخ السفر إلى الأردن [٢]، إلا أن رحلته هذه المرة كانت بدعوة من مؤسسة تعليمية ثقافية، هي مؤسسة آل البيت التي كانت تعقد مؤتمراً في مجمع بحوث الحضارة الإسلامية دعي إليه الشيخ، ونال أثناء حضوره ترحيباً خاصاً[٣].

بقي الشيخ الندوي في الأردن ثمانية أيام زار خلالها كهف أهل الكهف في جبل الرجيب الذي يقع جنوب شرق عمان على بعد ثمانية أميال، ولم يشعر الشيخ بأي غربة أو وحشة نظراً لوجود أصدقائه من أمثال الأديب الأستاذ محمد إبراهيم شقرة والأستاذ رضوان دعبول صاحب مؤسسة

---

(١) في مسيرة الحياة ج٢ دار القلم دمشق ١٤١٠هـ/١٩٩٠م ص ٤٢ وما بعدها.
(٢) سافر إلى الأردن ثلاث مرات من قبل.
(٣) في مسيرة الحياة ج٢ ص ١٠.

الرسالة ودار البشير، وألقى الشيخ أبو الحسن الندوي كعادته عدة محاضرات وشارك في عدة ندوات في أماكن متفرقة [١].

ج- الرحلة إلى اليمن وتأسيس رابطة الأدب الإسلامي العالمية

تلقى الشيخ أبو الحسن دعوة من مكتب التوجيه والإرشاد واتحاد طلاب اليمن، ولهذا سافر الشيخ من الأردن إلى جدة، وبعد أداء العمرة وفي التاسع من مايو ١٩٨٤م التقى به وفد من الأدباء، وتحدثوا أو ناقشوا أمر تأسيس رابطة الأدب الإسلامي، وشرحوا أهدافها وعرضوا عليه دستورها وقوانينها على أن تعقد أول جلسة لها في لكهنؤ بعد دعوة الأدباء والكتاب من البلدان العربية والإسلامية.

وفي الرابع عشر من مايو سافر الشيخ من جدة إلى صنعاء، وهناك عبّر عن مشاعره واستقبال الناس له: (كنا في اليمن نشعر بهدوء وسكينة، وبعد ما استكمل المستقبلون الإجراءات الرسمية في المطار توجهوا بنا إلى المدينة، وإذا بهم قد أوقفوا السيارة في حي قديم يضم بيوتاً متواضعة، واستغربت لأن العادة أن الناس ينزلون الضيف في فندق محترم.. أو بيت من بيوت أحد الوجهاء.. وفتح الباب وخرج عالم على الطراز القديم، واستقبلنا ودخلنا البيت معه..) [٢] ودار الحديث بين الشيخ الندوي وصاحب البيت عن أسلوب الدعوة، وبعدها انطلقوا بالشيخ إلى فندق الحمد السياحي الذي كان في السابق قصراً للأمير علي).

ألقى الندوي خطاباً في جامعة صنعاء استمر ساعة ونصف [٣] ذكر فيه للطلاب قول رسول الله ﷺ لما جاءه وفد من اليمن:

---

(١) المصدر السابق ص ١٦/١٧ .

(٢) في مسيرة الحياة جـ١ ص ٢٤/٢٥.

(٣) انظر نص الخطاب في: نفحات الإيمان بين صنعاء وعمان ط. دار الصحوة القاهرة ص١٥-٣٠ .

«أتاكم أهل اليــمن أرق أفــئــدة وألين قلوباً، الإيمان يمـان والفــقــه يمان والحكمة يمانية».

وبعدها ألقى الشيخ ثلاث محاضرات أخرى كما التقى بكبار مسؤولي الحكومة، وزار المناطق القريبة من العاصمة ولم يتمكن من السفر أبعد من ذلك نظراً لوعورة الطرق وصعوبة التنقل.

في اليمن شعر الشيخ الندوي بتخلف البلاد الحضاري فيما يخص الطرق ووسائل الرقي والمدنية النافعة نتيجة لتعمد أئمة اليمن إغلاق أبواب البلاد دون كل رقي حضاري ومدني معتقدين أن في ذلك مصلحة البلاد، وشعر الندوي أن الحكومة القائمة في ذلك الوقت تعمل جاهدة على تطوير البلاد، وقد لفت نظره في اليمن الطريقة الخاصة بلبس العمامة التي رآها أقرب إلى عادة العرب القدامى، وكذلك لفت نظره أيضاً حمل الخنجر الذي صار شعار اليمنيين لا يستثنى منه العلماء والمشايخ.

وزار الشيخ ثلاثة مراكز علمية قديمة باليمن: تعز وزبيد وحديدة، وتجول في هذه المدن الثلاث، وكانت عودته من اليمن إلى جدة في ٢١مايو، ومن جدة إلى كراتشي التي وصلها في ٢٣مايو.

د- باكستان

وصل الشيخ الندوي إلى باكستان قادماً من اليمن في ٢٣ مايو في رحلة سريعة وهناك في كراتشي ألقى عدداً من المحاضرات جمعها محمد ناظم الندوي ضمن كتاب الشيخ الندوي بعنوان (تحفة باكستان) وهو الكتاب الذي ضم خطب الشيخ ومحاضراته في باكستان [1]. ويذكر أن الشيخ له رحلات متعددة إلى باكستان وكثيراً ما كان يمر بها في طريق عودته إلى الهند فقد زارها في ٢٨ يونيو ١٩٨٦م [2].

(١) في مسيرة الحياة ج٢ ص ٤٢ وما بعدها.

(٢) نفسه ص ١٣٤.

هـ - المملكة العربية السعودية

سافر الشيخ الندوي إلى المملكة العربية السعودية عدة مرات في هذه الفترة وكان سفره بدعوة رسمية لحضوره الجلسة السنوية للمجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي، سافر في ربيع الثاني عام ١٤٠٥هـ لهذا الهدف، وبعدها ألقى في نادي المدينة المنورة الأدبي محاضرة بعنوان (دور محمد إقبال في توجيه الأدب والشعر) [1]، كما ألقى محاضرة في الجامعة الإسلامية وأخرى في نادي مكة الثقافي.

التقى الشيخ في سفره هذا بشخصيات هامة من المملكة العربية السعودية في حفلة أقامها له الشيخ عبد المقصود خوجه حضرها الشيخ عبد الله البغدادي والسيد علي حسن فدعق، والشيخ عبد الله بلخير، ووزع في الحفل كتابا الشيخ الندوي: (السيرة النبوية، ومختارات من الأدب العربي).

وتوجه الشيخ بعد ذلك إلى الرياض بعد أن تلقى دعوة من الدكتور عبدالله بن عبدالمحسن التركي مدير جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية فزار الجامعة، وحضر أيضاً ندوة الشيخ عبد العزيز الرفاعي التي تعقد في الرياض، كما حضر جلسة استشارية لرابطة الأدب الإسلامي، ومكث الشيخ في الرياض أياماً عاد بعدها إلى الهند.

وفي ٨ صفر ١٤٠٨هـ/ ١١ أكتوبر ١٩٨٦م سافر الندوي إلى المملكة العربية السعودية لحضور المؤتمر العام الثالث للأمانة العامة لرابطة العالم الإسلامي العالمية، وكان موضوع المؤتمر تنشيط العمل الإسلامي والدعوة الإسلامية في ضوء الواقع المعاصر وإرهاصات المستقبل، ورغم مرض الشيخ الشديد إلا أنه قرر السفر بعد أن جهز محاضرة بعنوان (الجبهات الحاسمة للدعوة الإسلامية في العصر الحاضر ومجالاتها الرئيسية) [2].

---

(١) نص المحاضرة في كتاب نظرات في الأدب، دار البشير، عمان/ الأردن، ط٢، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، ص ١٠٤ .

(٢) في مسيرة الحياة ج٢ ص ٢٠٨ وما بعدها.

وتحدث الشيخ الندوي عن ذكرياته في هذه الرحلة في كتابه (في مسيرة الحياة) مجلد ٢، وذكر التطور الحضاري الذي شهدته منطقة الحرمين، وقارن بين ما يشاهده الآن وما شاهده حين زار المنطقة سنة ١٩٤٧م/١٣٦٦هـ: (فلم يكن حينئذ أي شارع بين جدة والمدينة المنورة وكان سائقو الحافلات يسيرون بتقدير وتخمين، وكانوا في أيام الحر لا يتحركون وقت الظهر، وكانت تشترى تنكات المياه بجدة ومكة للشرب والوضوء والغسل.. وإن من قلة الشكر وكتمان الحق أن لا يعترف بهذه الثورة العظيمة ومأثرة الحكومة السعودية مع التوجيهات المخلصة والنقد المخلص والتمنيات الطيبة والآمال المعقودة والتذكير بالمسؤوليات الجسيمة في تأمين البلاد والحجاج).

وفي أثناء هذه الرحلة حضر الشيخ جلسات رابطة الأدب الإسلامي العالمية التي عقدت في المدينة المنورة، كما ألقى خطاباً في جدة في اليوم التالي [1].

وفي العام التالي وفي نوفمبر ١٩٨٧م/ ربيع الثاني ١٤٠٩هـ تلقى الشيخ الندوي دعوة من أمانة رابطة العالم الإسلامي لحضور الجلسة السنوية لمجلسها التأسيسي، وكانت رحلته تلك قصيرة جداً إلا أن الشيخ التقى فيها بمعالي الشيخ محمد صالح القزاز أمين عام رابطة العالم الإسلامي الأسبق الذي اعتزل الناس وانقطع للعبادة، ثم ألقى الشيخ الندوي سلسلة محاضرات بالعربية والأردية في جدة [2].

و - الجزائر

بعد رحلة من رحلات الشيخ الندوي إلى أوروبا التي سافر فيها لحضور جلسة المركز الإسلامي بأكسفورد توجه إلى الجزائر لحضور ندوة الملتقى

(١) انظر ملخصه في المصدر السابق ص ٢١٨/٢١٩.
(٢) في مسيرة الحياة ج٢ ص ٢٤٧ .

الإسلامي الذي عقد لمناقشة موضوع (الإسلام والعلوم الإنسانية) وكما هو واضح كان هدف الرحلة المشاركة في المؤتمر، وقد ألقى الشيخ محاضرة عن دور الإسلام الثوري البناء في مجال العلوم الإنسانية، وذلك في مدينة سطيف الجزائرية [١] .

ز- رحلة عابرة إلى مصر

لم يكن سفر الندوي إلى مصر سفراً مقصوداً بل كان ضرورة فرضها خط سير الرحلة ونظراً لتأثر الأديب بالساعات التي قضاها في مصر رأينا إثبات مشاعره هنا:

«وصلنا القاهرة... وهكذا وضعت قدمي على أرض مصر بعد مرور ٣٥ أو ٣٦ سنة فقد كنت زرتهاعام ١٩٥١، ووقع بصري على لافتة على واجهة المطار كتب عليها الآية القرآنية: ﴿**ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين**﴾ [٢] ولعله لا يوجد بلد في الدنيا يناسب مدخله هذه اللافتة إلا مصر، ولكننا لم نجد من المسؤولين والموظفين في المطار بالقاهرة من المعاملة ما كانت توصي به الآية الكريمة.. كان الموظفون يؤثرون التكلم بالإنجليزية على التكلم بالعربية، وإذا سئلوا عن شيء جاء منهم رد قانوني جاف، ولا مكان للراحة والاستجمام، ولا تسهيلات للوضوء والصلاة، وإذا توجهنا بالسؤال إلى أحد ردوا علينا بأن انتظروا إقلاع الطائرة، وهكذا قضينا ساعات من الحادية عشرة حتى الساعة السادسة مساء، وكان التاريخ غرة محرم / السادس من سبتمبر، وقد غادرنا مصر وقت المغرب ووصلنا في العشاء إلى جدة حيث شعرنا كأننا وصلنا إلى وطننا» [٣].

---

(١) انظر موجز المحاضرة في المصدر السابق ص ١٣٣.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٩٩ .

(٣) في مسيرة الحياة ج٢ ص ١٣٧.

ح - تركيا (١٩ يونيو ١٩٨٦م)

بدأت رحلة الندوي إلى تركيا في ١٩ يونيو ١٩٨٦م برفقة الشيخ محمد الرابع الحسني الندوي، وذلك لحضور المؤتمر الثاني للهيئة العامة لرابطة الأدب الإسلامي العالمية، وهناك التقى الشيخ بأصدقائه القدامى من العرب والأتراك، وأوضح الشيخ في كتابته عن رحلته هذه نجاح الأدب الإسلامي والفكرة الإسلامية في تركيا.

بعيداً عن الجلسات العلمية والأدبية قام الشيخ برحلة ترفيهية استطلاعية زار فيها مدينة (بورصة) عاصمة العثمانيين الأولى. كما زار قبلها ساحل خليج البوسفور وزار بعض المباني التاريخية والأثرية وأوضح الشيخ الندوي الاتجاه الديني والنهضة العلمية الإسلامية في تركيا:

«وصلنا بورصة.. هناك مدرسة الوعاظ والخطباء في مدارس لتحفيظ القرآن في عدد لا بأس به، وقيل إن حوالي ألف طالب يحفظون القرآن الكريم في هذه المدارس بمدينة بورصة ويوجد عدد كبير في هذه المدينة من المجاهدين البلغاريين الذي فروا بدينهم من بلغاريا..» [١].

ط - الرحلة إلى ماليزيا (أبريل ١٩٨٧م)

الرحلة إلى ماليزيا تختلف عن بقية رحلات الشيخ، وهو بنفسه يشير إلى هذا الأمر:

«إن اتجاه رحلات المؤلف في أكثر الأحيان كان إلى الشمال والغرب.. وقد سافرت مرة إلى سيريلانكا جنوباً وإلى بورما وبنغلادش شرقاً... أما ماليزيا فهي جغرافياً تختلف عن هذه المناطق، ولا شك أن عدداً من شباب ماليزيا قد تخرج من دار العلوم ندوة العلماء، كما أن فيها أيضاً بعض شباب

(١) المصدر السابق ص١٢٣.

إندونيسيا ممن تخرجوا أيضاً من الندوة واختاروا البقاء في ماليزيا. وقد اتصل هؤلاء بحركة الشباب المسلم القوية النشيطة وهي تعمل في مجال الدعوة الإسلامية..» (١).

وهكذا وجد الشيخ الندوي حفاوة كبيرة حين زار ماليزيا ليس فقط من هذه الجماعة سابقة الذكر بل أيضاً من المنظمات الإسلامية الأخرى كالحزب الإسلامي وأصحاب جماعة الدعوة والتبليغ.

رافق الشيخ في رحلته محمد الرابع الحسني الندوي والسيد غلام محمد الحيدر آبادي الذي كان يعمل بمطار جدة سابقاً، وسافر الثلاثة في الثاني من أبريل ١٩٨٧م، ونزلوا إلى مطار كوالالمبور حيث استقبلهم الدكتور عبد الرؤوف المصري نائب مدير الجامعة الإسلامية، وعدد من الإخوة وممثلون عن الجهات والمنظمات المختلفة.

ووجد الشيخ الندوي فرصة للسفر إلى ترنكانو الولاية الشمالية الشرقية حيث يوجد الداعية الفاضل الشيخ عبد الهادي الحاج أونج من خريجي الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وهناك ألقى الشيخ محاضرة بالعربية ترجمها الشيخ عبد الهادي إلى الماليزية وكان عنوان المحاضرة (إلى الإسلام من جديد) (٢).

زار الشيخ الجامعة الوطنية في كوالالمبور وألقى فيها محاضرة واستقبله أساتذة كلية الشريعة، كما ألقى محاضرة في جامعة العلوم والتقنية ومحاضرة أخرى في قاعة تنكو عبد الرحمن الكبيرة. وسافر بالطائرة إلى غرب ماليزيا إلى بلدة (قدح) حيث أقيم حفل للشيخ في ساحة واسعة بمناسبة وضع حجر الأساس للمعهد العالي للدعوة وهو قسم من أقسام المعهد الديني بها.

---

(١) في مسيرة الحياة ج٢ ص ١٧٦-١٧٧.

(٢) المصدر السابق ص ١٧٨ .

في ماليزيا كان للشيخ لقاءات عديدة من أهمها تلك اللقاءات التي جرت مع مسؤول حركة الشباب المسلم والسبب كما ذكر هو أنه:

«يؤمل فيهم في مجال الدعوة القوية المؤثرة وتطبيقها على الحياة والمجتمع تطبيقاً عملياً في خضم التحديات الحاضرة».

وفي آخر أيام الرحلة (٨ أبريل) زار الشيخ الندوي الجامعة الإسلامية العالمية، وألقى محاضرة في مركز الحزب الإسلامي مباشرة قبل ذهابه إلى المطار، وكانت عودته في التاسع من أبريل عام ١٩٨٧م إلى مدراس بالهند ومنها إلى دهلي العاصمة.

ي - الإمارات العربية المتحدة

في نوفمبر ١٩٨٧م/ربيع الآخر١٤٠٩هـ ومن مدينة جدة سافر الشيخ أبو الحسن الندوي إلى الإمارات العربية المتحدة تلبية لدعوة رسمية تلقاها من المسؤولين هناك، وقد زار الشارقة وألقى عدة محاضرات في أماكن متفرقة[1].

الرحلة إلى أوروبا

(١٩٨٥م-١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م-١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م-١٤٠٨هـ)

سافر الشيخ كما ذكرنا قبل إلى أوروبا وأمريكا، وها هو في أكتوبر عام ١٩٨٥م/ صفر ١٤٠٦هـ يسافر إلى إنجلترا لحضور حفل افتتاح المركز الإسلامي بجامعة أكسفورد ولوضع خطة الضوابط والمناهج لهذا المركز.

وقد انتهز الشيخ الفرصة فسافر إلى لندن ومن لندن سافر إلى لوكسمبورج لحضور جلسة إدارية للمجمع العالمي للبحوث والدراسات

(١) انظر ملخص محاضرته في أبو ظبي وموضوعها (ترشيد الصحوة الإسلامية) في مسيرة الحياة مجلد٢ ص٢٥٢ وما بعدها.

الإسلامية [1] وهناك التقى الشيخ الندوي بالمرحوم الدكتور إسماعيل الفاروقي رئيس الدراسات الإسلامية في قسم الديانات بجامعة تمبل بفلادلفيا، كما التقى بالدكتور سعيد رمضان الذي قدم للقائه من جنيف.

وفي العام التالي أغسطس ١٩٨٦م/ محرم ١٤٠٧هـ سافر الشيخ ثانية لحضور الجلسة الإدارية للمركز الإسلامي في أكسفورد. وتكرر ذلك أيضاً في أغسطس عام ١٩٨٧م/ صفر ١٤٠٨هـ وذلك رغم مرضه الشديد، وكان قد أعد محاضرة عن موضوع يتعلق بالإسلام وموقفه من العلم (دور الإسلام التاريخي في نشر العلم النافع الصحيح وقيادة البشرية وإصلاحها عن طريقه) وقد التقى في لندن بالدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي والدكتور عبد الله عمر نصيف، وكان قد حضر اللقاء كل من الدكتور كامل الباقر رئيس جامعة أم درمان الإسلامية سابقاً والشيخ عبد العزيز علي المطوع أحد أصحاب العلم والفضل في الكويت.

(١) ذكر الندوي في كتابه في مسيرة الحياة (ج٢ ص٨٠) أن بعض فضلاء العرب يتقدمهم الأستاذ جمال الدين عطية، قد أقاموا في لوكسمبورج (المجمع العلمي للدراسات الإسلامية) واختاروه رئيساً له وقرروا عقد جلسته في أكتوبر بعد حفلة افتتاح المركز الإسلامي المشار إليه أعلاه .

أهم مصادر البحث

أولاً: مؤلفات الشيخ أبي الحسن علي الندوي:

١- في مسيرة الحياة ج١. دار القلم دمشق ط أولى ١٩٨٧م.

٢- في مسيرة الحياة ج٢. دار القلم دمشق ط أولى ١٩٩٠م.

٣- الصراع بين الإيمان والمادية. ترجمة مولوي محمد الحسني. دار القلم الكويت ١٩٧١م.

٤- الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية. دار الفكر، بيروت ١٩٦٥م.

٥- إذا هبت ريح الإيمان. (تاريخ المجاهد سيد أحمد شهيد) دار عرفات، الهند.

٦- الدعوة الإسلامية في الهند وتطوراتها. المجمع الإسلامي العالمي، ط٣، ١٩٨٦م.

٧- كيف ينظر المسلمون إلى الحجاز وجزيرة العرب. دار عرفات. الهند.

٨- الطريق إلى المدينة، ط الخامسة، لكهنؤ، ١٩٨٧م.

٩- الإمام الذي لم يوف حقه. المجمع الإسلامي العلمي، لكهنو ١٩٨٩م.

١٠- روائع إقبال. ط، بيروت.

١١- صورتان متضادتان في الإسلام. طبع البحث ضمن مقدمة كتاب الشيخ منظور النعماني الثورة الإيرانية في ميزان الإسلام، ترجمة سمير عبد الحميد إبراهيم ط دار الصحوة بالقاهرة.

١٢- رسائل الأعلام، ط دار الصحوة القاهرة.

١٣- تعمير إنسانيت، مجلس نشريات إسلام كراجى (محاضرات طبعت مترجمة إلى العربية تحت عناوين متفرقة ثم صدرت بعنوان رسالة الإنسانية).

١٤- معركة إيمان وماديت (ترجمة محمد الحسني الندوي). مجلس نشريات اسلام كراجي ١٩٨٢.

١٥- مسلم ممالك مين إسلاميت أورمغربيت كي كشمكش. مجلس نشريات إسلام كراجي ١٩٨١م.

١٦- حبب إيمان كيبهار آتي. مجلس نشريات إسلام كراجى.

١٧- مغرب ســي كجــه صاف صاف باتين. مجلس نشريات إسلام كراجي ط٢ ١٩٧٩م.

١٨- ابنى كهرسى بيت الله تك. ط لكهنؤ ١٩٩٠م.

١٩- دريائى كابل سى دريائي يرموك تك ط لكهنو ١٩٩٠م كراجى.

٢٠- نقوش إقبال. ط كراجى.

٢١- شرق أوسط مين كى كيا. مكتبه تعليمات لكهنؤ ١٩٥٣.

٢٢- تركى مين دو مفتى. مكتب اسلام لكهنؤ ١٩٥٦.

٢٣- عالم عربي كاالميه. مجلس نشريات اسلام كراجى ١٩٨٠م.

٢٤- نفحات الإيمان بين صنعاء وعمان، ط دارة الصحوة. القاهرة.

٢٥- نظرات في الأدب، دار القلم. دمشق، دار البشير. عمان.

ثانياً: مصادر أخرى:

أنور سديد (دكتور)

٢٦- اردو ادب مين سفرنامه. مغربي باكستان/ اردو اكيدمى لاهور ١٩٨٧.

حسين نصار (دكتور)

٢٧- أدب الرحلة. ط مكتبة لبنان (بدون تاريخ)

خالد محمود (دكتور)

٢٨- اردوسفرنامون كاتنقيدي مطالعه. دهلى ديسمبر ١٩٩٥م.

سمير عبد الحميد إبراهيم (دكتور)

٢٩- الأدب الأردي الإسلامي. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٩٩٢م.

٣٠- إقبال والعرب. دار السلام بالرياض ١٩٩٣م.

٣١- صدى سقوط الأندلس والأدب الأردي. تحت الطبع. مكتبة الملك عبد العزيز بالرياض.

٣٢- الجزيرة العربية في أدب الرحلات الأردية. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. (صدر عام ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م).

عبد الرحمن الباني

٣٣- أعلام الإسلاميين في التربية.

الأستاذ أبو الحسن علي الحسني الندوي، قائمة آثاره العلمية ومؤلفاته بالعربية. ورقة أعدها الأستاذ عبدالرحمن الباني ١٤١٦هـ.

ثالثاً - الدوريات:

- مجلة البعث الإسلامي مجلد ١٢٩ جمادى الثانية ١٤٠٥ هـ .

- قومي دائجست عدد خاص بالحج لاهور.

محتويات البحث

الموضوع | الصفحة

البحث العاشر

خواطر ولمحات
حول منهج الإمام العلامة أبي الحسن الندوي
في الفكر و العمل

الدكتور محمد كاظم الظواهري (*)



(*) أستاذ مساعد بجامعة الأزهر - القاهرة - مصر .

الحمد لله رب العالمين، وصلاة وسلاماً على المبعوث رحمةً للعالمين، وعلى آله وصحبه والتابعين، أما بعد...

فالقرآن الكريم كتابٌ واحد، ولكن الناس في تلقّيه وفهمه يتفاوتون، ويدرك فضل الله تعالى نفراً منهم فيؤتيهم قدرةً على التبحّر فيه والتزود منه، وهؤلاء أيضاً يختص كلٌّ منهم بجانب، أو جوانب، ويتأتى لغيره منه غير ذلك. فيسلك بذلك العلماء طرقاً عديدة في الفكر والعمل، وكلها تلتقي في النهاية على طلب رضوان الله تعالى ورفعة شأن الدين.

والعلماء يسلكون طرقاً عديدة للوصول إلى ذلك، فمنهم من يعتكف في محرابه ويغلق بابه دون الناس ويتفرغ للعبادة، ومنهم من يختلي متفرغاً لإنجاز عملٍ كبير في علوم القرآن أو الفقه أو غيره من علوم الدين، ومنهم من يتوجه إلى الخلق آملاً أن ينالَ مرضاة الله تعالى بالتأثير فيهم، ومحاولة تحقيق النموذج الأمثل في حياة البشر، أو المدينة الفاضلة التي يحلم بها الأدباء والفلاسفة، فيعظ ويفتي ويوضح العلة، ويدعو من لا يؤمنون، ويذكّر المؤمنين الغافلين، ومنهم من يتخذ منهجاً حركياً، يُمكّن به لدعوته، ويدرأ عنها الخطر، وكلهم يبتغون مرضاة الله تعالى، ويكمل بعضهم بعضاً، ولا يغني بعضهم عن بعض في الوفاء بحاجات الأمة للنهوض بها ودفع الخطر عنها.

غير أنّ هناك نمطاً فريداً من العلماء قلّما يجود به الزمن، هم أولئك الذين يدركون طبيعة الدين وطبيعة العصر في آن، ويعرفون كيف يمكن للدين أن يتعايش مع العصر مُستمداً حياته من أصوله الأولى الثابتة، ماداً أذرعته وفروعه في ذات الوقت نحو كل جديد يتزود منه بعناصر القوة، ويدلي نحوه بأسبابه ليربط ما بين ثوابت الدين ومقتضيات العصر، لينشئ بذلك نوعاً من الفكر الرائد الذي يطوع العصر لثوابت الدين، ولا يجعل من الدين حجر عثرة جامداً في سبيل تقدم حياة البشر نحو الأفضل، ونحو الكمال.

ولقد جادَ عصرنا هذا بعدد نحسد عليه من هؤلاء المُجدّدين، ويبدو أن المِنْحَة تكون على قدر الابتلاء، وتكفي لدفعه - إن شاء الله-، كان منهم صاحب هذه الأفكار التي نطل عليها الإمام أبو الحسن علي بن عبد الحي الحسني الندوي رضي الله عنه وأرضاه، ودفع عنه من البلاء بقدر ما دفع عن أمته.

وعلى الرغم من أن استعراض مثل هذه العبقرية في هذا العدد القليل من الصفحات يعدّ ضرباً من ركوب الصعاب، فإن هناك كثيراً من المغريات بركوب هذه الصعاب، منها: حقه علينا، ووفاؤنا له، ومنها: التشرف بذلك، ومنها، طرافة الدراسة، ومتعتها وفائدتها، فهو بحرٌ زاخرٌ بالعلوم والمعارف وليس قاعاً ولا صَفْصَفاً.

إنه ليس من قبيل الإنشاء أو اللغو الفارغ أن نقول: إن من يتربى على مائدة القرآن، ويتخرج في المدرسة المحمدية، ويتسلح بخبرات وتجارب الأمة الإسلامية عبر تاريخها، لا يفتقر إلى مقومات المنهج العلمي المنطقي في البحث والتفكير، ولا سيما إذا كان كل ذلك يصب في فطرةٍ سليمةٍ لم تدنّسها أوشاب الحضارة المادية، ولا العقائد الوثنية والإلحاد. وهذا الملمح، كما سيتضح، من أبرز سمات التكوين الفكري للإمام أبي الحسن الندوي.

إن عنوان أشهر كتاب للإمام أبي الحسن الندوي، الذي قيل فيه إنه من أعظم ما صدر في هذا القرن [١]، يأتي في صيغة سؤال سنحاول بمعونة الشيخ نفسه أن نجرب إن كانت الإجابة عليه توضح لنا المنهج وتبين معالمه.

هذا السؤال هو: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين [٢] ؟

إن الإجابة على هذا السؤال، لو حدّث بها كل أحد من الناس مؤمناً كان أو كافراً نفسَه، كانت كفيلة أن تبعث حياة البشر بعثاً جديداً في الاتجاه

(١) مقدمة كتاب: أبو الحسن الندوي كاتباً ومفكراً ص٢٠.

(٢) صدر للمرة الأولى سنة ١٣٧٠هـ، ١٩٥٠م.

الصحيح، نحو الربانية، التي تتجلى بأسمى معانيها في النهوض بأعباء الاستخلاف في الأرض [١]، الذي خلقنا لأجله، والذي يوجب على المسلم أن يستشعر مسؤولية كونيّة تجاه تلك الكرة المنطلقة في الفضاء بكل ما تحمله من هموم ومشكلات. تلك هي الحكمة من طرح الشيخ سؤاله، ثُم تقديم موجبات التوجه نحو إجابة بعينها من مقدمات تتعلق بقراءة دستور السماء: القرآن الكريم، قراءة واعية، ومضاهاة ما فيه من الحكمة والأحكام والعظات وغيرها بنظائرها في دساتير البشر، وعرض سيرة صاحب الرسالة ﷺ عرضاً واعياً، مع استعراض التاريخ العملي للحضارة الإسلامية، بعيداً عن قشور التاريخ السياسي المستهلك، وسبر أعماق الحضارة الإسلامية ومنجزاتها العملاقة، والمنن التي منّ بها المسلمون على البشر أجمعين، والسلوك الحضاري الذي سلكوه في سيرتهم مع الأمم التي حكموها والشعوب التي تعاملوا معها، كل ذلك مقارناً بالسلوك المضاد الذي سلكته الأمم الأخرى في مسيرتها الحضارية وفي تعاملها مع غيرها، وفي تعاملها مع المسلمين يؤدي بالبيان العملي المقارن إلى نتيجة واحدة، وحقيقة واحدة هي أن سلامة البشرية في الإسلام، ومستقبلها المظلم إن عدمت هذا الدين.

إن مجرد إثارة السؤال، حتى قبل الإجابة عليه إثارة ذكية للحواس في المُتلقّي، ولكنها ليست مجرد استثارة وجدانية أو عصبية دينية، وإنما هي تدفع العقول إلى التفكير والبحث والتحري من خلال الحقائق الموضوعية والوقائع التاريخية والملابسات [٢].

وطريقة الإمام الندوي هي عرض الصور المتناقضة متجاورةً، حتى يظهر الفارق جلياً واضحاً لكلٍّ ذي عينين لا ينكره إلا من عَمِيَتْ بصيرته، لا بصرهُ،

---

(١) الصراع: ص٢٠٣ .

(٢) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؟ مقدمة سيد قطب ص١٢.

ويبدو أن تكوين الشيخ العلمي، والمرحلة الحرجة التي عاشَها من تاريخ أمته، وتاريخ الإسلام معاً، ألحتّ على فكره بثنائية: الشرق والغرب أو الإسلام والحضارة الأوربية، أو الدين والمدنية أو الروحية الربانية والمادية المُلحدة، وكلها مسميات لقضية واحدة، فرضت نفسها ليس فقط على ساحة فكر الشيخ ومدرسته وإنما على ساحة التاريخ الإسلامي، بل الإنساني كله منذ عصر الحروب الصليبية وإلى اليوم، حتى رأينا محمد إقبال يكتب فيها والعقاد، وطه حسين، وعبد الرحمن بدوي، وعبد الحليم محمود، وأنور الجندي، ومحمد محمد حسين، وحتى عبد العظيم رمضان، كما كتب فيها، أيضاً كثير من الأوروبيين، على اختلاف نظراتهم وتوجهاتهم، ولكن ليس من بينهم جميعاً واحد ألحّت عليه تلك الثنائية المُتناقضة كما ألحت على شيخنا الندوي فظهرت في مؤلفاته التي كرسها لهذه الثنائية [١] وغيرها التي خلصت لموضوعات أخرى لكنها عرجت عليها [٢]. حتى بات المرء يحار في أمر هذه الظاهرة، أهي ولّدت في نفس الشيخ منهج المقارنة والموازنة بين المتشابهات والمتناقضات في كل الموضوعات التي يطرقها، أو تولدت هي عن هذا المنهج ؟

إن الناظر في نتاج الشيخ من محاضرات وأحاديث وكتابات، يحس للوهلة الأولى إحساساً لا يغادره بعدها أبداً ولا سيما من لقيه، وهو أن هذا الشيخ مؤذن، وقف على مئذنة مسجده في ليلة شاتية باردة مطموسة النجوم بفعل السحب المتراكمة، موحلة بفعل الأمطار الغزيرة، والناس منكمشون في بيوتهم تحت أغطية كثيفة. لا يرجون لليلتهم إصباحاً ولا لظلمتهم وسحبها انقشاعاً، فأذن أذاناً، ثم أذن آخر، ثم نزل فصلى منفرداً، وقد أهمّه ما ألم بالناس، ثم خرج يسعى، وإذا العدو قد طرق البلد النائم، وأوشك أن يستحوذ عليه فعاد

---

(١) منها الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية، الإسلام والمستشرقون، الإسلام والغرب، الصراع بين الإيمان والمادية

(٢) مثل: الأركان الأربعة.

الرجل أدراجه إلى مسجده، وصعد المئذنة من جديد، وجعل يصرخ منادياً في الناس جميعاً، ثُم جعل ينادي كل طائفة برسمها، ثم صرخ منادياً أفرادهم الذين يرجى منهم النصر، ويعول عليهم في دفع الأذى.

إنه يصرخ دائماً في الناس، ويهزهم هزاً عنيفاً لعلهم يستيقظون من سباتهم، ويحاولون أن يستردوا ما ضاع، أو يبقوا على ما بقي من دينهم وحضارتهم وثرواتهم ومكانتهم بين الأمم، وها هو ذا صوته يصل إلى المسلمين في أصقاع الأرض وغيرهم: اسمعي يا مصر، اسمعي يا سورية، اسمعي يا زهرة الصحراء (الكويت)، اسمعوها مني صريحة أيها العربُ، أريد أن أتحدث إلى الإخوان، تعالوا نحاسب نفوسنا وقادتنا، قارنوا بين الربح والخسارة، إلى الإسلام من جديد، أحاديث صريحة مع إخواننا العرب والمسلمين، أحاديث صريحة في أمريكا، حديث مع الغرب [1].

من هنا لم يكتف الشيخ بما يشغل به غيره من الدعاة والعلماء، من وعظ وتخويف بالجنة والنار، أو بالخلوة والعبادة يأساً من صلاح الناس،وإنما كان شغله الشاغل هو بعث هؤلاء النيام من رقدتهم، وتنبيههم إلى ما يحدق بهم وبإخوانهم من شتى الأقطار والأرجاء. من جراء غفلتهم وتكالب أعدائهم عليهم، وسعيهم في اقتناص أطرافهم تمهيداً لاستئصال شأفتهم.

ويرى الإمام أبو الحسن أن من أسباب تخلف المسلمين توقف الاجتهاد من قبل العلماء والحكام معاً [2]، لأن اجتهاد الحكام كفيل بتمكينهم من التصرف في المواقف الطارئة التي لا يجدون لها نظيراً فيما سبق يقيسون عليه، وفوات ذلك منهم يحيق بهم النكبات، ويوقع بالأمة ما لا تحمده عقباه، وما أتيت أمة الإسلام

---

(١) هي جميعاً أحاديث ومحاضرات ودراسات لأبي الحسن الندوي تحت هذه العناوين. سماها يوسف القرضاوي (إسمعيات)- الإمام العلامة أبو الحسن الندوي كما عرفته: ٢٩

(٢) ماذا خسر العالم: ص١٣٩.

إلا من قبل الحكام الجاهلين، السادرين في غوايتهم، الذين يثبون على كراسي الحكم ويقُصون القادرين الذين يعلمون ويعملون، ويضطهدونهم وينكلون بهم.

ومن هذه الأسباب انتشار البدع والضلالات والانكباب على اللذات [١]، وأهم من ذلك كله الجمود العلمي الذي أصاب الحياة العقلية بالسقم، والتوقف عند حدود دراسة الإلهيات في التوحيد، وبعض العلوم الآلية النظرية كالنحو، والمنطق، وترك العلوم العلمية والعملية التي تتقدم بها الأمم [٢]. ومن هنا يرى الشيخ وجوب الأخذ بأسباب الرقي أيّا كان مصدرها، ولا خطر على الإطلاق في تلقيها من أوروبا أو غيرها، ولكن الخطر كل الخطر هو في تلقي شيء من علوم الدين والفلسفة والأدب عن الأوروبيين أو غيرهم، لخطرها على وجدان المسلم وتكوينه العقدي والقلبي والعقلي [٣]. وقد فطن الغرب الصليبي لهذا المدخل، فأصرّ كل الاصرار على تغريب الفكر واللسان والوجدان المسلم في سائر أرجاء الأمة المسلمة، وذلك دون أن يزودوا هذه البلاد بشيء من العلوم والصناعات التي تعينهم على التقدم الحضاري[٤]، أما من يقولون بأن الصناعات والأجهزة لا تقل خطراً عن الفكر إذا غزتنا، بحجة أنها تستعمل فيما حرم الله، فقد رد عليهم الإمام بقوله: إنما طائركم معكم، لأن الآلات في ذاتها لا تضر ولا تنفع، ولا توصف بالخير أو بالشر، وإنما إذا استعملت في الخير صارت خيراً وإذا استعملت في الشر صارت شراً [٥]، وقياساً على ذلك أيضاً أن الحروب في حياة البشر تعمل عملين متناقضين، ومنها حروب اعتداء وإبادة، ومنها حروب انتصاف وحياة، فالمسلمون كانت حروبهم دائماً حاقنة للدماء يليها سلام، وخير عميم لكل أطرافها، أما حروب الأوروبيين فويلاتها تبلغ

(١) ماذا خسر العالم ص١٣٢ وما بعدها، الصراع ص٨ - ٢٥.
(٢) نفسه ص ١٤٨، الصراع ص٦٧-٧١.
(٣) الصراع ص١٧٨.
(٤) الصراع بين الفكرة والإسلامية والفكرة الغربية ص٢١٤.
(٥) ماذا خسر العالم ص٢١٥.

أضعاف ما تخلف عن حروب المسلمين، وهي دمار مقيم، ومقدمة لحروب أخرى، بلا نهاية [١]، إن حروب المسلمين رحمة، وحروب غيرهم عذاب، المسلمون يحاربون الناس ليهدوهم الطريق القويم وينيلوهم سعادة الدارين ، وغيرهم يحاربون ليغتصبوا حقوق غيرهم ويحرموهم وينعموا هم دونهم بتلك الخيرات.

هكذا يجري توظيف أحداث التاريخ وسير الرجال عند الشيخ، إنه لا يكتفي بسرد الأحداث وترك الناس يستنبطون ما يشاؤون، وإنما هو يأخذ بأصابع القراء والسامعين ويضعها على موطن العبرة في الحدث، أو الأسوة في الشخصية، وهكذا كان في كتابه: رجال الدعوة والفكر في الإسلام.

إن شخصية الشيخ وفكره تجسيد لمنهج ندوة العلماء، تلك المدرسة المرابطة في لكهنو من أرض الهند السليبة، إنه ينطلق من إيمان راسخ، لا يزعزعه قصف الرعود ولا البراكين، بثوابت هذا الدين وما علم منه بالضرورة، وهذا يفسر إصرار الشيخ الدائب على بسط دروس غزوة بدر على مائدة البحث والحديث [٢]، لأن وقائع هذه الغزوة تؤكد على أن الإيمان، والإيمان وحده هو طريق النصر، وبالتالي طريق التوفيق في كل الأمور، وأن هذا الإيمان هو الذي يجب أن يحرص عليه المسلم قبل أي شيء آخر في هذه الحياة، بأن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما[٣]. وهذا التمسك بثوابت الدين، بعث في نفس الشيخ روح الإعجاب بالنماذج والقدوات التاريخية والمعاصرة من أعلام الإسلام، الذين خاضوا تجارب مشرفة من الجهاد في الميدان أو جهاد النفس، وصبروا على الابتلاءات وخرجوا منها وهم أكثر إيماناً وأصلب عقيدة، وعلى رأس هؤلاء الشاعر محمد إقبال الذي يصل إعجابه به درجة عظيمة[٤].

---

(١) ماذا خسر العالم ص٢٠٤-٢٠٥.

(٢) قيمة الأمة الإسلامية ودورها في العالم ٣ - ١٢ .

(٣) العقيدة والعبادة والسلوك ص ٢٥ - ٢٦ ، قيمة الأمة الإسلامية ص ٣-١٠ .

(٤) روائع إقبال لأبي الحسن الندوي ص١١.

وإقبال كما هو معلوم هو ذلك الإنسان المسلم الذي خاضَ غمار تجربة التغريب وتجرعها حتى الثّمالة، واكتوى بنارها، وخرج منها كما إبراهيم عليه السلام على حد قوله في ديوانه: أرمغان حجاز ص٧٠، لم يمسسه سوء، وكانت عليه برداً وسلاماً، فخرج منها مسلماً لا يتزعزع يقينه بثوابت دينه، مخالفاً بذلك كثيرين ممن نعلمهم من المتغرّبين (١).

والإخلاص عنصر مُكمّل للإيمان كما نعلم، وهو يقتضي وجوب التفاني في الاحتفاظ بسمات الشخصية الإسلامية، وعدم الاستسلام لبريق الحضارة المادية في السِّرِّ والعلن، والحرص على تزكية الجانب الروحي من هذه الشخصية الإسلامية، والزهد في بهارج الحياة الدنيا، والتطلع إلى الآخرة، وما عند الله تعالى من الباقيات (٢).

إن سلوك الشيخ أبي الحسن الندوي لا ينفصل عن فكره، وقوله يُطابق فعله، وأبرز ما في هذا السلوك التواضع الجم، والزهادة في كل زخارف الدنيا، وهو الذي يحتل من قلوب مريديه وتلامذته ومحبيه مكانة تعلو مكانة الملوك المُتوّجين، وهو مع ذلك يؤثر البساطة في كل شيء، ويتحرك كما الطيف في هدوء بلا هيل ولا هيلمان، وقد يفاجأ الناس به بينهم ولا يشعرون به لشدة هدوئه وتواضعه، فلو قلنا: إنه من العباد الزُّهاد بحق مازدنا شيئاً على حقيقته، وليس من قبيل اللغو ما تطالعنا به كتاباته من استشهادات بأشعار الإمام جلال الدين الرومي (٣).

ومن الأفكار المُلحّة على الشيخ، أن صلاح آخر هذه الأمة لا يكون إلا بما صلح به أولها، انطلاقاً من القرآن والسنة وسائر مكونات التجربة الحضارية

---

(١) انظر: روائع إقبال، الصراع ص ٥٨، وما بعدها، ماذا خسر العالم ٢٦٤-٢٧٤.

(٢) الصراع: ص٢٠٥.

(٣) نظرات في الأدب: ص٩٢.

الإسلامية الزاخرة بالعبر والدروس [١]، ولهذا نراه دائماً يستقرئ التاريخ الإسلامي، ويستمد منه الدروس والنماذج، الواجب تأديتها إلى الشباب في مرحلة التكوين العقلي الأولي، وشحنهم بها حتى لا تبقى ثغرةٌ ينفذ منها، ولا فراغٌ يرتع فيه شيء من النماذج والتجارب الوافدة من غرب أو شرق. وهو يبين دائماً للشباب تلك المنح الغالية التي قدمها الإسلام للبشرية دون غيره من الأديان، ومنها:

عقيدة التوحيد النقية الواضحة، ومبدأ الوحدة الإنسانية والمساواة البشرية، وإعلان كرامة الإنسان وسموه، ورد الاعتبار إلى المرأة ومنحها حقوقها وحظوظها، ومحاربة اليأس والتشاؤم، وبعث الأمل والرجاء والثقة والاعتزاز في نفس الإنسان، والجمع بين الدين والدنيا، وتوحيد الصفوف المتناحرة والمعسكرات المتحاربة، وإيجاد الرباط المقدس الدائم بين الدين والعلم، وربط مصير أحدهما بالآخر، وتعظيم شأن العلم والحث عليه وتوجيهه إلى ما ينفع ويوصل إلى الله، واستخدام العقل والانتفاع به في القضايا الدينية، والحث على النظر في النفس والآفاق، وحمل الأمة الإسلامية على قبول مسؤولية الوصاية على العالم، والحسبة على الأخلاق والاتجاهات، وسلوك الأفراد والأمم، وتحمل مسؤولية القيام بالقسط والشهادة لله، والوحدة العقائدية الحضارة العالمية [٢].

وليس ذلك بمانع ندوة العلماء ورائدها من تطبيق مبدأ الجمع بين القديم الصالح والجديد النافع، أو بين التصلب في الأصول والغايات، والتوسع والمرونة في الفروع والآلات [٣]، فهم يقبلون الجديد المفيد بعد تطهيره مما

---

(١) العقيدة والعبادة والسلوك ص٥٤.

(٢) محمد رسول الله ﷺ ص١٩-٢٠.

(٣) الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية ص٢٨-٦٧.

يدنسه من أدران الحضارة الغربية وتقديسها للمادة، دون أن تبدي إعجاباً شديداً وولها وتدلُّهاً بهذا الوافد، فكم من منحة حصلت عليها أوروبا ولم تعترف بها، في حين أنها لا تعطي شيئاً لوجه الله، ولا تعطي إلا بأبهظ الأثمان، ولهذا فنحن لا نأخذ إلا ما نحتاج إليه، ولا نظير له عندنا، أما ما هو عندنا فلا حاجة لنا بتبديله فهو أصلح لنا وهو منا، وأفضل من كل مثيل أو بديل من شرق أو من غرب [١].

وهذا الجمع بين القديم والجديد، وجعل الأصيل معاصراً كالجديد، وتأصيل المعاصر هو مظهر الاعتدال والوسطية، حيث لا يتشدد المرء في رفض أي تطور باتجاه التحضر والأخذ بأسبابه، لأن هذا الموقف يفضي بصاحبه إلى الجمود والتخلف والتعرض للتلف، ولا يدع نفسه- في المقابل- نهباً لمبهرات المدنية الحديثة، ويخلع في سبيلها من رقبته كل التزام يمليه عليه دينه، فمهما حاول أن يتخلص مما فطر عليه فإنه باق في نفسه وفي روحه، ولن ينسلخ منه أبداً وإن توهم ذلك، ويرضى في النهاية بما رضي به المستغربون، وأن يكونوا على هامش الحياة الأوروبية، فلا هم أوروبيون، ولا هم مسلمون [٢]، فهم كأنصاف الجهال الذين قال فيهم أحمد شوقي: (لا الجهل دفعوا، ولا بقليل العلم انتفعوا) [٣].

ولقد تبنى الشيخ نهجاً واقعياً يقع في منطقة وسط تماماً بين أطراف، فهو يعمل بروح حديث النبي ﷺ: «**إنما بعثتم ميسرين**» فلا يتشدد على الناس في دعوة أو نقد أو أمر أو نهي، ومع هذا يتشدد على نفسه، وهو على استعداد لأن يتنازل عن كل ما أوتيه في هذه الحياة، بل عن الحياة ذاتها، في سبيل

---

(١) الصراع ص ٢٠٨-٢١٩

(٢) الصراع ص٣٦ وما بعدها.

(٣) من أسواق الذهب لأمير الشعراء أحمد شوقي.

دعوته تأسياً أيضاً بالنبي ﷺ، وذلك عندما محا بإصبعه الشريفة اسمه من الصحيفة عندما اعترض عليه وفد الكفار في صلح الحديبية، ومن هنا ندرك أن هذه الفلسفة العملية نابعة من فكرٍ ومنهجٍ مستقر لدى الإمام الذي يرفض الفلسفات المتطرفة في المثالية، كفلسفة الإشراق الأفلاطونية ونظيراتها الشرقية، التي لا ترى من الإنسان إلا الجانب الروحاني فقط، وكذلك الفلسفات المادية كالأبيقورية والهيجلية والماركسية والوجودية، التي لا تؤمن إلا بالمحسوس فقط، وتتنكر لما عداه. فالأولى مرفوضة لأنها تؤدي بالإنسان إلى إهدار رسالته في الحياة كخليفة لله في الأرض، ولو شاعت بين البشر لدمرت الحضارة، والثانية تتنكر للجانب الروحاني في الإنسان الذي يتعامل على أنها مرحلة على طريق، وأن المرء مسؤول عما يعمله فيها ومحاسب، ومجزى بعمله [١]. ولاشك أن هذا الموقف المعتدل يثمر صلاح الدارين ويحقق الغاية من الخلق، ما كان منها للاستخلاف والإصلاح، وما كان منها لعبادة الله الواحد الأحد.

ونهج الاعتدال هذا أيضاً يهدي إلى اتباع المنهج التعليمي التربوي في التغيير [٢]، فالرجل ومدرسته ينتصران للمنهج التربوي، ولا يميلان للجنوح للعنف والثورة والمناهج الحركية التي تعتمدها بعض الجماعات في بلاد الإسلام، والتي إن نجحت مرة فإنها تخفق عشرات المرات، وتتآكل فيما بينها ناجحة ومُخفقة، لأنها يركب موجتها المغامرون وطلاب الشهرة، أما النهج التربوي الإصلاحي، فهو يضرب بجذوره في التربة بتؤدة [٣] حتى تتمكن، ثم تنمو وتتفرع وتؤتي ثمارها يانعة كأطيب ما يكون الثمر، دون أن تستفز معانداً، أو تُريق قطرة دم، ويقوم عليها من يؤمنون بأن الله غالبٌ على أمره، ولكن أكثر

(١) بين الدين والمدنية ص٦٨-٧١.

(٢) الصراع ١٧٤،الطريق إلى السعادة والقيادة للدول والمجتمعات الإسلامية الحرة ص ١٢١-١٣٠.

(٣) ماذا خسر العالم ٢٧١ .

الناس لا يعلمون، وأنهم لو علموا ما غامروا أو قامروا بالبقية الباقية منهم في وجه من لا يرحم، من الطغاة العُتاة المتجبرين، وجعلوها عرضةً للهلاك، فكم من ثورة قامت ولم تحقق مما كانت تحلم به إلا القليل، وأكثر الثورات تحيد عن أهدافها بعد نجاحها وتحول دفّتها الأهواء، وما يُسمى بالغرور الثوري. كل ذلك لا يمنع أنه إذا دعا داعي الجهاد ترخص النفوس في سبيل الله، وتهفو الأرواح لنيل الشهادة، وتتهافت على ميادين الجهاد (١).

وللتربية الإسلامية وسائلها ومناهجها ورجالها، وللشيخ فيها دراسات وتجارب ذات قدم راسخة، سواء منها ما كان للناشئة ككتابه القيم قصص النبيين للأطفال الذي أثنى عليه كافة العلماء (٢). وكتاب: القراءة الراشدة، وما كان للكبار ككتابه: المدخل إلى الدراسات القرآنية، وكتاب الأركان الأربعة، وكتاب العقيدة والعبادة والسلوك، وسائر كتبه (٣).

وهذه الخبرات مبسوطة حصيلتها في كتابه القيم: نحو التربية الإسلامية الحرة في الحكومات والبلاد الإسلامية. الذي عرض فيه للصراع بين المناهج الأصلية والوافدة في نظم التعليم، ومخاطر ذلك على تكوين عقلية الأمة المسلمة ولاسيما الشباب الحائر. وعرض لتجارب رائدة وآراء سديدة، ولم يفته أن يعرض لرأي حكيم لهذا الشاعر محمد إقبال (٤). وبين وسائل العلاج الناجعة لكل المشكلات، ولكن هل من سميع وهل من مجيب؟.

والنقد الصريح الصادق الذي لا يصانع ولا يُجامل على حساب الحقيقة دأب الشيخ، ويصدر عنه في تهذيب وأدب جم، مشفوعاً بأسمى آيات الاعتذار وإيضاح شخصي، هكذا كان الشيخ في رسائله التي توجه بها إلى الشعوب

(١) ماذا خسر العالم ٢٨٥، التفسير السياسي للإسلام ١٤٨ وما بعدها.
(٢) انظر تقديم سيد قطب للكتاب في مقدمة الجزء الثالث منه.
(٣) انظر مقدمة كتاب: أبو الحسن الندوي كاتباً ومفكراً.
(٤) نحو التربية الإسلامية الحرة ٤٣-٤٨.

الإسلامية، ولا سيما العربية منها، وهو ليس مجرد كلمات لاذعة يقرع بها المخالفين، أو عبارات براقة يدفع بها الحرج عند المساءلة بين يدي الله تعالى أو بعض عباده، وإنما هي تحليل عميق للمواقف وملابستها، وموازنة بين ما كان وما يجب أن يكون حتى يعرف المخطئ وغيره الخطأ والصواب من أجل الفائدة فيما هو آت، وتصحيح ما يمكن تداركه مما كان [(١)].

ومن هذا المحور تتفرع سمة جليلة من سمات منهج الشيخ وهي الإنصاف، فصاحب الفطرة السليمة والحس الديني المستقيم يعطي كل ذي حق حقه، وينصفه ولو على حساب نفسه، وهكذا الإمام أبو الحسن دائماً، ينصف من يتعرض لهم بالدراسة أو الترجمة أو النقد، فتراه يذكر محاسنهم حتى تظن به الظنون، ثم تراه فيعود فيهم ذاكراً ما عليهم بلا تزيد، فتقول هكذا الرجال، وهكذا القضاءُ! وتراه ينصف الحضارة الغربية، ويذكر ما لها من محاسن- وهو الذي لم يدع فرصة للتخويف منه إلا اغتنمها- ويحبب الأخذ منها وإكمال النقص في مناهجنا في ضوء بعضها الصالح، ولا سيما في العلوم والصناعات، التي تقدموا فيها [(٢)]، ونراه في غمرة ما يكشفه من أسرار الاستشراق وخباياه لا يمنعه شيء من إبداء الإعجاب بنفر منهم تجردوا للحقيقة وللعلم، ولم يستسلموا لما استسلم له رفاقهم من الأغراض والأحقاد [(٣)].

هذا، وتتسم دراسات الشيخ باستيفاء عناصر البحث العلمي، من تحليل واستقراء شامل بأقصى قدر ممكن وتعمق في الدراسة التي يتجرد بها العالم، ولا يدع صغيرة ولا كبيرة إلا ألمّ بها ووضعها موضعها، وهو يضرب المثل بالمستشرقين الذين أحوجنا أنفسنا إلى دراساتهم لما فيها من منهجية، وتعمق وشمول ونظر

---

(١) التفسير السياسي للإسلام: المقدمة.

(٢) الصراع ص٢٠٨.

(٣) الصراع ١٨٠، الإسلام والمستشرقون ١٣ وما بعدها.

ثاقب، على ما فيها من مغامز وشبهات وأضاليل، ولو تسلحنا في دراستنا بمثل أسلحتهم من مثابرة ومنهجية لكُنّا أغنى الناس عما يقدمون لنا[1].

وهو في هذا الصدد لا يرى إخضاع الأصول والثوابت الإسلامية: القرآن الكريم - السنة - العبادات - المعاملات.. إلخ، للفكر والعلم الحديث ونظرياته، فحكمة التشريع ثابتة لأنها من الله تعالى، وليست متطورة ولا متحولة، ولا تختلف على الزمان والمكان [2]، وذلك على خلاف ما يذهب إليه كثير من المعاصرين، في البحث عن تفسير القرآن والحديث، وبيان حكمة التشريع في العلوم الحديثة في إسراف يصل إلى حد العبث، كالذي يرى في الصلاة رياضة للبدن، وعلاجاً لبعض الأمراض.. إلخ [3] وينسى أو يتناسى أن الصلاة على أي هيئة كانت هي عبادة لله، وما حركاتها إلا من قبيل الإعلان بالخضوع والخشوع والعبودية لله تعالى، وأن أي غرضٍ آخر يداخلها يكاد يلقي بالإنسان في هوّة الشرك والعياذ بالله.

ويضاف إلى هذه السمة سمة الموسوعية، فبالإضافة إلى أن الشيخ عالمٌ من علماء الدين المتبحرين في علوم القرآن والسنة النبوية والفقه والتوحيد، هو عالمٌ بتاريخ الإسلام وتواريخ الأمم البشرية، بل وتاريخ الفكر البشري أيضاً، وهو عالم بالفلسفة وعلوم التربية والنفس والاجتماع، وله اطلاع في كل هذه العلوم في عدد من اللغات، حيث مكنه علمه بالعديد من اللغات من ذلك، فهو يتناول الفلسفات الخالصة التي تبحث في الميتافيزيقيا (الغيبيات) والفلسفة الاجتماعية والسياسية وغيرها، بالنقد الواعي مع المقارنة بالفكرة الإسلامية في أكثر من مؤلَّف له، ويدحض كل نظريات هذه الفلسفات المخالفة

(١) الصراع ص١٩٠، الإسلام والمستشرقون ٢٨.

(٢) الأركان الأربعة: المقدمة.

(٣) الأركان: ص٣١.

للحقيقة الربانية التي أدتها الأديان السماوية، والتي لم تكتمل إلا بنزول القرآن الكريم (١)، وتتجلى هذه الموسوعية بصورة مثلى في كتابيه المشهورين: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، والصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية، فعلى الرغم من أن كلا الكتابين يتناول قضية تكاد تكون واحدة للناظر المتعجل، فإن الغاية من كل منهما أن يصل بقارئه إلى قناعة بفكرة تختلف من أحدهما للآخر، وكلتاهما تُكمّل الأخرى في النهاية، وحشد في كل من الكتابين من عصارة تجارب الأمم الإسلامية في القديم والحديث في تعاملها مع غيرها من الأمم والأفكار، مما يدل أوضح دلالة على تلك الموسوعية، والتعمق، والإحاطة، ولم يكتف بذلك بل إن قلمه الموسوعي الذي سجل هذه التجارب هو ذات القلم الذي استفرغ مداده في نقل هذه التجارب، وبيان ما لها ويجدر التأسي بها، وما عليها ويجدر الحذر من الوقوع في مثله، ويبين أن الناجح من التجارب هو ما كان الدين روحه ونبراسه، والمخفق هو ما تبعنا فيه الهوى وتركنا الدين، وسرنا وراء الأمم والأفكار المخالفة لديننا وشريعتنا (٢).

وللشيخ اهتمام كبير بالأدب من حيث هو فنٌّ خالص، يرتقي بالإنسان فوق مراتب التسفُّل والدّونيّة والحيوانية، ومن حيث الرسالة التي يمكن أن ينهض بها في تأدية مضامين الدين والعقيدة والفكر والحياة عامة، بطريقته الخاصة المحبّبة البعيدة من جمود الدراسات العلمية وتعقيدها، وجفاف الأحاديث الخالية من الروح ومن الجمال، ولهذا لانكاد نجد دراسة أو حديثاً له يخلو من استشهادات من الشعر والحكمة والمثل وغيرها، فضلاً عن دراساته التي خصّ بها الأدب مثل: كتابه: نظرات في الأدب، وكتاب: روائع إقبال، وغيرهما.

---

(١) بين الدين والمدنية: ص ٧٢ وما بعدها.

(٢) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية، مواضع كثيرة.

كما أن للشيخ عناية خاصة بالأدب العربي، والعربية هي اللغة الأثيرة لديه من بين اللغات التي يتقنها، والتي لا تقل عن أربع، وآثرها بعدد من مؤلفاته، والتي وضعها فيها أولاً قبل ترجمتها إلى غيرها من اللغات، وعلى رأسها كتابه الأشهر: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟.

وقد أدرك الشيخ بسعة أفقه وفهمه الثاقب أن مؤرخي الأدب العربي قد ظلموا هذا الأدب، وجنوا عليه جناية كبيرة، لأنهم تبعوا هواهم وركزوا على جوانب من الأدب ولم يكونوا عادلين ولا محايدين، فأهملوا بعض الجوانب المضيئة وأخروها، وهي الأولى بالتقدمة، وانكبوا على شعر المديح الذي كان يكتسب به بعض الشعراء لدى العظماء [١]، وليس معنى هذا أننا ندعو إلى طرح شعر المديح، بل إننا نراه وعاء لكثير من الفضائل التي نحب أن تشيع في الناس [٢]، ولعلهم أبرزوا هذا الجانب من هذا المنطلق فأسيء فهمه بعد، أو لعلهم كانوا مرغمين على ذلك تحت وطأة السلطان الذي يهمه تسجيل ذلك الشعر وإبرازه، كما ركزواعلى شعر الهجاء والمعارك اللسانية، وعلى أشعار المجون والخلاعة من خمريات وغلمانيات، وغزل فاحش، ولم يولوا ما عدا ذلك ما هو أهله من التدوين والتاريخ، فانزوت جوانب من الأدب كانت أجدر بتلك العناية وهذا التقديم، فحسبت الأجيال التالية من العرب وغيرهم أن هذا هو الأدب العربي، وطنطن المستشرقون كثيراً لذلك، وشهروا به وادعوا عليه الدونيّة، والحسيّة والصناعة، ثم جاء جيلنا المنادي بالأدب الإسلامي، فنظر في أدب لغة الإسلام تلك النظرة العابرة، ثم تجرأ بعض المتسرعين إلى المطالبة بوجوب طرح هذا الأدب جملة، وأما الشيخ الندوي فقد أدرك أن العيب ليس في الأدب وأنه ليس جانياً، وإنما هو مجنيٌّ عليه، والجُناة هممن

---

(١) نظرات في الأدب: ١١٥.

(٢) دور الأدب العربي: محمد حسين ص١٥.

أرخّوا له، فدعا إلى إعادة كتابة تاريخ الأدب العربي على نحو منصف، يعطي كل ذي حقٍّ حقه، ويضع كل ظاهرة في مكانها اللائق بها من صفحة هذا التاريخ [١]. وقام بنفسه بتجربة هذا المنهج في كتاب له بعنوان: مختارات من أدب العرب [٢].

وللشيخ في دراساته كلها حس أدبي حكيم، لا أعني أسلوبه، بقدر ما أعني ما يقدمه من نصوص الأدب على اختلاف لغاته، بدءاً من الشعر العربي في الجاهلية، الذي تراه يُضمن أبيات الحكمة منه في كتاباته متأسياً في ذلك بالنبي ﷺ، الذي كان يستنشد أصحابه هذا الشعر، ويحاول الاستشهاد به أحياناً، فنراه يأتي بأبيات طرفة في الحكمة [٣]، أو أبيات عمرو بن معديكرب في الحماسة.. وغير ذلك.. وتراه يستشهد بأبي تمام والمتنبي، ويحتفل احتفالاً كبيراً بجلال الدين الرومي، ويترجم عنه إلى العربية [٤]، ثم إذا انتهينا معه إلى محمد إقبال نراه- كما ذكرنا من قبل- قد نال الحظ الأوفر من عناية الشيخ، الذي لم يكتف أن يخصه بأكثر من دراسة مستقلة ومقالة وإنما قل أن تجد أثراً للشيخ لا يرد فيه اسم محمد إقبال أو شيء من شعره، أو أعماله الفكرية، ولا سيما قصائده التي توجه بها إلى العرب، ولهذه الاستدلالات دلالاتها التي لا تخفى على ما يكنه الشيخ من عميق التقدير لدور الأدب في تغذية الأرواح، وتزكية النفوس، وترقيه العقول، وتلقيح الأفكار بالنافع الجميل من أرقى الفنون وأقربها رحماً ولحمةً بهذا الدين، الذي اختار الله تعالى له معجزة أدبية بلاغية لا هي بالسحر، ولا هي بالطب.

نفع الله بشيخنا البلاد والعباد، وحفظ به الدين، وحفظه وأدام عليه نعمة العافية وتقبل منه. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

---

(١) نظرات في الأدب: ص١١٨ .

(٢) أبوالحسن الندوي كاتباً ومفكراً: المقدمة ص٨-٩.

(٣) بين الدين والمدنية: ٥٢ .

(٤) نظرات في الأدب: ٩٢.



المراجع

كتب الإمام الندوي :

١- الأركان الأربعة- دار القلم- الكويت سنة ١٤١٥.

٢- الإسلام والمستشرقون- ندوة العلماء- الهند، سنة ١٤٠٢.

٣- بين الدين والمدنية- مؤسسة الرسالة- بيروت- ط٣ سنة ١٤٠٤.

٤- التفسير السياسي للإسلام- دار آفاق الغد- مصر ط٢ سنة ١٤٠٠.

٥- روائع إقبال- دار القلم- الكويت ط٣ سنة ١٣٩٨.

٦- الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية- دار القلم الكويت- دار الأنصار، القاهرة ط٣ سنة ١٣٩٧.

٧- الطريق إلى السعادة والقيادة للدول والمجتمعات الإسلامية الحرة- مؤسسة الرسالة- بيروت ط٢ سنة ١٤٠٥.

٨- العقيدة والعبادة والسلوك- دار القلم- الكويت ط٤ سنة ١٤١٥.

٩- قصص النبيين للأطفال- مؤسسة الرسالة- دار القادسية بيروت ط٧ سنة ١٤٠٣.

١٠- قيمة الأمة الإسلامية ودورها في العالم ومعه: الإمام أبو الحسن الندوي كما عرفته ليوسف القرضاوي وزارة الأوقاف قطر سنة ١٤١٦

١١- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين- الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية- الكويت سنة ١٤٠٩

١٢- محمد رسول الله ﷺ، دار الصحوة مصر سنة ١٤١٢.

١٣- نحو التربية الإسلامية الحرة في الحكومات والبلاد الإسلامية- مؤسسة الرسالة- بيروت ط٤ سنة ١٤٠٢.

١٤- نظرات في الأدب- دار البشير- عمان سنة ١٤١١.

نذر الحفيظ الندوي الأزهري:

١٥- أبو الحسن علي الحسني الندوي كاتباً ومفكراً في نظر العلماء والأدباء والمفكرين العرب- ط٢-١٤٠٧- دار القلم الكويت.



البحث الحادي عشر

التربية الإسلامية عند سماحة

الشيخ أبي الحسن عليّ الحسني الندويّ

الدكتور محب الدين أحمد أبو صالح(*)



(*) أستاذ مساعد مناهج التربية الإسلامية وطرق تدريسها في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

أولاً: أهمية التربية والتعليم في حياة الأمم والشعوب

يؤمن الشيخ - يحفظه الله - بأهمية التربية والتعليم في حياة أية أمة من الأمم، أو شعب من الشعوب، ويؤكد ذلك في كتبه ومحاضراته، وندواته ولقاءاته مع المفكرين والمصلحين والعلماء والقادة السياسيين والتربويين، حيث يعد التربية والتعليم أكبر أمانة ومسؤولية في أعناق الحكام والمسؤولين عن حكم البلاد، وإدارة مؤسساتها، يقول في إحدى محاضراته: «... أمّا بعد: فإني لا أعرف أمانة أكبر مسؤولية، وأشدَّ خطراً، وأعمق أثراً في مستقبل الأمة وحياتها، من التربية والتعليم، فزلة من زلاتها، قد تُرْدي أمة بأسرها في هاوية، وقد تؤدي بها إلى الاضمحلال والتفسخ... كذلك يمكنها وحدها أن توجه العقول والنفوس، توجيهاً صالحاً، وتنشئ الأمة نشأة جديدة، وتبني لها مستقبلاً باهراً.. [1]، ولذا يؤكد في أحد مؤلفاته أن العمود الفقري لتوجيه دولة أو شعب يتعلق بتوجيه المعارف [2]. ويرى الشيخ أن هذا الأمر ينطبق على الأمة الإسلامية- مثل غيرها- وأن«مصير البلاد الإسلامية، وقضية بقاء الأجيال المسلمة اللاحقة على الإسلام، أو انسلاخها عنه، ليس منوطاً بالميدان السياسي، إنما هو منوط بالميدان التعليمي والثقافي..» [3].

والشيخ لا يُغَفِلُ ذكر أهمية المؤسسات المشاركة في بناء سلوك الأفراد وتنشئتهم- غير التربوية والتعليمية- يقول: «.. وأشد من ذلك خطراً هو سياسة التربية والإعلام التي لا أداة أقوى تأثيراً أو فعالية منها في صياغة الجيل الصاعد، وتكوين عقليته ومشاعره، وأخلاقه، ومثله، فهي المرضعة والحاضنة، وهي المعلمة والمربية، وهي التي تستطيع أن تنحت من أمّة ذات

---

(١) أبو الحسن الندوي- التربية الإسلامية الحرة (بيروت - مؤسسة الرسالة ١٣٩٧/١٩٧٧).

(٢) أبو الحسن الندوي- الصراع بين الفكرة الإسلامية، والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية. ط١ لبنان- دار الندوة للتوزيع ١٣٨٥/١٩٦٥. ص١١٠.

(٣) أبو الحسن الندوي- أسبوعان في المغرب الأقصى- ط١ (بيروت- مؤسسة الرسالة-١٤٠٢/١٩٨٣) ص٩٩.

عقائد ومبادئ ومثُلُ، أمّة جديدة لا تتصل بآبائها إلاّ بالولادة، والدم والنسل، وبالأسماء، وباللغة أحياناً..»[(١)].

إن شدة اهتمام الشيخ بتأكيده أهمية التربية والتعليم في حياة الأمم والشعوب، جعلته يقول لوزراء التربية والتعليم المجتمعين في الكويت عام ١٣٨٧هـ- ١٩٦٨م: «... لقد أصبح من المقرر في كلّ بلد واعٍ، حريص على سلامته وشخصيته، أن المعارف ليست إلاّ جهازاً يفرز المعاني والأسس التي يؤمن بها هذا الشعب، ودَرَجَتْ عليها أجياله، ويعيش بها وفيها...

وعلى هذا الأساس يتفق المعسكران الشرقيّ والغربيّ، وقد دلَّ ما سبق من أقوال خبراء التعليم، وقادة الفكر في أوروبا وأمريكا على وجهة نظرهم إلى المعارف، وأنها ليست إلاّ أداة مؤثرة، وَفيّة، لترسيخ العقيدة، ونظرة الأمة إلى الحياة والكون، وتعميق جذورها في قلوب الناشئة، ونفوسها، ونقل التراث العقلي، والعقائدي، والاجتماعي، إلى الأجيال القادمة، وإقناعها بضرورة الاحتفاظ بها، والمثابرة عليها، والجهاد في سبيلها..»[(٢)].

ثانياً - أهمية التربية الإسلامية :

بعد تقرير الشيخ مدى أهمية التربية والتعليم في حياة أيَّة أمة وشعب، يؤكد مدى أهمية «التربية الإسلامية» في حياة الأمة الإسلامية، وأنها الأداة الفعالة المؤثرة في بناء الفرد المسلم، والبيت المسلم، والمجتمع المسلم، والحضارة الإسلامية، وأن الحياد عنها، بله تركها، يؤدي إلى فساد عريض، ومخاطر كبيرة في حياة المسلمين، ومما قاله في ذلك: «إن بقاء الشعب من غير توجيه ديني، وتربية إسلامية، ووعي شامل، خطر كبير، وأنه يصير لقمة

---

(١) المرجع السابق- ص١٥١.

(٢) أبو الحسن الندوي- كيف ينظر المسلمون إلى الحجاز وجزيرة العرب (الهند- دار عرفات للنشر والترجمة والتوزيع ١٣٩٧/١٩٧٧). ص١١٩-١٢٢.

سائغة، ومالاً سائباً لكل مفسد وملحد، وللدعوات الهدامة، والفلسفات المحاربة للإسلام..» [١]، ومما يؤكد به مدي أهمية التربية الإسلامية تقريره أنها النظام التربوي الذي يعتمد على النظرة التي يقدمها الإسلام للألوهية والإنسان والكون والحياة، وبذلك يأخذ منه جميع حقائقه، ومفاهيمه، ومبادئه، وقيمه، وأساليب التفكير والتذوق، ويؤدي إلى تنشئة «.. الجيل المؤمن المثقف، الذي يجمع بين العقيدة والعلم، ويؤمن بخلود رسالة الإسلام، وصلاحيتها لكل عصر ومصر، وأنها هي المنقذة للعالم من النهاية الأليمة التي ترتقبه، ومن المستنقع الذي يتردى فيه» [٢].

إن إيمان الشيخ العميق بمدى أهمية التربية الإسلامية في حياة المسلمين جعله يؤكد ذلك في رسائله وأحاديثه، مع الحكام المسلمين من ملوك وأمراء، ووزراء، كتب لأمير الكويت: «.. إذ المعارف هي مربية الأجيال القادمة، وعليها يتوقف مستقبل هذا الشعب الديني، والخُلُقي، واتجاهه للمدنية، ومنع الميوعة والتفسخ الخلقي في الشباب والنشْءِ..» [٣]، وكتب لمعالي الشيخ محمد سرور الصبان: «.. وقد تحدثنا مع جلالة المغفور له الملك فيصل عن سياسة التربية، وعن سياسة الإعلام، التي تصوغ مستقبل الأجيال صياغة خاصّة، لا تتفق مع رسالة هذا الشعب الذي يطلب منه أن يمثل دوره القيادي، والذي يعتبر نموذجاً للمسلم في كل بلد..» [٤] وهذا لا يتم «إلاّ بوجود نظام للتربية والتعليم، يقوم على تطبيق بين العقيدة والثقافة، وبين قوة العاطفة، وإشراق الروح،

---

(١) أبو الحسن الندوي من نهر كابل إلى نهر اليرموك «جولة في غرب آسيا» - (أنقره - دار الهلال للطباعة والنشر والتوزيع ١٣٩٤/١٩٧٤) ص٣٠.

(٢) أبو الحسن الندوي، التربية الإسلامية الحرة، مرجع سابق، ص٤١.

(٣) أبو الحسن الندوي- كيف ينظر المسلمون إلى الحجاز، وجزيرة العرب- مرجع سابق، ص١٣٣-١٣٤.

(٤) المرجع السابق، ص٧٠.

والتهاب جذوة الإيمان، وبين العلم الواسع، والفكر النَّيِر، ومعرفة أحدث ما وصلت إليه الأجيال من تجربة واكتشاف»(١).

يجد الشيخ أن مدى أهمية التربية الإسلامية تعظم وتكبر في المجتمعات الإسلامية التي وقعت تحت حكم الاستعمار، وفرض عليها نظام التعليم الغربي، لأنها السبيل لإعادة صياغة أفراد المجتمع المسلم، «وتنمية الوعي الصحيح وتربيته. والفهم للحقائق والقضايا، والتمييز بين الصديق والعدوّ، وعدم الانخداع بالشعارات والمظاهر، حتى لا تتكرر مآسي وقوع هذه الشعوب فريسة للهتافات الجاهلية، والنعرات القومية، والعصبيات اللغوية، والسلالية، والإقليمية، ولعنة القيادات الداهية، والمؤامرات الأجنبية، فتذهب ضحية سذاجتها، وضعفها في الوعي الديني، والعقل الإيماني، فتذهب جهود تكوين الجو الإسلامي، أو تتعرض لخطر تطبيق النظام العلماني، والتحرر، والتقدميّة الغربيّة، المقبولة في العصر الحاضر، والمطلوبة من الجماهير التي لم تتلق تربية إسلامية، ونشأت في ظلال نظام التربية الغربي، الذي طبقه الحكم الأجنبي.. الذي يسمّى الاستعمار، وتحت تأثير وسائل الإبلاغ المسلية الماجنة»(٢).

ثالثاً - مفهوم التربية الإسلامية :

لا يجد الباحث في كتابات الشيخ ومحاضراته وخطبه تعريفاً محدداً للتربية الإسلامية، بل نجده لا يستعمل تركيب «التربية الإسلامية» إلاّ نادراً، وهو بذلك على سنن علماء الأمة المسلمين القدامى، الذين كتبوا في قضايا التربية والتعليم في الإسلام ولم يستعملوا مصطلح «التربية الإسلامية»، لإيمانهم أن عملية التربية والتعليم لا يمكن أن تكون مقطوعة عن

(١) أبو الحسن الندوي- التربية الإسلامية الحرة- مرجع سابق ص٤١ .

(٢) أبو الحسن الندوي- ترشيد الصحوة الإسلامية - (الهند، دار عرفات للتربية والنشر والتوزيع، ١٤٠٩-١٩٨٩)، ص١٧-١٨ .

الإســلام، أو مسلوخة عنه. ولعلَّ شيئاً آخر دعا الشيخ لذلك، هو أن يكون كلامه مقبولاً عند كل من يقرأ له، أو يستمع منه من غير المسلمين، حيث يكتفي بتأكيده أن نظام التربية والتعليم ينبغي أن يكون مرتبطاً بعقائد الأمة، ورسالتها، وقيمها ومبادئها، وتراثها، وتاريخها.

لكن الدارس في كتابات الشيخ ومحاضراته، وخطبه، ورسائله يدرك أن مفهوم «التربية الإسلامية» لديه يعني النظام التربوي الذي جاء به الإسلام لتحقيق غاياته وأهدافه، باعتماد التربية الإسلامية تصورات الإسلام، وحقائقه ومفاهيمه نحو الألوهية، والإنسان، والكون، والحياة المبثوثة في ثنايا القرآن والسنة في تحديد إجابات الأسئلة الهامة التالية: لماذا نعلِّم؟ مَنْ نعلِّم؟ ماذا نعلِّم؟ كيف نعلِّم؟ أين نعلّم؟ متى نعلّم؟، وبذا يكون التعليم في هذا النظام التربوي مرتبطاً بطبيعة الأمة الإسلامية الخاصّة، باعتبارها «أمة ذات مبدأ ورسالة، ودعوة، فيجب أن يكون تعليمها خاضعاً لهذا المبدأ، والعقيدة، وهذه الرسالة والدعوة، لأن التعليم أداة لإنشاء الأجيال التي تؤمن بهذا المبدأ، وتدين بهذه العقيدة، وتحمل هذه الرسالة، وتؤدي هذه الدعوة. وكل تعليم لا يؤدي هذا الواجب، أو يغدر بذمّته، ويخون في أمانته، فليس هو التعليم الإسلامي..»[١].

ما سبق يؤكد أن «التربية الإسلامية» نظام تربوي متميز عن النظم التربوية الأخرى؛ الدينية المنحرفة، أو العلمانية، أو الجاهلية، يقول الشيخ: «هذه مهمة النُّبوَّة، ودورها في إنقاذ البشرية المشرفة على الغرق، وهذه طبيعة عمل الأنبياء والرسل، وامتيازه عن سائر أصناف التعليم والتربية، والترويح والتسلية»[٢].

---

(١) أبو الحسن الندوي- التربية الإسلامية الحرة - مرجع سابق. ص٧.

(٢) أبو الحسن الندوي- السيرة النبوية (صيدا-م العصرية للطباعة والنشر -١٣٩٩/١٩٧٩) ص ٥٣٤ .

رابعاً- مصادر التربية الإسلامية:

تفيد كتابات الشيخ ومحاضراته وخطبه ورسائله، أن مصادر التربية الإسلامية لديه مرتبطة بمصادر التشريع الإسلامي- بالقرآن الكريم والسنة النبوية-، وبمقاصده، وقواعده، ومبادئه العامة، وبسيرة رسول الله ﷺ، وأصحابه، حيث يقول في إحدى محاضراته: «والأمر الثاني الذي يجب أن نضعه في الاعتبار، هو أن نظلّ على اتصال دائم بمنبع الهداية والإرشاد.. الكتاب والسنّة، وأسوة الرسول- عليه السلام- وأصحابه البررة الكرام، وأتباعهم العظام..» [1] لإيمانه أن العناصر التي كونّت المجتمع الإسلامي الجديد، ونشأت منها الأمة الجديدة إنما هي:

١- القرآن الكريم.

٢- شخصية النبيّ ﷺ، وحياته وسيرته وأخلاقه.

٣- تعليمات النبيّ- عليه الصلاة والسلام- وإرشاداته، وتوجيهاته، وأعماله التي يُسَمَّى مجموعها بالسنة، ويحتوي عليه الحديث الشريف [2].

ونشير إلى كل من مصادر التربية الإسلامية - باختصار- فيما يلي:

١- القرآن الكريم:

مما نستدل به على أن القرآن من مصادر التربية الإسلامية قول الشيخ: «ويعجبني في ذلك ما قاله شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم المعروف بولي الله الدهلوي والمحقِّق أن الغاية الأساسية من نزول القرآن هي تهذيب النفوس البشرية، والقضاء على العقائد الباطلة، والأعمال الفاسدة..» [3] ومما نستدل

---

(١) أبو الحسن الندوي- الطريق إلى السعادة والقيادة للدول والمجتمعات الإسلامية الحرة ط١ - بيروت - مؤسسة الرسالة ١٤٠٢/١٩٨٢) ص١٩١

(٢) أبو الحسن الندوي - دور الحديث في تكوين المناخ الإسلامي وصيانته (الهند- م ندوة العلماء، ١٤٠١). ص٨ .

(٣) أبو الحسن الندوي - الصراع بين الإيمان والمادية «تأملات في سورة الكهف» ط١ الكويت - دار القلم - ١٣٩٠ / ١٩٧١). ص ٤٢.

به قوله: «لم يزل صاحب هذه التأملات تلميذاً متواضعاً من تلاميذ مدرسة القرآن الإيمانية، والعلمية، والدعوية الإصلاحية، يدين لهذا الكتاب العظيم، في ثقافته وتدبره، وكتاباته وبحوثه ومؤلفاته، وفي خطبه الشعبية، ومحاضراته العلمية، ما لايدين لأي كتاب، أو دراسة علمية، أو مدرسة فكرية، أو أدب من آداب اللغات والثقافات يشهد بذلك من اطلع على ما وفق الله إليه كاتب هذه السطور من كتابات وخطابات» (١) ولذا كان يملي على تلامذته- عندما عيّن معلماً للتفسير في ندوة العلماء - مقالات تمهيدية تهيئ العقول والأذهان، لدراسة القرآن العميقة، والإيمان بإعجازه وخلوده، وتُيسِّر طرق الانتفاع والنفع به في مجالات الدعوة والعلم والبحث..» (٢). وكان يربيِّهم بالقرآن على أن من موانع الاستفادة منه: «١- الكبر.. ٢- المجادلة.. ٣- الكفر بالآخرة، وعبادة المادة.» (٣).

وأن مؤيدات الاستفادة من القرآن الكريم «١- الرغبة والطلب.. ٢- الاستماع والاتباع.. ٣- الخشية والرهبة..٤- الإيمان بالغيب.. ٥- التدبر.. ٦- المجاهدة..٧- التأدب والتعظيم..» (٤).

٢- السنة النبوية:

مما نستدل به على أن السنة النبوية، والحديث الشريف من مصادر التربية الإسلامية تقرير الشيخ أن لها دوراً كبيراً في حياة المسلمين، وتكوين الجوّ الدينيّ، يقول: «واقع حياة النبي -ﷺ- المباركة، وإرشاداته، وتعاليمه، تخلق ذلك الجوَّ الذي تخضر فيه شجرة الدّين، وتورق وتثمر. إن الدّين ليس مجموعة من الضوابط الخُلُقية الجافّة، إنه لا يبقى حيّاً بدون العواطف،

(١) أبو الحسن الندوي- تأملات في القرآن الكريم- ط١ (دمشق، دار القلم-١٤١١/١٩٩١) ص ٥-٦.
(٢) المرجع السابق. ص ٦ .
(٣) أبو الحسن الندوي- المدخل إلى الدراسات القرآنية-ط١ (القاهرة- دار الصحوة ١٤٠٦/١٩٨٦) ص١٢٩-١٣٥ .
(٤) المرجع السابق. ص١٣٧-١٤٨.

والوقائع، والأمثلة العملية، وخير مجموعة موثوقة بها لهذه العواطف والوقائع والأمثلة العملية هي مجموعة الحديث النبوي التي أصبحت من خصائص الأمة الإسلامية..» [١] ويرى أنه «بفضل هذا الثروة الحديثية، استطاع المؤمنون الحاذقون في مختلف العصور، والبقاع، أن يؤلفوا للمسلمين كتباً تكون دستوراً كاملاً لحياتهم، حتى إذا أراد المسلم، مهما كانت مهنته وطبقته، ألا يخطو خطوة، ولا يبت في أمر، ولا يمارس نشاطه إلاّ في ضوء الهدى النبويّ العامّ أمكن ذلك..» [٢] ومما يذكره الشيخ، ويفيد اعتبار السنة والحديث من مصادر التربية الإسلامية ما يكشف عن مكانتها وأنها بمثابة الإطار المرجعي في حياة المسلمين، يقول: « .. إن الحديث ميزان عادل لوزن حياة المسلمين وواقعهم، والحكم عليه في كلّ عصر، وإن الحديث وسيلة قوية للحسبة على المجتمع الإسلامي، ومدرسة دائمة يتخرج فيها المصلحون، والمجددون» [٣]. وتجعل «المسلم المتخرج في هذه المدرسة النبوية التربوية مثلاً كاملاً، وأسوة مرموقة في السموّ الخلقي، والسلوك الإنساني، مقتبساً في كلّ ذلك عن مشكاة النبوّة، والتعليمات التربويّة..» [٤]، ولذا يلفت نظر المسلمين إلى أن «حاجة هذا العصر أشد إلى الاحتفاظ بالحديث والسنّة من العصور الماضية» [٥] لأنها هي التي تقف في وجه منكري الحديث والسنة، ووجوب العمل بها، من دعاة تقليد الحضارة الغربية، وتحول دون «تحقيق أغراضهم وهدفهم لنقل الجيل الإسلامي المعاصر من حضارة إلى حضارة، ومن منهج الحياة القائمة على التعاليم الإسلامية والآداب النبويّة السّنّية، وأُسوة الرسول- ﷺ- التي حثَّ

---

(١) أبو الحسن الندوي - دور الحديث في تكوين المناخ الإسلامي وصيانته- مرجع سابق ص١٧.
(٢) النبي الخاتم (الهند - المجمع الإسلامي العلمي- ١٣٩٤/١٩٧٤). ص١٥.
(٣) المدخل إلى الحديث - مرجع سابق، ص٦٨.
(٤) أبو الحسن الندوي - المدخل إلى الحديث- مرجع سابق. ص٢٨.
(٥) المرجع السابق. ص٦٨.

عليها القرآن، ودعا إليه بصراحة..»[١] كما نجده يؤكد على أن الدعوة إلى التشكيك في حُجِّية الحديث، وإنكار السنة، وزحزحة الثقة بها مؤامرة على الإسلام، لأنها بذلك تجعل الأمة الإسلامية «محرومة الإرث، محذوقة الصدر، مقطوعة الأصل، حائرة تائهة..» [٢].

٣- السيرة النبوية:

أمّا السيرة النبويّة فهي - أيضاً- من مصادر التربية الإسلامية، إضافة إلى السنة النبوية، والحديث الشريف، ونجد الشيخ يجمع بينهما في كثير من كتاباته، ومحاضراته، منها قوله:« ... ولمّا انقضت هذه الصحبة الكريمة، ولحق الرسول- ﷺ- بالرفيق الأعلى، كان الحديث الشريف، والسيرة العطرة يملآن هذا الفراغ..» [٣] ولأهمية السيرة النبوية في حياة المسلمين وتربيتهم، كان كتاب الشيخ فيها، أكبر كتاب أعده، وقال فيه: « ... وحاولت أن يجمع الكتاب بين الجانب العلمي، وبين الجانب التربوي البلاغي، لا يطغى أحدهما على الآخر، وأن يشتمل على أكبر مقدار من القطع النابضة، الدافقة بالحيوية والتأثير، الآسرة للقلوب والنفوس..» [٤] ويذكر الشيخ ما يفيد أنه كان للسيرة النبوية الدور الكبير في تربيته وتنشئته يقول: « .. السيرة النبوية - على صاحبها الصلاة والسلام - المدرسة الأولى التي تعلّم فيها مؤلف هذا الكتاب، وقد دخلها في سنّ مبكرة، لا يدخل فيها الأطفال في عامة الأحوال، والفضل في ذلك يرجع إلى الجوّ الذي كان يسود بيته وأسرته..» [٥]. وقد وجدها- بعد

(١) المرجع السابق. ص٦٩.

(٢) المرجع السابق. ص٧٣.

(٣) العقيدة والعبادة والسلوك في ضوء الكتاب والسنّة، والسيرة النبوية ط٢ (الكويت، دار القلم ١٤٠٢/١٩٨٣). ص١٣٦ .

(٤) السيرة النبوية- مرجع سابق. ص١٥-١٦.

(٥) السيرة النبوية ص٣٠.

دراساته التاريخية أنها« .. تتميز من بين سير أفراد البشرية، وفيهم الأنبياء، وغير الأنبياء، بدقتها وشمولها، واستيعابها لدقائق الحياة، وتفاصيلها، وملامحها، وقسماتها، وذلك بفضل علم الحديث الذي لا يوجد له نظير لا في تاريخ الأنبياء، ولا في تاريخ العظماء..»[(١)].

٤- العلم:

يرى الشيخ أن «العلم» من مصادر التربية الإسلامية- أيضاً- لأن «هذا الدين الإسلامي نابع من العلم.. لايمت إلى الجهل بصلة ما، إنه ليس وليد الجهل، أو القوة الحربية إنه وليد المعرفة والهداية الإلهية، والوحي السماوي، والعلم الربّاني..» [(٢)].

ويؤكد ذلك أن الوحي لم يبتدئ فيه.. بكلمة (اعبد) ولا كلمة (صَلِّ)، أو ما إليهما من الكلمات المتجانسة، وإنما يبتدئ بكلمة (اقرأ) يخاطب المنزل عليه بالقراءة، ولا عهد له بها، لكي يقرر ويؤكد له أن الأمة التي يكلّف بهدايتها، وتربيتها وتعليمها، ليست ولوعاً بالعلم فحسب، بل ستكون معلّمة العالم، مولعة بنشره، وتصعيده، وترقيته، والعهد الذي تقوم فيه بوظيفة الهداية والتبليغ، والتربية والتعليم، ليس عهد الأمية والوحشة والجهل.. إنما هو عهد العلم والعقل والتفكر، وعهد النظر والحكمة، وعهد البناء والتعمير، وعهد حبّ الإنسانية، وعهد الرقي والتقدم..» [(٣)] ويعد الشيخ أن ارتباط العلم بالدّين، أحد المعطيات العشر، والمنح الأساسية التي ظهرت فيها تأثيرات الإسلام في حياة الأمم والشعوب والحضارة [(٤)] لأن العلم من مصادر التربية الإسلامية، ولا

(١) السيرة النبوية، مرجع سابق. ص١٢.

(٢) الطريق إلى السعادة والقيادة، مرجع سابق. ص٩١.

(٣) دور الجامعات الإسلامية المطلوب في تربية العلماء، وتكوين الدعاة وحماية الأقطار الإسلامية من التناقض والمجابهة- ط١ (الهند- المجمع الإسلامي العلمي- ١٤٠٧/١٩٨٧) ص٢٠-٢١.

(٤) الإسلام، أثره في الحضارة وفضله على الإنسانية (الهند- المجمع الإسلامي العلمي - ١٤٠٥/١٩٨٥). ص ٧٩.

يكون كذلك إلاّ إذا كان مرتبطاً بعقيدة الأمة، ورسالتها ومثلها، وقيمها، أو غير مخالف لها، أو متناقض معها، على علاته، وكأنه مُسَلَّم به؛ لا يجوز النظر فيه، أو تقويمه، حيث يقول: « يجب أن لا نتناول العلوم والآداب، والمناهج التعليمية، ونظريات التربية التي ظهرت في الغرب والشرق على أنها آخر ما وصل إليه العلم البشري.. بل نأخذها على أنها تجارب بشر عملية، يخطئ ويصيب،... ولا نأخذ العلوم والآداب واللغات على أنها أشياء، قد بلغت نهايتها، وختم عليها بختم لا يُفَضّ، بل نأخذها على أنها مواد خامة، نصنع منها ما نشاء، وفق حالتنا، وحاجتنا، ونفرغها في قالبنا، ونجردها مما اقترن بها- في غير لزوم، ولا مبرر- من عوامل الإلحاد والإفساد، والاستخفاف بالقيم الخُلُقية، ونأخذها نقية، صافية، مهذبة، منقّحة، بل نطعمها بالإيمان بالله، والنظر العميق- المؤسس على الإيمان- إلى الكون، وهكذا نجعل العلوم والدراسات كلَّها في غير تعسف، ولا إرهاق، وسيلةً للعلم، والحكمة، وسبيلاً إلى الإيمان والمعرفة..»[1] ولذا يوجّه المعلمين والمربين إلى أهمية مساعدة المتعلمين على الإفادة من العلم والبحوث والدراسات، مع مناقشتها والنظر فيها على الشكل الذي ذكرناه آنفاً، يقول الشيخ: « ... وقد أثبت علم التربية، وعلم النفس، أن الحجر على الشباب في القراءة والاطلاع، كالحجر على الأطفال القاصرين، الذين لم يبلغوا سن الرشد.. إن المنهج التربوي المتزن، السليم، هو الاطلاع على وجهات النظر، والمدارس الفكرية المختلفة، مرفقاً ذلك بتوجيه الأساتذة الراسخين في العلم والدين، مع مناقشتها، وعرضها على المحك العلمي، والديني، وتقرير الصحيح، وتزييف الزائف، وذلك مما يتفق عليه خبراء التربية، وأصحاب التجربة والاختصاص في علم النفس وعلم الاجتماع..»[2].

---

(١) التربية الإسلامية الحرة - مرجع سابق، ص٧٢-٧٣.

(٢) دور الجامعات - مرجع سابق. ص١٦.

خامساً: أهداف التربية الإسلامية:

يؤمن الشيخ بأهمية تحديد الأهداف التربوية التعليمية، ويقرر أنها يجب «.. أن يدور حولها نظامها ومناهج دراستها، ويقوم عليها جهازها العظيم، ويخضع كل شيء في هذه المؤسسة من كتب، ونظم، وأساتذة لهذه الأهداف» (١) ولذا نجد في كتابات الشيخ ومحاضراته وكتبه الكثيرة من العبارات المتعلّقة بغايات أو مقاصد، أو أهداف العملية التربوية التعليمية، أو مؤسساتها، أو مراكزها، أو مناهجها، أو أساتذتها، أو المستفيدين منها، ونحن بدراستنا لما نجد من هذا الكثير، يمكننا أن نحدد أهداف «التربية الإسلامية» عند الشيخ فيما يلي:

١-إعداد الفرد المسلم:

يرى الشيخ أن إعداد الفرد المسلم، وصياغته عَقَدياً، وعقلياً، ودينياً وعلمياً، ونفسياً، وعاطفياً، واجتماعياً وخلقياً، وجسمياً من أهداف التربية الإسلامية، والتي كان يعنى بها رسول الله -ﷺ-، وكانت أعظم مأثرة من مآثر نبوته، يقول الشيخ: «.. من الواقع المحقق أن كل نبوّة، قامت في عهدها بصياغة الإنسان صياغة جديدة، أو تربيته تربيةً فاضلة، وأعدت أفراداً منحوا هذا العالم حياة من جديد، وألبسوا الحياة لباس الهدف والمعنى.. ولكن أعزّ مأثرة تلمع على جبين الحياة الإنسانية، من بين مآثر النبوة هي المأثرة الكبرى التي قام محمد رسول الله -ﷺ-... فإن التوفيق الذي أكرمه الله به في مجال تربية الإنسان وصياغته، إنما تَفَرَّدَ به من بين الأنبياء والمرسلين، فضلاً عن المعلمين والمربين، إن المستوى الذي بدأ منه النبي - ﷺ- في بناء الإنسانية لم يبدأ به أي نبي أو مصلح، أو مربٍّ.. وكل فرد من أفراد الجيل الذي أعده

(١) التربية الإسلامية الحرة- مرجع سابق. ص٨٨-٨٩.

الرسول الكريم، كان نموذجاً رائعاً للتربية النبوية، ومفخرة وشرفاً للنوع الإنساني..».

ومن مآثر النبوة أنها صنعت رجالاً كانوا أفذاذاً من نوعهم في التاريخ، ولولا شهادات تاريخية متواترة عن هؤلاء الرجال، لما عدا ذلك خيالاً شعرياً، وقصة أسطورية، ولكنها الآن حقيقة تاريخية، وواقع معلوم لا مجال للشكِّ فيه...» (١).

ويرى الشيخ أن هدف التربية الإسلامية من إعداد الفرد المسلم، أن تتم تربيته على « .. الصفات الدقيقة السامية المثالية والقوة الروحية الداخلية، والثقة بخلود الدين، والغيرة عليه، والقدرة على التمييز الدقيق بين الجاهلية والإسلام، والإشراك والتوحيد، والسنة والبدعة، والامتياز بالاشتغال بالحديث الشريف، ومطالعة تاريخ المصلحين المجددين في عصور مختلفة..» (٢) ويذكر - أيضاً- أنه لا بدَّ من جعل:« ... وظيفة كلّ مدرسة إسلامية، أو جامعة إسلامية، أو مركز إسلامي للتعليم والثقافة أن تخرج رجالاً يقومون عن جدارة ومقدرة بالتلاوة، وبتعليم الكتاب والحكمة، وبالتزكية: الأركان الأربعة والمقاصد الأولى، التي كانت لها البعثة..» (٣)، وبذلك كلّه يكون «الفرد المسلم» هو: «المؤمن القوي، العليم، الصالح، المصلح، الذي يسخّر القوى الكونية والمادية، ويمتلك أعظم مقدار من الأسباب، والوسائل، ويوسع فتوحه ومغامراته، وهو في كل ذلك، وفي أوج قوته وسلطته، وسيادته، وتسخيره للقوى والأسباب، مؤمن بربه، خاضع له، مؤمن بالآخرة، ساع لها، مقر بضعفه، رحيم بالإنسانية، وبالأمم الضعيفة، حامٍ للحق، يستخدم كل وقته، وجهوده، ومواهبه، وجميع وسائله، وذخائره لخدمة الإنسانية، وتكوين المجتمع الصالح، وإعلاء كلمة الله،

(١) صورتان متضادتان لنتائج جهود الرسول الأعظم، بين السنة والشيعة- (١٤٠٥/١٩٨٥). ص٢٦-٢٨.
(٢) دور الجامعات- مرجع سابق. ص٢٧-٢٨ .
(٣) الطريق إلى السعادة والقيادة.. مرجع سابق. ص٢١٧-٢١٨.

وإخـراج النـاس من الظلمــات إلى النـور، ومن عــبــادة النـاس والمادة على عبادة الله..» [1].

٢- إعداد المجتمع المسلم :

يرى الشيخ أن إعداد المجتمع المسلم- أو المحافظة على المجتمع المسلم- من أهدافه التربية الإسلامية، التي يحتاج إليها المسلمون اليوم. بل العالم جميعه حيث يعيش جاهلية من جديد، ويذكر أن رسول الله ﷺ قد حققَّ هذا الهدف السامي، الذي كان له الأثر القوي في حياة المسلمين، وزرع الأخوّة والمحبة بينهم، وإقامة التكافل والتضامن بينهم، وتحقيق العدل والمساواة فيهم، مما جعل « ... ما يمتاز به المجتمع الإسلامي الأول، المثالي، الصحابة- رضي الله عنهم- بفضل التربية النبوية، الدقيقة، الشاملة، بالجمع بين الدين المتين، الذي لا مغمز فيه، والإيمان القوي الذي لا يعتريه وهن، وبين الوعي الناضج الكامل، فكانوا لا يخدعون ولا ينخدعون، ولا يسيغون شيئاً ينافي الإسلام، وينافي العقل، وينبذون الذي يضرهم، ويجني عليهم، أو يوقعهم في خطر أو تهلكة.. كان المجتمع الإسلامي مجتمعاً نموذجياً، مثالياً في كل شيء»[2]. لقد أصبح المجتمع المسلم «طاقة زهر اقتلعت منه جذور الجاهلية وجراثيمها.. وأصبحت الطبقات والأجناس في المجتمع الإسلامي متعاونة، متعاضدة، لا يبغي بعضها على بعض.. كان المجتمع الإسلامي مجتمعاً رشيداً، عاقلاً، مسؤولاً عن أعماله.. وأصبح المسلمون أعواناً على الحق، أمرهم شورى بينهم، يطيعون الخليفة ما أطاع الله فيهم..» [3].

---

(١) موقف العالم الإسلامي تجاه الحضارة الغربية- (الهند- المجمع الإسلامي العلمي- ١٣٨٢/١٩٦٣). ص١٠٢.

(٢) الدعوة إلى الله، حماية المجتمع من الجاهلية، وصيانة الدين من التحريف- (الهند- دار عرفات) بدون تاريخ ص٨-٩.

(٣) العبارات مقتبسة من كتاب: «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» - ط١٣ (الكويت- دار القلم-١٤٠٢/١٩٨٢) ص١٠٩-١١١.

ويرى الشيخ أن هذا المجتمع الذي هو نتاج التربية الإسلامية- التربية النبوية المحمدية-، هو ما يحتاجه العالم في حياتنا المعاصرة- حيث عادت إليه الجاهلية من جديد، يقول: «إن الحاجة الكبرى اليوم أيها السادة! هي وجود مجتمع مثالي، نموذجي، يرضاه الله تبارك وتعالى، ويكون في صالح الإنسانية، ويكون مرآة للتعاليم الإسلامية، في العقائد أولاً، ثم في الأخلاق، والمعاملات وشعب الحياة، هذا المجتمع مفقود- لا أقول: معدوم-، وإني أعيذ نفسي أن أقول هذه الكلمة، ولكنه مجتمع مطلوب في الواقع، ومجتمع محتاج إليه..» (١) ويذكر أنا نحن المسلمين بحاجة- أيضاً« .. أن ننشئ مجتمعاً، نموذجياً، مثالياً في بلد من بلاد الإسلام.. نحن في أشد الحاجة لننشئ هذا المجتمع، وهذا لا يكون إلاّ إذا كان عن طريق المنابر في المساجد، وعن طريق التوجيهات التربوية وعن طريق الدروس الدينية» (٢).

ولتحقيق هذا لا بدَّ أن يكون من أهداف التربية الإسلامية- حالياً- الحفاظ على المجتمع الإسلامي، وإعادة إعداده من جديد، على أساس أن « ... إيمان هذه الشعوب وتمسكها بالإسلام، وتحمسها لها، هو السور القوي العالي، الذي يعتمد عليه في بناء هذه البلاد..» (٣).

٣- إعداد الأمة المسلمة:

يرى الشيخ أن من أهداف التربية الإسلامية «إعداد الأمة المسلمة» ولذا عني رسول الله- ﷺ- بتكوين الأمة الإسلامية، وذلك لتضطلع بالمسؤوليات الملقاة على كاهلها، والمأمورة بها في القرآن الكريم من أمرٍ بالمعروف، ونهي عن المنكر، والشهادة على الأمم الأخرى، يقول الشيخ:

(١) حاجة العالم إلى مجتمع إسلامي مثالي أفضل ط١ (الهند- المجمع الإسلامي العلمي- ١٤١٠/١٩٩٠). ص٦-٧.
(٢) المرجع السابق. ص١٤-١٥.
(٣) الدعوة إلى الله، مرجع سابق، ص٦.

«وقد نيطت بهذه الأمة الإسلامية، مسؤولية الوصاية على العالم، والحسبة على الأخلاق والاتجاهات، وسلوك الأفراد، والأمم، ومسؤولية القيام بالقسط والشهادة لله، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، واعتبار نفسها أمة مسؤولة يوم القيامة عن مدى قيامها بهذا الواجب..» (١) ولذا « ... كان هذا الشعور بمسؤولية البعثة، وبمسؤولية المأمورية يملأ جوانح الصحابة، رضي الله عنهم، والتابعين لهم بإحسان.. وهذا هو الشيء الذي أثَّر في مصير الإنسانية، وكانت - بالنسبة إلى الناس- تجربة جديدة في تاريخ الديانات، وفي تاريخ مصائر الأمم، وفي تاريخ الاتجاهات، أحدث تحوّلاً في التاريخ..»(٢) ويرى الشيخ أنه ينبغي أن تعنى المؤسسات التعليمية والتربوية في أقطار العالم الإسلامي، وأن تجعل من أهدافها «إعداد الأمة المسلمة» لتعود إلى مركز القيادة والسيادة، وتأخذ مكانتها ومركزها في العالم من جديد، ولتنقذ نفسها- قبل ذلك- من غوائل الحضارة الغربية، وتحدد موقفها تجاهها، المنبعث من طبيعة الأمة الإسلامية، ومركزها في العالم، وأنها.. هي صاحبة الرسالة الدينية الأخيرة، وهذه الرسالة هي التي تسيطر- ويجب أن تسيطر على جميع مواقفها، وتصرفاتها. مركزها مركز القيادة، والتوجيه، والحسبة على العالم، والقرآن يعلن بقوة وصراحة ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس** ﴾ الآية- ويقول: ﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطا** ﴾ الآية: ويقول ﴿ **ليكون الرسول عليكم شهيداً** ﴾ الآية: فلا يجوز أن يكون مكان هذه الأمة في مؤخرة الركب، وفي صف التلاميذ، والحاشية، وأن تعيش على هامش الأمم، وترضى بالتقليد والتطبيق.. وهي أمة ذات هدف معيّن في الحياة، ورسالة كاملة في العالم، وحضارتها وثقافتها، وكفاحها، وإنتاجها، وكلّ ما يتصل بها، من حركة، ونشاط، خاضع لعقيدتها، وغايتها ورسالتها..» (٣).

(١) الإسلام، أثره في الحضارات، مرجع سابق، ص١٠٢.
(٢) المرجع السابق. ص١٠٠.
(٣) موقف العالم الإسلامي، مرجع سابق ص١٠٠-١٠٢.

يرى الشيخ أن مما يتعلق بهدف «إعداد الأمة المسلمة» ما يفيد أهمية تربية أفرادها على قبول زعامة العالم العربي، باعتباره مهد الإسلام، ومشرق نوره، ومعقل الإنسانية، وموضع القيادة العالمية.. وأن الإسلام هو قومية العالم العربي، ومحمد- عليه الصلاة والسلام- هو روحه وإمامه، وقائده، والإيمان هو قوة العالم العربي، التي حارب بها العالم البشري كله فانتصر عليه، وهو قوته وسلاحه اليوم، كما كان بالأمس.. وأن تضحية شباب العرب قنطرة إلى سعادة البشرية... ولا بدّ من العناية بالفروسية، والحياة العسكرية، ومحاربة التبذير، والفرق الهائل بين الغني والصعلوك.. ووجوب التخلص من أنواع الأثرة.. وبذل الجهد لإيجاد الوعي في الأمة.. والعمل على استقلال البلاد العربية في تجارتها وماليتها..» [1].

٤- **إقامة الحضارة الإسلامية:**

تجد في كتابات الشيخ ومحاضراته ما يفيد أن من أهداف «التربية الإسلامية» إقامة «الحضارة الإسلامية» ولذا ينبغي التعريف بالحضارة الإسلامية، وأهميتها والحاجة إليها، ومدى تناقضها مع الحضارة الغربية، يقول: «... الدِّين الذي يشمل الحياة البشرية بشعبها ومجالاتها، والذي يسبك الحياة كلّها- عن طريق العقائد، والحقائق التي يدعو إليها- في قالب خاصّ، لا يمكن أن يعيش بغير حضارة خاصّة به، وجو ملائم له، مساعد على تحقيق أهدافه، مثله، وقيمه.. لذلك يجب على القراء - إضافة إلى العقائد والعبادات، والسنن والمستحبات، والسيرة والعادات الإسلامية.. أن يشكلوا في بيوتهم، وفي أجوائهم الحضارة الإسلامية، وطرق الحياة الإسلامية، ويبتعدوا فيها عن خصائص الحضارة الغربية، وشعائرها، كالاختلاط الحر، والسفور الوقح.. إن تجريد أمة عن حضارتها.. مرادف لعزلها عن الحياة.. وفصل

(١) أكثر العبارات اقتبست من كتاب: «ماذا خسر العالم..» مرجع سابق. ص٢٩٧-٣١٢.

لحاضرها عن ماضيها..»[١] ويؤكد الشيخ أن الدّين بدون مدنيّة وحضارة لا يكون له قدرة على التأثير في الأمم والشعوب، يقول: «إن الدّين إذا جرد عن المدنية.. فكان ديناً ولا حضارة، كان ديناً ولا اجتماع، كان ديناً ولا حياة، فهو كطائر مقصوص الجناح، منتوف الريش، لا يستطيع أن يطير، ويحلّق في الأجواء.. لذا ظهر الإسلام، فأنتج حضارة كاملة بحذافيرها.. قامت على أساس العقيدة، وعلى أساس التربية الإلهية، والنصوص القرآنية السماوية، وعلى أساس السيرة النبوية، وأسوة الصحابة- رضي الله عنهم- فكانت أزهى حضارة، وأعقل حضارة، وأعلم حضارة، وأفضل حضارة جربها الإنسان..»[٢].

٥- القضاء على الجاهلية والوثنية العالمية:

تفيد كتابات الشيخ ومحاضراته وخطبه أنّ «القضاء على الجاهلية والوثنية العالمية» من أهداف التربية الإسلامية عند جميع الرسل والأنبياء، يقول: «إن الأنبياء عليهم السلام كان أول دعوتهم وأكبر هدفهم في كلٍّ زمان، وفي كل بيئة، هو تصحيح العقيدة في الله تعالى.. وكانت حملتهم مركزة موجهة إلى الوثنية القائمة في عصورهم.. وكل من له صلة بالقرآن- وهو الكتاب المهيمن على الكتب السابقة- يعرف اضطراراً وبداهة أن القضاء على هذه الوثنية، والإنكار عليها، ومحاربتها، وإنقاذ الناس من براثنها، كان هدف النبوة الأساسي، ومقصد بعثة الأنبياء، وأساس دعوتهم، ومنتهى أعمالهم، وغاية جهادهم، وقطب الرحى في حياتهم، ودعوتهم حولها يدندنون، ومنها يصدرون، وإليها يرجعون، ومنها يبدؤون، وإليها ينتهون»[٣] ولا شكَّ أن هذا يقتضينا أن نجعل هذا الهدف الأساسي، من أهداف التربية الإسلامية في

---

(١) العقيدة والعبادة والسلوك.. مرجع سابق. ص١٧١-١٧٤.

(٢) أهمية الحضارة في تاريخ الديانات، وحياة أصحابها (مكة - المكتبة الإمدادية /١٣٩٩ ١٩٧٩) ص ٩-١١ .

(٣) العقيدة والعبادة، والسلوك.. مرجع سابق. ص٧٣-٧٤.

جميع مؤسساتنا ومراكزنا التعليمية التربوية، ولذا ينبغي بذل الجهد للحفاظ دائماً على عقيدة التوحيد النقية، الواضحة، التي تعد المنحة الأولى التي مَنَحَها رسول الله ﷺ- للإنسانية [١] يقول في إحدى محاضراته: «.. ثم يجب أن يكون في الاعتبار لدى إقامة كلّ مدرسة أو جامعة، أو اتخاذ منهج تعليمي، لتعليم هذه الأمة، أن يكون الهدف من كل ذلك ترسيخ الإيمان بالعقائد والحقائق التي آمنت بها من ذي قبل..» [٢].

ويقول: «يجب أن يكون هدف الجامعة أن تعمل على إزالة الاضطراب، والقلق الذي يسود جميع الدول الإسلامية، منذ مائة عام تقريباً، تفكَّكَتْ عرى عقائدنا منذ بدأ الغزو الفكري والحضاري الغربي، استنفدت مقاومته معظم القوى العقلية والفكرية والعلمية لدى الدعاة» [٣] ولإيمان الشيخ الشديد بوجوب اتخاذ كل ما أمكن من أساليب ووسائل لتحقيق القضاء على الجاهلية، والوثنية في هذا القرن الخامس عشر، في الأقطار الإسلامية، يوجه أنظارالمسؤولين إلى عدة نقاط منها:

١- تحريك الإيمان في نفوس الشعوب والجماهير المسلمة وإثارة الشعور الديني فيها.

٢-صيانة الحقائق الدينية والمفاهيم الإسلامية من التحريف، وإخضاعها للتصورات العصرية الغربية، أو المصطلحات السياسية والاقتصادية.

٣- تقوية الصلة الروحية والعاطفية بالنبي -ﷺ-، والحب العميق والولوع بدراسة سيرته.

---

(١) السيرة النبوية- مرجع سابق، ص٥٤٢.

(٢) الطريق إلى السعادة والقيادة، مرجع سابق. ص١٣٩.

(٣) دور الجامعات الإسلامية، مرجع سابق. ص ٣٨ .

٤-إعادة الثقة في نفوس الطبقة المثقفة.. بصلاحية الإسلام، وقدرته لا على مسايرة العصر، وتطوراته، وتحقيق مصالحه، بل على قيادة الركب البشري إلى الغاية المثلى..

٥-قلب نظام التربية والتعليم المستورد من الغرب، المنتشر في العالم الإسلامي رأساً على عقب، وصوغه صوغاً إسلامياً، جديداً، يتفق مع شخصية الشعوب المسلمة، وعقيدتها، ورسالتها، وقامتها، وقيمها.

٦-القيام بحركة علمية قوية، دولية، تعرف الطبقة المثقفة الجديدة بذخائر الإسلام العلمية، وتراثه المجيد، وتنفخ في العلوم الإسلامية روحاً من جديد.

٧-العمل على التخطيط المدني، المستقل، البعيد عن تقليد الغرب الأعمى، والارتجالية، ومركب النقص، ولا بدَّ من تمثيل الحضارة الإسلامية في عواصمها، وفي دوائرها، وفي بيوتاتها»[1].

٦- تعليم العبادات، ومقاصدها، وحكمها:

يقرر الشيخ أن «العبادات تلي العقائد في الأهمية.. وهي الغاية الأولى من خلق الإنسان.. فالعبادات هي حجر الزاوية في نظام الدين كلّه..»[2] ولذا فمن الطبيعي أن يعد «تعليم العبادات ومقاصدها، وحكمها» من أهداف التربية الإسلامية، ولاهتمام الشيخ بهذا الهدف نجده قد أَلَّفَ كتاباً عن العبادات، تحدَّثَ فيه: «.. عن وصفها السماوي، وحقيقتها الشرعية، وتشريعها في الإسلام، ومكانتها في الدين، وفي الحياة الفردية والاجتماعية وعن مقاصدها، وأسراراها، كما قررها الكتاب والسنّة، وفهمها المسلمون المشهود لهم بالخير..»[3] ونجده يوصي الدارسين والقارئين في أحد كتبه بقوله:

(١) القرن الخامس عشر الهجري الجديد في ضوء التاريخ والواقع - (الهند المجتمع الإسلامي - ١٤٠١/١٩٨١) ص٧١- ٨٠ .

(٢) العقيدة والعبادة، والسلوك- مرجع سابق. ص٨١-٨٣.

(٣) الأركان الأربعة (الصلاة، الزكاة، الصوم، الحج) -ط - (بيروت - دار الفتح -١٣٨٧/١٩٦٧).

«لنَعْتَنِ بالعبادات المشروعة، وأركان الإسلام العملية الأربعة، ظاهراً، وباطناً، وقالباً، وروحاً، ونترسم في كل ذلك -بقدر الإمكان- آثار خطى رسول الله-ﷺ- ونتتبع التتبع الدقيق الأمين، هديه وأسوته وسننه، إذ هو النموذج الأعلى، والمثل الكامل فيها..» [1] ويؤكد هذه الوصية في رسالة له ويبيّن أن «من مزايا الأنبياء - عليهم السلام- ومن كان على قدمهم، أنهم يأخذون بالعزيمة في الدّين، ولا يأخذون بالرخصة- إلاّ بياناً لحكم شرعي، وشكراً لنعمة الله، ورفعاً للحرج عن الأمة ولا يعفون أنفسهم، ولا يتساهلون في العبادات، لأن اتباع الناس للدّين، وعملهم به، بمقدار تصلب هؤلاء السادة في الدين، وتمسكهم به، فإذا اهتمَّ هؤلاء بالنوافل، اهتم الناس بالفرائض، وإذا اكتفى القادة بالفرائض، استرسل الناس إلى تركها، والاستهانة بحقها..» [2] ولا شكَّ أن الشيخ بهذا يوجّه المسؤولين عن العملية التعليمية التربوية بما ينبغي أن ينتبهوا له في أثناء تحقيقهم لهدف «تعليم العبادات، ومقاصدها، وحكمها».

٧- تهذيب الأخلاق وتزكية النفوس:

موضوع: «تهذيب الأخلاق، وتزكية النفوس» يأخذ مساحة كبيرة في كتابات الشيخ ومحاضراته وخطبه، وتوصياته، وهذا يفيد أنه يعدّ ذلك من أهداف التربية الإسلامية، وإنّا لنستدل على ذلك - أيضاً - من خلال تأكيده أنها من مقاصد البعثة النبوية يقول: «ومهمة تهذيب الأخلاق، وتزكية النفوس- تشغل مكاناً كبيراً في دائرة الدعوة النبوية، ومقاصد البعثة المحمدية.. وقد ذكر النبيُّ - ﷺ- هذا الغرض العظيم، الذي كانت له البعثة، بكلمة الحصر،

---

(١) العقيدة والعبادة، والسلوك-مرجع سابق. ص١٧٧-١٧٨.

(٢) الإسلام والحكم ط١ (القاهرة- المختار الإسلامي-١٣٩٨/١٩٧٨). ص٢٤.

فقال: «**إنمابعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»، وقد كان خير مثال له، وأفضل أسوة فيه..»[١].

يقرر الشيخ أن «..التعليم ليس غاية في نفسه، بل هو وسيلة... وأنها إذا تجردت عن عناصر الحصانة الخلقية والتوجيه الصالح، وعن العقيدة السليمة، وعن الوازع الخلقي والديني، فإن ضررها أكبر من نفعها..»[٢]، ولذا يوجّه المسؤولين عن العملية التربوية التعليمية إلى ضرورة أن يجعلوا «من وظيفة كل مدرسة إسلامية أو جامعة إسلامية، أو مركز إسلامي للتعليم والثقافة، أن يخرجوا رجالاً يقومون عن جدارة ومقدرة بالتلاوة، وبتعليم الكتاب والحكمة، وبالتزكية..» [٣].

ونجد الشيخ يكتب كتاباً يعنى فيه بتبيان أهمية تهذيب الأخلاق، وتزكية النفوس، ومعناها، ويتحدث فيه عن «المدرسة الربانية لتهذيب الأخلاق، وتزكية النفوس»، وأنها «ترياق لسموم غوائل النفس ومكايد الشيطان، وأمراض القلوب، لا يعدله ترياق آخر في القوة والتأثير..» [٤]. وما ذلك إلاّ ليقدم العون والمساعدة لتحقيق هذا الهدف السامي.

٨- التربية على الجهاد في سبيل الله:

يرى الشيخ أن تعريف أبناء المسلمين وناشئتهم على مفهوم الجهاد في سبيل الله، ومكانته ومراتبه، وتربيتهم عليه من أهداف التربية الإسلامية، يقول: «... لم تكن دعوته -ﷺ- مقصورة على معرفة الله، المعرفة الصحيحة، الكاملة، ولا على العقائد الصحيحة الثابتة، ولا على العبادات القلبية،

---

(١) العقيدة. والعبادة، والسلوك، مرجع سابق. ص١٣٤-١٣٥.

(٢) التربية الإسلامية الحرة، مرجع سابق ص٨٠.

(٣) الطريق إلى السعادة والقيادة، مرجع سابق. ص٢١٧.

(٤) العقيدة، والعبادة، والسلوك، مرجع سابق. ص١٥٣.

والبدنية، والمالية المقربة إلى الله، الجالبة لحبِّه ورضاه بل مع ذلك كله، كان الجهاد من خصائص دينه، وأركان دعوته، وأحب الأعمال إليه... والجهاد أربع مراتب؛ جهاد النفس وجهاد الشيطان، وجهاد الكفار، وجهاد المنافقين..» (١).

ونجد الشيخ يوجه المسؤولين عن التربية والتعليم إلى الخسارة الفادحة التي مني بها المسلون والعرب، وإلى وجوب الاهتمام بالفروسية والحياة العسكرية يقول: «من الحقائق المؤلمة أن الشعوب العربية قد فقدت كثيراً من خصائصها العسكرية، ورزئت في فروسيتها التي كانت معروفة بها في العالم، فكانت رزيئة كبيرة، وخسارة فادحة، وكانت سبباً من أسباب ضعفها، وعجزها في ميدان الجهاد، فقد اضمحلت الروح العسكرية، وضعفت الأجسام، ونشأ الناس على التنعم.. فالمهم لرجال التعليم والتربية وقادة الشعوب العربية، أن يربوا الشبيبة العربية على الفروسية والحياة العسكرية، وعلى البساطة في المعيشة، وخشونة العيش، والجلادة، وتحمل المشاق والمتاعب، والصبر على المكروه..» (٢) ويذكر الشيخ ما يفيد أيضاً ضرورة أن يكون من أهداف التربية الإسلامية، تربية أبناء المسلمين وعامتهم على الجهاد في سبيل الله، وذلك لتقريره أن شروط الزعامة الإسلامية تجمع في كلمتين (الجهاد) و (الاجتهاد) (٣).

سادساً: من وظائف التربية الإسلامية :

١- الربط بين الماضي والحاضر، وبين العلم والعقيدة:

يرى الشيخ أن وظائف التعليم قد تغيرت، فلم يعد ينظر إلى أنظمته، ومناهجه، أنها « .. آلات صماء، لتعليم القراءة والكتابة، ونقل المعلومات، مبعثرة لا تربط بينها وحدة، ولا تجمع بينها غاية، ولا يسيطر عليها إيمان وعقيدة، ولا

(١) العقيدة والعبادة، والسلوك، مرجع سابق، ص١٢٥-١٢٦.
(٢) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، مرجع سابق. ص ٣٠٥.
(٣) المرجع السابق. ص١٤٤.

تصل الجيل الحاضر بالماضي، والأبناء بالآباء، بل بالعكس من ذلك، أصبح ينظر إلى النظام التعليمي، من حيث هو: قنطرة تصل بين الحاضر والماضي، والخَلَف بالسلف، والمعلومات بالعقائد، وتدعيم القدرة الموروثة بالعلم والمنطق، والدليل والحجة، ويعتبر هذا النظام التعليمي الذي يتفق عليه أكبر جزء من ثروته، وأعظم قسط من مجهوده، وأوفر نصيب من ذكائه، عملية بناء وتكوين، لا عملية هدم وتوهين، ووسيلة ثقة بين الأفراد، ورباطاً بين الجماعات،لا وسيلة ثورة في الأفكار، واضطراب في النفوس، وتفكك في العرى والقوى» [١]، وليؤكد صحة هذه الوظيفة نجده يقرر أنها محل اتفاق لدى قادة التربية والتعليم في الغرب [٢]، وفي الدول- بشكل عام- ومنها إسرائيل التي تؤكد عليها، وتحققها من خلال عنايتها بالتربية الدينية، والتقاليد اليهودية [٣]، وبذا يؤكد :«أن البلد الإسلامي العربي، أحق بأن يستخدم العلم لترسيخ العقيدة، وتثبيت دعائم الحياة» [٤].

٢- الربط بين الأمة، وعناصر ثقافتها:

يؤمن الشيخ أن وظائف التربية الإسلامية الربط بين الأمة الإسلامية، وعناصر ثقافتها الإسلامية، من عقائد وعبادات، وأخلاق، وتصورات، وآداب، وأنماط حياة، وأساليب تفكير.. إلخ، يقول: « .. وظيفة التعليم الأولى، أن يربط بين الأمة، وبين هذه الأشياء، وينقل هذا التراث إلى الأجيال القادمة، والنشء الجديد، ذلك التراث الذي أفرغَ عليه سلفها خير قواهم ومواهبهم.. مسؤولية التعليم أن ينقل هذا التراث إلى الأجيال المتلاحقة، ولا يقتصر على النقل والتصدير فحسب، بل يعمقه في القلوب والأذهان، ويجعل القلوب تسيغه،

(١) نحو تربية إسلامية حرة. مرجع سابق ص٧٤.
(٢) المرجع السابق. ص٧٥-٧٦.
(٣) المرجع السابق. ص٧٦-٧٧.
(٤) المرجع السابق. ص٧٩.

وتتذوقه، ولا يعود نابياً لديها، أو أجنبياً عنها، بل يصير مألوفاً لها، ومحبوباً عندها، ويصير طبيعة لها» [١] ويؤكد الشيخ أن هذه الوظيفة للتربية عامة، ويدلل على ذلك بأقوال وآراء علماء التربية، منهم (السير برسي نن) الذي يقول: «... إن التربية هي الجهد الذي يقوم به آباء شعب ومربوه، لإنشاء الأجيال القادمة على أساس نظرية الحياة التي يؤمنون بها، إن وظيفة التربية أن تمنح للقوى الروحية فرصة التاثير في التلميذ، تلك القوى الروحية التي تتصل بنظرية الحياة، وتربي التلميذ تربية تمكن من الاحتفاظ بحياة الشعب وتمديدها إلى الأمام»[٢] ومن الأقوال التي يستدل بها على هذه الوظيفة للتربية قول (جون ديوي): «إن الأمة إنما تعيش بالتجديد، وإن عمل التجديد يقوم على تعليم الصغار، إن هذه الأمة بطرق متنوعة، تكوّن من الأفراد الأمين ورثة صالحين لوسائلها، ونظرية حياتها، وتصوغهم في قوالب عقائدها، ومناهج حياتها» [٣] ولزيادة تأكيد الشيخ على أهمية هذه الوظيفة يقرر أنها محل اتفاق المربين الغربيين والشرقيين، يقول: «.. وعلى هذا الأساس يتفق المعسكران الشرقي والغربي.. أن التربية ليست إلا أداة، مؤثرة، وَفيَّةً، لترسيخ العقيدة، ونظر الأمة إلى الحياة، وللكون، وتعميق جذورها في قلوب الناشئة، ونفوسها، ونقل التراث العقلي، والعقائدي، والاجتماعي، إلى الأجيال القادمة، وإقناعها بضرورة الاحتفاظ بها والمثابرة عليها، والجهاد في سبيلها» [٤].

٣- تأمين المناخ الإسلامي في المجتمع المسلم:

يرى الشيخ أن من وظائف التربية الإسلامية أن تعمل على تأمين مناخ إسلامي، في المجتمع المسلم، لأن الإسلام دين حياة، وحيوية، ونشاط، وفاعلية،

---

(١) دور الجامعات، مرجع سابق ص٨-٩.

(٢) دور الجامعات..-مرجع سابق ص٧.

(٣) كيف ينظر العالم، مرجع سابق. ص١٢١.

(٤) المرجع السابق. ص١٢٢.

يتدخل في تنظيم جميع جوانب الحياة الفردية والاجتماعية، ولذا لابدَّ أن يكون الجوّ الذي يحيط به مساعداً على تحقيق ذلك، لأن الإسلام كما يقول الشيخ: « ... دين حيّ، إنساني، ليس ديناً عقلياً يعيش في المخ، أو في فلسفة، أو في مكتبة، بالعكس، إن الإسلام في وقت واحد، عقيدة وعمل، وسلوك وخلق، وعاطفة وشعور، وذوق يسيطر على التفكير والشعور، ويتحكم في موازين الأشياء والقيم، إنه يسبك الإنسان سبكاً جديداً، ويصوغ الحياة صياغة جديدة.. ووقائع حياة النبي ﷺ، وأحداثها وتوجيهاته، وتعاليمه، وأسوته، وسنته- من مجال العقائد، والعبادات، إلى مجال الأخلاق، والمعاملات، إلى المشاعر والانفعالات-تمكن ذلك الجوّ الذي تخضَرّ فيه شجرة الدين، وتورق وتثمر، لأن الدين لايبقى مستجمعاً لجميع شروط الحياة، وصفاتها.. بدون العواطف، والروح، والوقائع، والأمثلة العملية، ومجموعتها الحديث النبوي الصحيح والسنة المحفوظة، وبقاء صوت العهد النبوي -بجانب القرآن- مسجلة.

٤-محاربة الازدواجية في التعليم :

يؤكد الشيخ في كتاباته ومحاضراته على محاربة الازدواجية في التعليم، وأن ذلك من وظائف التربية الإسلامية، لإيمانه الشديد أن العلم وحدة لا تتجزأ، وإنما فيه غايات، ووسائل لا يجوز الخلط بينها، وليقينه أن هذه الوظيفة للتربية الإسلامية هي الخطوة الأولى لإنقاذ الشباب من الحيرة المردية المترتبة على كون « ... المعسكر التعليمي موزعاً بين قسمين: المعسكر الديني، والمعسكر اللاديني، أو العلماني. أو المعسكر القديم، والمعسكرالجديد.. فأول خطوة نخطوها إلى الغاية الصحيحة لإزالة هذه الحيرة، هي تنسيق غايات التعليم، ومواد التعليم.. هي إحداث تنسيق في نظام التعليم، فلا قديم، ولا جديد، ولاديني بالمعنى اللاهوتي.. ولا تعليم دنيوي، أو زمني، أو علماني،

بل التعليم وحدة لا تتجزأ، إنما ينقسم بين غايات ووسائل، ولا بدَّ أن تكون بين هذه الوسائل وحدة تربطها، وتخضعها للغاية الأساسية..»[١]. ويقرر الشيخ أن هذه الوظيفة قامت بها التربية الإسلامية النبوية حيث أحدثت انقلاباً في«دنيا العلوم، يتجلى في مظهرين كبيرين: إن الجانب الأول من جوانب دورها الانقلابي، أنها وحدّت بين العلوم الإنسانية، المتوزعة في وحدات.. كانت متحاربة، متصارعة، لا تلتقي على غاية ولا تتعاون في غرض.

والمظهر الثاني: أنها كانت تؤدي إلى نتائج مختلفة، وتفضي إلى غايات متنافية.. ولكن النبوة المحمدية، والتعاليم النبوية، استطاعت أن تخرط هذه الوحدات المنتشرة، المبعثرة في سلك واحد، وجعلتها متعاونة، متعاضدة، ووسيلة صحيحة لمعرفة الله، وذاته، وصفاته، والكون وغاياته..» [٢] ونجد الشيخ يقدم تعريفاً لمفهوم «وحدة العلم»، بعد تأكيده أن هذا الرأي هو ما يقول به فيلسوف الإسلام (محمد إقبال)، يقول الشيخ: «.. إنني لا أؤمن بتقسيم في العلم وإنني أعتقد أن العلم وحدة لا تتجزأ، ولا تقبل التوزيع، والتصنيف، ولا يصح تقسيمه بين قديم وجديد، وشرقي وغربي، وعملي ونظري، إني أرى - كما يقول محمد إقبال- إن التوزيع بين القديم والجديد، لا يقول به إلاّ قاصروا النظر ضيقوا الفكر، بل إنني لا أؤمن بتقسيم العلم إلى ديني ودنيوي أيضاً، على كلٍّ فإني أؤمن بأن العلم وحدة لا تتجزأ، وما يراه الناس كثرة أراه وحدة، ووحدة العلم، هي صدقه، وواقعيته، وكونه حقيقة، وولوعه بالحقيقة، ونشدان الصدق والواقعية»[٣].

إن إيمان الشيخ بهذه الوظيفة للتربية الإسلامية جعله يذكرها، ويوجّه إليها المسؤولين، أو أصحاب اتخاذ القرار، أو التأثير فيه، جاء أنه قال لوكيل

(١) التربية الإسلامية الحرة، مرجع سابق ص١٠٦.
(٢) أسبوعان في المغرب الأقصى، مرجع سابق. ص٩٨-٩٩.
(٣) الطريق إلى السعادة والقيادة، مرجع سابق. ص١٢٣-١٢٤

وزارة الخارجية اليمنية: «ودعامة الحياة الصحيحة عندي في البلاد الإسلامية، وجود الشعور الديني، الصحيح، القوي في الشعوب.. والدعامة الثانية منهاج التعليم الصحيح، والجمع بين العلم المأخوذ من الوحي والنبوة، الذي لا يتطرق إليه الخطأ، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو علم كل عصر، وأساس كل حياة، ومدينة فاضلة، وبين العلوم الطبيعية والمعلومات العصرية، والتجارب، والاكتشافات، التي سبق إليها الغرب، وانتصر بها على الشرق..»[1].

٥-الربط بين الدين والعلم:

يركد الشيخ أن من خصائص الإسلام، أنه دين نابع من العلم، ومرتبط به، ولا يقبل الانسلاخ عنه، ولذا لابدَّ أن يكون من وظائف التربية الإسلامية أن تربط بين الدين والعلم، وتضييق الفجوة بينهما، وذلك من خلال مؤسساتها التعليمية، والتربوية، ومراكزها التوجيهية والتثقيفية، يقول الشيخ: « إن مما يجب الانتباه له أن الوحي الإلهي، أكّد أن طبيعة هذا الدين أنه لن يفارق العلم، لأن الرسالة الأولى، التي وجهها إلى البشرية، تأمر بالقراءة، فكيف يسوغ أن يبقى المسلمون جاهلين، لا يعرفون القراءة، والمسلم الذي قطع صلته عن العلم ليس بمسلم حقيقي، ولا يجوز له أن يدعي أنه ممثل صحيح للإسلام» [2] ومن هنا يؤكد الشيخ أن من « ... واجبات الجامعات الإسلامية أن تحاول أن لا تقع فجوة بين العلم والدين، كما وقعت بينهما في العالم المسيحي، أو في دنيا الديانات التي لم تكن فيها رابطة بين العلم والعقل، بل إن نشوءها كان مديناً للجهل.. لا يتصور ذلك في الدين الذي أعلن دعوته منذ اليوم الأول، بل اللحظة الأولى بمايلي ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ الآيات» [3].

---

(١) الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية، مرجع سابق، ص٣٠-٣١.
(٣) الطريق إلى السعادة والقيادة، مرجع سابق. ص١٣٧ .
(٣) المرجع السابق. ص ١٣٤ .

٦-إعداد شباب يخدمون أمتهم:

يرى الشيخ أن إعداد الشباب المسلم لخدمة أمتهم- وليس لمجرد معرفة القراء والكتابة، أو نيل الشهادات، أو تخصيل العلم للعلم- من أهم وظائف التربية الإسلامية» لأن الأمة لا تقاس قيمتها بمجرد انتشار «.. القراءة والكتابة في الجمهور، وكثرة وجود مدارس البنين والبنات، وقيام عدد ضخم من الثانويات والكليات، أو نشوء بعض الجامعات، وكثرة المتخرجين فيها، والقاصدين إلى عواصم الأرض للتوسع في الدراسات العليا، والعائدين منها بنجاح باهر، والشاغلين منهم للمراكز الإدارية، والتعليمية الرئيسية..» [1] وإنما تقاس قيم الأمة بنوعية المتخرجين في مؤسساتها التعليمية التربوية، ومدى كونهم «شباباً يقضون حياتهم لخدمة الأمة، ويستعدون للتضحية والفداء.. ويصرفون أوقاتهم، وقواهم الخيرة، ومؤهلاتهم الفكرية والعلمية، والرصيد العلمي والفكري الذي زودتهم به جامعاتهم، في رفع رأس الأمة عالياً،وفي إعلاء كلمة الله، وتعزيز البلد، وإنقاذ الوطن، وفي صنع أمة ذات رسالة وبناء بلد مسموع الكلمة، مرهوب الجانب..» [2].

٧-إعداد دعاة:

يرى الشيخ أن تخريج علماء أو فقهاء من المدارس والجامعات في المجتمع الإسلامي، لا يغني عن الاهتمام بحاجة المسلمين لإيجاد دعاة تخلف رسول الله ﷺ بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى لذا لا بدَّ أن يكون هذا من وظائف التربية الإسلامية حيث يقول: «اتسع العمران في الحواضر والمدن، وشغلت الحياة وحاجاتها النفوس، فقلَّ من يعتكف في المدارس، وينقطع إليها، ليدرس العلوم الدينية، ويتوسع فيها، وهكذا أصبحت هذه المدارس النظامية، التي

(١) التربية الإسلامية الحرة - مرجع سابق ص ٥٣-٥٤ .

(٢) الطريق إلى السعادة والقيادة، مرجع سابق. ص١٤١ .

تخضع لقيود وتقاليد كثيرة، قاصرة عن إصلاح شعبي وتربية عامةّ.. كان المسلمون في حاجة إلى دعاة، وشخصيات قوية، جامعة، تجمع بين تلاوة الآيات، وتعليم الكتاب، والحكمة وتزكية النفوس، وهكذا تخلُفُ الرسول- ﷺ- في أمته، بعد انقطاع النبوة، وتجدد صلتها بالله والرسول، وتجدد الميثاق الذي دخلت فيه هذه الأمة، والمسلمون جميعاً عن طريق الإيمان، والنطق بالشهادتين» (١).

سابعاً: أسس التربية الإسلامية:

نجد في كتابات الشيخ، ومحاضراته، وخطبه، ورسائله الكثير مما يتعلق بأسس التربية الإسلامية؛ الاعتقادية، والاجتماعية، والعلمية، والتعبدية. وسنشير إلى كل منها باختصار- فيما يلي:

١- الأسس الاعتقادية :

يؤكد الشيخ أن تربية كل أمة أو شعب لأبنائها والناشئين فيها، مرتبطة بشكل قوي بعقائدها، وموروثاتها العقلية والدينية، وأنها تسري في جميع مكونات العملية التربوية وعناصرها، فيها يقول: «يعلم المطلعون على حقائق العلوم وفلسفة التعليم، أن للعلوم والكتب، روحاً وضميراً، كالكائنات الحية. وهو باطن هذه العلوم، والروح السارية في الكتب. فالعلوم التي أنشأها الإسلام، وصاغها في قالبه، قد سرت فيها روح الإيمان بالله والتقوى. والخشية لله، والفضيلة، والإيمان بالآخرة. والعلوم التي وضعها اليونان. أو رتبوها، اشتملت على خرافاتهم، وعلى روحهم الجاهلية. وكذلك العلوم التي دونتها أمم أوروبا الملحدة، والكتب التي ألفها أدباؤها وفلاسفتها، قد سرى فيها الإلحاد والجحود، والإيمان بالماديات، والمحسوسات فقط» (٢)، ولأهمية

---

(١) الإمام عبد القادر الجيلاني ط١ (القاهرة، المختار الإسلامي ١٣٩٩/١٩٧٩) ص٤٩.

(٢) التربية الإسلامية الحرة- مرجع سابق ص ١٠.

هذه القضية في العملية التربوية، وشدة تأثيرها فيها- عند الشيخ-، يؤكد عليها في مرات عديدة، يقول في إحداها: «.. إن روح نظام التعليم، وضميره، إنما هو ظلّ لعقائد واضعيه ونفسيتهم، وغايتهم من العلم، ودراسة الكون، ووجهة النظر إلى الحياة، ومظهر أخلاقهم..» [1] وغرض الشيخ من هذا أن يؤكد للمسؤولين عن العملية التربوية والتعليمية في الأقطار الإسلامية وجوب جعل عقائد الإسلام، وتصوراته عن الألوهية، والإنسان، والكون والحياة، أساساً للتربية الإسلامية، وبخاصّة أنها جاءت بها النبوة الأخيرة، ولم يحدث فيها ما حدث في عقائد الديانات الأخرى، يقول :«إنّا نحن المسلمين بالأولى يتحتم علينا أن نجعل عقائدنا التي جاءت بها النبوة الأخيرة، والدين الذي لم تعبث به يد التحريف، والمسخ، ولم يخضع لقانون التطور والارتقاء..» [2] أساساً لتربيتنا لأننا نحن المسلمين «... أولى بالغيرة على عقائدنا الدينية، وشخصيتنا الإسلامية، ورسالتنا الإنسانية، في كل ما نأخذ وما ندع، وفي كلّ ما نبني ونهدم، وفي كل ما نقتبس ونتلقى..» [3]. لإيمان الشيخ أنّا بذلك نتمكن من جعل نظام التربية والتعليم لباساً على قامتنا، حيث يخضع لعقائدنا، ودیننا وقيمنا، ومبادئنا، ومفاهيمنا، وأهدافنا التي نعيش لها، ولرسالتنا التي أكرمنا الله بها.

ويعرض الشيخ في بعض كتاباته الآثار التربوية لبعض العقائد، والمسلمات والمفاهيم التي جاءت بها النبوة عن خالق الكون والإنسان والحياة، ومصيرها، ونشأتها الثابتة، وكلّ ما يبنى عليها من جوانب الحياة الفكرية،والخلقية، والعلمية، والسياسية، والاقتصادية [4].

---

(١) المرجع السابق ص٢٣ .

(٢) المرجع السابق ص ٧٠ - ٧١ .

(٣) المرجع السابق ص ٧١ - ٧٢ .

(٤) انظر. أ- كتاب «بين الدين والمدنية » -ط١ (بيروت - مؤسسة الرسالة-١٣٩٨ / ١٩٧٨)، ص١٠٤-١٢٠.

ب - كتاب « كيف ينظر العالم..»، مرجع سابق. ص٧٩-٨٩ .

جـ - رسالة التوحيد - (الهند، مكتبة ندوة العلماء، للكهنو-١٣٨٩/١٩٦٨) -المقدمة.

٢-الأسس الاجتماعية:

يشير الشيخ في بعض كتاباته، إلى ما يسمى عند علماء التربية «بالأسس الاجتماعية للتربية»، منها ما يفيد أن قادة الفكر التربوي في الغرب، والشرق يرون أن تربية شعوبهم ينبغي أن تكون « .. لباساً يفصل على قامة هذه الشعوب وملامحها القومية، وتقاليدها الموروثة، وآدابها المفضلة، وأهدافها التي تعيش بها، وتموت في سبيلها ..» [١] ويذكر أن هذا الأساس ينبغي أن تأخذ به التربية الإسلامية في الأقطار الإسلامية- وبخاصة في الجزيرة العربية- لأن «الطالب الذي يعيش في هذه الجزيرة، يستحضر المعاني كلها، ويعيش فيها، فكل ذرة من ذرات هذه الصحراء، وكل جبل من جبال هذه الجزيرة، يذكر بحادث من حوادث التاريخ الإسلامي الأول، ويذكر بما قامت له هذه الجزيرة وعاشت، وبما أريق في سبيله من الدماء الزكية، وبما كانت عليه في الجاهلية من جهل، وفقر، وخمول، وبما عادت إليه بعد الإسلام من علم، وغنى وعزٍّ، وبمن يرجع إليه الفضل في ذلك، وما هو مصدر هذا الانقلاب، والتحول الذي ليس له نظير في تاريخ الإسلام» [٢] وفي ضوء هذا يقرر الشيخ ضرورة مقاومة الذين يجاهدون لجعل الأسس الاجتماعية الغربية من أسس التربية في بلادنا الإسلامية، والذين يدعون « .. دعوة سافرة إلى تقليد الحضارة الغربية وجعلها مثلاً أعلى في الحضارة والاجتماع، ويؤكدون فرحين، مستبشرين، أن العلوم عندنا على أي نحو قد أقمنا صروحه، ووضعنا مناهجه، وبرامجه منذ القرن الماضي على النحو الأوروبي الخالص، ما في ذلك شك ولا نزاع، نحن نُكَوِّنُ أبناءنا في مدارسنا الأولية، والثانوية، والعالية تكويناً أوروبياً لا تشوبه شائبة»[٣].

---

(١) التربية الإسلامية الحرة - مرجع سابق، ص٧٠.

(٢) كيف ينظر العالم، مرجع سابق. ص١٠١-١٠٣ .

(٣) الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية، مرجع سابق ص١٣٤.

ونجده يقول بكل حزم «إذاً لا يجوز التغاضي عن الحالة الاجتماعية في البلد، وما يحتاج المجتمع من موجات وتيارات، ولا بدَّ من العناية بتقويم المجتمع، ومكافحة الأمية، والأمراض التي تفترسه، وتنخر في هيكله، وذلك عن طريق الدعوة الدينية، والخلقية وعن طريق الأدب الصالح، والصحافة الهادفة، التي تتقي الله في أعراض الناس وأخلاقهم..» [١] كما نجده يقرر ضرورة أن «تسهم وسائل الإعلام في التوعية العامة، التي تمهد لتحقيق أغراض التعليم، وإزالة العقبات التي تحول دون تنفيذها، كما تسهم في تنمية روح الإيجابية بين المجتمع والمدرسة، في التعاون مع الجهات التعليمية للوصول إلى ما يحقق أهداف التربية والتعليم على خير الوجوه» [٢].

٣-الأسس العلمية:

نجد في كتابات الشيخ، ومحاضراته الكثير، مما يتصل بالأسس العلمية للتربية الإسلامية، التي يرى أن التربية الإسلامية، لا يمكن أن تحقق أهدافها، وأغراضها إلاّ أن تكون معتمدة على الأساس العلمي لأن الإيمان ينبغي أن «.. يأتي عن طريق العلم، والثقافة، والدراسة، وعن الشعور، والتفكير، وعن طريق إقناع العقل وعن الدراسة المقارنة..» [٣] ولذا كانت أول آية في القرآن (اقرأ) وليست (اعبد) أو (صَلِّ)، وكان في ذلك دلالة على أن هذا الدين نابع من العلم..» [٤]«وأن الإسلام والعلم متلازمان.. ولا يمكن في دنيا الإسلام أن يتصور أحد مفارقة الدين للعلم، لأن الإسلام والعلم رفيقان وفيان، منذ بداية الطريق..» [٥] ولذا فالتربية الإسلامية تؤمن «أن قيمة الشعوب والأمم -فضلاً

---

(١) كيف ينظر المسلمون، مرجع سابق. ص١٠٧-١٠٨.
(٢) المرجع السابق. ص١٠٩-١١٠، نقلاً عن تاريخ التعليم في المملكة. ص٣٤٧.
(٣) دور الجامعات الإسلامية، مرجع سابق. ص١٣.
(٤) الطريق إلى السعادة والقيادة، مرجع سابق. ص٩١.
(٥) المرجع السابق ص٩٥.

عن قيمة الجامعات والمؤسسات- وسر عظمتها، وما تستحق به من إجلال وإكبار، وتقدير واعتراف تتعلق بوجود أصحاب تفوق، واختصاص وشهرة عالمية في علوم، وآداب، ومجالات علمية، وبحوث، واكتشافات جديدة، وهذه كانت ميزة الأمة الإسلامية، فقد كانت للمسلمين الرئاسة العلمية والزعامة الفكرية، نحواً من ألف سنة على الأقل بإقرار من المؤرخين الأوروبيين» [١] ويوضح الشيخ أن الأساس العلمي للتربية الإسلامية لا يعني الأخذ من العلوم الإسلامية ومصادرها فقط، وإنما ينبغي الاستفادة أيضاً من العلوم العصرية الجديدة. كعلم الاقتصاد، والسياسة، ولبعض العلوم الطبيعية والجغرافية والتاريخ.. والعلوم العقلية..» [٢].

٤- الأسس التعبدية:

تفيد كتابات الشيخ ومحاضراته أن العبادات ينبغي أن تكون من أسس التربية الإسلامية لأنها هي وأركان الدين«حجر الزاوية في نظام الدين كلّه، يؤاخذ عليها العبد، ويحاسب، يوم القيامة، أمّا الأمور الأخرى.. فهي وسائل، وفي درجة ثانوية في الدين» [٣]، وذلك لأن للعبادات مقاصد، وغايات كثيرة، منها ما يتصل بتربية الفرد المسلم وتنشئته، وتلبية بعض حاجاته، ومتطلباته، ومن أهمها تحقيق الصلة بين العبد-بطبيعته، وحاجاته، ومتطلباته -، والرّبّ- بأسمائه، وصفاته، وأفعاله، فالإنسان هو «المخلوق، الناقص المتناقض.. والأليف الحنون.. والخاضع الخاشع بالغريزة..» [٤] لا بدَّ أن تكون له صلة، عادلة، معقولة، مع مثل أعلى هو «... الرب الذي هو الإله الحق، والجواد

---

(١) دور الجامعات الإسلامية، مرجع سابق. ص٣٥-٣٦ .

(٢) التربية الإسلامية الحرة، مرجع سابق. ص. ٩٥

(٣) التغيير السياسي للإسلام، في مرآة كتابات الأستاذ أبي الأعلى المودودي، والشهيد سيد قطب ط٣ (الكويت ، دار القلم، ١٤٠١/١٩٨١م). ص١٠٧.

(٤) الأركان الأربعة، مرجع سابق. ص١٥-١٦.

المطلق، والذي أعطاه من كلّ ما سأل بلسان القال، أو بلسان الحال.. والذي يعلم الخواطر الدقيقة، الدفينة، والأماني الموءودة المنسية،.. والذي هو أقرب من كل قريب، والذي هو دائماً سميع مجيب.. والذي كان السائل الملحف، والداعي المتشبث، أحبّ إليه من أبيٍّ ممتنع، وصامت مُسْتَغْنٍ..»[1] يؤكد الشيخ أن هذا الربّ، العليم بمن خلق، اللطيف الخبير، جعل العبادات أساساً للتربية الإسلامية؛ فالصلاة من «... مقتضى الفطرة، ونتيجة الغريزة، ونداء الضمير، وواجب الشرف، وحاجة الإنسانية، وغذاء القلب.. مطابقة كلَّ المطابقة لوضعه الخاصِّ، ومركزه الدقيق، ومركزه الفريد.. لباساً قد فُصِّلَ على قامته، وعلى قدر حاجته..» [2] وأمّا الزكاة فإن الشيخ يقرر خطأ من يُغْفِل «روح الزكاة التي تسيطر عليها، وهي روح العبادة، والتقرب إلى الله، وحكمتها الأساسية الأولى، وهي حكمة تزكية النفس من الشح والحرص، والأثرة وحب المال، وظلم الفقراء، وقسوة النفس، وتزكية المال، وتنميته.. تلي هذه المصلحة الأساسية، مصلحة الجماعة والمجتمع، وهي كفالة المجتمع، الكفالة اللازمة الضرورية وسد حاجات الفقراء الطبيعية البدائية، وتهيئة كل عضو من أعضاء المجتمع، أسباب الحياة الشريفة، التي يستطيع بها القيام بحقوق الله، وحقوق النفس، والوصول إلى الكمال المطلوب، والغاية المطلوبة من كل فرد مسلم» [3]. وأمّا الصوم؛ فيرى الشيخ أنها العبادة التي تجعل الفرد متوازناً، بين تجاذب متطلبات الروح، والجسد، ويستشهد لذلك بقول ابن القيم: «المقصود من الصيام، حبس النفس عن الشهوات، وفطامها عن المألوفات، وتعديل قوتها الشهوانية، لتستعد لطلب ما فيه غاية سعادتها، ونعيمها، وقبول ما تزكو به مما فيه حياتها الأبدية.. وللصوم تأثير عجيب في حفظ الجوارح الظاهرة،

---

(١) المرجع السابق. ص١٨.

(٢) المرجع السابق. ص٢٢.

(٣) الأركان الأربعة، مرجع سابق. ص١١٢-١١٣.

والقوى الباطنة، وحميتها عن التخليط الجالب لها المواد الفاسدة.. فالصوم يحفظ على القلب والجوارح صحتها، ويعيد إليها ما استلبته منها أيدي الشهوات..» [١] وأمّا عبادة الحج فيرى الشيخ أنه «.. بمناسكه، وأركانه، وأعماله، كله تمرين، وتمثيل للإطاعة المطلقة، وامتثال للأمر المجرد، وسعي وراء الأمر، وتلبية وإجابة للطلب..» [٢] ولذا كان الحج - كما يرى الشيخ -، العبادة التي تلبي حاجة المسلم «.. إلى غذاء للقلب، وإلى زاد للعاطفة، وإلى أن يعطي أشواقه، ويروي غلته مرة بعد مرة، وفترة بعد فترة.. وكان البيت العتيق، وما حوله من شعائر الله، والحج وما فيه من مناسك، خير ما يحقق رغبته، ويلبي حنانه وعاطفته،... وحاجته إلى أن يتخطى الدائرة المرسومة من عادات ومألوفات، وقوانين وطبيعة، وحضارة مصطنعة، ومجتمع قاس..» [٣]. ويذكر أقوالاً تفيد في ضرورة أن يكون الحج من الأسس التعبدية، للتربية الإسلامية لأن من مقاصده أنه «.. اجتماع المسلمين العظيم، واجتماع هممهم، ودعواتهم، وقلوبهم الصادقة، من تحريك لرحمة الله تعالى، ومن تحريك للقلوب القاسية، وإثارة للأشواق... وتجديد الصلة بإمام الملة الحنيفية ومؤسسها إبراهيم الخليل-عليه السلام- والتشبع بروحه، والمحافظة على إرثه، والمقارنة بين حياتنا، وحياته، وعرضها عليه، واستعراض ما يعيش فيه المسلمون في العالم وتصحيح ما وقع في حياتهم من أخطاء، أو فساد، أو تحريف، وإعادة ذلك كله إلى أصله، ومنبعه، فالحج عرضة سنوية للملة، تضبط أعمال المسلمين، وحياتهم، ويتخلصون بها من نفوذ الأمم والمجتمعات التي يعيشون فيها» [٤].

---

(١) المرجع السابق، ص١٧٠.
(٢) المرجع السابق، ص٢٣٠.
(٣) المرجع السابق ص٢٢٥-٢٢٨.
(٤) الأركان الأربعة، مرجع سابق. ص٢٢٣.

ثامناً- مؤسسات التربية الإسلامية:

يرى الشيخ أن أية مؤسسة تربوية- بيت، كتاب، زاوية، رباط، مدرسة، جامعة - أو مركز تعليمي أو تثقيفي، لا يمكن أن يعد من مؤسسات التربية الإسلامية إلاّ إذا تحقق فيه الانتساب إلى مدرسة رسول الله ﷺ التي ربّى فيها صحابته، يقول «... إن لكل شيء نسباً.. وكذلك كل مدرسة لا ينتهي نسبها إلى صفة المسجد النبوي -على صاحبها الصلاة والسلام-، فلا تستحق أن تسمى مدرسة، لأنها - إذاً- منطلق الجهل والضلال، وليست موضع دراسة، وعلم وهدى...» (١).

وتفيد كتابات الشيخ ومحاضراته وخطبه ورسائله أن انتساب المؤسسة التربوية لصفة المسجد النبوي يتحقق عندما يتوافر فيها مايلي:

١- أن يكون التعليم فيها، خاضعاً لعقيدة الإسلام، ورسالته، وأهدافه، وأغراضه، ومقاصده.

٢- أن تتبنى نظام تعليمٍ إسلامي في الروح، والوضع، والسبك، والترتيب، وتتبرأ من أي نظام تعليمٍ أجنبي- شرقي أو غربي- يخلفه في الأساس، والقيمة والمعيار.

٣- أن تضع منهج تعليم إسلامي في أهدافه، ومحتواه، وكتبه، وطرق تدريسه، ووسائله المعينة، وأنشطته، وأساليب تقويمه،... وترفض أن تستورد أو تستعير منهج تعليم أمة غيرمسلمة غربية، أو شرقية.

٤- أن يكون من أهم المواد الدراسية فيها -حسب المرحلة الدراسية-: القرآن الكريم، الحديث، السيرة النبوية، تاريخ الصحابة، التربية المعنوية، التربية البدنية، علم الفقه، وأصول الفقه، واللغة العربية، والأدب العربي، والعلوم العصرية، والعلوم الطبيعية، والعلوم التطبيقية.. إلخ.

---

(١) الطريق إلى السعادة والقيادة، مرجع سابق. ص٢٠-٢١

٥- أن تعنى بأنشطة تربوية، تعليمية، ترويحية، تهدف التشبع بروح الدعوة، والاختلاط بالشعب، لأنها خير وسيلة للإيمان بالمبدأ أو الثبات عليه.. والربط بين الطبقة المثقفة، ودهماء الناس.

٦- أن يكون المعلمون في المؤسسة التربوية من الذين يؤمنون بمبادئ الإسلام، وعقائده، وغاياته ويخلصون لها كلَّ الإخلاص، ويدعون إليها بإيمان، وحكمة، وتكون حياتهم خير مثال لما يدعون إليه.

٧- أن تعين في القضاء على الآثار السلبية لنظام التربية الغربي الذي سيطر على المؤسسات التربوية في العالم العربي والإسلامي.

إن الشيخ يُقوِّم بعض المدارس الفكرية التربوية التي قادها مفكرون مسلمون في بعض أقطار العالم الإسلامي في ضوء تلك المواصفات، وينتقد القائمين عليها، رغم إعجابه بقدراتهم وتقديره لاجتهاداتهم، ومن ذلك انتقاده للمدرسة الفكرية التي قادها (السيد أحمد خان) في الهند، وتأسيسه جامعة (عليكره)، حيث لم يخضع النظام التعليمي الذي أخذ شكله النهائي في البيئة الغربية، لطبيعة هذا المجتمع الإسلامي الهندي، الذي كان يريد تطبيقه فيه، وحاجاته، وأوضاعه، ولم يفكر في سبكه سبكاً جديداً إسلامياً هندياً، ولأنه تمسك في هذا النظام التعليمي بتعليم اللغة، والآداب فقط، ولم يعنَ بتعليم الفنون، والعلوم التطبيقية، العملية، العناية التي تستحقها، مع أنها هي ثمرة العلم الجديد النافعة، وسرّ قوة الأمم الغربية وسيادتها[1].

كما نجد الشيخ ينتقد المدرسة الفكرية التي قادها (الشيخ محمد عبده) في مصر، يقول: «كان الشيخ على ماله من حسنات في الدفاع عن الإسلام، وإصلاح مناهج التعليم، وتقريب الدين إلى الجيل الجديد، كان من رواد الدعوة

(١) الصراع بين الفكرة الإسلامية، والفكرة الغربية، مرجع سابق ص٨٧-٧٩ .

المتجدد، والدعوة إلى الملاءمة بين الإسلام، وبين الحياة في القرن العشرين، والتقدير الزائد للقيم الغربية، ومحاولة التطبيق بينها وبين الإسلام.. يقرب في ذلك كثيراً إلى السيد أحمدخان في الهند..»[١] كما نجد الشيخ ينتقد تلامذة المستشرقين وطلائع الفكر الغربي في العالم العربي، والذي كان أعلاهم مكانة، وأكثرهم تأثيراً د.طه حسين-وزير المعارف في مصر[٢].

تاسعاً- جوانب التربية الإسلامية:

تفيد كتابات الشيخ، ومحاضراته، وخطبه، ورسائله، أن التربية الإسلامية دقيقة، وشاملة لجميع جوانب الإنسان - العقل، الجسم، الروح - وحاجاته ومتطلباته، فإن جيل الصحابة - رضي الله عنهم- كان مثالياً «.. بفضل التربية النبوية الدقيقة، الشاملة، بالجمع بين الدين المتين، الذي لا مغمز فيه، والإيمان القوي، الذي لا يعتريه الوهن، وبين الوعي الناضج الكامل، فكانوا لا يَخدعون، ولا يُخدعون، ولا يُسيغون شيئاً ينافي الإسلام، وينفي العقل، وينبذون الذي يضرهم، ويجني عليهم، أو يوقعهم في خطر أو تهلكة..»[٣] وهذا القول وغيره يفيد أن للتربية الإسلامية جوانب متعددة؛ العقدي الإيماني، والعقلي العلمي، والتعبدي الديني، والأخلاقي الاجتماعي، والنفسي العاطفي، والإبداعي الابتكاري. ونجد في كتب الشيخ ما يتناول تربية كل جانب منها على حدة، وبعضها يتناول أكثر من جانب واحد، وبعضها يذكر بعضها حسب موضوع المحاضرة- أومقتضى الحال. وسنشير إلى جوانب التربية الإسلامية- كما نجدها عند الشيخ فيما يلي:

---

(١) المرجع السابق. ص١٢٣

(٢) المرجع السابق ص١٣٤.

(٣) الدعوة إلى الله، مرجع سابق. ٨-٩.

١- الجانب العقدي الإيماني:

مما نجده عند الشيخ بالنسبة لهذا الجانب أنه:

١- ترجم كتاب «تقوية الإيمان» للعلامة الشيخ إسماعيل الشهيد، وأسماه «رسالة التوحيد»، قال في مقدمته: «أما بعد، فقد كنا نشعر بمسيس الحاجة منذ زمن طويل إلى نشر كتاب، واضح المنهج،صريح العبارة، مشرق الديباجة، سهل التناول، ينم عن إخلاص مؤلفه، وصدق لهجته، وتوجع قلبه مما يرى الناس عليه في عصره من الجهل لغاية الخلق، وبعثة الأنبياء والرسل أجمعين، من إخلاص الدين لله، وإفراد العبادة له، والخوف والرجاء منه، والاستغاثة به، والتضرع إليه، ولما كان يرى من انتشار العقائد، والعبادات التي جاءت الأديان لمحوها، وأُنْزِلت الكُتُبُ، وبُعِثَتِ الرسلُ لمحاربتها، والتخليص منها، حتى أصبح الناس من ذلك في جاهلية جهلاء، وفتنة عمياء، واحتاجوا إلى دعوة، صارخة سافرة إلى الدين الخالص، والحنيفية السمحاء»[١].

٢- وضع كتاباً بعنوان «العقيدة، والعبادة، والسلوك، في ضوء الكتاب، والسنة، والسيرة النبوية» - هذا الكتاب يتعلق بتربية عدة جوانب في الإنسان الاعتقادية، والتعبدية، والأخلاقية-، يشير في مقدمته أنه كتاب للدعوة والتربية، يقول: «ووفق الله لتأليف هذا الكتاب، وقد صَبَبْتُ فيه عصارة دراساتي، وخلاصة تجاربي في مجال الدعوة والتربية، ومعرفتي بطبقات الأمة المختلفة، معرفة عملية..» [٢] يذكر في المقدمة - أيضاً- ما يفيد أنه وضعه ليقوم مقام الكتب التي أراد مؤلفوها أن تكون «.. مرشداً، ومربياً للطالبين، مغنياً عن غيره، قائماً مقام المكتبة الإسلامية، فجعله يحتوي على العقائد، والفقه، وتزكية النفس، وتهذيب الأخلاق، والحصول على مرتبة الإحسان، مشتملاً على الترغيب والترهيب، وعلى المواعظ الحكيمة، الرقيقة،

(١) رسالة التوحيد، مرجع سابق. ص٥.

(٢) العقيدة، والعبادة، والسلوك، مرجع سابق. ص٥-٦.

المرققة للقلوب، يثيرها على الإيمان، والعمل الصالح، وتهذيب النفس، ويحذر من أمراض القلب، ويصف علاجها..» [١] ونجد الشيخ يؤكد في هذا الكتاب «أن سمة هذا الدين الأولى، وشعاره المميز، التركيز على العقيدة أولاً، وقبل كل شيء.. وأن أنجح إنسان في تأسيس حكومة، أو إنشاء مجتمع، أو إحداث انقلاب، لا قيمة له عندهم- أي عند الأنبياء- إذا لم يقترن كل ذلك بعقيدة جاؤوا بها، أودعوا إليها، ولم يُقِمْ كل هذه الجهود على أساسها..» [٢].

٣- يقتنص الفرص المناسبة، والمواقف المؤثرة في المؤتمرات والندوات، واللقاءات والمحاضرات، ليؤكد أهمية التربية الإسلامية في بناء الجانب العقدي الإيماني في شخصيات أبناء المسلمين، وحياتهم، وتحقيق رسالتهم، وتصحيح أعمالهم، ومن ذلك:

أ- قوله في مذكرة قدمت إلى أحد مؤتمرات وزراء التربية والمعارف في الدول العربية: «ليست التربية إلاّ أداة، مؤثرة، وَفِيَّةً، لترسخ عقيدة الأمة، ونظرها إلى الحياة، والكون في قلوب الناشئة» [٣].

ب -قوله- في كتابه الموجه إلى صاحب السمو الشيخ عبد الله السالم الصباح، أمير دولة الكويت سابقاً: « ... وضناً بوقتكم الثمين، أتقدم ببعض ملاحظات ومعروضات... والشيء الثالث: هو توجيه المعارف في البلد الإسلامي العربي، توجيهاً إسلامياً، مؤسساً على تفكير أعمق، وتصميم، وتخطيط خاص، يتفق مع رسالته، وعقيدته، إذ المعارف هي مربية للأجيال القادمة، وعليها يتوقف مستقبل هذا الشعب الديني والخلقي، واتجاهه، وتوجهه للمدينة، ومنع الميوعة والتفسخ الخلقي، في الشباب والنشء..» [٤].

---

(١) المرجع السابق. ص٧.
(٢) المرجع السابق. ص٢٢ .
(٣) كيف ينظر المسلمون، مرجع سابق. ص١١٨.
(٤) المرجع السابق. ص١٢٣-١٢٤.

جـ- قوله في مقالة أعدت لمؤتمر «تكوين الدعاة»: « ... يجب أن يكون في الاعتبار لدى إنشاء كل مدرسة، أو جامعة، أو اتخاذ منهج تعليمي، لتعليم هذه الأمة أن يكون الهدف من كل ذلك ترسيخ الإيمان بالعقائد، والحقائق، التي آمنت بها من ذي قبل، وأن يتأتى هذا الترسيخ عن طريق القلب والعقل معاً، ولا يكفي اطمئنان القلب، أو العقل فقط» (١).

د- قوله في خطبة له بعنوان: «غاية التعليم والتربية في العالم الإسلامي ومنهاجه: «أريد أن أقرر أن المسؤولية الأولى، والأهم، والأقدم لجامعة تقوم في بلد إسلامي ، هي أن تؤكد إيمان الأمة بالعقائد، والأفكار التي تؤمن بها، والحضارة التي تحتضنها، والرسالة التي تتبناها، والخصائص والمزايا التي تحملها، حتى لا يعود إيمان هذا الإنسان، إيمان رجل عادي، أو إيمان رجل الشارع، بل يكون إيمان عالم، إيمان مثقف، إيمان دارس، ويطمئن عقله، كما يطمئن قلبه.. وإذا كان الصراع لا يجوز بين الفرد والجماعة، فإنه كذلك لا يجوز بين القلب والعقل في حياة المرء الانفرادية (٢).

٢- الجانب التعبدي الديني :

طبيعي أن نجد هذا الجانب التربوي- عند الشيخ- حيث يؤكد في كتاباته أن طبيعة الإنسان، وخصائصه، وفطرته، تقتضي: « .. أن يكون في خضوع دائم، وفي ركوع أو سجود لا انقطاع لهما، وفي مناجاة ودعاء لا نهاية لهما، أمام الرب... الذي هو أقرب من كل قريب، والذي هو دائماً سميع مجيب...» (٣).

---

(١) دور الجامعات الإسلامية، مرجع سابق، ص٢٥-٢٦.

(٢) الطريق إلى السعادة والقيادة، مرجع سابق. ص١٣١.

(٣) الأركان الأربعة، مرجع سابق. ص١٧-١٨.

ومما يدل على اهتمام تربية هذا الجانب في الفرد المسلم - عند الشيخ - ما يلي:

١- تأليفه كتاباً خاصاً بالعبادات، بعنوان «الأركان الأربعة- الصلاة، الزكاة، الصوم، الحج - في ضوء الكتاب، والسنة- مقارنة مع الديانات الأخرى «للتعريف بهذه العبادات، وبحقيقتها الشرعية. ومقاصدها، وأسرارها، وآثارها في تربية الفرد وبناء المجتمع [1].

٢- تأكيده في كتابه «العقيدة والعبادة، والسلوك، في ضوء الكتاب، والسنة والسيرة النبوية »، أن العبادات تلي العقائد في الأهمية، وتركيز النبوات عليها، وأنها الغاية الأولى من خلق الإنسان. «وقد شرعتها الشرائع السماوية، وجاءت بها الشريعة الإسلامية بصورة أكمل، وعني وشغف بها رسول الله ﷺ، عناية وشغفاً يفوقان الوصف، وجاءت عشرات من الآيات القرآنية، ومئات من الأحاديث النبوية، ترغب فيها، وتنوه بشأنها، وتشيد بذكر فضائلها، وتحرص على التنافس فيها، وتثني على المكثرين، والمعنيين بها، وتندد بالراغبين عنها، أو المقصرين فيها»[2].

٣- تأكيده على المربين المسلمين أن يلزموا أنفسهم، ويربوا تلامذتهم، وأتباعهم على العبادات، والأخذ بالعزائم في الدين، لأن «من مزايا الأنبياء- عليهم السلام -، ومن كان على قدمهم. أنهم يأخذون بالعزيمة في الدين.. ولا يتساهلون في العبادات، لأن اتباع الناس للدين، وعملهم به، بمقدار تصلب هؤلاء السادة في الدين، وتمسكهم به، فإذا اهتم هؤلاء بالنوافل، اهتم الناس بالفرائض، وإذا اكتفى القادة بالفرائض، استرسل الناس إلى تركها، والاستهانة بحقها..»[3].

---

(١) انظر في هذا البحث، ص٢٥٢-٢٥٣.

(٢) العقيدة والعبادة والسلوك، مرجع سابق. ص٨١-٨٢ .

(٣) الإسلام والحكم- مرجع سابق. ص٢٤.

٤- تأكيده أن علماء الأمة الربانيين كانوا يتذوقون العبادة، وينهمكون فيها، ويربون تلامذتهم وأتباعهم عليها [(١)].

٣-الجانب العقلي العلمي:

من الأمور التي تظهر لنا أن الشيخ يعد «الجانب العقلي العلمي» من جوانب التربية الإسلامية، التي ينبغي أن تكون محل اهتمام المربين، والمعلمين ما يلي:

١- تقريره أن إحدى دعامتي الحياة الصحيحة - عنده-: «.. منهاج التعليم الصحيح، والجمع بين العلم المأخوذ من الوحي والنبوة، الذي لا يتطرق إليه الخطأ.. وبين العلوم الطبيعية، والمعلومات العصرية، والتجارب، والاكتشافات التي سبق إليها الغرب، وانتصر بها على الشرق..» [(٢)].

٢- تأكيده - كثيراً- أهمية العلم ومكانته في الإسلام، وأنه ينبغي أن يكون طريقاً لاطمئنان القلب والعقل معاً، لذا يدعو إلى وجوب أن تكون «الغاية الأساسية للجامعات الإسلامية - ولكل مؤسسة تربوية تعليمية- أن تُوجِدَ.. الإيمان الذي يأتي عن طريق العلم، والثقافة، والدراسة، وعن الشعور والتفكير، وعن طريق اقتناع العقل والدراسة المقارنة..» [(٣)].

٣- دعوته إلى الاهتمام بالعلم، والبحث العلمي، والدراسة المتنوعة، والتحقيق الدقيق، وتربية الدارسين على محبة العلم، والهيام به بغرض التقرب إلى الله، وترقية البلاد وتقدمها، ونموها، وازدهارها [(٤)].

---

(١) انظر كتابه- « رجال الفكر والدعوة في الإسلام» - ط١ (دمشق- ١٣٧٩/١٩٦٠).

(٢) مذكرات سائح، مرجع سابق. ص٨٠-٨١.

(٣) الطريق على السعادة والقيادة. ص١٣٢.

(٤) المرجع السابق، ص١٦٨-

٤- تقريره أن «من مآثر سيدنا محمد ﷺ، ومن خصائص بعثته ودعوته، أنه ﷺ أنشأ الرباط المقدس الدائم بين الدّين والعلم، وربط مصير أحدهما بالآخر..» [١].

٥- تقريره أنا «لا نعرف ديناً من الأديان، ولا صحيفة من الصحف السماوية، دعا إلى استخدام العقل، والانتفاع به، وإلى التفكير والاستنتاج، وربط الأسباب بالمسببات، والنتائج بالمقدمات، والاعتبار، والادكار، وذم تعطيل ما وهب الله الإنسان من صلاحية التأمل فيما حوله، والإعراض عن آيات الله في الأنفس والآفاق، والبلاد، والأمم... مثل ما فعله القرآن» [٢].

٦- دعوته إلى ضرورة العناية بتعليم الفنون والعلوم التطبيقية العملية العناية اللازمة، مع جميع العلوم العصرية؛ التربوية، والنفسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية [٣]. وحثه طلاب إحدى الجامعات الإسلامية أن يعملوا لإحراز جائزة علمية عالمية نحو جائزة (نوبل) [٤].

٤-الجانب الروحي:

نجد في كتابات الشيخ ومحاضراته وخطبه ما يدل على أنه يعدّ تربية الجانب الروحي في الفرد المسلم، من جوانب التربية الإسلامية، بل من أهمها، حيث يرى أنها تتعلق بقسم «الكيفيات الباطنية»، التي تكون مع قسم «الأفعال والهيئات» الشريعة الإسلامية [٥]. ومما نستدل به على ذلك ما يلي:

١-تأكيده أن التربية الروحية - تربية الكيفيات الباطنية - كانت «تلازم رسول الله ﷺ قياماً وقعوداً، وركوعاً وسجوداً، وداعياً وذاكراً، وآمراً وناهياً،...

---

(١) الإسلام أثره في الحضارة، مرجع سابق. ص٧٩ وما بعدها.
(٢) المرجع السابق، ص٦٢ وما بعدها.
(٣) موقف العالم الإسلامي، مرجع سابق. ص٤٦ وما بعدها.
(٤) الطريق إلى السعادة والقيادة، مرجع سابق. ص١٧٥.
(٥) ربانية لا رهبانية. ط١ (بيروت- دار الفتح للطباعة والنشر)، ١٣٨٦/١٩٦٦). ص١٠-١١.

والخشوع في الصلاة، والتضرع، والابتهال في الدعاء، والزهد في زخارف الحياة، وإيثار الآخرة على العاجلة، والشوق إلى الله، إلى غير ذلك من كيفيات باطنية، وأخلاق إيمانية، هي من الشريعة بمنزلة الروح من الجسد»[١].

٢- تقريره أن العناية بتربية الجانب الروحي عند المسلمين كانت منذ القديم، وأنها السبب في ثبات المسلمين أمام الشدائد، والنكبات، والتحديات، ويقول: «وهذا المستشرق الشهير (جب) ألقى ذات مرة خطاباً أمام مجلس جامعة أكسفورد فقال: طالما شهد تاريخ الإسلام، أن الثقافة الإسلامية، قوبلت بمنافسات شديدة، ولكنها لم تنهزم رغماً من ذلك، لأن الأسلوب التربوي الروحي، وتفكير العلماء الربانيين، أسرع إلى دعمها، وتأييدها، ومنحه قوة لم تصمد في وجهها أي طاقة مضادة»[٢].

٣- تأكيده أن من مقاصد العبادات، وأسرارها، تربية الجانب الروحي، في الفرد المسلم، ولذا وجدت عبادات مفروضة، وأخرى نافلة، فالصلوات الخمس، وجبات روحية، وحقن صحية، عيَّن أعدادها وأوقاتها العليم الحكيم.. وهي معقل المسلم ومفزعه.. وفيها الآداب المشروعة لتقوية الجوّ الإيماني، الروحاني.. وقيام الليل.. أقوى وسيلة لتغذية الروح، وشحن بطارية القلب، ويؤكد - الشيخ - أن للإكثار من النوافل تأثيراً لا يعرف لغيرها في صفاء النفس، والسمو الروحي، والاتصال بعالم القدس، وتلقي التجليات الأخروية.. وهي ميراث النبوة بروحها وأحكامها، ولذا فمن واجبات قادة الإصلاح ورجال التعليم والتربية، والحركات الدينية أن يعملوا للحفاظ على هذا الإرث، فهو الثروة المباركة، وأن لا ينطفئ نورها مهما تغيّرت الأوضاع..»[٣] وأمّا عبادة

---

(١) المرجع السابق. ص١١.

(٢) القرن الخامس عشر الهجري، مرجع سابق. ص٢٤-٣٥.

(٣) عبارات مقتبسة من كتاب «الأركان الأربعة»، مرجع سابق. ص٢٣. وما بعدها.

الزكاة، ففيها الكثير من التربية الروحية، وتزكية النفس من الأمراض الباطنية، تفيد في تنمية « .. روح الإخلاص، والتواضع، والامتنان (لا المن)، والإكرام الذي يجب أن يقترن به أداة الزكاة، ويتصف به صاحبها، وهي الآداب الدقيقة والأخلاق السامية النبيلة، والروح الدينية التي حث عليها القرآن، وأشاد بها ...» [1] وأمّا عبادة الصوم فلها شأن كبير في تربية الجانب الروحي في الإنسان، لأن الصوم « ... يحد من شَرَه هذه المادية المَعديَّة، ويعيد للنفس ما فقدته من حياة ونشاط، ومن جدّة وقوَّة، وليشحنها شحناً، روحانياً، إيجابياً، تستطيع أن تحفظ به اعتدالها في الحياة، وتقاوم به مغريات الشهوة، ومفاسد التخمة، وتتخلق ببعض أخلاق الله، وتنال نصيباً، فتسعد به، وتسمو، وتلحق بالملائكة، والملأ الأعلى، فترتع في رياض الروح والقلب..» [2] ويرى الشيخ أن الله فرض الصوم « .. لإعانة الروح، التي تجني عليها التخمة، والحياة المترفة الرتيبة، فتصبح هزيلة عليلة..» [3] حيث يصبح «رمضان، موسماً عالمياً، للعبادة، والذكر، والتلاوة، والورع، والزهادة، يلتقي على صعيده المسلم الشرقي، مع المسلم الغربي..» [4]. وأمّا بالنسبة لعبادة الحج، فدورها في تربية الجانب الروحي، عند المسلم كبير، ففيها ما يلبي حاجة الإنسان في بحثه عمن « .. يوجه إليه أشواقه، ويقضي به حنينه، ويشبع به رغبته الملحة في التعظيم والدنو..» [5] «وما يلبي حاجته إلى أن يشهد موسماً هو ربيع الحب والحنان.. وملتقى المحبين والمخلصين، ومشهد العشاق والهائمين..» [6] حيث يحج إلى بيت الله الحرام الذي «أصبح مركزاً للهداية والإرشاد، والإشعاع الروحي

---

(١) الأركان الأربعة، مرجع سابق. ص١٢٢.
(٢) المرجع السابق. ص١٦٩.
(٣) المرجع السابق. ص١٨٩.
(٤) الأركان الأربعة، مرجع سابق. ص١٩٨.
(٥) المرجع السابق. ص٢٢٢.
(٦) المرجع السابق. ص٢٢٧.

والغذاء العاطفي، تقام حوله المناسك، وتغذى به العاطفة، وتشعل به مجامر القلوب، وتشحن به بطاريتها الفارغة» [١].

٥- الجانب النفسي العاطفي:

نجد في كتابات الشيخ ومحاضراته وخطبه، ما يفيد أن «الجانب النفسي العاطفي « هو من جوانب التربية الإسلامية، ومن ذلك ما يلي:

١- تقريره في كلامه على حقيقة الإنسان أنه ليس مجرد عقل أو جسم فقط، وإنما فيه قلب، وعواطف، وأشواق، ومحبة، وهيام، تحتاج إلى تربية، وتوجيه نحو محبة الله، ولما يتصل بحاجاته، وميوله، ومتطلباته، يقول الشيخ: «... إن الإنسان ليس عقلاً مجرداً، ولا كائناً جامداً.. إن الإنسان عقل، وقلب، وإيمان وعاطفة، وطاعة، وخضوع، وهيام، وولع، وحب وحنان، وفي ذلك سر عظمته، وشرفه وكرامته...

إن صلة هذا الإنسان بربه.. هي صلة حب، وعاطفة كذلك، والدين لا يمنع منه ذلك، بل يدعو إليه، ويغذيه، ويقويه، فتارة يقول القرآن ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [٢] وتارة يقول: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ..﴾[٣].. إن الصفات - أي صفات الله - هي التي تثير الحب، وتبعث الحنان، لذلك أطال القرآن في ذكرها..» [٤]؟

٢- تأكيده للمربين والمعلمين على الدورالفعال للعبادات في تربية الجانب النفسي العاطفي عند الإنسان، فالصلاة «... استجابة لغريزة البشر النوعية، غريزة الضعف والطلب، وغريزة الالتجاء والاعتصام،.. وهي غذاء الروح

(١) المرجع السابق ص٢٤٣..
(٢) البقرة: ١٦٥ .
(٣) التوبة: ٢٤ .
(٤) المرجع السابق.

وبلسم الجروح، ودواء النفوس،.. وأما النوافل فإنها، تورث اضمحلال العبد في إرادة الله تعالى، وخشيته؛ وحُبِّه، والانسلاخ عن الطبيعة السبعية، أو البهيمية، التي هي مصدر الظلم والطغيان، والإثم والعدوان، ومصدر الهوى، ومخالفة أمر الله..» [١]. وأمّا دور الزكاة في تربية الجانب النفسي العاطفي في المسلم فلا يقل عن دور الصلاة [٢]، وكذلك بالنسبة للصوم [٣] والحج [٤].

٣-توجيهه العلماء والمربين أن يكونوا مثل العلماء العارفين الربانيين الذين كانوا يعنون بتربية الجانب النفسي العاطفي في ذواتهم، وفي تلامذتهم، حيث كانوا .. «يدعون إلى التزكية الخالصة من شوائب العجمة، والفلسفة، وإلى «الإحسان» و«فقه الباطن» من غير تحريف، وانتحال تأويل، ويُجَددِّون هذا الطب النبوي. ويوجدون في الجمهور، قوة مقاومة الشهوات، وفتنة المال والولد، وزينة الحياة الدنيا..» [٥] ومظاهر الترف والزينة والتفاخر.

٤-تأكيده للعلماء والمربين ضرورة تربية الجانب النفسي العاطفي في تلامذتهم، بتنمية محبتهم لله، ولرسوله، وللإقبال على الآخرة، والرغبة في الجنة، وإيثار الآخرة على العاجلة، والطمع في مرضاة الله وثوابه، وبمعالجة عبادة النفس، والهوى، واتباع الشهوات، والبحث عن أكبر كمية من الثراء، وأي نوع من العزِّ والشرف، وأي جاه محسود، ومنصب مرموق [٦].

---

(١) الأركان الأربعة، مرجع سابق. ص٨٥

(٢) انظر: المرجع السابق. ص١٤٦ وما بعدها.

(٣) انظر: المرجع السابق. ص٢٠٢ وما بعدها.

(٤) انظر: المرجع السابق. ص٢٢٥ وما بعدها.

(٥) ربانية لا رهبانية، مرجع سابق. ص١٤.

(٦) عبارات مقتبسة من كتاب « الطريق إلى السعادة والقيادة» مرجع سابق. ص٢١٧-٢١٨.

٦- الجانب الاجتماعي الأخلاقي:

تجد في كتابات الشيخ وخطبه ومحاضراته الكثير مما يدل على أنه يعد تربية «الجانب الاجتماعي الأخلاقي» من جوانب التربية الإسلامية. ومن ذلك ما يلي:

١- تأكيده في كتابه «العقيدة والعبادة، والسلوك في ضوء الكتاب والسنة، والسيرة النبوية» على أهمية التربية الاجتماعية الأخلاقية في القرآن الكريم، والسنة النبوية، وفي كتابات علمائنا المسلمين منذ القديم. حيث نجد فيه ما يلي:

أ- قوله في فصل جعل عنوانه «المدرسة الربانية لتهذيب الأخلاق وتزكية النفوس: «وهنا مجموعة من آيات، هي تعليمات أساسية، لتهذيب الأخلاق، وتزكية النفوس، وترياق لسموم غوائل النفس، ومكايد الشيطان، وأمراض القلوب، لا يَعْدِلُه ترياق آخر، في القوة والتأثير، فإنها تنزيل من حكيم حميد، وشرع من فاطر النفوس. وتعليم من النبي المعصوم.. من أخذ نفسه بها، وراقبها في جد وصرامة، وفي إخلاص وأمانة، بلغ الغاية من تهذيب الأخلاق، وتزكية النفس، وإذا أخذ بها فرد، سعد وتزكى، وإذا أخذ بها مجتمع كان مجتمعاً مثالياً» [1].

ب - قوله في فصل جعل عنوانه «تهذيب الأخلاق، وتزكية النفوس، والأخلاق، والشمائل النبوية» «.. مهمة تهذيب الأخلاق، وتزكية النفوس، تشغل مكاناً كبيراً في دائرة الدعوة النبوية، ومقاصد البعثة المحمدية..» [2].

ج - جعل عنوان مقدمة الكتاب «نظرة في الكتب التوجيهية التربوية الممثلة للمكتبة الدينية في مختلف العصور، والحاجة إلى تأليف جديد « ذكر

---

(١) العقيدة والعبادة والسلوك، مرجع سابق. ص١٥٣.

(٢) انظر المرجع السابق. ص١٣٤.

فيه أنه «وُجدَ- بطبيعة الحال، في طبقة المعنيين بشؤون هذه الأمة، واتجاهات هذا المجتمع، والمطلعين على كثرة متطلبات الحياة، ومشاكل العصر، وحيرة المسلم بها- شعورٌ بالحاجة إلى كتاب منقّح يكون مرشداً ودليلاً للمسلم في العبادات، والمعاملات، والأخلاق، والعادات، وقانوناً ودستوراً للحياة..» [(١)] وذكر من هؤلاء العلماء: الإمام الغزالي وكتابه «إحياء علوم الدين»، والإمام ابن الجوزي، وكتابه «منهاج القاصدين»، والإمام الحافظ ابن قيم الجوزية، وكتابه «زاد المعاد في هدي خير العباد» وقرر أنه « ... أكبر مجهود في هذا الاتجاه وأعظمه قبولاً، وانتشاراً..» [(٢)] وكان الشيخ عندما يعرف بمحتوى كل كتاب يشير إلى الجوانب الأخلاقية الاجتماعية فيه [(٣)].

٢- تأكيده أنه قد نيطت بهذه الأمة الإسلامية، مسؤولية الوصاية على العالم، والحسبة على الأخلاق، والاتجاهات، وسلوك الأفراد والأمم، ومسؤولية القيام بالقسط والشهادة لله، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، واعتبار نفسها أنه تسأل يوم القيامة عن مدى قيامها بهذا الواجب..[(٤)].

٣- توجيه نظر المسؤولين والقادة المربين إلى ضرورة الاهتمام بتربية الجانب الاجتماعي الأخلاقي في المتعلمين، يقول: « ... الجامعات مقصرة في العناية بالتربية الخلقية.. وضرب الأمثلة العملية، وعرض النماذج الخلقية الجميلة،... وذلك يجعلني أشك في مستقبل هذه الجامعات من ناحية الأخلاق، وبذلك يخيل إلينا أن النقص في أساس هذا التعليم، وإذا لم يزل هذا النقص، فإن التعليم لا يزال يؤتي هذه الأكل، والنقص هو اختلال الاتزان بين المعلومات والأخلاق» [(٥)].

---

(١) المرجع السابق، ص٥-٦.
(٢) المرجع السابق. ص١١.
(٣) انظر في المرجع السابق: ٧-٢٠
(٤) الإسلام، أثره في الحضارة مرجع سابق. ص١٠٣.
(٥) مذكرات سائح في الشرق العربي، مرجع سابق. ص١٢٢-١٣٢

٤- دعوته إلى ضرورة تربية الجانب الأخلاقي عند الأفراد بتخليتها عن الرذائل، وتحليتها بالفضائل، لأن «.. الأخلاق الرذيلة هي الحجب الصفيقة، التي تمنع من الانتفاع بالتعليمات النَّبويَّة، والانصباغ بصبغة الله، وهي التي تجعل الإنسان فريسة للنفس، ولعبة للشيطان، وتعرضاً للخطر،وتورطاً في المهالك» [١].

٥- تقريره أن من وظائف أية مؤسسة تعليمية تربوية إسلامية أن تعنى بتربية الناشئين والمتعلمين على الأخلاق الفاضلة، وتزكية نفوسهم، حيث يقول: «... ومن وظيفة كل مدرسة إسلامية أو جامعة إسلامية، ومركز إسلامي للتعليم والثقافة، أن تخرج رجالاً يقومون عن جدارة، ومقدرة بالتلاوة، وبتعليم الكتاب والحكمة، وبالتزكية: الأركان الأربعة، والمقاصد الأولى التي كانت لها البعثة..» [٢]، والشيخ يرى أن المراد بالحكمة «الأخلاق الفاضلة، والآداب الإسلامية..» [٣] والمراد بالتزكية «.. تهذيب النفس، وتحليتها بالفضائل وتخليتها من الرذائل..» [٤].

٧-الجانب الإبداعي الابتكاري:

نجد في كتابات الشيخ ومحاضراته، ما يدل على أنه يعد «الجانب الإبداعي، الابتكاري» من جوانب التربية الإسلامية، ومن ذلك ما يلي:

١-حزنه وأسفه على عدم وجود ظاهرة الإبداع والابتكار في الميادين العلمية عند شباب الأقطار الإسلامية، وذلك لعزوفهم عن الدراسات العلمية، والتجريبية والتطبيقية، واهتمامهم بالدراسات الأدبية، والإنسانية، حيث يقول:

---

(١) العقيدة والعبادة، والسلوك، مرجع سابق. ص١٨٠.
(٢) الطريق إلى السعادة والقيادة، مرجع سابق. ص٢١٧-٢١٨
(٣) المرجع السابق. ص٢١٥.
(٤) المرجع السابق. ص٢١٧.

«... ولكنه مع الأسف، إن الأفاضل من العرب، إنما كان موضع اهتمامهم التاريخ، أو الأدب فقط، وما بذلوا عنايتهم على العلوم التجريبية من العلم، والكيمياء، والفيزياء، إلاّ قليلاً جداً، ومن ثم لم ينبغ عبر البلاد الإسلامية، رجل يبتكر نظرية علمية، أو يسلم له بالأوساط العلمية بالسبق، والفضل في أي مجال، أو يكون محط أنظار، وموضع إعجاب في المحافل الدولية، والمجالس العلمية العالمية..»[1].

٢-حثّه الشباب المسلمين على الاجتهاد-كل في مجال تخصصه- ليبدعوا ويبتكروا، ويخترعوا، ما يؤهلهم للفوز بأرقى الجوائز العلمية العالمية، ويلفتوا نظر العالم، ويدخلوا السرور على قلوب المسلمين حيث يقول: «أيها الشباب، إخوتي الطلبة الأعزاء: اجتهدوا، أنتم في مجال علم الزراعة- المحاضرة كانت في جامعة الزراعة بفيصل آباد- وأحرزوا فيه قصب السبق، حتى تستطيعوا أن تبتكروا نظرية جديدة، ذات قيمة تستأهلكم لجائزة نوبل.. يا سادة: إنني ألفت أنظار الفتية المسلمين في كل أنحاء الأرض، ولاسيما في البلاد والأقطار الإسلامية إلى ذلك، وأستقطب اهتمامهم إلى أن يقوموا بعمل عظيم، ذي أصالة، وثورة تسترعي انتباه العالم، ويجعله يؤخذ به، ويعترف بأن في المسلمين من يتمتع بالمؤهلات العقلية، وقدرة الابتكار، والإنتاج، والعبقرية، والذكاء العجيب»[2].

عاشراً - أساليب التربية الإسلامية:

نجد في كتابات الشيخ، ومحاضراته وخطبه مايدل على أن من أساليب التربية الإسلامية التي ينبغي أن تأخذ بها المؤسسات التربوية الإسلامية،

---

(١) الطريق إلى السعادة والقيادة - مرجع سابق. ص١٧٥ .

(٢) المرجع السابق. ص١٧٥-١٧٦ .

وترى أنها ينبغي أن تكون أساليب تربوية حكيمة، يقول: «.. إن إنشاء الجيل الجديد، أو تقويم الجيل المعاصر الذي لم يفقد صلاحيته ونموه ليس بالأمر الهين.. إنها تتطلب أساليب التربية الحكيمة، العميقة الأثر، وجهوداً عملية في ميدان الدعوة والإصلاح..»[1] ومن هذه الأساليب التربوية الحكيمة التي نجدها عند الشيخ ما يلي:

١- التربية بالحوار:

يرى الشيخ أن أسلوب التربية بالحوار، كان من أساليب التربية الإسلامية التي استعملها رسول الله ﷺ في تعليمه وتربيته ودعوته كثيراً، ومن ذلك الحوار الذي جرى بينه -عليه الصلاة والسلام-، وكنانة بن عبد ياليل [2]، يقول الشيخ: «وكانت الوفود تتعلم الإسلام، وتتفقه في الدين» ويسألون رسول الله ﷺ عمّا يجول في خاطرهم في بساطة وصراحة، ويجيبهم رسول الله ﷺ، في بلاغة وحكمة، ويستشهد بالقرآن، فيؤمنون ويطمئنون»[3] ويذكر- بعد هذا- مثالاً لذلك يجعل عنوانه «بين وثني جاهل، وبين نبي معلم»[4].

٢- التربية بالقدوة:

نجد عند الشيخ مايفيد أن من أساليب التربية الإسلامية «التربية بالقدوة»، ومن أمثلة ذلك أن رسول الله ﷺ شارك المسلمين في حفر الخندق - رغم التعب والشدة - ليكون قدوة لهم، يقول الشيخ: «وعمل رسول الله ﷺ في حفر الخندق، ترغيباً للمسلمين، في الأجر، وعمل معه المسلمون فيه، فَدَأب فيه ودأبوا.

(١) الإسلام والحكم، مرجع سابق. ص ٢٨.
(٢) السيرة النبوية، مرجع سابق. ص٤٣٨
(٣) المرجع السابق. ص٤٣٧-٤٣٨.
(٤) المرجع السابق. ص٤٣٨.

وكان البرد شديداً، ولا يجدون من القوت إلاّ ما يسدُّ الرمق، وقد لا يجدونه، فيقول أبو طلحة: شكونا إلى رسول الله- ﷺ- الجوع، ورفعنا عن بطوننا عن حجر حجر، فرفع رسول الله- ﷺ- عن بطنه حجرين، وكانوا مسرورين، يحمدون الله ويرتجزون، ولا يشكون ولا يتعتبون» [1] وممّا يدل على أن أهمية هذا عند الشيخ تذكير الدعاة، والمربين أن «من مزايا الأنبياء- عليهم السلام- ومن كان على قدمهم أنهم يأخذون بالعزيمة في الدين، ولا يأخذون بالرخصة- إلاّ بياناً للحكم الشرعي، وشكراً لنعمة الله، ورفعاً للحرج عن الأمة» وذلك لأنهم قدوة للناس، ونماذج يتأثرون بهم، يقول الشيخ: «لأن اتباع الناس للدين، وعملهم به بمقدار تصلب هؤلاء السادة في الدين، وتمسكهم به، فإذا اهتم هؤلاء بالنوافل اهتم الناس بالفرائض، وإذا اكتفى القادة بالفرائض، استرسل الناس إلى تركها. والاستهانة بحقها..» [2]، ومما يدل على هذا الأسلوب التربوي الحكيم، فعل رسول الله- ﷺ- بعد فراغه من صلح الحديبية، حيث « .. قام إلى هديه فنحر، ثم جلس فحلق رأسه- وعظُم ذلك على المسلمين- لأنهم خرجوا وهم لا يشكون في دخول مكة والعمرة، ولكن لما رأوا رسول الله -ﷺ- قد نحر-، وحلق، تواثبوا ينحرون ويحلقون» [3].

٣-التربية بالحوادث:

نجد عند الشيخ ما يفيد أن الحوادث التي تمر بالأمة ينبغي أن توظف لتكون من أساليب التربية لأفراد الأمة وأبنائها، حيث يرى- مثلاً- أن « ... ما وقع في أحد من محنة للمسلمين،تمحيصاً وتربية لهم..» [4] على تحمل المصائب والخسائر، وعلى الثبات على العقيدة، وعلى عدم مخالفة أوامر

(١) المرجع السابق. ص٢٨١-٢٨٢.
(٢) الإسلام والحكم، مرجع سابق. ص٢٤.
(٣) السيرة النبوية، مرجع سابق. ص٣١٧.
(٤) المرجع السابق. ص٢٧١-٢٧٢ .

القيادة الإسلامية الرشيدة. وَنجد الشيخ يستفيد من هذا الأسلوب في حياته الدعوية والتربوية، منها كلامه على «خطورة التعصب اللغوي والثقافي» بعد حوادث المسلمين في بنغلادش [١] وكلامه على «المأساة الأخيرة في العالم العربي- دراستها من الناحية الدينية، والخلقية، والمبدئية، والدعوية، وتحليل أسبابها، وانعكاساتها»، وذلك بعد حادثة غزو العراق للكويت [٢] ومحاضرته عن «مستقبل الأمة العربية الإسلامية بعد حرب الخليج - دروس وعبر يجب أن ينتفع بها، وفجوات وثغرات يجب أن تسد» [٣].

٤- التربية بالمواقف:

نجد عند الشيخ ما يفيد أن التربية بالمواقف، من أساليب التربية الإسلامية، حيث اتبع رسول الله ﷺ في مرات متعددة، منها، تربيته المسلمين في حجة الوداع -بشكل عام-، حيث «خرج من المدينة ليحج البيت، ويلقى المسلمين، ويعلمهم دينهم ومناسكهم، ويؤدي الشهادة.. وكانت هذه الحجة تقوم مقام ألف خطبة، وألف درس، وكانت مدرسة متنقلة، ومسجداً سياراً، وثكنة جوالة، يتعلم فيها الجاهل وينتبه الغافل، وينشط فيها الكسلان، ويقوى فيها الضعيف، وكانت سحابة رحمة تغشاهم في الحل والترحال، وهي سحابة صحبة النبي ﷺ وحبّه وعطفه، وتربيته وإشرافه» [٤]ومن أمثلة أسلوب التربية بالمواقف، خطبة رسول الله ﷺ يوم عرفة [٥]، وخطبته في أوسط أيام التشريق [٦].

---

(١) الإسلام في عالم متغير، مرجع سابق. ص١١-٣٤

(٢) المأساة الأخيرة في العالم العربي، ط١ (الهند، المجمع الإسلامي العلمي، ١٤١٠/١٩٩٠).

(٣) مستقبل الأمة العربية بعد حرب الخليج، (الهند، دار عرفات للترجمة والنشر والتوزيع) ١٤١١/١٩٩١.

(٤) السيرة النبوية، مرجع سابق، ص٤٤١-٤٤٢.

(٥) انظر نص الخطبة في المرجع السابق ص٤٤٩-٤٥٠

(٦) انظر نص الخطبة في المرجع السابق ص٤٥٠-٤٥٢.

٥- التربية بالتعايش مع المسلمين ومخالطتهم - وهذا بمثابة إقامة دورات تربوية:

يذكر الشيخ عند حديثه عن «عام الوفود» وتقاطرها إلى المدينة، ونزولهم في جزء من المسجد، أو في فنائه، وتوصية صحابته بهم ما يمكننا أن نعد أسلوب التربية بالتعايش مع المسلمين، أو أسلوب التربية بإقامة دورات تربوية، من أساليب التربية الإسلامية، يقول الشيخ: «كانت - أي الوفود- تتعلم الإسلام، وتتفقه في الدين، ويشهدون أخلاق رسول الله ﷺ وعشرة أصحابه، وقد تضرب لهم خيم في فناء المسجد، فيسمعون القرآن، ويرون المسلمين يصلون، ويسألون رسول الله ﷺ عمّا يجول في خاطرهم في بساطة وصراحة، ويجيبهم رسول الله ﷺ في بلاغة وحكمة، ويستشهد بالقرآن، فيؤمنون ويطمئنون»(١) فتعود هذه الوفود « .. إلى مراكزها تحمل روحاً جديدة، وشحنة إيمانية في الدعوة إلى الإسلام، وكراهة شديدة للوثنية وآثارها، والجاهلية وشعائرها»(٢).

٦- التربية عن طريق الرحلات، والجولات الدعوية:

تشير كتابات الشيخ أنه كان يستعمل هذا الأسلوب بنفسه، حيث يخرج مع طلابه يوم الخميس بعد العصر، ويذكر أنه « .. قد أفادت هذه الجولات، والتحركات طلاب دار العلوم من النواحي الدينية الإصلاحية، من تحسن وتقدم في الاهتمام بالصلوات، والمحافظة على ذكر الله تعالى، وقيام الليل، مع فوائد أخرى، من تقشف وتحمل للمشاق، وتآلف وتحابب، وأخوة، وصلة قريبة شخصية بالمدرسين، والاطلاع على مواضع الضعف، وعلل النفس في الجماهير المسلمة، ومشاهدة تخلف العامة دينياً وخلقياً، وفشو الجهل فيهم،

(١) المرجع السابق. ص٤٣٧-٤٣٨.

(٢) المرجع السابق. ص٤٣٢.

ونشأ في الممارسين لهذا العمل الشعور بمسؤوليتهم الدينية»[1]، ولإيمان الشيخ بمدى أهمية هذا الأسلوب التربوي نجده يذكره عند كلامه على «قيادة وأسس التربية والتعليم في الأقطار الإسلامية»، حيث يقول: «إن النقطة المهمة الثانية هي: التشبع بروح الدعوة، والاختلاط بالشعب.. وبهذه الدعوة والرحلات والمخيمات في سبيلها، والاختلاط بالشعب على اختلاف طبقاته تتمكن من محاربة داء شديد، حلَّ جديداً بدور التعليم ورجالها، وهو العزلة عن العالم، الذي يعيشون فيه، والانقطاع عن الأمة التي هم من أفرادها.. وبكثرة اختلاط الطلبة، بالشعب في طريق الدعوة الدينية، والتعليمية، والإصلاحية.. بشكل منظم، وتحت إشراف الأساتذة، تنشأ في الطلبة روح الدين، والجهاد، والكفاح في سبيل الحياة، ويتعودون على الشدة والغلظة في العيش، وتنشأ فيهم كذلك روح الأخوة الصادقة، والمحبة المخلصة، وروح الخدمة والإيثار..»[2].

٧- بعض أساليب تربوية حكيمة أخرى:

نجد في كتابات الشيخ ومحاضراته توجيهات، ووصايا، وتعليمات، وعرض خبرات ذاتية، ومكتسبة تتصل ببعض الأساليب التربوية الحكيمة، التي ينبغي أن يأخذ بها المعلمون والمربون في حياتنا المعاصرة، ومن ذلك قوله: «الأقطار الإسلامية اليوم بحاجة إلى فريق.. يحل العقد النفسية، والعقلية التي أحدثتها الثقافة الغربية، أو أخطاء علماء الدين، أو سوء التفاهم، أو قلة الدراسة، والابتعاد عن الإسلام وجوّه، بالمقابلات، والصداقات، والمحادثات، والمراسلات، والرحلات، وبالأدب الإسلامي الصالح المؤثر، وبالروابط الشخصية، وبالنزاهة وعلو الأخلاق، وقوة الشخصية، والزهد في حطام الدنيا والعزوف عن

(١) في مسيرة الحياة - الجزء الأول- ط١ (بيروت -دار القلم- ١٤٠٧/١٩٨٧). ص١٨٦-١٨٧.
(٢) التربية الإسلامية الحرة - مرجع سابق: ص١٧-٢٠

الشهوات، وتمثيل أخلاق الأنبياء، وخلفائهم» [1]، والقارئ لسيرة الشيخ الذاتية في كتابه «في مسيرة الحياة» يجد أنه كان يستخدم هذه الأساليب، وغيرها من نحو: «الأحاديث الإذاعية، وإلقاء المحاضرات، واللقاءات الشعبية العامة، وصحبة الشيوخ، ومقابلة العلماء، وإصدار مجلات علمية وتوجيهية، ومؤلفات ومنشورات جديدة في شرح الدين الإسلامي، وعرض الفكرة الإسلامية.. إلخ.

الحادي عشر: غياب التربية الإسلامية - فرض نظام التعليم الغربي:

يأخذ موضوع «فرض نظام التعليم الغربي» في الأقطار الإسلامية- والذي أدى إلى غياب التربية الإسلامية- أو إضعاف تأثيرها في تربية أبناء المسلمين وناشئتهم، مساحة واسعة في كتابات الشيخ ومحاضراته، وخطبه، ورسائله، لإيمانه الشديد أن ذلك هو السبب الرئيسي للمآسي، والمخاطر والاضطرابات، والفتن، التي تصيب تلك الأقطار، ومجتمعاتها، وإنهاكها وإخراجها عن الصبغة الإسلامية، بل وصرفها عن عقائد الإسلام، وغاياته، ومقاصده وقيمه، ومبادئه، ومفاهيمه، وعن الدين وأحكامه وقواعده.

إن دراسة ما نجده عند الشيخ، مما يتعلق بالأسباب التي أدت إلى فرض نظام التعليم الغربي- أو غياب التربية الإسلامية تظهر لنا أنها- كما يراها الشيخ - على قسمين: أسباب خارجية، وأسباب داخلية، وسنعرض لكل منها- بإيجاز- لشدة وضوحها في كتبه [2] فيما يلي:

أ - الأسباب الخارجية:

١- غارة الأمم الغربية - الحضارة الغربية:

يؤكد الشيخ على هذا السبب كثيراً، لأنه يراه أسَّ البلاء والشقاء، والأسباب الأخرى، يقول: «كان هذا العصر مدهشاً، مؤلماً للعالم الإسلامي،

---

(١) ردة ولا أبا بكر لها - (مكة - دار الثقافة بمكة - ١٣٨٢). ص٢٢.

(٢) أهم الكتب التي تناولت هذا الموضوع «التربية الإسلامية الحرة» و « الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية».

وكان مماثلاً في شيء كثير بالنصف الأول من القرن السابع الهجري الذي قضى فيه التتار على السلطة الإسلامية بالهجوم على مدن العالم الإسلامي، الرئيسية المخصبة، ثم باحتلالهم فيها، وأبدلوا عزة المسلمين بالذل و العار،... ولكن غارة الأمم الغربية وبلدانها- التي تمت في الثلث الأول للقرن الرابع عشر الهجري، وأوائل القرن العشرين الميلادي- اختلفت عنها كلياً فقد رافقتها فلسفات جديدة، ونظام جديد للتعليم والتربية، وأفكار وقيم جديدة، وجيش هائل للإلحاد والتشكيك، ومذهب جديد للمادية» [1]، «وكانت هذه الحضارة- بمعناها الواسع - مجموع عقائد، ومناهج فكرية، وفلسفات، ونظم سياسية واقتصادية، وعلوم طبيعية، وعمرانية، واجتماعية، وتجارب خاصة مرت بها الشعوب الأوروبية التي تزعمت هذه الحضارة في رحلتها الطويلة، وكانت مظهر تقدم العلم البشري، وعلوم الطبيعة، وعلم الآلات، والعلوم الرياضية، ومجموع نتائج جهود علماء وباحثين عبر القرون» [2].

٢-الثورة البلشفية:

تعدّ «الثورة البلشفيّة» -عند الشيخ بمثابة الحضارة الغربية، من أسباب غياب «التربية الإسلامية» - بل ربما كانت أقوى تأثيراً، وأشد بأساً- حيث « .. لم تكن تتناول التاريخ والجغرافية والخريطة السياسية بالتغيير والتحريف فقط. ولم تكن مقصورة في مجال الاقتصاد والسياسة فحسب، إنما كانت تهدم أسس العقيدة، والعمل والأصول والمبادئ، والأخلاق والمجتمع، بل أساس الحياة الإنسانية، والشعور الإنساني بأسره، لكي تقيم على أنقاضه بناءً جديداً، وكانت تهدف الإسلام والمسلمين بأضرارها، وضرياتها أكثر من أي شيء.. ومع الأسف لم يكن هناك من يشعر بهذ الخطر الداهم في وقته

---

(١) القرن الخامس عشر الهجري، مرجع سابق. ص٦٣ .

(٢) الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية، مرجع سابق. ص١١-١٢

ويقاومه إلاّ قليلاً.. هذه الثورة البلشفية، لم تشمل دول آسيا المتوسطة الخصبة التاريخية، ذات السكان المسلمين، وتركستان الروسية، والصينية وحدها، ولم تهددها بالردة الفكرية والحضارية فحسب، بل جعلت أجيالها الصاعدة في مواجهة الردة الإيمانية، والعقائدية، وأصبحت تعيد تاريخ الأندلس الذي حدث في القرن التاسع، بل الواقع أن الدول العربية، ومركز الإسلام فضلاً عن شبه القارة الهندية أجبرت على مواجهة هذا الخطر الكبير» (١).

٣- تطبيق نظام التعليم الغربي، واستعارة مناهجه التعليمية:

يؤكد الشيخ أن تطبيق نظام التعليم الغربي - بشكل عامّ- واستعارة مناهجه التعليمية -بشكل خاصّ- كان أقوى الأسباب لغياب التربية الإسلامية عن الأقطار والمجتمعات الإسلامية، يقول: «لا يخفى على المطلع الخبير أن لنظام التعليم روحاً وضميراً كالكائن الحي له روح وضمير، إن روح نظام التعليم وضميره، إنما هو ظل لعقائد واضعيه، ونفسيتهم، وغايتهم من العلم، ودراسة الكون، ووجهة النظر إلى الحياة ومظهر أخلاقهم... إن هذه الروح هي التي تسري في هيكله تماماً.. تلك هي قصة نظام التعليم الغربي.. فإذا طبّق هذا النظام التعليمي في بلاد مسلمة، أو مجتمع إسلامي يحدث به قبل كل شيء صراع عقلي، ثم يتدرج ذلك إلى تزعزع العقيدة، والردة الفكرية وأخيراً إلى الردة الدينية.. وما أحسن ما كتبه أحد علماء الغرب النافذين - محمد أسد- فإن التنشئة الغربية لأحداث المسلمين، ستقضي حتماً إلى زعزعة إرادتهم في أن يعتقدوا أن ينظروا إلى أنفسهم على أنهم هم ممثلو الحضارة الإلهية الخالصة، التي جاء بها الإسلام وليس ثمة من يرى في أن العقيدة الدينية آخذة في الاضمحلال بسرعة بين المتنورين الذين نشؤوا على أسس

---

(١) القرن الخامس عشر الهجري، مرجع سابق ص٦٢-٦٥

غربية» (١) ثم يذكر الشيخ كلام- محمد أسد، عن أجزاء برامج التعليم الغربية المختلفة، المؤثرة في عقلية الناشئين المسلمين، ونفسياتهم، وأخلاقهم، ومفاهيمهم (٢). ولذا يقول الشيخ «لقد كان نظامُ التعليم الغربي محاولةً عميقة وخفية لإبادة العنصر الإسلامي والقضاء عليه، وانتقل مفكرو الغرب من طريقتهم الممقوتة القديمة، التي كانوا يؤثرونها في إبادة الأجيال، والفتك بهم إلى هذه الطريقة الجديدة التي قرروا صوغها في قالبهم، فأسسوا لهذا الغرض مراكز كثيرة باسم الكليات والجامعات» (٣). وطبقوا فيها مناهجهم التعليمية مع أن «قادة التربية والتعليم في الغرب لا يرون استيراد منهج تعليمي من بلد إلى بلد، ولو كانا يلتقيان على العقيدة، والفكرة الأساسية في الاجتماع، والنظرة الواحدة إلى الإنسان والحياة والكون، فلا تفكر إنجلترا في استعارة المناهج التعليمية،والنظريات التربوية من فرنسا، ولا فرنسا من إنجلترا..» (٤) وكذلك رفضت البلاد السوفيتية الأخذ بمبدأ التعليم والتربية كمبدأ عام.. ولم تسمح باستيراد منهج من مناهج التعليم من خارج المعسكر الشيوعي، ولا إدخال العلوم والآداب التي نشأت في حضانة المربين البورجوازيين والارستقراطيين-كما تقول اللغة السوفيتية» (٥).

٤- حركة التجديد أو التغريب:

يرى الشيخ أن من أسباب غياب التربية الإسلامية عن الأقطار والمجتمعات الإسلامية «حركة التجديد والتغريب في العالم الإسلامي» (٦) نتيجة:

---

(١) التربية الإسلامية الحرة- مرجع سابق. ص٢٢-٢٦

(٢) المرجع السابق. ص٢٦-٢٨.

(٣) المرجع السابق. ص٣٠.

(٤) المرجع السابق. ص٥٧

(٥) المرجع السابق. ص٥٤-٥٥.

(٦) الصراع بين الفكرة الإسلامية... مرجع سابق. ص١٧٧.

أ- لنظام التعليم الغربي [١].

ب - للمستشرقين ونفوذهم في ميدان التفكير [٢].

ج - لجهود طلائع المتخرجين في أوروبا من أبناء المسلمين [٣].

د - لفتنة بعض القيادات الفكرية والسياسية بحضارة الغرب [٤].

الأسباب الداخلية:

يكشف الشيخ عن الأسباب الداخلية التي شاركت في غياب التربية الإسلامية عن الأقطار والمجتمعات الإسلامية، نذكر منها - بإيجاز- مايلي:

١- تخلف العلوم الإسلامية، وركود الفكر الإسلامي:

يقول الشيخ: «ومن العوامل التي أثرت في انسياق الطبقة المثقفة في العالم الإسلامي، وقادته -الذين بأيديهم أزمة الحكم- مع الحضارة الغربية- وبعدهم عن الدين، وانصرافهم عنه، ذلك الجمود العقلي، والركود الفكري، الذي طرأ على مراكز العلوم الإسلامية، وعلى علمائها من مدة طويلة، ومن أجل ذلك عجزت هذه العلوم الحافلة بالحياة والروح، الصالحة للنمو والازدهار، عن إقامة برهان على صلاحيتها التي تتدفق بها، ومسايرتها مع الحياة المتطورة، وذلك في عصر كانت حاجتها إلى ذلك أشد وأعظم من حاجة كل عصر..» [٥].

(١) انظر: المرجع السابق. ص١٧٧-١٩٢.

(٢) انظر: المرجع السابق. ص١٩٣-٢٠٩

(٣) انظر: المرجع السابق. ص١٩٣-١٣٧.

(٤) عاصفة يواجهها العالم الإسلامي والعربي- (القاهرة- دار الجهاد ودار الاعتصام) بدون تاريخ. ص٣١.

(٥) الصراع بين الفكرة الإسلامية... مرجع سابق. ص٢٠٩-٢١٦.

٢- ضعف حال المسلمين:

تفيد كتابات الشيخ ومحاضراته، أن من الأسباب التي ساعدت على غياب التربية الإسلامية، وانتصار أعدائهم عليهم «حال المسلمين في القرون الأخيرة.. فلم يزدد المسلمون إلاّ ضعفاً، ولم تزدد أخلاقهم على مر الأيام إلاّ انحطاطاً وتدهوراً، ولا أحوالهم وشؤونهم إلاّ فساداً، حتى أصبحوا في فجر القرن الرابع عشر الهجري أمة جوفاء، لا روح فيها ولا دم، وصاروا كصرح عظيم من خشب منخور، قائم ، لا يزال يؤوي الناس ويهول من بعيد، أو كدوحة قد تآكلت جذورها، ونخر جذعها العظيم، ولم تنقلع بعد، وأصبحت بلادهم مالاً سائباً لا مانع له، وأصبحت دولهم فريسة لكل مفترس، وطعمة لكل آكل..» [١].

٣ - ابتلاء المسلمين بالشك، والذل النفسي:

يقول الشيخ «فتش عقلاؤهم -أي عقلاء الأعداء- عن منابع القوة الكامنة في نفوس المسلمين وقلوبهم، فوجدوا أن أكبر منبع للقوة والحياة هو (الإيمان).. فعادوه وسلطوا على المسلمين عدوين هما أفتك بهم، وأضر من المغول والتتار، ومن الوباء الفاتك؛ الأول: هو الشك وضعف اليقين الذي لا شيء أدعى للضعف والجبن منه، والثاني: ما نعبّر عنه بالذل النفسي، وهو أنه صار المسلمون يشعرون بالذلة والهوان في داخل أنفسهم، وفي أعماق قلوبهم، ويزدرون كلّ ما يتصل بهم من دين وتهذيب وأخلاق، ويستحيون من أنفسهم، ويؤمنون بفضل الأوروبيين في كل شيء، ويعتقدون فيه كل خير.. وإذا تمكن هذا الذل من نفوس أمة، فقد ماتت وإن كنت تراها تغدو وتروح، وتأكل وتعيش» [٢] ولاشكَّ أن هذا جعل نفوسهم ضعيفة أمام الحضارة الغربية، مستسلمة لمفاهيمها ومبادئها ونظمها التعليمية والتربوية، وموادها الدراسية، وكتبها.. إلخ.. مما أدى إلى غياب التربية الإسلامية.

---

(١) المد والجزر، مرجع سابق. ص٣٨-٣٩.

(٢) المد والجزر، مرجع سابق. ص ٤٠ .

٤- معارضة بعض المربين تطوير نظام التعليم الإسلامي:

تفيد بعض كتابات الشيخ أن من الأسباب التي دعت المسؤولين والمثقفين إلى الانسياق إلى نظام التعليم الغربي الذي أدى إلى غياب التربية الإسلامية، معارضة بعض العلماء المربين المسلمين- خشية من الحضارة الغربية ونظامها التعليمي- تطوير نظام التعليم الإسلامي في مؤسساتهم ومراكزهم التعليمية، ويمثل هذه القيادات علماء الدين، الذين لم يمكنهم «جوُّهم الخاص الذي عاشوا فيه، وثقافتهم القديمة، من السيطرة على هذه الحضارة الغربية، والثقافة الجديدة وقيادتها إلى ناحية جدية، مجدية، تعود على الإسلام والمسلمين بالنفع والقوة..»[1].

الثاني عشر - نتائج غياب التربية الإسلامية - أو تطبيق نظام التعليم الغربي:

وضع الشيخ في كتاب «التربية الإسلامية الحرة» فصلاً بعنوان «صوغ نظام التربية والتعليم من جديد»[2] وكان أول ما بحث فيه «نتائج تطبيق النظام التعليمي الغربي في الشرق الإسلامي»[3] ليصل في النهاية إلى تقرير أنه «لا بدَّ من بدء عملية تطوير المناهج لهذا الغرض - نداء الوقت وحاجة العالم المعاصر - وسبك منهج تعليمي جديد، يتغلغل في أحشائه الإيمان بالله، ويسيطر على جميع فروعه وجزئياته، في الأوساط العلمية في الشرق»[4].

وسنذكر هنا - بإيجاز - بعض هذه النتائج التي جاءت في هذا الفصل[5]:

---

(١) الصراع بين الفكرة الإسلامية... مرجع سابق. ص ٧٤.

(٢) التربية الإسلامية الحرة، مرجع سابق. ص٢٣ .

(٣) المرجع السابق.

(٤) المرجع السابق. ص٤١ .

(٥) علماً أن الشيخ يتناول هذه النتائج في غير هذا الكتاب، وفي محاضراته وخطبه.

١- روح نظام التعليم وضميره -الذي يطبق في العالم الإسلامي- ظِلٌّ لعقائد واضعيه الغربيين، ونفسيتهم، وغايتهم من العلم ودراسة الكون، ووجهة النظر إلى الحياة ومظهراً لأخلاقهم.

٢- نظام التعليم الغربي يختلف في «الأساس، والقيمة، والمعيار» عن نظام التعليم الإسلامي.

٣- تطبيق نظام التعليم الغربي في البلاد المسلمة أدى إلى «صراع عقلي.. تزعزع العقيدة.. الردة الفكرية.. الردة الدينية»؟

٤- أثّرت أجزاء برامج التعليم الغربية في عقول الطلبة، ونفسياتهم وصياغتهم..

٥- ما حدث في الطلبة كان نتيجة تخطيط قادة الفكر الغربي، والدعوة إلى التجديد والتغريب.

٦- نظام التعليم الغربي بمجمله كان «مؤامرة دقيقة لإبادة العنصر الإسلامي» قتل في الأمة دينها، وخلقها، ومروءتها، ورجولتها، وغيَّر فيها عقليتها، ومفاهيمها، وقيمها، وأساليب التفكير فيها.

٧- اعتراف (سميث) بالتأثير العقلي الذي يتركه التعليم الغربي الحديث، ومراكزه في العالم الإسلامي، فقبلت «الحرية والإباحية التي تسود اليوم في العالم الإسلامي».

٨- ذكر الشيخ عدداً كبيراً من مفاهيم الغرب وقيمه التي هي من «ظلال التفكير الغربي في الجيل المثقف الحديث» من نحو: الدين قضية شخصية، فصل الدين عن الدولة، حرية المرأة، محاربة الحجاب، صرف النظر عن الربا والخمر والميسر، والعلاقات الجنسية المنطلقة.

٩- مأساة العالم الإسلامي الكبرى.. أن تظل الأقطار الإسلامية وحدها في فوضى تعليمية، وغموض والتباس، بل في تناقض ومصارعة.

وأجد أن مما يتصل بنتائج غياب التربية الإسلامية أو تطبيق نظام التعليم الغربي ما جاء في «نظرة محمد إقبال إلى نظام التعليم العصري ومراكزه» [١] التي ضمها الشيخ إلى كتابه «التربية الإسلامية الحرة»، وسأذكر منها - مختصراً- ما يتعلق بجنايات المدرسة - كما يراها د. محمد إقبال -، وعرضها الشيخ:

١- جناية النظام العظيمة هي: العناية بتربية العقل، واللسان، دون القلب والعاطفة والأخلاق، «فنشأ جيل غير متوازن القوى».

٢- من مآخذ د. محمد إقبال على التعليم أنه بعث على «التعطل وحب الهدوء والراحة» وأنه مصاب «بالتقليد والجمود» مجرد «من الابتكار والاجتهاد».

٣- يرى د. محمد إقبال «أن هذا الجيل حي قائم بنفسه، ويفكر بعقله، إنه يعتقد أنه ظل لأوروبا، وأن حياته عاريّة من الغرب».

٤- يرى د. محمد إقبال «أن نظام التعليم الغربي قد أضعف الروح المعنوية في الشباب المسلم، وجنى على رجولته جناية عظيمة».

وسأعرض هنا أخيراً بعض آثار غياب التربية الإسلامية، أو تطبيق نظام التعليم الغربي التي أجدها في كتابات الشيخ ومحاضراته وخطبه- مع مراعاة عدم التكرار مع ماسبق:

١- وقوع فجوة بين الإسلام والمسلمين [٢].

---

(١) التربية الإسلامية الحرة- مرجع سابق. ص٤٣-٤٨.

(٢) انظر: أ- أبو الحسن الندوي - خليج بين الإسلام والمسلمين (الهند- دارالعلوم، ندوة العلماء ١٣٧٥/١٩٩٥) ص٢٠-٢١ .

ب - مطالبة القرآن الانقياد التام والاستسلام الكامل- ط١ - (الهند - ندوة العلماء - لكهنؤ-١٤١٠-١٩٩٠) ص٢٠-٢١ .

٢- طغيان المادية والأنانية [(١)].

٣- حب الدنيا، وتقديمها على العقيدة [(٢)].

٤- حياة البذخ والترف، والتسابق في الفخر والزينة [(٣)].

الثالث عشر: حلول مشكلات « نتائج » غياب التربية الإسلامية وتطبيق نظام التعليم الغربي:

يهتم الشيخ في كتاباته ومحاضراته وخطبه أن يلفت نظر المسؤولين عن التربية والتعليم، والقادة والحكام التي ينبغي أن يؤخذ بها للقضاء على المشكلات «النتائج» التي أفرزها غياب التربية الإسلامية، أو تطبيق نظام التعليم الغربي في الأقطار والمجتمعات الإسلامية، ومن هذه الحلول مايلي:

١-إعادة نظام التعليم الإسلامي- أسلمة نظام التعليم:

يؤكد الشيخ أن السبيل الأهم لحل مشكلات «غياب التربية الإسلامية».. مهما تعقد وطال، واحتاج إلى الصبر والمثابرة، ليس إلاّ أن يصاغ هذا النظام التعليمي، صوغاً جديداً، ويلاءَمَ بعقائد الأمة المسلمة ومقومات حياتها، وأهدافها، وحاجاتها، ويُخْرِجِ من جميع مواده روحَ المادية، والتمرد على الله، والثورة على القيم الخلقية والروحية، وتعبد الجسم والمادة، وينفخ فيه روح التقوى، والإنابة إلى الله، وتقدير الآخرة، والعطف على الإنسانية..» [(٤)] ويعبّر الشيخ عن ذلك في إحدى محاضراته بقوله: «قلب نظام التربية والتعليم

(١) انظر أ- إلى الإسلام من جديد ط١ (القاهرة -دار النشر المصرية-). ص١٢٦-١٢٩.
ب : الطريق إلى السعادة والقيادة، مرجع سابق. ص٢٠٠ - وما بعدها.
(٢) المد والجزر، مرجع سابق. ص٤١.
(٣) انظر: أ-درس من الحوادث (الهند-المجمع الإسلامي العلمي-١٣٩٩/١٩٧٩). ص١٠-١١ .
ب - كيف يستعيد العرب مكانتهم، وكيف يحافظون عليها؟-ط١ (الهند- ندوة العلماء- لكهنؤ- ١٤١١/١٩٩٠). ص٢٧.
(٤) التربية الإسلامية الحرة-مرجع سابق. ص٣٧ .

المستورد من الغرب، المنتشر السائد في العالم الإسلامي، رأساً على عقب، وصوغه صوغاً إسلامياً جديداً..» [١]. لأن ذلك هو السبيل «لنقل مركز التوجيه من الغرب إلى الشرق... وإقصاء جميع العناصر التي تفقد الثقة بصلاحية الإسلام، وخلود رسالته، وتحدث البلبلة الفكرية، والاضطراب العقائدي، والتناقض في الحياة والنفاق والأخلاق، ونقل مركز عملية التكوين الفكري والتثقيف العالي من الغرب المحارب للإسلام، المتحرر من ربقة الدين، الثائر على القيم الخلقية إلى الشرق الإسلامي، ومن أساتذة ومربين مشككين إلى أساتذة ومربين مؤمنين متدينين» [٢].

٢-القضاء على ازدواجية التعليم:

يرى الشيخ وجوب القضاء على ازدواجية التعليم، لأنَّ «العلم وحدة لا تتجزأ ولا تقبل التوزيع والتصنيف» [٣] ولأن هذه الثنوية أو الازدواجية هي السبب الأكبر في الحيرة التي يعيشها الشباب.. فهنالك تناقض في المواد الدراسية.. إن هذا يحتاج إلى قلب نظام التعليم رأساً على عقب، يعني إحداث نظام تعليمي كوحدة متكاملة متناسقة.. ويحتاج إلى أناس عندهم الأصالة الفكرية.. إنه يحتاج إلى اجتهاد في المواد الدراسية، وهذا يحتاج إلى مشاريع عملاقة.. تتبناها الحكومات الإسلامية، والمجامع الإسلامية..» [٤].

٣- تربية فريق للبعث الإسلامي الجديد:

يرى الشيخ أن مما تحتاجه الأقطار والمجتمعات الإسلامية فريق إنقاذ ليقود عملية البعث الإسلامي الجديد، ويتم هذا بتربية « .. فريق يتجرد عن

(١) القرن الخامس عشر الهجري، مرجع سابق. ص ٧٦.

(٢) عاصفة يواجهها.. مرجع سابق. ص ٣٨.

(٣) المجتمع الإسلامي المعاصر « فضله وقيمته-حاجته ومتطلباته-وطريق الانتفاع به » -الهند-ندوة العلماء- لكهنؤ- ١٤١٠/١٩٨٩ . ص٢٨-٢٩ .

(٤) انظر: من نهر كابل إلى نهر البرموك- مرجع سابق. ص٢١٠-٢١٢ .

المطامع، ويخلص للدعوة، ويبتعد عن كل ما يوهم بأن همّه الدنيا والمادة، والتغلب على الحكومة، لنفسه أو عشيرته، أو حزبه، بحل العقد النفسية والعقلية التي أحدثتها الثقافة الغربية، أو أخطاء علماء الدين..»[١].

٤- إيجاد الوعي في الأمة الإسلامية، ونشره بين أفرادها:

يرى الشيخ خطورة «فقدان الوعي في الأمة، واقتناعها بكل دعوة، واندفاعها إلى كل موجة، وخضوعها لكل متسلط، وسكوتها على كل فظيعة. وأن تلدغ بجحر مرة بعد مرة، ولا تنصحها الحوادث، ولا تردعها التجارب» ويؤكد الشيخ أن من أعظم ما تخدم به هذه الأمة «... هو إيجاد الوعي في طبقاتها، ودهمائها، وتربية الجماهير التربية العقلية والمدنية والسياسية، ولا يخفى أن الوعي غير فشو التعليم، وزوال الأمية، وإن كانت هذه الأخيرة من أنجح وسائلها..»[٢].

ويرى الشيخ أن هذا ماكان «يمتاز به المجتمع الإسلامي الأول، المثالي الصحابي -رضي الله عنهم- بفضل التربية النبوية، الدقيقة الشاملة..»[٣].

٥- إعادة الثقة بالإسلام، وصلاحيته للقيادة والتوجيه:

يرى الشيخ أن مما ينبغي أن يعمل على تحقيقه في المجتمعات الإسلامية لحل مشكلات غياب التربية الإسلامية، أو آثار تطبيق نظام التعليم الغربي «إعادة الثقة في نفوس الطبقة المثقفة ومن بيدهم القيادة الفكرية والتربوية والإعلامية في البلاد والحكومات الإسلامية بصلاحية الإسلام، وقدرته لا على مسايرة العصر وتطوراته وتحقيق مطالبه - فحسب بل على قيادة الركب

---

(١) ردة ولا أبا بكر لها، مرجع سابق. ص٢٢.

(٢) كيف يستعيد العرب مكانتهم اللائقة بهم، وكيف يحافظون عليها، مرجع سابق. ص٢٧ وما بعدها.

(٣) الدعوة إلى الله، مرجع سابق. ص٨-٩ .

البشري إلى الغاية المثلى، وتجديف سفينة الحياة إلى برٍّ السلام والسعادة، وإنقاذ المجتمع البشري من الانهيار والانتحار الذي تعرض لهما تحت القيادة الغربية الخرقاء.. إن ضعف هذه الثقة أو فقدها هو داء هذه الطبقة المثقفة الناشئة في أحضان الثقافة الغربية، أو تحت ضغطها، وهو المسؤول عن كل تصرفاتها، وسبب الردة الفكرية، والحضارية التشريعية..» [١].

٦- عدم إخضاع حقائق الدين ومفاهيمه للتصورات الغربية:

يرى الشيخ أن من واجبات علماء الدين، وأساتذة الجامعات، والمربين، تربية الدعاة، والدارسين والناشئين على ضرورة «صيانة الحقائق الدينية، والمفاهيم الإسلامية، من التحريف وإخضاعها للتصورات العصرية الغربية، أو المصطلحات السياسية والاقتصادية، والبحث عن تفسير الإسلام تفسيراً سياسياً، والمغالاة في تنظير الإسلام،ووضعه على مستوى الفلسفات العصرية، والنظم الإنسانية، لأن هذه الحقائق الدينية هي أساس الإسلام الدائم، والأصل الذي منه البداية، وإليه النهاية..» [٢] ويرى الشيخ أن في «إخضاعها للتصورات الحديثة، أو تفسيرها بالمصطلحات الأجنبية، إساءة إليها لا إحساناً، وإضعافاً لها لا تقوية، وتعريضاً للخطر لا حصانة، ونزولاً بها إلى المستوى الوطيء المنخفض لا رفعاً لشأنها كما يتصور كثير من الناس» [٣].

٧- الاستفادة من حضارة الغرب على الوجه المشروع:

يرى الشيخ أن من حلول مشكلات غياب التربية الإسلامية الاستفادة من حضارة الغرب على الوجه المشروع، ويؤكد أن إبرازه لمخاطر هذه الحضارة

---

(١) المجتمع الإسلامي المعاصر، مرجع سابق. ص٣١-٣٢.
(٢) المرجع السابق. ص٢٨-٢٩.
(٣) دور الجامعات الإسلامية، مرجع سابق. ص٢٩-٣٠.

على الشخصية الإسلامية، وكيان الأمة المسلمة لا يقصد منه « .. تحريم الاستفادة من الحضارة الغربية في مرافق الحياة، واقتباس بعض ما توصل إليه العلم والصناعة، والاختراع في الغرب، من وسائل تسهيل وترفيه، وإغلاق الباب عن مصراعيه، فإن ذلك لا يقوله عاقل فضلاً عن مطلع على روح الدين وتعاليمه، والإسلام لم يزل ولا يزال واسع الأفق، متفتح القلب والنظر في الاستفادة بكل ما يصلح وينفع.» (١).

ونجد الشيخ يوجه المسؤولين والقادة إلى وجوب «معاملة الحضارة الغربية، بعلومها، ونظرياتها، واكتشافاتها، وطاقاتها، كمواد خام، يصوغ منها قادة الفكر، وولاة الأمور في العالم الإسلامي، حضارة قوية عصرية، مؤسسة على الإيمان والأخلاق والتقوى والرحمة والعدل في جانب، وعلى القوة والإنتاج والرفاهية وحب الابتكار في جانب آخر، يأخذون من علوم الغرب ما تفتقر إليه أمتهم وبلادهم، وما ينفع عملياً وما ليس عليه طابع غرب وشرق، ويستغنون عن غيره، ويعاملون الغرب كزميل وقرين..» (٢).

٨- وجود علماء ربانيين مربين، والاستفادة منهم:

نجد عند الشيخ اهتماماً، وتأكيداً على التعريف بالدور الإيجابي الذي يقوم به العلماء الربانيون المربون في حياة الأمة المسلمة، وأفرادها، وبخاصة عندما تقع فريسة التخلف الديني، أو الاجتماعي أو السياسي، ولذا ليس غريباً أن يؤكد أهمية وجودهم في هذا القرن الخامس عشر الهجري الجديد، وقد وقع المسلمون فريسة الحضارة الغربية ونظامها التعليمي، وغياب التربية الإسلامية، يقول: «وبالمناسبة من أشد حاجات المجتمع الإسلامي الدائمة،

---

(١) أهمية الحضارة، مرجع سابق. ص٢٧.

(٢) القرن الخامس عشر الهجري، مرجع سابق. ص٧٨-٧٩.

وجود ربانيين صادقين، متبعين لا مبتدعين راسخين في العلم والدين، يربطون القلوب بالله - عند النكسة التي تصيب الحكومات الإسلامية، أو فتنة المادة والشهوات، والتنافس في البذخ والثراء التي تمنى بها المجتمعات المسلمة - ربطاً وثيقاً جديداً، ويبعثون في النفوس التسامي عن الأغراض الخسيسة، والتكالب على حطام الدنيا، ويُكرِّهون إليها الحياة الذليلة، والمتعة الرخيصة، والخضوع المستكين للسلطات والثروات، وبيع الضمائر والذمم، ويحبِّبون إليها الاستماتة في سبيل العقيدة والمبدأ، والشهادة في سبيل الله، ويحاربون اليأس القاتل، ويجددون الأمل في روح الله، ويشتغلون بالدعوة إلى الله وتربية النفوس..» [1].

الرابع عشر- المعلم المسلم، المؤمن بالتربية الإسلامية:

نجد في كتابات الشيخ ومحاضراته وخطبه ما يفيد شدة إيمانه بأهمية المعلم المسلم - المؤمن بالتربية الإسلامية، وأغراضها، وأهدافها، ومبادئها، وقيمها ومفاهيمها - في العملية التربوية التعليمية، ودوره، وصفاته التي ينبغي أن يتحلى بها، وهذا ما نذكره هنا باختصار:

١- يؤكد الشيخ أن كل ما يقال عن مبادئ وأسس التربية والتعليم التي يجب أن تطبق في الأقطار الإسلامية - كي تحل مشكلاته الناجمة عن غياب التربية الإسلامية، والأخذ بنظام التعليم الغربي - يتوقف على نوعية المعلمين، يقول: «ولكن كل ماقلناه في التربية والتعليم يتوقف على وجود معلمين، يؤمنون بهذه المبادئ والعقائد، والغايات، ويخلصون لها كل الإخلاص، ويدعون إليها

(١) المرجع السابق. ص ٣٦.

بإيمان وحكمة، وتكون حياتهم خير مثال لما يدعون إليه»[1]، ونجده يقول - أيضاً: «ومفتاح المفاتيح في هذه الجامعة الإسلامية، وجود أساتذة يجمعون بين الإيمان القوي الراسخ، والعلم العميق الواسع، ويجمعون بين القدوة الصالحة، وبين دراسات واسعة، يتضلعون من القديم، ويفهمون روح العصر الحديث، ومشكلات الشباب ونفسيتهم، وطرق حلها، متصلبون في الأصول، متوسطون في الفروع، يتورعون في دينهم عن المداهنة، وفي العلوم عن الجمود وضيق التفكير أخذوا من القديم الرسوخ والتبحر في العلم، ومن الجديد الاستطلاع، وحب الواقعية..» [2].

٢- يرى الشيخ أن المعلمين - إذا أحسن اختيارهم - يمكنهم أن يقوموا بمهام «مجمع علمي إسلامي» - عند عدم وجوده-، وهذا ما ينبغي أن يحرص عليه نظام التعليم الإسلامي، يقول: «ولكننا إذا فاتنا هذا العمل الجليل في الماضي - أي إقامة مجمع علمي إسلامي-، ولانستطيع أن نوقف عملية التربية، ونعطل جهاز التعليم، فيمكن أن يتدارك ذلك - إلى حد ما - باختيار أساتذة يجمعون بين متانة العقيدة، والاقتناع بالإسلام كدين خالد أبدي، وبين الاطلاع الواسع العميق على العلم الحديث.. ما أحوج هذه الجامعة إلى هذا الضرب من العلماء، وما أحسن أثرهم على شباب الجامعة، وما أعظم دورهم الذي يمثلونه في تكوين العقلية الجديدة، وتكوين الجيل الإسلامي الجديد.» [3].

٣- يشير الشيخ إلى أن عملية اختيار المعلمين الذين سيشاركون في تطبيق التربية الإسلامية، عوضاً عن نظام التعليم الغربي ليست عملية

(١) التربية الإسلامية الحرة - مرجع سابق. ص ٩٩ -١٠٠.
(٢) المرجع السابق ص ٩٩-١٠٠ .
(٣) المرجع السابق. ص٩٧.

بسيطة، وسهلة، ولا يجوز أن تتم وفق معايير علماء التربية الغربيين فقط، وإنما لا بُدَّ من مراعاة معايير أخرى تهتم بها التربية الإسلامية، يقول الشيخ: «إذاً قضية اختيار المعلمين ليست بسيطة سهلة، كما يظن كثير من رجال المعارف، ليس أساسها العلم وحده، والمقدرة التعليمية، والمؤهلات العلمية فحسب، بل يجب أن تكون للسيرة والخلق، والمبدأ والغاية، والإيمان والعقيدة المكانة الأولى، والأهمية الأولى، والأهمية الكبرى في اختيار المعلم»[1].

٣- يذكر الشيخ بعض الصفات التي كان يتحلى بها - قديماً - المعلمون المسلمون، والتي يعوزها النظام التعليمي الإسلامي - حالياً -، فذكر منها ما يلي»:

أ- الإخلاص والإيثار: فكانت أغلبيتهم تسعى من وراء التعلم والتعليم إلى نيل مرضاة الله، وحصول الثواب والأجر في الآخرة، وكان يعتبر هذا الشغل أفضل عبادة، وسعادة عليا لها.

ب - التكريس على العمل: إن انهماك الأساتذة والمعلمين في العهد الماضي في تدريسهم، واستغراقهم فيه، كان قد بلغ أقصى حده، لا يمكن تصوره بدون مثال، فقد كان التعليم والتعلم غذاء روحياً لهم، وعبادة ووِرْداً لهم، فكانوا يخصصون معظم أوقات حياتهم، وجل وقت نهارهم وليلهم للتدريس...

جـ - الصلات مع الطلبة والعطف عليهم: كانت تقوم صلات وثيقة بين الطلبة والأساتذة، وعلاقات لا يوجد لها مثيل في العصر الحاضر، وفي النظام التعليمي المعاصر، فكانت الطلبة مثل أولاد للأساتذة، بل أعز منهم، يكفلونهم، ويشركونهم في طعامهم..

---

(١) التربية الإسلامية الحرة- مرجع سابق. ص٢٢.

د- إصلاح الباطن، والعلاقة مع رجال القلب: وكانت الميزة الخاصة التي تجدر بالذكر، أن هذا النظام والقائمين به، والمسؤولين عنه، كانوا رغم انهماكهم بالعلم، وتبحرهم العلمي، وحذقهم في الفن، وشعبيتهم والاعتراف بعظمتهم وكمالهم لا يغفلون تزكية نفوسهم، وتوثيق علاقتهم مع الله.. كانوا يبحثون عن أصحاب القلب السليم، والشيوخ الذين يزكون أنفسهم، فكانوا يقومون بخدمتهم، ويلازمون صحبتهم، ويحسبون رضاهم، وحبهم مكملاً لسعيهم وجهدهم...»[1].

الخامس عشر: مفاهيم ومبادئ تربوية:

يجد الباحث في كتابات الشيخ ومحاضراته، وخطبه، ورسائله الكثير من المفاهيم، والمبادئ التربوية، التي يؤمن بها، ويكشف عنها، ويدعو إليها، وهي نتيجة دراساته الإسلامية، والتربوية والنفسية، والاجتماعية، والتاريخية، وخبراته العملية التربوية والتعليمية والدعوية، واستفادته من المعلمين الربانيين، وشيوخه، ورجال الفكر والتربية والتعليم الذين عايشهم وخالطهم وأخذ عنهم، أو الذين سمع منهم، وحاورهم. ومن أهم هذه المفاهيم والمبادئ مايلي:

١- التربية والتعليم هي الأمانة الأكبر مسؤولية، والأشد خطراً، والأعمق أثراً في مستقبل الأمة وحياتها. (التربية الإسلامية الحرة. ص٢٢).

٢- التربية والتعليم، وسيلة وليس غاية (التربية ص٧٣).

٣- بنيغي التفريق بين الوسائل والغايات في عملية التربية والتعليم. (التربية ص٥٧).

(١) المسلمون في الهند- ط٢ (الهند-ندوة العلماء لكهنؤ-١٣٩٦-/١٩٧٦) ص١٠٠-١١٧.

٤- التربية الإسلامية عملية تحتاج إلى مناخ مناسب لتحقق أهدافها. (العقيدة والعبادة. ص٥٢-٥٣).

٥- التربية لباس يفصل على قامة الشعب وملامحه. (التربية ص٧٠).

٦- إن مسألة التربية في البلاد الإسلامية، مسألة مستقلة، قائمة بذاتها، لأن الأمة الإسلامية أمة خاصة في طبيعتها، ووضعها، هي أمة ذات مبدأ وعقيدة، ورسالة ودعوة. (التربية.. ص٧٠).

٧- عقيدة التوحيد أساس العملية التربوية التعليمية في الأقطار الإسلامية (السيرة النبوية).

٨- سياسة التربية والإعلام، أقوى المؤثرات في صياغة الجيل الصاعد. (أسبوعان.. ص١٥١).

٩- النظام التعليمي ليس بضاعة تستورد من بلد إلى بلد.. (التربية. ص٥٧).

١٠- نظام التعليم الإسلامي-التربية الإسلامية: أداة لإنشاء الأجيال التي تؤمن بهذا المبدأ، وتدين بهذه العقيدة، وتحمل هذه الرسالة، وتؤدي هذه الدعوة. (التربية٧).

١١- نظام التعليم الأجنبي: كل تعليم لا يؤدي هذا الواجب، أو يغدر بذمته، ويخون في أمانته.. (التربية ص٧).

١٢- العالم الإسلامي بحاجة إلى صوغ نظام التربية والتعليم من جديد، يلائم عقيدة الأمة المسلمة، ومقومات حياتها. (التربية ص٢٣).

١٣- الجزيرة العربية عاصمة الإسلام، لا يجوز أن يطبق فيها غير التربية الإسلامية، ومن لا يقبل ذلك، فليغادرها (التربية ص٨٥).

١٤- العالم المعاصر بحاجة شديدة للتربية الإسلامية. (التربية ص٤٠).

١٥- نحتاج إلى فكر تربوي تعليمي يجمع بين القديم الصالح، والجديد النافع، وبين التصلب في الأصول والغايات، والتوسع والمرونة في الفروع والآلات. (ندوة العلماء، مدرسة ص١).

١٦- تحديد أهداف المؤسسة التعليمية ضرورة، لأنها يدور حولها نظامها، ومناهجها، ويقوم عليها جهازها العظيم، ولها يخضع كل شيء في المؤسسة، الكتب، والنظم، والأساتذة إلخ (التربية ص ٨٩).

١٧- من أهداف «التربية الإسلامية « تعريف الطلبة رسالتهم، وأنهم يتعلمون ليستحقوا سعادة الدنيا والآخرة، وينقذوا أنفسهم وأهليهم من النار، وسخط الخالق، والحياة الجاهلية، ويخرجوا الناس من الظلمات إلى النور.. وليعرفوا أهدافهم، وقيمة علمهم، والتشبع بروح الدعوة، والاختلاط بالشعب. (التربية ص ١٦).

١٨- ينبغي أن يكون في التدريس نصيب للقلب، مثل نصيب العقل، أو أكثر فذلك الذي يزكي النفوس، ويولد الخشوع، والإنابة إلى الله، واتهام النفس. (مذكرات سائح ص٣٠).

١٩- لا قيمة لتعليم يخفق في بناء الأخلاق والقيم. (التربية ص٨٠).

٢٠- مناهج التعليم-الأهداف، العلوم، الكتب، الوسائل.. لها روح وضمير، كالكائنات الحية... (التربية ص١٠).

٢١-منهاج التعليم الإسلامي - التربية الإسلامية-، حاجة أولى من حاجات البلاد الإسلامية، وعمل شاق يحتاج إلى فريق عمل، متكامل متجانس. (التربية ص١١١).

٢٢-الدين الإسلامي نابع من العلم، فهو وليد المعرفة، والهداية الإلهية، والوحي الإلهي، والعلم الرباني (الطريق إلى السعادة ص٩١).

٢٣- العلم وحدة لا تتجزأ، ولا تقبل التوزيع والتصنيف، ولا يصح تقسيمه بين قديم وجديد، وشرقي وغربي، وعملي ونظري. (الطريق إلى السعادة ص١٢٤).

٢٤- أحد دعامتي الحياة الإسلامية الصحيحة، منهاج التعليم الصحيح، الذي يجمع بين العلم المأخوذ من الوحي والنبوة، وبين العلوم الطبيعية، والمعلومات والتجارب والاكتشافات (مذكرات سائح ص٨٠).

٢٥- من أهم المواد الدراسية في التعليم الإسلامي: القرآن الكريم، الحديث النبوي، تاريخ الصحابة؛ التربية المعنوية، التربية المدنية، وتضاف في الجامعة: فلسفة التشريع، وحكم الشريعة، وعلم الفقه وأصوله، الأدب العربي، العلوم العصرية السياسية والاقتصاد والجغرافية والتاريخ، وبعض العلوم الطبيعية والعلمية (التربية ص١٣ وما بعدها و٨٩-٩٥).

٢٦- قيمة البلد ليست بكثرة جامعاتها ومراكزها التعليمية، وإنما بمقدار تكوين الاختصاصات، والقدرات الممتازة في الدراسة والتحقق. (دور الجامعات الإسلامية ص٣٤).

٢٧- كل مدرسة لا ينتهي نسبها إلى صفة المسجد النبوي-على صاحبها الصلاة والسلام-لا تستحق أن تسمى مدرسة. (الطريق إلى السعادة ص٢١).

٢٨- إن مدرسة الإعلام في كل بلد قد أصبحت أقوى من كل مدرسة، وأوسع من كل مدرسة. (كيف ينظر المسلمون ص١٠٨).

٢٩- للمدرسة الحديثة -التربية الحديثة- جنايات عظيمة على أجيال المسلمين. (التربية ص٤٣).

٣٠- قضية اختيار المعلمين هامة، وليست سهلة، وأهم معاييرها، السيرة والخلق، المبدأ والغاية، الإيمان والعقيدة، العلم والقدرة التعليمية، المؤهلات العلمية. (التربية ص٢٢).

٣١- ينبغي مراعاة التيسير والتدريج، والحكمة والمصلحة، واستعداد النفوس في عملية التربية والتعليم. (العقيدة والعبادة ص٣٧).

٣٢- التعصب اللغوي والثقافي كارثة (الإسلام في عالم متغير ص ١١).

٣٣- الحقيقة غير الصورة، فينبغي تربية المسلمين على حقيقة الإسلام والإيمان للظفر على الحقائق المبثوثة في العالم. (الإسلام من جديد ص٥٧).

٣٤- من مبادئ التربية الإسلامية: الوحدة الإنسانية والمساواة البشرية. (السيرة النبوية ص٥٤٤).

٣٥- من مبادئ التربية الإسلامية: إعلان كرامة الإنسان، وسموه. (السيرة النبوية ص٥٤٨).

٣٦- من مبادئ التربية الإسلامية: الجمع بين الدين والدنيا. (السيرة النبوية ص٥٥٨).

نكتفي بعرض هذه المفاهيم والمبادئ التربوية من الكثير الذي يمكن أن يستخرج من ثنايا كتابات الشيخ ومحاضراته وخطبه ورسائله وهي تكشف سعة رؤية الشيخ التربوية، ومدى إحاطته بالكثير من مفاهيمها ومبادئها وأغراضها ومقاصدها الأساسية.



مراجع البحث

١- أبو الحسن الندوي، الأركان الأربعة (الصلاة، الزكاة، الصوم، الحج). الطبعة الأولى، بيروت-دار الفتح ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م.

٢- أسبوعان في المغرب الأقصى، الطبعة الأولى، بيروت-مؤسسة الرسالة، ١٤٠٢هـ/١٩٨٣م.

٣- الإسلام وأثره في الحضارة وفضله على الإنسانية؛ الهند-المجمع الإسلامي العلمي ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

٤- الإسلام في عالم متغير، بيروت-دار مكتبة الحياة ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

٥- الإسلام والحكم، الطبعة الأولى، القاهرة- المختار الإسلامي، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

٦- إلى الإسلام من جديد، الطبعة الأولى، القاهرة-دار النشر المصرية.

٧- الإمام عبد القادر الجيلاني، الطبعة الثانية، القاهرة-المختار الإسلامي ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

٨- أهمية الحضارة في تاريخ الديانات وحياة أصحابها، مكة المكرمة -المكتبة الإمدادية ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

٩- بين الدين والمدينة، الطبعة الأولى، بيروت- مؤسسة الرسالة ١٣٩٨هـ/١٩٧٨.

١٠- تأملات في القرآن الكريم، الطبعة الأولى، دمشق- دار القلم ١٤١١هـ/١٩٩١م.

١١- التربية الإسلامية الحرة، بيروت مؤسسة الرسالة ١٣٩٧هـ/١٩٧٧.

١٢- ترشيد الصحوة الإسلامية، الهند- دار عرفات للترجمة والنشر والتوزيع ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.

١٣- التفسير السياسي للإسلام في مرآة كتابات الأستاذ أبي الأعلى المودودي والشهيد سيد قطب، الطبعة الثالثة، الكويت-دار القلم.

١٤- حاجة العالم إلى مجتمع إسلامي مثالي أفضل، الطبعة الأولى-الهند-المجمع الإسلامي العلمي ١٤١٠هـ/١٩٩٠.

١٥- خليج بين الإسلام والمسلمين، الهند-دار العلوم ندوة العلماء ١٣٧٥هـ.

١٦- درس من الحوادث، الهند-المجمع الإسلامي العلمي ١٣٩٩هـ١٩٧٩م.

١٧- الدعوة إلى الله حماية المجتمع من الجاهلية وصيانة الدين من التحريف، الهند- دار عرفات للترجمة والنشر والتوزيع (بدون تاريخ).

١٨- دور الجامعات الإسلامية المطلوب في تربية العلماء وتكوين الدعاة وحماية الأقطار الإسلامية من التناقض والمجابهة. الطبعة الأولى، الهند، المجمع الإسلامي العلمي ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

١٩- دور الحديث في تكوين المناخ الإسلامي وصيانته، الهند- مطبعة ندوة العلماء ١٤٠١هـ.

٢٠- ربانية لا رهبانية، الطبعة الأولى، بيروت دار الفتح للطباعة والنشر ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م.

٢١- في مسيرة الحياة-الجزء الأول، الطبعة الأولى، دمشق- دار القلم ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.

٢٢- القرن الخامس عشر الهجري الجديد في ضوء التاريخ والواقع، الهند-المجمع الإسلامي العلمي ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

٢٣- كيف يستعيد العرب مكانتهم اللائقة بهم وكيف يحافظون عليها؟ الطبعة الأولى، الهند-ندوة العلماء ١٤١١هـ/١٩٩٠م.

٢٤- كيف ينظر المسلمون إلى الحجاز وجزيرة العرب، الهند- دار عرفات للترجمة والنشر والتوزيع ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.

٢٥- المأساة الأخيرة في العالم العربي، الطبعة الأولى، الهند-المجمع الإسلامي العلمي ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

٢٦- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، الطبعة ١٣، الكويت-دار القلم ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

٢٧- المجتمع الإسلامي المعاصر فضله وقيمته، حاجته ومتطلباته، وطريق الانتفاع به، الهند-ندوة العلماء ١٤١٠هـ/١٩٨٩م.

٢٨- المدخل إلى دراسات الحديث النبوي الشريف، الهند-المجمع الإسلامي العلمي ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

٢٩- المدخل إلى الدراسات القرآنية، الطبعة الأولى، القاهرة-دار الصحوة ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

٣٠- المد والجزر في تاريخ الإسلامي، الطبعة الثانية، القاهرة-المختار الإسلامي ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

٣١- مذكرات سائح في الشرق العربي، بيروت- مؤسسة الرسالة.

٣٢- مستقبل الأمة العربية بعد حرب الخليج، الهند- دار عرفات للترجمة والنشر والتوزيع ١٤١١هـ/١٩٩١م.

٣٣- المسلمون في الهند، الطبعة الثانية، الهند - ندوة العلماء ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.

٣٤- مطالبة القرآن الانقياد التام والاستسلام الكامل، الطبعة الأولى، الهند- ندوة العلماء.

٣٥- من نهر كايل إلى نهر اليرموك-جولة في غرب آسيا، أنقره - دار الهلال للطباعة والنشر والتوزيع، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م.

٣٦- موقف العالم الإسلامي تجاه الحضارة الغربية، الهند - المجمع الإسلامي العلمي ١٣٨٢هـ/١٩٦٣م.

٣٧- النبي الخاتم، الهند-المجمع الإسلامي العلمي ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م.



محتويات البحث

عناصر البحث



البحث الثاني عشر

جهود أبي الحسن الندوي

في الفكر الإسلامي المعاصر

الدكتور أحمد بن عبد العزيز الحليبي (*)



(*) أستاذ الثقافة المساعد بكلية الشريعة والدارسات الإسلامية بالأحساء، السعودية.

المقدمة:

الحمد لله الذي أكرم أهل العلم، وجعلهم خاصّته، ورفع منزلة العلماء، وجعلهم مرجعاً لفهم دينه، والصلاة والسلام، على محمد بن عبد الله معلِّم الناس الخير، وإمام العلماء المرسلين، وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فإن الله تعالى: قيض في كلِّ زمان لديه من العلماء الأفذاذ من يحفظه، وينافح عنه، ويعمل على نشره وتبليغه، وقد ألهم هؤلاء من القدرات العلمية والخلقية ما مكَّنهم من مواجهة التيارات الهدامة، والمذاهب المنحرفة، والأهواء الشخصيَّة الفاسدة.

وسماحة الشيخ أبي الحسن عليّ الحسني الندويّ من مواليد محرم عام ١٣٣٣هـ في قرية قريبة من مدينة راي بريلي بالهند-أحد العلماء المفكرين في العصر الحاضر، يمكن القول بأنه مدرسة فكرية فذَّة، كان عطاؤه فيها عطاء مؤسسة كبيرة، نظراً لوفرة جهوده في المجال الثقافي، الذي يتنوع إلى مؤلفات ومقالات ورسائل ومحاضرات وخطب ورحلات ومؤتمرات، ومشاركة في تأسيس الجمعيات الخيرية والمؤسسات التعليمية، ولعل شهرته في الأوساط العلمية، وحضوره الثقافي، وكثرة ما طبع له من كتابات شاهد على ذلك، وجاء فوزه بجائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام عام ١٣٩١هـ/١٩٨٠م تقديراً واعترافاً على مستوى العالم الإسلامي بمكانته الرائدة في الفكر وخدمة الإسلام.

سلك أبو الحسن الندوي مسلك الحكمة والبصيرة، مراعياً ظروف العصر، ومستفيداً من إمكاناته الحديثة، معتمداً على العلم والموضوعية في كلّ ما يتناوله من قضايا ثقافية مستجدّة، ومسائل فكريّة نافعة، وهذا يعود إلى أن هيكل تفكير الندويّ قد تكوَّن في وسط خاصٍّ ملتزم بأحكام الإسلام، وفي

ضوء دراسة خاصَّة، تقوم على الأدّلة الشرعيَّة، ومراعاة مقاصد الإسلام وكليّاته، والعمل على استجلاب المصالح ودرء المفاسد، الأمر الذي دفعه إلى البحث العملي، والاجتهاد الفكري، والنقد الهادف، مما ساهم في تكوين نظرة دقيقة في تقييم المواقف و الشخصيات، والموازنة بينها، وفي استلهام الدروس والعبر، واستجلاء الواقع، والتحسب للمستقبل.

ويأتي هذا البحث استجابة لدعوة رابطة الأدب الإسلامي إلى الكتابة عن جهود المفكر والأديب ورئيس الرابطة تكريماً له، وكان مما دعت إليه الكتابة باختصار عن (جهود أبي الحسن الندوي في الفكر الإسلامي المعاصر)، وكانت رغبتي الشخصية في أن أتقدم بهذا البحث إلى اللجنة المنظمة لمؤتمر التكريم بإستنبول، ولكنْ ظرف صحي ألم بي أدى إلى تأخر استكماله عن الموعد المقرر لقبول البحوث، إلا أني بفضل الله تعالى تمكنت من استكمال إعداد البحث وفاءً لحقٍّ هذا المفكر الرائد، الذي تعد كتبه من مصادر المثقف في العصر الحاضر.

يتناول البحث تمهيداً وأربعة فصول، على النحو التالي:

التمهيد - ويشمل: التعريف بالفكر، وبيان مميزات مؤلفات أبي الحسن الفكرية.

الفصل الأول: جهود أبي الحسن الندوي في بناء الذاتية للفكر الإسلامي.

الفصل الثاني: جهود أبي الحسن الندوي في تأصيل الفكر الإسلامي.

الفصل الثالث: جهود أبي الحسن الندوي في نقد الحضارة الغربية.

الفصل الرابع: جهود أبي الحسن الندوي في بناء الفكر الإصلاحي.

الخاتمـــــة.

ومن الإنصاف القول بأن البحث لم يستطع أن يُعرِّف بكلٍّ جهود أبي الحسن الندوي في مجال الفكر، ولا ريب أن هناك جوانب فكرية مضيئة لم تعطَ حقها في مثل هذا البحث القصير، يمكن أن تترك للباحثين ومعدي الرسائل الجامعية، وحسبي أني حاولت أن أدون خلاصة قراءتي لمحصلة عمر مديد من البحث العلمي الجاد، ومتابعتي لنظرة واسعة الأفق استلهمت الماضي، وانتفعت بدروس القرآن ونذره في إدراك الحاضر والمستقبل، ولا يزال معين هذه الشخصية ثراً، يمدُّ الفكر الإسلامي بالعطاء الثقافي الصافي، فبارك الله فيها، ونفع بعلمها المسلمين، مع اعتذاري عن فهمي الخاطئ في موضع قد يعرض للقارئ، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

في ١٤١٧/٣/٢٦هـ **الباحث**



التمهيد:

يشمل:

١- تعريف الفكر الإسلامي المعاصر:

أولاً- الفكر في اللغة العربية: مادته الفاء، والكاف، والراء، بكسر الفاء وتفتح المصدر، وهو تردد القلب في الشيء، يقال: تفكر، إذا ردد قلبه معتبراً[١]، أو هو إعمال النظر في الشيء[٢].

ثانياً: في الاصطلاح: من التعريفات المتقدمة التي تحدد معنى الفكر الاصطلاحي:

- تعريف الراغب الأصفهاني (م٥٠٢هـ) بأنه: (فرك الأمور وبحثها طلباً للوصول إلى حقيقتها)[٣].
- تعريف الغزالي (م٥٠٥هـ) بأنه (إحضار معرفتين في القلب، يستثمر منهما معرفة ثالثة)[٤].
- تعريف الجرجاني (م ٨١٦ هـ) بأنه (ترتيب أمور معلومة للتأدي إلى مجهول)[٥].

ومن تأمل هذه المعاني يتبين له أنها تدل على أن الفكر في العموم يصدق على الجهد العقلي الذي يبذل في الوصول إلى معرفة جديدة[٦].

ثالثاً: تعريف الفكر الإسلامي: إذا أضيفت كلمة فكر إلى الإسلام فإن لها معنى خاصّاً، يقتضي التزام هذا الفكر بمصدري الإسلام: الكتاب والسنة

---

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٤/٤٤٦.
(٢) القاموس المحيط للفيروزآبادي ٣/١١٥.
(٣) المفردات في غريب القرآن ٣٨٤.
(٤) إحياء علوم الدين ٤/٤١٢.
(٥) التعريفات ١٦٨.
(٦) ثقافة الطفل المسلم مفهومها وأسس بنائها للباحث ٢٦٢.

في وسيلة الاجتهاد الفكري وثمرته بحيث يعتمد عليهما في الاستدلال والاستقراء والقياس، ولا يخالفهما في النتيجة، وهذا الالتزام هو نقطة الافتراق بين الفكر الإسلامي والأفكار الأجنبية الأخرى، ومن تعريفات الفكر الإسلامي، أنه (الجهود العقلية المبذولة في محاولة فهم الإسلام من مصدريه: الكتاب والسنة)[1]، والفكر الإسلامي المعاصر هو الذي يبحث في القضايا الفكريَّة التي تمسّ المسلمين في العصر الحاضر.

٢- بيان سمات مؤلفات أبي الحسن الندوي الفكرية:

أولاً- سهولة الأسلوب والصياغة الأدبية الرفيعة: امتلك أبو الحسن الندوي قلماً سيّالاً، كتب به عدداً من المؤلفات والمقالات، وأسلوباً سهلاً بحيث لا يجد القارئ صعوبة في فهمه، وقدرة في العرض تظهر في حسن اختيار الكلمات الفصيحة والشواهد الشعرية وبراعة الاستدلال والاستنتاج، وفي صياغة تتسم بحسن السبك: وجمال العبارة، وإبداع في الصور البيانية، ومع أن غالب مؤلفات الندويّ فكريّةً، إلا أنها صيغت في هذا القالب الرائع الذي يدلُّ على ملكة أدبية دفّاقة، وقدرة لغويّة ظاهرة؛ مكَّنَتاه من جمال العرض وقوَّة التعبير، أكسبتا موضوعاته الفكرية التي تناولها قلمُه جاذبيةً ووضوحاً.

ثانياً: نظرة الاستقراء للتاريخ: قلَّ أن يخلو كتاب من كتب أبي الحسن الندوي، أو مقال من مقالاته، أو محاضرة من محاضراته من سرد واقعة، أو استنتاج عبرة، أو استشهاد بسيرة، أو منادمة طلل، مما يدل على قراءة متأنية للتاريخ، وسعة اطلاع لمصادره المتنوعة، مما مكَّنه من الاستفادة من دروسه، واستلهام مُثُله، وتوظيف مواعظه في استنهاض الهمم، وبناء المستقبل، وربطه بالماضي، ووهبه نظرةً شاملةً لم تقتصر على تاريخ الإسلام مع عنايته

(١) الأصالة والمعاصرة في الفكر الإسلامي للدكتور محمد رأفت سعيد ٧.

به، واهتمامه بتاريخ سيرة الرسول ﷺ وأصحابه وخلفائه خاصّة رضي الله عنهم أجمعين؛ بل امتدت لتشمل كذلك التاريخ الأوروبي والشرقي، وهي ثقافة تاريخية تمتزج بها كتابات الندوي، قَلَّ أن يتمتعَ بها غيرهُ من معاصريه، منحته قدرة فاحصةً على الموازنة بين الأمور والمواقف والأحداث المستجدة، وتقييمها، ودراسة المجتمعات وتطوراتها، ومعرفة حقائق الوقائع، وإدراك آثارها.

ويعود اهتمامه بالتاريخ إلى أنه يراه (مرآة الأمم البائدة، وخزانة العبر المبرزة لأسباب النهوض والهبوط في حياتها، فليس ثمة من سقوط أو نهوض يحدث عفواً أو اتفاقاً، وإنما هي سنن وقوانين مرتبطة بتصرفات الأمم وأعمالها، فعلى هذه التصرفات والأعمال تتوقف مصايرها في مسيرة التاريخ) [1].

ثالثاً: سلامة المنهج: تتميز كتابات أبي الحسن الندوي بسلامة المنهج التي تظهر في التزامه بالكتاب والسنة، وعرضه لمضامينهما، وتقيده بقواعد الشريعة ومقاصدها العامة، استمدها من روافد كثيرة؛ في مقدمتها بيئته العلمية التي نشأ فيها، وارتضع منها لبانه الثقافي منذ نعومة أظفاره، فقد كانت بيئته محافظة على العقائد الصحيحة رغم ما انتشر في الهند من أديان ونحل منحرفة؛ ذكر أبو الحسن الندوي عن أسرته أنها (لم تنحرف عن الجادة، ولم تتمكن البدع والأعمال الشركية من التسلل والتسرب إليها، ولم تزل متمسكة بعقيدة التوحيد الخالص، بعيدة عن الأعمال الشركية، متجنبة للبدع والمحدثات، مصونة من تأثير العقائد الشيعية، وكانت الدعوة إلى التوحيد واتباع السنة المطهرة شعارها الدائم وميزتها البارزة، ومن الأدلة على ذلك أنه لا يوجد لأحد من العلماء والصالحين من هذه الأسرة الذين كانوا من كبار مشايخ عصرهم، وكانوا يعدون من الأولياء والصالحين المعروفين قبر مجصَّص، ولا توجد على قبر أحدهم قبة ولا عمارة...، ولم يُسمع كذلك في

---

(١) علماء ومفكرون عرفتهم لمحمد المجذوب ١٢٨.

تاريخ الأسرة الاحتفال بمناسبات الميلاد، أو الاجتماع على القبور، أو العمل بالطقوس والتقاليد، التي راجت في الهند، واتخذها الناس شعاراً على قبور الأولياء والصالحين [١].

ودرج على إتمام زاده العلمي في صباه ثم شبابه ينهل من معين ندوة العلماء التي تعد رافده الثاني في بناء شخصيته الفكرية، يقول عنها الشيخ علي الطنطاوي:

(سلكت طريقاً وسطاً بين الأزهر بعدما شاخ وتخلف شيئاً قليلاً عن الركب... وبين جامعة عليكراه التي أنشأها السر سيد أحمد خان، لتساير الزمان، فلم تجمد الندوة جمود الأزهر القديم ولم تمع ميعان عليكراه، بل أخذت من طرفي الأمور بأحسنها، وكانت تجربة كتب الله لها النجاح) [٢].

وتعد شخصية المفكر والأديب محمد إقبال من أعظم الروافد تأثيراً في تكوين شخصية أبي الحسن الندوي الفكرية والأدبية، لقد أعجب به، وأحبه وتشرب فكره، وتغنى بشعره، واستشهد بأقواله في كتبه وخطبه، فقلَّ أن يخلو شيء منها من ذكره، سجل أبو الحسن تأثره هذا: فقال: (إني أحببته، وشغلت به كشاعر الطموح والحب والإيمان، وكشاعر له عقيدة ودعوة ورسالة، وكأعظم ثائر على الحضارة الغربية المادية، وأعظم ناقد لها، وحاقد عليها، وكداعية إلى المجد الإسلامي، وسيادة المسلم، ومن أكبر المحاربين للوطنية والقومية الضيقتين، وأعظم الدعاة إلى النزعة الإنسانية والجامعة الإسلامية) [٣].

وقد وهبته السنون المليئة بالممارسات العلمية والدعوية والرحلات والتجارب والخبرات رسوخاً في الفكر، ووضوحاً في الرؤية، وسداداً في

---

(١) في مسيرة الحياة ٤٣.

(٢) تقديم كتاب في مسيرة الحياة لأبي الحسن الندوي ١١.

(٣) روائع إقبال ١١.

الرأي، وصلابة في الحق، كان من ثمرتها النضج العلمي، والمقدرة على تأصيل الفكر الإسلامي، وإبرازه على أنه نسيج وَحْده، مستقلّ عن غيره من الآراء والاتجاهات الفكرية، والعودة به إلى مصادره الصحيحة، وتناول ذلك في ذاتية وشمول وموضوعية.

رابعاً: الغيرة على قضايا المسلمين ومستقبلهم: استولت قضايا المسلمين على اهتمام أبي الحسن الندوي، وتركزت دراساته على واقع المجتمعات الإسلامية ومستقبلها، وتحرَّق على أوضاعها المؤلمة، وقد امتزجت غيرته عليها بأمل يطرد اليأس على رغم ما أصاب الأمة الإسلامية من أدواء مهلكة أفقدتها القيادة العالمية التي كانت تمسك بزمامها قروناً من الزمن، فإن شعوبها (لا تزال تحمل العاطفة الفياضة الجياشة من الإيمان والحنان والتضحية والإيثار والطاعة والانقياد والحب والإخلاص، التي لا توجد في أية أمة مادية على ظهر الأرض، إن جماهير البلاد الإسلامية على رغم جهلها المؤسف، وتأخرها المؤلم - خامات بشرية ممتازة يصنع منها نماذج إنسانية جميلة، وطراز رفيع من البشر، إن أكبر قوتها الإيمان والإخلاص والبساطة والحماس، وهذه القوة لعبت دوراً خطيراً في التاريخ، وصنعت العجائب، وأتت ببطولات وخوارق تدهش لها العقول.. فيجب - بناء على حبّ الواقعية والحقيقة-أن نقدر هذه القوّة الكبرى حقَّ قدرها، ونعتبرها أضخم رصيد، وأمضى سلاح، وأقوى وسيلة للمحافظة على سلامة البلاد، وأداء أي واجب كبير وخطير على مسرح العالم، ولكن هذه القوة الشعبية الإيمانية ونفسها بدأت تتضعضع تحت تأثير التجديد والتغريب، وبدأ في هذه الشعوب سرطان خلقي لا ينفع فيه الدواء والعلاج) [1].

---

(١) الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية ٢١٧.

لقد نعى الندوي ما يتعرض له العالم الإسلامي من غارة غربية واسعة استطاعت أن تذوِّبَ شخصيتَه، وأن تُغرِّبَ مجتمعاته، وأن تستعبد أبناءه، وقد دفعته إلى صراع صامت مقنَّعٍ، هذا الصراع معركة (بين فكرتين: الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية بأوسع معانيهما وآفاقهما وأبعادهما، هي معركة نستطيع أن نلخصها في قولنا: هل يبقى هذا الشعب وهذه البلاد الإسلامية بكلّ معاني الكلمة تنظر إلى الدِّين الإسلامي على أنه يكفل سعادة البشر في جميع مجالات الحياة.. أم هو دين عقيدة وإيمان فحسب، وقضية شخصيّة لا شأن لها بالمدنيَّة وتخطيط الحياة وسياسة التربية والتعليم، وصياغة الأجيال وفق عقائده وقيمه ومثله، وتشريع القوانين وحقِّ التدخل في الحياة؟. ويبدي الندوي أسفه الشديد على أن غالب الأقطار الإسلامية اختارت فيما يظهر المسلك الثاني، حتى أصبحت نسخة ناقصة من المدنية الغربية، وصورة شاحبة لها، لا تسترعي اهتمام الغربيين، ولا تحرك فيهم مشاعر الإجلال والاحترام) [1].

ويسهم أبو الحسن في بناء الوعي الفكري تجاه الدسائس الغربية، والدعوات الهدامة، والمخططات المغرضة التي تحاك ضد الأمة الإسلامية، مؤكِّداً على وجوب أخذ الحذر منها، ومواجهتها بكلِّ الإمكانات المتوفرة في مقومات شخصية الأمة وجوهر رسالتها ومركزها في العالم، فيقول مخاطباً إخوانه في الجزيرة العربية، (أنتم تعيشون في قطعة قد ركز الأعداء كل جهودهم، وكلَّ ذكائهم، وكل مخططاتهم على إزالتها عن رسالتها، وعن شخصيتها الإسلامية العربية، وعن قيادتها للعالم الإسلامي، هذه مؤامرة من أخطر المؤامرات التي عرفت في التاريخ، إن الشعوب على الرغم مما عندها من نظريات مختلفة، قد تكون متناقضة، تلتقي على نقطة واحدة، وهي القضاء على مكانة الجزيرة العربية، وقطع صلتها عن الإسلام.. إنه ليس

(١) أسبوعان في المغرب الأقصى- ١٤٦-١٥١.

العالم الخارجي والشعوب والحكومات البعيدة عن هذه الجزيرة هي التي تشكل الخطر فحسب...، بل إنكم محاطون بدعوات مناهضة للإسلام، ومعسكرات تقوم على فلسفات تتناقض مع الإسلام، فأنتم لا يسوغ لكم أبداً أن تخلدوا إلى الراحة، وأن تعيشوا عيشة المنعمين المترفين، أقول لكم بصراحة: الترف هو العامل الأكبر لهدم الحكومات، وانقراض المدنيات، وسقوط المجتمعات، وهو الذي ذمه القرآن، فيقول: **﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً﴾** [١][٢].

(١) سورة الإسراء ١٦.

(٢) نفحات الإيمان بين صنعاء وعمّان ٣٨ .

الفصل الأول

جهود أبي الحسن الندوي في بناء الذاتية للفكر الإسلامي

تأثر الفكر الإسلامي بالمتغيرات والظروف التي شهدها العالم الإسلامي في القرنين المنصرمين، وترك الجمود العلمي والوهن النفسي والضعف العسكري والتأخر الصناعي آثاره على شخصيّة الأمة الإسلاميّة وطرائق تفكيرها وسلوك حياتها، ولئن كانت قوة التأثير شديدة في عقول المسلمين ومجتمعاتهم أوّل الأمر حتى ألجات مفكري تلك الحقبة للدفاع عن الإسلام على أنه ليس منافياً للرقي، ولا مانعاً من التقدّم، ولا معارضاً للعقل، وكأنه في قفص الاتهام، وهو ما يلاحظ في مؤلفات محمد عبده وفريد وجدي وأقرانهما [(١)]؛ إلا أن الفكر الإسلامي استطاع رغم ذلك أن يتجاوز هذه المرحلة بجدارة إلى تأسيس الذاتية الفكرية للإسلام، وتقرير استقلاله عن غيره من الأفكار والفلسفات والنظم الوضعية.

حقيقة الذاتية:

تتضح حقيقة الذاتية للفكر الإسلامي في أن الإسلام نسيج وَحْده، لا يطابقه فكر آخر، ولا يضاهيه؛ بل هو مستقلّ بنفسه، غنيّ عن غيره، ومهما ورد من تشابه بينه وبين فكر آخر فهو جزئي وعارض، ويرجع سرّ تفرده إلى القاعدة الإيمانية التي ينبثق منها، وما تقوم عليه من الجزم والاستيقان، والقدرة على بناء الإنسان المتكامل، وتلبية حاجاته النفسيّة والعقليّة والماديّة.

---

(١) الفكر الإسلامي الحديث في مواجهة الأفكار الغربية لمحمد المبارك ٥١.

ولا ريب أن الإسلام له ذاتيته المستقلة في الجانب الفكري وفي بقيّة الجوانب، وله أسلوبه الخاصّ في بناء هذا الجانب وغيره، فهو وحدَه القادرُ على بناء الإنسان الواعي المدرك لوظيفته في الحياة، والإنسان غير مستغن عن توجيهه ورعايته لحظة واحدة إذا أراد الاستواء والكرامة والحرية، ولن يجد شخصيته إلا في المفاهيم الأصيلة التي قدمها القرآن الكريم، وبينتها السُّنَّة المطهَّرة، وستظل المفاهيم البشرية عاجزة عن أن تهديه وإن كانت تستطيع أن تضله، لقد طُرِحَت حديثاً مذاهبُ ونظريات في آفاق المجتمع الإسلامي جرت مع الأهواء والرغبات في صورة علمية فلسفية كانت السبب في ضياع الإنسان المسلم، وتمزقه الروحي ، ومسخ إنسانيته [1]، مصداقاً لقول الله تعالى: **﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾** [2].

ويعدّ أبو الحسن الندويّ من المفكرين القلائل الذين حملوا مسؤولية البناء الذاتي للفكر الإسلامي في وقت مبكر، وعملوا على استقلاله في المنهج والغاية، وإبراز معالمه وشخصيته الخاصّة، ومن أبرز جهوده في هذا الشأن مايلي:

١ - **التأكيد على استقلال منهج الإسلام في الفكر:** هذا التأكيد من أجل تجاوز مرحلة الضياع الثقافي، والتخلي عن التبعيّة الفكريّة، وتغيير نظرة الاحتقار لدى الأمة إلى الذات؛ إذ كانت تنظر إلى نفسها على أنها مجموعة بشريّة موزعة في العالم، منتشرة في البلاد، ذات قوميات مختلفة، ولغات متنوعة، وثقافات محليّة، محاطة بظروف وأجواء خاصّة، وإمكانات محدودة تجتمع على أمرين: الانتماء إلى الإسلام، والخضوع للغرب والاعتماد عليه في

---

(١) مفاهيم العلوم الاجتماعية لأنور الجندي ٢٧٣.

(٢) النحل ١٠٦-١٠٧ .

المعيشة والسياسة [١]، دون ترسيخ لهذا الانتماء على أساس العقيدة الصحيحة، ومعارضة لسيادة الغرب الفكرية.

ذلك كما يرى أبو الحسن الندويّ أن لكلّ كائن حي طبيعة خاصّة، وسمات بارزة وملامح خاصّة، يتكون منها واقع يعبر عنه بالشخصيّة أو الذاتيّة، ويستوي في ذلك الأفراد، والجماعات، والشعوب والأمم، والديانات والفلسفات، والإسلام دين حبّ ذو شخصيّة متميزة لم يصل إلينا عن طريق الحكماء والمفكرين،ولا عن طريق المؤسسين للحكومات والفاتحين، ولا عن طريق الزعماء والقادة السياسيين، وإنما وصل إلينا عن طريق محمد ﷺ، الذي ختم الله به الرسالات، وهدى به من الظلمات [٢]، الذي يقول عنه القرآن الكريم: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [٣].

ولا ريب أن ديناً بهذه الشخصيّة له منهجه المتفردّ في التفكير، ومصادره الخاصّة، التي يعتمد عليها في النظر إلى الإنسان والحياة والكون، وموازينه في الحكم على الأمور والمواقف والأشخاص، وتقدير القيم، وتحديد المبادئ؛ إنه من العسف والجور وهو بهذه المثابة أن نساويه بغيره من الأفكار والآراء البشرية، أو الفلسفات والمذاهب الوضعيّة، ومن الهزيمة في الفكر أن يتبع المسلمون مناهج الشرق والغرب، وهم متميزون في منهج فكرهم باتباع منهج القرآن الذي ﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [٤].

إنه بالرغم مما أصاب المسلمين من علَّة وضعف فإنهم الأمَّة الوحيدة على وجه الأرض، التي تعدّ الند الأقوى في عقيدتها وفكرها ومعطيات دينها للأمم الغربية، والتي يعزم عليها دينُها أن تراقب سيرَ العالم، وتحاسب الأممَ على

(١) إلى الإسلام من جديد ٤٥.

(٢) العقيدة والعبادة والسلوك في ضوء الكتاب والسنة والسيرة ٢١.

(٣) النجم ٣-٤ .

(٤) فصلت ٤٢.

أخلاقها وأعمالها ونزعاتها، وأن تقودها إلى الفضيلة، هذه هي الأمّة التي يمكن أن تعود فتكون خطراً يهدّد الفكر الغربي الذي بسطته أوروبا في الشرق والغرب، وتحبط مساعيه(١).

٢ - بيان ضرورة التغلُّب على الحيرة والازدواجية: عالج النَّدويّ ظاهرة الحيرة التي تعرّض لها أبناء المسلمين في العصر الحاضر نتيجة الازدواجية في المناهج التعليمية والإعلامية، ومؤثرات المذاهب الفكريّة الوافدة، وما ولدته من ردَّة عقدية وفكرية عميقة في النفس وسلوك المجتمعات، كان من مظاهرها التشتت والفرقة والتشكك والاضطراب والهزيمة والإخفاق، والخيبة إثر الخيبة في الدنيا، ﴿وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لا يُنصَرُونَ﴾ (٢)، يصدق على المتحيرين منهم قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ (٣)، وكان من آثارها، ضعف المقاومة في المعركة الفكرية، وزوال الغيرة على الدِّين والمحارم، وفقدان الكرامة والشرف، وحبِّ الدَّعَة والإخلاد إلى الأرض، ولاشكَّ أن البلبلة الفكريَّة كانت وراء انهيار كثير من المجتمعات القديمة، واندثار المدنيات الزاهرة، وهو الوضع الذي ابتلي به المسلمون في العصر الحاضر(٤).

إن من أعظم الأسباب التي أدَّت إلى الحيرة التناقضُ في التوجيه والإعلام والتربية، تناقض بين ما ورثوه وبين ما يعيشونه، وبين ما يلقنونه تقليناً وبين ما يطلبه منهم علماء الدِّين، هذا التناقض العجيب الذي سلِّط عليهم، ومنوا به هو السر في هذه الحيرة المُرْدِية؛ فإن الشباب يتلقون

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ٢٨٣.
(٢) سورة فصلت ١٦.
(٣) الكهف ١٠٣-١٠٥.
(٤) الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية ١٢٤-١٢٥.

عقيدتهم في بيئتهم فيجدون من ذوي الاختصاص العلمي ماينقضها، ويقتلع كلّ ما غرسته في قلوبهم وعقولهم من سلامة الفكر وصحة التوجُّه؛ بل ويسمعون من وسائل الإعلام ويرون ويقرؤون ما يشكِّك في التاريخ الإسلامي ومصادر الشريعة ومراجع اللغة وصلاحيَّة هذه الأمة وخلود الرسالة التي تحملها، فيتلقون هذا المزيج العجيب من أفكار ومبادئ وإغراءات ونظريات مما يؤدي إلى نفي الإسلام من قلوبهم، أو يقلِّلُ من قيمته في نفوسهم على الأقل، فيقعون في تناقض عجيب، وفي صراع فكري عنيف [١].

ويرى الندوي أنه يمكن المساهمةُ في علاج هذه الحيرة على رغم قوة تأثيرها في المسلمين عن طريق توحيد نظام التعليم، والتخلُّص من ازدواجيته التي أوجدت الحيرة ونمتها، وأول خطوة يخطوها العالم الإسلامي في هذا الاتجاه الصحيح هو تنسيق غايات التعليم ومواده، وإحكام ربطه بعقيدة الأمة الصحيحة، على أساس أن التعليمَ وحدةٌ واحدة لا تقبل التجزئة بين القديم والحديث، أو التجريد عن الدِّين، إنما ينقسم بين وسائل وغايات تكون فيه الوسائل خاضعة للغاية الأساسية، ولا ريب أن هذا العلاج يحتاج إلى جهود مضنية ومخلصة، ومشاريع كبيرة مدعومة معنوياً ومادياً من قبل الحكومات والهيئات العلمية والتربوية والإعلامية، تعمل متعاونة على إزالة هذا التناقض، وإنشاء بيئة ملائمة تساعد على نمو الشخصية الإسلامية، وإكمالها، ووصولها إلى الغاية المطلوبة [٢].

٣ - تقوية الشخصية الإسلامية وتذكير الأمة برسالتها: فقدت الأمة الإسلامية في القرن الأخير مكانتها الطبيعية التي ميزها الله بها، وهي مكانة القيادة العالمية التي تحملت أمانتها، واضطلعت بمهامها من مسؤولية الدعوة

---

(١) التربية الإسلامية الحرة ١٠١-١٠٣.

(٢) من نهر كابل إلى نهر اليرموك ٢٣٢-٢٣٦.

إلى الإسلام، ومدافعة العقائد الباطلة والنحل الفاسدة والتصورات المنحرفة؛ لتكون كلمةُ الله هي العليا، قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (١)، وقد استحقت أن تنال هذه المكانة الرفيعة؛ لما اختصّت به من سمة الخير في عقيدتها وتشريعات دينها ومناهجها على بقية الأمم، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (٢).

ويشخص أبو الحسن الندويّ حال الأمّة اليوم بعد أن فقدت هذه المكانة، بأن مجتمعاتها تعيش على هامش الحياة، وفي مؤخرة الركب، يدين غالبها لفلسفات الغرب ومناهجه، على درجة أن الغرب يأمرها فتطيع، ويقول لها فتسمع، ويقودها فتنقاد، ويعلِّمها فتتعلم؛ لأنها تعيش على فتات مائدته، إنها شعوب لا شخصية لها؛ لأنها تخلت عن رسالتها، والأمم والحضارات لا تعيش إلا بالشخصيات والرسالات، فيجب عليها إذا أرادت النهوض واستعادة مكانتها أن تتعرف على شخصيتها، وتدرك رسالتها، فإذا هي فعلت ذلك يتعرف أن شخصيتها شخصية القوة والثقة، والأصالة والاستقلال، والجدِّ والابتكار، وستدرك أن رسالتها رسالة الدعوة إلى الإيمان بالله تعالى، والإخلاص والرحمة والعدل والمساواة، إنها رسالة الإسلام التي أكرم الله بها هذه الأمة، وأعزها بها بعد ذلٍّ، فأين الشعوب الإسلامية من تجديد إيمانهم بها، والحماسة لهداية العالم إليها حتى يعيد التاريخ نفسه، ويرتد الدهر على أعقابه (٣).

ويؤكد أبو الحسن أنه لن ينهض العالم الإسلامي إلا برسالته التي وكلها إليه مؤسسها ﷺ، والإيمان بها، والاستماتة في سبيلها، وهي رسالة قوية

---

(١) سورة البقرة ١٩٣.

(٢) سورة آل عمران ١١٠.

(٣) من نهر كابل إلى نهر اليرموك ٦٦.

واضحة مشرقة، لم يعرف العالم رسالة أعدل منها، ولا أفضل، ولا أيمن للبشرية منها، وهي نفس الرسالة التي حملها المسلمون في فتحهم الأول، والتي لخَّصها ربعي بن عامر في مجلس يزدجرد بقوله «الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام» [١] فما أحوج العالم اليوم إلى هذه الرسالة بعد أن استدار الزمان كهيئته يوم خرج المسلمون من جزيرتهم لإنقاذ العالم من براثن الوثنية والجاهلية الأولى، لتنقذ الناس من عبادة الأهواء، ولتوسع لهم من ضيق المادية، وتحررهم من جور المذاهب الفكرية المنحرفة، أما وقد ظهر فضل هذه الرسالة بعد أن افتضحت الجاهلية الجديدة، وبدت سوأتها للناس، واشتد تذمرهم منها، فهذا طور انتقال العالم من قيادة الجاهلية إلى قيادة الإسلام؛ لو نهض العالم الإسلامي بمسؤوليته، فاحتضن هذه الرسالة بإخلاص وعزم، ودان بها كالرسالة الوحيدة التي تستطيع أن تنقذ العالم من الانهيار والانحلال[٢].

فليعد المسلمون إلى دينهم الذي كتب الله لهم به وحدَه العزة والمنعة والسؤدد، وقعدوا به في الصفّ الأول بين الأمم، فإن مما شهد به التاريخُ الإنساني الطويل وعلمُ النفس والأخلاق أن الغايات والتعاليم الفاضلة والنماذج العملية الرفيعة لا تقوم، وإذا قامت لا تدوم- إلا إذا كانت وراءها أمة من الناس تحمل دعوتها، وترفع رايتها، وتجتهد في سبيلها، وتمثلها عملياً [٣]، إن المسلمين إذا رغبوا في العودة فسيجدون الإيمان هو الإيمان، لا يزال يحمل تلك القوة التي تقهر القوّة الماديّة التي آمن بها المقلِّدون الضعفاء، لكن العالم الإسلامي أفلس من القوَّة الإيمانية، واعتمد على ما يشترك فيه المسلم

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٧/٣٩.
(٢) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ٢٨٥-٢٨٨.
(٣) الإسلام وأثره في الحضارة وفضله على الإنسانية ١٠٦.

والكافر؛ وقد يتفوق فيه الكافر على المسلم، وركن إلى الحياة المهلهلة الرقيقة الموبوءة، ومال إلى الحياة التي يشترك فيها غيرنا؛ بل يمتازون عنا بأن عندهم الصرامة والجد والعزم وقوة الإرادة في سبيل المبدأ والهدف، فبماذا إذن يمكن أن يتفوق العالم الإسلامي على غيره وهو بهذا القدر من الإفلاس، إنّ السبيل الوحيد للتفوق والنصر هو في إعادة بناء شخصيّة الأمّة الإسلاميّة من جديد على أساس الإيمان والتجرد من كلّ الشعارات الدخيلة[1]، وفي حمل المسلمين لمشعل الإسلام لينيروا به حياتهم ومن حولهم، ويثبتوا به وجودهم ومكانتهم، وفي الأخذ بالأسباب العلمية والمادية بحيث يستغنون عن غيرهم في كلّ مرفق من مرافق الحياة بما يوافق روح رسالتهم، ويؤدي إلى إعلائها ومضيِّها.

٤ - **دعوة الأمة إلى صياغة الحضارة من جديد:** لقد أحدث الإسلام مفهوماً جديداً للحضارة يشمل المعنويات من عقيدة وتشريعات وأخلاق، ويشمل الماديات من طبيعيات ومحسوبات ومنافع عينية - فلم يعد مقصوراً على المظاهر الحسيّة وهو يعني هذا المعنى الواسع، إن الحضارة كما عرفها الأستاذ عمر بهاء الدين الأميري: (تحقيق غرض الوجود البشري في إعمار الأرض وفق نواميس الله بأسمى شكل تتجلى فيه إنسانية الخليفة)[2] في الأرض، لذا يقرر أبو الحسن الندوي أنه من الطبيعي في الدِّين، الذي شملت تعاليمه الدنيا بشُعبَها ومجالاتها، والذي سبك الحياة البشرية كلها عن طريق العقيدة التي تدعو إليها في قالب خاصٍّ - أن لا يعيش بغير حضارة خاصَّة به، وجوٍّ ملائم له، مساعد له على تحقيق أهدافه ومُثُله، وقيمه، إنه دين لا ينسجم مع الحضارات الأخرى التي نشأت واختمرت تحت ضغط عوامل

(١) لنعد إلى الإسلام ٨-١٠.

(٢) الإسلام وأزمة الحضارة الإنسانية المعاصرة ١٢.

تاريخية خاصّة، وفي بيئات تختلف عن البيئة الإسلامية في عقائدها ومناهج حياتها وغاياتها[١].

إن الإسلام وحدَه هو الذي منح الإنسانيّة التي تخبَّطت في ظلمات الأديان المنحرفة والملل الفاسدة والمذاهب المضلِلَة دهوراً من الزمن - العقيدة الصافية المنسجمة مع الفطرة، والمتلائمة مع العقل، فهي عقيدة معجزة، ومتدفقة بالقوة والحياة، حافزة للهمم، ومخلِّصة للنفس من الخوف والوجل، مرشدة للعقل إلى تفسير كامل للحياة، وموجهة للفكر والعمل في أن ينطلقا من حكمة وبصيرة، إنها عقيدة أكرمت الإنسان بالخلافة في الأرض بعد أن حُرِمَ نقاءها زمناً طويلاً، لم ينل، ولن تنال الإنسانيّة مثلها إلى يوم القيامة [٢].

لقد كان ظهور الحضارة الإسلاميّة بروحها ومظاهرها ونظامها في تقييم أبي الحسن - فصلاً جديداً في تاريخ الأديان والمجتمعات، واتجهت به الدنيا اتجاهاً جديداً في طرائقها وأحوالها، وتأثرت به طباع الناس وعقولهم من حيث يشعرون ومن حيث لا يشعرون، كما تتأثر طبيعة الإنسان والنبات في فصل الربيع، وبدأت مبادئ الإسلام وتعاليمه تتسرب إلى أعماق النفوس، وتتغلغل في الأحشاء، وتغيرت قيمة الأشياء في عيون الناس، إنه يمكن لمن يطالع تاريخ أوربا الدِّيني أن يقف على التأثير العقلي للإسلام في نزعات المصلحين والثائرين على التسلط الكنسي، والتي تعدّ دعوة مارتن لوثر من أبرز مظاهرها، يقول روبرت بريفولت: ما من ناحية من نواحي تقدم أوروبا إلا وللحضارة الإسلامية فيها فضل كبير، وآثار حاسمة، ولها تأثير كبير [٣].

(١) العقيدة والعبادة والسلوك في ضوء الكتاب والسنة والسيرة ١٧١.
(٢) الإسلام وأثره في الحضارة وفضله على الإنسانية ١٨-٢٠.
(٣) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ١٣٥-١٤١.

إن الإسلام حمل مشعل الحضارة بعد أن وقعت البشرية فريسة للسفسطائية في عهد المدنية العقلية والفلسفية ذات المقاييس الوهمية، التي دفعت مجتمعاتها اليونانية والرومانية إلى الانحلال الخلقي والاختلال الاجتماعي، أو فريسة الهندوكية في شبه القارة الهندية، التي مَزَّقَت المجتمعَ إلى طبقات متفاوتة ومتناحرة، أو فريسة المادية الحديثة التي حرمت الإنسان من الإيمان والقيم بعد أن أعلت من شأن المنفعة والأشياء المحسوسة؛ فكان مرد ذلك تفكك الأسرة، وانتشار القلق النفسي والأمراض الخلقيّة، وغياب المُثُلِ والقيم في الحياة الاجتماعية، وظهور الأَثَرَة والتطاحن على المادة في دروب الحياة، ولا ريب أن ذلك ينذر الأجيال والمجتمعات التي هيمنت عليها هذه المادية بالخطر المحدق، ولا مغيث لها إلا تعاليم النبوَّة الأخيرة المحفوظة التي لم تترك زمام الحكم في التصورات والأخلاق والقيم والنظم إلى الظنون أو العقل والتجربة؛ بل إلى حكم خالق الإنسان، العالم بحاجاته، الذي ﴿.. يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [1]، إنه حقيق على المسلمين من أجل إنقاذ البشرية من أوحال التيارات الوضعيّة المعاصرة أن يجاهدوا في سبيل قيام الحضارة الإسلامية جهاداً كبيراً، وأن يعكسوا هذه التيارات، ويوجهوا مجاري الأمور على أن تنحو نحو الإسلام، تلك مسؤولية تقع على عاتق الأمة الإسلامية بعد أن نثر الذكاء الإنساني كنانته، وأفرغت التجربة البشرية جعبتها، وألقت بكل سهامها، فما كانت إلا سهاماً طائشة ومسمومة، ولم يبق للإنسانية أمل في النجاة إلا الرسالة السماوية الأخيرة وحضارتها المثلى [2].

لكن ثمَّة حقيقة علمية -ينبه إليها الندويّ- لا بُدّ من مراعاتها، وهي أن الأمة الإسلامية لا تستطيع أن تقوم بدور التأثير في الحضارة الإنسانية

(١) سورة الملك ١٤.

(٢) بين الدين والمدنية ١٢٠-١٢٣

المتعطشة إلى رسالة الإسلام إذا كانت متطفلة على مائدة الحضارات الأجنبية، تغرف من بحرها، وتغوص في موجتها إلى الآذان ،إنها لا تستطيع أن تسترعي انتباهها فضلاً على أن تحمل الشعوب الأخرى على تقليدها إلا إذا كانت مؤمنة، عميقة الإيمان بأن حضارتها مستقلّة، ذات شخصية خاصّة، ربّانية سماويّة، صالحة لكلِّ زمان ومكان، قائمة على أسس متينة مستفادة من الكتاب والسنة، منبثقة من هدى الله وتعاليم النبوة [1].

---

(١) الإسلام وأثره في الحضارة وفضله على الإنسانية ١٢٢.

الفصل الثاني

جهود أبي الحسن الندويّ في تأصيل الفكر الإسلامي

بذل أبو الحسن الندويّ جهوداً متواصلة في تأصيل قضايا الفكر الإسلاميّ بحيث تكون متوافقة مع القرآنِ الكريم والسُّنَّة النبويّة المطهرة، وإزالة كلّ ما يكدرها من ران الفكر الآخر، ويشوه بَهاء صورتها الحقيقيّة، ولا سيما بعد أن تعرضت الأمة الإسلاميّة لهجمات فكريّة معادية، أحدثت نوعاً من اللبس، وعملت على فرض مفاهيم جديدة، وساعدت على غياب الفكر الصحيح، فكان لزاماً على حملة العلم الشرعي أن يقوموا بواجبهم في التصدي للفكر الوافد الغريب، والمحافظة على ما توصل إليه اجتهاد العقل المسلم نتيجة تدبر القرآن والسنة، وتأمُّل آيات الله الشرعية والكونية بما يعين الإنسان على القيام بوظيفة الاستخلاف في الأرض، واستلهامِ التصور الصحيح للحياة ورسالته فيها.

حقيقة التأصيل: يرى الدكتور محمد رأفت سعيد أن التأصيل هو: العمل على موافقة الفكر لما جاء في كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ، وبمعنى آخر: محاولة أن تكون نتائج الجهد العقلي في فهم ما جاء به الإسلام منسجمة مع روحه وقواعده. وبيَّنَ أن الموافقة تكون في الموضوع الذي يظهر في حصيلة الفكر وتناسقها مع معطيات الكتاب والسّنّة، وفي المنهج الذي يتّضح في اتّباع أسلوب القرآن في شموليته وموضوعيّة مضامينه، وفي الغاية التي تنشأ عن الآثار التي يمكن أن ترتب على هذا الفكر من الناحية النظرية والعملية [1].

(١) الأصالة والمعاصرة في الفكر الإسلامي ٨.

ويعد أبو الحسن الندوي من رواد الفكر الإسلاميّ المعاصر الذين أدركوا أهمية هذا التأصيل، وعملوا على رد القضايا الفكريّة إلى الكتاب والسنة، والاستناد إليهما في بلورة تصوّر صحيح، أو معالجة مسألة جديدة، أو إزالة لبس أو خلط بفكر وافد عن قضيّة شرعيّة، ولعلَّ من أبرز الموضوعات التي طرقها بالتأصيل: تفسير أركان الإسلام الأربعة، واختتام النبوة وانقطاعها بعد محمد ﷺ، والتزكية للنفس، ومسألة انتماء التعليم، وحدود التقليد، وطبيعة الحضارة الإسلامية، وسأقتصر على بعضها:

١ - **تفسير أركان الإسلام الأربعة**: أشار الندوي إلى أنه حَفَّزَهُ إلى هذا التفسير، ما كان يشعر به من مدة طويلة من اضطراب الآراء والكتابات في تفسير هذه الأركان العملية الجليلة: الصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، ومقاصدها وغاياتها وفوائدها ومصالحها في هذا العصر، وإخضاع معانيها في جرأة كبيرة وتوسع وسخاء للفلسفات العصرية والمذاهب الاقتصادية والسياسية، ومصطلحاتها وتعبيراتها المحدودة، حتى كادت هذه الأركان في عقول مَن آمن بهذا التفسير، وخضع لهذا العرض- تفقد حقيقتها وقوتها، وتضيع مقاصدها التي شرعت لأجلها، وكاد معنى الإيمان والاحتساب يضيع من بين هذه التعبيرات الماديّة والتفسيرات العصريّة، وكاد التفكير الماديّ يطغى على روح العبادة والإخلاص، فكان ذلك خطراً كبيراً على الأمة وطليعة تحريف كبير في فهم المعاني الدينية والمقاصد الشرعية [1].

وحقيقة فإن الندويّ استطاع في كتابه: (الأركان الأربعة: الصلاة، الزكاة، الصوم، الحج) أن يستوفي دراسة هذه الأركان في أسلوب علمّي جديد، مصون عن مناهج الفلسفات والآراء المنحرفة، معتمداً فيه على الكتاب والسنّة في

(١) في مسيرة الحياة ٣١٠.

بيان تفصيلات هذه الأركان وروحها ومقاصدها، وآدابها، مردفاً ذلك بما جاء في كتب أئمة المسلمين من الفقهاء والمفسرين والمحدّثين، ومتبعاً لها بكشف عن بعض مطاويها وصلتها بالحياة، وفضها لكثير من المعضلات، فقد توارثت الأمة فهم معاني العبادات وحقيقتها ومقاصدها كما توارثت أوضاعها وأشكالها، وأحكامها وآدابها، وتوارثت العمل بها من غير انقطاع أوجهالة حتى وصل هذا الدين إلى الأجيال الحاضرة متواتراً متصلاً في الأحكام والمعاني والمقاصد والهيئات؛ فليس لأحد في هذا العصر أن يبتكر لركن من هذه الأركان مفهوماً لم تعرفه هذه الأمة من مصادر دينها الصحيحة، أو يلبسه لباساً مستورداً من الخارج، أو مستعاراً من أجنبي أو مشابهاً لعبادة في ديانة أخرى[1].

٢ - **تأكيد اختتام النبوة وانقطاعها بمحمدﷺ**: قد يعدّ البحث في مثل هذه المسألة من الترف العلمي؛ لأنها من المسلمات والبدهيات في عقيدة المسلمين التي لا تحتاج إلى طول نقاش؛ لكن مستجدات الزمن قد تفرض على العالم تجديد العرض، وزيادة الإقناع، وهو ما حدث فعلاً لأبي الحسن الندوي في مواجهة نحلة القاديانية التي ظهرت في شبه القارة الهنديّة، منتسبة زوراً إلى الإسلام، وحدت به إلى استشعار مسؤوليته في هذا المجال العلمي بعد أن دخلت هذه القضيّة في الأخير المرحلة الحاسمة، وأصبحت بحاجة إلى أن تنتهي فكرياً بعد أن انتهت حكومياً في باكستان التي أعلنت بأن القاديانية فرقة كافرة، لا صلة لها بالإسلام[2].

نشأت هذه النحلة الفاسدة التي تأثر بها بعض جهال المسلمين-في أحضان الاستعمار البريطانيّ الذي مدَّها بكلِّ الإمكانات الماديَّة والمعنويّة؛ لتعملَ لحسابه في العالم الإسلامي، ولا سيّما في مستعمرة الهند، من أَجل

(١) الأركان الأربعة ٤.
(٢) النبي الخاتم ٢.

تشتيت قوى الإسلام، وقد ظهرت حاملةً اسم الإسلام، وهي تبطن هدم أصوله ومبادئه، وتولى كبرها غلام أحمد القادياني من أبناء قرية قاديان إحدى قرى إقليم البنجاب، الذي شبّ مدعياً أنه نبيٌّ مجدد، وأنه يلهم أسرار الملكوت، فاستغله الاستعمار البريطاني، الذي توَّجه بالنبوة، وأغدق عليه وعلى أتباعه المال والتسهيلات في مقابل ولائه المطلق له، فقد بلغ السوء بغلام أحمد أن وصف الاستعمار بأنه ظلُّ الله في الأرض، وعبر عن مناصرته له بقوله في كتابه آرية دهرم ٧٩-٨٠: نحن نتحمل كل البلايا لأجل حكومتنا المحسنة، وسنتحمل في المستقبل؛ لأنه واجب علينا أن نشكرها لإحسانها ومِنَّتها علينا، ولاشك نحن فداء بأرواحنا وأموالنا للحكومة الإنجليزية، ودوماً ندعو لعلوها ومجدها سراً وعلانية [1].

لقد سعت القاديانيّة التي وجدت التمكين في التلبيس على الناس دينهم بأباطيلها، ومسخ عقائدهم بترهاتها، في جرأة واستكبار، محقِّقة بذلك هدفَ الاستعمار إلى إضعاف جانب المسلمين في الهند خصوصاً، وفي العالم الإسلامي عموماً، وشقّ صفّ المسلمين، وإماتة الآمال في وحدتهم، وتجهيلهم بأمور دينهم،وتشكيكهم فيه بإثارة الشبهات والدعايات الكاذبة.

ولعل مجمع فساد هذه النحلة - كما يراه أبو الحسن الندويّ- ينحصر في خروجها على عقيدة نبوَّة محمد ﷺ، وانقطاعه به، واختتام الرسالات برسالته، هذه العقيدة التي حرست دين الإسلام من غائلة المبتدعين، وفتنة المتنبئين، وحفظته من الفوضى الفكرية التي لم تسلم منها الأديان السابقة، ومنحت متّبعيها وحدةً في المعتقد والمسلك والاتباع، لقد كان خطر بدعة القاديانية عظيماً، لم يشهد له التاريخ الإسلاميّ مثيلاً على رغم ما مرّ به من محن ومؤامرات، نبّه إليه الدكتور محمد إقبال، قائلاً: إن القاديانيّةَ محاولةٌ

---

(١) القاديانية لإحسان إلهي ظهير ١٩-٢٦.

منظمة لتأسيس طائفة جديدة على أساس نبوّة منافسة لنبوة محمد ﷺ. وفعلاً فإن المتنبئ الكذاب غلام أحمد فتح بابَ النبوّة على مصراعيه، مدعياً أن اتباعَ النبي ﷺ ينحت الأنبياء الجدد ويخلقهم، محدثاً بذلك اضطراباً يؤول إلى تفريق المسلمين، وتمزيق وحدتهم، وزارعاً وحشة في قلوب المؤمنين، ومكراً في قلوب الملحدين[١].

ولا ريب أن عقيدة استمرار النبوة ونزول الوحي والمكالمات والمخاطبات الإلهيّة التي أسس عليها هذا المفتري دعوى نبوتّه لها تأثيرُ في العقول والنفوس، فإنها تضعف ثقةَ بعض ضعاف الإيمان في صلاحيّة دينهم وشريعتهم، وخلود رسالتهم، واستغنائها عن نبوة جديدة، هذا عدا أن اعتقاد إمكان ذلك يجعل الأمةَ فريسةً للأدعياء والدجالين؛ لذا كان من أكبر نعم الله تعالى على هذه الأمة، ومن خصائصها سَدُّ هذا الباب إلى الأبد، والإعلام الصريح بأن النبوةّ قد خُتمَت بمحمد ﷺ، قال تعالى: **﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾**[٢]، وأن الدِّين أكمل للمسلمين قبل أن يلحقَ الرسولُ ﷺ بالرفيق الأعلى[٣]، قال تعالى: **﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾**[٤].

٣ - **تجلية معنى تزكية النفس:** أفرد أبو الحسن كتابه: ربّانية لا رهبانيّة لمناقشة موضوع التبست فيه الحقيقة، وأشكلت على كثير من الناس؛ حتى بدوا مؤيدين أو خصوماً، مبيّناً في كتابه هذا السبب، ومميزاً بين الحقِّ والباطل، ومعتمداً على الإنصاف في الحكم على الآراء والأفعال بالاعتراف بالجميل، والتماس العذر لمن أخطأ مجتهداً، وغضَّ البصرَ عن زلّته التي لا

(١) القادياني والقاديانية ١٢٩-١٣٦.
(٢) الأحزاب ٤٠.
(٣) النبي الخاتم ٧٢-٧٣.
(٤) المائدة ٣.

يخلو عنها بشرٌ، ولا يبرأ عنها مجتهدٌ، فكلٌّ من يجتهد يخطئ ويصيب، وكلٌّ من يجري يكبو ويعثر، وكلٌّ يؤخذُ من قوله ويردُّ إلا النبي المعصوم ﷺ [١].

ذلك الموضوع هو تزكية النفس أو ما يُعرف بفقه الباطن الذي يدعو إلى تهذيب النفوس، وتحليتها بالفضائل الشرعية، وتخليتها عن الرذائل النفسيّة والخلقيّة، ويدعو إلى كمال الإيمان والحصول على درجة الإحسان، والتخلُّق بالأخلاق النبوية، واتباع الرسول ﷺ في صفاته الباطنيّة، ويعود اللبس فيه إلى مصطلح التصوف الذي وضع له، وهو كما رجَّح شيخُ الإسلام ابن تيمية مصطلحٌ حادثٌ [٢].

وما ارتبط به من انحراف عقدي نشأ عن اتخاذه وسيلةً لتحريف الدِّين، وإضلال المسلمين، وإفساد المجتمع، ونشر الإباحيَّة، إلى أن بلغ حدّاً من الإلحاد، تمثل في عقيدة الحلول والاتحاد، مما نفر منه أهلُ الغيرة على الدِّين، ومن لم يدركوا غايتَهُ دون ما التبس به من باطل، ولكنَّ الله قَيَّضَ للمسلمين مَن تحرَّرَ من ربقة القيود والمصطلحات ممن ينفون عن هذا الدِّين: (تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين) [٣]، ويدعون إلى التزكية الخالصة من شوائب العجمة والفلسفة، وإلى الإحسان وفقْه الباطن من غير تحريف وانتحال وتأويل، وينفخون في الأمة روحاً من الفضيلة والأخلاق الحميدة، ويجددون صلَة القلوب بالله، والعلماء الربانية، والعامَّة بالخلالِ الكريمة [٤].

على أن أبا الحسن الندويّ في تجليته لهذا المفهوم، وإزالته لهذا اللبس لا يبرئ المتصوفة من الخطأ؛ لكن يحمد لهم ما كان صواباً وفق منهج أهل السنة

---

(١) ربانية لا رهبانية ٨.

(٢) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ٤٢ .

(٣) جزء من حديث رواه البيهقي في السنن الكبرى ٢٠٩/١٠، كتاب الشهادات، باب الرجل من أهل الفتيا يسأل عن الرجل من أهل الحديث.

(٤) ربانية لا رهبانية ١٥-١٦.

والجماعة الذي صرَّح به شيخ الإسلام ابن تيمية، قائلاً: (والصواب أن يحمد من حال كلّ قوم ما حمده الله ورسوله كما جاء به الكتاب والسنة، ويذّم من حال كلِّ قوم ما ذمَّه الله ورسوله كما جاء به الكتاب والسنة) [١]، ووضح أن هذا المنهج يضاده منهج أهل البدع الذين لا يعذرون من أخطأ مجتهداً، فيذمونه متغافلين عن حسناته ومحامده، فقال: (ومن جعل كلَّ مجتهد في طاعة أخطأ في بعض الأمور مذموماً معيباً ممقوتاً فهو مخطئ ضالٌّ مبتدع) [٢].

ويلحّ الندويّ على العناية بتزكية النفس دون اتباع لمنهج خاصٍّ، وهو ما يعرف عند المتصوفة بالطريقة، فإنه لا حاجة على ذلك، فإن في كلمات القرآن والسنة ومصطلحاتها غنًى عنه، ولكن لا بُدَّ أن نملأ هذا الفراغَ الواقعَ في حياتنا ومجتمعنا، ونسدَّ هذا الجانبَ بتربية النفوس، والدعوة إلى إصلاح الباطن، والعناية بالفرد، وأن نتغلب على هذه النفرة بتجلية المفهوم الصحيح، وتمييزه عما خالطه من فساد [٣]، فإنه أحدُ الأمور الأربعة التي بُعثَ الرسولُ ﷺ لتحقيقها، قال تعالى ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [٤].

٤ – **إبراز مسألة انتماء التعليم:** شغلت هذه المسألةُ بال أبي الحسن الندوي، واستأثرت على اهتمامه؛ لأنها من أهم عناصر الحلِّ في معالجة وضع الأمة الراهن ومشكلاته المعقدة، ومن أهمَّ المجالات الحيوية تأثيراً في حياة المسلمين، ورَسْمِ مستقبلهم، ومواصلة بناء حضارتهم.

ولأنها مسألة مستقلة قائمة بذاتها، مرتبطة بشخصيَّة الأمة ذات الطبيعة الخاصَّة، فهي أمة تختصّ بأنها ذات مبدأ وعقيدة ورسالة ودعوة، مما يوجب

(١) الاستقامة ١/٢٢١.
(٢) مجموع الفتاوى جمع عبد الرحمن بن قاسم ١٥/١١.
(٣) ربانية لا رهبانية ١٩.
(٤) سورة الجمعة ٢ .

أن يكون تعليمها خاضعاً لهذا المبدأ ومنبثقاً من هذا المعتقد، وحاملاً لهذه الرسالة، وخادماً لهذه الدعوة، ذلك أن التعليم أداةٌ لإنشاء الأجيال التي تؤمن بهذه الخصائص، ومهمتُهُ معقدةٌ، ليست من السهولة بالمكان الذي قد يتصوره بعض رجال التعليم في البلاد الإسلاميّة، إنه ليس مجرد تعليم العلوم والفنون، ولغات وطنية وأجنبية، وآداب مختلفة، بل هو إنشاء جيل جديد إنشاء فكريّاً وخُلُقيّاً وعقديّاً، ولا شك أن هذا يتطلب منهاجاً دراسياً خاصّاً، فإنّ كلَّ تعليمٍ لا يرعى ذلك هو تعليمٌ قاصر وناقص، يرزأ الأمة في طبيعتها وشخصيتها [1].

ويشير أبو الحسن الندوي إلى أنه نُفِّذت في العالم الإسلامي خططٌ تعليمية غير ملائمة لوضع مجتمعاته القائمة على أساس العقيدة والرسالة المحمّدية؛ فلم تتمكن من ملء الفراغ الهائل الواقع فيه، ومن تلك الخطط خطة سيد أحمد خان في الهند، فإنها اتسمت بسمتين، تقاصرت بسببهما عن تحقيق التعليم المنشود.

الأولى: أنها لم تعمل على إخضاع النظام التعليمي لطبيعة المجتمع الإسلاميّ الهنديّ وحاجاته وأوضاعه، ولم تسعَ إلى سبكه سبكاً جديداً متلائماً مع معتقدات هذا المجتمع ومبادئه، ولم تفصله عن الحضارة الغربية وروحها المادية التي لا لزوم لها في بلد إسلاميّ؛ بل إنها اعتمدت نظام التعليم في الغرب بتفاصيله وخصائصه وروحه وطبيعته.

الأخرى: اقتصرت على تعليم اللغة والآداب فقط، ولم تعنَ بتعليم العلوم الطبيعية والتطبيقية العناية التي تستحقها، مع أنها ثمرة العلم المادي، وسرّ

---

(١) التربية الإسلامية الحرة ٧.

قوة الأمم الغربية وسيادتها، وهي التي يجب أن تستفاد من الغرب، ويُحرَصُ على البراعة فيها، وتحقيق سبق فيها [١].

كان نتيجة تنفيذ نظم التعليم الغربي في غالب مجتمعات المسلمين أن وقع غالبُ العالم الإسلامي فريسةَ التبعيَّة للغرب في طرائق التفكير ومناهج الحياة وأنماط العادات والتقاليد، وفقدان الهوية الثقافية، وأن أدت إلى مسخ شخصيّة الأمَّة الإسلامية، وذوبانها في محلول الفلسفة الماديّة الغربيّة، الذي صاغها (صياغة ماديّة بحتة، تنكر أو تتجاهل الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.. ثم وقوف المسلمين وفي مقدمتهم رجال التربية موقف المستسلم لتلك النظم التعليمية غير الدينيّة السائدة - مما عرض الأمة الإسلاميّة - لأزمة في التعليم المعاصر تتجسد في غياب المنهج الإسلامي للتربية) [٢].

إن البلاد الإسلامية في تقدير أبي الحسن في حاجة ملحّة إلى نظام تعليميّ إسلاميّ في الروح والوضع، والسبك والترتيب، والوسائل والغايات؛ هذا إذا أردنا أن ينشأ جيل جديد يفكر بالعقل الإسلاميّ، ويكتب بقلم مسلم، ويدير دفة البلاد بسيرة مسلم وخلقه، وينقذ سياسة التعليم والمالية ببصيرة مسلم، ولا ريب أن قيام هذا النظام مطلب أول، لا يسع التغافل عنه، أو التساهل فيه، وهو عمل شاق وواسع، يأخذ وقتاً طويلاً، ويحتاج إلى تضافر الجهود، ومساندة الحكومات [٣].

ولنعتبر بغيرنا؛ فإن دولة إسرائيل المزعومة لم تقم إلا على أساس خالص للدّين، وهي متشبثة بتعاليم التوراة، عاضّة عليها بالنواخذ في كل مجالات

---

(١) الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية ٧٥.
(٢) أزمة التعليم المعاصر للدكتور زغلول النجار ١٧٦.
(٣) التربية الإسلامية الحرة ١١.

العلم والدّين والسياسة والاجتماع والاقتصاد، وفي الحياة الفرديّة والاجتماعيّة [١]، وإن البلاد الروسية لما رفضت الأديان، وآثرت الإلحاد، أخضعت نظامَ التعليم لنظريتها المادية، رافضةً أن يكون العلم الروسي قسماً من أقسام العلم العالمي، مؤكدةً على أنه علم يقوم على أساس العلوم الطبيعية والفلسفة المادية التي قدمها ماركس وانجلز ولينين، وتصارع به كلَّ التصورات التي تناهض هذه الفلسفة بكلِّ حزم وقوّة [٢].

إذا كانت هاتان الدولتان عملتا على إثبات وجودهما من خلال نظام التعليم على رغم إسفاف مبادئهما بعقل الإنسان وحياته، أفلا تستحق الشعوب الإسلاميّة أن تحافظ على شخصيتها، وتُظهِرَ مخزونَ تراثها لينتفعَ به، وتتمتعَ بثمار تعاليم دينها، وهي الأمة التي رفعت منارَ العلم على أساس الدّين والفضيلة، وبنت الحضارةَ المعنوية والمادية، وأسست العلومَ الطبيعية، وحررت الإنسانَ من الإغراق فيما لا طائل فيه من علوم ما وراء الطبيعة والفلسفة التي نشرها اليونان والفرس والهنود، إن الأمةَ مطالبةٌ بأن تبذل قصارى جهدها في الإحاطة والإلمام بكل الأسس الدينيّة والعلميّة والحضاريةّ، التي تحقق لها العزة، وتعيد لها مكانتها الرائدة، وتمكنها من تحقيق التوزان الحضاري والقيادي [٣].

***

(١) الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية ١٥٦.

(٢) التربية الإسلامية الحرة٥٥.

(٣) العقل المسلم والرؤية الحضارية للدكتور عماد الدين خليل ٢٦.

الفصل الثالث

جهود أبي الحسن الندويّ في نقد الحضارة الغربية

تناول أبو الحسن الندويّ مسألة الحضارة الغربية بالتحليل والنقد، فبيَّن حقيقتَها وكشف عوارَها، ونبَّه على مساوئها في العالم الإسلامي، وجنايتها على الإنسان بعامَّة، والمسلم بخاصَّة، ويكاد أن يكون هذا المسلك ناشئاً عن (نظرة ثابتة في أفكار الشيخ لا ينفك يعرض لها في كلِّ ما يؤلف ويحاضر. وبذلك يلتقي مع كبار مفكري الإسلام والغرب المعاصرين كالمرحوم محمد إقبال، والشهيد سيد قطب، وأخيه محمد، ومحمد محمد حسين، ومحمد البهي، وأنور الجندي، وألكسيس كاريل مؤلف الإنسان المجهول و ...) [١].

حقيقة الحضارة:

يرى الدكتور محمد محمد حسين أن كلمة الحضارة (تطلق الآن اصطلاحاً على كلِّ ما ينشئه الإنسانُ في كلِّ ما يتصل بمختلف جوانب نشاطه ونواحيه، عقلاً وخلقاً، مادة وروحاً، دنيا وديناً؛ فهي في إطلاقها وعمومها قصةُ الإنسان في كلّ ما أنجزه على اختلاف العصور، وتقلُّب الأزمان، وما صوَّرت به علائقه بالكون وما وراءه، وهي في تخصّصها بجماعة من الناس أو أمة من الأمم تراثُ هذه الأمة أو الجماعة على وجه الخصوص، الذي يميزها عن غيرها من الجماعات والأمم) [٢]، وليست هذه السعة لمفهوم

(١) علماء ومفكرون عرفتهم لمحمد المجذوب ١٣٨ .

(٢) الإسلام والحضارة الغربية ٦.

الحضارة وارتكازها على القيم العقدية والخلقية في الفكر الإسلاميّ دون غيره؛ فإن ألبرت اشفيتسر أحد رواد الفكر الغربي يؤكد هذه المرتكزات، مشيراً إلى أن الأعمالَ المبتكرة والفنية والعقلية والمادية وهي الجانبُ الآخر للحضارة لا تكشف عن آثارها الكاملة والحقيقيّة إلا إذا استندت الحضارة في بقائها ونمائها إلى استعداد نفسي، يكون أخلاقياً حقاً، ذلك أن الإنسان لن تكون له قيمة حقيقية بوصفه شخصية إنسانية إلا من خلال كفاحه، ليكون ذا خُلُقٍ وخلال حسنة [1].

وفي ظلّ هذا المفهوم الواسع يحاور أبو الحسن الندويُّ معطيات الحضارة الغربيّة، وآثارها في الأمة الإسلامية، مستهدفاً إقناع الجيل الحاضر بضلالها،وبكونها جافة وجوفاء؛ بعد أن تجرَّع مرارةَ أفكارها المنحرفة، وعاش في ظلّ نظمها السياسية والتعليمية والإعلامية والاقتصادية، حاصداً من جراء ذلك الشوكَ والإخفاق [2]، ويتجلى هذا الحوارُ في الجهود التي بذلها أبو الحسن الندويّ في التعريف بتاريخ الحضارة الغربية ومكوناتها، وبيان عيوبها، وتقييم مواقف المسلمين منها.

توضيح حقيقة تاريخ الحضارة الغربية ومكوناتها: يُرجع أبو الحسن تاريخ هذه الحضارة إلى الآلاف من السنين، فهي سليلة الحضارة اليونانية والحضارة الرومانية، قد خلفتهما في تراثهما السياسي والعقلي والمدني، وورثت عنهما كلَّ ما تركتاه من ممتلكات ونظام سياسي وفلسفة اجتماعية وتراث عقلي وعلمي، وانطبعت فيها ميولهما ونزعاتهما وخصائصهما؛ بل انحدرت إليهما في الدم، فقد كانت الحضارة اليونانية أولَ مظهر رائع للعقلية الغربية، وأولَ حضارة سجَّلَها التاريخُ قامت على أساس الفلسفة تجلت فيها

(١) فلسفة الحضارة، ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوي ٤ .

(٢) علماء ومفكرون عرفتهم لمحمد المجذوب ١٢٧.

النفسيةُ الأوروبية، وعلى أنقاضها قام صرحُ الحضارة الرومانية، تحمل روحاً واحدة هي الروحُ الأوروبية، وظلت الشعوبُ الأوروبية طيلةَ قرونٍ محتفظةً بخصائصها وطبيعتها مع شوب بتعاليم النصرانية، بما فيها زمن علو الكنيسة وهيمنتها؛ حتى برزت بها في القرن التاسع عشر الميلادي في ثوب برّاق، يوهمك أنه جديد النسجِ، ولكن لحمته وسداه من نسج اليونان والرومان [١].

ويبيِّن الندويُّ أن النصرانية المحرَّفَة بفلسفة الرومان حاولت عبثاً منذ أن كُتِبَ لها الظهورُ - التغييرَ في طبيعة الحضارة الغربية، وإصلاحَ فسادها؛ لكنها عجزت عن ذلك بسبب تسلط الكنيسة على رقاب الناس في النواحي الاجتماعية، وإسرافها في الرهبانية والزهد، وتعطيلها لحركة النمو العلمي؛ فكان ذلك من أعظمِ الجنايات على الدِّين النصراني، ومن أهم الأسباب التي أحدثت ردّةَ فعل عاصفة، قضت على آثار الدِّين في إصلاح أوجه الفساد في الحضارة الغربية، وأدت إلى مقت كلِّ ما يتصل بالنصرانية، ويُعزى إليها من عقيدة وثقافة وعلم وخُلُق، ولم يكن عند الثائرين على الدِّين من الصبر والمثابرة على الدراسة والتفكير والتمييز ما يجعلهم يفرقون بين ما يرجع إلى الدِّين من عُهدة ومسؤولية، وما يرجع إلى رجال الكنيسة من جمود وجهل واستبداد، مما دفع هؤلاء إلى الانصراف إلى الماديَّة بكلِّ معانيها، وبكلِّ ما تتضمنه من فلسفة وعقلية وأخلاق وعلم وسياسة [٢].

وأن هذه الحضارة الحديثة قامت متصفة بخصيصتَين:

الأولى: نفي وإنكار واستخفاف بكلّ ما لا يأتي تحت الحسِّ، ولا تصدِّقه الحواسّ الظاهرة، نتيجة لهذا المبدأ لا يستتبُّ الإيمانُ بذات وقوةٍ غير مرئية، مما يتجاوز حدودَ الحواسّ، وإذا لم يكن هنالك إيمان بهذا الوجود أو القوة

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ١٧٣.

(٢) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ١٨٦-١٩٥.

الغيبية فلا أملَ إذاً في وجود الخوف منها، أو حسابها في الأعمال، والتصرفات، وهذا يعني صراحةً الكفر بالله تعالى وباليوم الآخر وبالرسل عليهم الصلاة والسلام.

الأخرى: إيثار العاجل على الآجل والانتفاع الحالي على الانتفاع المؤجل؛ إذ هو أقربُ إلى الحواس، ولأن الحاجة في هذه العملية إلى استخدام العقل والقوة الفكرية أقل؛ لذا نرى أن من سمات هذه الحضارة هي السطحيةَ والغرامَ الزائدَ بالبريق وجمال الظاهر؛ بحيث تسري في هيكل هذا المجتمع وحياته طبيعةُ الاستغلال والتمتع والأثرة والأنانية والنظر الشخصي، وهذا أدى إلى التضحية إيثاراً للعاجل بالعقائد والمبادئ والفضائل[1].

نشأت هذه الحضارةُ وهي على هذه الطبيعة، وترعرعت، ونمت متفرعةً إلى مناهجَ وتصورات وسلوكيات ومستحدثات، فكانت متأثرةً بعجينة طينتها، التي تستمد منها غذاءها، ذا الاتجاه الماديّ والرفض للأديان والقيم الخُلُقية؛ وكانت الثمرةُ فسادَ قلب الإنسان وفكره بسبب تلوث هذه الحضارة بالأفكار المنحرفة، والقلق النفسي بسبب الحرمان من الدِّين. والتبذل في الأخلاق وغياب العلاقات الاجتماعية بسبب طغيان المادة والانشغال بها، والظلم المتنامي للبشرية بسبب فقدان ميزان العدل الإلهي والانحياز إلى الاستعلاء العرقي. نعم تقدمت هذه الحضارة في نواحي الإبداع العلمي واكتشاف المجهول وإتقان الصناعة؛ لكنها مع ظلمة الجو في عواصمها بدخان المصانع الكثيف، وزخم أسواقها بالمنتوجات - بقيت غير متهيئة لفتح جديد في الفكر، وإشراق عالم الإيمان بالغيب في نفوس سكانها[2].

---

(١) بين الدين والمدنية ٤٠-٤٣.

(٢) المسلمون تجاه الحضارة الغربية ٢٥.

هذه الحضارة يرى الندوي أنه يمكن أن توصف بأنها حضارة ميكانيكية، وحضارة ماديّة محضة، لاروحَ فيها؛ إنها حضارةٌ لا هدفَ لهاَ في إسعاد البشرية، قد أصبحت كالبعير المجتر، الذي يجتر ما في بطنه، قد قالت كلمتَها قبلَ زمن، وهي تعيش الآن على ما حققت من انتصارات علمية، وفتحٍ في المجال الحضاري والصناعي، لا شيء جديد من القيم والمبادئ تقدمه للإنسانية غير الخدمات، إنها أصبحت كما يقول الدكتور محمد إقبال: من أين نبحث عن الذوق اللطيف، وعن الأفكار السامية، وعن النظرة الطاهرة في الحضارة الغربية، وهي حضارة غير عفيفة، قد تلوثت ومسخت من زمان بعيد [١].

بيان عيوب الحضارة الغربية: سبر أبو الحسن الندويّ عمقَ هذه الحضارة فاتضح له أنها تعاني من قصور شديد، ومشكلات معقدة، تدلّ على إفلاسها، وإخفاقها في تلبية كلّ مطالبِ الإنسان، وإسعاده، وتكشفُ عيوبَ هذه الحضارة التي جذبت الإنسانَ إليها ببريقها اللامع وجمالها الأخاذ، فلم يشعر إلا وهو يصطلي بنارها، ولم يدرِ أنه منخدعٌ بزخرفها ومتاعها الغرور، ومن تلك العيوب:

١- الخواء الروحي الذي يعانيه الغربُ، وتعانيه هذه الحضارةُ؛ وقد أصبحت منه على شفا حفرة من النار، وسيؤول بهما عما قريب إلى الانتحار، وسيكون غايةَ علمها التقدّمُ الماديُّ، الذي لا يُشبع الروحَ، ولا يقي النفسَ عللَها، يقول الدكتور محمد إقبال: إن كلَّ أمة حُرِمَت الهدايةَ الربّانيةَ، وحرمت التوجيهَ السماوي منتهى كمالها ورقيها البرق والبخار. اهـ، إن هذا سرّ شقاء الإنسانية، واضطرابها النفسي، وفسادها الخُلُقي، وإفلاسها الروحي [٢].

(١) أحاديث صريحة في أمريكا ٢٨ .

(٢) أحاديث صريحة في أمريكا ٤٠.

٢- الإخفاق الذريع في إعداد الفرد الصالح، والمجتمع المؤمن والبيئة الطاهرة، فإن هذه الحضارة على رغم إنجازاتها المادية، وفتوحاتها العلمية، وإبداعاتها الصناعية عجزت تماماً عن إنشاء أفراد صالحين مؤمنين، وهذه هي أكبرُ هزائمها وخسائرها، إن الأفرادَ الذين قدمتهم لنا فارغون من الإيمان واليقين، مجردون من الضمير الإنساني، محرومون من الحاسّة الخُلُقية، جاهلون لمعنى الحبِّ والإخلاص، غافلون عن كرامة الإنسان وشرفه ومكانته، إنهم لا يفهمون غيرَ اللَّذة والجاه، ولا يعرفون غير القوميّة والوطنيّة، إن هذه الحضارة لم تقدر أبداً على إيجاد مجتمع فاضل، وبيئة آمنة، وجماعة مؤمنة، تخشى الله في السرّ والعلن، يمكن الثقةُ بها، والاعتمادُ عليها في مصير خَلْقِ الله والأسرةِ البشرية[1] على حَدٍّ سواء.

٣- تهميش الإنسان، وحرمانه من القيام بوظيفته التي خُلِقَ لها، لقد تقدمت الحضارة الغربية في مجال العلوم والصناعة، وأطرفت الإنسانَ بكل ما كانت تستطيع أن تطرفَه به من وسائل وتسهيلات، وترفيه وتسلية، وأسباب العيش والراحة والترف والرقي والازدهار؛ لكنها سَلَبَت الإنسان حقيقَته، حتى لا تكاد تجد الإنسانَ الذي يحمل في صدره قلباً خفاقاً، ويملك عيناً ساكبة للدموع حزناً على الإنسانية البائسة، ويتحرق على الإنسان الضائع، ويتجرد من الشهوات، ويتمرد على الأهواء، ويعمل على إخضاع الحضارة لرسالته، أين الإنسان الذي يعرف خالقَه، ويعبدُ ربَّه، ويعيش في حبِّه، ويسعى إلى احترام الإنسان، وإسعاد البشرية، وتخليصها من الشرور والآثام، ووقايتها من الأثرة والأنانية، والنفعيّة والانتهازيّة؟ أين الإنسانُ الذي يعرف مبدأه ومصيره، ويعير ذلك اهتمامه، ويؤمن بأنه ليس كهوام الأرض، تصبح تراباً بعد الموت؛ بل هو يؤمن بأن له نهاية سوف ينتهي إليها، وسوف يسأل عن المواهب الإلهية التي

(١) الإسلام والغرب ٢٧-٢٨.

منحه إياها، وعن الصلاحيات التي جهزه الله بها، لقد استطاع الإنسانُ في ظلِّ هذه الحضارة أن يتفنن في الانتفاع بالجمادات، واستطاع أن يسخر الأجواء، وأن يغوص أعماق البحار، وأن يهبط على القمر، وأن يرصد الأفلاكَ، وأن يتقدم في عالم الاتصالات؛ لكنه لم يصل بها إلى الكمال الإنساني، الذي يمكنه من أن ينفخ في نفسه الروح، فيجعلها حيّةً بعبودية الله، متجردةً من عبودية الجماد، ونزوات الذات، تؤدي واجبَ الخلافة في الأرض، ديناً ورسالةً وعمارةً، وفق ما يريد الله تعالى من هذا الإنسان في هذا الكون [1]، قال تعالى: **﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** [2].

٤- دفع الإنسانية إلى الشقاء المتفاقم، والإخفاق في إسعاد الإنسان بالعلوم والوسائل المادية وحدَها، لقد ادعى علماء الغرب أن المجتمع الإنساني المتحضر يمكن، لا، بل يجب أن يقوم على غير أساس الإيمان وتعاليم الأديان والقيم الخلقية والرسالات السماوية، إنه يستطيع أن يقوم على أساس العلم والتنظيم والصناعة والاقتصاد، وأن المجتمع يسعد ويترفه بالوسائل والآلات التي تمنحها علومُ الطبيعة والكيمياء وتسخير الكون والطبيعة لصالح الإنسان ورغباته وطموحه، ألحَّ الغربُ على هذا المعنى، وتحمّس له، وهتف بلا إله، ولا دين، ولا روح، ولا أخلاق، ولا آخرة، إنما هو حسّ وتجربة ولذّة ومنفعة وقوميّة، وبرزت في الميدان فلسفات ونزعات ومذاهب تهتف بهذا الهتاف، ومنحتها أوروبا بسخاء وحريّة فرصَ التأثير، ولكن ماذا حدث؟! أخفق جميعها في إسعاد هذه المجتمعات، بل تسببت في نشأة صراع محتدم بين الأفراد والطبقات، وحروب متطاحنة تغشى العالم على المصالح، وتسببت في فقدان

---

(١) أحاديث صريحة في أمريكا ٥١-٥٣.

(٢) سورة الأنعام ١٢٢.

الهدوء والأمن، وفي تسلط الذعر والفزع وفي المعاناة من التفسخ الخُلُقي والفراغ الروحي، والسآمة التي لا نهاية لها ولا علاج، والتشاؤم والحيرة؛ إنه يتجلى لكلِّ من يدرك هذه الآثار أن كلَّ مجتمع لا يقوم على أساس الإيمان أنه معرض للانهيار، وإن طال أمده، واتسع سلطانه [١]، ولا سبيل إلى نجاته من هذه الهاوية السحيقة إلا الإيمان بالإسلام.

ليس مقصود أبي الحسن من إبراز عيوب الحضارة الغربية تحريم الاستفادة منها في مرافق الحياة، وإغلاق الباب على مصراعيه، فإن ذلك لا يقول به عاقل مطلع على الإسلام وتعاليمه، فإنَّ الإسلامَ لا يزال منفتح القلب، واسع الأفق في الاستفادة بكلِّ ما يصلح وينفع، ولكن تأثير الحضارة الغربية أوسع من اقتباس العلوم، والانتفاع بالآلات والمخترعات والتجارب المفيدة في الحياة، إنه يشمل الأفكار والقيم والمثل، وصبغ الحياة كلها بالصبغة الغربية، واقتباس أساليب الحياة التي لا تتفق مع تعاليم الإسلام ومعاييره في الطهارة والاعتدال والاقتصاد والاجتماع والنظام [٢].

تقييم المواقف من الحضارة الغربية: واجه العالم الإسلاميّ في العصر الحاضر مشكلةً في غاية الدقة والتعقيد والخطورة، هي مشكلةُ تأثير الحضارة الغربية الفتية الدافقة بالحياة والنشاط والطموح وقوة الانتشار، التي غزت المسلمين في فترة ضعفهم، وفقدان مركزهم القيادي بين الأمم وتكونت من مزيج: عقائد، ومناهج فكرية، وفلسفات، ونظم سياسية واقتصادية، وعلوم طبيعية وعمرانية واجتماعية، وتجارب خاصّة مرّت بها الشعوبُ الأوروبية، وقد اختلفت مواقفُ المسلمين من هذه الحضارة، وكان فيها ابتلاءٌ لذكاء قادة العالم الإسلامي ومفكريه، وقد حصرها أبو الحسن الندويّ في ثلاثة مواقف:

(١) المسلمون تجاه الحضارة الغربية ٥٣-٥٦.
(٢) أسبوعان في المغرب الأقصى ١٤٩ .

الأول: الموقف السلبي الرافض لهذه الحضارة، وما جاءت فيه بتاتاً، لا يقتبس منها شيئاً، ولا يسمح بالانتفاع بشيء من إنتاجها العلمي والمعملي والآلي، وهذا الموقف -ولا بد- يُنتِجُ التخلفَ الشديدَ عن ركب الحياة، ويحوّل العالمَ الإسلامي إلى جزيرة لا منعة لها. ولا قيمة [١].

الثاني: الموقف المستسلم الخاضع لهذه الحضارة، المتقبل لها بعقائدها ومناهجها الفكرية وفلسفتها المادية، ونظمها المختلفة، والعامل على تطبيقها في البلاد الإسلامية برمتها، متحملاً في سبيل ذلك كلَّ صعوبة وعنت [٢]، ومظهراً العبودية التي حرمته الاستقلال والحرية، لقد امتثل كثير من المسلمين هذا الموقف؛ حتى بعد الاستقلال السياسي، يقول الأستاذ أبو الأعلى المودودي مصوراً هذه العبودية: (وأما-أهل-البلاد- التي قد حصلت لهم فيها الحرية والاستقلال السياسي فهم ليسوا متحررين فيها من ربقة العبودية الفكرية؛ فها هي ذي مدارسهم ومكاتبهم وبيوتهم وأسواقهم ومجتمعهم؛ حتى وأجسامهم وأشخاصهم تشهد كلها بأنه قد استولت عليهم حضارةُ الغرب، وامتلكت نفوسَهم علومُها وآدابها وأفكارها، فهم لا يفكرون إلا بعقول غربية، ولا يبصرون إلا بأعين غربية، ولا يسلكون إلا الطرق التي قد مهدها لهم الغرب، وقد رسخ في نفوسهم سواء أشعروا به أم لم يشعروا أن الحقَّ هو ما عند أهل الغرب حق، والباطل ما يعدونه هم باطلاً، وأن المقياس الصحيح للحقِّ والآداب والأخلاق والإنسانية والتهذيب هو الذي قد قرره الغرب لكل ذلك) [٣].

الثالث: الموقف العادل من الحضارة الغربية، وهو موقف الحرِّ الكريم، القويّ في الإرادة، المستقلِّ في التفكير، الذي يأخذ من غيره إذا اضطر واحتاج ما يطابقه ويلائمه، وما لا يرزؤه في شخصيته وتفوقه وامتيازه، وثقته

(١) الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية ٧-٩.

(٢)الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية ٣٥.

(٣) نحن والحضارة الغرية لأبي الأعلى المودودي ٨.

بنفسه ومركزه، وينبذ ما لا يلائمه، أو يضعف شخصيته، أو يدمجه في غيره، هذا الموقف مقتضاه أنه موقف أمة ذات هدف معين في الحياة، ورسالة كاملة إلى العالمين، وعقيدة صافية يستسلم لها القلب، ومنهج حياة متكامل الجوانب[1].

يرى الندويُّ أنه بقدر اعتزاز المسلمين بدينهم، وثقتهم في أنفسهم، ومحافظتهم على مقومات شخصيتهم، وتمسكهم بمبادئهم، ومشاركتهم غيرهم في تطوير العلوم، وابتكار الجديد، ومنافستهم في تحقيق السبق العلمي-يمكنُ بناءُ حضارة قوية الأركان، متكاملة الجوانب، تنتفع بسنن الله الكونية، التي تجري وفق (قانون طبيعي، هو أن كل أمةَ تستعمل ما آتاها الله من قوى الفكر والعقل، وتمضي قدماً في طريق البحث والتحقيق والاكتشاف، تتمتع إلى جانب رقيها الفكري بالرقي المادي أيضاً، وكلّ أمة تتقاعد عن السباق في حلبة التفكير والتعمق في العلم تصاب مع انحطاطها العقلي بالتقهقر والاضمحلال المادي كذلك، ثم إنه كانت الغلبة نتيجة القوة، والهزيمة عاقبة الضعف فإن الأممَ المتخلفة من الجهتين المعنوية والمادية كلما تهبط في دركات الضعف والفتور-تكون أصلح للعبودية، وأكثر استعداداً للخنوع، وتصبح الأمم القوية بالاعتبارين المادي والمعنوي حاكمةً على عقولها وأجسامها معاً)[2].

لقد تمكن الإسلامُ من بناء الحضارة المتكاملة التي حققت للإنسان كلَّ حاجاته الروحية والعقلية والمادية، وتجاوبت مع ميوله ورغباته وتطلعاته دون ضرر، واستطاعت أن تسعدَ الإنسانَ، وتجنبِّه شقاء التشتت الفكري، والحيرة الروحية، والانهماك المادي، واعتنت بالعلوم؛ فطورت ما كان قائماً منها كالطبّ والرياضيات، وأسست علوماً جديدة كالفيزياء والبصريات، وابتكرت المنهجَ العلمي التجريبي، الذي قامت عليه حضارة الغرب المادية.

---

(١) الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية ١٩٩.

(٢) نحن والحضارة الغربية لأبي الأعلى المودودي ٨.

تلك حضارة الإسلام، قامت على أساس العقيدة، وعلى أساس التربية الإلهية، وعلى أساس التأسي بسيرة الرسول ﷺ، والصحابة الكرام، فمنحت الإنسانَ المسلمَ العزَّةَ والسؤددَ وبوّأته مقعْدَ القيادة والريادة بين الأمم، وقد استمدت هذه الحضارةُ شموخها من الدِّين، الذي لم يجرد الإنسانَ من الحضارة، ولم يقف منها موقفَ التابع الذليل؛ ذلك أن (كلَّ دين يجرد الإنسانَ من الحضارة دين صائر إلى الانقراض، ومصيره الزوال السريع، وكلَّ دين يرضى أهلُه بهذا الموقف الضعيف المتخاذل، فيرضون من الدِّين بالعقيدة، ولا يلحون على حضارة خاصّة، هي نتاجُ هذا الدِّين، ويقتبسون أو يستوردون من مدينة أخرى هي و ليدة بيئة أخرى، وسليلة ديانة أخرى، ونتيجة أحداث وعوامل مرت بها أمة خاصّة، أو بلد خاصّ، فإن أتباعه يفقدون مع الأيام ومع تيار الزمان شخصيتهم، ويفقد الدِّينُ الذي دانوا به السيطرةَ على نفوسهم وعقولهم، ويكونون صورةً صادقةً أو نسخةً مضبوطةً أمينةً للأمّة التي تطفلوا على مائدتها، واقتبسوا منها الحضارة ونمط الحياة، وهذا ما نتخوفه اليوم على العالم الإسلامي؛ الذي يقتبس من الغرب مدنيته وأساليب حياته [١] دون تحرٍّ أو تمييزٍ بين الغثِّ والسمين.

❧

(١) أهمية الحضارة في تاريخ الديانات ١٥ .

الفصل الرابع

جهود أبي الحسن الندويّ في بناء الفكر الإصلاحي

ساهم أبو الحسن الندويُّ مساهمةً فعالة في بناء الفكر الإصلاحي، واقترانه بالعمل، فهو ينتمي كما يقول: «إلى مدرسة فكر آثرت التسبيحَ والتكبيرَ على صهوات الخيلِ، على المناجاة قابعةً في زاوية البيت الآمنة الهادئة، وجمعت بين السيف والمصحف، أعني بذلك مدرسةَ الإمام السيد أحمد بن عرفان وأتباعه من أصحاب العزيمة والطموح، والشجاعةِ والشهامة، والتفاني والمغامرة، والعقل والعاطفة، الذين قاموا بمحاولات الإصلاحِ والتَجديد الموسعة» [1]، وعلى إثرهم سار أبو الحسن الندويُّ مُجرِّداً قلمَه في سبيل نصرةِ الحقِّ، ومجاهداً بنفسه ووقته من أجل تجديد ما اندرس من معالم الدِّين، وتنقيته من شوائب البدعِ ولوثة التقليد والتبعيِّة، وإصلاح ما فسدَ من تصورات الناس، وعاملاً على عرضِ الإسلام في صورته الشاملة، والتصدي لأعدائه الذين تآمروا عليه بتشويه صورته الناصعة ونظامه المحكم في الحياة، ومحارباً المناهج المادية والمذاهبَ الهدامة، التي غزت العالمَ الإسلامي، وسعت إلى تغريب مجتمعاته، وقد استهدف من ذلك كلّه إيجادَ روحٍ جديدة في الأمة،وإعادة ثقتها بدينها، وربطها بماضيها المجيد.

حقيقة الفكر الإصلاحي: هو نتيجةُ الاجتهاد العقليّ المستمد من النظر في الأدلة الشرعيَّة، والمبذول لصياغة مناهج التربية، وترقية عقلِ الإنسان، وتهذيب نفسه، ولإقامة المجتمع على أحكام الإسلام، التي تحقّق له حاجاته مطالبَه.

(١) الطريق إلى السعادة والقيادة ٦٦ .

تحتوي هذه الحقيقة على الأهداف الثلاثة للإصلاح في الإسلام، وهي أهداف عامّة يدور عليها فلكُ الشريعة، وجامعة لما تتطلبه الحياة الإنسانية من إصلاح فردي أو جماعي:

أولها: تحرير العقل البشري من الخرافة والتقليد وعبودية الأهواء، عن طريق الاعتماد على الدليل والبرهان والدعوة إلى التفكير والنظر، فقد دعا الإسلامُ إلى اعتماد البرهان دليلاً في إثبات أمور العقيدة، قال تعالى: **﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾** [١]، ونعى على التقليد، قال تعالى: **﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ﴾** [٢]، وأنكر عبوديّة الأهواء، قال تعالى: **﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾** [٣].

وثانيها: تربية الفرد، وإصلاح نفسه، وتهذيب أخلاقه حتى يتحرى الخير في عمله، ولا يخضع لأهوائه وشهواته.

وثالثها: إصلاح المجتمع، وتنظيم شؤون الحياة، وإقامة نظام اجتماعي كامل، يوضح العلاقات، ويحدد الحقوق والواجبات.

إن الإنسانية في أرقى صورها لا تحتاج في إصلاحها لشيء سوى هذه الأهداف الثلاثة، ولو نظرنا إلى أيٍّ فكرةٍ إصلاحيّة سابقة أو حاضرة لن نجد فيها ما يحقّق هذه الأهداف مجتمعةً مع ما يشوبها من زلل وشطط [٤].

---

(١) سورة البقرة ١١١.

(٢) سورة البقرة ١٧٠.

(٣) سورة الجاثية ٢٣.

(٤) الإسلام رسالة الإصلاح لمناع القطان ٢٠-٢٣ .

لقد راعى أبو الحسن الندويُّ هذه الأهداف في جهوده الإصلاحية الكبيرة، التي بذلها في نواح مختلفة، وبرزت فيما يلي:

تشخيص واقع المسلمين وأسباب ضعفهم: من الطبيعي أن يعتني أيُّ مصلح في تفكيره ودراسته بالواقع الذي يعمل فيه، ويشارك غيره مجتهداً في إصلاحه، وقد يكون من الضرورة على مثل أبي الحسن الندويّ أن يستنهض همته المتوثبة وقدراته الذاتية المتميزة لسبر حالة الأمة الإسلامية المنكوبة، وتشخيص أدوائها؛ ليتمكّن وهو في ميدان الإصلاح من وصف العلاج،وتقديم النُّصح، والمشاركة في استئصال الداء.

استأثر واقعُ المسلمين المرير على عناية أبي الحسن حتى أصبح هاجسه وهمه، ويعد كتاباه، الأول: (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين)، والآخر: (الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية) في مقدمة الإصدارات الحديثة، التي درست بجد وموضوعيّة واقعَ المسلمين وسببَ ضعفهم، وظفرت بقبول المفكرين وعموم القراء إلى وقتنا هذا، وبين الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى مكانةَ الكتاب الأول في تقديمه له بقوله: (لست أذكر فيما قرأت كتاباً وضع أيدينا على دواء ما نشكو منه من أدواء وأمراض، كما فعل هذا الكتاب، ولا كتاباً نفذ كاتبه إلى روح الإسلام، وأخلص ويخلص في الدعوة له، ويقف كلّ جهوده على هذه السبيل كهذا الكتاب) [1]، ويلخص الأستاذ سيد قطب موضوع الكتاب ومنهج الكاتب فيقول: استعرض المؤلف أسبابَ انحاط المسلمين الروحيّة والماديّة، ووصف ما حَلَّ بالمسلمين أنفسهم عندما تخلَّوا عن مبادئ دينهم، ونكصوا عن تبعاتها، وما نزل بالعالم كلِّه من فقدانه للقيادة الراشدة، ومن انتكاسه إلى الجاهلية في كثير من أموره، ورسم خط الانحدار

(١) مقدمة ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ١٣.

الرهيب، الذي ترتكس فيه الإنسانيةُ في ذات الوقت الذي تفتح فيه آفاق العلم الباهرة، يرسم هذا الخط عن طريق التأمل الفاحص، لا بالجمل النارية، والتعبيرات المجنحة، فالحقائق الواقعة، كما عرضها المؤلف غنيّة عن كلّ بهرج وكلّ تزويق [١].

ويُعَدُّ كتابُه الآخرُ: الصراع بين الفكرة الإسلاميّة والفكرة الغربيّة الجزءَ الثاني لكتابه الأول: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، استعرض فيه قصةَ الصراع بين الفكرة الإسلاميّة والفكرة الغربيّة في البلدان الإسلامية، ونتائج هذا الصراع، وموقف البلدان الإسلامية ومنهجها فيه [٢]، وقد أشار في مقدمته إلى أن مشكلةَ الصراع هذا أضخمُ مشكلة للأقطار الإسلامية، وهي مشكلةٌ حقيقيّة لا صلَة لها بالأوهام والأحلام، وأن ضعف الأقطار الإسلامية الداخلي، ونفوذ الحضارة الغربية فيها يرسم في الأفق علامةَ استفهام واضحة أمامَ الأقطار الإسلامية كلِّها، لا تستطيع أن تتقدم خطوةً واحدةً بدون أن تجيب عليها جواباً حاسماً؛ علامة الاستفهام تتتابع في جملة من الأسئلة، أيّ موقف تتخذه هذه الأقطارُ نحو هذه الحضارة؟ وأيّ منهج تسير عليه لتوفيق مجتمعاتها بهذه الحضارة، وتحقيق مطالب العصر الحديث؟ وإلى أي مدى تثبت ذكاءها وشجاعتها الخُلُقية لمواجهة هذه المشكلة؟ إن الإجابة على هذه الأسئلة هي التي تحدد مكانة هذه الأقطار في خريطة العالم، ويُعْرَف بها مستقبلُ الإسلام في هذه الأقطار، ومدى وفائها لرسالة الإسلام الخالدة، لقد كان الندويُّ يشعر بالحاجة الشديدة إلى مثل هذا الاستعراض والدراسة بروح المؤرخ المحايد والمفكر النزيه، وإلى ضرورة التنبيه إلى طريق سوي لنهضة المجتمع الإسلامي، الذي لا يتحتم عليه التمسكُ بالعقائد والأخلاق ومنهج

---

(١) مقدمة ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ١٨ .

(٢) في مسيرة الحياة ٣١٤.

الحياة الإسلامية فحسب؛ بل تقع عليه مسؤولية الدعوة والتوجيه والقيادة للعالم[١]، تلك القيادة التي تتطلع لها البشرية جمعاء بعد أن اكتوت بعسف الأنظمة الوضعية، وتمزقت بصراعات العقليات المتضاربة، وشقيت بضلال المناهج المنحرفة.

لقد بذل أبو الحسن الندويّ جهداً ضخماً في تشخيص أدواء الأمة، التي أدت إلى ضعفها، وغيابها في الساحة العالمية، واضعاً الأيدي على مواضع العلل الخطيرة التي صنعت الداء، ومن أشدّها استفحالاً داءُ الردّة الفكرية التي قصم ظهرَ الأمة، وأفقدها شخصيتها المتميزة، وقوتَّها بين الأمم، تلك الردّةُ التي اكتسحت شعوباً كثيرة في العالم الإسلامي، وانتقلت إليه على إثر تعرضه لغزو فلسفات الغرب القائمة على إنكار أسس الدِّين، وإنكار عالم الغيب والوحي والنبوءات، وجحود الشرائع والقيم الخُلُقيّة، وهي فلسفات متنوعة البحث، فبعضها يبحث في علم الحياة والنشوء والارتقاء، ومنها ما يتصل بالأخلاق ويدور حول علم النفس، ومنها ما يبحث في الاقتصاد ونظام الحكم، ومهما اختلفت موضوعاتها فإنها تلتقي على النظرة المادّية المحضة إلى الإنسان وإلى الكون، والتعليل المادي لظواهرهما وأفعالهما، لقد غزت هذه الفلسفاتُ المجتمع الإسلاميَّ، وسيطرت على العقول والقلوب، ودانت بها قياداتٌ من المسلمين، قدستها، وأجلَّت قادتها ومفكريها، ودعت إلى دراسة أدبها، واحتقرت كلَّ ما يعارضها من مناهج وتراث ودين [٢].

ومهما أظهر الإنسان من الأسف على ما حدث فليس له أن يعجب منه، فإن هذا الاتجاهَ من التأثّر نتيجةٌ حتمية للنظام التعليمي؛ الذي تربى عليه هؤلاء، فالشجرة لا تلام على ثمرتها، ولا يستغرب الشيء من معدنه، فهل

(١) الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية ٤ .
(٢) ردة.. ولا أبا بكر لها ١٠-١١.

يستغرب ذلك على من تنكروا لدينهم، وقلبوا له ظهر المجنّ، وانتصبوا لإقصائه من الحياة، وقد أساغوا وهضموا نظريات الغرب الماديّة مقرونةً بصورة باهتة ومشوهة عن الإسلام، رسخت في نظرهم أن الإسلامَ قوةٌ قد استهلكت، وفقدت كلَّ صلاحية للبقاء؛ فضلاً عن القيادة، وإنها كبندقية أطلقت رصاصتها الأخيرة، وأصبحت فارغة، لا شحنة فيها، وإذا كان ثمة بقاء للإسلام فبقاء شخصيّ بين العبد وربِّه، لا يسمح له بالتدخل في صياغة الحياة، وتشكيل نظام المجتمع، وعلى أثر هذه الأرضية التي سوغت للردة الفكرية الانتشارَ بين أوساط المثقفين؛ ولاسيما بين القياديين ممن يمتلكون القدرةَ على التأثير- تغلغلَ تقديس الحضارة الغربية بقيمها ومفاهيمها وتصوراتها ومظاهرها، وانتقلت العلمانيةُ إلى غالب مجتمعات المسلمين مهيمنةً على كثير من مجالات الحياة بما فيها القضاء والتعليم والإعلام، وآمن بعضُهم بالفلسفة الشيوعية والنظرية الاشتراكية، مما عرض الأمة الإسلامية لمحنة قاسية؛ قد تكون عقوبةً على الكفران بالنعمة التي أنعم الله بها على هذه الأمة، وهي نعمةُ الإيمان والاصطفاء لحمل رسالة الإسلام، ورفع الذكر بين العالمين[1]، قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [2]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾[3].

ويرى الندويُّ أنه ما كان لغزو الفكر الغربي للأمة الإسلامية أن يحقّق مآربَه في إضعاف الأمة لولا تقدير الله تعالى الذي جعل لكلِّ شيء سبباً، فكان من الأسباب الظاهرة رجحان كفة ميزان القوة، وانسحاب المسلمين من معترك الحياة، واقتلاع جذور الوحدة المتأصلة في قلب العالم الإسلامي، وإبعاد

(١) عاصفة يواجهها العالم الإسلامي ٣٤-٣٨.

(٢) سورة النحل ١١٢.

(٣) سورة الزخرف ٤٤.

الإسلام ورابطة الأخوة فيه من التأثير في مجالات الحياة، والاستخفاف بقيم الإسلام ومشاعره، وقمع العاملين في سبيله، ولا حلّ للخلاص من مأساة الرّدة الفكريّة وآثارها المريرة إلا في تحوّل قيادة العالم إلى أيد مؤمنة بالله تعالى؛ لتقيم الإسلامَ وتأمرَ بالمعروف، وفي قيام الأمة الوسط لتكون شاهدةً على الناس [١].

الدعوة إلى مواجهة التغريب والتخطيط لنظام تعليمي نابع من الإسلام:

فإنه نتيجة عوامل كثيرة، في مقدمتها ارتفاعُ نسبة انتشار الجهل والأميّة بين المسلمين قبل قرن مضى، الذي حرمَ المجتمعات الإسلاميةَ من الانتفاع بتوجيهات القرآن والسنّة في العناية بالعلم وعمارة الأرض، وانصراف المسلمين عن الاهتمامِ بالعلوم الطبيعية والتطبيقية، والركون إلى الراحة والدعة، ووقوع البلاد الإسلامية فريسةَ الحضارة الغربية، وفقدان القدرة على الموازنة والاختيار والتصدي في تحديد الموقف من هذه الحضارة الغازية، نتيجةً لذلك كلّه اضطربت المجتمعاتُ الإسلامية إلا ما رحم ربُّك في نظمها ومظاهر حياتها، واختلفت درجةُ نُكوصها عن الإسلام، وتقليدها للغرب [٢].

ومع إدراك تأثير هذه العوامل فإن العالمَ الإسلامي يمرُّ بمرحلة انتقالية، تسعى إلى صياغة هيكل جديد له ، لم تكتمل بعد، وهي تتطلّب من الغيورين عليه دراسةً عميقة، وتفكيراً جاداً ومتعمقاً، وتضحية وإيثاراً، وتصدياً قوياً، لأنها مرحلةٌ يمتحن فيها الإيمان وأهلُه، وتعمل على بناء مدنيّة جديدة، وتشكيلِ مجتمع جديد، وإزالة كلِّ ما يضادها، وفعلاً بدأ العمل على تجريد الإسلام من مدنيته، وكانت مؤامرةً خطيرة نسجها الغرب الذي رعى هذه العمليةَ من خطواتها الأولى، بعد أن أدرك أنه ليس بالإمكان تجريد المسلمين

---

(١) علماء ومفكرون عرفتهم لمحمد المجذوب ١٢٩.

(٢) درس أبو الحسن الندوي أحوال المجتمعات الإسلامية دراسة تاريخية متعمقة، مظهراً ما حدث من جوانب التحول والاختلاف في البلاد الإسلامية بلداً بلداً. يمكن مراجعتها في كتابه الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية ١٧-٦٣.

من العقيدة، وإن كان بالإمكان سلخهم من نظامهم الاجتماعي، وإلزامهم بمدنيّة أخرى أجنبية، وحقيقةُ الأمر أن الغرب نجحَ في هذه العملية نجاحاً ظاهراً [(١)].

وكان النظام التعليمي في الأقطار الإسلامية من أوائل الأنظمة التي خضعت للنفود الغربي، إدراكاً من الغرب أن التعليمَ هو أفضلُ وسيلة لإبادة العنصر الإسلامي والقضاء عليه، فهو الحامض الذي يذيب شخصيةَ الأمة، ثم يكونها تكويناً جديداً كما يشاء؛ لذا أسسوا لهذا الغرض مراكز كثيرة باسم الكليات والمعاهد في البلاد الإسلامية، أتبعتها الجهات المسؤولة عن التعليم بإنشاء مدارس مدنية، قررت على طلابها العلومَ الغربية بعلاتها، والكتبَ الخالية من الدِّين برمتها، أو أدخلت عليها شيئاً من التعديل، وقد اتفقت كلمة العقلاء وأهلِ التجربة على أن خسارةَ الأمّة في هذا النظام التعليمي الذي طبق في كثير من البلاد الإسلامية، واستنفد دعاةُ التعليم الغربي جهودهم وأموال المسلمين من أجله، كانت أكبرَ من ربحها، وكانت غايتهُ فوضى فكريّة هائلة، واضطراباً وتناقضاً في الأفكار والآراء، وارتياباً في الدّين، واستخفافاً بالفرائض والقيم إلى غير ذلك من المفاسد الظاهرة [(٢)].

إنه لا بُدَّ من منطلق إصلاح المجتمعات الإسلامية إعادة النظر في أنظمة التعليم ومناهجه، وصياغتها من جديد وفق أحكامِ الإسلامِ ومقاصده، ومعالجة الآثار السلبية للأنظمة التابعة للفكر الغربي، مع إتاحة فرصة الاستفادة من نتاج العلم التطبيقي الغربيّ، الذي يساعد على عمارة الأرض وبناء الحضارة، وفق خطط مدروسة، تنفذ على مراحل متتابعة، تراعي قدرَ الانحراف في هذا النظام، وظروف المجتمعات، وإمكاناتها المادية والبشرية.

---

(١) الطريق إلى السعادة والقيادة للدول والمجتمعات الإسلامية الحرة ٦٣-٦٤ .

(٢) التربية الإسلامية الحرة ٩ - ٣٠ .

لقد أتبع الندويُّ القولَ بالعملَ، فكانت له مساهمةٌ فعالة في التأكيد على أن يكون المنهاج التعليمي في البلاد الإسلامية منهاجاً يعمل على تعميق إيمان الأمة بالعقائد والحقائق العلمية، لأنه يتناول تربية الإنسان المسلم الذي يحمل رسالةً، ويحتضن دعوةً [١]، وله دورٌ رائد في الدعوة إلى تحرير التعليم من رقِّ العبودية والتقليد، وبيان أهمية جعله قنطرة تصل الحاضرَ بالماضي والخَلَفَ بالسلف والمعلومات بالعقائد، وتدعم العقيدةَ الموروثة بالعلم والمنطق والدليل والحجة [٢]، وذلك من خلال كتابه: (التربية الإسلامية الحرة)، وله نشاط مشكور في إبراز خطورة النظام التعليمي في تربية الشعوب الإسلامية، هذه الخطورة التي تكمن في كونه يتعلق بأمة ذات خصائص معينة، ومكلفة بوظيفة فريدة في العالم البشري، تنبع معتقداتُها وقيمُها ومثلُها وتصوراتُها وأفكارهُا من الوحي الإلهي، ولا سيما إذا أدركنا أن التعليمَ قادر على إحداث صراع فكري، وعلى خلع معتقدات جيل وتصوراته الصحيحة، وعلى نشأة طائفة غريبة على المجتمع المسلم في عقائدها وآرائها، رافضة لتاريخه وتراثه، وقيمه ومآثره [٣]، فإذا كان التعليم بالغاً هذا الخطر أفلا يتدارك بنظام تربوي، يستمد أطره ونظامه ومناهجه من مصادر الإسلام، حفاظاً على الجيل من التقليد والتبعية، وحماية لمستقبل الأمة من الضياع والتشتت.

كما كانت للندوي مساهمةٌ في تأليف بعض المناهج والكتب التربوية، منها كتابه: (العقيدة والعبادة والسلوك) الذي يقول في مقدمته: (قد صببت فيه عصارة دراساتي وخلاصة تجاربي في مجال الدعوة والتربية، ومعرفتي بطبقات الأمة المختلفة معرفة علمية، فاستفدت من كلّ ذلك في تأليف هذا الكتاب)[٤]، ومنها كتاب للأطفال في حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام،

---

(١) الطريق إلى السعادة والقيادة للدول والمجتمعات الإسلامية الحرة ١٣٩.
(٢) التربية الإسلامية الحرة ٧٤.
(٣) الطريق إلى السعادة والقيادة للدول والمجتمعات الإسلامية الحرة ١٣٠.
(٤) العقيدة والعبادة والسلوك في ضوء الكتاب والسنة والسيرة النبوية ١٩.

وكتاب في سيرة الرسول ﷺ، وكتاب قصص من التاريخ الإسلامي، وكتاب السيرة النبوية للكبار.

الدعوة إلى بعث الأمة من جديد للاضطلاع بدورها القيادي في إسعاد البشرية:

يقرر أبو الحسن الندويّ أن الأمّةَ الإسلاميةَ أنيط بها مسؤولية الوصاية على العالم، والحسبة على الأخلاق والاتجاهات وسلوك الأفراد والأمم، ومسؤولية القيام بالقسط، والشهادة لله تعالى على الناس، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مستنداً إلى قول الله تعالى: ﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [1]، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [2]، وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [3]، ويذكر القرآن هذه الأمة بواجبها الإصلاحي، محيلاً ذلك على الأمم الماضية، مثيراً للشعور بالمسؤولية، قال تعالى: ﴿فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [4]، ويحذر سبحانه من تفريط الأمة في أداء واجبها، وما يجرّ ذلك على الإنسانية من شقاء وبلاء، وانتشار للفساد، فيقول للمجموعة التي كان عددُ أفرادها لا يتجاوز بضع مئات في حياة المدينة الأولى، وقد أمرت بالتآخي والموالاة على أساس الدين: ﴿إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [5] فكيف بالأمة

---

(١) سورة الحج ٤١.
(٢) سورة المائدة ٨.
(٣) سورة البقرة ١٤٣.
(٤) سورة هود ١١٦.
(٥) سورة الأنفال ٧٣.

الإسلامية التي تملأ الأرض، وتمتلك الطاقات البشرية والإمكانات المادية إذا أخلَّت بمركزها القيادي الدعوي، أو بواجبها الاجتماعي [١].

لقد استجمعت الأمةُ خصائص الخيريّة بين الأمم، ونَسخَ دينُها الإسلامُ سائرَ الشرائع السماوية السابقة، وارتضاه الله ديناً خاتماً، يحمل في رسالته الهداية للناس على كر الدهور والأزمان، فتعلقت به مصالح الشعوب، وارتبطت به سعادتُها.

وبعيداً عن هذا الدين ذاقت المجتمعاتُ البشريّةُ مرارةَ الأديان المحرَّفة والملل الفاسدة، والسرُّ في ذلك يعودُ إلى انقطاع الخيطِ الذي كان يربطها بالنبوّات، مما أورثَها التخبطَ نتيجة فلسفات ومناهج ونظريات كانت وراء التفاوت الفاحش بين الناس في أصولهم ومكانتهم، والفجوة العميقة بين العلم والعمل والنظرية والسلوك، والفوضى المنهجية والعقائدية، والتضارب في الآراء والمذاهب الوضعية[٢]، وتتحمل الفلسفة الغربية قسطاً كبيراً وزر هذا الانحراف، الذي وقع في خط التقدم العلمي منذ أن استيقظ الغربُ من سباته العميق، وتحرر من هيمنة الكنيسة في القرون الوسطى، واستأنف رحلَته في دنيا العلم والاكتشاف، وفي طريق تسخير الطاقات البشرية والطبيعية لمآربه، ومحدثاً تغييراً في آفاق الحضارة المادية؛ إلا أنه سلك في هذا مسلكاً مستقلاً عن الوحي الإلهي، يتصرف ويعمل كما يشاء، غير شاعر بمسؤوليته أمام ربِّه، مما جَرَّ العالم الذي وقع تحت تأثير حضارته المادية إلى الشقاء المرير، والتخبط المدمر [٣].

ولم تسلم الأمة الإسلامية من ألم هذا الشقاء، ووضر هذا التخبط المدمر؛ ولكن برغم كل ما أصيبت به من وهن فإنها الوحيدةُ على وجه الأرض

(١) الإسلام وآثاره في الحضارة وفضله على الإنسانية ١١٠-١١١

(٢) دور الإسلام الإصلاحي الجذري في مجال العلوم الإنسانية ٣٧.

(٣) دور الإسلام الإصلاحي الجذري في مجال العلوم الإنسانية ٥٥.

التي تعدّ خصماً للفلسفة الغربية ذات الصيت والتأثير العالمي، وغريمتها ومنافستها في قيادة الأمم، إلاّ أن هذا يتطلب من الشعوب الإسلامية إذا أرادت أن تسترجع مكانتها الشرعية أن تحقق الوحدة الإيمانية بينها، وأن تقوِّيها بكلِّ الوسائل، وتشد عضدَها في المستقبل، عندها تستطيع أن تستردَّ عزةَ الأمة، وشرفها، ومكانتها، وأن تعطي لنفسها ضمانَ الأمان الدائم، وسوف يكون في ذلك قيامٌ بواجب الدعوة المناط بها، وتقديمُ خدمةٍ جليلة لهذا العالم المثخن بالجراح والتمزق والتشتت والضياع [١].

لقد وقف العالَمُ نتيجة لقيادة الغرب على فوهة بركان، يوشك أن ينفجر، أو على شفا جرف يوشك أن ينهار، لأنها مصدر البعد عن الهداية والضلال البشري، والشقاء الإنساني، والقلق النفسي، والتمزق الاجتماعي، والفساد الخلقي، والحروب المدمرة للشعوب والمقدرات. ولا صلاح للعالم، ولا بقاء للإنسانية ما دام الغرب في وضعه الحاضر هو المهيمن على الحياة كلّها، وهو مصدر التوجيه والقوّة، ولا أمل في سعادة الشعوب والمجتمعات إلاّ في تحوّل القيادة والقوّة من الغرب الأنانيّ الماديّ إلى الإسلام [٢]، الذي حمل للعالم وللإنسانية الإيمانَ والعدلَ والأمانَ، وكلَّ مصادر الخير والاستقرار والهداية، فالأمة الإسلامية بهذا مهيّأة لأن تمارس وظيفتَها القيادية للأمم والمجتمعات.

مواجهة النحل والحركات الفاسدة: تصدى أبو الحسن الندويّ لما كان سائداً في عصره من نحل وحركات، لها تأثير سيِّئ على عقيدة المسلمين وحياتهم، فقد كان سيفاً مسلولاً على أعداء الله من القاديانيين، وعلى أصحاب الفكر المنحرف من دعاة القوميّة العربيّة وغيرهم، وسيتبين الجهد الذي بذله هذا الفارس المعلم من عرض مواجهته للقاديانية وللقومية العربية، اللتين استأثرتا على اهتمامه أكثر من غيرهما في كتاباته:

---

(١) الطريق إلى السعادة والقيادة للدول والمجتمعات الإسلامية الحرة ٥٩.

(٢) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ٢٩٥.

أولاً- القاديانية: هي «سبق الحديث عنها ص٣٢٥،٣٢٦» مؤامرة دينيّة وسياسيّة، إن وجد لها نظير في الخطر على الإسلام ففي حركة الإسماعيلية الباطنية، التي تولى كبرها عبيدالله بن ميمون القداح في القرن الثالث الهجري، أريد أن تكون مصدرَ زعزعة ثقة المسلمين بدينهم، وتشكيكهم في السنّة النبويّة؛ لأنها تقوم على إبطال عقيدة اختتام النبوّة والرسالة في محمدٌ ﷺ، إلى جانب ما تدعو إليه من ترهات وأباطيل تتعلق بالإيمان بالله تعالى ومصادر الشريعة وأحكامها، وقد برز نشاطها في المناظرات وإثارة الشكوك والشبهات وتأييد سياسة الاستعمار الإنجليزي وعملت على توجيه دعوتها في جميع أنحاء شبه القارة الهندية، ونقلتها إلى البلاد العربيّة والإسلاميّة، فظهرت في العراق وسوريا، وانتشرت في أندونيسيا، واعتنت بأقاصي إفريقيا، مما أفزع علماءَ المسلمين، وأولهم في الهند، فحاربوها بأقلامهم وألسنتهم وعلمهم، وذلك أقصى ما كان يمكن في عهد الاستعمار [١].

واجه الندويّ هذه النحلةَ بالردّ الموضوعي الكاشف لزيفها، والهاتك لسترها، والمبيِّن لعورها، من خلال كتابيه: الأول (**النبوة والأنبياء في وضوء القرآن**)، حيث عالج في أحد فصوله مسألة اختتام النبوة، وكون محمّد ﷺ هو آخر الرسل وخاتم النبيين، مبيّناً فيه خطرَ نحلة القاديانيّة على سلامة العقيدة، ووحدة الديانة، والحماية من الفوضى الفكرية، يقول الندويُّ في هذا الشأن: (بقيت عقيدةُ ختم النبوة تحرس هذا الدِّينَ من غائلة المبتدعين، وفتنة المتبئين والمتزعمين، وتحرس هذه الأمة من الفوضى الفكريّة والدينية، التي كانت الأمم السابقة والديانات السالفة فريستها، واستطاع هذا الدينُ، واستطاعت هذه الأمةُ بفضل هذه العقيدة أن تقاومَ المؤامراتِ الدقيقةَ، وتحمل الصدمات العنيفة، وبقيت واحدة في الدِّين والعقيدة، لم تواجه ثورة داخلية أو

(١) القادياني والقاديانية ٧-٩.

اضطراباً فكرياً إلاّ ماكان من الباطنية في العهد القديم...، وقد بعثت هذه العقيدة في الإنسان الثقةَ ببلوغه سنّ الرشد، وكان ذلك حافزاً للإنسان على التقدّم في مضمار المدنيّة، والاعتماد على العلم والتجربة في الحياة اليوميّة، فليست حاجة العالم اليوم أن ينتظر وحياً جديداً... وإنما حاجته اليوم في أن يفكر في مواهب هذا الكون وطاقاته، التي خلقها الله تعالى؛ ليشغلها الإنسانُ في صالحه، ويستخدمها لحوائجه، وينظر إلى الأرض لبناء حياة أفضل، تقوم على أساس من الدِّين والأخلاق[1].

أمّا كتابه الآخر، فهو (القادياني والقاديانية) فقد درس فيه المكتبة القاديانية، التي خلفها مؤسس هذه النحلة الفاسدة، فإنه على رغم بغضه لهذه النحلة، واستثقاله لقراءة كتبها التي كتبت بأسلوب ثقيل على النفس، خال من العلم المفيد[2]، ولكن لا بُدَّ من هذا، خدمة للمنهج العلمي الذي يقتضي هذا التنزل؛ لقرع الرأي الفاسد بالحجة الدامغة. درس الندويُّ شخصيةَ الميرزا غلام أحمد القادياني، وما اكتنفها من تحول واضطراب، ابتدأ بكتابه: (براهين أحمد) الذي ادعى فيه أنه ملهم، ومأمور بإقامة حجَّة الإسلام، وأنه مؤيد بالآيات السماوية والخوارق، وكان مما أثاره في كتابه حرمةُ الجهاد في بلاد الإنجليز، ويدهش القارئ من كثرة ذكر الإلهامات والمنامات والخوارق والكشوف والتكليمات الإلهية والنبوءات والتحديات الطويلة، التي تخرجه عن سنن البحث العلمي والحوار الديني، وقد استفاض هذا الكتابُ في بيان عقيدة بقاء وراثة الأنبياء في العلم اللدني، وحصول نور اليقين والعلم القطعي[3].

لقد كانت مواضعُ العور في هذه النحلة كثيرةً، وظاهرةً في خروجها على عقيدة المسلمين المتوارثة عن الأسلاف، المتمثلة في اختتام البنوّة في

(١) النبي الخاتم ٧٤-٧٥.
(٢) القادياني والقاديانية ١٤.
(٣) القادياني والقاديانية ٤٠-٤٩.

محمد ﷺ، وحماية الدِّين من البدع والخرافة، وفي مظاهرتها للمستعمر الإنجليزي الذي ضيَّقَ الخناقَ على المسلمين، وغرب حياتهم، معطلاً العملَ بأحكام الدِّين، وفي إبطالها لفريضة الجهاد المحكمة، وفي سلاطة لسان الميرزا وأتباعه هجاءً وبذاءةً مع المخالفين من علماء المسلمين، وفي الانغماس في شهوة المال والبذخ والترف إيثاراً على الزهد سمة الدعاة الصالحين، وحسب من وقف على هذه النحلة أن يدرك أنها قضية شاذة من قضايا التاريخ، وإن أدقَّ تعبير وأصحَّه عنها أنها نحلة محدَثة إزاء دين خالد، لا نظير لها إلاّ باطنية القداح القرمطي[1].

ثانياً - حركة القوميَّة العربيّة: استولت على اهتمام أبي الحسن الندويِّ، لما لها من أثرٍ كبير في تقويض الخلافة، رمز وحدة المسلمين وقوتّهم، وفي تصديع جبهتهم الدّاخلية، وتفريق شملهم، وإذهاب ريحهم، وفقدان مكانتهم؛ وإن كان العرب هم الذين تبنوا فكرة القوميّة، ورفعوا رايتها إلاّ أن ضررها كان شاملاً على المسلمين، مخيّباً لتطلعاتهم، فقد عقد العالمُ الإسلامي آمالَه في زعامة العرب، التي قادته من قبل على أساس العقيدة الواحدة، والإيمان العميق، والصلة الأخوية المتساوية، ولا يزال هذا العالم الكبير يتذكر من تاريخه أن قيادة العرب بجدارة واستحقاق أشرفُ قيادة وأعظمها، وأقواها في التاريخ، وقد أكرم الله بها العرب لَمَا حملوا الرسالة، وأخلصوا للدعوة، وتفانوا في سبيلها، فأحبَّهم الناسُ، وقلدوهم في كلِّ شيء، فتحدثوا بلغتهم لغة القرآن، وامتزجوا بثقافتهم وعاداتهم المستمدة من القرآن، وبقيت هذه القيادة الشاملة مدةً طويلةً والناس لا يفكرون في الخروج عليها أو التذمر منها؛ لأنها قائمة على صلة الدِّين والأخوة والعدل[2].

---

(١) القادياني والقاديانية ٩٢-١٢١.

(٢) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ٣١٤-١٣٥.

لقد عقد الله بين العرب والإسلام للأبد، وربط مصير أحدهما بالآخر، فلا عزٍّ للعرب إلاّ بالإسلام، ولا يظهر الإسلامُ في مظهره الصحيح إلاّ إذا قاد العربُ ركبَه، وحملوا مشعلَه، ويتبيَّن من هذا حرص الرسول ﷺ على بقاء هذا الرباط الوثيق المقدس بين العرب والإسلام فجعل جزيرةَ العرب هي موطن العرب مركزاً للإسلام الدائم، وعاصمة خالدة له. وحرص على سلامة هذا المركز، وخلوصه للإسلام، فكان من وصايا الرسول ﷺ عند موته: (أخرجوا المشركين من جزيرة العرب) [1]، ومن أقواله: (لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب، حتى لا أدع إلاّ مسلماً) [2] وأخذ بذلك الخلفاء الراشدون، فكانوا ينظرون دائماً إلى الجزيرة العربية على أنها معقل الإسلام، ورأسمال الدعوة إلى الله تعالى، وقد جاء في وصية أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه لخليفته: (أوصيه بالأعراب خيراً؛ فإنهم أصلُ العرب، ومادة الإسلام) [3]، وعاش العرب، وعزوا بالإسلام، وبقي الوضع أثناء حكم آل عثمان على الصفاء والوفاء، لا يكدرهما إلاّ حوادث فردية، وأغراض شخصيّة، إلى أواخر القرن الثالث عشر الهجري حين بدت في الأتراك الكبرياء على أساس العنصر، واستعيض عن اللغة العربية باللغة التركية في الدواوين الرسمية، وقد تزعم هذه الحركة وقادها بعض الأتراك، متأثرين بالنصارى ممن كانوا مثقفين بالثقافة الغربية، ولا تربطهم بالأتراك رابطة الدِّين، ثم نشبت الحربُ العالمية الأولى التي كانت فرصةً سانحةً للقوميين العرب في الانشقاق على الدولة العثمانية، وانتهز الحلفاء الأوروبيون هذه الفرصة فنفخوا في قربة القوميّة؛ لتكون بديلاً عن الوحدة بين الشعوب الإسلامية على أساس الإسلام [4].

---

(١) رواه أبو داود ١٦٥/٣ في كتاب الخراج والإمارة، باب في إخراج اليهود من جزيرة العرب، قال الأرنؤوط في جامع الأصول ٣٤٥/٩: حديث صحيح.

(٢) رواه مسلم ١٣٨٨/٣ في كتاب الجهاد والسير، باب إخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب.

(٣) رواه البخاري ٢٠٦/٤ في كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب قصة البيعة والاتفاق على عثمان رضي الله عنه.

(٤) العرب والإسلام ٤-٩.

وظهرت إلى الوجود فكرة القوميّة العربيّة، ووجدت الدعم من الغرب؛ لأنها من أنجح الوسائل لتحقيق المطامع عن طريق التسلل إلى الأقطار العربية، ذات الموقع الاستراتيجي، والإمكانات البشرية والمادية، فضلاً عمّا في ذلك من إضعاف لمكانة هذه الأقطار، التي ينظر إليها على أنها مصدر الإشعاع الإسلامي، مركز قوة الإسلام،وقلب العالم الإسلامي كله؛ فمتى خضعت للدعايات المضللة، وانتشرت فيها الفوضى الفكريّة، والفساد الخلقي، تخلت عن مركزها القيادي للعالم الإسلامي وانقطعت صلتها بشعوبه [١].

ويلخص أبو الحسن الندويُّ مفهومَ القوميّة العربيّة بأنها فكرة مستقلة، وفلسفة بذاتها، لها كلُّ ما للدّين من حمية وحرارة وشعائر ومقدسات، خضع لها بعض مثقفي العرب، ممن كانت صلتهم بالدّين ضعيفةً، ونشأت فيهم الرغبةُ الشديدة لنيل المجد والسؤود عن طريقها، وفي أقرب وقت ممكن، مجاراةً للشعوب الأخرى التي يصفونها بالراقية والحرة [٢]، وتقوم هذه الفكرة على هذا المفهوم البعيد عن الدِّين وقيمه ومبادئه، يقول سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز: من قال إن القومية تجعل الإسلامَ عنصراً من عناصرها، وإنها تخدم الإسلام أو تسانده فإنه يخالف الحقيقةَ والواقع، وإنما الحقيقة أنها تنافسُ الإِسلام، وتحاربُه في عقر داره، وقد تُطلى مفاهيمها ببعض خصائص الإسلام ترويجاً لها وتلبيساً، أو جهلاً وتقليداً، ولو كانت الدعوة إلى القوميّة يُرادُ بها نصرُ الإسلام، وحمايةُ شعائره لكرّس القوميون جهودَهم في الدعوة إليه ومناصرته، وتحكيم دستوره، والتخلّق بأخلاقه، والعمل إلى ما يدعو إليه، وابتعدوا عن كلِّ ما يخالفه [٣].

---

(١) عاصفة يواجهها العالم الإسلامي والعربي ٤٢.

(٢) العرب والإسلام ٩.

(٣) نقد القومية العربية على ضوء الإسلام والواقع ٩.

ويؤكد أبو الحسن مدى التباعد بين الإسلام وفكرة القوميّة العربيّة، وأن أسلوبَ هذه الفكرة ما هو إلاّ صدى القوميّة الغربيّة الكافرة، والذي نعتقده أن هذه القوميّة تنافس الإسلام في مركزه وقوته عند العرب، وتزدهر وتقوى، وتستفحل على حسابه، وتقطع صلةَ العرب عن مصدر عزهم وقوتهم محمّد ﷺ ودعوته ورسالته أولاً، ثم عن العالم الإسلامي وشعوبه ثانياً، وتجعل من العرب شعباً محدوداً ضيّق التفكير، يعيش في نفسه ولنفسه [1]، ومهما مجدت القومية، فما هي مكاسبها في الأقطار العربية؟ وبماذا عادت عليهم من عزّ وسؤدد؟ لقد ملأ دعاتُها الأسماعَ بأن الإنسان العربي المارد العملاق سيخرج من القمقم.. وسيدهش العالم، وسيشغل سمع العالم وبصره، فأين هذا المارد؟ وفي أيّ مكان هو؟ وماذا أحدث من عزّ وسؤدد؟ إن ما حدث كان على نقيض ذلك تماماً، فقد تسلّط القزم اليهودي الذليل على هذا المارد المستنكف للإسلام، ولحق العار بكلّ قوميّ عربيّ، وخسرت الشعوب الإسلامية مقدساتها، وسلبت كرامتها على أيدي هؤلاء القوميين العرب، وإن التجربة برهان فاضح لهذه الفكرة المتهاوية، التي لا تجد من الواقع مستنداً قبل أن يخسروا المستقبل كلَّه، وأن لا يسترسلوا مع الأوهام والخيالات المجنحة [2] قبل أن تفوتهم الرجعة، عندها لا ينفع الندم.

هذه شهادة الواقع الحالي، وشهادة الواقع التاريخي أكثر إقناعاً لمن كان له قلب وسمع، فكلما حاول العرب أن ينالوا الشرف والمكانة بين الأمم بغير الإسلام أخفقوا وذلوا، وقد كان اسمهم يرجف القلوب، ويملؤها مهابة وروعة، فإنهم خرجوا من جزيرتهم في ثياب ضيقة مرقعة، ونعال مخصوفة، إلاّ أنهم كانوا يملكون الإيمان واليقين والأخلاقَ، التي كانت الأمم أفلست فيها إفلاساً

(١) العرب والإسلام ١٣ .
(٢) لنعد إلى الإسلام ١٤.

شائناً، وإن كانت تملك المادة وعلومها، فخضعت المادة للروح، وفي التاريخ ما يثبت ذلك بشهادات متصلة وكثيرة، وقد كان انتصار العرب على الروم والفرس الذين كانوا يفوقونهم مراراً في العدة والعدد والآلات والمدنية أروع شهادة لغلبة الروح على المادة(١).

وحقيقة الأمر أنه نشأ بفكرة القومية عقوقٌ لنعمة الإسلام، وكنود وكفران بحقٍّ محمّد ﷺ، وفضله في تكوين هذا العالم العربي، وإبرازه من العدم إلى الوجود، لقد جَنَّدَ زعماءُ القومية العربية وكثيرٌ من قادة الأدب والفكر والسياسة جميعَ مواهبهم وقواهم لخدمة هذه الفكرة، واستغلوا كل ما أمكن من وسائل وإمكانات لإبرازها دون خوف من الله تعالى وسخطه، وقد زخر القرآن الكريم بالوعيد والوبال على من يجحد النعمة ويكفر بها (٢)، قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (٣)، ولا نعمة أعظم من نعمة الإسلام، فهل بعد جحود هذه النعمة من جحود؟! قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (٤).

ثالثاً: حركة الخميني في إيران: لعل هذه الحركة من أحدث الحركات المنحرفة في العالم الإسلامي، وأكثرها خداعاً للشعوب الإسلامية؛ عندما تبنت في ظاهر الأمر فكرة إقامة الدولة الإسلامية، وانتهجت منهج التحدي الغرب، ولذلك وجدت مع الأسف من أبناء السنّة والجماعة مَنْ يبدي لها الإعجابَ والتأييد؛ بل إلى ما هو أعظم من ذلك، دون التفات أو تحرٍّ عن

(١) العرب والإسلام ٧٨.

(٢) كارثة العالم العربي وأسبابها الحقيقية ١٥،١٢ .

(٣) سورة إبراهيم ٧.

(٤) سورة آل عمران ١٠٣.

حقيقة عقيدة هذا الحركة ومؤسسها، ووزنها بميزان الكتاب والسنة، ويعدّ أبو الحسن الندويّ بحقٍّ أحدُ المفكرين الذين حققوا سبقاً في تقييم هذه الحركة، ودراسة مرتكزاتها، والتنبيه على مفارقاتها لمنهج أهل السنة والجماعة، من خلال كتابه: (صورتان متضادتان عند أهل السنة والشيعة الإمامية).

وتعد حركة الخميني في إيران امتداداً لفرقة الإمامية الشيعية، وهي تعتقد بإمامة عليّ رضي الله عنه بعد رسول الله ﷺ، نصّاً ظاهراً، وتعييناً صادقاً، وتخطت ذلك إلى الوقيعة في كبار الصحابة رضي الله عنهم طعناً وتكفيراً، ظلماً وعدواناً [1] وقد شهدت نصوص القرآن على عدالة الصحابة رضي الله عنهم، والرضا عن جملتهم، قال تعالى: ﴿ **لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ** ﴾ [2]، وقال تعالى ثناءً على المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ﴿**وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ**﴾[3]، وقد جاءت هذه المعتقدات صريحةً في كتابات الخميني، ولا سيما كتاباه: الحكومة الإسلامية، وولاية الفقيه)، فإنهما تضمنا أفكاراً عن عقيدة الإمامية وعن الأئمة ترفعهم إلى مكانة الألوهية، وتثبت أن الأئمة أفضلُ من كلِّ نبي وملك، وأن هذا الكون خاضعٌ لهم، وتابعُ لسلطانهم بطريق تكويني، وكذلك كتابه: (كشف الأسرار) تناول فيه الصحابة رضي الله عنهم، ولاسيما الخلفاء الراشدين بالجرح والنقد، بل تجاوز ذلك إلى توجيه كلمات السَّبِّ والشتم إليهم[4].

استطاع الندوي أن يجلي حقيقةَ هذه الحركة بأسلوب هادئ بعيد عن الجدل الكلامي، موثق بنقولات من كتب الشيعة ومؤسس هذه الحركة، وأن

---

(١) الملل والنحل للشهرستاني ١٦٢-١٦٤.

(٢) سورة الفتح ١٨.

(٣) سورة التوبة ١٠٠.

(٤) صورتان متضادتان عند أهل السنة والشيعة الإمامية ١٠٢.

يبيّن فسادها المتمثل في تشويه صورة تاثير تعاليم الإسلام وجهاد الرسول ﷺ التربوي والدعوي، والتنكر لمميزات النبوة والرسالة، التي اختصّ بها الرسول ﷺ، والنظرة السلبية القاتمة إلى جيل الصحابة رضي الله عنهم، التي اتخذتها شعاراً لها [1].



(١) صورتان متضادتان عند أهل السنة والشيعة الإمامية ٦-٧.

الخاتمة

وبعد: فإن جهود سماحة الشيخ أبي الحسن الندويّ في الفكر المعاصر لا يمكن لمثل هذا البحث، أن يحصرها؛ نظراً لوفرة كتاباته الفكريّة، وتتابع أعماله الثقافيّة، ولكن حسبه أن يحاول إبراز معالمها، التي استطاع أبو الحسن من خلالها أن يشارك فيما يلي:

١- بث الوعي الفكريّ، وبناء الذاتية في النظرة، وتقوية الشخصيّة الإسلاميّة، وتذكير الأمة برسالتها التي أكرمها الله بها، والعمل على صياغة الحضارة من جديد، وفق أسس مستمّدة من مصادر الإسلام الصحيحة.

٢- إيقاظ حسّ المسلمين تجاه مكتسباتهم الفكريّة عن طريق تأصيل الفكر وفق مدلولات القرآن الكريم والسنةّ المطهّرة؛ لتجلية القضايا الملتبسة، وبلورة التصور الصحيح، وإظهار استقلال الفكر الإسلامي عن غيره.

٣- تذكير المسلمين بواجبهم نحو أمتهم، وإعادة ثقتهم في معطيات دينهم الحضاريّة، وتحذيرهم من التبعيّة للغرب، والانخداع ببريق حضارته، وأن هذا لا يمنع من الاستفادة من نتاجها العلمي والماديّ بعد تحرٍّ وتمييز.

٤- تشخيص أدواء الأمة التي أدت إلى ضعفها وغيابها في الساحة العالميّة؛ لوضع الأيدي على مواضع العلل الخطيرة التي صنعت الداء، ومن أشدها ضرراً داء الرِّدة الفكرية، ومعالجتها بما يحسم الداء، وكشف حقيقة بعض الملل الفاسدة والحركات المنحرفة التي لها تأثير، والتصدي لها، وبعث الأمة من جديد لممارسة دورها القيادي، والاضطلاع بمسؤوليتها في الوصاية على العالم، والحسبة على سلوك أفراده، والعمل على إسعاد مجتمعاته.

ستبقى جهود أبي الحسن الندويّ الفكرية ظاهرةً على غيرها، تستدعي الباحثين والغيورين إلى الاستفادة منها، والرجوع إليها عند مدارسة قضايا العصر الحاضر؛ نظراً لحيويتها، وسعة عطائه فيها، وعمقه في دراستها، ودقته في تقييمها، وقدرته على معالجة آلام الأمة، وبعثه لآمالها، وفق منهج يشفي الصدور المؤمنة، ويرضي الفطر السليمة، ويتفق مع العقول الحصيفة.



فهرس المراجع

أولاً: كتب أبي الحسن الندوي:

١- أحاديث صريحة في أمريكا، ط/٣، عام ١٤٠٤هـ، مؤسسة الرسالة ببيروت.

٢- الأركان الأربعة: الصلاة، الزكاة، الصوم، الحج في ضوء الكتاب والسنة مقارنة مع الديانات الأخرى، ط/٤، ١٣٩٨هـ، دار القلم بالكويت.

٣- أسبوعان في المغرب الأقصى، عام ١٤٠٢هـ، مؤسسة الرسالة ببيروت.

٤- إلى الإسلام من جديد، ط/٤، عام ١٣٩٨هـ، المختار الإسلامي بالقاهرة.

٥- الإسلام وأثره في الحضارة وفضله على الإنسانية، عام ١٤٠٧هـ، دار المنارة بجدة.

٦- الإسلام والغرب، عام ١٤٠٥هـ، مؤسسة الرسالة ببيروت.

٧- أهمية الحضارة في تاريخ الديانات، عام ١٤٠٢هـ، مكتبة الدار بالمدينة المنورة.

٨- بين الدين والمدنية، ط/٤، عام ١٤٠٥هـ، مؤسسة الرسالة ببيروت.

٩- التربية الإسلامية الحرة، ط/٢، مؤسسة الرسالة ببيروت.

١٠- دور الإسلام الإصلاحي الجذري في مجال العلوم الإنسانية، عام ١٤٠٨هـ، دار الصحوة بالقاهرة.

١١- ربانية لا رهبانية، ط/٢، عام ١٣٨٨هـ، دار الفتح ببيروت.

١٢- ردة.. ولا أبا بكر لها، طبعة ندوة العلماء بالهند.

١٣- روائع إقبال، ط٣، عام ١٣٩٨هـ، دار القلم بالكويت.

١٤- الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية، ط عام ١٣٩٧هـ، دار القلم بالكويت.

١٥- صورتان متضادتان عند أهل السنة والشيعة الإمامية، عام ١٤٠٦هـ، دار الصحوة للنشر بالقاهرة.

١٦- الطريق إلى السعادة والقيادة للدول والمجتمعات الإسلامية الحرة، ط/٢، دار القلم بالكويت.

١٧- عاصفة يواجهها العالم الإسلامي والعربي، مطبعة ندوة العلماء بالهند.

١٨- العرب والإسلام، ط/٢، عام ١٣٨٩هـ، المكتب الإسلامي ببيروت.

١٩- العقيدة والعبادة والسلوك في ضوء الكتاب والسنة والسيرة النبوية، ط/٢، دار القلم بالكويت.

٢٠- في مسيرة الحياة، عام ١٤٠٧هـ، دار القلم بدمشق.

٢١- القادياني والقاديانية، ط/٦، عام ١٤١٠هـ، الدار السعودية.

٢٢- كارثة العالم العربي وأسبابها الحقيقية، عام ١٣٨٧هـ، مؤسسة النور للطباعة بالرياض.

٢٣- لنعد إلى الإسلام، محاضرة ألقيت بنادي الوحدة، ونشرها عام ١٣٨٧م.

٢٤- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ط/١٠، عام ١٣٩٤هـ، مطابع علي ابن علي بالدوحة.

٢٥- المسلمون تجاه الحضارة الغربية، عام ١٤٠٧هـ، دار المجتمع بجدة.

٢٦- من نهر كابل إلى نهر اليرموك (جولة في غرب آسيا) ط/٢، عام ١٣٩٦هـ، دار الإيمان ببيروت.

٢٧- النبي الخاتم، المجتمع الإسلامي العلمي بالهند.

٢٨- نفحات الإيمان بين صنعاء وعمان، عام ١٤٠٦هـ، مؤسسة الرسالة ببيروت.

ثانياً: كتب أخرى:

١- أزمة التعليم المعاصر للدكتور زغلول النجار، ط عام ١٤٠٠هـ، مكتبة الفلاح بالكويت.

٢- الأصالة والمعاصرة في الفكر الإسلامي للدكتور محمد رأفت سعيد، ط عام ١٤٠٣هـ، دار العلم بجدة.

٣- إحياء علوم الدين لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي، عام ١٣٥٨هـ. مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر.

٤- الإسلام رسالة الإصلاح لمناع القطان.

٥- الإسلام وأزمة الحضارة الإنسانية المعاصرة لعمر بهاء الدين الأميري.

٦- الاستقامة لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم، ط عام ١٤٠٣هـ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض.

٧- البداية والنهاية لأبي الفداء ابن كثير الدمشقي، ط/١٩٧٧م، مكتبة المعارف ببيروت.

٨- التعريفات للشريف علي بن محمد الجرجاني، عام ١٤٠٣هـ، دار الكتب العلمية ببيروت.

٩- ثقافة الطفل المسلم.. مفهومها وأسس بنائها، د. أحمد عبدالعزيز الحليبي، عام ١٤١١هـ، مطبعة الفرزدق بالرياض.

١٠- سنن أبي داود للإمام أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي، مراجعة وضبط محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة دار الفكر.

١١- السنن الكبرى لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، عام ١٣٥٢هـ، دار المعرفة.

١٢- صحيح البخاري للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي، المكتبة الإسلامية بتركيا.

١٣- صحيح مسلم للإمام أبي الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، عام ١٤٠٠هـ، نشر رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء بالرياض.

١٤- العقل المسلم والرؤية الحضارية للدكتور عماد الدين خليل، ط عام ١٤٠٣هـ، دار الحرمين بالدوحة.

١٥- علماء ومفكرون عرفتهم لمحمد المجذوب، ط عام ١٣٩٧هـ، دار النفائس ببيروت.

١٦- الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان لشيخ الإسلام ابن تيمية، ط/٤، عام ١٣٩٧هـ، المكتب الإسلامي ببيروت.

١٧- الفكر الإسلامي الحديث في مواجهة الأفكار الغربية لمحمد المبارك، ط عام ١٩٨٧هـ، دار الفكر

١٨- فلسفة الحضارة لألبرت اشفتيسر، ترجمة الدكتور /عبد الرحمن بدوي، ط/٣، ١٩٨٣م، دار الأندبس ببيروت..

١٩- القاديانية دراسات وتحليل لإحسان إلهي ظهير، ط١٢، عام ١٣٩٨هـ، ترجمان السنة بباكستان.

٢٠- القاموس المحيط لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، ط/٢، عام ١٣٧١هـ، مطبعة البابي الحلبي بمصر.

٢١- مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، دار الكتب العربية ببيروت.

٢٢- معجم مقاييس اللغة لأبي الحسن أحمد بن فارس، تحقيق وضبط عبد السلام هارون، دار الكتب العلمية بإيران.

٢٣- مفاهيم العلوم الاجتماعية والنفس والأخلاق في ضوء الإسلام لأنور الجندي، عام ١٣٩٧هـ، دار الاعتصام بالقاهرة.

٢٤- المفردات في غريب القرآن لأبي القاسم الحسين بن محمد الأصفهاني، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة ببيروت.

٢٥- الملل والنحل لأبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، تحقيق عبد العزيز الوكيل، عام ١٣٨٧هـ، مؤسسة الحلبي بالقاهرة.

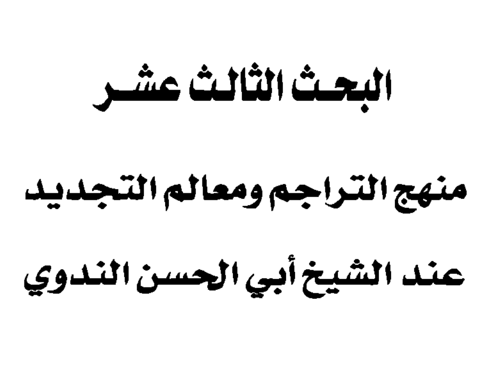
٢٦- نحن والحضارة الغربية لأبي الأعلى المودوي، مؤسسة الرسالة.

٢٧- نقد القومية العربية على ضوء الإسلام والواقع لسماحة الشيخ عبد العزيز بن باز عام ١٤٠٣هـ، نشر الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء بالرياض.



محتويات البحث

الموضوع — الصفحة



البحث الثالث عشر

منهج التراجم ومعالم التجديد عند الشيخ أبي الحسن الندوي

د. الحسين العربي رحمون (*)



(*) أستاذ في كلية الآداب - الرباط - المغرب .

المقدمة:

يعتبر أدبُ التراجم من أهمّ العناصر المكونّة لتدوين التراث الإنساني بصفة عامّة، والتراث العربيّ بصفة خاصّة، وقد تطوّر هذا النوع من الكتابة عبر مختلف الحقب الأدبية، وحسب اختلاف الأقطار الإسلامية منذ عصر التدوين إلى وقتنا الحاضر. ولا نكاد نجد تعريفاً محدداً، أو قالباً جاهزاً ينضوي تحته هذا الفن ولا يتجاوزه إلى غيره، والمعروف أن الأدب أجناس متنوعة، وأشكال مختلفة، قديمة وحديثة. كما أن الكتابة فيه، أجناس وأشكال أيضاً، ولكلٍّ جنس منها وكلّ نوعٍ مفهومٌ عامّ، ومفهوم خاصّ، وتمتد بين هذه المفاهيم جسور مؤتلفة، وتجمعها قضايا حيوية، وعناصر مشتركة ومقاصد وأهداف متقاربة.

كذلك فن التراجم في مفهومه العامّ، هو هذا النوع من الكتابة الذي يترجم للرجال، ويعرِّف بهم، ويذكر نشأتهم وأخبارَهم ويتحدث عن مؤلفاتهم ومآثرهم العلمية، وخصائصهم النفسية، ومكانتهم الاجتماعية. مما يمكن معه استخلاصُ كثير من القيم الفكريّة والثقافيّة والاجتماعيّة للعصر الذي عاشوا فيه. وهو في مفهومه الخاصّ، هذا الفن الذي ينبغي أن يتميز عن اتجاهات أخرى وكتابات أخرى، تختلف معه في كثير من العناصر المعجمية، والكتابة التاريخية، والسيرة الذاتية، وغيرها...

وإذا كانت التراجم قد ظهرت منذ أن اهتم العلماء المسلمون بطبقات المُحَدِّثين والصحابة وطبقات النحويين واللغويين، ثم بطبقات الكتاب والشعراء، والأطباء، والصوفية، وغيرهم في مشرق البلاد الإسلامية ومغربها، فقد امتدّ هذا الاهتمام بأعلام الكتاب وأشهر العلماء إلى عصرنا الحاضر.

ويختلف منهاج المترجمين في تقديم تراجمهم بحسب الأشخاص والأماكن والعصور، على أن هناك سمات عامّة، وعناصر مشتركة يعتمدون عليها ويستغلونها.

ومن أبرز من نجد في كتاباتهم في وقتنا الحاضر نزوعاً إلى فن التراجم وشغفاً بالاشتغال به الكاتب الموسوعيّ، والداعية الإسلاميّ الكبير، الشيخ أبو الحسن عليّ الحسني الندويّ [١]، فقد عُرِفَ بميله لهذا الفنّ وحبه له، لأنّه نشأ في بيئة كانت هوايتها التاريخ والتراجم والسير... وولد في أسرة كان فيها مؤرخون ومؤلفون، وكان أكثر اشتغالهم بالتأليف في تراجم الرجال. [٢]، فقد كانت أسرته تتناقل كتبَ التاريخ الخاصّة بالأسر الهندية، وكان والد المؤلف يرجع إليها عند تأليفه لكتاب «نزهة الخواطر..» فتأثَّر أبو الحسن بهذه الكتب، وتولد عنده تذوق كبير، وشغف عظيم بتاريخ الهند الإسلامي[٣].

على أن الجهود العلميّة لهذا العالم الكبير لا تتناول هذا الجانبَ فحسب، بل إنه يعتبر موسوعةً علميةً أثرى المكتبةَ الإسلامية بما أنتجه في شتى مجالات العلم والمعرفة، فقد كتب عن الأدب الإسلامي والعلوم الإسلامية،واهتم بالعمل الدعويّ وفقه الدعوة، وقضايا المسلمين في شبه القارة الهندية وفي العالم العربيّ والإسلاميّ، وتناول بالبحث قضايا الفكر الإسلاميّ، وكتب في السيرة النبويّة والسيرة الذاتيّة، وكان كلّ اهتمامه متجهاً نحو خَلْق حركةٍ إصلاحية تجديدية إسلامية، تتناول النفوسَ بالتهذيب وتَبُث العزيمةَ في الهمم، لكي تعيد للإسلامِ قوته ونصاعته وللمسلمين دورَهم التاريخي وقيادتهم للعالم.

وهذا الهدف أيضاً كان من وراء ما كتبه عن أدب التراجم حول مجموعة من الشخصيات العلمية والأدبيّة والدّينيّة والسياسيّة في القديم والحديث.

ومن المفيد أن ننتبه إلى أن أسلوب الترجمة عند أبي الحسن الندويّ لا يعتمد على كلّ العناصر التي كان يقوم عليها عمل المصنفين القدامى، ولكنه

(١) نسبة إلى ندوة العلماء في الهند.
(٢) شخصيات وكتب. ص٧.
(٣) في مسيرة الحياة ١/٩٦.

يتجه إلى إحداث نوع من التغيير والتجديد في تقديم تلك العناصر. وهي عناصر توجد في أساليب التراجم القديمة، ولكن تختلف عنها من حيث الصياغة الموضوعية والصياغة الشكليّة. أمّا من حيث الصياغة الموضوعيّة، فإن المؤلف يلحّ على تقديم المترجم له داخل قضية من القضايا المهمة التي تشغل الإسلام والمسلمين، فيهتم بمكانته العلميّة والخُلُقية، ومقدار التوجيه والفائدة التي يسديها للأمّة والمجتمع، ويربط الشخصَ بالأحداث الكبرى والوقائعِ الجسيمة التي يهتمّ بها الناس وينشغلون بها. وأمّا جانب الصياغة الشكليّة، فالمؤلف لا يحصر مهمّته في نقل اللقطات السريعة من حياة المترجم التي تعتمد على التعريف المقتضب. وإعطاء المعلومات المختصرة، بقدر ما يعتمد على الأسلوب الأخاذ، والعناصر المستحدثة التي ينبغي أن تتلاءم مع مستجدات الحياة وأذواق القراء، ومع ثوب الثقافة الجديد الذي فرضَ أسلوبه في العصر الحديث.

وعلى الرغم من أننا لا نجد له مصنفات خاصّةً بالتراجم - فيما نقل من اللغة الأردية إلى اللغة العربية، أو على الأصح لم نتمكن من الوقوف على كلِّ ما صدر له في هذا المجال، إلاّ أننا تستطيع أن نتبين من خلال ما قرأنا له أن هذه التراجم تتوزع في بعض كتبه ومؤلفاته. وسنتحدث عنها فيما بعد.

ولكي نقف على منهج الترجمة عند أبي الحسن الندويّ ومعالم التجديد التي استحدثها بالمقارنة مع ما نعرفه من أساليب المتقدمين، وعلى الأهداف المتوّخاة من هذه التراجم، لا بدَّ أن نستعرض باقتضاب أهمَّ الخطوط العريضة لمناهج القدامى وما عرفته من تطور، لنتمكن بعد ذلك من استخلاص الصورة التي نرى فيها المؤلف في مجال أدب التراجم.

تطور مفهوم أدب التراجم:

تعتبر كتب التراجم من أهم المصادر والمراجع التي تعين الباحثَ على معرفة تطور الحياة الفكريّة والأدبيّة والحضاريّة للإنسان والأمم على حدٍّ سواء.

ولفنّ الترجمة علاقةٌ وطيدة بحركة التأليف، بحيث ينظر إليه على أنه حلقة من أهمِّ حلقات هذه الحركة، خصوصاً عندما يتعلق الأمر بمؤلفات القدماء الذين عُنوا بتدوين تراجم الصَّحابة، وطبقات المحدِّثين لما لذلك من صلَة بأصول الدِّين والتشريع الإِسلاميِّ، ثم امتدَّ هذا الاهتمام إلى العناية برواية اللُّغة والأدب، فتعددت حلقاته، واتسعت حتى شملت أجناساً من طبقات الرجال والنساء من كتّاب وشعراء، ولغويين ونحويين، فظهرت الكتب المصنّفة في تراجم الشعراء، والكتب المصنّفة في تراجم اللغويين والنحاة، والكتب المصنّفة في تراجم الأدباء عامة [١].

وعندما اتسعت رقعة الدولة الإسلامية شرقاً وغرباً، وكثر التأليف والترجمة، ودعت الحاجةُ إلى التخصّص، أخذت تظهرمجموعات أخرى من الأسماء، مثل كتب المعاجم، والبرامج، والفهارس والمشيخات، والوفيات، والصلات، وصلات الصلة، والذيول، والمؤتلف والمختلف، والمشتبه في أسماء الرجال، ثم ظهرت تراجم خاصّة بالزوايا، والجوامع، والمدارس، والرُّبط، والقبائل.. وغيرها [٢]، حتى إن التراجم العربية الإسلامية» فاقت من حيث كثرتها وتنوعها، وافتنانها في ترتيب الأعلام المترجمة، وتبويب موضوعات التراجم، والاهتمام بها حتى في كتب التاريخ العامّ وكتب الشروح اللغويّة، والترجة لأعيان كلِّ بلد، أو كلِّ مدينة في كتاب واحد، والترجمة لأعلام النساء

(١) حركة التأليف عند العرب. ص١٧٥ .
(٢) حركة التأليف عند العرب. ص ٢٢٩.

بجانب أعلام الرجال، وتحقيق الوفيات والمواليد قدر ما سمحت به ظروف حياتهم الاجتماعية، والاستشهاد بآثار المترجَم لهم في النثر والشعر وضبط الأعلام، وتحقيق المتشابه منها، فقد فاقت في كلٍّ ذلك غيرَها من التراجم في الآداب الأجنبية في القديم والحديث [١].

ومن أشهر كتب تراجم الأدباء والشعراء، كتاب: طبقات فحول الشعراء لابن سلّام الجُمَحي (ت٢٣١هـ)، والشعر والشعراء لابن قتيبة (٢٧٦هـ)، والأغاني لأبي الفرج الأصفهاني (٣٥٦هـ)، ومعجم الشعراء للمرزباني (٣٨٤هـ)، ويتيمة الدهر للثعالبي (٤٢٩هـ)، والذخيرة لابن بسام الشنتريني (٥٢٤هـ)، وتاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي (٤٠٣هـ)، والصلة لابن بشكوال (٥٧٨هـ)، والإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب (٧٧٦هـ)، ونفح الطيب، وأزهار الرياض لأحمد المقري (١٠٤١هـ).

ومن أشهر الكتب المصنفة في تراجم اللغويين والنحاة: كتاب: طبقات النحويين واللغويين للزبيدي (٣٧٩هـ)، ونزهة الألباء لابن الأنباري (٥٧٧هـ)، وإنباه الرواة للقفطي (٦٤٦هـ)، وبغية الوعاة للسيوطي (٩١١هـ).

واشتهر من بين الكتاب المصنفة في تراجم الأدباء، كتاب معجم الأدباء لياقوت الحموي (٦٢٦هـ)، وفوات الوفيات لابن شاكر الكتبي (٧٦٤هـ)، والوافي بالوفيات لصلاح الدين الصفدي (٧٦٤هـ).

ولا يخفى أن هذه المصنفات يمتزج فيها الأدب بالتاريخ: ويتتابع فيها الحدث المرتبط بالذات والوقائع المتعلقة بالجماعة، وتختلف اختلافاً واضحاً عمّا يكتبه المؤرخون من سرد أخبار الدول والملوك ومتابعة أنباء المعاهدات والحروب، لأن كتب التراجم تعنى بأخبار أفراد الأمة من علماء ومصلحين،

(١) التراجم والسير. سلسلة فنون الأدب العربي ص١٢.

ومؤلفين، وكتّاب، وشعراء، وقضاة، ومحتسبين، وفقهاء، وقراء، وغيرهم من طبقات الشعب المختلفة.

وقد كان الهدف الأساسيّ عند هؤلاء المصنفين هدفاً تعليمياً بالدرجة الأولى، إذ كان أدب التراجم مادة أساسية في حلقات التدريس، ينقله الدارس من مصادره ويستوعبه، وربما حفظه عن ظهر قلب، ثم أضحى بعد ذلك تراثاً يحفظ آداب الأجيال وعلومها. ويعتبر عندنا اليوم جزءاً من التراث الذي تقوم عليه كلّ نهضة علميّة أو فكريّة أو ثقافيّة.

لقد عني القدماء بتدوين تراجم الرجال حسب تنوع طبقاتهم واختصاصاتهم، وبدؤوا بوضع تراجم الصحابة والمحدثين-كما أسلفنا-وذلك بسبب الحاجة إلى حفظ مآثرهم ومحفوظهم من الأحاديث وأخبار عصر النبوّة والخلفاء الراشدين، وتلا ذلك الاهتمام بوضع تراجم العلماء واللغويين والأدباء. وكان للمشارقة فضلُ السبق في هذا الميدان ثم تبعهم الأندلسيون والمغاربة فألفوا الفهارس والبرامج والصلات والذيول وغيرها.

إلاّ أن الترجمة في هذه الكتب تقتصر في البداية على التراجم المختصرة للعلماء والفقهاء والأدباء، وذكر أخبار السماع والرواية، وتاريخ الميلاد والوفاة عند الاقتضاء، الأمر الذي يجعلها محصورةً في نقل بعض المعلومات والأخبار، وترك أغلبها دون مراعاة خطة محكمة، أو طريقة ثابتة في إعطاء الصورة الحقيقية أو القريبة إلى الحقيقة عن المترجم له.

ورغم ما كان المصنف يبذله أحياناً من التحرّي والدقة، فإن التراجم كانت تتعرض للأخطاء بسبب التحريف الذي يلحقها. وقد أشار ابن عبد الملك المراكشي (٧٠٣هـ) إلى هذه الظاهرة المتكررة في كتب من سبقه من المترجمين، سواء منها التي كانت تصل إلى المغرب والأندلس من المشرق أو التي أُلِّفَتْ في

عقر الدار مثل تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي وكتاب الصلّة لابن بشكوال، وهما المصنفان اللذان ذيلهما وأكملهما بكتابه المشهور: الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة..

واشتهر كتاب «يتيمة الدهر» للثعالبي في المشرق وفي الأندلس، وأخذ بمنهجه سائر المترجمين بعده، واعتمده ابنُ بسام في «الذخيرة» وحذا حذوه في تقسيمه الرباعي المشهور، كما استفاد منه كثيرٌ من الكتّاب والمصنفين. ولكنهم أضافوا الجديدَ إلى حقل التراجم بسبب ضرورات العصر وحاجات الناس إلى التجديد. وهذا أمر بدهي في كلِّ عصر ومصر، وهو الأمر الذي سنلاحظه ونحن ندرس أسلوبَ الترجمة عند مؤلفنا أبي الحسن الندويّ.

وإذا كانت الطريقةُ الغالبةُ في ذلك العهد هي منهجُ التقسيم الجغرافيّ للأقاليم، وانتهاجُ أسلوب السجع. فإنها القاسمُ المشترك بين المصنفين المشارقة والأندلسيين إلى حدود ابن بسام.

وقد انتبه الدارسون، ومنهم المستشرق الهولنديّ «دوزي» إلى البوادر الأولى للتحليل النقديّ الدقيق في التأريخ والترجمة في كتاب ابن حيان (٤٦٩هـ) شيخ الكتاب في الأندلس، وهي سمة ميزّت أكثر المصنفين الأندلسيين والمشارقة من الرعيل الثاني، فقد كتب ابن سعيد المغربي (٦٨٥هـ) كتاب: المُغرب في حلى المَغرب، والتزم فيه نظاماً خاصّاً أفصح عنه في مقدّمة كتابه [1]، وانتهج ابن عبدالملك المراكشي نهجاً جديداً في التراجم لم يسبق إليه، بحيث أصّل قواعده وحدّد ضوابطَه، وميّزه عن التاريخ المحض، وعن فنّ السيرة الذاتيّة، وجعله فنّاً قائماً بذاته، وبناه على القواعد والعناصر

(١) انظر: المغرب في حلى المغرب: تحقيق شوقي ضيف (خطبة المؤلف).

التي تلتزم الدِّقَّةَ والتحريّ في عرض الأحداث ونقل الأخبار[١]. وكان أحمد بن خلكان (ت٦٨١هـ) وكتابه: وفيات الأعيان آية في الوصف الدقيق، وشموليّة الخبر، ووضع الصفة مكان الموصوف، حتى قال عنه أبو الحسن الندويّ: «فإنه إذا وصف أحداً من المترجم لهم بقوله: النحوي، أو الفقيه، أو الأديب، أو المفسر، أو اللغوي، أو الواعظ، فليس من الميسور زحزحته من مكانه الرئيسي والاختصاصي، ووضعه في طبقة أخرى» [٢].

ودرج على هذه الطريقة أغلبُ المترجمين الذين جاؤوا بعد هذه الفترة مثل ابن شاكر الكتبي (٧٦٤هـ) في كتاب «فوات الوفيات»، وصلاح الدين الصفدي (٧٦٤هـ) في كتاب الوافي بالوفيات، وربما كان لسان الدين بن الخطيب (٧٧٦هـ) أكثر دِقّة وإلحاحاً على الخبر من سابقيه، بحيث يظلّ دقيقاً مع مترجميه في إثبات اسمه، ولقبه، وكنيته، ومولده، ووفاته، وحاله ومشيخته، وتلاميذه وكتبه ومصنفاته، ونظمه ونثره، ودخوله غرناطة -وهو شرطه- وربما تحدث عن أوليته وعن محنته وإذا ترجم لأمير أو قائد، فهو يذكر أوليته وحاله، وصفته وأولاده، ووزراءه، وكتابه وقضاته، والملوك على عهده، ومناقبه، وجهاده، وحروبه، وبعض ما رثي به من الشعر.

هذه العناصر هي التي كانت شائعة ومميزة لأدب التراجم في القرون المتأخرة مع بعض الاختلاف والتباين في الأخذ بها من طرف المؤلفين.

ولا نكاد نصل إلى عصر أحمد المقري (١٠٤١هـ) حتى تتداخل عناصر التاريخ العام وعناصر التراجم والسيرة في كتاب نفح الطيب وأزهار الرياض، قبل أن يغلب الطابع المعجمي على التراجم على حد ما نجد في «كشف الظنون» عند حاجي خليفة والأعلام للزركلي.

(١) انظر الذيل والتكملة. السفر الثامن. القسم أ (مقدمة المحقق).
(٢) شخصيات وكتب. ص٧٠.

منهج أبي الحسن الندوي في التراجم ومعالم التجديد:

تأثر أبو الحسن الندويُّ في كتابة التراجم بمن سبقه من المؤلفين، وأشار بالخصوص إلى طريقة ابن خلكان، واستهوته هذه الطريقة، ولعله استفاد منها قبل أن ينصرف إلى منهجه الذي ارتضاه لكتابة التراجم، كما أشاد بأديب الأندلس الشهير، وشاعرها لسان الدين بن الخطيب، وعمله الجليل في تدوين أخبار دولة غرناطة ورجالها في كتاب: الإحاطة. وأثنى على كتاب: نفح الطيب لأحمد المقري وأهميته في تدوين أخبار المغرب والأندلس. وفي معرض حديثه عن الرجال الذين عُنوا بالتدوين والتأريخ للرجال ذكر المقريزي (٨٤٥هـ) وكتاب: المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار (خطط مصر)، وأشار إلى ابن عساكر (٥٧١هـ) صاحب كتاب: تاريخ دمشق، وتحدث أيضاً عن حاجي خليفة زادة، والأستاذ محمد كرد علي وكتابه القيم: «خطط الشام» واعتبر أن هذه المصادر التاريخية والمصنفات الأدبية هي بمثابة دوائر معارف [1] تحفل بتاريخ الأمة الإسلامية، وتخلط ذكر علمائها وعظمائها ورموزها.

وبالنسبة للهند، فقد كانت هي أيضاً في حاجة إلى مؤرخ للرجال كابن خلكان، ومستعرض للتاريخ كحاجي خليفة جلبي زادة، ووصاف كالمقريزيّ حتى تُوَفَّى هذه البلادُ - التي كثر فيها الرجال، وازدهر فيها العلم واتسعت فيها المدنيّة - حقَّها من التاريخ والتسجيل والتصوير، وقد وفَّق الله العلامة السيد عبد الحي بن فخر الدين الحسني (١٣٤١هـ) لمثل هؤلاء الثلاثة العظماء فيما يختص بالهند ترجمة وتاريخاً واستعراضاً وتصويراً [2].

وتأثر أيضاً فيما كتب من التراجم، وفي سائر الكتابات الأخرى بمجموعة من المؤلفين الذين تتلمذ عليهم، أو قرأ لهم، فهو يتحدث عن العلامة: سيد

(١) شخصيات وكتب. ص١٨٦.

(٢) نفسه، ص١٨٩.

سليمان الندويّ، وطريقة إخراجه الجديد للسيرة النبوية عندما نقلها من نطاق السيرة والتاريخ إلى معالجة منصب النبوة والعقائد والعبادات والأخلاق بزاوية جديدة ودراسة مقارنة [١].

وكان لأخيه الأكبر ومربيه الأمثل، بالغ الأثر على شخصيّته وخطة تعليمه وثقافته، وكانت توجيهاته الحكيمة، وتعليماته الهادئة أنفع له من مئة كتاب [٢].

وكان جدّه العلامةُ فخر الدين الحسني من السابقين إلى وضع كتاب في تراجم الطبقات الصوفية والعلماء والشعراء في الهند، ووضع والده العلامة السيد عبدالحي الحسني» أكبر كتاب يعرف في شبه القارة الهندية بتراجم الرجال الذين نبغوا في الهند في القرن الإسلامي الأول إلى سنة وفاة المؤلف (١٣٤١هـ) - (١٩٢٣م).. ويتناول الأعيانَ من كلٍّ طبقة على اختلاف مذاهبهم الفقهية واتجاهاتهم العلمية، واختصاصاتهم الفنية، فجاء في ثمانية مجلدات كبار يحتوي على أكثر من أربعة آلاف وخمس مئة من التراجم، وهو أشبه في أسلوب الكتاب ومنهجه وتعبيراته بابن خلكان في الدقة والأمانة،وتحري الصدق والقياسات اللائقة في تخيّر الأوصاف والنعوت» [٣].

وقرأ هذه المجلدات كما قرأ كتباً أخرى [٤] في سنٍّ مبكّرة لأنها كانت في متناول يده، فعرف أنواعها وخبر مناهجها وأساليبها وشغف بفنّ الترجمة وكان شغلُه الشاغل حتى قال: «كان أدب التراجم والسير من أحب الآداب وأخفها وأسهلها لي، وكانت هوايتي وشغلي الشاغل في سنّ قلَّما يتيسر فيها الكتابةُ لكثير من هواة الأدب والإنشاء، فبدأت أؤلف في تراجم الرجال وسير

---

(١) نفسه، ص٥٦.

(٢) نفسه. ص٧٠.

(٣) شخصيات وكتب. ص٨.

(٤) انظر نفس المرجع. ص ٨-٩ ، الوردة الرشيقة. ذكرى الأيام الماضية... إلخ.

النابهين من العلماء والمصلحين بالعربية قليلاً، وبالأردية أكثر، وتكوّن من هذه التراجم والسير مكتبة لا بأس بها في كتب التراجم وسير المصلحين والمجددين في الإسلام، والدعاة والمربين الذين نفع الله بهم الأمة ونهضوا بها في مختلف الأدوار والأمصار»[1].

من الواضح إذن أن المؤلف كتب بالأردية الشيء الكثير في التراجم، ولكن عدم اطلاعنا على هذه الكتب وقصورنا عن قراءة هذه اللغة يجعلنا لا نحيطُ بالصورة الشاملة لما كتبه الندوي في هذا المجال. إلاّ أن ما وصل إلينا من الكتب المترجمة إلى العربية في التراجم والسير، وكذا الإشارات الكثيرة إلى التراجم الأردية المبثوثة في كتبه، تجعلنا نتلمس الطريقة التي يعالج بها الكاتب هذا الفنّ، لأن الهدف عندنا ليس وضع إحصاء لهذه المؤلفات، بقدر ما يرمي إلى النظر في أسلوب هذه التراجم وخصائصها.

فقد صدر له كتاب: شخصيات وكتب يشتمل على مجموعة من التراجم لشخصيات إسلامية مرموقة في شبه القارة الهندية والعالم العربي بدءاً بالشيخ محمد إلياس الكندهلوي وانتهاءً بالدكتور مصطفى السباعي. وفي هذا الكتاب بالذات يظهر بوضوح كتابته في التراجم، وتبرز ملامحُ التجديد فيه بالمقارنة مع ما نعرفه عند الأقدمين، وفي مقدمة الكتاب، يتحدث المؤلف عن اهتمامه بالتراجم ويضع منهجاً أو «شروطاً» لكلّ من يقدم على كتابة التراجم.

فهو ينّبه أولاً إلى الفرق الطبيعي بين كتب التاريخ والتراجم، بحيث: «إن المؤلف في كتب التاريخ والتراجم وكتب الحياة الشخصيّة، يكون ممثلاً عن تلك الشخصيّات التي يكتب عنها ومحامياً لها ومدافعاً عنها.. ويكون هو حراً طليقاً في الكتابة عن صيانة نفسه وممثلاً لذاته ومتحدثاً عنها»[2].

---

(١) نفسه. ص ٩ .

(٢) في مسيرة الحياة ١/٢٥.

أمّا في كتابه «رجال الفكر والدعوة»، وهو الدراسة التي أصدرها ضمن سلسلة تاريخ الإصلاح والتجديد في العالم الإسلامي، فلا نكاد نميّز بين فَنَّيْنِ اثنين متداخلين هما: فنّ الترجمة وفنّ السيرة. ففي الوقت الذي يخصص الجزءَ الأول لترجمة طائفة من المصلحين والعلماء المسلمين وهم عمر بن عبد العزيز، والحسن البصريّ، وأحمد بن حنيل، وأبو الحسن الأشعريّ، والإمام الغزاليّ، وعبد القادر الجيلانيّ، وجلال الدين الروميّ، يفرد الجزءَ الثاني لحياة الحافظ أحمد بن تيمية، والجزء الثالث لسيرة الإمام السرهندي، والجزء الرابع للإمام الدهلوي [١].

وتتوزع تراجمه الأخرى[٢] بين مجموعة من كتبه ومؤلفاته، فهو يترجم لفئة من المسلمين في الهند في كتابه: «المسلمون في الهند» ويترجم لكبار العلماء والكُتّاب في اللغة الأردية، ففي مؤلفه «الكتب التي أفادتني» وله كتاب «المصابيح القديمة» في مجلدين، يشتمل على تراجم عدد من الشيوخ والأساتذة والمعاصرين الكبار والزملاء الراحلين في اللغة الأردية.. وترجم لمحمد الحسني بن عبد العلي الحسني في كتاب: «الإسلام الممتحن» وألف كتاباً في ترجمة الإمام أحمد بن عرفان الشهيد وكتاباً في سيرة عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وصدر للمؤلف كتابٌ بعنوان «مذكرات سائح في الشرق العربي» سجل فيه أخبار الشيخ حسن البنا، والشهيد سيد قطب، ومجموعة من الشخصيات الأخرى.

ومن خلال الاطلاع على بعض هذه المؤلفات، يبدو أن المؤلف يجمع أحياناً بين مصطلح الترجمة بالمفهوم الذي حددناه آنفاً. وبين فنّ السيرة بمفهومها الواسع الذي يتناول كلَّ جوانب حياة المترجَم له، ويميّز في ذات الوقت بين السيرة الذاتيّة التي ظهر منهجها الخاصّ في كتاب «في مسيرة الحياة».

---

(١) شخصيات وكتب. ص١٢١.

(٢) جميع هذه الإشارات ورت في مؤلفه: شخصيات وكتب.

ونفهم من الفقرات التي ينقلها «الندويّ» عن مصنف والده: نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر الخاصّ بترجمة أعيان الهند، أن أسلوبه يمضي على شاكلة أدب التراجم القديمة من حيث دقة المعلومات والأسلوب، وحتى في استعمال السجع فيما نقله إلى اللغة العربية، وربما كان اهتمامه بهذا الكتاب عاملاً جعله يقبل إلى إصداره في طبعة جديدة بعنوان: الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام [1].

ويحدد أبو الحسن الندوي مجموعة من المعايير والشروط لمؤلفي التراجم والسير باعتبارها ليست من الأغراض الأدبية السهلة، أو مواضيع الوصف الهينة، وإنما تحتاج إلى كثير من المؤهلات العلمية، والسجايا الأخلاقية، منها[2]:

١- المعرفة الشخصية للمترجم له معرفة واعية ناقدة، سواء عن طريق المعاشرة، والصحبة، أو عن طريق الدراسة وتتبع الأخبار، وقد كان المصنفون القدامى يهتمون بهذا الجانب اهتماماً كبيراً، ويخلعون ألقاباً خاصّة على من تجمعهم بهم المعاشرة والدراسة، فيقولون في الأستاذ: شيخنا. وفي قرين الدراسة، صاحبنا، وفي رديف المواطنة: بلدينا..

٢- القدرة على التعبير وتصوير أحوال المترجم له، وبيان أخباره وآثاره،ولا يتأتى ذلك إلاّ بتملك الثروة اللغوية، والقدرة الكافية على تطويع هذه الأداة.

٣- الدقة في نقل الخبر، والأمانة عند روايته، والشعور بالمسؤولية والصدق عند إلباس المترجم له لباساً على قياسه.

٤- توافر الدافع النبيل، والرغبة الملحة عند كتابة الترجمة أو التعريف بشخصية، للدفاع عن المترجم أو رد الاعتبار له، أو الوفاء بالفضل.

(١) شخصيات وكتب. ص١٥٩.
(٢) نفسه ص٦-٧.

٥- اختيار الكلام المعبّر عن حقيقة المترجَم له، ووضع الكلمات والمصطلحات في مكانها لتدل على الوصف المناسب، أو الذكاء، أو قوة الشخصية أو الدرجة العلمية المناسبة.

إن الغرض من هذه المعايير كلِّها هو تحرّي الدِّقَّة والصِّدق عند الحديث عن عالم أو داعية إسلاميّ أو مصلح أو مجدّد، بعيداً عن التزلف والرياء، ووصف الشخص بما ليس فيه. والصدق وتبني الحقيقة هما من مواصفات منهج الدعوة الإسلامية ودعائمهما. ولقد كتب أبو الحسن الندويّ في كلٍّ مجال يتعلق بقضية الدعوة. وكانت هذه المسألة الدعوية من وراء هذا الزخم الهائل من الدراسات والمؤلفات والرسائل المختلفة، فمن يقرأ له في الفكر الإسلامي وقضايا المسلمين يجده مُنَظِّراً إسلامياً ثاقباً، ومن يقرأ له في العمل الدعوي يلقاه داعيةً عظيماً، ومن يقرأ له حول أدب التراجم والسيرة والتاريخ يجده موثقاً دقيقاً، وكان اهتمامه بقضية الدعوة ونشرها والعمل من أجلها، والتفاني في إعلاء كلمة الله، والذود عنها، وبذل جميع الجهود من أجل نشرها، مسألة قناعة ذاتية، جاءت نتيجةَ النظام التربوي العامّ الذي نَهل منه المؤلفُ، ومن النشأة الإسلاميّة الصافية التي نشأ عليها، ومن النمط الثقافي الأصيل والمعاصر التي تلقاه وصقل مواهبه. لذلك اصطبغ هذا الطابعُ بجميع مقالاته ومؤلفاته، وارتسم في كل أفكاره وخطبه. ولذلك أيضاً ظهر هذا المؤشرُ فيما كتبه في أدب التراجم بحيث تبدو أهدافُ الدعوة واضحةً ظاهرةً، وسواء تعمّد المؤلف ذلك أم لم يتعمده، فإن نَفَسَ الدعوة إلى التجديد يتماشى جنباً إلى جنب، مع كلمات وفقرات التعريف بحياة المترجَم له.

إن غزارة المعارف والعلوم عند الندويّ، واتساع ثقافته التي تجمع بين الأصالة والمعاصرة، وكثرة كتبه ومؤلفاته تستدعي منه تجديداً في موضوع الفكر الدعويّ ووسيلة تبليغه، في أنواع الفنون الأدبية التي يمارس الكتابة فيها، أو أنواع العلوم الأخرى التي يعالج قضاياها، ومن ذلك أدب التراجم.

إن عنصر التجديد في التراجم عند الندويّ قائمٌ على معطيات جديدة استحدثَها العصرُ الذي نعيش فيه، واقتضتها ضرورةُ المسؤولية والأمانة التي يعمل من أجلها فإذا كان المصنفون في القديم يعتمدون على جملة من المعلومات التي تتألف منها الترجمة، كتحديد الاسم والنسب، وذكر الجد الأعلى إمعاناً في التحري والضبط، وذكر اللقب والكنية وسنة الميلاد والوفاة، وبعض أعمال المترجم وأشعاره، وما إلى ذلك من العناصر التي سبقت الإشارة إليها - في هذا البحث- فإن المشتغلين بالتراجم اليوم قد أغنتهم دفاتر الحالة المدنية المستحدثة والمضبوطة من الوقوف على كل هذه المعلومات بالنسبة للمترجمين الذين يعاصرونهم من الشيوخ والأقران والتلاميذ، كما أن المصنفات الكثيرة والمعاجم الأدبية المتوافرة في الخزانات والمكتبات العربية والإسلامية تعفي هؤلاء من تكرار ما ورد فيها بالنسبة لمن ترجمَ لهم من الأقدمين. ثم إن اهتمامَ الإنسان بقضايا الجماعة أكثر من مشاكل الأفراد في الوقت الحاضر أدى إلى تغيير موضوع الخطاب وأسلوبه على السواء.

من هنا نرى أن أدب التراجم عند أبي الحسن الندوي ينهج نهجاً جديداً يختلف عن الأساليب القديمة ليلائم الفكرَ المعاصرَ، ويخاطب العقليةَ الحاضرةَ ويؤدي الوظيفةَ والغاية التي أنشئ من أجلها، دون المساس بعناصر الأصالة. لذلك لا نعتبر الجهودَ التي قام بها المؤلف في التراجم عملاً يستهدف الترجمةَ لذاتها -كما كان الشأن في القديم- ولا يقف عند حدود التعريف بالعلماء والأشخاص الذين يتحدث عنهم، ولكن نرى أن جهدَه هذا إنما يقوم سنداً لعمله الدعويّ ولفكره الإسلاميّ، يخدمُه ويعاضدهُ،و هو يشير إلى ذلك عندما يقول: «وهي مجموعة مقالات في التراجم - يتعرف بها القراء على تراجم هؤلاء الفضلاء والعاملين لرفع شأن الإسلام والمسلمين والمربين الكبار وقادة أكبر الحركات الإسلامية في عصرهم، ويترحمون عليهم، ويدعون

لهم، ويتعلمون منهم الكثير من الإخلاص والأخلاق، وعلوّ الهمة، والاهتمام بالأمّة..».

ولو كان هدفه الترجمة لذاتها، لترجم للنبهاء، والخاملين، والمشهورين والمغمورين وكبار العلماء ومتوسطيهم والصوفية والفقراء، ولكن الترجمة عنده تشكّل عنصراً مهماً داخل قضية من القضايا الفكرية أو الدينية أو الاجتماعية التي تشغل الأمة الإسلامية.

ليس من الميسور أن نجد عند المشتغلين بأدب التراجم الآن حفاظاً صرفاً على النمط التقليدي الذي كان عليه منذ قرون، لأن هذا الفنّ أصبح محكوماً بروح العصر الذي نعيش فيه، ولهذا انتشر عمل المعاجم، والموسوعات العلمية، ودوائر المعارف العالمية.

ولكن مع ذلك يبقى لهذا الفن أهميته وأصالته، وتَشبّثَ كثيرٌ من الكتّاب بأساليبه، والعملِ على بعثه من جديد- كما هو الشأن بالنسبة لأبي الحسن الندويّ - وإن في حلّة جديدة، وغرضٍ جديد- نظراً للفوائد الأدبية والمقاصد التعليمية والتربوية التي ظلَّ يحملها عبر القرون، وقد كان في فترة من الفترات هو الأسلوب السائد في كتابات القدماء، يستوعب جلّ العلوم والآداب، ويضم ذخائر التراث، وهو إلى الآن المورد الأساسي الذي يرجع إليه الباحثون والدارسون.

إن المؤلف لا يقتفي أثر القدامى عند تقديم عناصر الترجمة، وإنما يستثمر العناصر الجديدة التي تتسع لفكرته وتخدم هدفه الذي يريد أن يصل إليه، ويجعلها ملائمةً لفكرة القارئ مفيدةً لذهنه، محوّلة لسلوكه، عاملة - بالتالي، على خدمة المُثُلِ العليا والمصالح الكُبرى للإسلام فهو لا يركز على اسم المترجم له، وأصله ونسبه، ومشايخه وتلاميذه، وكتبه، وشعره ونثره - يحيث ترد هذه المعلومات أحياناً، أو لا ترد بكثير من التفصيل - وإنما يشتغل

أكثر بشخصيته الدينية والعلمية، وبأخلاقه وصفاته، ومركزه الإشعاعي في مجتمعه، ومقدار أعماله ومآثره، وتضحياته وجهاده في سبيل الإسلام، فيحلل هذه العناصر تحليلاً ضافياً يجعل القارئ يزداد حبّاً بهذا الشخص، وعرفاناً بخدمته للإسلام والمسلمين، واعترافاً بدوره ومنزلته في المجتمع. ثم يربط ذلك بأحداث العصر وقضايا الأمة الإسلاميّة التي ينجذب إليها القارئ والمتتبع، ويصوّر تأثر المترجمَ له وتأثيره في هذه الأحداث والقضايا، ليصبح بعد ذلك قدوةً يُتَّبَعُ ونبراساً يُحْتَذَى. ولذلك نعتبر أن أدب الترجمة عند- الندوي - ليس موجّهاً للمتخصصيّن في هذا المجال يعودون إليه عند الحاجة أو عند البحث في حياة الأشخاص، وإنما هو أكثر من ذلك موجّه إلى الفئات المهتمة بشؤون الإسلام والمسلمين، والشخص المترجَم له هنا من العلماء أو الرواد أو المجددين في القديم وفي الحديث لا يقدَّمُ كشخص يُعرف به لمجرد التعريف، أو الاطلاع على مآثره الأدبية والعلمية بقدر ما يقدم كموضوع أنموذج للمعرفة، ومجال واسع للتعلّم والتربية، ومدرسة في العمل من أجل الإسلام والدعوة إلى الله.

إن القدرة التي منحها أبو الحسن الندويُّ على النظر الثاقب، والوصف الدقيق، تجعله يكتب ترجمةً للأشخاص الذين عاصرهم وعاش إلى جانبهم، أو سيرةً عن الأعلام والمصلحين الذين يُقتَدَى بهم، فيقدّم عنهم صوراً دقيقة عن البنية الجسدية، والهيئة النفسية والمكانية العلمية، وينظر إلى هذه المساحات نظرةَ الخبير العارف، ورؤية عالم النفس المقتدر، وفراسة المؤمن المتمكّن، فيبسط أمامَ القارئ هذه الصفات السمحةَ والأخلاقَ الكريمةَ، والهممَ العاليةَ،والأعمال الجليلةَ، والتضحيات العظيمةَ، مما يتّصف به المترجَمُ له، ويحبِّبُه الكاتبُ إلى القارئ الذي لا يملك إلاّ أن تسمو نفسُه، ويعتزَّ بنسبه إلى الإسلام ورجاله، ويصبحَ عضواً عاملاً وفعالاً في حقل الدعوة، وإنه أسلوب قويم في التربية نستخلصه من دروس الندويّ في الترجمة.

وإذا كنّا نعتبر كتاب: شخصيات وكتب نموذجاً لعمل التراجم وكتاب: رجال الفكر والدعوة نموذجاً للتراجم والسيرة في آن واحد، فلا بدّ أن ننظر في بعض التراجم والسير في هذين النموذجين. فالدارس لترجمة الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي[١]، أو شيخ الحديث محمد زكريا الكاندهلوي[٢]، يسترعيه الوصف الدقيق للجوانب الخَلقية والخُلُقية للمترجَم له، والترتيب المتدرج لذكر تاريخ الميلاد والنسب والشيوخ والمنزلة العلمية، والجهاد في سبيل الدعوة وتاريخ الوفاة، ويستهويه من جانب آخر التركيز على جانب الدعوة، والبحث عن الطريق الملائمة للجهاد في سبيلها، وهذا الأسلوب يذكرنا بطريقة لسان الدين بن الخطيب في الترجمة عندما يقدّم صوراً عن أساتذته أو تلاميذه، ومن هم حوله من الأشخاص بتلك النظرة الثاقبة والوصف المتناهي في الدِّقَّة حتى لا يكاد يمحى من الذاكرة.

ولكن الندويّ لا يلتزم دائماً بترتيب العناصر المؤلفة للترجمة في سائر تراجمه، فعندما يتحدث عن مولانا حسين أحمد المدني [٣] أو سيد سليمان الندوي [٤] يخرج عمّا رأيناه في الترجمة الأولى، ويصبح القارئ أمام نسيج من الحديث عن الذكريات المرتبطة بالمترجم له وعن الأعمال التي قام بها في مجال السياسة أو في مجال الدرس والدعوة، ويكتفي ببعض الإشارات المقتضبة من الأوصاف الجسدية التي يوردها في آخر الترجمة. و هذا ينسحب على معظم تراجم الكتاب. وهو الأمر الذي يشجعنا على إثبات الرأي الذي ذهبنا إليه، وهو تقديم المترجَم له في صورة أنموذج للعمل الدعوي أكثر من تقديمه في صورة ورقة تعريف.

(١) انظر: شخصيات وكتب ص١٥ .

(٢) انظر: شخصيات وكتب ص٤١.

(٣) نفسه. ص٢٣.

(٤) نفسه. ص٥٥.

وعندما يترجم لأخيه السيد عبدالعلي الحسني يقدمه في صورة حدث عظيم هزّ أرجاء العالم الإسلامي، وهزّ مشاعر المؤلف الذي ينقل هذا الإحساس إلى نفس القارئ ويشعره بأهمية الحدث. يقول مثلاً: «في اليوم الحادي والعشرين من ذي القعدة عام ١٣٨٥هـ (السابع من شهر أيار مايو ١٩٦١) فقدنا علماً من أعلام العالم الإسلامي ونادرة من نوادر الأيام في الجمع بين الثقافتين الشرقية والغربية ومحاسن القديم والجديد»(١).

وبعد ذلك يعرف به تعريفاً شاملاً ويذكر مشاهير أسرته، وما اشتهرت به في مجال العلم والمعرفة، ثم يتحدث عن نشأته وعن مسيرته العلمية، والدرجات التي نالها وحظي بها، والأعمال الجليلة التي قام بها في حياته العملية.

ومثل هذا التأثير يوقعه المؤلف في ذهن القارئ وهو يحدثه عن ترجمة الدكتور مصطفى السباعي عندما يقول: «مات مصطفى السباعي.. بهذه الكلمات فوجئنا أمس إثر إحدى جلسات مجلس إدارة المركز الإسلامي في جنيف.. ولكن هل درى الناعي وهل شعر الناس بما وراء هذا الحادث من معان وتأثير في المجتمع الإسلامي وفي آفاق العلم، والدعوة والجهاد؟»(٢).

إن اختيار أبي الحسن الندويّ لهؤلاء الرموز من رجال الفكر والدعوة الذين نذروا أنفسهم لخدمة الدِّين وإعلاء كلمة المسلمين من أصحاب التأثير العلميّ والدينيّ، والأخلاقيّ - رغم وجود الفوارق الزمانية والمكانية بينهم - يدخل في نطاق البحث عن أساليب وتجديد الدعوة الإسلامية، ووضع السبل لهذه الحركة التجديدية ومحاولة دفعها إلى الأمام لمقاومة التيار الماديّ الغربيّ الذي يعصف بالدول والمجتمعات الإسلامية.

---

(١) نفسه: ص٦٣.
(٢) شخصيات وكتب. ص١١٣.

ولذلك يرى المؤلف أن «خير وسيلة لإشعال المواهب وإثارة الروح وتقويم الأخلاق والعزم على مكافحة البيئة الموبوءة والمجتمع الفاسد، والتسامي لمعالي الأمور هي سِيَرُ عظماء الرجال، وزعماء الإصلاح والتجديد، والربانيين والصديقين..» (١).

فلقد كان عمر بن عبد العزيز أعدلَ أميرٍ للمسلمين وأصفاهم سريرةً في تاريخ الإسلام بعد الخلفاء الراشدين إلى الآن، ومن حقِّ الندويّ أن يجعل منه قدوةً وزعيماً للإصلاح والتجديد في القرن الأول. وطبقت شهرةُ الإمام الغزالي الآفاقَ، فكان متكلماً وناقداً للفلسفة، ومصلحاً اجتماعياً كبيراً، وكان العلماء المسلمون في الهند ممن ترجم لهم المؤلف من كبار رجال الدعوة والعزيمة والجهاد في تاريخ الإسلام، وكان الشهيد حسن البنا وسيد قطب من أكبر الداعين المصلحين في الشرق العربي الذين قاوموا فساد السلطة وفساد الأخلاق، وأحدثوا في المجتمع الإسلامي ثورة إصلاحيّة تجديديّة.

وعندما يكتب الندويّ ترجمةً لعمرَ بن عبد العزيز، بله جزءاً من سيرته، لا يلتفت كثيراً إلى عناصر الترجمة المعهودة عند المترجمين، وإنما يعنى بالجوانب الأخرى التي تتصل بمواقفه الرائدة في إصلاح نظام الحكم وإخضاعه للتشريع الإسلاميّ، عوض قوانين الفرس والروم، ويذكِّرُ بأخلاقه الإسلامية النبيلة التي كان عليها الخلفاء الراشدون والسلف الصالح من القناعة والاقتصاد وإشاعة الفضل بين طبقات الأمة، والتي تعدّ مرجعاً زاخراً للمُثُلِ العليا.

وفي ترجمة أحمد بن حنبل مهدّ بالحديث عن المعتزلة وآرائهم، ومسألة خلق القرآن، وحَمْلِ الرعيةِ على الاعتقاد بذلك، بتعضيد من المأمون ملك الامبراطورية العباسية، وما تعرض له الناس من امتحان حول هذه المسألة

(١) رجال الفكر والدعوة في الإسلام ص: ٦.

الكلامية بما في ذلك الفقهاء والقضاة وعامّة الشعب. وفي ظلّ هذه الأزمة أو المحنة كان لابدَّ من إيجاد مخرج من المأزق، وظهور مرشد يوجّه المسلمين إلى الطريق الحقِّ، ويدافع عن السنّة وينصر الملَّةَ، فكان ظهور أحمد بن حنبل- وهكذا ترد ترجمته في سياق قضية كبرى من قضايا الفكر الإسلامي، وهي قضية خلق القرآن وما نتج عنها من محن. ثم انتصار الفكر السّنّي المعتدل على المذهب الفلسفي في النهاية.

وجاءت ترجمة أبي الحسن الأشعريّ في طيّ قضية أخرى هي التحوّل الهائل الذي حصل في عقيدته الاعتزالية بعد اعتناق دام أربعين سنة، وتبنِّيه لمذهب أهل السّنّة، وما نتج بعد ذلك من تغيير في المواقف في علم الكلام، وكان بمثابة تركيز للسّنّة المحمدية الأصيلة، ودفع لكلِّ ما هو خارج عنها.

ويستعرض الندويّ-في ترجمته للإمام الغزالي قضيةً تهم التحولّ الذي حصل في شخصيَّته عندما حاول البحثَ عن العلم اليقينيّ، وتحوّل من عيش الرفاه والشهرة والجاه إلى حياة الغرباء والفقراء، وهو يعاني ذلك الصراع النفسيّ ويبحث عن حقيقة الفطرة السليمة [١]. وقد كان هذا الصراع في الواقع انعكاساً للخلل الحاصل في المجتمع الإسلاميّ الذي كان يبحث عن الإصلاح والعودة إلى المنبع الصافي. وللقارئ أن يستنبط من هذه الترجمة إشارات المؤلف إلى صفاء الإسلام من الشوائب التي علقت بسائر العلوم التي حصلها الغزاليّ مثل علم الكلام والفلسفة، وعلوم الباطنية ومذهب التصوف. وقد تحقّق ذلك لدى الغزاليّ، ولذلك عمل الندويّ على تقديم هذه الشخصيّة الإسلاميّة الكبيرة إلى القراء كشخصيّة لها دورُها في تاريخ الإصلاح والتجديد، وأدى الغزاليّ رسالتَه كعالم وناقد ومصلح ومتعلم وداعٍ [٢].

(١) رجال الفكر والدعوة ص١٨٢.
(٢) نفسه ص٢٠٥.

إن نظرة أبي الحسن الندويّ إلى قضايا الإسلام من خلال تراجمه للأعلام والمصلحين، نظرةٌ شموليّة من حيث المكان والزمان، فهو يترجم لعمرَ ابن عبد العزيز في القرن الأول الهجريّ المتوفى سنة ١٠١ للهجرة، كما يترجم للدكتور مصطفى السباعي في القرن العشرين الميلادي المتوفى عام ١٩٦٩م. فهو لا يلتزم بالتسلسل التاريخي، ولا يميّز قطراً إسلامياً دون قطر آخر. كما أن تراجمه تمتد عبر مساحة العالم الإسلامي كلها من شبه القارة الهندية إلى الأقطار العربية في مصر والشام وفلسطين والأقطار الإسلامية الأخرى، حيث ينقل من جانب إلى قراء العربية مآثر العلماء المسلمين في الهند وتضحياتهم في سبيل الإسلام، وينقل من جانب آخر إلى الهند أخبار المصلحين والرواد في العالم العربي. ولقد كان من الصعب أن يتعرف العربُ والمسلمون بشكل عامّ على هذه الجماعات والأسر الهندية المسلمة التي نبغت في اللغة العربية، لولا تراجمه لأعلام الهند وصلحائها.

وإذا كان المصنفون القدامى يضعون شرطاً أو شروطاً يتقيدون بها عند تصنيف التراجم، كأن يلتزموا بتقديم مترجميهم بارتباط مع أحداث الحوليات، أو بتحديد تاريخ البدء والنهاية، كأن يبدأ أحدهم حيث ينتهي الآخرُ فيما كان يسمى بالصلات وصلات الصلات والذيول، أو يلتزم بالترجمة لطبقة دون أخرى أو يشترطون دخول البلد كما نجد في شرط ابن عبد الملك وهو دخول قرطبة، أو لسان الدين وهو دخول غرناطة، أو ما إلى ذلك، فإن شرط أبي الحسن الندويّ - وهو شرط لم يصرح به - وإنما نستنبطه من قراءتنا لأسلوب تراجمه، هو الاشتراك في عمل الدعوة الإسلامية والانخراط في حركة الإصلاح والتجديد.

وتختلف طريقة الندوي عن طرق القدامى أيضاً من حيث أسلوبُ الكتابة، بحيث يتميّز بسهولة الألفاظ ووضوح المعاني، والمتعة في القراءة، والاستفادة

من المعلومات الكثيرة الواردة ضمن القضايا التي يتعرض لها ويناقشها، بعيداً عن أساليب السجع والتأنق اللفظي، فينقل القارئَ عبر مناطق العالم الإسلاميّ وأقطاره ومدنه، ويحدثه في جولات سياحية مختلفة عن أخبار المسلمين وقضاياهم ومشاكلهم وآمالهم وأعمال رجالهم، ويحبِّب إليه صورَ الإيمان، وصفاء الخُلُق والثبات على المبدأ والتضحية في سبيله، ويجعله يعيش متعةً روحيةً من خلال حياة الأشخاص الذين يترجم لهم بطريقة تنفذ إلى أعماق النفس، وتؤثر في الوجدان، مما يدل على تمكنه من مادته، وأخذه بناصية اللغة التي يكتب بها.

ثم إنه لا يهتم بكل الأحداث والأخبار، غثّها وسمينها، مما يعتبر خليطاً من العلوم العقلية والنقلية والطرف والفكاهات، والألغاز والأساطير والغرائب، التي نعثر عليها في كتب التراجم، وإنما يختار الأحداثَ الهادفةَ والمناقشات الجديةَ والمعاركَ الفكريةَ والعقديةَ، بمثل ما ينتقي الأشخاص ذوي القدرة على التأثير والمنفعة العامّة، وهذا الانتقاء هو الذي دفعنا إلى القولِ بارتباط التراجم بأدب الدعوة.



خاتمة

وأخيراً: إلى أيِّ حد يمكن أن نعتبرَ ما كتبه الندويّ راجعاً إلى أدب التراجم؟ هل لا بدَّ للمؤلف في هذا الباب أن يكون له مصنَّف أو عدة مصنّفات على غرار وفيات الأعيان، أو الدرر الكامنة، أو الذيل والتكملة، أو الإحاطة..؟

إننا نعتقد أن المفهوم الواسعَ لأدب التراجم يجعله يستوعب كلَّ الكتابات، التي تلتزم بالترجمة للأشخاصِ رغم اختلاف العناصر، وتباينِ الأهداف والمقاصد، وإن كنّا نقرّ بضرورة الفصلِ بين الترجمة، والسيرة، والمعجم، والسيرة الذاتية فصلاً منهجيّاً، كما أنَّه لا بُدَّ من الاعتراف بوجود أواصر وقرابة بين عناصر هذه الفنون جميعاً. فقد نطلق لفظَ الترجمة على بضعة أسطر ترد عن شخص مغمور في كتاب الدرر الكامنة، أو الكتيبة الكامنة للسان الدين بن الخطيب. كما نطلقه تجاوزا على كتاب مؤلف من عدة مجلدات «كنفح الطيب» الذي وضعه أحمد المقري في أخبار لسان الدين بن الخطيب، أو أزهار الرياض الذي يتحدث فيه عن أخبار القاضي عياض.

ولأسرة الندوي كتاب في التراجم من قبيل هذه المصنفات التي أشرنا إليها، يعتز به المؤلف كثيراً، وهو «نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر» في ثماني مجلدات، يسير فيه صاحبه على طريقة الأقدمين. وللندوي تراجم كثيرة في الكتب والمؤلفات التي ألفها بالأردية والعربية وكذا في شتى المقالات والمجلات المختلفة أشار إليها في كتابه: «شخصيات وكتب» وقد تجمع هذه التراجم كلها، فتشكل مصنّفاً من هذا النوع.

والذي نسجله باطمئنان هو أن الشيخ أبا الحسن الندويّ خاض في فنّ التراجم والسير، وأدلى فيه بدلوه، وكتب فيه بطريقته، وجعله يستجيب للأهداف النبيلة والأغراض السامية التي حاولنا استخلاصها - حسب فهمنا المتواضع - من منهجه وأسلوبه. والله تعالى أعلم.



المصادر والمراجع

١- الإحاطة في أخبار غرناطة: لسان الدين بن الخطيب، تحقيق: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي - القاهرة ١٩٧٤.

٢- إذا هبّت ريح الإيمان: أبو الحسن الندوي.

٣- الأعلام: خير الدين الزركلي. دار العلم للملايين، بيروت١٩٧٩.

٤- التراجم والسير: محمد عبد الغني حسن، دار المعارف.

٥- حركة التأليف عند العرب: أمجد الطرابلسي.

٦- الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة: ابن حجر العسقلاني. دار الجليل. بيروت.

٧- الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة: ابن عبد الملك المراكشي. تحقيق محمد ابن شريفة.

٨- رجال الفكر والدعوة في الإسلام ٢،١: أبو الحسن الندوي. دار القلم. الكويت.

٩- السيرة النبوية. منشورات المكتبة العصرية. بيروت ١٩٧٩.

١٠- شخصيات وكتب: أبو الحسن الندوي، دار القلم، دمشق.

١١- الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية: أبو الحسن الندوي، دار القلم. الكويت.

١٢- في مسيرة الحياة ٢،١، أبو الحسن الندوي، دار القلم، دمشق.

١٣- كشف الظنون: حاجي خليفة. مكتبة المثنى، بغداد.

١٤- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين: أبو الحسن الندوي، دار المعارف.

١٥- المغرب في حلى المغرب: ابن سعيد المغربي- تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف ١٩٧٨.

١٦- وفيات الأعيان، ابن خلكان، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت.

البحث الرابع عشر

منهج سماحة الشيخ

أبي الحسن علي الندوي للدعوة

الدكتور محمد اجتباء الندوي (*)



(*) الدكتور محمد اجتباء الندوي، أستاذ ورئيس قسم اللغة العربية والفارسية بجامعة الله أباد بالهند سابقاً، ورئيس المركز العلمي - بنيودلهي - الهند.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم ودعا بدعوتهم إلى يوم الدين، وبعد:

حضرات السادة الأكارم والأساتذة الأفاضل، والإخوة الأعزاء:

سماحة شيخنا الإمام أبي الحسن علي الحسني الندوي حفظه الله تعالى، ينتمي إلى أسرة إسلامية كريمة، مثّلت دوراً تاريخياً مميزاً حيوياً في التاريخ الإسلامي المشرق الوضّاء في الهند، في بثِّ الدعوة والعقيدة والتربية والتزكية، وصُنع رجال وفتيان ونساء وفتيات قاموا بنشر العلم والثقافة، والوعي والفكر والمعرفة، وبرفع علم الجهاد وإنشاء دولة إسلامية قويمة على منهاج النبوة والخلافة الراشدة في شمال غرب الهند [١]، وبالحفاظ على كيان الإسلام وقيمه الدينية والخلقية والاجتماعية، وإرساء أسسها في الهند.

من أبرز أعلام الأسرة الحسنية هذه الشيخ علم الله الحسني جدّ الأسرة، والإمام الشهيد أحمد بن عرفان، والعلامة المؤرخ الشيخ عبد الحي الحسني الرئيس الأسبق لندوة العلماء، وشقيق سماحة شيخنا الدكتور عبد العلي الحسني رئيس ندوة العلماء السابق رحمهم الله جميعاً، وقد ذكر سماحة الشيخ هذا في حياته الشخصية:

«قد بارك الله تعالى في ذرية الأمير قطب الدين [٢]، وتقبلها بقبول حسن، ونفع بها المسلمين، وكثر فيها علماء ومربون، ودعاة إلى الله ومجاهدون في سبيل الله، تبنوا الدعوة الإسلامية، وقادوا الحركات الدينية في أزمان مختلفة، كان أشهرهم في القرن الحادي عشر الهجري العارف الكبير والمربي العظيم السيد علم الله بن السيد فضيل الحسني (١٠٩٦هـ) مؤسس الأسرة

(١) كان قائدهم الإمام الشهيد أحمد بن عرفان رحمه الله.

(٢) أول من جاء إلى الهند من هذه الأسرة، راجع للتفصيل كتاب سماحة الشيخ : الإمام الذي لم يوف حقه ، وإذا هبت ريح الإيمان.

الحسنية ومنشئ المركز الديني التربوي الكبير في «راي بريلي» في آخر القرن الحادي عشر الهجري، التي لا تزال موطن هذه الأسرة الرئيسي الأكبر في شبه القارة الهندية، وكثر في ذريته العلماء والمربون الذين دعوا إلى العقيدة الصحيحة، والتمسك بالسنّة السنيّة، والربانية الصافية، وإعلاء كلمة الله. وإدالة الدين والمسلمين من القوات المحاربة للإسلام والشريعة المطهرة» [١].

ولد سماحة الشيخ الندوي ونشأ في هذه الأسرة الكريمة، التي احتفظت بتقاليدها وتمسكت برسالتها التي أتت بها من مهد الإسلام ومركزه، وترعرع بين أحضان أبوين نبيلين متّسمين بسمات الدين والعلم والوعي الفكري والتربوي، والدعوة إلى الله، فأصغت أذناه منذ صباه، ونعومة أظفاره إلى تلاوة القرآن الكريم، وأحاديث الرسول وسيرته الطاهرة، وغزواته ﷺ، وترجمة فتوح الشام (صمصام الإسلام) [٢] ويقول أيضاً:

«يطلعنا تاريخ الأسرة القديم والمعاصر على حقيقة لها شأنها، وهي أن هذه الأسرة منذ قدومها إلى الهند (وقد تم ذلك بورود الأمير السيد قطب الدين محمد المدني مؤسس هذه الأسرة في الهند في أوائل القرن السابع الهجري كما مر) إلى عهدنا هذا، لم تزل متمسكة بعقيدة التوحيد الخالص، بعيدة عن الأعمال الشركية، متجنبة للبدع والمحدثات، مصونة من تأثير العقائد الشيعية. وكانت الدعوة إلى التوحيد واتباع السنة المطهرة شعارها الدائم وميزتها البارزة» [٣].

وهكذا كانت الأسرة قائمة منذ القدم على التمسك بالدين، والدعوة إلى الله والتحمس لها، والنهل من مناهل العلم ومنابع الثقافة والمعرفة، فتقوم بالتأليف وإصدار كتب ورسائل تهتم بالعلم ونشر الدين والدعوة:

---

(١) في مسيرة الحياة ج١ ص ٣٤ .

(٢) في مسيرة الحياة ج١ ص ٧٢-٧٣ .

(٣) في مسيرة الحياة ج١ ص ٣٤.

«ولم تزل أسرتنا أسرة العلماء والمؤلفين، فقد كان الوالد من كبار المؤلفين في عصره، وللبيئة والوراثة تأثير كبير لا ينكر، ولا يزال ينتقل هذا التأثير من جيل إلى جيل، ويطبع الصغار والكبار والبنينْ والبنات بطابعه في قليل أو كثير، فكان الطابع الوراثي، وذوق الوالد وانهماكه في الكتب كغاشية أو سحابة تغشى المحيط المنزلي وتظلل على الأسرة كلها، وقد تجاوز هذا التذوق إلى الحب الشديد للقراءة وإدمانها، بل إلى حد أن أصبح هواية، فما أن وقع بصرنا على كتاب مطبوع إلا تلقفناه وأتينا عليه قراءة ومطالعة، وكل ما يقع بأيدينا من النقود لمصروفاتنا الصغيرة، أو إذا زرنا أحد الأقرباء وأهدى إلينا عند عودته شيئاً من الروبيات -كما كانت العادة في الأسرة إذ ذاك- فكان أحب مصرف لدينا لهذه النقود شراء الكتب»[1].

وقد نوّه الشيخ بدور أسرته في تربيته، فقال في سيرة حياته:

«كنت لتأثيرات الأسرة والبيئة والانتماء إلى مدرسة السيد الإمام أحمد ابن عرفان الشهيد رزقت حظاً لا بأس به من الغيرة الدينية والحميّة الإسلامية، وقد رسخ في نفسي -نظرياً وإن لم يكن عملياً- وأصبح جزءاً من عقلي وضميري أن التكبير المدوي في الآفاق، والنضال العملي لإعلاء كلمة الله، أفضل من كثير من نوافل الطاعات الصامتة، والتسبيح والابتهالات الشخصية في عزلة عن واقع الأمة»[2].

وهكذا نشأ شيخنا على حب الدعوة متسلحاً بالعلم والمعرفة القويمة الصحيحة وفيه يقول فضيلة الدكتور يوسف القرضاوي: «العالم الرباني الإسلامي المحمدي العالمي»[3] ثم أوضح كل لفظ من الألفاظ الخمسة

(١) المصدر السابق ص ٥٦.

(٢) في مسيرة الحياة ج١ ص ١٥٩-١٦٠.

(٣) قيمة الأمة الإسلامية بين الأمم ص ٢٥-٢٨ .

بتفصيل، فأحسن وأجاد. وكان شيخنا داعية في كل ميدان من ميادين الحياة، سواء كان معلماً في دار العلوم لندوة العلماء يدرس التفسير والتاريخ والأدب، أم كان كاتباً ورئيس تحرير مجلة وصحيفة، أو مؤلفاً لكتب ورسائل تربو على مائتين، أو سائحاً في الشرق الأوسط والبلاد الإسلامية والعالم بأسره، أو عضواً مؤسساً للمجلس التنفيذي للرابطة أو الجامعات أو مشاركاً في المؤتمرات والندوات الإسلامية والعلمية والأدبية، أو داعياً إلى إنشاء رابطة عالمية للأدب الإسلامي، فهو داعية واعٍ حكيم محنك في كل هذه المجالات، يتقد فكره علماً وثقافة وحضارة، ويتحرق قلبه حزناً وأسى على ما صار إليه المسلمون من حالة يرثى لها، فخسر العالم بانحطاطهم وذلهم وخذلانهم، وجعل واجبهم المقدس وتراثهم العظيم الضخم مهجوراً، ويستضيء في كل لحظة من لحظات دعوته بالقرآن الكريم، وبنور رسالة محمد ﷺ، ويؤمن بقوة، ويدعو بقوة إلى التمسك بالإسلام، والإيمان بالله والإيمان بالنبي الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم، ويدعو الناس جميعاً والعالم العربي بخاصة فيقول:

«فالإسلام هو قومية العالم العربي، ومحمد هو روح العالم العربي وإمامه وقائده، والإيمان هو قوة العالم العربي التي حارب بها العالم البشري كله، فانتصر عليه، وهو قوته وسلاحه اليوم كما كان بالأمس، به يقهر أعداءه، ويحفظ كيانه، ويؤدي رسالته، إن العالم العربي لا يستطيع أن يحارب الصهيونية أو الشيوعية أو عدواً آخر بالمال الذي ترضخه بريطانيا، أو تتصدق به أمريكا، أو تعطيه مقابل ما تأخذ من أرضه من الذهب الأسود، إنما يحارب عدوه بالإيمان والقوة المعنوية، وبالروح التي حارب بها الدولة الرومية والإمبراطورية الفارسية في ساعة واحدة فانتصر عليهما جميعاً، إنه لا يستطيع أن يحارب أعداءه بقلب يحب الحياة ويكره الموت، وبجسم يميل إلى

الدّعه والراحة، وعقل يخامره الشك، وتتنازع فيه الأفكار والأهواء، أو بيد مضطربة وقلب متشكك ضعيف الإيمان، وقوة متخاذلة في الميدان» [١].

وفي ضوء هذه الدراسات والتجارب والممارسات والأفكار النيّرة الصافية الشفافة وضع منهجاً أفضل للدعوة والإصلاح بحكمة وحنكة ومعرفة وعلم، واختار أسلوبين: الخطب والمحاضرات في الأوساط العلمية والعامة، والكتابة والتأليف وتحرير الكتب والرسائل [٢]، وكان شعار دعوته «إلى الإسلام من جديد» فخاطب عقول الرجال والنساء والأطفال، وشحن قلوبهم بنور العقيدة وجذوة الإيمان، وابتكر ضرب أمثلة وتقديم نماذج للدعوة، فوجه الأنظار والقلوب، ولتربيتها تربية قويمة، وتوعيتها توعية ناضجة قام بإلقاء أضواء ساطعة على العقيدة والعبادة والسلوك، والتاريخ والأدب، والبيان ببراهين من الكتاب والسنّة والسيرة النبوية وحياة الصحابة رضي الله عنهم، ونماذج عملية رائعة من دعوة أعلام ورجال الفكر والدعوة في الإسلام، وتمثلت حياته وسيرته هو قدوة صالحة لما يدعو إليه ولمن يوجه الدعوة، وكان منهج الدعوة مقتبساً من القرآن الكريم، ثم من الحديث ومن السيرة النبوية، ومن ربّاهم النبي الكريم ﷺ كما ذكرنا. يقول سماحته عن الدعوة:

«أمّا الدعوة فأمرها بعيد وساحتها واسعة جداً، ولها مساحة زمانية، ومساحة مكانية، وكلتاهما واسعتان، أما المساحة الزمانية فهي تمتد من مصدر الدعوة - إذا كان نبياً، وإذا كان مؤسس دعوة كبيرة إلى ما لا نهاية له ، كذلك لها مساحة مكانية واسعة، فقد يكون الداعي في الشرق وقد يكون في الغرب، وقد ينتقل الداعي من الشرق إلى الغرب، فإذا كان قد تمرن على طبيعة الشرق فإنه لا يستطيع أن يقوم بمهمته في الغرب» [١].

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين (الطبعة السابعة) ص ٢٨٠-٢٨١.

(٢) مقدمة «روائع من أدب الدعوة» لفضيلة الأستاذ محمد الرابع الحسني الندوي ص٦-٧ .

(٣) المصدر السابق ص ١٣.

سار سماحة الشيخ على هذا المنهج في الدعوة، وسلك طريق الأنبياء وبخاصة أسلوب سيدنا إبراهيم وموسى ويوسف عليهم السلام، وسيدنا محمد النبي العربي الكريم ﷺ، واصطنع لنفسه نماذج من دعوتهم في حياته واختار أسلوبهم ومنهج دعوتهم فقد قال عن القرآن الكريم:

«إن القرآن هو كتاب هداية ودعوة قبل أن يكون كتاب أحكام وشريعة -مع إجلالنا وتقديرنا للأحكام والشريعة- إن الأحكام والشريعة لا غنى عنها، ولكن القضية، قضية الأولية، قضية الطابع الغالب، وقضية الغاية التي يدور حولها القرآن، فأنا أعتقد - في ضوء دراستي القاصرة المحدودة- أن القرآن هو كتاب هداية ودعوة قبل أن يكون كتاب أحكام وشريعة، لأن الهداية هي الأساس للإيمان والدعوة هي الأساس لنقل هذا الإيمان، فإذا كان هذا هو الشأن، فلا شكّ في أن القرآن هو كتاب هداية ودعوة قبل أن يكون كتاب شيء آخر» .

وتساءل سماحة الشيخ حفظه الله: «هل هناك قوانين مرسومة وأحكام مضبوطة للدعوة؟» وأجاب بنفسه:

«إنني أعتقد أن الدعوة لا يمكن أن تخضع لقوانين مرسومة وأحكام مضبوطة، لأن الدعوة تعتمد على المحيط، وعلى الظروف، وعلى البيئة، وعلى الجو والملابسات».

ولكن يجب أن يكون الداعية حكيماً واعياً مدركاً للظروف والأحوال والواقع، وذكر حكاية لطيفة للسيد وخادمه الذي وضع له قائمة لأعماله، فوقع في أزمة كادت أن تأتي عليه. وتمثّل بشعر عربي في هذا الصدد:

إذا كنت في حاجة مرسلاً فأرسل حكيماً ولا توصه

ثم يقول:

«فكان من إعجاز القرآن أنه لم يتعرض لأحكام تفصيلية في موضوع الدعوة، وإنما وكلها إلى العقل السليم، وإلى الذوق المستقيم، وإلى العقيدة الراسخة، والفكرة المتغلغلة في الأحشاء، ثم حاطها بسياج واسع، هو السياج الوحيد الذي يستطيع أن يحيط بالدعوة وهو قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[1] تشعرون بمدى أبعاد الإطلاق الذي جاء في هذه الآية، وأبعاد التقييد الذي جاء فيها» ويذكر بعد أن يفسر هذه الآية تفسيراً بيناً:

«وقد جاءت هذه الآية في سياق الآيات التي تتحدث عن أكبر داع من الأنبياء قبل الرسول ﷺ، وهو سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام وقال:

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [2].

ثم يقول: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ فلهذه الآية صلة خاصة بدعوة سيدنا إبراهيم، هنالك خيط يربط بين سيدنا إبراهيم وبين أمر الدعوة، إن ورود هذه الآية في سياق الحديث عن سيدنا إبراهيم يدل على أن سيدنا إبراهيم، كان آخذاً بهذا الطريق، ملتزماً لهذا الأدب وكانت دعوته مؤسسة على الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن» [3].

ولم يكتف سماحة شيخنا الكريم في نهج دعوته بنماذج مؤثرة بديعة من سير أربعة من كبار الرسل عليهم السلام، بل عرض مثالاً آخر من القرآن

(١) سورة النحل الآية ١٢٥.
(٢) سورة النحل الآيات ١٢٠-١٢٣.
(٣) روائع من أدب الدعوة ص١٦.

الكريم هو مؤمن من آل فرعون: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾ [(١)]. وعرض نموذج دعوة سيدنا جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه صاحب رسول الله ﷺ وابن عمه، بين يدي النجاشي في الحبشة بكلام رائع بليغ ثم قال:

«يبدو للقارئ الذي يقرأ ما أجاب به جعفر في مجلس النجاشي لأول وهلة أنه حديث بسيط مرتجل، تحدث به جعفر، ولا يتوقع من عربي نشأ في محيط ضيق منعزل عن العالم، بعيد عن الثقافة والأساليب السياسية، أكثر من ذلك.

ولكنه كلام حكيم قد جاء في أوانه ومكانه، وقد دل على بلاغة صاحبه العقلية، قبل أن يدل على بلاغته العربية البيانية، ولا يعلل ذلك إلا بإلهام من الله، وتأييد هذا الدين الذي أراد الله أن يتم نوره، وأن يظهر على كل دين، ويدل على سلامة الفطرة، ورجاحة العقل اللتين فاق فيهما بنو هاشم قريشاً، وفاقت فيهما قريش العرب كلهم، فقد فضل جعفر أن يكون جوابه حكاية حال لما كان عليه أهل الجاهلية في الجزيرة العربية، ولما آل إليه أمرهم بعدما أرسل الله رسوله فيهم، ودعا إلى الله وإلى الدين الحنيفي السمح، ومكارم الأخلاق، وآمنوا به واتبعوه، وحكاية حال - خصوصاً إذا لم يجانب فيه صاحبها الصواب - أبعد شيء عن المناقشة والمناظرة، وأقدر شيء على غرس المعاني المقصودة، وتحقيق الأهداف المنشودة، والتهيؤ للتأمل والإنصاف، وحسن الاستماع» [(٢)]. عرض القرآن الكريم نماذج للدعوة لغير الأنبياء كي لا يتطرق إلى العقول ويتسرب إلى القلوب بأننا «كيف نقلدهم وكيف نستطيع أن نترسم خطاهم، فعرض القرآن نموذجاً لإنسان لم يكن نبياً».

وأتى سماحة الشيخ حفظه الله بنموذج للدعوة ابتكر عرضه، وأبدع في تمثيله، وركّز عليه تركيزاً قوياً ليصبح خطة للدعاة، ورسماً للمجاهدين والمناضلين،

(١) سورة غافر الآية ٢٨.

(٢) روائع من أدب الدعوة ص١٢٢-١٢٣.

وأسوة للقادة والزعماء، وقدوة للمسلمين، وهو نموذج دعوة سيدنا ربعي بن عامر رضي الله عنه، الذي دعا قائد فارس العظيم إلى الله عزّ وجلّ بقوة الفتيان، وجراءة الأبطال، وفي ذلك يقول فضيلة العلامة الدكتور الشيخ يوسف القرضاوي:

«لقد وجدنا في رسائل الشيخ لغة جديدة، وروحاً جديدة، والتفاتاً إلى أشياء لم نكن نلتفت إليها، إن رسائل الشيخ هي التي لفتت النظر إلى موقف ربعي بن عامر رضي الله عنه بين رستم قائد الفرس وكلماته البليغة له، التي لخصت فلسفة الإسلام في كلمات قلائل، وعبّرت عن أهدافه بوضوح بليغ، وإيجاز رائع: إن الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام. أبو الحسن الندوي -فيما أعلم- هو أول من نبهنا إلى قيمة هذا الموقف، وهذه الكلمات، ثم تناقلها الكاتبون بعد ذلك وانتشرت»[1].

واستطاع الشيخ بعد دراسات وتجارب أن يقدم منهجاً للدعوة يقوم على التركيز على وصول الإيمان إلى الحكام، وتبنيهم لقضية الإسلام، بدل التركيز على وصول جماعة مؤمنة إلى كراسي الحكم [2] ويقول عن ضرورة كون الصحوة الإسلامية إيجابية:

«يجب أن لا تكون هذه الحركة سلبية محضة تسرع إلى مجابهة الحكومات والطاقات ذات القوى والوسائل، وتُحدث لها مشكلات وعراقيل في الخطوة الأولى، فتضيع بذلك كثيراً من طاقاتها وأوقاتها، وتنشىء لها أعداء، وقد نجاهد في غير جهاد وفي غير عدو، بل يجب أن تكون إيجابية أكثر منها سلبية، وتفضل العمل بمبدأ إيصال الإيمان إلى أصحاب الكراسي وحملهم راية الإسلام، وتطبيق النظام الإسلامي بأنفسهم، على مبدأ إيصال أصحاب الإيمان وأعضاء حركة

---

(١) قيمة الأمة الإسلامية بين الأمم ص٣٧.

(٢) نفحات الإيمان ص ١٠.

إصلاحية خاصة إلى الكراسي، واحتكار عمل تطبيق النظام الإسلامي، وقلب أوضاع المجتمع لأفراد جماعة خاصة، ودعاة مخصوصين»[1].

وقد اقتبس سماحة الشيخ هذه الفكرة من تجربة العمل الدعوي للإمام أحمد السرهندي في الهند الناجحة الذي قلب الأوضاع الخطيرة المنذرة بالقضاء على الإسلام، زمن حكم الامبراطور جلال الدين أكبر، إلى أوضاع سليمة مبشرة بالخير والطمأنينة، بحيث اعتلى عرش الطاووس ملك مسلم ملتزم صالح أورنك زيب عالمكير الذي يعتبر (يُعدُّ) سادس الخلفاء الراشدين، فيقول:

«ولم أجد في دراستي لتاريخ الإصلاح والتجديد في الإسلام، مجهوداً تحقق له من النجاح، ومصلحاً تمكن من قلب الأوضاع، وتغيير مجرى التاريخ وإرغامه على أن ينحو نحواً جديداً، مثل ما تحقق للإمام أحمد بن عبد الأحد السرهندي (م١٠٣٤هـ)» وخص له سماحة الشيخ جزءاً مستقلاً في كتابه «رجال الفكر الدعوة في الإسلام» وذكر الدعوة ومنهجه في رسائل عديدة. أذكر بعض المقتطفات من رسائله ليتضح الموقف والمنهج فيقول:

«قد اتجهت حكومة السلطان جلال الدين أكبر في الهند إلى اللادينية والإلحاد اتجاهاً سافراً، وأراد أكبر - وكان من أكبر الملوك الذين عرفتهم الهند وأقواهم- أن يطمس معالم الإسلام وملامحه الواضحة، وميزاته البارزة، بجميع ما عنده من وسائل ومواهب وطاقات، وقد اجتمع عنده جمع من الأذكياء وذوي الكفاءات النادرة يعينونه على هذا الباطل، ولم يكن هناك ضعف، أو هرم في الدولة يشير إلى زوالها، أو يدل على ثورة يتأجج أوارها، وكان العلم والمنطق والقياس الظاهر لم يكن يصدق أنه سيقع هناك تغيير سار أو تحول بارز في الحكومة والشعب، هنالك قيّض الله أحد عباده للإصلاح

(١) ترشيد الصحوة الإسلامية ص٢٥.

والتجديد، فحمل راية الثورة بمفرده، وبدأ في ثورة داخلية بقوة إيمانه ويقينه وعزمه وتوكله، وروحانيته وإخلاصه، حتى أصبح كل وارث للحكم المغولي أحسن من سابقه، ثم تربع أخيراً على هذا العرش السلطان محيي الدين «أورنغ زيب عالمكير» الملك الفاضل الصالح المجاهد المسلم الغيور، الذي يندر نظيره في تاريخ الحكومات الإسلامية، وكان رائد هذه الثورة المباركة إمام الطريقة المجددية الشيخ أحمد السرهندي» [١] ويقول:

«وذلك لإيثاره الإيجابية على السلبية، وإثارة روح الحميّة الإسلامية، وتحريك الإيمان، في المتسلم لزمام الحكومة ومن حوله من الوزراء ورجال البلاط، وإقناعهم بأنه لا يطمح إلى السيطرة والسيادة، بل لا يحلم بذلك في المنام، ولا من حوله من تلاميذه وأبنائه، وإنما يريد أن تكتب لهم السعادة في حماية الإسلام، وتطبيق أحكامه، وحماية البلاد- التي فتحها آباؤهم لبسط سيطرة الإسلام، وأراقوا في ذلك دماءهم الزكية - من خطر السيطرة البرهمية، والفلسفة الهندوكية والحضارة الجاهلية، فاقتنعوا بذلك وتحول اتجاههم من محاربة الإسلام وطمس معالمه، إلى حماية الإسلام ومحو آثار سيطرة البرهمية والوثنية التي بدت من زمن السلطان جلال الدين أكبر» [٢].

وتحدث عن منهج الإمام السرهندي وطريقته في الإصلاح في رسالة أخرى فقال:

«ولذلك لما بدأ الإمام السرهندي رحلته التجديدية، وكانت أول خطوة خطاها على طريق الأنبياء، وعلى نفس المنهج الذي سار عليه الرسل، هي الخطوة نحو إصلاح العقائد وتصحيح الاتجاه، فقد كان إباؤه عن سجدة

---

(١) ربانية لا رهبانية ص١٢٧-١٣٨، وترشيد الصحوة الإسلامية ص٢٦-٢٧ .
(٢) ترشيد الصحوة الإسلامية ص٢٧-٢٨.

التحية أمام السلطان جهانكير ورفضه لهذه البدعة الشنيعة عنواناً لامعاً في تاريخ إصلاحه وتجديده، وقد تناول في رسائله التي وجهها إلى مختلف أصحابه وأتباعه بيان حقيقة التوحيد بأسلوب واضح مبين، وعبارات موجزة جامعة رصينة، وقدم دلائل وبراهين على وحدانية الله تعالى، وأنه هو المستحق للعبادة وحده، بأسلوب يدل على رسوخه وعلو كعبه في هذا العلم، وقام بدحض الشرك ومظاهره وتقاليده، ونهى أصحابه وأتباعه نهياً شديداً عن الأعمال الشركية، والعادات الجاهلية، وتقاليد الكفار من اليهود والنصارى والمشركين، إذ إنه لا بداية لعمل الإصلاح والتجديد إلا به، فضلاً عن نهايته وكماله».

وأخيراً ينوه بنجاح أسلوب دعوة الإمام السرهندي وطريقته ومنهجه الذي أعاد إلى الشعب الهندي المسلم روح الإسلام وفكره وحيويته ونشاطه ويقول:

«وهكذا استطاع أن يعيد إلى الإسلام مركزه من جديد في الهند، ويعيد إلى السنة اعتبارها، ويعيد في المسلمين الثقة بالمصادر الصحيحة وبالكتاب والسنة، وأن يكون للإسلام انتفاضة في الأقطار الإسلامية من شبه القارة الهندية إلى أفغانستان وتركستان، إلى العراق وسوريا وتركيا، وينهض جيل جديد من دعاة الإسلام الصحيح، والعقيدة السليمة البعيدة من شوائب الفلسفات والانحرافات، وتأثير الديانات والحضارات الجاهلية، ونشأت جبهة قوية واعية لمعارضة البدع والمحدثات، ودعوة سافرة إلى العمل بالشريعة المطهرة والسنّة السنيّة البيضاء، وإقبال عام على الإنابة إلى الله وتزكية النفوس، وتهذيب الأخلاق، وتجديد صلة العبودية بالله تعالى في ضوء الكتاب والسنة، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم»[١].

---

(١) منهج أفضل في الإصلاح ص ٢٨-٣٢ .

سار سماحته على هذا الدرب مستفيداً من التجربة الناجحة التي فاز بها الإمام أحمد السرهندي في تغيير الوضع وتقرير المصير[١]، ويريد من الدعاة وأعلام الصحوة الإسلامية والجماعات والأحزاب الإسلامية في العالم كله بأن يستفيئوا بنور هذا المنهج، ومن هذا النموذج للدعوة في عصرنا هذا، وفي هذه المرحلة الدقيقة الحاسمة التي يمر بها المسلمون، ويتجنبوا مناهج وطرقاً تؤديهم إلى الصراع والخلاف والتناحر والتشاجر والتحزب والتطرف، ثم إلى إيقاف عجلة الركب لا سمح الله عزّ وجلّ، وكانت أهم محاور الدعوة: المسجد، والمنهج التعليمي، والكتاب، والسلوك الاجتماعي، ويمكن أن يعتبر منهج الشيخ الندوي حفظه الله في الدعوة والبلاغ المبين مدرسة متميزة قائمة بذاتها، بعيدة عن التحزب والتعصب الذي سقط فيه الكثير، تؤثر خلق السماحة، والتيسير على مسالك التشدد والتحرج، عنوانها: الاحتساب والترفع عمّا في أيدي الناس، وهو مستمد من مقولة الأنبياء جميعاً: ﴿**لا أسألكم أجراً إن أجري إلا على الله**﴾، وهي بلا شك من مدارس العمل الإسلامي الجديرة بالدراسة والانتفاع[٢].

- ويقول سماحة الشيخ فيمن يلتزم هذا المنهج في الدعوة:

«أنا أومن بأن الداعية المخلص، لا يكون داعية إلا إذا كان ملهماً مؤيداً من الله، وكان الذين اختار الله للدعوة الإسلامية في الهند أصحاب قلوب رقيقة، بعيدين زاهدين عن قبول الصلات الملوكية، فكانوا يراقبون الدولة ويراقبون اتجاهاتها وميولها، ويرون هل المجتمع الإسلامي إلى خير أم إلى شر، وإلى صلاح أم إلى فساد، وهل هناك اتجاه موافق للإسلام أم معارض للإسلام؟ فإذا كان هناك اتجاه معارض للإسلام جرّوا الحبل من بعيد وباحتياط،

(١) يراجع: منهج أفضل للإصلاح، نفحات الإيمان، المسلمون في الهند، ورجال الفكر والدعوة (الإمام السرهندي).
(٢) كتاب الأمة: فقه الدعوة ص١٦.

وأشاروا على الملك بما هو صالح للعباد والبلاد، وبما فيه تأثير للدين وتقوية للمسلمين، وقد تكون لهم يد خفية في اختيار ملك أو عزل ونصب، فإذا سنحت لهم فرصة لكلمة حق عند سلطان جائر كانوا من أفصح الناس وأشجعهم» [(١)].

ولذلك لم يكتف سماحة الشيخ بتأليف كتب ورسائل، وإلقاء خطب ومحاضرات وعقد ندوات ومجالس وعظ وإرشاد، وحلقات تدريس وتوجيه، بل راسل الملوك والأمراء ورؤساء الحكومات ورجال الحكم، في الهند والعالم الإسلامي، والبلاد العربية بخاصة، ولفت أنظارهم إلى مواضع الضعف ونقاط التقصير في أمر الإسلام وشريعته، وما يؤدي إلى الفساد والدمار والاضطراب والتفكك والضرر للمسلمين والشعوب، وطالب حكام الجزيرة العربية خاصة أن يكونوا أسوة حسنة، وقدوة صالحة للعالم وللمسلمين، وبعث برسائل إلى جلالة الملك فيصل بن عبد العزيز رحمه الله ليسترعي انتباهه إلى أخطار داخلية وخارجية، ولخص له بعض النقاط الهامة، فتلقى رداً كريماً منه، ثم أرسل خطاباً إلى خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود حفظه الله جاء فيه:

«إن أخوف ما نخاف على هذه البلاد وعلى العالم الإسلامي هو أن تتجرد هذه البلاد المقدسة والشعب العربي السعودي الكريم، وخاصة جيران البيت الحرام والمسجد النبوي عن شخصيتهم المثالية ومركزهم القيادي، بل عن شخصيتهم الإسلامية، والتنكر لها والاستنكاف عنها، وأن تنشأ بينهم وبين الحرم وما قام له ويقوم فجوة واسعة عميقة لا تردم، ولا يقوم عليها جسر، فيعيش كل واحد منهما في عزلة عن صاحبه، وقد تكون صلة المسلمين في بلاد العجم والآفاقيين أقوى وأعمق من صلة الذين يعيشون في رحاب الحرم

(١) منهج أفضل للإصلاح ص٥-٦.

وظلال الكعبة، وهو خطر، وقد ظهرت طلائعه بتأثير طرق التربية والإعلام، وتدفق الثروة، وتوفر وسائل الترفيه والتسلية توفراً لا يوجد نظيره في بلد إسلامي آخر، وفقدان القدوة الصالحة والنماذج العملية في القناعة والتماسك وسمو النظر، وبسبب ضعف الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتأثير المدنية الغربية وقيمها ومثلها من غير نقد وتمحيص، وتأثير الصحف والمجلات الرقيعة والروايات المثيرة للغرائز التي تنصب على هذه المملكة من زمن طويل، رغم جهود الغيارى من المسؤولين، ورغم كراهتكم لها، وتوجيهاتكم السامية إلى مراقبتها، وقد قضى الله أن تكون هذه الجزيرة حرماً للإسلام وحمى له [1].

وكذلك بعث برسائل إلى رؤساء الجمهورية ورؤساء الوزراء في الهند وغيرها دعاهم إلى الصلاح والخير والإنابة إلى الله عزّ وجلّ [2].

وقد أشار إلى ذلك سعادة الأستاذ محمد واضح رشيد الندوي رئيس تحرير صحيفة الرائد، بعد أن عرض مفصلاً النقاط المهمة لدعوته، ولعلاج أسباب التناقض والاضطراب الفكري في الشباب، فقال:

«وبهذه النماذج يمكننا أن ندرك خصائص الأسلوب الدعوي لسماحة الشيخ الندوي في مختلف مواضيعه، ونقدر منهجه الفكري، ونعرف معالم الطريق الذي يرشد إليه، وهو أسلوب أخّاذ، ومنهج عملي، ودراسة واقعية، وتعبير وجداني، وتصوير للواقع وبيان مؤثر» [3].

وقد اعتنى سماحة الإمام الندوي حفظه الله إلى جانب المنهج وأسلوب الدعوة، بالداعية وتربيته، فإن جُلَّ مؤلفاته تحتوي على مواضيع حساسة

---

(١) كيف ينظر المسلمون إلى الحجاز وجزيرة العرب ص٦٣-٦٤.

(٢) يراجع: في مسيرة الحياة وأدب الصحوة الإسلامية.

(٣) أدب الصحوة ص٨٣-٨٤.

ومواد غنية ثرية لإعداد الدعاة ورجال العمل الدعوي، فألف عن القرآن الكريم: المدخل إلى الدراسات القرآنية، تأملات في القرآن الكريم، تأملات في سورة الكهف. كما ألّف في الحديث والسنّة والسيرة النبوية، ليتثقف الداعية بثقافة القرآن والحديث والسنة، وكذلك العقيدة والإيمان والسلوك والعبادة، وألّف تاريخ رجال الفكر والدعوة والآداب الإسلامية، وكل ما يكتب ويؤلف يشمل تلك الأهداف والغايات التي يريد أن يصل إليها ويفي بغرض الدعوة، وذلك بتوعية الداعية وتربيته وإعداده من خلال هذه المؤلفات العظيمة الضخمة.

وحدد كذلك السمات البارزة للدعوة والداعية، وجبهاتها الحاسمة ومجالاتها الرئيسية، فالدعوة الإسلامية يجب أن تكون جامعة بين تحريك الإيمان في نفوس المخاطبين والمجتمع الإسلامي وإثارة الشعور الديني، وبين إكمال الوعي وتنميته وتربيته[١]، ويريد من دعاة الإسلام العاملين في مجال الدعوة الإسلامية الاحتفاظ بهذه البقية الباقية من الإيمان في نفوس الشعوب والجماهير، والمحافظة على الجمرة الإيمانية من أن لا تنطفئ[٢].

ويجب أن يكون الداعية مع فقه الدعوة والتوعية الإيمانية العميقة الراسخة واعياً ومقدراً للظروف التي يمر بها المسلمون، والمجتمع الذي يعيش فيه الداعية، ويدرك الحقائق وواقع الحياة، ويعرف جيداً القضايا المعاصرة والحركات والنشاطات والمنظمات والأحزاب المتنوعة، والاتجاهات المعادية، والتيارات والأفكار الهدامة، ويجب أن يعرف حاجات المجتمع ومشاكله، وأزماته وتعقيداته، ويدرك دقة الموقف في المحيط، ويعرف نفسية المخاطب وعقليته، والمكان والزمان اللذين يقوم فيهما بهذه الدعوة الإلهية الربانية[٣].

---

(١) الدعوة إلى الله ص٥.

(٢) أيضاً ص٨.

(٣) يراجع: منهج أفضل وترشيد الصحوة.

وتحدث سماحة إمامنا حفظه الله إلى قادة الصحوة الإسلامية فقال: «يجب أن يتصفوا بشيء من العزوف عن المناصب والرئاسات والحياة الرغيدة الناعمة، ومنافسة أرباب المناصب والجاه فيما وسع الله عليهم في الدنيا، ويتسموا بسمة الزهد والقناعة والتوكل - حسب طاقاتهم، وفي الحدود الشرعية من غير رهبانية وغلو - على قدم السلف الصالح وأصحاب العزيمة» وكان قد ذكر في ترجمة الإمام أحمد بن حنبل في تاريخ الإسلام، فلا نعرف أحداً ممن قلب التيار، وغيّر مجرى التاريخ، ونفخ روحاً جديدة في المجتمع الإسلامي أو افتتح عهداً جديداً في تاريخ الإسلام، وخلف تراثاً خالداً في العلم والفكر والدين، وظل قروناً يؤثر في الأفكار والآراء، ويسطر على العلم والأدب، إلا وله نزعة في الزهد وتغلب على الشهوات، وسيطرة على المادة ورجالها، ولعل السر في ذلك أن الزهد يكسب الإنسان قوة المقاومة، والاعتداد بالشخصية والعقيدة، والاستهانة برجال المادة وبصرعى الشهوات وأسرى المعدة، ولذلك ترى كثيراً من العباقرة والنوابغ في الأمم، كانوا زهاداً في الحياة، متمردين على الشهوات، بعيدين عن الملوك والأمراء والأغنياء في زمانهم، ولأن الزهد يثير في النفس كوامن القوة، ويشعل المواهب ويلهب الروح، والدعة أو الرخاوة تبلد الحس، وتنيم النفس وتميت القلب، وقال: إنما هو خلافة للرسول الأعظم ﷺ، وقد قيل له: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾[1].

وكذلك يجب أن يتصفوا بروح التضحية والبطولة، والجلادة والتقشف، والقدرة على المغامرات، لأنه إذا عدم وجود روح التضحية والبطولة، والاعتداد بالإيمان والشخصية الإسلامية والدعوة الإيمانية فيكون خطراً كبيراً على الدعوات الصحيحة والصحوة الإسلامية، ويجب أن يمثلوا السيرة الإسلامية

(١) طه: ١٣١ .

-المثالية النموذجية- إلى حد الإمكان بكل وضوح وجلاء. وفي البلاد غير المسلمة بصفة خاصة [١].

هذا، وقد تحدث سماحة الشيخ الندوي حفظه الله بل حدد الجبهات الحاسمة والمجالات الرئيسية للدعوة الإسلامية في العصر الحاضر، ويجدر بنا أن نشير – ولو بإيجاز إلى النقاط الهامة التي أوضحها بقوة وجلاء، بعد أن قمنا، بتعريف موجز لمنهج سماحة الشيخ حفظه الله للدعوة، والسمات البارزة للدعوة وصفات الداعية، فقد ألقى سماحة الشيخ الندوي بحثه القيم في الجلسة الأخيرة لمؤتمر الدعوة الإسلامية الكبير الذي عقدته رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة في صفر عام ١٤٠٨هـ، وكان كاتب هذه الأسطر ممن شارك في المؤتمر مندوباً من قبل الإذاعة السعودية، إذ كان آنذاك عضواً في هيئة الإذاعات الموجهة، وبعد أن انتهى البحث المحتوي على إحدى عشرة نقطة هامة، خاطبني واحد من كبار المفكرين الإسلاميين وقال: يجب أن يكون البحث قرار المؤتمر، ويجب أن يطبع وينشر في العالم الإسلامي كله، وأذكر هنا عناوين النقاط فحسب، وهي كالتالي:

١- تحريك الإيمان في نفوس الشعوب والجماهير المسلمة، وإثارة الشعور الديني فيها، فإن تمسك هذه الشعوب والجماهير بالإسلام وتحمسها له، هو السور القوي العالي الذي يعتمد عليه في بقاء هذه البلاد، وكثير من القيادات وحكومات العالم الإسلامي في حظيرة الإسلام، وهي مادة الإسلام ورأس ماله، والخامات الكريمة التي تستخدم لأي غاية نبيلة، هي من أقوى المجموعات البشرية وأحسنها سلامة صدر وقوة عاطفة، وإخلاص...

---

(١) يراجع : ترشيد الصحوة الإسلامية ورجال الفكر والدعوة في الإسلام، الجزء الأول.

٢- صيانة الحقائق الدينية والمفاهيم الإسلامية من التحريف ومن إخضاعها للتصورات العصرية الغربية، أو المصطلحات السياسية والاقتصادية، والتجنب عن تفسير الإسلام تفسيراً سياسياً بحتاً، والمغالاة في «تنظير الإسلام» ووضعه على مستوى الفلسفات العصرية والنظم الإنسانية...

٣- تقوية الصلة الروحية والعقلية والعاطفية بالنبي ﷺ والحب العميق له الذي يؤثره على النفس، والأهل والولد، كما جاء في الحديث الصحيح، والإيمان به كخاتم الرسل، وإمام الكل، ومنير السبل، والحذر من كل العوامل والمؤثرات التي تسبب تجفيف منابع هذا الحب، وإضعافه على الأقل، وتحدث جفافاً في الشعور، وضعفاً في العمل بالسنّة، وتجرؤاً في القول، وانصرافاً عن الافتخار به، والولوع بدراسة سيرته، وكل ما يحرك هذا الحب ويغذيه، ولعل البلاد العربية (بفعل أحداث، ودعوات قومية) أحوج إلى العناية بهذه النقطة، وأحق بها من غيرها، ففيها كانت البعثة المحمدية، وفي لغتها نزل القرآن ونطق الرسول.

٤- إعادة الثقة في نفوس الطبقة المثقفة، ومن بيدهم القيادة الفكرية والتربوية والإعلامية في البلاد والحكومات الإسلامية بصلاحية الإسلام وقدرته، لا على مسايرة العصر وتطوراته وتحقيق مطالبه، بل على قيادة الركب البشري إلى الغاية المثلى، وتجديف سفينة الحياة إلى بر السلام والسعادة، وإنقاذ المجتمع البشري من الانهيار والانتحار الذي تعرض لهما تحت القيادة الغربية الخرقاء.

٥- قلب نظام التربية والتعليم المستورد من الغرب، المنتشر السائد في العالم الإسلامي رأساً على عقب، وصوغه صوغاً إسلامياً جديداً، يتفق مع شخصية هذه الشعوب المسلمة وعقيدتها، ورسالتها، وقامتها، وقيمتها.

٦- حركة علمية قوية دولية، تعرف الطبقة المثقفة الجديدة بذخائر الإسلام العلمية وتراثه المجيد، وتنفخ في العلوم الإسلامية روحاً من جديد، وتثبت للعالم المتمدن أن الفقه الإسلامي وقانونه من أرقى القوانين وأوسعها في العالم، وهو يقوم على أساس من المبادئ الخالدة التي لن تبلى، ولن تفقد صلاحيتها في يوم من الأيام، وهي تصلح لمسايرة الحياة الإنسانية في كل زمان ومكان، وتغنيها عن كل قانون وضعته أيدي الناس.

٧- الحضارة عميقة الجذور في أعماق النفس الإنسانية وفي مشاعر الأمة وأحاسيسها، وتجريد أمة عن حضارتها الخاصة -التي نشأت تحت ظلال دينها وتعاليم شريعتها، وكان في صياغتها نصيب كبير للذوق الديني الخاص، وطابع هذه الأمة الخاص- مرادف لعزلها عن الحياة، وتحديدها في إطار العقيدة والعبادة والطقوس الدينية الضيق، وفصل حاضرها عن ماضيها، فلا بد للحكومة الإسلامية والمجتمعات الإسلامية من التخطيط المدني الإسلامي المستقل البعيد عن تقليد الغرب الأعمى، والارتجالية ومركب النقص، ولا بد من تمثيل الحضارة الإسلامية في عواصمها وفي دوائرها وفي بيوتها، وفي مجتمعاتها، وفي فنادقها ومنتزهاتها...

٨- معاملة الحضارة الغربية -بعلومها ونظرياتها واكتشافاتها وطاقاتها- كمواد خام يصوغ منها قادة الفكر، وولاة الأمور في العالم الإسلامي، حضارة قوية عصرية، مؤسسة على الإيمان والأخلاق والتقوى، والرحمة والعدل في جانب، وعلى القوة والإنتاج، والرفاهية، وحب الابتكار في جانب آخر..

٩- إقناع الحكومات - في بعض البلاد الإسلامية التي مثلت دوراً رائعاً في تاريخ الدعوة والحضارة الإسلامية - المشغولة بحرب إبادة للعنصر الإسلامي، أو عملية تطوير للإسلام، وتفسيره وفق مصالحها السياسية، أو أهواء قادتها الشخصية، بأنها سياسة عقيمة لم تنجح في بلد إسلامي،

وإقناعها بتوجيه طاقاتها وإمكانياتها إلى عدو مشترك، وإلى ما يقوي البلاد والأمة.

١٠- أما بالنسبة إلى البلاد غير الإسلامية، فالقيام بالدعوة إلى الإسلام والتعريف به بأساليب حكيمة تتفق مع طبيعة الإسلام وروح العصر، أما البلاد التي فيها الأقليات المسلمة، فالاهتمام بتمثيل الإسلام، والحياة الإسلامية تمثيلاً يلفت إليه الأنظار ويستهوي القلوب، والقيام بالقيادة الخلقية والروحية، وقبول مسؤولية إنقاذ البلاد والمجتمع من الانهيار الخلقي، والخواء الروحي، والتدهور الاجتماعي الذي تعرضت له هذه البلاد..

١١- وأخيراً لا آخراً هو ما تفرضه طبيعة الإسلام وتاريخه المجيد، وتقتضيه الفطرة السليمة ونفسية الإنسان الدائمة، والأوضاع السائدة، هو وجود حركة إيمانية دعوية إيجابية قوية في العالم الإسلامي، تقترن بصفات الرجولة والطموح وعلو الهمة وبعد النظر، والقدرة على مواجهة الطاقات الرئيسية التي تملكت زمام قيادة البشرية، وأصبحت تتحكم في مصائر الشعوب والأقطار الإسلامية وغير الإسلامية - من غير حق ومبرر- وذلك بإيمان القائمين بهذه الحركة والدعوة إيماناً قوياً، وثقتهم بفضل الإسلام وحاجة البشرية إليه.

وأنهى سماحة الشيخ الندوي مقالته الرائعة المؤثرة الأخاذة بقوله تعالى: ﴿ **إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير** ﴾[1].

كان لهذه المقالة وقع كبير وتأثير عظيم في المؤتمر، ولما نشرت تلقتها الأوساط الدينية والعلمية والدعوية بالقبول، واعتبروها خطة عمل الدعوة

(١) يراجع: الدعوة والدعاة (دعوة الحق)، ترشيد الصحوة الإسلامية ص٨٠-٩٣ .

الإسلامية في عصرنا الحاضر، وبدأ الإقبال الشديد في العالم الإسلامي وفي الهند خاصة، على منهج سماحة شيخنا الإمام الندوي وأسلوب دعوته. وقد طبق هذا المنهج والأسلوب فعلاً في حياته وأنشأ مدرسة أدبية دعوية أعدت جيلاً ينحو نحوه، ويحذو حذوه، ويسير على خطواته قدر ما يمكن، وقد نادى سماحة الشيخ الندوي بقوة وحكمة وعلى بصيرة وتجربة طويلة إلى حاجة العالم الإسلامي الماسة الشديدة إلى الدعوة على هذا المنهج بتخطيط وتصميم حكيم، وكتب ووجه قائلاً:

إن العالم الإسلامي في حاجة شديدة إلى دعوة إسلامية جديدة، وإن هتاف الدعاة والعاملين فيه وهدفهم اليوم «إلى الإسلام من جديد» ولا يكفي الهتاف، إنه لا بد من تصميم حكيم قبل العلم، لا بد من تفكير هادئ عميق، كيف نرد الطبقة المثقفة التي تحتكر الحياة، وتملك الزمام إلى الإسلام من جديد، وكيف نبعث فيها الإيمان والثقة بالإسلام؟ وكيف نحررها من رق الفلسفات الغربية والحضارة العصرية ونظرياتها اللادينية؟

إنه في حاجة إلى رجال ينقطعون إلى هذه الدعوة، ويكرسون عليها علمهم ومواهبهم وكفاءاتهم، ولا يطمعون في منصب أو جاه أو وظيفة أو حكومة، ولا يحملون لأحد حقداً، ينفعون ولا ينتفعون، ويعطون ولا يأخذون، ولا يزاحمون طبقة في شيء تحرص عليه وتتهالك، حتى لا تكون لها حجة عليهم ولا للشيطان سبيل إليهم، شعارهم الإخلاص والتجرد عن الشهوات والأنانيات والعصبيات.

إن العالم الإسلامي في حاجة إلى منظمات علمية تهدف إلى إنتاج الأدب الإسلامي القوي الجديد، الذي يعيد الشباب المثقف إلى الإسلام بمعناه الواسع من جديد، ويحررهم من رق الفلسفات الغربية التي آمن بها كثير منهم بوعي ودراسة، وأكثرهم بتقليد وتسليم، ويقيم في عقولهم أسس الإسلام من

جديد، ويغذي عقولهم وقلوبهم، إنه في حاجة إلى رجال في كل ناحية من نواحي عالم الإسلام عاكفين على هذا الجهاد [1].

سادتي الكرام والأدباء الإسلاميين من كل بقعة من بقاع العالم الإسلامي! هذه هي نبذة يسيرة، وغيض من فيض دعوة سماحة الشيخ أبي الحسن علي الندوي ومنهجه وأسلوبه للدعوة، قد جبل عليه، وترعرع بين ظلاله الوارفة كما قلنا، ولا أزال أذكر - وكنت طفلاً في قريتي النائية من المراكز العلمية والأدبية والدينية الكبرى في الهند وكنت أقرأ في المعهد الابتدائي- أنه زارنا سماحة الشيخ حفظه الله في إحدى رحلاته الدعوية، وهو في ريعان شبابه، سألني عن اسمي وشرفني وشجعني وغمرني بكلام حلو جميل أخاذ، وأهدى إليّ كتباً للأطفال. تأثرت به كثيراً جداً، مما جعلني أتعلق بالشيخ وأسأل عنه كل غاد ورائح في قريتي، وأحسست ثم رأيت بعد فترة فيه داعية عظيماً ومصلحاً كبيراً، وعالماً جليلاً وكاتباً قديراً، وأديباً ألمعياً ومفكراً مثالياً سارت بذكره الركبان.

وبهذه السمات البارزة، والصفات الحميدة، والشمائل الدعوية النبيلة، اختير من قبل كبار الأساتذة والمسؤولين في ندوة العلماء بالهند، وهو لم يتجاوز واحداً وعشرين عاماً من عمره، لتلبية دعوة أكبر زعيم المنبوذين في الهند، وأعظم الحقوقيين الذي وضع دستور الهند، وكان أول وزير للعدل والقانون في دولة الهند بعد الاستقلال، وهو الدكتور أبيدكر، أراد أن يخرج من جور الهندوكية إلى دين يعيد طبقته إلى الإنسانية والمساواة والخير والعدل، فجاءه سماحة شيخنا، وبلغ إليه دعوة الإسلام بوضوح وجلاء، وقدم إليه ترجمة معاني القرآن الكريم وبعض الرسائل الإسلامية في اللغة الإنكليزية، ولكن الدكتور اعتنق البوذية، ولعله شعر بخطئه في هذا الاختيار في حياته،

---

(١) إلى الإسلام من جديد ١١-٢١٠، ردة ولا أبا بكر لها، وأدب الصحوة الإسلامية.

فكان من قدر الله الذي لا راد له ويفسر قوله ﴿ **إنك لا تهدي من أحببت، ولكن الله يهدي من يشاء** ﴾، وبهذا التحمس الشديد والعاطفة القوية الجياشة للدعوة، قام بزيارات لمراكز الدين والعلم والدعوة، وانضم إلى الحركات والجماعات، وشاركها وقضى وقتاً ثميناً في الرحلات الدعوية، والوعظ والإرشاد، ونشر التعليم الصحيح القويم، والتربية والتزكية، وتبليغ دعوة الإسلام إلى المسلمين وغير المسلمين باسم رسالة الإنسانية [١]، وإنشاء مجامع وأكاديميات وأقسام للدراسات الإسلامية، وإشراف على مناهج دار العلوم لندوة العلماء وفروعها الكثيرة المنتشرة في البلاد، وتوجيهها توجيهاً علمياً وأدبياً، ورابطة الأدب الإسلامي العالمية التي نحن الآن نحظى بالحضور في ندوتها الأدبية بتركيا، ولم تكن هذه الأعمال الدعوية لسماحة إمامنا حفظه الله في بلاده، وفي العالم الإسلامي وحده، بل في العالم بأسره، فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خيراً، ومتعنا والمسلمين والبشرية بطول حياته بالصحة والعافية والهناء وشكراً.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته والحمد لله رب العالمين.

---

(١) يراجع: في مسيرة الحياة، وأدب الصحوة الإسلامية.

مراجع

١ - أبو الحسن الندوي كاتباً ومفكراً، الأستاذ نذر الحفيظ الندوي، رابطة الأدب الإسلامي ١٩٨٦م طبعة أولى.

٢ - أدب الصحوة الإسلامية، الأستاذ محمد واضح الندوي، مؤسسة الرسالة، بيروت، دمشق١٩٨٥، الطبعة الأولى.

٣ - أريد أن أتحدث إلى الإخوان، سماحة الشيخ الندوي، دار عرفات، راي بريلي١٩٨٩، الطبعة الأولى.

٤ - أسبوعان في المغرب الأقصى، سماحة الشيخ الندوي، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨٣. طبعة أولى.

٥ - الإسلام وأثره في الحضارة، سماحة الشيخ الندوي، المجمع الإسلامي العلمي لكهنؤ١٩٨٥م.

٦ - اسمعوها مني صريحة أيها العرب، سماحة الشيخ الندوي، المجمع الإسلامي العلمي، لكهنؤ.

٧ - أضواء، سماحة الشيخ الندوي، المجمع الإسلامي العلمي لكهنؤ ١٩٩٥م.

٨ - إلى الإسلام من جديد، سماحة الشيخ أبو الحسن علي الندوي، دار الإرشاد بيروت ١٩٦٧. الطبعة الثانية.

٩ - ترشيد الصحوة الإسلامية، سماحة الشيخ الندوي، دار عرفات ١٩٨٨، الطبعة الأولى.

١٠ - حاجة العالم الإسلامي إلى مجتمع إسلامي، سماحة الشيخ الندوي، المجمع الإسلامي العلمي لكهنؤ١٩٩٠، الطبعة الأولى.

١١ - الدعوة إلى الله، سماحة الشيخ الندوي، المجمع الإسلامي العلمي لكهنؤ، ١٩٩١.

١٢- الدعوة والدعاة (كتاب الأمة دعوة الحق)، رابطة العالم الإسلامي مكة المكرمة.

١٣ - ردة.. ولا أبا بكر لها، سماحة الشيخ الندوي، رئاسة إدارات البحوث والإفتاء، الرياض.

١٤ - روائع من أدب الدعوة، سماحة الشيخ الندوي، المعهد العالي للدعوة، ندوة العلماء لكهنؤ.

١٥ - العرب.. والإسلام. سماحة الشيخ الندوي، المجمع الإسلامي العلمي لكهنؤ١٩٨٠.

١٦ - العقيدة والعبادة والسلوك، سماحة الشيخ الندوي، المجمع الإسلامي العلمي لكهنؤ، ١٩٨٣، طبعة ثانية.

١٧ - في مسيرة الحياة، سماحة الشيخ أبو الحسن علي الندوي، دار القلم، دمشق ١٩٨٧، الطبعة الأولى.

١٨ - قيمة الأمة الإسلامية بين الأمم، سماحة الشيخ الندوي، وزارة الأوقاف، قطر، ١٩٩٥م، الطبعة الأولى.

١٩ - كيف ينظر المسلمون إلى الحجاز وجزيرة العرب، سماحة الشيخ الندوي، المجمع الإسلامي العلمي، لكهنؤ.

٢٠ - ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين: سماحة الشيخ أبو الحسن علي الندوي، الطبعة السابعة، دار الكتاب العربي بيروت١٩٦٧م.

١١ - الدعوة إلى الله، سماحة الشيخ الندوي، المجمع الإسلامي العلمي لكهنؤ، ١٩٩١.

١٢- الدعوة والدعاة (كتاب الأمة دعوة الحق)، رابطة العالم الإسلامي مكة المكرمة.

١٣ - ردة.. ولا أبا بكر لها، سماحة الشيخ الندوي، رئاسة إدارات البحوث والإفتاء، الرياض.

١٤ - روائع من أدب الدعوة، سماحة الشيخ الندوي، المعهد العالي للدعوة، ندوة العلماء لكهنؤ.

١٥ - العرب.. والإسلام. سماحة الشيخ الندوي، المجمع الإسلامي العلمي لكهنؤ١٩٨٠.

١٦ - العقيدة والعبادة والسلوك، سماحة الشيخ الندوي، المجمع الإسلامي العلمي لكهنؤ، ١٩٨٣، طبعة ثانية.

١٧ - في مسيرة الحياة، سماحة الشيخ أبو الحسن علي الندوي، دار القلم، دمشق ١٩٨٧، الطبعة الأولى.

١٨ - قيمة الأمة الإسلامية بين الأمم، سماحة الشيخ الندوي، وزارة الأوقاف، قطر، ١٩٩٥م، الطبعة الأولى.

١٩ - كيف ينظر المسلمون إلى الحجاز وجزيرة العرب، سماحة الشيخ الندوي، المجمع الإسلامي العلمي، لكهنؤ.

٢٠ - ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين: سماحة الشيخ أبو الحسن علي الندوي، الطبعة السابعة، دار الكتاب العربي بيروت١٩٦٧م.

٢١ - منهج أفضل في الإصلاح، سماحة الشيخ الندوي، المجمع الإسلامي العلمي لكهنؤ، الطبعة الأولى.

٢٢ - نحو التربية الإسلامية الحرة، سماحة الشيخ الندوي، دار الإرشاد، بيروت، ١٩٦٩م.

٢٣ - نفحات الإيمان بين صنعاء وعمان، سماحة الشيخ الندوي، المجمع الإسلامي العلمي، لكهنؤ١٩٨٤.



البحث الخامس عشر

السيرة النبوية في أدبيات الشيخ أبي الحسن الندويّ

د. محمد حسن الزير (*)



(*) عميد كلية اللغة العربية في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض سابقاً والملحق الثقافي السعودي في القاهرة حالياً.

تمهيـد:

لا يشك أحد في أهمية تاريخ الإنسان، وأهمية معرفة هذا التاريخ؛ لأنه مستودع خبرته البشرية، وتجاربه بكل ما فيها من خير وشر، وخطأ وصواب، ونجاح وإخفاق، وفكر وعمل؛ ومن هذه الخبرة السابقة يستطيع الإنسان أن يستمد زاداً مفيداً لمواصلة حياته، وتحقيق منجزاته، مستفيداً من دروس ذلك التاريخ وعبره، وجاعلاً من ذلك التاريخ حبلاً محدوداً، تتواصل من خلاله الأجيال والحضارات.

وتأتي الكتابة التاريخية في مقدمة أهم الوسائل، وأكثرها حيوية في الحصول على سجل شامل، أو شبه شامل لأحداث التاريخ الإنساني الماضي، وهذه مسألة يدركها المهتمون بتاريخ الكتابة التاريخية؛ ويشيدون بأهمية العصر الذي استخدم فيه الإنسان موهبة الكتابة، ويقول أحد هؤلاء[1]: «على الرغم من أن البقايا الخالية من الكتابة للإنسان القديم تعد أقيم، وأعظم مصدر نسخت منه معرفتنا عن حياة ذلك الإنسان ونشاطه؛ فإنه لم يمكن التوصل إلى سجل شامل لأحداث الماضي البعيد، إلا في العصر الذي بدأ يفكر فيه الإنسان في أن يضفي على أفكاره، وأفعاله تعبيراً خالداً؛ أي في العصر الذي أتقن فيه الكتابة» [2].

والكتابة تؤدي إلى القراءة، وفي القراءة إعادة اكتشاف لماضي الإنسان، وتحصيل للمعلومات المتنوعة عنه، وهذا يؤدي إلى اكتساب الخبرة، والتعرف على القدرة الحسنة، والارتباط بتجاربها المفيدة؛ وهذا يؤدي بالإنسان إلى مزيد من التقدم إلى الأفضل من خلال الانتفاع بتجارب سابقيه، واستثمار حكمتهم، وخلاصة ممارستهم في الفكر والعمل.

---

(١) هاري إلمر بارنز.

(٢) تاريخ الكتابة التاريخية ص٢٥، ٢٦.

أهمية تاريخ الرسول ﷺ بخاصة:

ويزداد الأمر أهمية إذا كان ذلك تأريخاً لفترة من أزهى عصور التاريخ الإنساني ولسيرة هي أعطر السير وأروعها على الإطلاق؛ أي حين يكون تأريخاً لسيرة أفضل الأنبياء والمرسلين، محمد بن عبد الله عليه أفضل الصلاة وأتمّ التسليم.

وسيرة الرسول ﷺ، أروع رواية، على حد تعبير الشيخ أبي الحسن عن بلاد تلك السيرة: « .. في بلاد كانت مصدر الإيمان والحنان والعاطفة والوجدان، وفي ربوعها تمثلت أروع رواية من روايات الوفاء والفداء وقوة العاطفة، ولم تزل شعوب العالم تستمد منها هذا الحب الطاهر، والعاطفة الجياشة، وتشعل بها مجامر قلوبها التي تتعرض حيناً بعد حين للانطفاء. وتواجه العواصف الهوجاء» (١).

وتاريخ الرسول ﷺ مصدر لإشعال جذوة الإيمان في قلوب المسلمين، وفي هذا السياق يقول الشيخ أبو الحسن، «والقرآن وسيرة الرسول ﷺ، قوتان عظيمتان، تستطيعان أن تشعلا في العالم الإسلامي، نار الحماسة والإيمان. وتحدثا في كلِّ وقت ثورة عظيمة على العصر الجاهلي، وتجعلا من أمة مستسلمة منخذلة ناعسة، أمة فتية ملتهبة حماسة وغيرة وحنقاً على الجاهلية، وسخطاً على النظم الجائرة.. ولكن بتأثير القرآن والسيرة النبوية. إن وجدا إلى القلب سبيلاً، يحدث صراع بين الإيمان والنفاق، واليقين. والشك..» (٢).

---

(١) الطريق إلى المدينة ص٣.

(٢) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين.. ص٢٧١-٢٧٢.

وسيرة الرسول ﷺ، في حقيقة الأمر ثروة عامة للإنسانية كلها بأجيالها وطبقاتها، تجد فيها النور والقدوة [١] ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾ [٢].

ثم إن هذه السيرة العطرة التي كانت نفحة إلهية، ورحمة ربانية للعالمين، جاءت في فترة انحدرت فيها الإنسانية إلى درك منحط، وهذا عنصر مهم من عناصر أهميتها [٣]، فقد استطاعت أن تحدث في تاريخ العرب أعظم تطور عرفوه، وأن تكون لهم النعمة العظيمة، وأن تجعل من النبي ﷺ، رسولاً للعالم أجمع [٤] وجعلت من أولئك العرب الذي أخلصوا في إيمانهم بدينهم ونبيهم، وتفانوا في سبيل ذلك، قادة للإنسانية في ذلك الوقت بجدارة واستحقاق [٥].

الكتابة التاريخية والأدب:

إلى جانب تلك الأهمية للتاريخ من حيث هو تجربة تنطوي على العبرة والقدوة، هناك أهمية أخرى للتجربة التاريخية من حيث هي مادة لغوية مكتوبة، ذات بعد أدبي، وقد عُدَّ التاريخ منذ القديم» فناً وفرعاً من فروع الأدب، ونلمس في الوقت الحاضر زيادة كبيرة مضطردة في عدد الهيئات العلمية التي تعتبر التاريخ في أساسه علماً اجتماعياً يعنى بقدر الإمكان بإعادة بناء الفكر البشري، والنشاط الإنساني في العصور السابقة» [٦].

ومن هنا تأتي أهمية الكتابة اللغوية الأدبية للتاريخ؛ أي من قدرة هذه الكتابة على بعث التجربة التاريخية مرة أخرى، وإتاحة الفرصة لتلك الحياة

(١) انظر: الندوي، السيرة النبوية ص١٤.
(٢) الأحزاب٢١.
(٣) انظر: الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص٢٤.
(٤) انظر السابق ص٢٩٥.
(٥) انظر السابق ص٢٩٦.
(٦) هاري إلمر بارنز؛ تاريخ الكتابة التاريخية ص١٧.

الماضيـة الزاهيـة المجيـدة النافعـة، أن تحـدث آثارهـا مـرة أخـرى في الحيـاة والأحيـاء؛ بل ربما كـان في الإثارة اللغوية البيـانيـة بما فيـها عناصـر روحيـة. وإدراكيـة، دعم لتلك التجـربة التـاريخيـة والتعـويض عن عدم معايشـتهـا، في واقعها التـاريخي، بسـبب أنهـا أصبـحت تجـرية مفقـودة، بكونهـا أصبـحت من الماضي، ولم يبق منها إلا آثارها المنبعـثة من الحديث عنهـا، وتذكـرها؛ فتـأتي الإثارة اللغوية الأمينة والجيـدة، لتعيـد صيـاغة تلك التجـربة التـاريخيـة مـرة أخـرى، وتهيئ لهـا الظـروف المناسبـة، عبـر واسطة اللغـة؛ لتنبعث في أوسـاط القرّاء تجربة حيّة محسوسة موحية فاعلة..

ومثل هـذا الأثر الأدبي اللغوي فـي التجـربـة التاريخيـة، إنما يكون فـاعـلاً ومثـمراً، حينما يكون الكاتب في التـاريخ متمكناً في اللغة، مجيداً لفن الكتابة. بارعاً في استخدامهـا، مدركاً لأسـرارها، متعامـلاً مع أسـاليبها البيـانيـة، في بلاغة وحكمـة، وكلمـا كـان الكاتب متفـوقاً في أدبيتـه كانت تجـربتـه في كتـابة التـاريخ أكثـر حيـوية وأكثـر أثراً؛ لأنه سـيكون أكثـر قـدرة على تصـوير الواقع التاريخي، وتمثيل تجـربته على الهيئة التي كان عليها ذلك الواقع، أو على الأقل تمثيـلاً يقـارب ذلك الواقع، حسب الإمكان المتـاح، وبهذا تـزداد فاعليـة التجـربة التاريخية، بما فيهامن أدبية، في التـأثير على القراء في عواطفهم ومشـاعرهم. وتقوية عـوامل الاسـتجـابة، والانقيـاد لمقتضيات التجـرية التاريخية في أسـاسـها الواقعي؛ فيتحقق للنص التاريخي فاعلية الأثر المنشود، وتمكين فاعلية القدوة الحسنة في نفوس القرّاء، وسلوكهم أيضاً.

وهذه الفـاعليـة الأدبيـة تؤكـد حـاجـة كاتب السيـرة التـاريخيـة، للقـدرة البلاغية، والأسلوب الجميل، والبيان المعبّر [١].

(١) انظر: د. حسين فوزي النجار؛ التاريخ والسير ص ٨٩ -٩٠، وانظر ص ٥٩ -٦٠.

وإلى جانب الفاعلية اللغوية في الكتابة التاريخية، التي تمنح هذه الكتابة صفة الأدبية، نجد أن السيرة التاريخية لإنسان فذّ قصة تاريخية ولكنها «أحفل من التاريخ العام بالعواطف الزاخرة الجيّاشة، والأحاسيس النابضة، لأنها تعرض من سيرة الفرد لجوانب حياته المختلفة، حتى تتجلى مقومات شخصيته، وتبرز معالم حياته، لتفصح عن سرّ نبوغه، وتفرده، إذ لا تحفل السيّر إلا بكل نابغة فريد، ولهذا كانت كتابة السّيرة أمراً غير يسير، لا يقدر عليها إلا من أربى على قدرة المؤرخ، وإحساس الأديب معاً، فالسيرة ليست سجلاً لحياة فرد من مولده إلى مماته، ولكنها قصة إنسان فذّ، أو متميز بكل ما ينبض به قلب هذا الإنسان من أحاسيس وعواطف» [١].

والمؤرخ لا يغيب عنه إحساسه بالتفاعل المستمر مع الوقائع والأحداث، التي يكتبها، وهو إحساس يغيب عن إدراك عالم الرياضيات أو العلوم الطبيعية نظراً لطبيعة عمل هذا المتصف بالحياد والجفاف [٢]، «ولعل انفعال كاتب السيرة بسيرة من يكتب عنهم هو أقوى صور الانفعال التاريخي؛ ولذلك فإن السيرة كثيراً ما تقترب من سمت الأدب، كما يقترب كاتبها من سمت الأديب» [٣].

❊

(١) د. حسين فوزي النجار؛ التاريخ والسير ص٦١.
(٢) انظر السابق ص٩٠.
(٣) انظر السابق ص٩٠.

الفصل الأول

الشـيخ والسـيرة

لمحة عن حياته:

هو الشيخ أبو الحسن عليّ بن عبد الحيّ الحَسَني، و«ينتهي نسب هذه الأسرة إلى محمد ذي النفس الزكية، بن عبد الله المحض، بن الحسن (المثنّى) ابن الإمام الحسن السّبط الأكبر بن أمير المؤمنين، سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنهم؛ لذلك اشتهرت الأسرة بالحسنية، وأول من جاء إلى الهند من أجداد هذه الأسرة هو الأمير السيد قطب الدين محمد المدني (٥٨١-٦٧٧هـ)» [١]. ولد لأبوين صالحين، وأسرة محافظة في ٦/محرم الحرام/ عام ١٣٣٣هـ في مدينة رائي بريلي [٢]في الهند. ونشأ نشأة دينية صالحة في ظل أسرة كريمة متدينة، محبة للعلم، فنشأت معه محبة العلم، وبخاصة أن والده من كبار المؤلفين في عصره، فكان منذ صغره شغوفاً بالقراءة واقتناء الكتب [٣]، وبعد وفاة والده، وهو ابن تسع سنوات وبضعة أشهر، صارت مسؤولية رعايته وتربيته على عاتق أخيه الأكبر، غير الشقيق، الدكتور السيد عبد العلي الحسني [٤]، إلى جانب عناية والدته بمراقبته وتربيته، والاهتمام بتحفيظه السور الكبيرة من القرآن الكريم [٥].

تعلّم الفارسية والإنجليزية والعربية، وقرأ في مطلع حياته المبكرة كتباً قيمة في اللغة الأردية وآدابها[٦]، وتحصّل على ثقافة إسلامية عالية، وأصبح

---

(١) أبو الحسن الندوي؛ في مسيرة الحياة ٢٨/١.

(٢) تبعد عن لكهنؤ ثمانين كيلاً مترياً (السابق ٤٥/١).

(٣) انظر السابق ص٤٥/١، ٥٦.

(٤) انظر السابق ص٤٢/١، وانظر ٧١/١.

(٥) انظر السابق ص٧٢/١.

(٦) انظر السابق ص٧٨/١، ٨٠.

مؤلفاً وأستاذاً، وداعية له نشاط واسع في خدمة الإسلام والمسلمين، فكراً وعملاً، ودعوة، وتأليفاً، وتدريساً، ومحاضرة في الهند بخاصة، وفي أنحاء متفرقة من العالم الإسلامي وغيره بعامة، وكان كثير النشاط والحيوية، ويتضح ذلك من أسفاره، وزياراته لمعظم بلدان العالم للمشاركة في الندوات والمؤتمرات، واللقاءات العلمية والدعوية، في المراكز والجامعات والهيئات الإسلامية وغيرها [١]، وهو رئيس دار العلوم لندوة العلماء، وعضو في المجمع العلمي العربي بدمشق، وعضو المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي، والمجلس الأعلى للجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، ورئيس هيئة التعليم الديني في الولاية الشمالية في الهند، وله مؤلفات كثيرة باللغة العربية والأردية تتجاوز (١٢٦) عنواناً [٢]، إلى جانب أحاديثه الإذاعية ومحاضراته ومقالاته المتنوعة الثرة.

ولا يزال الشيخ، حفظه الله ومتعه بالصحة والعافية، يواصل مسيرته الدعوية، والعلمية، بهمة وحيوية، في خدمة الإسلام والمسلمين، والاهتمام بقضاياهم وحفز هممهم للعمل من أجل الإسلام والدعوة إليه، وأصبح بذلك شخصية إسلامية مرموقة في جهادها وجهودها، في خدمة الدعوة والعقيدة، وأصبح مضرب المثل في العطاء العلمي والدعوي بلا حدود، أجزل الله له المثوبة والأجر، إنه نعم المولى ونعم المجيب.

اهتمامه بالعربية

من ميزات الشيخ أبي الحسن الظاهرة إتقانه للعربية؛ بحيث يصبح يتحدث بها كأحد أبنائها المتفوقين بها المتضلعين من آدابها، ولعل الفضل في ذلك يعود، بعد توفيق الله، إلى رعاية أخيه الأكبر الذي تعهده منذ صغره،

---

(١) انظر تفصيل ذلك في كتابه (في مسيرة الحياة).

(٢) انظر: سماحة الشيخ الداعية المجاهد أبو الحسن علي الندوي ومؤلفاته العربية؛ إعداد محمد طارق زبير الندوي، نشر مكتبة حراء - لكهنؤ، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.

ووجهه إلى تعلم العربية، منذ وقت مبكر، وعهد بتدريسه اللغة العربية إلى صديق له من أساتذة اللغة العربية المبرزين، هو الشيخ خليل بن محمد بن حسين بن محسن الأنصاري اليماني البوفالي، الذي كان محاضراً في جامعة لكهنؤ [١]. وقد أقبل أبو الحسن على تعلم العربية بهمة ونشاط متواصل [٢]. يدفعه في هذا السبيل حرص قوي من أستاذه الذي اختار له، ولزميل له مقرراً دراسياً خاصاً، اشتمل على بعض الكتب المصرية، المقررة في مدارسها «الطريقة المبتكرة» (١-٤)، و «مدارج القراءة» (١-٣)، وكتاب «كليلة ودمنة» و«مجموعة من النظم والنثر للحفظ والتسميع، وألزمهم بالكلام بالعربية بعد أيام قليلة [٣]. ودرس الشيخ أبو الحسن كثيراً من كتب النحو والصرف، ثم درس كتباً قديمة مهمة مثل «نهج البلاغة» و«مقامات الحريري» و«دلائل الإعجاز» و«القصائد العشر» واستفاد من أستاذه الشيخ خليل تذوقه للعربية. ويقول أبو الحسن عن ذلك: «لقد شاهدت في الشيخ ملكة عجيبة في التذوق الصحيح للعربية وآدابها ولغتها، ونقل هذا التذوق إلى الطلاب» [٤] وهكذا استطاع الشيخ أبو الحسن أن يتمكن من لغة القرآن بالدراسة المنهجية والتذوق الأدبي الجماعي، وقد ظهر أثر هذا التمكن في كتاباته ومحاضراته بالعربية؛ حيث قدم كثيراً من المؤلفات العظيمة المحكمة في أسلوبها الأدبي. وتماسك بنائها اللغوي، وحسن أدائها البلاغي، وكان أول كتاب ألفه بالعربية: **«ترجمة السيد أحمد بن عرفان الشهيد»** وكان عمره في ذلك الحين السادسة عشرة، ونشره السيد رشيد رضا بالقاهرة، سنة ١٩٣١م [٥]. ثم توالت كتبه بالعربية بصورة فيّاضة، وعلى هيئة تبعث على الإعجاب والتقدير حقاً؛ لما

---

(١) انظر: في مسيرة الحياة ١/٧٧.

(٢) بدأ تعلمه للعربية في أواخر عام ١٩٢٤م انظر: في مسيرة الحياة ١/٧٧.

(٣) انظر: في مسيرة الحياة ١/٧٨.

(٤) في مسيرة الحياة ١/٧٩.

(٥) انظر السابق ص١/١٢٥ .

تمتاز به هذه المؤلفات من رصانة وجودة وإحكام في إطار من اللغة الجميلة المواتية ومن أهم تلك المؤلفات:

- **ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين.** وكان فريداً في بابه، وفي طريقة تناول موضوعاته، وقد تلقاه علماء الأمة ومفكروها بالترحاب والتقدير، والتقديم.

- **الصراع بين الفكرة الإسلامية، والفكرة الغربية.** ويرى المؤلف أنه ينبغي أن يعد حلقة ثانية من سلسلة «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين»[1] ويراه من أهم مؤلفاته التي تبعث التأمل والتفكير، وأنه جدير بالدراسة والمطالعة [2].

- **إلى الإسلام من جديد**

- **العرب والإسلام.**

- **الأركان الأربعة في ضوء الكتاب والسنة.**

- **النبوة والأنبياء في ضوء القرآن.**

- **إذا هبت ريح الإيمان.**

- **روائع إقبال.**

- **مختارات من أدب العرب.**

- **رجال الفكر والدعوة في الإسلام.**

- **نحو التربية الإسلامية الحرة.**

- **قصص النبيين للأطفال.** وقد بدأ المؤلف عمله فيه حوالي ١٩٤٣-١٩٤٤م، والتزم فيه بأربعة أمور: «١- أن تكون ثروة الألفاظ فيه أقل القليل، ولكنها

(١) انظر السابق ص١/٣١٤.
(٢) انظر السابق ص١/٣١٥.

تنقش في ذهن الطالب بكثرة التكرار والإعادة. ٢- أن يكون الكتاب في لغة القرآن، وتوضع الآيات الكريمة في مجالها كالفصّ في الخاتم. ٣- أن يشتمل على تعليم العقائد الأساسية (التوحيد والرسالة والمعاد) وتلقينها للطالب بطريقة عفوية. ٤- أن تُبَسّط القصص، وتُزَوِّد الأطفال بما يكرّه إليهم الكفر والشرك، والمعاصي، وتحبّب إليهم الإيمان والعقيدة، وترسخ فيهم الاعتقاد بعظمة الأنبياء، وجلالة مكانهم، وكل ذلك بطريقة لا يشعر الطالب بثقله، وأنه يلقى عليه، بل يتلقاه ضمناً وعفواً، وينسجم معه»[١].

- **المسلمون في الهند.**

- **المسلمون وقضية فلسطين.**

- **الطريق إلى المدينة.**

- **ربّانيّة لا رهبانيّة.**

- **مذكرات سائح في الشرق العربي.. إلخ.**

وقد لفت أسلوب أبي الحسن العربي النقي، نظر الشيخ الأديب علي الطنطاوي، وذلك قبل أن يتعرف عليه شخصياً؛ فقد كان أسلوب الندوي المتمكن في العربية، مثار عجب الطنطاوي، وتساؤله عن صاحب هذا البيان، ومن ذلك ما قاله في تقديمه لكتاب أبي الحسن «في مسيرة الحياة»: «فقلت من هذا الباحث الهندي الذي يكتب بمثل هذا الأسلوب العربي النقي»[٢] ويقول أيضاً: «كتاب الأستاذ أبي الحسن ليس سرداً لأحداث حياته، ولكنه كتاب تاريخ، وكتاب أدب فيه وصف للأمكنة كأنك تراها»[٣]، وقال أيضاً في

---

(١) انظر السابق ص١/١٤٥، ١٤٦.

(٢) في مسيرة الحياة ١/١٠.

(٣) السابق ١/٩.

تقديمه لكتاب أبي الحسن «الطريق إلى المدينة»: «لقد كدت أفقد ثقتي بنفسي، ولكني لما قرأت كتابك يا أخي أبا الحسن «الطريق إلى المدينة» أحسست بالشوق يعود ليعتلج بنفسي، فعلمت أن قلبي ما خلا من جوهر الحب، ولكن هموم العيش، وطول الألفة قد غطيا جوهره بالغبار، فأزاح كتابك عن جوهره الغبار، وكدت أفقد ثقتي بالأدب حين لم أجد عند الأدباء هذه النغمة العلوية التي عني بها الشعراء من لدن الشريف الرضي إلى البُرعي، فلما قرأت كتابك وجدتها، وجدتها في نثر هو الشعر إلا أنه بغير نظام. فيا أبا الحسن لك الشكر على أن رددت إليَّ ثقتي بنفسي، وثقتي بأدب لغتي» [1].

كما أثنى على لغته وبيانه المتدفق المفعم بالحيوية والجمال «الشرباصي» في تقديمه لكتاب «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» في قوله: «وقد أفادته هذه المطالعات، والمسامرات - بجوار الهبة والتجربة- قدرة على الارتجال بالعربية، فهو يتدفق كالسيل بلغة بليغة فيها الصور البيانية والتعبير الجميل، وأغلب محاضراته يستعد لها، وكثيراً ما يكتبها. وأسلوبه يغلب عليه العنصر العاطفي الملتهب، ومع ذلك، إذا طرق باب البحث أجاد وأفاد وأمتع أيضاً.. وقد غلب النثر على أبي الحسن، فلم تطاوعه قريحته يوماً على نظم الشعر..» [2].

اهتمامه بالأدب الإسلامي:

ثمة أمر على جانب كبير من الأهمية، يستحق الإشادة والتنويه هنا، ويأتي في سياق اهتمام أبي الحسن بالدعوة الإسلامية، واللغة العربية وآدابها؛ ذلك هو اهتمامه بالأدب الإسلامي؛ بحيث أصبح لوناً من نشاطات الشيخ الدعوية والأدبية؛ بل يعد الشيخ أبو الحسن من روّاد هذا الميدان، وبخاصة في مجال

---

(١) الطريق إلى المدينة ص١٠.

(٢) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص٢١.

ترسيخ مصطلح «الأدب الإسلامي» وإعطائه مساحة واسعة في نطاق اهتمام الدارسين للأدب ونقاده، وعلى الأخص حين نعلم أن مثل هذا المصطلح لم يكن معروفاً ولا مستخدماً لدى الأسلاف من المهتمين بالدعوة، واستخدام الأدب في ركابها، وإن كان مفهوم المصطلح ومضمونه معروفاً منذ الأيام الأولى لنزول القرآن الكريم، وظهور الإسلام.

وسيذكر للشيخ أبي الحسن، دائماً فضيلة كونه في طليعة أولئك الدعاة والمفكرين الإسلاميين الذين التفتوا إلى حيوية الأدب في التعبير عن الدعوة وحمل مبادئها، والتعبير عن مضامينها، والتفتوا إلى أهمية إيجاد مصطلح يعبّر عن هذه المهمة والوظيفة للأدب، وترسيخ مثل هذا المصطلح في ساحة الأدب والنقد والدراسات الأدبية والنقدية؛ بحث يؤدي ذلك الترسيخ إلى ربط الكلمة الأدبية بوظيفتها الإسلامية، التي ينشدها الإسلام، ويسعى إليها؛ من حيث هي نشاط إنساني إبداعي، ينبغي أن يصدر فيه الإنسان المسلم، عن إيمانه وعقيدته التي يستمدها من القرآن الكريم، والسنّة النبويّة، مثلما يصدر عن ذلك في سائر أنشطته وأعماله.

ولهذا وجدنا الشيخ أبا الحسن أول من نادى بالدعوة إلى الاهتمام بالأدب الإسلامي، واستخدم مصطلح «الأدب الإسلامي» في حديثه في المجمع اللغوي بدمشق عام ١٩٥٦م، وقدّم بحثاً يدعو فيه إلى إقامة أدب إسلامي [1] وذلك قبل أن نجد من يستخدم هذا المصطلح -فيما أعلم- من غيره؛ ولعله كان أسبق إلى ذلك الاستخدام من الأخوين الكريمين؛ سيّد قطب -رحمه الله- ومحمد قطب وفقه الله.

(١) انظر: د. عبد الرحمن رأفت الباشا (رحمه الله) ؛ نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد ص٩٠، ٩١، جامعة الإمام - كلية اللغة العربية - الرياض، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

وقد أخذ أبو الحسن على عاتقه العناية بالأدب الإسلامي والاهتمام بقضاياه ومتابعة هذه القضايا؛ حيث عقدت لذلك الندوات والمؤتمرات واللقاءات المتعددة، التي تعنى ببحث هذا الجانب، ودراسة نواحي الأدب الإسلامي من مختلف الزوايا، وكما كان أبو الحسن رائداً في استخدام مصطلح «الأدب الإسلامي» كان رائداً في عقد أول ندوة عالمية للأدب الإسلامي، والدعوة إليها، وذلك بدار العلوم (ندوة العلماء) في لكهنؤ بالهند، وهي ندوة حضرها لفيف من الشخصيات المهمة من البلاد العربية، وكان لها أثر إيجابي في مسيرة الاهتمام بالأدب الإسلامي.

وقد أثمر ذلك الاهتمام إنشاء رابطة للأدب الإسلامي بمعاضدة الدكتور عبدالرحمن رأفت باشا - رحمه الله - وآخرون [١]، وأعد لهذه الرابطة نظام، وأصبحت ترعى الأدب الإسلامي، وتتابع قضاياه، وتعنى بالأدباء الإسلاميين، وأصبح مقرها الرئيس في ندوة العلماء برئاسة الشيخ أبي الحسن الندوي، وصار لها مكاتب فرعية في بقية بلدان العالم الإسلامي، ولا شك في أن الحاجة ماسة إلى العناية بالأدب الإسلامي، وتكريس مفهوم مصطلحه، وتوضيح هذا المفهوم، والحاجة ماسة كذلك إلى تضافر جهود المخلصين لتحقيق أهداف الأدب الإسلامي، ومهامه النبيلة، وقد أشاد الشيخ علي الطنطاوي، باهتمام أبي الحسن بالأدب الإسلامي، وإنشائه لرابطته في قوله: «وأنا أقول هذا هنا لأن أخانا أبا الحسن - فوق عنايته بالدعوة إلى الله، وأنه ركن من أركانها، وعضو من أعضائها، يهتم بالأدب الإسلامي، وقد أنشأ له هو وأخونا الأستاذ عبد الرحمن رأفت الباشا - رحمة الله عليه - وآخرون، رابطة تربط أهله، تجمعهم وتشد من أزرهم، وتعينهم في أمرهم» [٢].

---

(١) انظر: في مسيرة الحياة ١٢/١.
(٢) السابق ١٢/١.

علاقته بالسيرة:

كان والد الشيخ أبي الحسن السيد «عبد الحي» رجل علم يصرف جُل وقته «في الكتابة والتأليف، وفي العيادة الطبية، والشؤون الإدارية لندوة العلماء»[١] بل كانت أسرته أسرة علماء ومؤلفين، فبتأثير والده، الذي هو من كبار المؤلفين في عصره، وجدت بيئة علمية تأليفية في هذه الأسرة [٢].

وقد وجد أبو الحسن نفسه منذ وقت مبكر من حياته في جو مفعم بالثقافة الدينية، وبخاصة القرآن، والسنّة، والسيرة النبوية، ووجد نفسه وسط هذه المؤثرات مندفعاً للقراءة، محباً للكتب، منذ صغره، يقتنيها، ويقرأ فيها، وكانت الكتب الصغيرة ذات الصبغة القصصية، التي تستهوي الصغر، وبخاصة من هو في مثل سنه، محط اهتمامه؛ فكان يقرأ «في تلك الفترة كتباً ورسائل صغيرة بالأردية في السيرة النبوية- على صاحبها الصلاة والسلام- فنفذت في القلب والعقل، وقرّت منهما في قرار مكين» [٣] وأصبح وهو في الثامنة من عمره يعقد جلسة في السيرة النبوية للأطفال من أترابه؛ فكان يدعو الأطفال إلى هذه الجلسة، وكان كذلك يدور على بيوتهم واحداً واحداً، لتجميعهم، وكانت تلوث عمامة صغيرة على رأسه، ثم يأخذ كتاباً من مقتنياته عن السيرة، فيقرأ فيه على أولئك الأتراب، وكان والده يتابع هذا النشاط المبكر في سرور وغبطة [٤].

---

(١) السابق ١/٥٦.

(٢) انظر السابق: وانظر حديثه عن أفراد هذه الأسرة ١/٥٥، وما ذكره عن أخته «أمة الله تسنيم التي كانت تعرف في الأسرة بالسيدة عائشة بي» وقال عنها في الحاشية : «وهي سيدة كاتبة أديبة شاعرة، لها سلسلة قصص الأنبياء للأطفال في أردو، وكتاب صفير في السيرة النبوية، وقد نالت ترجمتها لكتاب «رياض الصالحين » للإمام النووي، وقد أسمته «زاد سفر» قبولاً ورواجاً عظيماً، وقرئت على الإذاعة السعودية، تمامها مرتين، وقررت في المقررات الدراسية في عدة مدارس، ونقلت إلى الهندية».

(٣) السابق ١/٥٧.

(٤) انظر السابق ١/٥٧، ٥٨.

وهكذا كانت القراءة في السيرة، والارتباط بها، منذ وقت مبكر، في حياة أبي الحسن، كانت المدرسة الأولى التي نهل من معينها، وتعلم من دروسها، ونفذت إلى قلبه آثارها، وكان إلى جانب نشاطه المبكر نحو السيرة، يحضر مع والده - وهو ابن ست أو سبع سنين، بعض المرات، احتفال دار العلوم (ندوة العلماء) السنوي في السيرة النبوية [١]، ومن ثم شكلت السيرة النبوية عنصراً أساساً في ثقافته، بسبب هذه النشأة [٢]، في هذه البيئة الإسلامية العلمية، التي رعى بداياتها والده - رحمه الله- ثم تابع رعايتها وتوجيهها، في عناية وشفقة الأخ الأكبر لأبي الحسن، بعد وفاة والده، وهو في سن التاسعة، وهو الدكتور السيد عبد العلي الحسني، الذي أخذ على عاتقه، مواصلة تربية أبي الحسن [٣]، مما أتاح له أن يقرأ في صباه «أفضل ما كتب في السيرة النبوية في «أردو» لغة مسلمي الهند، وهي أغنى لغات العالم الإسلامي، بعد اللغة العربية في موضوع السيرة، وهي تحتوي على أقوى وأجمل ما كتب فيها في العصر الأخير [٤]. وكانت لهذه الصلة القوية بكتب السيرة أثرها القوي في ثقافة أبي الحسن، وعقليته، وسيرته [٥].

وكان أخوه السيد عبدالعلي شديد العناية باختيار نوعية الكتب التي يطالعها أبو الحسن في حياته المبكرة، شديد الحرص على أن يكثر أبو الحسن من مطالعة كتب «السيرة النبوية» بخاصة؛ لإدراكه أهمية تأثير السيرة النبوية في تقويم السلوك، وتمكين العقيدة والخلق، وتعميق الإيمان [٦] فكان من أوائل الكتب التي اختارها له، كتاب في السيرة النبوية، هو كتاب «سيرة خير البشر»

(١) انظر السابق ١/ ٦٠، ٦١.
(٢) انظر: السيرة النبوية ص٣ (مقدمة الكتاب).
(٣) انظر: الطريق إلى المدينة ص١١.
(٤) السابق ص٣، ٤.
(٥) انظر السابق ص٤.
(٦) انظر: الطريق إلى المدينة ص١١.

لمؤلف هندي [١]. وكان لهذه المطالعة أثرها في أن تنشأ في نفس الصبي أبي الحسن محبة كتب السير، والحرص على اقتنائها وقراءتها [٢].

وفي هذا السياق يحدثنا أبو الحسن في كتابه «الطريق إلى المدينة» في مقالة بعنوان «الكتاب الذي لا أنسى فضله» [٣] عن كتاب «سيرة رحمة العالمين» من تأليف القاضي محمد سليمان المنصورفوري، وهو كتاب في السيرة النبوية، ويتحدث عن هذا الكتاب بكلام مفعم بالعاطفة الجيّاشة، والمحبة العميقة، والتأثر الشديد بفاعلية هذا الكتاب فيه، وذلك حين يقول: «أتحدث اليوم عن كتاب كانت منّته - ولا تزال- عظيمة عليّ، وإني دائم الترحم على صاحبه العظيم، الذي أتحفني، عن طريق الكتاب بمنحة هي أغلى الأشياء عندي، بعد الإيمان، بل هو جزء من أجزاء الإيمان، وهو كتاب «سيرة رحمة العالمين» [٤].

ويحدثنا عن قصته العجيبة مع هذا الكتاب، حينما اطلع على عنوانه لأول مرة، وكان كثير النظر في الفهارس، وإعلانات الكتب؛ فأرسل في طلبه، ثم كيف واجه مشكلة عجز ميزانيته الصغيرة، وهو في سن العاشرة أو الحادية عشرة، عن شرائه، ولنترك أبا الحسن، يحدثنا عن ذلك ببيانه العربي المشرق، وتعبيره العفوي الصديق؛ يقول: «ولكن الصغار - خصوصاً في العصر الذي أتحدث عنه - لا يخضعون لقوانين الميزانيات وعلم الاقتصاد، إنما ينساقون مع الغرائز والعواطف.

(١) انظر السابق.
(٢) انظر السابق.
(٣) حلقة من سلسلة «الكتب التي عشت فيها» كتبها المؤلف لمجلة البعث الإسلامي، حاشية كتاب «الطريق إلى المدينة» ص١١.
(٤) الطريق إلى المدينة ص١١.

وجاء ساعي البريد، وهو يحمل هذا الكتاب، فيما يحمله من بريد قريتنا الصغير، ورأيتني لا أملك ما أستلم به هذا الكتاب، وأدفع ثمنه، واعتذرت أمي - بارك الله في حياتها[١] - مع حرصها على إرضاء طفلها اليتيم عن دفع النقود، لأنها لم تكن تملكها في ذلك الحين» [٢] ثم يذكر أنه استشفع بدموعه فرقّت له الأم، واجتهدت في دفع قيمة الكتاب [٣].

ثم يحدثنا عن تجربته الحافلة مع قراءة الكتاب، الذي استطاع أن يستثير لديه الشعور باللذة، وأن يستثير لديه كوامن الحب لرسول الله ﷺ يقول: «بدأت أقرأ الكتاب، وبدأ الكتاب يهز قلبي، وليست بهزة عنيفة مزعجة، إنما هي هزة رقيقة، وبدأ قلبي يهتز ويطرب؛ «كما اهتز تحت البارد الغصن الرطب» وهذا هو الفارق بين هزة الكتب التي ألفت في حياة الأبطال والفاتحين الكبار، وبين هزة الكتب التي ألّفت في سيرة الرسول الأعظم ﷺ، فالأولى هزة تغير على القلب، وتزعجه، والثانية تنبعث من النفس وتريحها.

وبدأت تتجاوب نفسي لهذا الكتاب وتسيغه كأنما كانت منه على ميعاد، وشعرت في أثناء قراءتي لهذا بلذة غريبة، إنها لذة تختلف عن جميع اللذات التي عرفتها في صغري - ولم أزل مرهف الحس قوي الشعور- فلا هي لذة الطعام الشهي، ولا هي لذة اللباس الجديد في يوم العيد، ولا هي لذة اللعب، في حين الشوق إليها، ولا هي لذة العطلة والفراغ بعد الدراسة المضنية والاشتغال المرهق، ولا هي لذة الانتصار والظفر في المباراة، ولا هي لذة زيارة صديق قديم، أو زائر كريم، إنها لا تشبه لذة من هذه اللذات، إنها لذة أعرف طعمها، ولا أستطيع وصفها بدقة، وأعبّر عنها بكلمة، إن غاية ما أستطيع أن

(١) جاء في الحاشية ص١٢: «توفيت بعد كتابة هذا المقال لست خلون من جمادى الآخرة ١٣٨٨هـ، وكانت رحمة الله عليها، من فضليات النساء، تحفظ القرآن، وتقول الشعر، ولها عدة مؤلفات ومجموع شعر».

(٢) الطريق إلى المدينة ص١٢، ١٣.

(٣) انظر السابق.

أقول: إنها لذة الروح، وهل الأطفال لا يحملون الأرواح ؟ أو لا يشعرون باللذة الروحية ؟ بلى والله! إن الأطفال أشف روحاً، وأصح شعوراً، وإن عجزوا عن التعبير.

كنت أقرأ في هذا الكتاب المعجب المطرب خبر من كان يسلم من قريش، فتنهال عليه أنواع العذاب، فكان يحتمل كل ذلك في ثبات وصبر، بل في لذة وسرور، فكنت أشعر بأن هناك لذة لا يعرفها كثير من الأغنياء والأقوياء، وكثير ممن يعدون في الحياة سعداء، وهو أن تضرب على الحق، وتضطهد في عقيدة، وتهان في سبيل الدعوة، وأن هذه اللذة لا تعدلها لذة القوة والظفر والحكم، ورأيت أن نفسي تتمنى أن تسعد بهذه اللذة، وبهذه الكرامة ولو مرة في العمر» [1].

ثم يذكر أنه قرأ قصة «مصعب بن عمير» ذلك الفتى القرشي المترف الذي آثر لذة الإيمان مع التخشن والتقشف، على حياة الترف الناعم مع الكفر، وقرأ قصة الهجرة النبوية، التي لم يعرف أنه قرأ» قصة أكثر تأثيراً وأجمل تصويراً من هذه القصة» [2]، وقرأ قصة «أُحد» تلك القصة التي يقول عنها أبو الحسن: «قصة لم يعرف التاريخ أعظم منها، وأغرب منها، وأجمل منها، في الوفاء والإخلاص والبطولة، والإيمان واليقين والخلق الكريم، وقد هزّني قول أنس بن النضر- رضي الله عنه- للذين جلسوا وألقوا بأيديهم وقالوا: قتل رسول الله ﷺ قال: فماذا تصنعون بالحياة بعده؟! موتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ» [3] ثم يذكر ألواناً من صور ذلك الحب والتفاني في تعبير شائق جميل، ثم يقول: «وهكذا أتابع قراءتي لهذا الكتاب، وقد يغلبني البكاء فأبكي، وقد يملكني السرور والطرب فأطرب. إن الحسنة التي لا

(١) السابق ص١٣ وما بعدها. وهو يسترسل في تصوير انفعاله بقراءة هذا الكتاب.
(٢) الندوي - الطريق إلى المدينة ص ١٦ ، ١٧.
(٣) الطريق إلى المدينة ص ١٦، ١٧.

أنساها لهذا الكتاب، وصاحبه المخلص، أنه أثار في قلبي كامن الحب الذي لا لذة في الحياة بغيره، ولا قيمة للحياة بغيره، وقد صدق الشاعر الفارسي [١] حيث قال: «قاتل الله ذلك اليوم الذي مضى ولم أذق فيه لذة الحب، ولا بارك الله في الساعة التي مضت ولم تهب فيها نفحة من نفحات الحب، وسحقاً للحياة، إذا قضيتها كلها في تحكيم للعقل والخضوع للمنطق».

ثم يقول: «هذا هو الحب» الذي كان أعظم الطبقات إفلاساً فيه، الطبقة العصرية المتعلمة في هذه الأمة، فكانت أجوفها روحاً، وأضعفها مقاومة، وأخفها وزناً، وأكدرها حياة، وأضلها عملاً. وشكراً لهذا الكتاب وصاحبه، لأنه أثار في نفسي كامن الحب وحرّكه، وشكراً على أنه وجّه هذا الحب المنبعث المتحرك إلى من يستحقه بما فطر عليه من معاني الحسن والإحسان، ومعجزات الجمال والكمال، الذي لم يخلق الله في هذا الكون- وهو الخلاّق المبدع - أجمل منه سيرة وصورة، وأقوم خَلْقاً وخُلُقاً ﷺ.

«إن مصيبة هذه الأمة البائسة أنها قطعت صلتها عن القلب، وحُرِمَت لذَة الحُبِّ، وَقَد صدقَ شاعرُ الإسلامِ» «محمد إقبال» إذ قال: «إن كارثة المسلمين في هذا العصر، أنهم يحملون القلوب، ولا يعرفون المحبوب، أنهم يملكون مادة الحب، ولا يعرفون من يشغلونها به، ويوجهونها إليه» .

«سلام عليك يا سليمان! لقد وجدت في كتابك نعمتين، لا أعدل بهما نعمة، بعد نعمة الإسلام، إنما هي نعمة الحب الطاهر، ونعمة هدفه الصحيح، ويا لهما من نعمة» [٢].

لقد آثرت أن أنقل هنا كثيراً من هذه المقالة - وكنت أود لو نقلتها كاملة بدل اختصار بعضها-، لأنها كتبت بلغة معبّرة تفيض بنغمة شاعرية من ناحية،

---

(١) هو شاعر الفارسية البارع الآية خسرو (انظر: حاشية كتاب الطريق إلى المدينة). ص ١٨.

(٢) أبو الحسن الندوي؛ الطريق إلى المدينة ص١١-٢٠.

ومفعمة بالصدق والتلقائية والانفعالية العميقة بأحداث السيرة، والتأثر البالغ الذي قد أصاب نفس هذا الإنسان في تلك المرحلة المبكرة من حياته وطفولته، ورأيت أن هذه المقالة أكثر قدرة وحيوية في التعبير عن العلاقة الحميمة، التي ربطت أبا الحسن بالسيرة، وصيّرت منها مدرسته الأولى في تعلم الإسلام؛ بل وفي تذوقه. وقد استطاعت هذه المقالة بأسلوبها البياني الراقي، أن تصور خفقات الحب ولواعج الشوق، لهذا الرسول الكريم، عليه الصلاة والسلام، لدى أبي الحسن، منذ نعومة أظفاره؛ لقد رأيت أن هذه المقالة، على الرغم من طولها النسبي، جديرة بأن ينقل منها -إن لم تنقل بكاملها- وأن تقرأ، وأنها خير من يعبّر عن هذا الموقف القلبي، الذي وجد الندوي نفسه فيه، وهو يتلقى نبأ سيرة الرسول ﷺ في مطلع حياته، وفي مطلع مطالعاته لهذه السيرة الشريفة، على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم.

وهكذا كانت قراءته الأولى، في السيرة عن طريق رسائل وكتب باللغة الأردية، قبل أن يتعلم العربية، وكانت ذات أهمية بالغة في توجيهه نحو التعلق بالسيرة، وكانت القبس الأول، الذي أضاء جوانب نفسه، بحب الرسول والرسالة، وكانت البوابة للانطلاق إلى عوالم السيرة النبوية، التي أصبحت أساس انطلاق حركته الدعوية والفكرية المستمرة، ولكنه بعد أن عرف العربية. وأتقنها، قراءة وحديثاً، توجه إلى كتب السيرة النبوية المكتوبة باللغة العربية. وعكف عليها، يدرسها، ويعيش في ظلالها، ويستروح نسمات الروح فيها. ويتذوق عن طريقها حلاوة الإيمان، ويذكي في نفسه عاطفة الحب والحنان[1]: فدرس السيرة في العربية، في كتب كثيرة، تأتي في طليعتها، «السيرة النبوية، لابن هشام، و«زاد المعاد في هدي خير العباد» لابن قيم الجوزية، ودرس هذين الكتابين بعناية واهتمام وتذوق، ثم واصل قراءته في كل ما يصل إلى يديه من

(١) انظر: الندوي؛ السيرة النبوية ص٤.

كتب السيرة مما ألف في هذا المجال قديماً وحديثاً، متجاوزاً في ذلك اللغتين الأردية والعربية، إلى لغات مختلفة أخرى (١).

انفعاله بالسيرة ونظرته إليها:

أتيح لأبي الحسن الندوي، أن يدخل مبكراً إلى عالم السيرة النبوية الحافل بالإثارة والحيوية، وذلك منذ نعومة أظفاره؛ بسبب الجو الديني الذي نشأ فيه، وكون السيرة النبوية عنصراً أساساً في ثقافة أبناء أسرته، ووجود كتب ميسرة شعراً ونثراً في موضوع السيرة، ثم بسبب تربية أخيه الأكبر السيد عبد العلي الحسني، الذي حرص على توجيه أخيه الأصغر منذ البداية، إلى قراءة كتب السيرة باللغة الأردية (٢). وكان لهذا الدخول المبكر إلى هذا العالم الرباني المعجب، أثره البالغ العمق في نفس أبي الحسن؛ فقد وجد هذا الطفل نفسه، يعيش في عالم يموج بحياة تنبض بأحداث، وشخصيات، ومواقف، ذات أبعاد عميقة، في استثارة كوامن مشاعر النفس، وانفعالاتها، وتجاوبها مع تلك الأحداث والشخصيات والمواقف. وجد نفسه يتغذى بكل ما في السيرة من ذلك كله، ويعيش في تلك الرحاب النبوية، ويتذوق حلاة الإيمان ويغذي وجدانه، ويذكي عاطفة الحب والحنان، بما فيها من القصص والأخبار (٣).

نعم، لقد أتيح لأبي الحسن ظروف مناسبة، هيأت له أن يعيش مع السيرة، وأن ينفعل بها، وأن يستمر معه هذا الانفعال الواعي المتزن طوال مشوار حياته الدعوية والتأليفية، وأن يبرز أثر هذا الانفعال في كل كتاباته، ونشاطاته الفكرية تجاه الإسلام.

---

(١) انظر السابق.

(٢) انظر السابق ص٣.

(٣) انظر السابق ص٤، وانظر ما كتبه في مقاله الكتاب «الذي لا أنسى فضله» في كتابه «الطريق إلى المدينة» ص١١-٢٠ وقد تحدث فيه عن أثر كتاب «سيرة رحمة للعالمين» وأنه وجد فيه لذة الروح وأحيا فيه كامن الحب، وهو يقرأ في أحداث حياة الرسول ﷺ وقصص صحابته، من مثل قصة مصعب بن عمير، وقصة الهجرة النبوية، وقصة أُحد... إلخ.

ولعل مما زاد في درجة إحساسه العاطفي الوجداني بالسيرة وصاحبها، عليه الصلاة والسلام، زياراته الميدانية، إلى الأرض التي عاش فيها الرسول ﷺ، وشهدت فصول حياته الشريفة في مكة والمدينة، وما بينهما، وما حولهما، وشاهد تلك المواطن، وتعرّف على طبيعتها الجغرافية والمناخية.

ولا شكَّ في أن سيرة الرسول ﷺ، جديرة بأن ينفعل بها كل إنسان أتيح له أن يعيش في ظلالها، وحَرِيَّةٌ بأن يكون لها وقعها العميق على وجدانه، وأن تستثير لديه كوامن الأشواق، وأرق العواطف؛ بكل ما فيها من روعة وجمال، ودروس وعبر وقيم؛ فهي الرواية الأروع والأجمل، التي تتضاءل إزاءها كل سير العظماء والنبلاء، وقد عبّر أبو الحسن الندوي عن مثل هذه النظرة لديه، وهو يتحدث في كتابه «السيرة النبوية» عن استحالة التمكن من تصوير جوانب سيرة الرسول ﷺ، بكل كمالاتها وتنوّع جوانبها [١].

وينظر أبو الحسن إلى السيرة من حيث تميزها بدقتها وشمولها، واستيعابها لدقائق الحياة، ويصوّر ذلك، في تعبير يكشف عن مقدار ما تنبض به روحه من عواطف الحب، وانفعالات الإيمان الواعي تجاه الرسول الكريم ﷺ، وينوه بفضل علم الحديث، الذي لا مثيل له في التاريخ، وكتب السير والشمائل، وما حفظ وجمع من أدعية ومناجاة وجوامع كلم الرسول ﷺ، وما أثر عن وصافي الرسول ﷺ الحاذقين، بفضل ذلك في تقديم سيرة النبي ﷺ، على تلك الهيئة المتفردة في دقتها، واستيعابها، وجمالها [٢].

لقد كان أبو الحسن الندوي، شديد التعلق بالسيرة النبوية، قوي العاطفة تجاهها؛ من حيث هي أروع رواية من روايات الوفاء والفداء، وقوة العاطفة - كما جاء في تعبيره- وكان موطنها مصدر الإيمان والحنان، والعاطفة

---

(١) انظر: الندوي؛ السيرة النبوية ص١٣، ١٤، وانظر ص ٦.

(٢) انظر السابق ص١٢-١٣.

والوجدان، ويسترسل في تعبيره عن ذلك: «ولم تزل شعوب العالم الإسلامي، تستمد منها هذا الحب الطاهر، وهذه العاطفة الجيّاشة، وتشعل بها مجامر قلوبها، التي تتعرض حيناً بعد حين للانطفاء، وتواجه العواصف الهوجاء»[١].

بل إن أبا الحسن، وقد أفزعه ضعف العاطفة في بعض بلاد المسلمين، وضعف صلتهم الروحية وعاطفتهم بالنبي ﷺ، وهو أمر خطير؛ أدت إليه عوامل ودعوات، رأى أنها أنضبت منابع الحب، وأصابت -على حد قوله-: «النفوس بجفاف في الشعور والتفكير، سرى ذلك في الأدب والشعر، وتعدى إلى الدين ومظاهره»[٢] وحين هاله ذلك أراد مهاجمة هذا التيار، وأن يواجهه بما يعيد إثارة الحب الكامن في قلب كل مسلم، وتغذية عاطفته، ووجد أن خير ما يحقق ذلك، ويستطيع تغذية تلك العواطف وتنميتها، إنما هو سيرة الرسول ﷺ وحياته؛ فعمد لهذا الغرض، إلى جمع «ما كتب من مقالات، وما ألقى من محاضرات، وأحاديث، في خلال هذه السنوات، وهي انطباعات عن هذه الشخصية الحبيبة، وسيرتها وحياتها، وعرض سريع لما قد تغنى به الشعراء، والمحبون في ديار العجم»[٣] وقد أسمى هذه المجموعة «الطريق إلى المدينة»؛ لأنه يرى أنها «تمهد الطريق إلى هذه المدينة، وتبعث الأشواق إليها، وإلى منوّرها عليه ألف ألف سلام»[٤].

وبسبب عاطفة أبي الحسن المشبوبة، وتعلقه بحب رسول الله ﷺ، يجد أن للحديث عن الحجاز لوناً خاصاً؛ لأنه يدور حول رجل عظيم، ويتصل برسالته وتاريخه؛ فإنه حديث عن مهد الإسلام، وبلد الرسول ﷺ[٥].

(١) الندوي؛ الطريق إلى المدينة، المقدمة ص٣ .

(٢) السابق ص٣ .

(٣) السابق ص٤ .

(٤) السابق ص٤ وأشار إلى أنه قد اقتبس فكرة الكتاب من تسمية «محمد أسد» لكتابه «الطريق إلى مكة».

(٥) انظر: الطرق إلى المدينة ص٧٤ .

وبسبب تلك العاطفة المتأججة، صار لكتابته في السيرة، وعن السيرة أثرها البالغ في نفوس قرّائه، وأصبح لكتابته قوتها في استثارة العواطف. وإحياء تفاعل روح القارئ مع الأصداء الشجية، التي تطلقها عباراته وتصويره. في التعبير عن السيرة النبوية، وقد عبّر عن هذا الإحساس أديب العربية وشيخها، فضيلة الشيخ علي الطنطاوي، وهو يقدم لكتاب أبي الحسن «الطريق إلى المدينة» حين قال: «يا أخي الأستاذ أبا الحسن! تقول العامة عندنا في الشام: (المكتوب يعرف من عنوانه) ولقد هزّني عنوان كتابك، قبل أن أفتح الكتاب (الطريق إلى المدينة)».

لقد أحسست أنه أعاد لي ثلاثاً وثلاثين مرحلة في طريق العمر، لقد ردني إلى الوراء ثلاثاً وثلاثين مرحلة في طريق العمر، لقد ردني إلى الوراء ثلث قرن كامل، فرأيتني وأنا في البادية، بادية الحجاز، وقد مرّت عليّ وعلى صحبي فيها خمسون يوماً، تتلظى من فوقنا شمسها، وتتضرم من تحتنا رمالها، ترفعنا أكمة، لتلقفنا قفرة، يحرقنا العطش، ويروعنا الضلال، وقد تجمعت آمالنا كلها وأمانينا في أمل واحد، وأمنية مفردة، هي أن نرى المدينة» [1] ثم يسترسل في وصف رحلتهم الأولى تلك إلى المدينة، وما مسّهم فيها من عناء وخوف وجوع، ثم كيف تحول عذابهم ذلك إلى راحة وهناء وسعادة، حين زف إليهم دليل الرحلة البشرى بلقاء المدينة، وهو يقول: (هذا أُحُد) فتنبعث فيهم الحياة، فتنطلق ألسنتهم، وتخفق قلوبهم، وتهطل دموعهم حباً وشوقاً، ثم يتساءل: لماذا هو، بعد أكثر من ثلاثين سنة، من ذلك الموقف، لم يعد يحس ذلك الشوق، ولا يشعر بمثل تلك الفرحة: أهو طول المقام؟! أم هو اختصار مسافة المكان والزمان [2] ؟! ثم يقول: «لقد كدت أفقد ثقتي بنفسي، ولكني لما

(١) الطنطاوي : تقديم كتاب «الطريق إلى المدينة» ص٧-١٠.
(٢) انظر السابق.

قرأت كتابك، يا أخي أبا الحسن «الطريق إلى المدينة» أحسست بالشوق يعود، فيعتلج بنفسي، فعلمت أن قلبي ما خلا من جوهر الحب، ولكن هموم العيش، وطول الألفة قد غطيا جوهره بالغبار، فأزاح كتابك عن جوهره الغبار».

«وكدت أفقد ثقتي بالأدب حين لم أعد أجد عند الأدباء هذه النغمة العلوية، التي غنّى بها الشعراء، من لدن الشريف الرضي، إلى البرعي، فلما قرأت كتابك، وجدتها، وجدتها في نثر هو الشعر؛ إلا أنه بغير نظام، فيا أبا الحسن لك الشكر على أن رددت إليّ ثقتي بنفسي، وثقتي بأدب لغتي..» (١).

السيرة هي المادة الأولى لكتاباته ومحاضراته:

لقد كانت تلك العاطفة القوية، التي يعيش بها الشيخ أبو الحسن، تجاه السيرة النبوية، بسبب نشأته التي تربى فيها، منذ نعومة أظفاره، على دروس السيرة وعظاتها البليغة، كانت عاملاً قوياً في توجيه حياته الفكرية، وصبغها بطابع التأثر البالغ بتلك السيرة؛ بحيث أصبحت مادة كتاباته ومحاضراته الأساس، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، وأصبح تفكيره متعلقاً بتلك السيرة، ومنطلقاً منها في توجهاته وتوجيهاته، وصارت السيرة النبوية موضوعاً محورياً في نتاجه الفكري، تشيع في أرجائه، وتشع بنورها، في مباحثه، وقضاياه الجزئية والكلية، سافرة أحياناً ومتوارية أحياناً أخرى، حسب الموضوع، وطريقة تناوله.

ولا عجب أن يكون ذلك شأن أبي الحسن، وهو الداعية لهذا الدين، الذي يقوم في أساسه على القرآن الكريم، والسيرة النبوية الكريمة، ثم إنه يرى أنهما القوتان العظيمتان القادرتان على التأثير البالغ؛ فهو يقول: «والقرآن وسيرة محمد ﷺ قوتان عظيمتان تستطيعان أن تشعلا في العالم الإسلامي

---

(١) الطنطاوي؛ تقديم الطريق إلى المدينة ص١٠.

نار الحماسة والإيمان، وتحدثا في كل وقت ثورة عظيمة على العصر الجاهلي، وتجعلا من أمة مستسلمة منخذلة ناعسة، أمة فتية ملتهبة حماسة وغيرة وحنقاً على الجاهلية، وسخطاً على النظم الجائرة..».

«ولكن بتأثير القرآن والسيرة النبوية، إن وجدا إلى القلب سبيلاً، يحدث صراع بين الإيمان والنفاق، واليقين والشك..» [١].

والشيخ أبو الحسن -وهو يهدف من كتاباته الإسلامية، أن يعيد المسلمين إلى إسلامهم، وأن يعيد ثقتهم بأنفسهم وبدينهم- يعمد دائماً إلى التأكيد على فاعلية دين الإسلام، وأهميته للإنسانية كلها، وهو ينطلق في كل ذلك من فهم عميق لروح الإسلام، وهذه مسألة يدركها كل من قرأ بعناية كتابات الشيخ، ومن هؤلاء الكاتب الإسلامي «سيد قطب» رحمه الله، الذي قال في تقدمة كتاب «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين»: «وأخيراً فإن الخصيصة البارزة في هذا الكتاب كله، هي الفهم العميق لكليات الروح الإسلامية في محيطها الشامل، وهو لهذا لا يعد نموذجاً للبحث الديني والاجتماعي فحسب؛ بل نموذجاً كذلك للتاريخ كما ينبغي أن يكتب من الزاوية الإسلامية» [٢].

أجزاء من السيرة في مؤلفاته:

لما كانت السيرة النبوية مادة أساس، وأوليّة لنتاج الشيخ أبي الحسن الندوي، وجدنا أجزاء من السيرة تنبث في نشاطه الفكري، والتأليفي، في كتبه ومحاضراته، ومقالاته المكتوبة أو المذاعة.

وهذا جانب على قدر من الأهمية في بحث السيرة في أدبيات أبي الحسن، ويحتاج للوفاء بحقه، أن يتم تتبعه في جميع نتاج الندوي الفكري

(١) الندوي؛ ماذا خسر العالم ص٢٧١.
(٢) سيد قطب، ماذا خسر العالم... ص١٥.

والتأليفي في كل كتاباته، وهو جدير ببحث مطول مستقل؛ لتحقيق الدقة والاستقصاء، والشمول، ومن ثم تناوله بالدراسة والتحليل، ولا شك في أن مثل هذا العمل، يتطلب وقتاً، لا يسمح به المجال المتاح حالياً في مثل هذه العجالة العامة.

ولكن هذا لا يمنع من إلقاء ضوء سريع على أمثلة من تناول السيرة، أو أجزاء منها، في بعض مؤلفات الشيخ الندوي، تكون نموذجاً، يعطي صورة ما، عن هذا الجانب. وبيان ذلك فيما يلي:

١- من أهم مؤلفات الشيخ أبي الحسن، التي كتبها بالعربية كتابه «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» [١]. وهو من خير الأمثلة، التي تكشف مدى تغلغل فاعلية سيرة النبي ﷺ، ورسالته في تفكير أبي الحسن، في الحضارة، ونظرته إلى مسيرة الإنسانية، وما تعانيه من انحطاط، وخسران بسبب انحطاط المسلمين، وماذا تربحه الإنسانية والمدنية برقيهم ونهضتهم، وقد كان يرى -دائماً- أن ذروة رقي الإنسانية، ونهضتها، هو ذلك العهد الزاهي الزاهر، عهد الرسول ﷺ، وعهد صحابته، وكان ذلك الكتاب صدى لهذه الرؤية العميقة في نفسه، وقد عبر صراحة عن ذلك بقوله: «في تلك الفترة نفسها (لعلها عام ١٩٤٤) شعرت في نفسي برغبة غامضة ملحّة لم أستطع أن أغالبها في تأليف كتاب يتحدث عن: ماذا خسر النوع البشري بانحطاط المسلمين، وماذا ربح العالم والمدنية والشعوب والأمم برقيهم ونهضتهم..

وقد غلب هذا الموضوع على تفكيري ومشاعري، وأخذ عليّ مجامع قلبي، حتى أن تكون الكتابة بالعربية..» [٢].

---

(١) كانت طبعته الأولى عام ١٩٥٠ في القاهرة، وقامت بها لجنة التأليف والترجمة والنشر، ثم توالت طبعاته العديدة. وترجم إلى الإنجليزية باسم Islam and the Word وترجم كذلك إلى الأردية، والفارسية، والتركية.

(٢) الندوي؛ في مسيرة الحياة ١/١٧٤، ١٧٥.

ولهذا وجدنا هذا الكتاب الرائع يتحول في أجزاء من أبوابه، وفصوله إلى مباحث ودراسات تحليلية في سيرة الرسول ﷺ وتجربة المسلمين في أخذهم بالإسلام في عهده.

ووجدناه في الباب الأول يدرس العصر الجاهلي، وفي الفصل الأول يصور احتضار الإنسانية، وفي هذا يقول: «كان القرن السادس والسابع (لميلاد المسيح) من أحط أدوار التاريخ بلا خلاف، فكانت الإنسانية متدلية منحدرة منذ قرون، وما على وجه الأرض قوة تمسك بيدها وتمنعها من الرّدى، فقد زادتها الأيام سرعة في هبوطها، وشدة إسفافها، وكان الإنسان في هذا القرن قد نسي خالقه، فنسي نفسه ومصيره، وفقد رشده، وقوة التمييز بين الخير والشر، والحسن والقبيح، وقد خفتت دعوة الأنبياء من زمن، والمصابيح التي أوقدوها قد انطفأت من العواصف التي هبت بعدهم، أو بقيت ونورها ضعيف ضئيل لا ينير إلا بعض القلوب، فضلاً عن البيوت، فضلاً عن البلاد» [١] ثم يستعرض في الفصل الثاني (النظام السياسي والمالي في العصر الجاهلي)[٢] عدة أبحاث عن صورة الحياة الجاهلية قبل الإسلام، تمهيداً للحديث عن انتقال الإنسان من الجاهلية إلى الإسلام، والحديث عن الدعوة إلى الإسلام. التي جاء بها النبي ﷺ، وإدراك أهل الجاهلية أن هذه الدعوة تعني أنها سهم يسدد إلى كبد الجاهلية» [٣].

ثم جاء الباب الثاني ليتناول الرحلة من الجاهلية إلى الإسلام[٤]، ويبين في الفصل الأول (منهج الأنبياء في الإصلاح والتغيير) [٥] وفيه يتحدث عن

---

(١) الندوي - ماذا خسر العالم ص٢٤، وانظر بعدها إلى ٧٧. الطبعة السادسة، دار الكتاب العربي - بيروت. ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م.
(٢) السابق ص٦٦-٧٧.
(٣) انظر السابق ص٨٤.
(٤) انظر السابق ص٨٤-٩٨.
(٥) انظر السابق ص٧٨-٨٥.

(العالم الذي واجهه محمد ﷺ) [١] و (نواحي الحياة الفاسدة) [٢] و(لم يكن الرسول رجلاً إقليمياً أو زعيماً وطنياً) [٣] و(لم يبعث لينسخ باطلاً بباطل) [٤] و (قفل الطبيعية البشرية ومفتاحها) [٥].

ثم جاء الفصل الثاني (رحلة المسلم من الجاهلية إلى الإسلام) [٦] وفيه تناول (دفاع الجاهلية عن نفسها) [٧] و(في سبيل الدين الجديد) [٨] و(التربية الدينية) [٩] و (في مدينة الرسول ﷺ) [١٠] و (انحلت العقدة الكبرى) [١١] و(أغرب انقلاب وقع في تاريخ البشر) [١٢] و (تأثير الإيمان الصحيح في الأخلاق والميول) [١٣] و(الثابت أمام المطامع والشهوات) [١٤] و(الأنفة وكبر النفس) [١٥] و(الاستهانة بالزخارف والمظاهر الجوفاء) [١٦] و(الشجاعة النادرة والاستهانة بالحياة) [١٧] و(من الأنانية إلى العبودية) [١٨] و(المحكمات والبينات في الإلهيات) [١٩].

---

(١) انظر السابق ص٧٨.
(٢) انظر السابق ص٧٩-٨١.
(٣) انظر السابق ص٨١.
(٤) انظر السابق ص ٨٢.
(٥) انظر السابق ص٨٢- ٨٣.
(٦) انظر السابق ص٨٤-٩٨.
(٧) انظر السابق ص٨٤.
(٨) انظر السابق ص٨٥-٨٦.
(٩) انظر السابق ص٨٦.
(١٠) انظر السابق ص٨٦-٨٧.
(١١) انظر السابق ص٨٧-٨٨.
(١٢) انظر السابق ص٨٨-٨٩.
(١٣) انظر السابق ص٨٩-٩٠.
(١٤) انظر السابق ص٩٢.
(١٥) انظر السابق ص٩٢-٩٣.
(١٦) انظر السابق ص٩٣.
(١٧) انظر السابق ص٩٤-٩٥.
(١٨) انظر السابق ص٩٦-٩٧.
(١٩) انظر السابق ص٩٧-٩٨.

وفي الفصل الثالث يتناول (المجتمع الإسلامي) [(١)] في الموضوعات الآتية: (طاقة زهر) [(٢)] و (ليس منا من دعا إلى عصبية) [(٣)] و(كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته)[(٤)] و(لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق)[(٥)] و(حلول الرسول محل الروح والنفس من المجتمع)[(٦)] و(نوادر الحب والتفاني)[(٧)] و(عجائب الانقياد والطاعة) [(٨)].

ويعالج في الفصل الرابع (كيف حوّل الرسول خامات الجاهلية إلى عجائب الإنسانية)[(٩)]. وفي مطلع هذا الفصل يقول المؤلف: «بهذا الإيمان الواسع العميق، والتعليم النبوي المتقن، وبهذه التربية الحكيمة الدقيقة. وشخصيته الفذة، وبفضل هذا الكتاب السماوي المعجز، الذي لا تنقضي عجائبه، ولا تخلق جدته، بعث رسول الله ﷺ، في الإنسانية المحتضرة، حياة جديدة» [(١٠)] ويختم هذا الفصل بموضوع (كتلة بشرية متزنة) [(١١)].

وفي الباب الثالث يعرض (للعصر الإسلامي) [(١٢)] ويتناول في الفصل الأول (عهد القيادة الإسلامية) [(١٣)] وفي الفصل الثاني (الانحطاط في الحياة الإسلامية) [(١٤)] وفي الفصل الثالث (دور القيادة العثمانية) [(١٥)].

---

(١) انظر السابق ص٩٩-١٠٧ .
(٢) انظر السابق ص٩٩.
(٣) انظر السابق ص١٠٠ .
(٤) انظر السابق ص١٠٠-١٠١.
(٥) انظر السابق ص١٠١ .
(٦) انظر السابق ص١٠١-١٠٢ .
(٧) انظر السابق ص١٠٢-١٠٥ .
(٨) انظر السابق ص١٠٥-١٠٧
(٩) انظر السابق ص١٠٨-١١١ .
(١٠) انظر السابق ص١٠٨ .
(١١) انظر السابق ص١١٠-١١١ .
(١٢) انظر السابق ص١١٢-١٥٥ .
(١٣) انظر السابق ص١١٢-١٢١ .
(١٤) انظر السابق ص١٢٩-١٤٣.
(١٥) انظر السابق ص١٤٤-١٥٥ ثم يتناول في الباب الرابع (العصر الأوروبي) ص١٥٦-٢٥٧، وفي الفصل الأول تناول (أوروبا المادية) ص١٥٦-١٩٥، وفي الفصل الثاني تناول الجنسية الوطنية في أوروبا ص١٩٦-٢١٢، وفي الفصل الثالث تناول (أوروبا إلى الانتحار) ص٢١٣-٢٢٨، وفي الفصل الرابع (رزايا الإنسانية المعنوية في عهد الاستعمار الأوروبي) ص٢٢٩-٢٥٧.

ثم يأتي الباب الرابع ليتناول (العصر الأوربي)، وفي الباب الخامس، وهو الأخير، يتناول المؤلف (قيادة الإسلام للعالم)[١] ليتعرض في الفصل الأول إلى (نهضة العالم الإسلامي) [٢]. وفي الفصل الثاني إلى (زعامة العالم العربي)[٣] وفي هذا الفصل يتحدث عن (أهمية العالم العربي) [٤] وعن (محمد رسول الله روح العالم العربي) [٥].

ويلاحظ هنا أن المؤلف يبدأ كتابه بسيرة الرسول ﷺ، وما يتعلق بها، ثم يختم في هذا الفصل الأخير بالحديث عن الصلة بالرسول ﷺ، وسيرته، والدين والإيمان، ثم يعرض لموضوع (الإيمان هو قوة العالم العربي)[٦] و(تضحية شباب العرب قنطرة إلى سعادة البشرية)[٧] وهنا يسجل قيام رسول الله ﷺ، وصحبه الكرام، بحق الجهاد في سبيل الإسلام، وأداء الرسالة، متحملين المتاعب والمصاعب، زاهدين في مطامع الحياة، عازفين عن الشهوات واللذائذ، بسبب برّ قلوبهم، وعمق علمهم، وقلة تكلفهم، وقوتهم على التضحية والإيثار [٨].

ثم يأتي آخر مبحث في هذا الكتاب بعنوان (إلى قمة القبلة العالمية)[٩] ليربط بين التطور الذي حدث في تاريخ العرب، وبعثة الرسول ﷺ، وقيادته العظيمة، التي أحدثت ذلك التطور، وقد أكرم الله العرب بتلك القيادة، لإخلاصهم في سبيل الدعوة، وتفانيهم في سبيلها، فأحبهم العالم، وعدتهم

(١) انظر السابق ص٢٥٨.
(٢) انظر السابق ص٢٥٨-٢٧٧.
(٣) انظر السابق ص٢٧٨-٢٩٨.
(٤) انظر السابق ص٢٧٨.
(٥) انظر السابق ص٢٧٩.
(٦) انظر السابق ص٢٨٠.
(٧) انظر السابق ص٢٨١.
(٨) انظر السابق ص٢٨١-٢٨٥.
(٩) انظر السابق ص٢٩٥-٢٩٨.

الأمم المفتوحة المنقذين من الضلال والجاهلية والوثنية، والقادة إلى الجنة ومعلمي الحضارة. ثم يبين أبو الحسن أن الطريق لقيادة العالم مرة أخرى ممهد ميسور، إنه «الإخلاص للدعوة الإسلامية، واحتضانها، وتبنيها، والتفاني في سبيلها، وتفضيل منهج الحياة الإسلامي، على جميع مناهج الحياة»[١]. وينهي أبو الحسن كتابه بفقرة أخيرة، يوجهها إلى العرب، مستنهضاً هممهم لأخذ زمام المبادرة والاتجاه إلى قيادة الإنسانية مرة أخرى، في طريق الهداية التي اختارهم الله لقيادة العالم الإنساني نحوها[٢].

٢- «**المد والجزر في تاريخ الإسلام**، وقد استعرض في هذه المحاضرة المطبوعة [٣]، حالة العرب قبل الإسلام، وصوّر ما كانوا عليه في الجاهلية من انحطاط وخمول، ثم ذكر الثورة المدهشة، والتغيّر الذي فاق التصوّر، وهو ما أحدثه الإسلام» في معتقداتهم وعقليتهم، وضميرهم، واستعداداتهم ومواهبهم، وطموحهم وعزائمهم»[٤] ثم حاول «الدلالة على أسباب هذا التحول ومصدره، على لسان المؤرخين والناقدين الأجانب من غير المسلمين، وحل تلك اللغزة التي لا تزال تحيّر العقول، وتدهش العالم»[٥] وبعد أن استعرض تلك الأسباب الظاهرة التي اعتمد عليها المؤرخون الأجانب، يرد عليها، ويقرر» أن السبب الأصيل كان هو البعثة المحمدية -على صاحبها الصلاة والسلام- وتنفيذ المسلمين العرب للتعاليم الإسلامية، وقيامهم بها، وقوة الإيمان واليقين..»[٦].

(١) انظر السابق ص٢٩٥-٢٩٨.
(٢) انظر السابق ص٢٩٨.
(٣) نشرت أولاً في مصر، ثم نشرت في دمشق، والهند (انظر في مسيرة الحياة ١/ ١٧٣).
(٤) أبو الحسن الندوي في مسيرة الحياة ١/ ١٧٣.
(٥) انظر السابق.
(٦) انظر السابق.

٣- كتاب «**الطريق إلى المدينة**» (١) واحتوى هذا الكتاب على العديد من المقالات والموضوعات التي تجعل من الرسول ﷺ، وموطنه، ورسالته محوراً لها، وقد جاءت على النحو الآتي: (الكتاب الذي لا أنسى فضله، محمد إقبال في مدينة الرسول ﷺ، وفود الأمة بين يدي نبيها ﷺ، من غار حراء، ميلاد عالم جديد، في مهد الإسلام، البعثة المحمدية، صلة مسلمي العجم بالنبي العربي ﷺ، شعراء العجم في مدح سيد العرب والعجم) وقد لقي الكتاب قبولاً عظيماً، وأعجب به عدد من العلماء والأدباء، وأبدوا تأثرهم العميق بما جاء فيه، وكان له فضله في إشعال جذوة الإيمان والحب للرسول ﷺ، وقد ذكر المؤلف ذلك في مقدمته مبيناً أن» تلك قيمة الكتاب» (٢) وقد صوّر الكاتب الإسلامي الشيخ علي الطنطاوي تأثره العميق بهذا الكتاب، وقدرة كاتبه الفائقة على التعبير في براعة وتوفيق، وذلك حين قال: «لقد كدت أفقد ثقتي بنفسي، ولكني لما قرأت كتابك يا أخي أبا الحسن «الطريق إلى المدينة» أحسست بالشوق يعود فيعتلج بنفسي، فعلمت أن قلبي ما خلا من جوهر الحب، ولكن هموم العيش وطول الألفة، قد غطيا جوهره بالغبار، فأزاح كتابك عن جوهره الغبار...إلخ» (٣).

٤- كتاب «**قصص النبيين للأطفال**» وهو في خمسة أجزاء، وكان الجزء الخامس من هذه السلسلة عن (سيرة خاتم النبيين للأطفال) (٤) وقد التزم في كتابته بأمور منها تبسيط القصص، وعرضها بطريقة مقبولة لدى الطلاب، تحبب إليهم الإيمان، وترسخ العقيدة، وتعمّق في نفوسهم عظمة النبي ﷺ.

---

(١) ظهرت الطبعة الأولى سنة ١٣٨٥هـ ثم ظهرت الطبعة الثانية سنة ١٣٩٠، وقد نقل إلى اللغات التركية، والأردية، والهندية، والإنجليزية، (انظر مقدمة المؤلف ص٥).

(٢) أبو الحسن الندوي؛ الطريق إلى المدينة ص٥.

(٣) تقديم الشيخ الطنطاوي ص١٠.

(٤) ظهر بالعربية والأردية والفرنسية والإنجليزية وجاءت الطبعة العربية في ٣٥٥ صفحة وقد طبع عام ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م) وكانت طبعته الأخيرة عام ١٤١٥هـ نشر مؤسسة الصحافة والنشر، ندوة العلماء - الهند - ومؤسسة الرسالة - بيروت.

٥- «**فضل البعثة المحمدية على الإنسانية**» باللغة العربية [١].

٦- «**في ظلال البعثة المحمدية**» باللغتين العربية والأردية [٢].

٧- «**صورتان متضادتان لنتائج جهد الرسول الأعظم والمسلمين الأوائل**، باللغات العربية، والأردية، والإنجليزية [٣].

٨- «**النبي الخاتم**» بالعربية والإنجليزية [٤]. وفيه مقال «القدوة الدائمة للأجيال البشرية كلها، وكيف أمكن ذلك».

٩- «**النبي الخاتم والدين الكامل**» بالعربية والأردية [٥].

١٠- «**النبوة والأنبياء في ضوء القرآن**» بالعربية والأردية والإنجليزية [٦].

١١- «**كيف دخل العرب التاريخ**» بالعربية [٧].

١٢- «**كيف ينظر المسلمون إلى الحجاز والجزيرة العربية**» بالعربية والأردية [٨].

١٣- «**دراسة للسيرة النبوية من خلال الأدعية المأثورة المروية**» [٩].

١٤- «**رسالة سيرة النبي الأمين إلى إنسان القرن العشرين**» بالعربية [١٠].

١٥- «**روائع من أدب الدعوة في القرآن والسيرة**» بالعربية والأردية [١١].

---

(١) وجاء في (٤٥) صفحة ونشره المجمع الإسلامي العلمي - الهند.

(٢) وجاء في (١٦) صفحة ونشره المجمع الإسلامي - الهند سنة ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

(٣) وجاء في (١١٦) صفحة، ونشره المجمع الإسلامي العلمي -لكهنؤ- الهند، ودار الصحوة بالقاهرة سنة ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

(٤) نشره المجمع الإسلامي العلمي - الهند، سنة ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م.

(٥) نقله من الأردية إلى العربية، نور عالم أميني الندوي ونشره المجمع الإسلامي بالهند.

(٦) وطبع عدة طبعات ونشره المجمع الإسلامي العلمي - الطبعة الثالثة، عام ١٣٨٧هـ.

(٧) جاء في (٢٧) صفحة ونشره المجمع الإسلامي العلمي - الهند سنة ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠.

(٨) جاء في (١٤٥) صفحة، نشره المجمع الإسلامي العلمي الهند، الطبعة الثانية ١٤١١هـ/١٩٩١م.

(٩) نقلها إلى العربية من الأردية الأستاذ نور عالم الأميني الندوي. ونشرت في المختار الإسلامي- القاهرة.

(١٠) جاء في (٢٤) صفحة، نشر دار الحراء للكتاب - المحلة الكبرى - مصر.

(١١) جاء في (١٢٧) صفحة، دار القلم، الكويت الطبعة الثامنة ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

١٦- «**جوانب السيرة المضيئة في المدائح النبوية الفارسية والأردية**» بالعربية[١]، ونوه بما جاء في هذه المدائح من فضل الإسلام، وآثار البعثة النبوية. ومظاهر تلك الآثار في العقيدة، والأخلاق، والحضارة، والعلوم، وواقع العالم البشري، وبين ما لتلك الأشعار الفارسية والأردية من قيمة في مكتبة السيرة النبوية، وأثر عميق في شعور أهل تلك البلاد وذوقهم، على بعدهم عن مهد الإسلام ومبعث رسوله، عليه أفضل الصلاة والسلام[٢].

١٧- «**حديث الغرب؛ قصة الأمة الراقية مع رسالات الأنبياء**»[٣] وجاء في كلام المؤلف: «نظرات الحكمة الإلهية إلى أهل الأرض عربهم وعجمهم، فاصطفت لنشأة العالم الثانية الأمة العربية، ولم تكن دونهم الأمم الوثنية الأخرى في عبادة الأصنام، وانحطاط الأخلاق، غير أنها لم تلحقها عدوى المدنية المصطنعة، والحضارة المزورة، والرذائل التي تأتي بها الحكومات، وتحملها العبودية السياسية والروحية»[٤].

١٨- «**نبوة تتحدى ومعجزة تتحقق**»[٥].

١٩- «**فضل البعثة المحمدية على الإنسانية ومنحها العالمية الخالدة**»[٦].

٢٠- **كتاب «السيرة النبوية»** وهو الكتاب المستقل الذي أفرده للسيرة النبوية وسيأتي الحديث عنه مفصلاً في الفصل القادم، إن شاء الله.

---

(١) ألقاها في ندوة علمية عن المدائح النبوية، نظمها مكتب رابطة الأدب الإسلامي في الهند، في رحاب جامعة كاشف العلوم الواقعة في جامع أورنك آباد في المدة من ٢٥-٢٧ من صفر سنة ١٤٠٩هـ/٧-٩ أكتوبر ١٩٨٨م.

(٢) انظر الندوي ؛ في مسيرة الحياة ٢/٢٣٤.

(٣) مقال للمؤلف نشر في اللغة الأردية والإنجليزية ونقله إلى العربية الأستاذ عبد الله عباس الندوي.

(٤) أبو الحسن الندوي؛ حديث مع الغرب ص٩١، ٩٢.

(٥) مقال للمؤلف نشر في مجلة البعث الإسلامي، العدد الرابع، المجلد الخامس عشر، رمضان، ١٣٩٠هـ، نوفمبر ١٩٧٠م.

(٦) محاضرة ألقاها المؤلف في ٢٠/٤/١٣٩٥/ ٢/٥/١٩٧٥م، في قاعة المحاضرات الكبرى بمدينة لكهنؤ - الهند، ونقلها إلى العربية الأستاذ محمد الحسني، رئيس تحرير مجلة «البعث الإسلامي» وقد جعلها المؤلف الفصل الأخير في كتابه «السيرة النبوية».

الفصل الثاني

كتاب «السيرة النبوية»

تهيب الكتابة في السيرة:

على الرغم من أن أبا الحسن ظل يمتح من معين السيرة النبوية في كل كتاباته، وظل ينطلق من أفكارها ويستهدي بتوجيهاتها، ودروسها وعبرها، في مؤلفاته ومحاضراته، وأحاديثه بصورة مباشرة، وغير مباشرة؛ إلا أنه كان يتهيب الكتابة في موضوع السيرة النبوية كتاباً مستقلاً، يتوسع فيه، ويفصل الحديث [١].

وكان من أسباب ذلك التهيب، كما صرح بذلك الشيخ أبو الحسن، إحساسه بضيق الوقت، وضعف البصر، «ولأنه جرّب أن كتابة سيرة لعظيم من العظماء، فضلاً عن نبي من الأنبياء، فضلاً عن سيد الأولين والآخرين، وأشرف المرسلين، من أصعب الموضوعات، التي يعالجها المؤلفون وأدقها، وقد مارس موضوع تأليف السير والتراجم للشخصيات المشهورة وأعلام المسلمين من القدماء والمحدثين والمعاصرين عملياً، فقد اشتغل بكتابة السيرة، وحياة العظماء من أئمة المسلمين وقادتهم، والمصلحين والعلماء الربانيين، بعدما شب عن الطوق، وأمسك القلم، وعرف الكتابة، وقد كتب بقلمه آلافاً من الصفحات، في سير هؤلاء العظماء، وعاش بين التراجم والسير منذ الصغر، فقرأ منه الكثير، وكتب منها الكثير، ومن هنا عرف دقة هذا الموضوع، وضخامة هذه المسؤولية» [٢].

---

(١) انظر: أبو الحسن الندوي؛ السيرة النبوية ص١١ .
(٢) السابق ص١١.

وكان من جوانب صعوبة الموضوع في نفسه، أن من المؤلفين « من تغلب عليه نزعة أو اتجاه خاص، فيُخضعُ له من يترجمه؛ من حيث يشعر ومن حيث لا يشعر، فتأتي كتابته صورة لعقليته وعاطفته، ممثلة لاتجاه خاص، كان يسيطر على مؤلف الكتاب، ومنهم من يريد أن يصور أحد العظماء فيصور نفسه، ويريد أن ينظر إليه نظرة مجردة فيبدأ ينظر إليه من خلال ميوله، وتجاربه، ووجهة نظره، ويسلط عليه مقاييسه الخاصة [١].

لكل ذلك كان الشيخ يتهيب الكتابة في موضوع السيرة، ويستعظم التأليف فيها، ويستصغر نفسه [٢]، وذكر أن عدداً من الفضلاء وكرام أصدقائه، حدثوه بأن يقوم بتأليف كتاب في «السيرة النبوية» في اللغة العربية، يراعي فيه عقلية الجيل وذوقه، ومستوى فهمه ونفسيته، وما جدّ من طلبات وحاجات [٣].

ولكن الله شرح صدر الشيخ أخيراً لتأليف كتاب في السيرة، فعكف على هذا الموضوع، وعاش فيه، يقرأ كتب السيرة الشريفة، والحديث النبوي، وكل ما يعن في هذا السبيل، مما كتب قديماً وحديثاً [٤].

هدفه من هذا الكتاب:

كان من أهداف الشيخ أبي الحسن، أن يحقق لنفسه سعادة ينشدها بهذا التأليف الشريف، وهي كما قال: « لينخرط في سلك المؤلفين النوراني في هذا الموضوع الحبيب الجليل» [٥] وأن يكون ذخراً للآخرة [٦]، وأن يكون «وسيلة لدراسة

---

(١) السابق ص١١.

(٢) انظر: الندوي؛ السيرة النبوية ص١٤.

(٣) انظر السابق ص ١٤، ١٥ وذكر الشيخ أن في مقدمة أولئك الأصدقاء، فضيلة الشيخ محمد محمود الصواف عضو المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة، ومستشار وزارة المعارف في المملكة العربية السعودية.

(٤) انظر السابق ص١٥.

(٥) الندوي؛ السابق ص١٠.

(٦) انظر السابق ص١٧.

هذه السيرة الطاهرة، والاستزادة فيها، والانتفاع بها، وكفى للمؤلف شكراً، وللكتـ
قيمة، إذا أثار كامن الحب والإيمان في نفس مؤمن، وانجذاباً في قلب أحد من غيـ
المسلمين إلى هذه المسيرة الطاهرة العطرة، وحملته على دراسة الإسلام وتفهمه،
وكان يحس بأن السيرة يجب أن تتاح لأولئك الذين لم تسمح ظروفهم بالنشـ
في البيئة المسلمة المؤمنة، وإنما ولدوا في بيئات غير إسلامية، يجب أن تتـ
لهم الفرصة لأن تهب عليهم نفحات هذه السيرة العطرة [٢]؛ ومن هنا كان مـ
أهداف كتابته للسيرة النبوية، أن يجعلها متاحة لغير المسلمين كذلك؛ ولهذا فقـ
نشر كتابه «السيرة النبوية» بعدة لغات هي العربية، والأردية، والإنجليزية.

منهجه في كتابة السيرة:

قبل تناول منهج الشيخ الندوي في كتابه السيرة النبوية، تجدر الإشـ
إلى الفرق بين السيرة النبوية، والسير الأخرى؛ سواء أطلقنا عليها سيرة ذاتية
أو أدبية؛ فالسيرة الذاتية في الأصل هي السيرة التي يكتبها من كـ
موضوعها، وهو صاحبها نفسه [٣]، وقد يكتبها غير صاحبها، والسيرة الأدبية
تتناول العواطف، كما تتناول الفكر؛ وهناك عواطف تفجّر عنها الإبداع الأدبي
على حد تعبير «ليون إدل» [٤]، ولا يمكن أن نصرف النظر عن أن كاتب السيرة
المطلقة (الأدبية -الذاتية) يتجه إلى تعرية الحقائق الخاصة بالموضوع كمـ
يفهمها، ولن يكون ما يقدمه سوى رؤياه، وتصويره، وتنظيمه [٥]؛ لأن السيرة

(١) الندوي؛ السابق ص١٧.

(٢) انظر السابق ص٧.

(٣) انظر: جوج ماي؛ السيرة الذاتية ص١٦، تعريب محمد القاضي وعبد الله صولة، بيت الحكمة (المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات، قرطاج - تونس ١٩٩٢م.

(٤) انظر: ليون إدل؛ فن السيرة الأدبية ص١٧، ترجمة صدقي خطاب، نشر مؤسسة الحلبي وشركاه، القاهرة بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر -القاهرة- نيويورك، ١٩٧٣م.

(٥) انظر السابق ص٢٠، ٢١.

هنا إنما هي «إعادة إخراج وإبراز ما تجمع في عقل المؤرخ، أو كاتب السيرة عن مواد لا حياة فيها عن طريق الكلمات في إطار أدبي، أو شبه علمي، وتاريخي، وهكذا يصبح عقل الكاتب هو الذي يزشده، والذي يستطيع أن يضع الحقائق عارية كما يفهمها»[١].

كما أن هناك فروقاً تتسم بها السيرة الذاتية عن السيرة تبدو في[٢]:

١- أنها لا تنتهي بموت الشخصية صاحبة السيرة.

٢- موادها ذاتية، ومنطقها شعري؛ بحيث لا تسير وفاق المنهج التاريخي القائم على المبادئ العقلانية؛ بمعنى أن كاتب السيرة مدار عمله في الأساس، قوامه مواد ذاتية، تنطلق من ذاكرته الخاصة.

٣- كاتب السيرة الذاتية، تنظم الوقائع في ذهنه، وفاق نسق يقطع مسار الزمن عكساً، فهو يرتب المادة عند عرضها ترتيباً لا يساير الترتيب الزمني المتسلسل، الذي يأخذ مساره متجهاً من الولادة إلى الموت، معتمداً في ذلك على الوثائق والبحوث، وهو المساق التاريخي في السيرة، الذي يرسم الصورة عبر الزمن؛ «أي أن الشخصية التي يرسمها كاتب السيرة تزداد معالمها وضوحاً كلما تقدمت في السن، أما كاتب السيرة الذاتية؛ فإن التقدم في السن عنده، لما كان تجربة معيشة، لا مبدأ من المبادئ المعتمدة في توضيح معالم الشخصية؛ فإنه يؤدي حتماً إلى الموت»[٣].

ومن هنا ندرك أن ما يقدمه الشيخ الندوي عن سيرة النبي ﷺ. ليس أبداً سيرة ذاتية، أو أدبية؛ وإنما هي كما عبر عنها «سيرة نبوية» تسير وفاق منطق التاريخ، يقص أحداثها، ويرتبها ترتيباً زمنياً.

---

(١) ليون إدل؛ فن السيرة الأدبية ص٢٢.

(٢) انظر: جورج ماي؛ السيرة الذاتية ص١٧٤-١٧٩.

(٣) جورج ماي؛ السيرة الذاتية ص١٧٩.

والشيخ وهو يكتب في سيرة النبي ﷺ، يعي هذا الجانب، ويعرف أنه يكتب «سيرة نبي من الأنبياء، مبعوث من الله، مؤيد منه، لا سيرة عظيم من العظماء، أو زعيم من الزعماء»[1] وهذا الوعي بهذا الجانب جعل الشيخ الندوي، يحس بضخامة مسؤولية الكتابة في سيرة النبي، ﷺ ، وعرف دقة الموضوع؛ وأن من المؤلفين من يخضعون من يترجمون له، من حيث يشعرون أو لا يشعرون، لنزعات تغلب عليهم، أو اتجاهات خاصة بهم، فتأتي كتابتهم معبرة عن عقلياتهم، أو ممثلة لاتجاهات تسيطر عليهم، أو منطلقة من ميولهم ووجهات نظرهم[2].

ولذلك فقد اعتمد المؤلف على الحوادث والواقع، وجعل مادة السيرة، هي التي تتحدث إلى قلوب القراء وعقولهم، أكثر من اعتماده على فلسفة الحوادث، وتعليل الأخبار، مكتفياً بأن السيرة النبوية «غنيّة بجمالها وروعتها وسحرها على النفوس والعقول، ووقعها منها موقع القبول، من شفاعة شافع وتدليل حكيم»[3].

ولهذا قام، قبل أن يخوض في كتابه السيرة، بدراستها دراسة وافية متعمقة في مصادرها الصحيحة من كتب الحديث، ومدونات التاريخ الإسلامي المعتمدة، ويقول الشيخ الندوي عن هذا الجانب: فعكفت على هذا الموضوع وعشت فيه أقرأ كتب السيرة، والحديث، وكل ما أستعين به في هذا الموضوع من القديم والحديث، وبدأت أكتب معتمداً على أصح ما كتب، وألف في هذا الموضوع، وكان أكثر اعتمادي على كتب الصحاح و«سيرة ابن هشام» و«زاد المعاد» لابن قيّم الجوزية، والسيرة النبوية لابن كثير، وهو ما جاء في كتابه الكبير «البداية والنهاية»[4].

---

(١) الندوي؛ السيرة النبوية ص٥.

(٢) السابق ص١١.

(٣) السابق ص٦.

(٤) السابق ص١٥.

وهذه المصادر الصحيحة والكثيرة تعطي للسيرة النبوية ميزة تنفرد بها عن سير الأفراد كافة؛ بحيث تتيح لنا معلومات دقيقة وشاملة، تستوعب كثيراً جداً من دقائق حياة النبي، ﷺ ، وتفاصيلها وملامحها وقسماتها، «ولم تحفظ كتب الآداب والتاريخ والأنساب، صفة أكثر منها دقة، وأعظم منها استيعاباً للملامح البشرية والدقائق الخَلْقية»[1] وهذا الجانب جعل من تأليف السيرة النبوية مهمة تتجاوز صعوبات كثيرة، يواجهها عادة مؤلفو سير العظماء والأبطال من مثل الغموض، والافتراض والقياس [2]، كما أنها «مؤسسة على نصوص قرآنية، ووثائق تاريخية، ودقائق في الخَلقِ والخُلق، وتفاصيل العادات والعبادات، والأخلاق، والمعاملات، لا يتصور فوق ذلك، وهي أقرب إلى الحقيقة، والواقع قرباً، لا يتصور فوقه، ولا يطمع في أكثر منه» [3].

ولكن المؤلف يعترف على الرغم من ذلك، بأنه يكاد يكون من المستحيل تصوير حياة النبي ﷺ، وأخلاقه، واستيعاب ما اشتملت عليه سيرته، ودعوته، وحياته، ومعاملته مع الله ومع الخلق [4]، «وآيات الحسن والإحسان في تكوين خَلْقه وخُلُقه، في حبه ورأفته، وفي دعائه وابتهاله، وفي تألمه للإنسانية ومصيرها، وفي منطقه وحكمته، وفي جامعيته وكماله»[5].

وهكذا التزم المؤلف بتاريخ السيرة الصحيحة، وكان أبرز ما عمله فيها، هو «جمال العرض وحسن الترتيب، وجودة التلخيص» [6] ومعنى هذا أنه لا يتدخل في ملء مساحات من السيرة من عند نفسه، أو يوجه أحداثاً للتعبير

---

(١) السابق ص١٣، وانظر ص١٢.
(٢) انظر السابق ص١٣.
(٣) السابق ص١٣.
(٤) انظر السابق ص١٣، ١٤.
(٥) السابق ص١٤.
(٦) السابق ص٦.

عن أفكاره، ومفاهيمه، وإنما هي السيرة التاريخية الثابتة، تتحدث عن نفسها. وتعبّر عن مواقف صاحبها عليه أفضل الصلاة والسلام.

ولكن يبقى للمؤلف منهجه، وطريقته، في العرض، والترتيب، والتلخيص. وتظل له لغته الخاصة، وأسلوبه في هذه اللغة.

ونستطيع تبيّن ملامح منهج الشيخ الندوي، وطريقته في كتابة «السيرة النبوية» بصورة سريعة وموجزة على النحو الآتي:

١- الأسلوب العصري؛ وذلك في عرض المادة التاريخية، بأن يتبع طريقة علمية، مستفيداً في ذلك من خير ما كتب في القديم والحديث؛ مما أسس على مصادر السيرة الأصيلة، والمطابق لما جاء في القرآن الكريم، وصح في السنة [(١)].

كما أنه لا يحشد المعلومات دون نقد وتمحيص، فهو يخضع المعلومات التي يسوقها للنظر، وينص على ذلك في مقدمته منتقداً «الأسلوب الذي اعتاده أكثر المؤلفين المتوسطين، والمتأخرين، وقليل من المؤلفين المتقدمين، والذي كان مثار كثير من التساؤلات التي برأ الله السيرة الكريمة منها، وأغنى المسلمين عنها» [(٢)].

ويشير المؤلف إلى أنه لا يتبع هذا الأسلوب تقليداً للاتجاهات العصرية من حيث هي اتجاهات عصرية، أو خضوعاً لكتابات المستشرقين، وأقوال المشككين، وإنما هو يفعل ذلك تمشياً «مع المقررات الدينية التي تفهم في ضوئها الكتب السماوية، وسير الأنبياء، والمعجزات، والأخبار الغيبية، قائماً على مبدأ أنه سيرة نبي من الأنبياء، مبعوث من الله» [(٣)].

---

(١) انظر السابق ص٥ .
(٢) السابق ص٥.
(٣) السابق ص٥ .

وهو في كل ذلك يكتب مراعياً عقلية الجيل الجديد، وذوقه، ومستوى فهمه، ونفسيته على حد تعبير المؤلف نفسه؛ دون أن يعني ذلك أنه يُخضع السيرة النبوية للأهواء، والأغراض، أو النظريات العلمية المتغيرة، أو يتأثر بالشبه والاعتراضات، التي تثار أحياناً بدوافع مختلفة من مثل تعصب ديني، أو جهل علمي، أو غرض سياسي [١].

ومن هنا فقد جاء الكتاب موجزاً بعيداً عن التفاصيل، وحشد المعلومات، وكان المؤلف يختار المحطات الكبيرة، والأحداث المهمة، في السيرة ليرصدها ويعرضها، فهو يتحدث عن العصر الجاهلي، ومكة زمن البعثة، ومن ولادة الرسول ﷺ، إلى البعثة، وبعد البعثة، والهجرة، وتصوير المدينة عند الهجرة، وفي المدينة، ومعركة بدر، وغزوة أُحُد، وغزوة الخندق، وغزوة بني قريظة، وصلح الحديبية، ودعوة الملوك والأمراء إلى الإسلام، وغزوة خيبر، وغزوة مؤتة، وفتح مكة، وغزوة حنين، والطائف، وتبوك، وعام الوفود، وحجة الوداع، والوفاة، والأخلاق والشمائل، وفضل البعثة المحمدية على الإنسانية، ومنحها العالمية الخالدة.

٢- اهتمامه بتصوير البيئة والعصر الذي ظهر فيه الإسلام، ولعل هذا أيضاً مظهر لمنهجه العصري، وأثر من استفادته من الدراسات الحديثة التي تهتم بالبيئة؛ والظروف السائدة، التي يبرز في جوها الحادث العام الكبير؛ ومن هنا تحدث عن العصر الجاهلي، وبخاصة بيئته الدينية عامة، في القرن السادس المسيحي، وكذلك تحدث عن جزيرة العرب قبل البعثة، ومكة زمن البعثة، وعند ظهور الإسلام، وقد اهتم جداً بهذا الجانب، واستغرق من كتابه (١١٠) من الصفحات.

(١) انظر السابق ص١٤.

وقد أبرز المؤلف أهمية الحديث عن هذه الموضوعات، وفصل الكلام عن ذلك في مقدمة كتابه، مبيناً أنه لا يسعه صرف النظر عن البيئة، وأنه لا بد من وصف الجاهلية المهيمنة على العالم في القرن السادس المسيحي، وما كان عليه ذلك العصر من فساد وانحطاط في جوانب مختلفة من الحياة، ثم كان لا بد من الحديث عن البلد الذي ولد فيه الرسول ﷺ، ومكانة هذا البلد ووعيه ومدنيته، وكذلك الحديث عن مهاجر الرسول ﷺ، وأصحابه [(١)].

٣- التوازن بين الجانب العلمي والجانب التربوي البلاغي؛ فالمؤلف حاول أن يجمع كتابه عن السيرة النبوية بين هذين الجانبين؛ بحيث لا يطغى جانب منهما على الآخر، وقد بدا الجانب العلمي، في عرضه للسيرة النبوية العرض الأمين الموثق من المصادر التاريخية الأصيلة، وبدا الجانب التربوي في العرض البلاغي المؤثر، والصياغة الأدبية الرشيقة، التي هي القالب البياني لموضوعات السيرة والتاريخ، فاشتمل كتابه - على حد قول المؤلف نفسه- «على أكبر مقدار من القطع النابضة الدافقة بالحيوية والتأثير، الآسرة للقلوب والنفوس، التي لا يوجد نظيرها في سيرة إنسان، ولا في تاريخ فرد أو جيل، أو دعوة أو دين؛ وذلك كله من غير تنميق، أو تلوين، أو تحبير، أو تحسين؛ فجمال الطبيعة والحقيقة، لا يحتاج إلى تجميلات خارجية، أو تزيينات صناعية» [(٢)].

واهتمام المؤلف بهذين الجانبين، يتفق تماماً مع مهمته الأساسية الملازمة للشيخ أبي الحسن الندوي وهي الدعوة، وبيان مزايا هذا الدين، وتقريبه إلى الناس، وتقريب الناس إليه، بما فيه من جمال ذاتي، وجمال أدبي بلاغي.

---

(١) انظر السابق ص٧-١٠.

(٢) السابق ص١٦.

٤- تجاور العقل والعاطفة في الكتاب؛ بحيث لا يطغى أحدهما على الآخر، ولا يكون أحدهما على حساب الآخر، والندوي يكتب بعاطفة جياشة عن السيرة النبوية، عاطفة مدفوعة بحب عميق للرسول ﷺ، وإعجاب شديد بحياته النبوية الشريفة، التي هي مثال لكمال الشخصية البشرية، في روحها ونفسها وسلوكها وعاطفتها وتعاملاتها وإيمانها..إلخ.

ويستطيع القارئ، بكل سهولة، إدراك هذا العنصر الواضح في كتاب المؤلف؛ ولكنه على الرغم من ذلك استطاع أن يوازن في كتابه بين هذا الدفق العاطفي الإيجابي وبين البحث العلمي، ومتطلبات العقل السليم؛ ولا يغيب عنه، أنه يكتب هذه السيرة للجميع؛ للمؤمنين إيماناً قوياً، ولمتوسطي الإيمان، ولغير المؤمنين الذين يطمح المؤلف أن يدركهم لطف الله بسبب نفحة من هذه السيرة النبوية، ومن هنا فهو يكتب بمنطق سليم، ليستدرج بذلك أهل العقول والمنطق السليم للدخول في رحاب الإيمان؛ وقد أوضح المؤلف هذه المسألة في منهجه في مقدمة كتابه في قوله:» ثم يتجلى فيه العقل والعاطفة جواراً بجوار، فلا يكون فيه البحث العلمي، والنقد التحليلي، على حساب العاطفة والحب والإيمان، الذي لا بد منهما في تذوق السيرة والاستفادة منها، وفهم قضاياها وأحكامها، وحوادثها؛ فإنه إذا تجرد الكاتب من العاطفة والحب والإيمان، كان خشبياً مصنوعاً، لا حياة فيه، وكذلك يجب ألا يكون العنصر العاطفي العقائدي على حساب المتطلبات العقلية السليمة، التي نماها هذا العصر بصورة خاصة وعلى حساب المنطق السليم، الذي لم يتجرد منه عصر من العصور، فيكون كتاب عقيدة وتقليد فحسب، لا يطيق قراءاته، ولا يسيغ ما جاء فيه إلا الأقوياء في الإيمان، والراسخون في الإسلام، من الذين نشؤوا في بيئة دينية خالصة لا شأن لها بالعالم الخارجي، وبالثقافة العصرية، وذلك وإن كانت موهبة من الله، فإن سيرة نبي أرسل إلى الناس كافة، وأرسل رحمة

للعالمين، لا يجوز أن تجعل مقصورة على هذه الطبقة السعيدة المؤمنة، محجورة على من لم تسمح ظروفهم بالنشوء في هذه البيئة المسلمة المؤمنة، وأرادت حكمة الله أن يولدوا في بيئات غير إسلامية، ثم يدركهم اللطف الإلهي، وتهب عليهم نفحة من نفحات هذه السيرة العطرة، فينتقلون بقوتها وجاذبيتها إلى حظيرة الإيمان ومعسكر الإسلام، وليس حق غير المسلمين على هذه السيرة، وحظهم فيها أقل من حق المسلمين، الذين نشؤوا في ظلال الإيمان والإسلام، حاجة المريض إلى الدواء أكثر من حاجة السليم، والقنطرة يحتاج إليها من يعيش وراء النهر، أكثر مما يحتاج إليها من يعيش دونه»[١].

٥- التحليل والتعليق، والتوجيه، والمقارنة، والاستنتاج؛ وهذه الجوانب تعد أثراً لثقافة الندوي الإسلامية، العميقة، ومنهجه الدعوي، القائم على فكر منطقي، ونظرة موضوعية؛ فهو أحياناً يحلل بعض الموضوعات، ويعلق على ذلك؛ من مثل تحليله للعصر الجاهلي، وبخاصة فيما يتصل بالوضع الديني في القرن السادس المسيحي[٢]، وتحليله للوضع المعقد الذي واجهه الرسول ﷺ، في مدينة يثرب[٣]، وتعليقه على أهمية معركة بدر[٤] وكيفية تحول صلح الحديبية إلى الفتح والنصر[٥]، وحديثه عن الحب النبوي، والعاطفة الإنسانية لدى الرسول ﷺ[٦]، وكيفية انقلاب العدو محباً، والماجن تقياً[٧]، وبيان أثر غزوة تبوك النفسي وسببه[٨]، ووقفته القصيرة عند تعدد الزوجات[٩]،

(١) السابق ص٦، ٧.
(٢) انظر السابق ص١٩ وما بعدها.
(٣) انظر السابق ص ٢١٦ .
(٤) انظر السابق ص٢٤٠.
(٥) انظر السابق ص٣١٩.
(٦) انظر السابق ص٣٧٠.
(٧) انظر السابق ص٣٩١.
(٨) انظر السابق ص٤١٢.
(٩) انظر السابق ص٤٧٤.

وحديثه عن فضل البعثة المحمدية على الإنسانية، ومنحها العالمية الخالدة [١]، ولماذا بُعثَ النبي ﷺ، في جزيرة العرب [٢]، واستنتاج الحاجة إلى نبي مرسل [٣].

ويعقد المؤلف، أحياناً أثناء عرضه للسيرة مقارنات موضوعية؛ من مثل اختلاف ما بين المجتمع المكي، والمجتمع المدني [٤]، أو بين فارس الإسلام وفارس الجاهلية [٥]، أو روح التسامح الديني بين فعل الرسول ﷺ، بالنسبة لصحائف توراة اليهود، وفعل الرومان، حين تغلبوا على أورشليم [٦]، أو بين وثني جاهل، ونبي معلم [٧].

٦- الاستشهاد بالآيات الكريمة، والأحاديث الشريفة، وذلك بصورة كثيرة وشاملة، وهو أمر ملحوظ لقارئ الكتاب.

٧- وضع عنوانات دالة؛ وهذا منهج سار عليه المؤلف في كل مراحل الكتاب وأقسامه، وهي عنوانات تكشف عن الفهم العميق لروح السيرة النبوية الشريفة، وتوجز كثيراً من المعاني والمفاهيم الأصيلة والمعبّرة، المنطوية على العظة، والخلاصة، أو النتيجة التي يعبّر عنها الموضوع الذي وضع له المؤلف هذا العنوان، أو ذاك.

وهذه العنوانات ذات دلالة أخرى على ما يتمتع به الشيخ الندوي من حس لغوي، وقدرة أدبية في تعبيره العربي، عن المفاهيم والدلالات، ويعكس ما تتمتع به لغته من رشاقة الألفاظ، وسلامة العبارة، ودقة الاستخدام.

(١) انظر السابق ص٥٢٣-٦١٤.
(٢) انظر السابق ص٤٤.
(٣) انظر السابق ص٦٤.
(٤) انظر السابق ص١٩٥.
(٥) انظر السابق ص٢٨٧.
(٦) انظر السابق ص٣٥٨.
(٧) انظر السابق ص٤٢٨.

والقارئ يستطيع أن يحس بذلك عند قراءة بعض النماذج على سبيل المثال فيما يلي: ظلام مطبق ويأس قاتل [١]، فترة حالكة مؤيسة [٢]، الحاجة إلى نبي مرسل [٣]، مراكز عمران وحضارة [٤]، تنظيم حياة وتوزيع مناصب ومسؤوليات [٥]، أثرياء قريش ومترفوها [٦]، كبرى مدن الجزيرة وعاصمتها الروحية والاجتماعية [٧]، تباشير الصبح وطلائع السعادة [٨]، الحكمة البليغة في الدعوة والتعليم [٩]، من روائع الحب [١٠]، ولله جنود السموات والأرض [١١]، أدق لحظة مرت بها الإنسانية [١٢]، لا تحزن إن الله معنا [١٣]، نبوة لا يسيغها العقل المادي [١٤]، طلائع عداء اليهود [١٥]، تجاوب الأنصار وتفانيهم في الطاعة [١٦]، أمرهم شورى بينهم [١٧]، الرسول القائد [١٨]، هذان خصمان اختصموا في ربهم [١٩]، إخاء العقيدة فوق إخاء الولادة [٢٠]، روائع من الحب والفداء [٢١]، أحب إلى النفس من النفس [٢٢]، من يمنعك مني [٢٣]، الحكمة ضالة المؤمن [٢٤]. روح المساواة والمواساة بين المسلمين [٢٥]، نور الفتوح الإسلامية في ظلام الحصار والشدة [٢٦].

---

(١) انظر السابق ص ٤٢ .
(٢) انظر السابق ص٦٠.
(٣) انظر السابق ص٦٤ .
(٤) انظر السابق ص٧١.
(٥) انظر السابق ص٩٧ .
(٦) انظر السابق ص١٠٣.
(٧) انظر السابق ص١٠٧ .
(٨) انظر السابق ص١٣٠.
(٩) انظر السابق ص١٣٨ .
(١٠) انظر السابق ص١٨٩.
(١١) انظر السابق ص١٩٠ .
(١٢) انظر السابق ص١٩١.
(١٣) انظر السابق ص١٩١ .
(١٤) انظر السابق ص١٩٣.
(١٥) انظر السابق ص٢٢٨ .
(١٦) انظر السابق ص٢٤١.
(١٧) انظر السابق ص٢٤٤ .
(١٨) انظر السابق ص٢٤٥.
(١٩) انظر السابق ص٢٤٨ .
(٢٠) انظر السابق ص٢٥٣.
(٢١) انظر السابق ص٢٦٣ .
(٢٢) انظر السابق ص٢٧٢.
(٢٣) انظر السابق ص٢٧٧ .
(٢٤) انظر السابق ص٢٨٠.
(٢٥) انظر السابق ص٢٨١ .
(٢٦) انظر السابق ص٢٨٣.

بين فارس الإسلام وفارس الجاهلية [١]، أم تحرّض ابنها على القتال والشهادة [٢]، ولله جنود السموات والأرض[٣]، جيش مؤمن تحت قيادة نبي[٤]، حب نبوي وعاطفة إنسانية [٥]، إيثار النبي على الآباء والأبناء[٦]، دخول خاشع متواضع لا دخول فاتح متعال [٧]، مرحمة لا ملحمة [٨]، الإسلام دين توحيد ووحدة [٩]، نبي المحبة ورسول الرحمة [١٠]، لا تميز في تنفيذ حدود الله [١١]، كيف انقلب العدو محباً والماجن تقياً [١٢]، في جنازة مسلم مسكين [١٣]، ابتلاء كعب بن مالك ونجاحه فيه [١٤]،بين وثني جاهل ونبي معلم[١٥]، الشوق إلى لقاء الله وتوديع الدنيا[١٦]، رقة الشعور الإنساني ونبل العاطفة[١٧]، أسوة كاملة وقدوة عامة [١٨]، إعلان فريد في تاريخ الرسالات والديانات [١٩]، ولادة عالم جديد وإنسان جديد [٢٠].

مدة تأليف الكتاب:

منذ أن عزم الشيخ على تأليف هذا الكتاب، وشرح الله صدره لتنفيذه عكف على العمل فيه، وأصبح شغله الشاغل، ما بين شوال ١٣٩٥هـ وشوال ١٣٩٦هـ، ولم يترك عمله فيه إلى موضوع آخر إلا مضطراً، وتخلل ذلك بعض الأوقات التي أمضاها مريضاً، أو في سفر إلى الشرق والغرب، فكانت المدة التي استغرقها منذ بداية عمله فيه إلى منتهاه سنة كاملة [٢١].

(١) انظر السابق ص٢٨٧ .
(٢) انظر السابق ص٢٨٨ .
(٣) انظر السابق ص٢٨٨ .
(٤) انظر السابق ص٣٥٢.
(٥) انظر السابق ص٣٧٠ .
(٦) انظر السابق ص٣٧٥.
(٧) انظر السابق ص٣٨٢ .
(٨) انظر السابق ص٣٨٣.
(٩) انظر السابق ص٣٨٦ .
(١٠) انظر السابق ص٣٨٧.
(١١) انظر السابق ص٣٨٧ .
(١٢) انظر السابق ص٣٩١.
(١٣) انظر السابق ص٤٢١ .
(١٤) انظر السابق ص٤٢٢ .
(١٥) انظر السابق ص٤٣٨ .
(١٦) انظر السابق ص. ٤٥٦
(١٧) انظر السابق ص٥٠٣ .
(١٨) انظر السابق ص٥١٩ .
(١٩) انظر السابق ص٥٢٣ .
(٢٠) انظر السابق ص٥٦٤ .
(٢١) انظر السابق ص١٦ .

المساعدون للمؤلف:

ذكر المؤلف في مقدمته القيمة لكتابه «السيرة النبوية» [١] أنه شكر صديقين له فاضلين، قدّما له عوناً كبيراً في تأليف كتابه، ويعترف لهما بالجهد والفضل، هما فضيلة الشيخ «برهان الدين السنبهلي» [٢]، الذي أعانه «في تخريج الأحاديث والبحث عنها، والتحقيق في بعض ما جاء في كتب السيرة» [٣]، والآخر هو الأستاذ «محيي الدين أحمد» [٤] الذي قدّم للمؤلف مساعدة نفيسة تمثلت في دراسة المراجع الأجنبية.

كما ذكر المؤلف أنه بسبب عجزه عن الكتابة مباشرة، قد استعان كذلك ببعض الإخوان في الكتابة؛ إذ كان يملي عليهم وهم يكتبون، وذكر منهم الأخ «محمد معاذ الأندوري الندوي» والأخ «علي أحمد الكجراني الندوي» وذكر أيضاً أن الأخ الأستاذ «نور عالم الأميني الندوي» ساهم كذلك[٥]. كما أشار إلى فضل الأستاذ «محمد حسن الأنصاري» في وضع الخرائط التاريخية الجغرافية، التي زينت الكتاب. وزادت في قيمته، وأشار إلى فضل الأستاذ الدكتور «محمد شفيع» [٦]، وفضل قسم الجغرافيا في «جامعة عليكرة» في تحسين تلك الخرائط وإكمالها» [٧].

مكانة الكتاب:

نوّه الأستاذ «عبد الله بن إبراهيم الأنصاري» [٨] بقيمة هذا الكتاب. وبجهد مؤلفه الشيخ أبي الحسن الندوي، وأنه أحد الأفذاذ الأعلام الذين

---

(١) انظر السابق ص١٦، ١٧.

(٢) أستاذ الحديث والتفسير في دار العلوم ندوة العلماء.

(٣) الندوي؛ السيرة النبوية ص١٦، ١٧.

(٤) قام أيضاً بترجمة كتاب السيرة النبوية إلى اللغة الإنجليزية.

(٥) انظر: الندوي؛ السيرة النبوية ص١٧.

(٦) رئيس قسم الجغرافيا في جامعة عليكرة، ومساعد نائب رئيس الجامعة.

(٧) انظر: الندوي؛ السيرة النبوية ص١٠٧.

(٨) مدير الشؤون الدينية بقطر.

تعمقوا في دراسة السيرة وفهمها، وإتقان معالمها؛ ولهذا وقع اختيارهم على هذا الكتاب من كتب عديدة، تم استعراضها، وذلك لتقديمه للمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها بمناسبة المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية. وأثنى على براعة المؤلف في عرضه للسيرة، وإجادته في ذلك، واعتماده على مصادر السيرة الأصيلة الصحيحة (١).

موقعه بين الكتابات الحديثة عن سيرة الرسول ﷺ:

كتاب أبي الحسن في السيرة، يشبه بعض الكتابات الحديثة في السيرة، من حيث إنها تأريخ دقيق، وأمين يلتزم بالتاريخ، وتحرّي الدقة والتوثيق والروايات الصحيحة، والاعتماد على المصادر الأصيلة، كما نوه بذلك الأنصاري في صدر كتاب الشيخ الندوي، إلى جانب عاطفة المحبة العميقة لصاحب السيرة عليه أفضل الصلاة والسلام؛ فهو مثل كتاب «الرحيق المختوم» للشيخ «صفي الرحمن المباركفوري» (٢).

والكتاب يشبه بصورة أوضح كتاب «فقه السيرة» للشيخ «محمد الغزالي» رحمه الله، الذي تناول حياة الرسول ﷺ، بصورة حيّة تمزج بين العقل والعاطفة، وتبعث في وجدان المسلم توقير رسولهم الكريم ﷺ، وتحفزهم إلى السير على الطريق.. لإعادة مجد الإسلام (٣).

وقد تحدث «الغزالي» عن كتابه مبيناً هذا المنهج في تناوله للسيرة، وهو المنهج المشابه لمنهج الشيخ الندوي ومنحاه في عرضه للسيرة، يقول الشيخ

---

(١) انظر: عبدالله بن إبراهيم الأنصاري؛ تصديره كتاب السيرة النبوية.

(٢) بحثه «الرحيق المختوم» فاز بالجائزة الأولى لمسابقة السيرة النبوية التي نظمتها رابطة العالم الإسلامي، وطبع على نفقة «حمد بن محمد السعيدان» وصدرعن المكتب التعليمي السعودي بالمغرب - الرباط ١٤٠٠هـ/١٩٨٤م.

(٣) من مقدمة «عبدالله بن إبراهيم الأنصاري» مدير إدارة إحياء التراث الإسلامي، بدولة قطر التي صدر بها كتاب «فقه السيرة» ص٣.

«محمد الغزالي»: وقد بذلت وسعي في إعطاء القارئ صورة صادقة عن سيرة رسول الله ﷺ، واجتهدت في إبراز الحِكَم والتفاسير لما يقع من حوادث، ثم تركت للحقائق المجلوة أن (تعمل) في النفوس دون افتعال، أو احتيال، وقد استفدت من السير التي كتبها القدامى والمحدثون، استفادة حسنة [(١)].

فالمباركفوري، والغزالي، والندوي، ومن نحا نحوهم، اعتمدوا كتابة السيرة النبوية بأمانة وعلمية، إلى جانب إسباغ روح الحب والعاطفة القوية. واستهداف إحياء آثارها في النفوس، واستمداد القدوة والعبرة لمسيرة حياة المسلمين، فلا يغيب عن عملهم الإحساس بواجب الدعوة الإسلامية، وتوظيف كتابتهم في هذا السبيل.

ومن هنا فهي تختلف عن تجارب كتابية أخرى تناولت سيرة الرسول ﷺ وشخصيته الكريمة، وجعلتها موضوعاً لأقلامهم تأريخاً وتحليلاً وتعليلاً، من مثل كتابة الدكتور «طه حسين» في «على هامش السيرة»، وعباس محمود العقاد في «عبقرية محمد».

فأهداف هذه الكتابات ومنهجها يختلف عن كتاب الشيخ الندوي؛ فطه حسين، كان يهدف من كتابه الترفيه، والاستراحة، والمتعة الأدبية، ولم يقصد

---

(١) الغزالي؛ فقه السيرة ص٨ -٩ ثم يقول: « إن المؤرخين المحدثين يميلون إلى التعليل والموازنة، وربط الحوادث المختلفة في سياق متماسك، وذلك أحسن ما في طريقتهم.. والمؤرخون القدامى يعتمدون على حشد الآثار. وتمحيص الأسانيد، وتسجيل ما دق وجل من الوقائع والشؤون، وفي هذه المحفوظات الكثيرة، نفائس ذات خطر لو أحسن الاستشهاد بها، وإيرادها في مواضعها.. ولعلي هنا مزجت بين الطريقتين على نحو جديد، يجمع بلين ما في كلتيهما من خير، فجعلت من تفاصيل السيرة موضوعاً متماسكاً يشد أجزاءه روح واحد، ثم وزعت النصوص والمرويات الأخرى، بحيث تتسق مع وحدة الموضوع، وتعين على إتقان صورته، وإكمال حقيقته، وقصدت من ذلك أن تكون السيرة شيئاً ينمي الإيمان، ويزكي الخلق، ويلهب الكفاح، ويغري باعتناق الحق، والوفاء له، ويضم ثروة طائلة من الأمثلة الرائعة لهذا كله. إنني أكتب في السيرة كما يكتب جندي عن قائده، أو تابع عن سيده، أو تلميذ عن أستاذه، ولست كما قلت -مؤرخاً محايداً مبتوت الصلة بمن يكتب عنه. ثم إنني أكتب وأمام عينيّ مناظر قائمة من تأخر المسلمين العاطفي والفكري فلا عجب إذا قصصت وقائع السيرة بأسلوب يوحي من قُرب أو بعد إلى حاضرنا المؤسف، كلما أوردت قصة جعلتها تحمل في طياتها شحنة من صدق العاطفة، وسلامة الفكر، وجلال العمل، كي أعالج هذا التأخر المثير».

أن يكتب سيرة محققة [١]، والأستاذ فاروق خورشيد يقول عن كتاب على هامش السيرة: «هذا الكتاب ليس سيرة محققة، أريد بها العلماء، أو قصد بها أن تكتب للمؤرخين» [٢] وطه حسين يقول: «لأنني لم أرد بها العالم، ولم أقصد بها إلى التاريخ» [٣] فهو يكتب قصة يستلهم فيها التاريخ دون أن يقيد نفسه بعلمية التاريخ؛ بل أتاح لنفسه حريّة أدبية، تتجاوز قيود التاريخ، والحقائق الموثقة؛ فهو يقول: «وأحب أن يعلم الناس أيضاً أنني وسعت على نفسي في القصص، ومنحتها الحرية في رواية الأخبار، واختراع الحديث، ما لم أجد به بأساً، إلا حين تتصل الأحاديث والأخبار بشخص النبي، أو بنحو من أنحاء الدين؛ فإني لم أبح لنفسي في ذلك حرية ولا سعة، وإنما التزمت ما التزمه المتقدمون من أصحاب السيرة والحديث ورجال الرواية، وعلماء الدين» [٤].

والعقاد، أيضاً، بيّن أن كتابه «عبقرية محمد» ﷺ ليس كتاب سيرة نبوية:» فسيرى القارئ أن «عبقرية محمد» عنوان يؤدي معناه في حدوده المقصودة، ولا يتعداها فليس الكتاب سيرة نبوية جديدة، تضاف إلى السير العربية والإفرنجية، التي حفلت بها «المكتبة المحمدية» حتى الآن؛ لأننا لم نقصد وقائع السيرة لذاتها، في هذه الصفحات على اعتقادنا أن المجال متسع لعشرات من الأسفار في هذا الموضوع، ثم لا يقال إنه استنفد كل الاستنفاد؛ وليس الكتاب شرحاً للإسلام أو لبعض أحكامه، أو دفاعاً عنه، أو مجادلة لخصومه.. فهذه أغراض مستوفاة في مواطن شتى، يكتب فيها من هم ذووها، ولهم دراية بها وقدرة عليها، إنما الكتاب تقدير «لعبقرية محمد» بالمقدار الذي يدين به كل إنسان، وليس في قلب كل مسلم وكفى. محمد هنا عظيم؛ لأنه قدوة المقتدين

(١) انظر: طه حسين؛ على هامش السيرة ١/٩-١١، وانظر غازي التوبة، الفكر الإسلامي المعاصر ص ١٦٨ -١٧١.
(٢) فاروق خورشيد: محمد صلى الله عليه وسلم في الأدب المعاصر ٧٥-١٠٦.
(٣) طه حسين؛ على هامش السيرة ص٥.
(٤) طه حسين؛ على هامش السيرة ١/١١.

في المناقب التي يتمناها المخلصون لجميع الناس.. عظيم لأنه على خلق عظيم..»[(١)].

و «العقاد» في عبقرياته كلها ينطلق من نقطة عظمة الفرد نفسه، وتمجيد هذه العظمة، وهذا من تأثره ببعض الاتجاهات الفكرية التي تضخم الفرد، ومواهبه الخاصة[(٢)]، ويفسّر بها كل نجاحات الفرد؛ ومن هنا ابتعاده عن الحق في إرجاع نجاحات النبي ﷺ، كلها إلى «امتيازه الذاتي وإلى مواهبه الفطرية» على حد تعبير غازي التوبة، الذي يضيف أيضاً: ويتضح لنا هذا الابتعاد، إذا تناولنا -مثلاً- شرحه للجانب العسكري من «عبقرية محمد» ﷺ لأنه أوفر الشروح طولاً»[(٣)].

وهكذا يبقى كلٌّ من «على هامش السيرة» و«عبقرية محمد» ﷺ عملين أدبيين، شائقين، ممتعين، يعبّران عن مشاعر خاصة، وغايات أدبيّة، ونفسية خاصة؛ ولكنهما ليسا سيرة نبوية، تؤرخ لحياة الرسول ﷺ أو تكتب في ضوء حقيقة سيرة الرسول ﷺ، كما فعل الشيخ أبو الحسن الندوي، وفقه الله.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين،

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه

الرباعية مساء الأحد ١٤١٦/١٢/٢٥هـ

وكتبه

محمد بن حسن الزير

---

(١) العقاد: عبقرية محمد ص ٨ . دار الهلال، مطابع مؤسسة دار الهلال.

(٢) انظر: غازي التوبة؛ الفكر الإسلامي المعاصر ص٢٢٧، وانظر: فاروق خورشيد؛ محمد ﷺ في الأدب المعاصر ص٤٢. أستاذ جامعي من الجزائر. عمل في كلية الآداب في الجامعة الأردنية وجامعة صنعاء، وجامعة قطر.

(٣) انظر؛ غازي التوبة؛ الفكر الإسلامي المعاصر ص٢٢٧، ٢٣٠. وانظر: د. حسين فوزي النجار؛ التاريخ والسير ص٨١.

المصادر والمراجع

- جورج ماي:

١- السيرة الذاتية، تعريب محمد القاضي، وعبد الله صولة، بيت الحكمة (المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات) قرطاج - تونس، ١٩٩٢م.

- حسين فوزي النجار (دكتور):

٢- التاريخ والسير، المكتبة الثقافية (١٢١) دار القلم بالقاهرة، ١٩٦٤م.

- صفي الرحمن المباركفوري (الشيخ):

٣- الرحيق المختوم، المكتب السعودي بالمغرب -الرباط (طبع على نفقة أحمد بن محمد السعيدان) ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

- طه حسين (دكتور):

٤- على هامش السيرة، دار المعارف بمصر - القاهرة١٩٦٤م.

- عباس محمود العقاد:

٥- عبقرية محمد، دار الهلال، مطابع مؤسسة دار الهلال.

- عبد الرحمن رأفت باشا (دكتور):

٦- نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، كلية اللغة العربية - الرياض، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

- غازي التوبة:

٧- الفكر الإسلامي المعاصر - دراسة وتقويم، الطبعة الأولى ١٣٨٩هـ/١٩٩٦م.

-فاروق خورشيد (و د. أحمد كمال زكي):

٨- محمد ﷺ في الأدب المعاصر، منشورات اقرأ، بيروت - لبنان، د.ت.

- ليون إدل:

٩- فن السيرة الأدبية، ترجمة صدقي خطاب، نشر مؤسسة الحلبي وشركاه- القاهرة بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر - القاهرة - نيويورك، ١٩٧٣م.

- محمد الغزالي (الشيخ):

١٠- فقه السيرة، عني بطبعه ونشره خادم العلم، عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، طبع على نفقة إدارة إحياء التراث الإسلامي بدولة قطر، مطابع الدوحة الحديثة - الدوحة- قطر، ١٩٨٧م.

- الندوي؛ أبو الحسن علي الحسني:

١١- جوانب السيرة المضيئة في المدائح النبوية الفارسية والأردية، ألقاها الندوي في ندوة علمية عن المدائح النبوية، نظمها مكتب رابطة الأدب الإسلامي في الهند في جامعة كاشف العلوم في صفر ١٤٠٩هـ/ أكتوبر ١٩٨٨م.

١٢- حديث مع الغرب (مقال) نشر بالأردية، ونقله إلى العربية الأستاذ عبد الله عباس الندوي.

١٣- دراسة للسيرة النبوية من خلال الأدعية المأثورة المروية، نقلها إلى العربية من الأردية الأستاذ نور عالم الأميني الندوي، ونشرت في المختار الإسلامي - القاهرة.

١٤- رسالة سيرة النبي الأمين إلى إنسان القرن العشرين، نشر دار الحراء للكتاب - المحلة الكبرى - مصر.

١٥- روائع من أدب الدعوة في القرآن والسيرة، دار القلم- الكويت، الطبعة الثامنة، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

١٦- السيرة النبوية، منشورات المكتبة العصرية - بيروت - صيدا، عني بطبعه ومراجعته عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

١٧- صورتان متضادتان لنتائج جهد الرسول الأعظم والمسلمين الأوائل، نشره المجمع الإسلامي -لكهنؤ- الهند، دار الصحوة بالقاهرة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٦م.

١٨- الطريق إلى المدينة، دار القلم، الطبعة الرابعة، دمشق -بيروت ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

١٩- في ظلال البعثة المحمدية، نشره المجمع الإسلامي - الهند، سنة ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

٢٠- فضل البعثة المحمدية على الإنسانية، نشره المجمع الإسلامي العلمي- الهند ونقلها إلى العربية الأستاذ محمد الحسني، وألحقها المؤلف بكتاب السيرة النبوية.

٢١- قصص النبيين للأطفال، طبع عام ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، وطبعته الأخيرة عام ١٤١٥هـ، نشر مؤسسة الصحابة والنشر، ندوة العلماء - الهند، مؤسسة الرسالة.

٢٢- كيف دخل العرب التاريخ، نشره المجمع الإسلامي العلمي - الهند، سنة ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

٢٣- كيف ينظر المسلمون إلى الحجاز والجزيرة العربية- نشره المجمع الإسلامي العلمي- الهند، الطبعة الثانية ١٤١١هـ/١٩٩١م.

٢٤- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، الطبعة السادسة، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م.

٢٥- المد والجزر في تاريخ الإسلام (محاضرة) نشرت في مصر، ثم نشرت في دمشق والهند.

٢٦- نبوة تتحدى ومعجزة تتحقق (مقال) مجلة البعث الإسلامي- العدد الرابع، المجلد الخامس عشر، رمضان، ١٣٩٠هـ/نوفمبر ١٩٧٠م.

٢٧- النبوة والأنبياء في ضوء القرآن ، نشره المجمع الإسلامي العلمي -الهند، الطبعة الثالثة، ١٣٨٧هـ.

٢٨- النبي الخاتم. وفيه مقال: القدوة الدائمة للأجيال البشرية كلها، وكيف أمكن ذلك، نشره المجمع الإسلامي العلمي - الهند ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م.

٢٩- النبي الخاتم والدين الكامل، نقله من الأردية إلى العربية نور عالم أميني الندوي.

- هاري إلمر بارنز:

٣٠- تاريخ الكتابة التاريخية، ترجمة. د. محمد عبد الرحمن برج، مراجعة د. سعيد عبد الفتاح عاشور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤م.



محتويات البحث

«السيرة النبوية في أدبيات الشيخ أبي الحسن الندوي»



البحث السادس عشر

ملامح الأدب الإسلامي
في كتابات الشيخ أبي الحسن الندوي
مع دراسة تطبيقية على أدب الرحلات

عبد القادر بن عيسى باطاهر (*)



(*) أستاذ جامعي من الجزائر. عمل في كلية الآداب في الجامعة الأردنية وجامعة صنعاء، وجامعة قطر.

تمهيد:

يُعدّ الأدب أحد الفنون المهمة التي تساهم في توجيه الثقافة لدى الشعوب، وبناء الإنسان الفعّال القادر على صناعة التاريخ وبناء الحضارات، ومن هنا ربط كثيرٌ من الدارسين والمفكرين بين الأدب وازدهاره وصحة الأمم وعافيتها، لاتصاله المباشر بالعقول والنفوس، ولكونه أحد عناصر التربية الضرورية في بناء أيّة حضارة [1].

وقد عرفت الحضارة الإسلامية منذ بزوغ إشعاعها الأول قيمة الأدب كعنصر موجه للأفراد والجماعات، فكان أن أعلت من قيمة الكلمة ورفعت من مستوى الأدب، وجعلتها في خدمة الفكر والتصور، وقد كان القرآن الكريم ببلاغته الرفيعة منبعاً للحكمة والمعرفة والأدب الرفيع يستمد منه الأدباء والبلغاء مادتهم، ويقيمون عليه تصوراتهم، وكان الحديث النبوي الشريف مصدراً للهداية والمعرفة، والأدب والثقافة لا يستغني عنه الأديب المسلم في تكوين الفكرة وتشكيلها، وبناء الرؤية وتحديدها.

وعن هذه الحضارة تشكَّل تراث متميز، وأدب حي عبّر عن شخصية الأمة وثقافتها، ودافعا عبر العصور عن هويتها وعن خصوصيتها حين كانت تبرز في الآفاق الأخطار والتحديات المختلفة، وكانا سلاحاً قوياً في أيدي المخلصين من أبناء الأمة يردون به كيد الجاهلين، وتحريف المبطلين.

ولم يكن هذا الأدب الحي الذي شهده التاريخ الإسلامي وحده سائداً في الساحة، فقد كان هناك أدب يناقضه في المبدأ والرؤية، بعضه يرغبه أهل الضلال والبدعة، وبعضه يحبه أهل التكلف والصنعة، وبعضه مؤيد من أهل الرئاسة والسلطة، وبعضه ممزوج بأفكار أهل الأهواء والغفلة، وساهم كله في تردي الأمة وضعفها ودخولها في ليل التاريخ.

---

(١) انظر «شروط النهضة» - مالك بن نبي- ص١١٠ط/ دار الفكر دمشق، ١٩٨٧م.

وشهد العصر الحديث تحديات كثيرة، وأخطاراً متنوعة بسبب الاستعمار والتمزق والتخلف، وقد كانت الفرصة مواتية أمام كثير من بلدان العالم الإسلامي للنهضة، وبخاصة بعد حصولها على الاستقلال، ولكن بسبب المناهج المستوردة التي سيطرت على الحياة بمستوياتها المختلفة وغير ذلك من الأسباب الأخرى، لم نشهد أي إقلاع حضاري يحفظ احترامنا أمام الآخرين. حتى قامت الصحوة الإسلامية لتعلن رفضها للمناهج الغريبة عن الإسلام. وتتبنى مبدأ أسلمة الرؤى والمناهج والفكر والثقافة في جميع مستويات الحياة. لبناء المشروع الإسلامي الكبير وإعادة الأمة إلى استئناف الحياة الإسلامية.

وقد كان للأدب حيّز من الاهتمام في العمل الإسلامي، فبذلت جهود لإعادة الأدب إلى تبني الرؤية الإسلامية في التعبير عن الحياة والكون والإنسان، وظهر مفكرون أوفياء دعوا في أعمالهم الرائدة إلى الاهتمام بالأدب الإسلامي، أذكر منهم الإمام الشهيد حسن البنا والشهيد سيد قطب، والشيخ «أبو الحسن الندوي» والأستاذ محمد قطب، والدكتور نجيب الكيلاني.. وغيرهم.

ويعدّ الشيخ أبو الحسن الندوي -حفظه الله- أحد الرواد الأوائل في هذا العصر الذين اهتموا بالأدب الإسلامي كتابة وتنظيراً، وتوجيهاً ونقداً، وقد تُوجت جهوده في السنوات الأخيرة بإقامة رابطة عالمية للأدب الإسلامي. وسنسلط الضوء في هذا البحث على بعض جوانب التنظير والكتابة التي مارسها في هذا الشأن، والله الموفق إلى الصواب.

١- مفهوم الأدب:

ينطلق الشيخ أبو الحسن الندوي من رؤية واضحة في تحديد الأدب، إذ يرى أن الأدب الطبيعي الجميل هو التعبير البليغ الذي يحرك النفوس، ويثير الإعجاب، ويوسع آفاق الفكر، ويغري بالتقليد، ويبعث في النفس الثقة [1].

---

(١) نظرات في الأدب -أبو الحسن الندوي- ص٢٢، ط/ دار البشير، عمان، الأردن ١٩٩٠م.

فهذا المفهوم يشمل مجموعة من الخصائص والمقومات الشكلية والقيمية والجمالية التي إذا توافرت في الأدب منحته قوة الإقناع والإمتاع، وأعطته صفة البقاء والخلود، فالأدب من حيث المقومات الشكلية لا بد أن يكون بعيداً عن الصناعة والتكلف، يأخذ من الأشكال أجملها وأقربها إلى الطبيعة الإنسانية السوية، وهو أدب بليغ هدفه توصيل المعنى إلى القلوب في أحسن صورة من الألفاظ، وهو من حيث المقومات القيمية أدب ذو رسالة في المجتمع بما يحمل من قيم إيجابية تحرك النفوس، وتوسع المدارك، وتبعث في النفس الثقة والفاعلية، وهو من حيث المقومات الجمالية أدب جميل يوظف الجمال في إبراز الأبعاد القيمية، لأن القيم هي مقياس الجمال في الرؤية الإسلامية.

ويركز الشيخ أبو الحسن الندوي تركيزاً شديداً على الوظيفة الإقناعية والتأثيرية للأدب فيقول: «الأدب في أوسع معانيه هو تعبير عن الحياة وعن الشعور والوجدان في أسلوب مفهم مؤثر لا غير» [١].

ويرى الشيخ -حفظه الله- أن عنصري الإخلاص والصدق في الأدب هما اللذان يهبانه هذا البعد الوظيفي لأنهما يمنحانه الروح والقوة والحيوية ويجعلانه حقيقة أبدية خالدة [٢].

٢- وظيفة الأدب:

إن للأدب رسالة حقيقية في المجتمع الإسلامي، وبهذه الرسالة يكتسب مكانته وقيمته الحقيقية باعتباره راعياً لقيم الخير في المجتمع، وموجهاً للثقافة النافعة التي تساهم في البناء الحضاري، ومن هنا حرص الشيخ أبو الحسن الندوي على بيان هذا البعد الوظيفي للأدب فقال: «حاجتنا وحاجة هذا العهد، وحاجة العالم العربي بصفة خاصة، هي الأدب الهادف السليم،

(١) المرجع نفسه ص٣٥.

(٢) المرجع نفسه ص٣٦.

الدافق بالحيوية، المتدفق بالقوة الذي يحمل رسالة سامية سماوية، إنسانية إسلامية، عالمية» [١].

فالأدب الذي يحرص الشيخ على أسلمته لا بد أن يؤدي وظيفته الخطيرة في المجتمع، لأنه ملتزم بحمل قضايا الفكر والعقيدة والتصور السليم، وقيم الخير والعدل وفق ما جاء في الكتاب والسنّة لمزجها بقلوب الناس وعقولهم حتى يتكون الفرد المسلم ثم المجتمع المسلم.

وهذا الالتزام ليس قيداً على حرية الأديب، كما يعتقد دعاة التحرر في الفن والأدب، بل هو الذي يميّز الأدب، ويمنحه طابعه الخاص والالتزام -كقضية - حقيقية مقررة، وخطة مسلم بها في علم الفن والأدب [٢].

ويستدل الشيخ الندويّ على أهمية هذا البعد الوظيفي للأدب الإسلامي بما تركه أدباؤنا وكتّابنا القدماء من أدب حي خالد فقال: « كان هؤلاء الكتّاب المؤمنون الذين ملكتهم فكرة أو عقيدة، يكتبون لأنفسهم، يكتبون إجابة لنداء ضميرهم وعقيدتهم مندفعين منبعثين فتشتعل مواهبهم، ويفيض خاطرهم، ويتحرق قلبهم، فتنهال عليهم المعاني، وتطاوعهم الألفاظ، وتؤثر كتاباتهم في نفوس قرائها، لأنها خرجت من قلب فلا تستقر إلا في قلب»[٣].

٣- الأدب والتسلية:

الأدب الهادف والجاد مناف للتسلية الرخيصة، وبخاصة حين تصبح التسلية غاية أولى لقارئ الأدب، فتراه يبحث عن المتعة الزائلة لقتل وقت، وتسلية نفس، دون أن يعطي أي اعتبار للقيم الإيجابية في الأدب، وهذا يعطل الكثير من الطاقات، ويبعث السلبية والركون في المجتمع، وقد أشار

---

(١) المرجع نفسه ص١١٢.

(٢) انظر «الإسلامية والمذاهب الأدبية» -نجيب الكيلاني- ص ٤٦، ط/مؤسسة الرسالة ١٩٨٧م.

(٣) نظرات في الأدب -أبو الحسن الندوي- ص٣٢ط/ دار البشير، الأردن ١٩٩٠م.

الشيخ أبو الحسن الندوي إلى هذا المعنى فقال: «الأدب ليس أداة تسلية أو إزجاء وقت (أو قتل وقت كما يقول بعض الأدباء) فحسب، بل الأدب من أكبر الوسائل للوصول إلى الأهداف النبيلة وللتأثير في النفس الإنسانية»(١).

فالأدب الذي يطمح الشيخ الندوي في أن يكون إسلامياً ينبغي أن لا يكون هدفه الأول تسلية القارئ، لأنه أحد الوسائل المهمة في البناء النفسي والحضاري، وتغيير النفوس وإقدارها على ترك السلبية والكسل، وبخاصة حين يأخذ الأديب المسلم على عاتقه مبدأ توجيه الثقافة نحو العمل الجاد المثمر، وتفجير الطاقات الكامنة في النفوس السليمة.

ونفي التسلية الرخيصة عن الأدب لا يقتضي نفي جانب المتعة فيه؛ لأن الإمتاع غاية لا يمكن إلغاؤها من الأدب، وإلا فقد تميزه الفني كأدب، والقرآن الكريم نفسه أعطى لهذا الجانب حقه من الاهتمام حتى عد الإمتاع النفسي، والإقناع العقلي من الغايات الأساسية التي يهدف إليها الأسلوب القرآني (٢).

إن الأدب الإسلامي أدب جاد يجمع بين الإمتاع والإقناع، وتمتزج فيه المتعة بالمنفعة، وتنتفي عنه التسلية المؤذية، لأنه أدب نابع عن الرؤية الإسلامية التي تهدف إلى غرس الإيجابية في الحياة (٣).

٤- الأدب الحي والأدب المزخرف:

إنّ الأدب مرتبط بالنفس الإنسانية، لأنه تعبير صادر عن قواها الوجدانية والفكرية، فهو يحيا بحياتها، ويجمد بجمودها وتارة يكون كالكائن الحي بما فيه من قوة في العاطفة والعقيدة، وتارةً يصبح جامداً لا حياة فيه بعد تجرده من إشعاع الروح وعمق التجربة.

---

(١) المرجع نفسه - ص١٠٥.

(٢) انظر «النبأ العظيم» - محمد عبدالله دراز- ص١٠٣-١١١. ط/ دار القلم، الكويت.

(٣) انظر «آفاق الأدب الإسلامي» -نجيب الكيلاني- ص١٢٥، ط٢ مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٨٧م.

وقد اهتم الشيخ أبو الحسن الندوي، اهتماماً كبيراً بهذا البعد الحيوي في الأدب فقال: إنني أتصور الأدب كائناً حياً له قلب حنون، وله ضمير واع، وله نفس مرهفة الحس، وله عقيدة جازمة وله هدف معين، يتألم بما يسبب الألم، ويفرح بما يثير السرور، فإذا لم يكن الأدب كذلك فإنه أدب خشيب جامد، أدب ميت جامد، أدب ميت خامد، أشبه بالحركات البهلوانية والرياضات الجمبازية [١].

وهذا هو الأدب الحي الذي يستطيع أن يبعث في نفوسنا روحاً جديدة بما يحمل من إشعاع روحي، وقيم نافعة، أما الأدب الجامد - ويسميه الشيخ الأدب المزخرف - فهو أدب فاقد للمنهج السليم، بعد ما التصقت به شروط وصفات وتقاليد أفسدته، وطمست نوره، فلا بد فيه من السجع والصناعة، ولا بد فيه من البديع والمحسنات اللفظية، ولا بد من تقليد من يُعدُّ في الطبقة الأولى من الأدباء [٢].

ويرى الشيخ الندوي أن محنة الأدب العربي تكمن في تسلط أصحاب التصنع و التكلف على الأدب، أولئك الذين يتخذونه حرفة وصناعة، وغايتهم الأولى إثبات البراعة في التنميق والتحبير، وإحراز الشهرة والمنفعة الشخصية بعد التملق للأشخاص أو للهيئات، وأصبح أدبهم بعد فترة منتشراً بين الناس كأنه تماثيل وصور لا حياة فيها [٣].

ويستدل الشيخ على الأدب الحي بما وصلنا من كتابات علمية ودينية عن علمائنا القدماء وقد كتبها أناس لم يحترفوا الأدب، ولم يجعلوه صناعة، وقد كان لهذه الكتابات تأثير كبير على الناس على مر العصور، وما زال تأثيرها

(١) انظر نظرات في الأدب.
(٢) انظر نظرات في الأدب - أبو الحسن الندوي- ص٣١.
(٣) المرجع نفسه-٢١.

مستمراً إلى الآن، والفضل يكمن في قوتها وجمالها، وكونها كتبت عن عقيدة وعاطفة، هذا إلى جانب تحررها من السجع والبديع ومن التكلف والزخرفة.

ويؤكد الشيخ على أن الروح التي تبعث في الأدب الحياة والبقاء والخلود كامنة في صدق التعبير عن العقيدة والعاطفة [١]. فإذا كان الأديب متحلياً بالصدق والإخلاص في التعبير عن فكره وعاطفته، فإن أدبه سيؤدي غايته من التأثير والإقناع، لأن الكلام إذا خرج من القلب كان محله القلب، وهذا هو الأدب الحي الذي يستطيع أن يحرك النفوس، ويبعث فيها الثقة والرغبة في العمل الجاد المثمر.

وعن كيفية وصول الأديب الإسلامي إلى هذا المستوى الراقي من الأدب يقول الشيخ الندوي: «إن الإيمان وصفاء النفس، والاشتغال بالله والعزوف عن الشهوات يمنح صاحبه صفاء الحس، ولطافة نفس، وعذوبة روح، ونفوذاً إلى المعاني الدقيقة، واقتداراً على التعبير البليغ، فتأتي كتابته كأنها قطعة من نفس صاحبها، وصورة لروحه» [٢].

إن الأدب الإسلامي أدب حي، ونحن الآن في حاجة ماسة إلى هذا الأدب لتغيير نفوسنا، وإصلاح حالنا، فقد قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾[٣].

٥- الأدب وقضايا الحضارة:

إن الأدب يساهم مساهمة فعلية في بناء الحضارات أو هدمها فقد يكون مقوماً أساسياً في التربية والبناء والتوجيه، ويصبح قوة دافعة للشعوب نحو

---

(١) المرجع نفسه -ص٢٣ .

(٢) المرجع نفسه -ص٣٢ .

(٣) الرعد: ١١ .

التغيير وتجاوز المعوقات والسلبيات، وقد يكون الأدب على النقيض من ذلك حيث ينحرف عن مساره الإيجابي، ويصبح معولاً من معاول الهدم، يعرض القيم الهدامة، والأفكار القاتلة، وينخر في الجسم السليم فيصيبه بالشلل، والتاريخ يدعم بشواهده الكثيرة هذه الحقيقة.

والحضارة الإسلامية هي مثال يحتذى به في قيم الخير والعدالة والموازنة بين الحاجات الروحية والمادية، وقد أعطت للإنسانية المفهوم السليم للحضارة، والذي بُني على فكرة التوحيد، ومساواة البشر أمام الله، واحترام الإنسان المؤمن الفعال بعد تطبيقه للمنهج الإلهي السليم.

وقد كان الأدب الإسلامي وجهاً مشرقاً من وجوه الحضارة الإسلامية في أيام عزّها وقيادتها للعالم، وذلك بمساهمته الحقيقية في توجيه الثقافة وشحذ الهمم، وبعث روح العمل والفاعلية بين أبناء الأمة، وكان سلاحاً فعالاً في أيدي الدعاة والمخلصين، في بثِّ الدعوة، وقمع المنكر والبدعة، وحين بدأ إشعاع الحضارة الإسلامية بالأفول رأيت الأدب يتجه اتجاهاً سلبياً غلبت عليه الصنعة والنفاق، والشهوة والشقاق، وبدأ يفقد شيئاً فشيئاً قيمته الروحية التي فيها حياة الأمة بكاملها.

فالأدب الإسلامي - أو الأدب الحي كما يسميه الشيخ الندوي- مرتبط ارتباطاً وثيقاً بازدهار الحضارة ونهضة الأمة، لأنه الروح التي تحيي الجسد وتبعث فيه الحركة والنشاط، وقد أشار إلى هذا المعنى الشاعر الإسلامي الكبير «محمد إقبال» حين قال: «لا خير في نشيد شاعر، ولا في صوت مغن إذا لم يفيضا على المجتمع الحياة والحماسة»[1].

---

(١) المرجع نفسه - ص١٠٦.

لقد أشار الشيخ الندوي في كتاباته إلى البعد الحضاري للأدب وأهميته في صناعة التاريخ، فكثيراً ما كان يكرر هذه الجملة: «إننا نحتاج إلى أدب ينفخ في نفوسنا حياة جديدة. وروحاً جديدة» [١] أي أننا في حاجة إلى أدب حي يحمل رسالة حضارية تغييرية، تهدف إلى تكوين الفرد المسلم ثم المجتمع المسلم، وتغيير القيم السلبية التي يعيشها العالم الإسلامي، وذلك بإثارة الرغبة في النفوس للعمل الجاد، وللفاعلية المتوقدة لصنع شيء له قيمة في الحياة، وبناء حضارة ترضي الله تعالى ورسوله ﷺ وتزكيها الأجيال القادمة.

وقد لفت الشيخ الندوي أنظار المعنيين بالأدب والكتابة ودراسة الأدب وتاريخ الأدب إلى ضرورة الاعتناء بهذا الجانب المهم في الأدب والذي يستطيع أن يغير الاتجاه من السقيم إلى السليم، ومن سيطرة الأهواء والغرائز إلى سيطرة الأخلاق والقيم النبيلة، ومن تبعية الكسل والكساد والخمول إلى الحرص على الحركة والنشاط والفاعلية.

دراسة تطبيقية على أدب الرحلات:

عُني الشيخ أبو الحسن الندوي عناية خاصة بأدب الرحلات، ومارسه كتابة وتنظيراً منذ الخمسينات محاولاً التجديد فيه، وقد وجه جلَّ اهتمامه إلى ربطه بالرؤية الإسلامية وإدخاله في دائرة الأدب الإسلامي، بعدما لاحظ أن كثيراً من هذا الأدب لا ينطلق من مبادئ واضحة في الفكر والتصور، ولا يعبّر بصورة جيدة عن عاطفة الأديب وعقيدته، ويمكن أن نُجمل آراءه النظرية في هذا الشأن في النقاط التالية [٢].

---

(١) المرجع نفسه - ص١١٠.

(٢) المرجع نفسه - ص٦٣-٦٧.

أولاً: يركز أبو الحسن الندوي على أهمية النظرة الشاملة للمجتمع الذي يكتب عنه الرحالة، فقد لاحظ أن كثيراً من كتب الرحلات يغلب عليه الجانب الجغرافي، وتعتني بالآثار والمشاهد أكثر من أي شيء آخر، ولا تتناول في الغالب إلا جانباً من جوانب الحياة يتلاءم مع ذوق الأديب، فإذا كان الرحالة أديباً مثلاً اقتصر على ذكر الأدباء المشهورين، وتصوير الحياة الأدبية في هذه البلاد، وهذا لا يعطي صورة متكاملة عن المجتمع والحياة والعلاقات وغيرها من الأمور المهمة في أدب الرحلة.

ثانياً: ينبه أيضاً إلى ضرورة التسجيل المباشر للأحداث والمشاهدات لتبقى المشاعر والانطباعات حية في الذاكرة، لأنه إذا مر عليها زمان ولم تسجل فستفقد حيويتها وصدقها، فهي أشبه بالظلال والأمواج، فلا تدوم ولا تبقى ولا يستطيع الأديب أن يستعرض ما شاهده، ولا يستطيع أن يستعيد ما شعر به، وما ترك الحادث فيه من أثر نفسي.

ثالثاً: ويؤكد الشيخ الندوي دائماً على أهمية ظهور ذات الأديب وشخصيته في أدب الرحلة فلا بد أن يعكس عاطفته وعقيدته على عمله، لأن هذا العمل إذا تجرد من العاطفة والعقيدة والمشاعر تحول إلى آلة تصوير «باردة» لا تؤثر في النفس، ولا تصلح للبقاء. وسنقف الآن عند كتابين للشيخ طبّق فيهما هذه الآراء، وهما كتاب «مذكرات سائح في الشرق العربي» ، وكتاب «أسبوعان في المغرب الأقصى».

أ- مذكرات سائح في الشرق العربي[1] :

خرج الشيخ الندويّ سنة ١٩٥١م في رحلة إلى عواصم الشرق العربي ليدرس وضع هذه البلدان الديني والعلمي والاجتماعي، وليستفيد من تجارب

(١) مذكرات سائح في الشرق العربي - ط/ ٣ مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨٣م.

علمائها ورجالاتها، وليعرّف ببلاده «شبه القارة الهندية» وتجربة الدعوة والإصلاح فيها، وقد حرص في هذه الرحلة كما ذكر[1] على تسجيل كلِّ حديث، وكلِّ انطباع في يومه غالباً، وأن يتحرى الدِّقَّة في النقل، والصّحَة في الرواية، هذا إلى جانب حرصه على تصوير المجتمع بنظرة متكاملة، وإبراز شخصيته ومشاعره وأفكاره وما يجول في خاطره في كلِّ حادث وموقف عاشه أثناء الرحلة وسنتحدث عن أهم الخصائص الفكرية والأسلوبية التي تميّز بها هذا الكتاب.

١ - الأفكار والمشاعر المعروضة في الكتاب.

إن قارئ هذه المذكرات يدرك أن كاتبها حريص على رسم صورة متكاملة الجوانب للمجتمع الذي عايشه في تلك الفترة من حياته. ويستطيع القارئ أن يأخذ فكرة واسعة عن الحياة الفكرية والثقافية والسياسية والاجتماعية، وأن يعرف التيارات الثقافية، والمستويات الحضارية لتلك المجتمعات المتنوعة، مما يعطي لهذا العمل قيمة تاريخية مهمة، إلى جانب القيمة الأدبية والفكرية التي أعطت للكتاب طابعه المتميز.

والدارس لهذه المذكرات يلاحظ اهتماماً كبيراً بالجوانب الفكرية والدعوية والأدبية، لعلاقتها المباشرة بشخصية الكاتب، فهو رجل يحمل رسالة فكرية حضارية، ويعيش الهم الإسلامي، ويحس ويشعر بآلام ومشكلات المسلمين في هذه البلدان التي زارها، فهو رجل فكرة ورجل دعوة، عبّر عن مشاعره وجسّد عقيدته بجلاء ووضوح في هذا العمل، وهو الأمر الذي طالما أكّده في نظراته النقدية للأدب.

ويمكن أن نجمل تلك القضايا المعروضة في المذكرات في فكرة واحدة وهي أن الشيخ متألم من الواقع الإسلامي بمستوياته المختلفة. فهناك أزمة

---

(١) المرجع نفسه - ص ٨ .

حضارية في البلاد العربية والسبب يعود إلى تفسخ الأخلاق، واستبداد الحكومات، وتحزب في السياسة، وانصراف بالكلية عن الدين، وعبادة المادة[1]، ولا سبيل إلى التحضر إلا بوجود الشعور الديني الصحيح القوي في الشعب، ولا يمكن هذا إلا عن طريق الدعوة العامة، والاتصال بالشعب وتربيته التربية الدينية، وإيجاد الوعي في طبقاته ثم في الجمع بين العلم الديني والمعارف العصرية[2].ويؤكد الشيخ الندوي على أن الإسلام لا تقوم له قائمة إلا بالجمع بين العاطفة القوية، والعقل الصحيح [3]. ويمثل هذا الاقتناع التام لجميع قوى النفس كي تحصل على الإرادة اللازمة للعمل والحركة.

ومما يلفت الانتباه في هذه المذكرات اهتمام الشيخ الندوي بأسلمة الأدب، وضرورة قيام جبهة قوية ضد الأدب المنحرف الذي أثّر تأثيراً سيئاً في الأمة، وساهم في فساد الطبائع والأخلاق، وشارك في التردي الحضاري.

٢- أسلوب الكاتب:

يتميز أسلوب الكاتب في هذه المذكرات بوضوح العبارة وسلامة الألفاظ، ودقة المعاني، فالكاتب كما يظهر يحب الاسترسال مع البعد عن التكلف مما أكسب كتابه أسلوباً يجمع بين الفائدة والمتعة, وجاء الكتاب كأنه قطعة من مؤلفه فالأسلوب هو الرجل كما قرر النقاد، ويكفيك هذا الكتاب لتعرف جوانب كثيرة من شخصية كاتبه، ومنهجه في الكتابة الأدبية.

ب - أسبوعان في المغرب الأقصى:

قام الشيخ أبو الحسن الندوي برحلة إلى المغرب الأقصى سنة ١٩٧٦م لحضور مؤتمر حول الجامعات الإسلامية، وكان أن قضى أياماً زار خلالها هذا

(١) المرجع نفسه – ص٣٠.
(٢) المرجع نفسه – ص٨٦.
(٣) المرجع نفسه – ص٤٨ .

البلد الجميل، واطلع على آثاره ومكتباته، وتعرف على شعبه وعلمائه، وكتب هذه المذكرات التي عبّر فيها عن مشاعره وانطباعاته بأسلوب جميل بليغ [(١)].

يغلب على هذه المذكرات الطابع التاريخي، غير أن كاتبها حرص أيضاً على تسجيل انطباعاته عند كل مشهد أو موقف يتعرض له، فجاء الكتاب مصوراً لجوانب من الحياة بمستوياتها المختلفة في هذا البلد الإسلامي ومعبراً عن شخصية الكاتب الذي ينطلق دائماً من فكره وعقيدته وعاطفته حين يتعامل مع الأشخاص أو الأفكار أو الأشياء.

إن كاتب هذه المذكرات رجل يحمل فكرةً إسلاميةً، يدعو إليها ويدافع عنها، فهو يرى أن أكبر ما يعانيه العالم الإسلامي من الفراغ والعوز، وأشد ما يقاسيه من أزمات هو الضعف الإيماني والفساد الخلقي والتزعزع العقائدي، يقول: ألق نظرة على العالم الإسلامي، وانظر ماذا يعوزه إنه غني بكل شيء، بعدد أفراده، وبوسائله وبثرواته، وبثقافته وبذكائه، ولكنه رغم ذلك كله لا يملك ثقلاً في الميزان العالمي، ولا دوراً مؤثراً في اتجاهات العالم وأوضاعه وحوادثه، والأزمة الإيمانية هي سبب هذا التراجع الحضاري [(١)].

ويدعو الشيخ إلى ضرورة التمسك بقيم الحضارة الإسلامية، وطابع الأمة الخاص، والاستفادة من الحضارة الغربية في مجالاتها الإيجابية وتجاربها المفيدة التي تتفق مع تعاليم الإسلام، حتى يعود للأمة عزها ومكانتها في العالم ويبقى أن نشير إلى أن هذه المذكرات كتبت بأسلوب جميل مؤثر، على الرغم من ترجمتها من الأردية إلى العربية.



(١) أسبوعان في المغرب الأقصى - ط/٢ مؤسسة الرسالة، بيروت، سنة ١٩٨٨م.

(١) المرجع نفسه- ص١١٣.

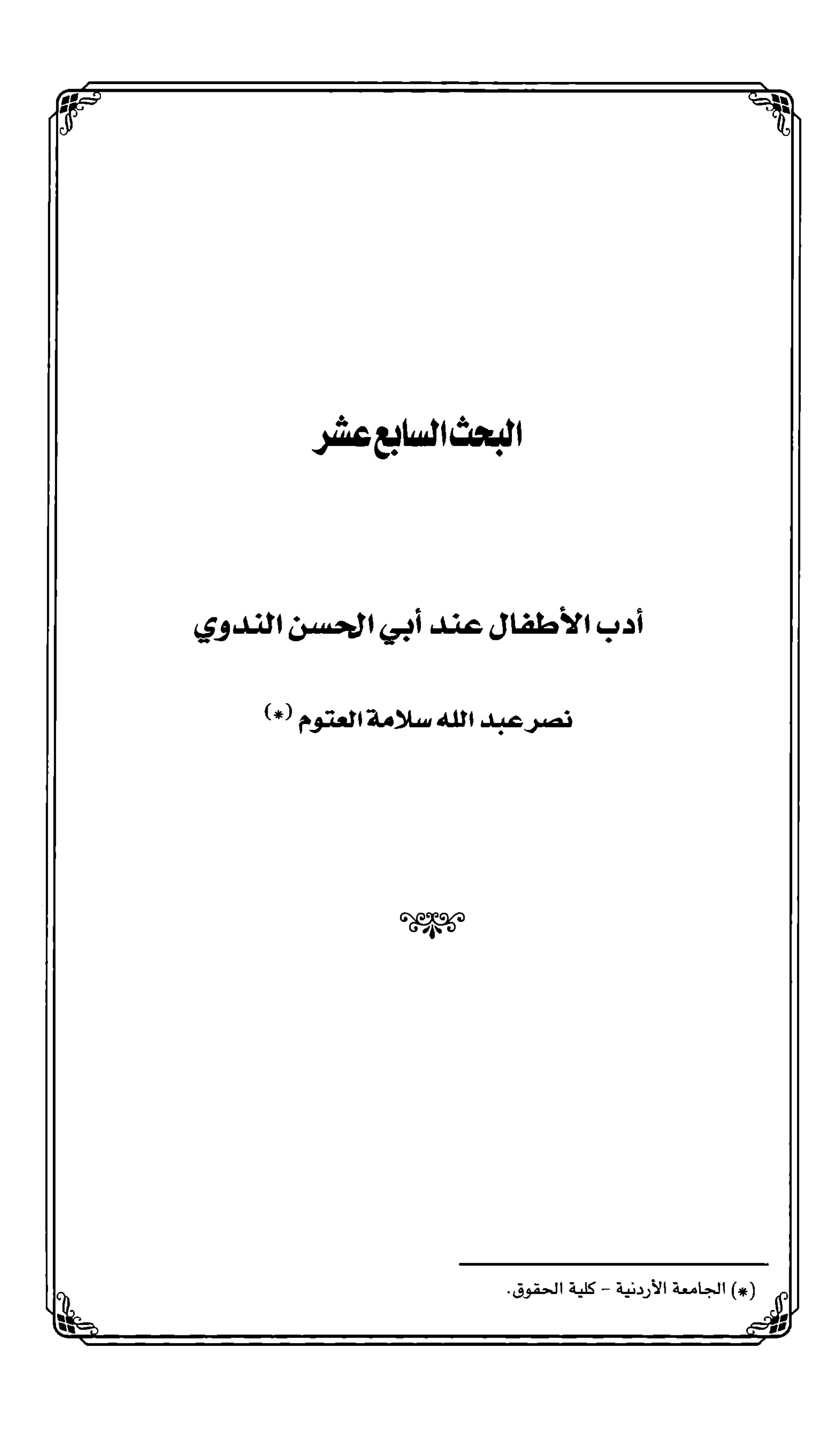
خاتمة

يعد الشيخ أبو الحسن الندوي -حفظه الله- أحد الرواد الأوائل للصحوة الإسلامية المباركة، حيث شارك في نهضتها بفكر عميق، ورأي سديد وعزيمة بلا فتور، وقد كان اهتمامه بالأدب الإسلامي كتابة وتنظيراً، ودراسة ونقداً يشكل مساهمة كبيرة في تزويد هذه الصحوة بالأدب الحي الذي يبعث الحماسة والحيوية والفاعلية في الأمة.

وقد دأب الشيخ على الدعوة إلى بناء وتشكيل أدب إسلامي متميز، يقف في وجه الأدب المنحرف الذي أصبح معادياً للقيم، ومجانباً للأخلاق ومثبطاً للهمم، وحدد الشيخ الأطُر العامة لهذا الأدب الذي لا بد أن ينطلق من الرؤية الإسلامية ، ويعبّر عن المشاعر والأفكار بصدق وإخلاص حتى يحقق غايته من التأثير والإقناع.

واهتم الشيخ بأدب الرحلات، ودعا إلى ضرورة التسجيل المباشر للأحداث والمشاهدات والانطباعات، وأهمية النظرة الشاملة للمجتمع الذي يكتب عنه الرحالة، وأهمية ظهور ذات الأديب بعاطفته وعقيدته في أدب الرحلة، وطبّق هذه النظرات تطبيقاً حسناً في كتابيه « مذكرات سائح في الشرق العربي» ، و «أسبوعان في المغرب الأقصى» وقدّم الشيخ في هذين الكتابين أنموذجاً متميزاً، وطريقاً واضحاً لمن يريد الكتابة في هذا النوع من الأدب.





البحث السابع عشر

أدب الأطفال عند أبي الحسن الندوي

نصر عبد الله سلامة العتوم (*)

(*) الجامعة الأردنية - كلية الحقوق.

مقدمة:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ

في هذا البحث محاولة جادة للتعريف بشخصية إسلامية من خلال أفكاره الرائعة في الدعوة والتربية واللغة والفكر والنفس؛ فهي شخصية المربي الفاضل أبي الحسن الندوي الأمين العام لندوة العلماء في مدينة لكهنؤ، ورئيس رابطة الأدب الإسلامي العالمية، كرّم الله وجهه بنور الإسلام، هذه الشخصية قدمت لطفلنا المسلم تراثاً تاريخياً خالداً أعادت بريقه، ولمّعت جوانبه، هذه الشخصية تحدثت عن أمجاد أمتنا الإسلامية وسمو أخلاقها بأسلوب الداعية الصادق الذي تتدفق منه كلمات الدعوة ملتهبة، تحمل صدق العاطفة وسمو الروح، شخصية لسانها رطبٌ بالدعوة إلى الله، عزيمتها صلبة متمسكة بعرى الإيمان الوثقى.

لقد دفع الباحث إلى كتابة هذا البحث الغيرة على أطفالنا المسلمين، ومايحتاجونه من وعي تام لمعرفة تاريخهم الإسلامي الممتد منذ آدم عليه السلام حتى وقتنا هذا ، والرغبة الطامحة في استطلاعٍ لعقل طفلنا المسلم على الواقع الإسلامي قديماً وحديثاً، لأنه قبل التفكير في بناء الحضارة الإسلامية وجبَ تفكيرنا في الطفل المسلم الذي هو أساس هذه الحضارة، ثم بناء طفولته الإسلامية بناءً سليماً.

يحمل هذا البحث أهدافاً هي التعريف بشخصية الندوي، وفكره الأدبي للطفل، بالإضافة إلى ذلك، فإنه يهدف إلى حثّ آباء أطفالنا وأمهاتهم على

اختيار واعٍ لقصص الأطفال التي تكوّن هوية الطفل الإسلامية وتصقل شخصيته.

ومع هذا فقد واجه الباحث صعوبة كبيرة من حيث قلة المراجع للبحث وعدم وفرتها، فلم يستطع الباحث -على الرغم من جهده الشخصي- أن يعثر في المكتبات الأردنية على كتب أبي الحسن للأطفال سوى ثلاثة كتب هي: «قصص النبيين للأطفال» و«سيرة خاتم النبيين» و«قصص من التاريخ الإسلامي للأطفال»، وعلى الرغم من هذا ، قام الباحث باستكشاف الأساليب التربوية واللغوية والفكرية التي يعالجها فكر أبي الحسن الندوي في أدب الأطفال.

. . . ولقد كان هذا البحث في ستة فصول، تتكلم في اللغة، والدعوة، والتربية الإسلامية، والجانب الفكري والنفسي، والثقافة الإسلامية، والاتجاه الإسلامي، محاولاً في ذلك إبراز عدة نواحٍ في الفكر واللغة والدعوة والتربية تهم أدب الطفل من خلال دراسة الباحث المتأنية لكتب أبي الحسن الندوي فيها.

. . . وفي الختام أستغفر الله من كل خطأ وزلل، وأدعو الله بالتوفيق، وحسبي الله ونعم الوكيل.



الفصل الأول
اللغة

يظهر اهتمام أبي الحسن الندوي في اللغة من خلال الأمور التالية:

١- **الدعوة إلى الاهتمام باللغة العربية عند الطفل المسلم:** هذا واضحٌ في كل قصصه وحكاياته عن التاريخ الإسلامي، تراهُ في جمله المتينة، وألفاظه السهلة، ومعانيه العذبة بما يتناسب وروح النص في سياق حديثه عن أي موضوع، أما الألفاظ فسهلة، تراها بعيدةً كل البعد عن الألفاظ الغريبة، وأما المعاني فعذبة، لأنها خصبة بالروح الإسلامية، وأما الجمل فمتينة، وترابطها يدل على متانتها، حتى تكاد أن تكون قصصه موسوعة طفل غنيّة بمفردات اللغة العربية. وهي سمة أصيلة في منهج أديبنا الإسلامي أبي الحسن الندوي.

٢- **البعد عن الخيال الوهمي في أدبه مع الطفل:** ولا شكّ في هذا لأنه يروي تاريخاً، لا سيّما أن التاريخ الإسلامي هو حقائق ثابتة سجلها القرآن الكريم والسنة النبويّة، ودوّنتها انتصارات المسلمين الرائعة على مر الأيام، فقصص الأنبياء كقصة إبراهيم وموسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام هي حقائق ثابتةٌ ذكرها القرآن، لا يمحوها زيف زائف أو عبث عابث، فالأدب الذي يكتبه الندوي للطفل هو الأدب المسلم، إذ يتسم بالحقيقة والثبات، وهذه سمة بارزة في أدب أبي الحسن الندوي.

٣- **استخدام الأساليب اللغوية في أدبه مع الطفل:** فتراه يستخدم صيغ الاستفهام أسلوباً عندما يرغب في البرهنة على صحة كلامه أو عند تقرير أمر ما، وهذا الأسلوب يفيد عدة معانٍ منها الاستنكار كقوله: «وقال للأصنام: ألا تتكلمون ؟ ألا تسمعون ؟»[1].

---

(١) أبو الحسن الندوي ؛ قصص النبيين ، بيروت، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثامنة عشرة، ١٩٩٣، ص١٢.

ومنها التقرير كقوله: «ألا يستحق أهل السجن الرحمة؟ أليس أهل السجن عباد الله» [١].

- كما أنه يستخدم أسلوب الحوار حينما تكون الأحداث بحاجة ماسة إلى هذا الأسلوب، فالحوار يضفي على النص روحاً وحماسة تستنشط همة القارئ، وتدفعه إلى إتمام القراءة، كما أنها تبين طريقة للتعامل مع الناس في الكلام والمناقشة، فالحوار أسلوب مهم في الدعوة، وهذا ما أكده شيخنا الكبير أبو الحسن الندوي، نذكر منها موقف سيدنا إبراهيم عليه السلام من الملك[٢].
- والأسلوب التكراري للجمل والمفردات هو أيضاً من الأساليب التي استخدمها أبو الحسن في أدب الأطفال، فالتكرار يثبت في ذهن القارئ المعاني التي يريدها ويبيّن أهميتها، فيوفي الفكرة حقها، ويشبع جوانبها، وخير مثال على ذلك ما يلي:

«وكان آزر له ولد رشيد، رشيد جداً، وكان اسم هذا الولد إبراهيم، وكان إبراهيم يرى الناس يسجدون للأصنام، ويرى الناس يعبدون الأصنام، وكان إبراهيم يعرف أن الأصنام حجارة» [٣].

٤- **التركيز على الحدث الماضي:** لجأ الندوي إلى الماضي وقدم قصصه بأسلوب عصري يناسب الطفل المسلم، ويبدأ أبو الحسن كل قصة من قصصه بالفعل الماضي، ومن الأمثلة على ذلك:» كان يوسف ولداً صغيراً، وكان له أحد عشر أخاً» [٤] «وجاء على عرش مصر ملك جبار جداً» [٥].

فالأطفال عادة يحبون سماع قصص الماضي لأنهم يجدون بها ذوقاً رفيعاً وحلاوةً عجيبة. لأن الحديث عن الوقائع في الزمان الماضي أسهل من الحديث

(١) المرجع السابق، ص٤٣.
(٢) المرجع السابق، ص٢٠-٢١.
(٣) المرجع السابق، ص١٠.
(٤) المرجع السابق، ص٣٠.
(٥) المرجع السابق، ص١٤٣.

عن الوقائع في الزمن الحاضر، ولأن هناك صعوبات تحول دون الحديث عن الوقائع الحاضرة.

٥- **الجوانب الحيوية ذات العلاقة الحية مع اللغة:** وهذه من الأمور التي راعاها أبو الحسن في أدبه مع الطفل.

- فاختيار العنوان الملائم للقصة، هو المفتاح الذي يدل على ماهيتها، وهذا ما سيتحدث عنه الباحث في فصل لاحق إن شاء الله تعالى.
- واستخدام الترقيم له فائدة مرجوة، هي محاولة تدريب الطالب على علامات الترقيم، وأوقات استخدامها وفوائدها.
- كما أن التبويب لكل قصة أمر ضروري، لأن الطفل يثقل من الحشو دون أرقام وأبواب، وما يلاحظه الباحث أن الباب يحتوي على فكرة يمكن أن تتلخص في سطر أو سطرين، لكن أبا الحسن يكرر الفكرة في أكثر من قالب لغوي رائع، فيجد الطفل في ذلك متعة وتشويقاً أكثر.



الفصل الثاني

الدعـوة

يجعل أبو الحسن الندوي من قصصه مناخاً للدعوة، يعيش الطفل في حرارتها المناسبة، إذ يعتبر أبو الحسن الدعوة عنده هدفاً رئيساً من أهداف أدب الأطفال، ويبدو هذا من خلال استعراضه الفعلي لآداب وأساليب وأسرار الدعوة، فيحسُّ الطفل وهو يقرأ بأن الأفكار والمعاني أحياءٌ تتحرك على الأرض، وهذا يظهر من خلال الأمور التالية:

أولاً: يكشف عن آداب الدعوة الإسلامية التي يحتاجها الداعية في كلِّ زمان ومكان. فأبو الحسن داعية إسلامي له في مجال الدعوة باع طويل. إذ يكشف للطفل المسلم عن آداب الدعوة الإسلامية، ويظهر ذلك من خلال فهمه الرائع لمفردات القرآن ومعانيه، وآياته المتناسقة، فيؤكد أن هذه الآداب هي سلعة الدعوة التي يهبها للناس على اختلاف عقائدهم وتصوراتهم عن الحياة، ومن الضروري أن نؤكد على أن هذه الآداب هي هبة الله للدعاة المؤمنين على مر الأزمنة وفي جميع الأمكنة. وهذه الآداب التي يكشف عنها أبو الحسن في معرض حديثه عن قصص الأنبياء والرسل، تجعل من الطفل خامة خصبة للدعوة -إن صح التعبير- وفي التعبير العلمي «مادة أولية للدعوة» فيؤكد أن هذا الطفل هو اليوم شبل، وغداً هو الداعية.

وهذه الآداب التي يكشف عنها تتبين من خلال النماذج العظيمة من دعوة الأنبياء والصالحين التي وردت في قرآننا العظيم، أو من خلال النماذج الكريمة من دعوة الصحابة والتابعين، والفاتحين من أبطالنا المسلمين التي سطرتها صفحات تاريخنا الإسلامي المضيء.

١- آداب الدعـوة التي تتكشف من خـلال النمـاذج الطاهـرة من دعـوة الأنبياء والصالحين والتي وردت في قرآننا الكريم، نذكر منها:

أ- نموذج من دعوة إبراهيم عليه السـلام: يقول الله تعالى: ﴿**يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ**﴾[١]. ﴿**يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ**﴾[٢]. إن كلمـة «يا أبت» فيهـا إثارة للحنان الأبوي[٣]، وهذا أدب عظيـم مع الوالدين يعـرضـه أبو الحسن للأطفال، فدعوة الوالدين تحتاج إلى إثارة العاطفة والشفقة والرأفة.

﴿**يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ**﴾ يا أبت اعـبد الرحـمن وغَضِبَ والـد إبراهيم وقال: أنا أضربك، فاتركني ولا تقل شيئاً، وكان إبراهيم حليماً [٤].

ب - نموذج من دعوة سيدنا يوسف عليه السلام: يقول الله تعالى: ﴿**ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ**﴾ [٥] هذه الآيات تعرض نموذجاً من دعوة يوسف عليه السـلام، قام أبو الحسن بتجـزئتها والتعليق عليها، حيث أكد أن الحكمة هي مفتاح الدعـوة، ومن الحكمة في الدعوة حسن افتتاح الحديث [٦]. فيُطَمْئِن سيدنا يوسف صاحبيه في السجن؛ ليمهد بعد ذلك الجو المناسب للدعوة فيقول لهما: ﴿**ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي**﴾ «فجلسا واطمأنا ثم قال لهما يوسف:

(١) مريم: ٤٢ .

(٢) مريم: ٤٤ .

(٣) أبو الحسن الندوي، روائع من أدب الدعوة في القرآن والسيرة، الكويت، دار القلم، الطبعة الثانية، ١٩٨١، ص ٢٠.

(٤) أبو الحسن الندوي، قصص النبيين للأطفال، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٣، ص٢١-٢٢.

(٥) يوسف: ٣٧-٣٩.

(٦) أبو الحسن الندوي، روائع من أدب الدعوة في القرآن والسيرة، الكويت، دار القلم، ص٢،١٩٨١، ص٣٧.

أنا عالمٌ بتأويل الرؤيا، ذلكما مما علمني ربي، ففرحا واطمأنا، وهنا وجد يوسف الفرصة فبدأ موعظته» [١].

ثم يشرح لهما دعوته بعد أن اطمأنّ إليهما وهيأ قلوبهما:

﴿أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ أين رب البر، ورب البحر، ورب الرزق، ورب المطر؟» [٢].

«وكان لو قدّم هذا قبل ذلك الكلام، لكان ثقيلاً على آذانهما وعلى قلوبهما» [٣] «وهناك شعر سيدنا يوسف بأن الفراغ الذي وجد في قلوبهم قد ملئ، وليس من الحكمة الآن أن يطيل الكلام ويتوسع في الحديث عن التوحيد، والطبيب النطاسي يعرف مقدار الوجبة من الدواء، ومدى صلاحية المريض وحاجته، فلا يزيد عليها، إنها طريقة الداعي الملهم» [٤].

«ولمّا فرغ يوسف عن موعظته أخبرهما بتأويل الرؤيا» [٥].

جـ- نموذج من دعوة سيدنا محمد ﷺ: يعرض أبو الحسن هذا النموذج في باب خاص تحت عنوان: «الدعوة جهاراً على جبل الصفا»، فيوضح للطفل أن النداء أسلوب من أساليب الحماسة في الدعوة، يستثير همم الرجال ويستقطب أنظارهم وعقولهم، ومثال ذلك ما أورده الندوي قائلاً: فخرج ﷺ وصعد على جبل «الصفا»، ونادى بأعلى صوته: «يا صباحاه» وكانت صيحة معروفة مألوفة، كلما أحس إنسان بخطر عدو، يغير على بلد، أو على قبيلة، على غفلة منها نادى «يا صباحاه» فلم تتأخر قريش عن تلبية هذا النداء [٦]

---

(١) أبو الحسن الندوي، قصص النبيين للأطفال، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط الثامنة عشرة، ١٩٩٣، ص٤٤-٤٥.
(٢) المرجع السابق. ص٤٦.
(٣) أبو الحسن الندوي، روائع أدب الدعوة في القرآن والسيرة، الكويت، دار القلم، ط٢، ١٩٨١، ص٤٣.
(٤) المرجع السابق، ص٤٤-٤٥.
(٥) أبو الحسن الندوي، قصص النبيين للأطفال، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط١٨، ١٩٩٣، ص٤٧.
(٦) أبو الحسن الندوي، سيرة خاتم النبيين، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط الثالثة عشرة، ١٩٩٤، ص٥٢-٥٣.

كما يوضح للطفل أن الصدق أساس الدعوة، وأن الرجل الصادق هو الرجل الداعية، يقول أبو الحسن الندوي:» كان العرب واقعيين عمليين، إنهم رأوا رجلاً جربوا عليه الصدق والأمانة والنصيحة.. فهداهم ذكاؤهم وإنصافهم إلى تصديق هذا الخبر الأمين الصادق» [١].

إلى جانب ذلك يوضح الندوي للطفل المسلم أن الداعية سيجد المعارضة والمقاومة حتى من أقرب الناس إليه، لأن دعوة الحق ثقيلة على النفوس، تعني الاستعلاء على كل ضغوط شهوات الحياة الدنيا، وقد أكده الندوي بقوله: فسكت الناس، ولكن أبا لهب قال: تباً لك سائر اليوم، أما دعوتنا إلا لهذا؟ [٢].

٢- آداب الدعوة التي تتكشف من خلال النماذج الزكية، من دعوة الصحابة والتابعين والفاتحين المسلمين التي سطرتها صفحات تاريخنا الإسلامي، ودوّنتها بطون الكتب والسير المليئة بالعظماء الماجدين.

أ- نموذج من دعوة جعفر بن أبي طالب للنجاشي ملك الحبشة:

هذا النموذج لوحة رائعة بالغة، روعتها في دقة الوصف وحسن الجمال، فأبو الحسن إذ يكتب كلام جعفر بن أبي طالب بالكامل، ويضع لكلام جعفر أمام النجاشي عنواناً رائعاً يطلق عليه اسم: «تصوير جعفر بن أبي طالب للجاهلية وتعريفه بالإسلام»، ثم يبين خيبة مسعى الكافرين بقوله: «خيبة وفد قريش» فأبو الحسن في هذا النموذج يبين كيفية الدعوة في بلاط الملوك والسلاطين قائلاً: «يقول أصحاب السير: سمع النجاشي كل ذلك في هدوء ووقار، ولعل ما أبداه جعفر من الثقة بعدله، وحسن جواره كان عوناً على ذلك،

---

(١) المرجع السابق، ص٥٣-٥٤.
(٢) المرجع السابق، ص٥٤.

والملوك العقلاء يحرصون دائماً على حسن الصيت وطيب القالة وتحقيق حسن الظن بهم»[١].

ولعل مقصد أبي الحسن من إيراد هذا الخطاب كاملاً هو بيان ظلم الجاهلية ونظافة الإسلام، وتقرير ذلك في نفس الطفل وقلبه وعقله، وكأن لسان حال الندوي يقول: تعالوا! انظروا هذا ظلم الجاهلية، وهذه عدالة الإسلام وطهارته.

كما يبين أبو الحسن للطفل المسلم من هو عيسى ابن مريم الذي يؤلهه النصارى ويعبدونه! يوضح ذلك من خلال كلام جعفر للنجاشي: هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول. ولاشكَّ أن هذا تمرين من أبي الحسن للطفل المسلم صاحب العقيدة الصلبة والنبع الصافي، يعلم فيه الطفل كيفية الرد على النصرانية عقيدة الصليب والشرك.

ب- نموذج من جواب كان السبب في إسلام مئات الألوف من الناس: هذه القصة تروي حكاية لحوار لطيف بين الملك التتري تغلق تيمور وبين الشيخ جمال الدين الفارسي، تمخّض الحوار بينهما عن اقتناع الأمير بالإسلام، وقد أسلم على يد هذا الملك -بعد تسلمه الحكم- الأمراء كلهم، ودخل التتار المتوحشون في الإسلام واعتنقوه، وأصبحوا قادة فتح إسلامي بعد أن كانوا دماراً للإسلام والمسلمين. ويبين أبو الحسن في هذه القصة أسلوب الداعية الشيخ الفارسي في الحوار الذي كان سبب إسلام الملك التتري[٢].

---

(١) أبو الحسن الندوي، روائع من أدب الدعوة في القرآن والسيرة، الكويت، دار القلم، الطبعة الثانية، ١٩٨١، ص١٢٤.

(٢) انظر: أبو الحسن الندوي، قصص من التاريخ الإسلامي للأطفال، بيروت: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٩٩٢، ص١١٤-١٢٣.

ثانياً: يكشف عن أسرار الدعوة الإسلامية:

١- «**فالقرآن كتاب هداية ودعوة قبل أن يكون كتاب أحكام وشريعة**» [١] فتراه يبعد كثيراً عن الأحكام الفقهية الشرعية، لأن المقصود من كتبه للأطفال هو دعوتهم إلى التمسك بإسلامهم والدعوة إليه، وهذا مما لا شك فيه، لأن أبا الحسن داعية، فكتبه التي تتكلم عن سيرة الأنبياء، والصالحين ودعوتهم، إنما المقصود منها هو دعوة لأطفالنا المسلمين، إلى الإقتداء بأخلاق أولئك الدعاة من الأنبياء الكرام والصالحين العظام، يقول تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾.

٢- **ومن أسرار الدعوة التي يكشف عنها أبو الحسن هي أن «الدعوة لا يمكن أن تخضع لقوانين مرسومة, وتقيّد بها»** [٢]، فالدعوة تعتمد على قوة الشخصية في الكلام وفي سرعة البديهة، واستحضار الفكرة في الذهن، فهو يحاول تنشيط ذاكرة الطفل، ويوفّر له آداب الدعوة وأسرارها ووسائلها المتاحة؛ ليهيئه في يوم ما كداعية يستطيع أن يتأقلم مع الظروف المحيطة بالدعوة، فيبين له أن الدعوة في السجن لها كيفيتها واختلافها عن الدعوة في القصر، مثلاً، وأن الدعوة في مكان يقطن فيه آلاف السحرة، يختلف مثلاً عن الدعوة في مكان يقطنه عباد العجل، وأن الدعوة في زمن سابق، تختلف عن الدعوة في زمن لاحق لاختلاف الظروف المستجدة، والمستحدثة في كلا الزمنين، لذا يجب مراعاة الكيفية اللازمة للدعوة من حيث اختلاف ظروف زمانها ومكانها.

٣- **ومن أسرار الدعوة أيضاً أن لها مساحة زمانية ومساحة مكانية** [٣]، فالتوحيد دعوة الأنبياء جميعاً، وسيدنا محمد ﷺ، كانت لدعوته مساحة

---

(١) أبو الحسن الندوي، روائع من أدب الدعوة في القرآن، والسيرة، الكويت، ط٢، دار القلم، الطبعة الثانية، ١٩٨١، ص١٠.
(٢) المرجع السابق. ص١١.
(٣) المرجع السابق. ص١٢.

زمانية إلى يوم القيامة، ومكانية هي الأرض جميعاً، بينما كانت دعوة الأنبياء لها مكان محدد في أقوام معينة وزمانْ محدد، يبدأ ببداية دعوة النبي المؤسس، وينتهي بوفاة ذلك النبي، وقد أكد على هذه النقطة العلامة أبو الحسن الندوي، والشواهد على ذلك كثيرة، وتسميته» سيرة خاتم النبيين» عنواناً لكتابه تأكيد ينُبِّه أن دعوة سيدنا محمد ﷺ هي دعوة باقية إلى آخر الزمان لأنه خاتم المرسلين. يقول تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾.

٤- ومن أسرار الدعوة أنها لا تتم بالسيف والقوة، وإنما بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، يقول تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [1]. فالدعوة عامة تشمل هذه المعاني كلها، وهذه الأساليب كلها، ثم قال: ﴿إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ وأي كلمة أوسع أفقاً وأعظم إطلاقاً من قوله تعالى: ﴿سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ إن الحكمة -الكلمة البليغة العربية التي جاءت في الآية - لا أعتقد أنها من الممكن ترجمتها أو نقلها إلى لغة أخرى، وكذلك الموعظة كلمة مطلقة، والحسنة أيضاً كلمة مطلقة، وهنا جاء القرآن ليحل هذه المشكلة فأطلق وقيد، وأوجز وأعجز، فقال: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ الآية [2]. وعلى سبيل المثال دعوة سيدنا إبراهيم مع الملك النمرود، فكانت دعوته مؤسسة على الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن» [3].

فمجرد أن يكشف الداعية هذه الأسرار اللطيفة سرعان ما يتبين له حلاوة الدعوة وإن صعبت، ولطافتها وإن توعرت مسالكها، هذه سنة الله في الدعوة، كُتب عليها أن تشهد صراعاً بين الحق والباطل، بين الخير والشر، بين الإسلام والجاهلية.

---

(١) النحل: ١٢٥.

(٢) أبو الحسن الندوي، روائع من أدب الدعوة في القرآن والسيرة، الكويت، دار القلم، ط٢، ١٩٨١، ص١٤-١٥.

(٣) المرجع السابق، ص١٦.

ثالثاً: يكشف عن أنواع للدعوة الإسلامية:

من خلال دراستي لقصص النبيين تبين لي أن الشيخ أبا الحسن قد وضَّح للطفل أنواعاً من الدعوة، تعتمد على الظروف الملائمة في البيئة الملائمة، فالدعوة السرية تبدأ في بيئة جغرافية خالية من الأفكار التي تنادي بها هذه الدعوة، ثم تحتاج هذه الأفكار إلى حَمَلَة يعتنقونها ويدينون بها ويتحملون تبعاتها، هم الأرض التي تنمو الأفكار عليها، وحتى تحيا هذه الأفكار في قلوب حامليها، يجب أن يكون هناك مناخ يلائمها تستقي منه أشعة النور والضياء، فالأفراد (الأرض)، والمناخ (الشريعة والنظام الرباني)، والأفكار هي عناصرٌ أساسية لإرساء قواعد الدعوة والنهوض بها إلى الأعلى. وحتى تعيش هذه العناصر ويكتب لها النجاح لا بد من أن يتوافر لها شرط لازم وضروري هو السرية في هذه الدعوة، هذه السرية واجبة حتى لا تجهض في حينها، وتنتهي حيث ولدت، ولهذا فإن الدعوة السرية هي مرحلة مخاض لولادة دعوة قوية مؤثرة، تكون فيها الآلام نتيجة طبيعية وحتمية لهذا المخاض، وقد بين أبو الحسن هذه الدعوة حينما تحدث عن دعوة الرسول ﷺ السرية والتي دامت ثلاث سنوات، ثم تكون بعد ذلك الدعوة الجهرية - العلنية حيث تبدأ حين استكمال العناصر والشروط الأساسية لوجود الدعوة واستمراريتها، وخطبة الرسول في قريش على جبل الصفا خير شاهد على ذلك، وهنا يؤكد أبو الحسن لأطفال المسلمين أن الدعوة تتعرض لهزات عنيفة ومصادمات قاسية، وأن الداعية هو الذي سيدفع الآلام والأوجاع ثمناً لاعتناقه أفكار الدعوة ومبادئها، كما يؤكد الندوي من خلال عرضه للقصص أن نجاح الدعوة يؤسس على نجاح السرية فيها. وحتى يُكتب ذلك النجاح فإن من الواجب أن يكون التنظيم سرياً والدعوة علانيةً، فالسرية في التنظيم والعلانية في الدعوة.

كما يؤكد أبو الحسن أن أنواع الدعوة تختلف باختلاف أزمنتها وأمكنتها وبيئاتها والظروف المحيطة بها، كدعوة يوسف في السجن، ودعوة موسى لفرعون في قصره، ودعوة محمد ﷺ لقريش في مكة.

رابعاً: إعداد الطفل كداعية إسلامي إعداداً أولياً:

فاستعراض أبي الحسن الندوي للنماذج الحية من دعوة الأنبياء والصالحين هي دعوة لأطفال المسلمين أن يصبحوا دعاة الله في الأرض. ففي هذه النماذج من تلك الدعوات المرحلة الإعدادية للطفل كداعية، إذ تؤسس فيه عمل الدعوة وتحرك فيه دوافعها. فالنماذج التي تحدث عنها الباحث من دعوة سيدنا إبراهيم، ويوسف، ومحمد عليهم الصلاة والسلام، وجعفر بن أبي طالب هي لوحات رائعة للأطفال في حقل الدعوة، ودعوة فريدة لأطفالنا المسلمين في الالتحاق بقافلة الدعاة إلى الله، وكأنها همسات في آذان أطفالنا أن يتمثلوا هذا النهج العظيم من الدعوة إلى الله، ويسلكوا طريق الدعوة يرفعون راية التوحيد عالياً: «لا إله إلا الله».



الفصل الثالث

التربية الإسلامية

يقدم أبو الحسن الندوي في بداية كتابه قصص النبيين -القسم الأول نصيحة لابن أخيه «محمد» مملوءة بالحرص والوعي لمستقبل ابن أخيه من جهة، وبالندم والخجل من القصص العربية من جهة أخرى. نصيحة بدراسة قصص الأنبياء وتعلم اللغة العربية، يقدم هذه النصيحة التربوية التي تحمل في ثناياها كل الأسف والخجل من القصص العربية التي لا تتكلم إلا عن الحيوانات والأساطير والخرافات، فيقول: «ابن أخي العزيز! أراك حريصاً على القصص والحكايات..، ولكني أتأسف لأني لا أرى في يدك إلا حكايات السنانير والكلاب والأسد والذئاب والقردة والذباب.. ولكني أخجل أنك لا تجد ما يوافق سنك من القصص العربية، إلا قصص الحيوانات، والأساطير والخرافات، فرأيت أن أكتب لك ولأمثالك أبناء المسلمين قصص الأنبياء والمرسلين عليهم صلاة الله وسلامه بأسلوب يناسب سنك وذوقك ففعلت»[1].

ومع هذه النصيحة يقدم كتابه «قصص النبيين» هدية له ولأطفال المسلمين، هذه المقدمة على الرغم من قصرها إلا أنها على جانب عظيم من التربية والتعليم لأطفالنا المسلمين يوازيها شرف الداعية والمربي الحريص على مستقبل الطفل المسلم وغده المجهول، إضافة إلى ذلك فإن كتاب قصص النبيين القسم الثالث (سيرة خاتم النبيين) جاء ليجذر أصول التربية الإسلامية، ويعمق قواعدها، وقد أكد على هذا المعنى قائلاً: «وقد جاءت فيه خلاصة السيرة ولبابها، وروائع حكاياتها وأخبارها، وتاريخ الدعوة الإسلامية

(١) أبو الحسن الندوي، قصص النبيين، بيروت، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثامنة عشرة، ١٩٩٣، ص٦.

الأولى وفتوحها وانتصاراتها، وعجائب التربية النبوية ومعجزاتها، فأصبح الكتاب مدرسة كاملة، ينشأ فيها الطالب بين إيمان وحنان، ويتقلب بين روحٍ وريحان» [١].

ومن خلال دراسة الباحث لأدب الطفل التربوي لدى الداعية أبي الحسن، يستطيع الباحث أن يوضح الأهداف التربوية التي يؤكد عليها المربي الداعية الشيخ أبو الحسن الندوي وهي مايلي:

١- التدرج في الأسلوب التربوي للناشئة حسبما تقتضيه درجتهم العقلية، وأكد أبو الحسن هذا الهدف قائلاً: «ولم أتقيد في هذا الكتاب بالالتزامات التي التزمتها في الأجزاء الأولى من «قصص النبيين للأطفال» من محاكاة أسلوب الأطفال، وطبيعتهم وتكرار الجمل، وسهولة الألفاظ، وبسط القصة، فقد شبّ هؤلاء القراء الصغار عن طوقهم ، وتقدموا في ثقافتهم اللغوية وقدرتهم العقلية.. وهكذا جاء الكتاب -بحول الله تعالى- وسطاً بين الكتب التي ألفت في السيرة للكبار التابعين، والكتب التي ألفت للصغار الناهضين..» [٢].

وهنا لا بد أن يشير الباحث إلى أن المربي الفاضل أبا الحسن الندوي كان بعيداً تمام البعد عن تناول الأحكام الشرعية الفقهية؛ لأنها ليست موضوعاً للبحث في هذا المستوى من الناشئة.

٢- غرس مكارم الأخلاق الإسلامية في كيان الطفل ودعوته إلى التمسك بها. هذه الغراس يقطف الطفل منها ثمار العقيدة الصحيحة المعافاة من العلل والأمراض، فالدين الإسلامي دين أخلاق. يقول الرسول الكريم ﷺ «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**». فهو الدين الوحيد الذي ينظم أخلاقاً للحكم والخلافة والحروب، حتى دخول الحمّام وإماطة الأذى عن الطريق، ينظم لها

---

(١) أبو الحسن الندوي، سيرة خاتم النبيين، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط١٢، ١٩٩٣، ص٥.

(٢) المرجع السابق. ص٥.

أخلاقاً وسلوكاً ينبع من النهج الرباني والتصور الإسلامي للحياة والكون. فمعظم قصص الندوي تركز على الأخلاق، حتى إن كتابه «قصص من التاريخ الإسلامي للأطفال» يحكي في كل قصة خُلقاً إسلامياً عظيماً، حتى يستطيع الباحث لو طلب منه ذلك أن يضع له عنواناً يطلق عليه اسماً جديداً هو «صورة مجيدة من الأخلاق الإسلامية في التاريخ الإسلامي للأطفال». لأن الأخلاق أمجاد تاريخ عابق بالنفس الطيبة والروح الزكية.

وقد أعرب أبو الحسن عن هذه المعاني السامية في الأخلاق الكريمة، ونذكر هنا شواهد على ذلك:

أ- **الصبر:** يظهر هذا الخلق من خلال قصة صبر أيوب عليه السلام:

«فقد كان له من الدواب والأنعام والحرث شيء كثير وأولاد مرضية، فابتلي في ذلك، وذهب عن آخره، ثم ابتلي في جسده، لم يبقَ منهُ سليمٌ سوى قلبه ولسانه، يذكر بهما الله عز وجل..، وكان رغم ذلك صابراً شاكراً» [1].

ب - **التفاني في حب** ﷺ وله مظاهر كثيرة، منها فداء الصحابة الكرام لرسول الله في غزوة أحد كأبي عبيدة وطلحة وأبو دجانة، وسعد:

«نزع أبو عبيدة بن الجراح إحدى الحلقتين من وجه رسول الله ﷺ فسقطت ثنيته، ونزع الأخرى فسقطت ثنيته الأخرى... وترّس أبو دجانة.. بنفسه دون رسول الله ﷺ، يقع النبل في ظهره وهو منحن عليه.. ورمى سعد ابن أبي وقاص دون رسول الله ويناوله رسول الله ﷺ النبل، ويقول: إرمِ فداك أبي وأمي، .. وجالدهم طلحة بن عبيد الله، عليه بيده يقي بها رسول الله ﷺ، فأصيبت أنامله، وشلّت يده» [2].

---

(١) أبو الحسن الندوي، قصص النبيين، بيروت، مؤسسة الرسالة. ط١٨، ١٩٩٣، ص٣٢٣-٣٢٤.

(٢) أبو الحسن الندوي، سيرة خاتم النبيين، بيروت، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة عشرة، ١٩٩٣، ص١٦٣-١٦٤.

جـ- العزة بالإيمان: ويظهر هذا في رحلة سيدنا عمر بن الخطاب إلى بيت المقدس «وقال له رئيس القوم (المسيحيين) أنت ملك العرب، وهذه بلاد لا تصلح بها الإبل، فلو لبست شيئاً غير هذا، وركبت برذوناً لكان أعظم في أعين الروم، فقال: نحن قوم أعزنا الله بالإسلام، فلا نطلب بغير الله بديلاً» [١].

د- الرحمة: ويتجلى هذا الخلق في فتح مكة: « ثم قال رسول الله ﷺ: يا معشر قريش ما ترون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخٍ كريم، قال: فإني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته: لا تثريب عليكم اليوم، اذهبوا فأنتم الطلقاء» [٢].

٣- الحث على حب العلم وتعلمه ودعوة الطفل إلى طلبه: فالدين الإسلامي مؤسسة علمية، فأول ما نزل من القرآن آيات تحث على طلب العمل، قال تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾. وأبو الحسن كعالم وداعية إسلامي لا بد له من أن يؤكد على هذا المطلب، ويظهر ذلك من خلال كتبه، ومن الشواهد الدالة على ذلك:

أ- قصة سيدنا موسى عليه السلام مع الخضر، حيث أفرد لها أبو الحسن عنواناً خاصاً بها هو «في سبيل العلم»، هذا العنوان يحمل في طيّاته أدباً للعلم والتعلم، ألا وهو أن العلم لله وأن الله هو العليم، ويجب أن يُرد العلم إليه. عن النبي ﷺ، أنه قال: « قام موسى خطيباً في بني إسرائيل، فسئل: أي الناس أعلم ؟ فقال: أنا أعلم، فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إلى الله، فأوحى الله إليه أن عبداً من عبادي بمجمع البحرين هو أعلم منك» [٣].

---

(١) أبو الحسن الندوي، قصص من التاريخ الإسلامي للأطفال، بيروت، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٩٩٢، ص٩٤.

(٢) أبو الحسن الندوي، سيرة خاتم النبيين، بيروت، مؤسسة الرسالة، بالطبعة الثالثة عشرة، ١٩٩٣، ص٢٧٥.

(٣) أبو الحسن الندوي، قصص النبيين للأطفال، بيروت، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثامنة عشرة، ١٩٩٣، ص٢٧٤-٢٧٥.

ب - ومن الشواهد أيضاً على دعوة الندوي لطفلنا المسلم إلى طلب العلم هو ما أكده تحت عنوان: «تعليم غلمان المسلمين فداء الأسرى» ، قائلاً: وكان من الأسرى من لم يكن لهم فداء، فجعل رسول الله ﷺ «فداءهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة، فيعلم كل واحد عشرة من المسلمين الكتابة، وكان زيد بن ثابت ممن تعلم بهذا الطريق»[1].

٤ - تحرير عقل الطفل المسلم وقلبه من الأساطير والخرافات وضغوط شهوات الحياة الدنيا: وهذا التحرير لعقل الطفل هو تحرير من الجاهلية وكل تبعاتها، وهذا الهدف يظهر من خلال الشواهد التالية التي أكد عليها أبو الحسن في قصصه يبدو منها ما يلي:

أ- المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار: «وآخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار، آخى بينهم على المواساة، وكان الأنصار يتسابقون في مؤاخاة المهاجرين» [2] فالمؤاخاة من أعظم الأحداث التي سجلها التاريخ البشري على وجه الأرض منذ آدم حتى الآن، وستبقى خالدة إلى يوم القيامة.

ب - تطهير الحرم من الأوثان والأصنام: «وحول البيت وعليه ثلاث مئة وستون صنماً فجعل يطعنها بالقوس ويقول: ﴿.. **جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا**﴾، ورأى في الكعبة الصور والتماثيل فكسرت» [3].

جـ - زهد القائد المسلم صلاح الدين الأيوبي في الدنيا وشهواتها: «يقول ابن شداد: إن السلطان لم يخلف في خزانته من الذهب والفضة إلا سبعة

(١) أبو الحسن الندوي، سيرة خاتم النبيين، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة عشرة، ١٩٩٣، ١٥١-١٥٢.
(٢) المرجع السابق، ص١٢٥.
(٣) المرجع السابق. ص٢٧٢.

وأربعين درهماً ناصرية وجراماً واحداً ذهباً ولم يخلف ملكاً، ولا داراً، ولا عقاراً، ولا بستاناً، ولا مزرعة، ولا شيئاً من أنواع الأملاك»[1].

٥ - تنمية الروح الجهادية والنفس المطمئنة للطفل المسلم. ففي كل قصصه عن الأنبياء وحكاياته عن التاريخ الإسلامي، دعوة إلى الجهاد وحب الاستشهاد، وترغيب الطفل في الشهادة في سبيل الله، لأن الجهاد في سبيل الله هو المخزون الفعلي للطاقة الإسلامية من أشبال الإسلام الذين هم حراس العقيدة وحماة الديار، فالشهادة في سبيل الله هي أمنية الأحرار المؤمنين الذين يشترون جنة عرضها السموات والأرض، ويقدمون أرواحهم الطاهرة ثمناً لها، ففي الجهاد تعبئة روحية ونفسية لطفلنا المسلم أعظم من البحار، وأثبت من الجبال، فالشهادة محركة للطاقات، شاحذة لهمم الرجال، لأنهم بعقيدتهم الراسخة في قلوبهم، يعتبرونها الجسر الذي يمرون عليه ليصلوا إلى برِّ الأمان، ينتقلون عليها من الحياة الدنيا ليصلوا إلى وطنهم الخالد جنة الأتقياء الأنقياء المخلصين. وقد أكد هذا المعنى السامي أبو الحسن الندوي تأكيداً واضحاً ومميزاً في معظم قصصه وحكاياته، والأدلة على ذلك كثيرة، نذكر منها التالية:

أ - تنافس الغلمان في الجهاد والشهادة في غزوة بدر: هذه لوحة جميلة تصور التربية الحلوة والطفولة الرفيعة بتسابق الأطفال وتنافسهم على الموت. نعم لقد غرس فيهم الإسلام مبدأً عظيماً، ذلك هو الشهادة التي هي تذكرة لدخول الجنة، وثمن لها، هؤلاء الأطفال يعلنون الحاكمية لله في الأرض، تتوهج قلوبهم بعقيدة التوحيد، هذه الصورة فيها دعوة واضحة إلى أطفالنا اليوم إلى حب الموت في سبيل الله، ففي غزوة بدر خرج غلام صغير في

---

(١) أبو الحسن الندوي، قصص من التاريخ الإسلامي، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٩٩٢، ص٢٩ -٣٠، نقلاً عن النوادر السلطانية، ص٢٥١.

السادسة عشرة من عمره اسمه عمير بن أبي وقاص، أخو الصحابي الجليل سعد، وتوارى عن أنظار الرسول ﷺ، خوفاً من أن يراه فيرده، فلما رآه رسول الله ﷺ أراد أن يردّه لأنه لم يبلغ مبلغ الرجال، فبكى عمير، ورق له قلب الرسول صلى الله عليه وسلم، فأجازه، واستشهد في هذه الغزوة (١).

ب - مسابقة بين أتراب في غزوة أُحُد: «وعرض على رسول الله سمرة بن جندب، وهو في سن رافع بن خديج ورده رسول الله ﷺ، فقال سمرة: لقد أجزت رافعاً ورددتني، ولو صارعته لصرعته، ووقعت المصارعة بينهما، فصرع سمرة رافعاً فأجيز، وخرج وقاتل يوم أُحُد» (٢).

جـ- فداء علي بن أبي طالب للرسول ﷺ، عندما نام في فراشه ليلة هجرته ﷺ. فكان عليّ أول فدائي في الإسلام: «وأخبر الله رسوله ﷺ بهذه المؤامرة فأمر علي بن أبي طالب أن ينام على فراشه متسجياً ببردته» (٣).



(١) انظر: أبو الحسن الندوي، سيرة خاتم النبيين، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط١٨، ١٩٩٣، ص١٣٨-١٣٩.
(٢) المرجع السابق، ص ١٥٧.
(٣) المرجع السابق ص١٠٩-١١٠.

الفصل الرابع
الجانب الفكري والنفسي

أولاً: التكوين الفكري للطفل المسلم: يُدَرّس من خلال الأهداف التالية:

١- **البناء الفكري لعقل الطفل المسلم:** يجعل أبو الحسن الندوي جلّ اهتمامه في وضع الأسس الفكرية للبناء الفكري لعقل الطفل المسلم، وذلك من خلال الأساليب الفكرية التالية:

أ- **إثراء عقل الطفل المسلم بالمبادئ والمفاهيم والرموز الإسلامية وما شابهها**، ويظهر هذا من خلال قدرة أبي الحسن الفائقة في اختيار العناوين، فمن أهم عناصر بناء القصة عند المؤلف استخدام عناوين مناسبة، تشد انتباه القارئ فالعنوان عامل جذب للقارئ، فمتى يُكتبِ النجاح للقصة يكنْ اختيار العناوين أحد أهم عناصر نجاحها، لا سيما وأن اختيار العنوان يربط في ذهن القارئ مفهوماً، أو فكرة أو رمزاً عظيماً، فالعنوان هو المفتاح الذي يدل على ماهية القصة، وأبو الحسن الندوي بارع في استخدام العناوين بما يناسب ذلك الحدث، فيغرس فيه مبدأ إسلامياً أو رمزاً أو فكرة إسلامية أو خُلُقاً إسلامياً. والأدلة والآثار كثيرة في كتب الأطفال لأبي الحسن تشهد له بذلك. نحاول أن نستعرض ذلك لنبيّن حسن اختياره للعناوين.

- العناوين التي تغرس أخلاقاً إسلامية في عقل الطفل، نذكر منها: «نصيحة إبراهيم» [١] و«صبر أيوب» [٢].

(١) أبو الحسن الندوي، قصص النبيين، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط١٨، ١٩٩٣، ص١١.
(٢) المرجع السابق. ص٣٢٤.

- والعناوين التي تغرس رموزاً لشخصيات إسلامية، منها: «نوح الرسول»[(١)]، و«صالح عليه الصلاة والسلام»[(٢)]، و«إسلام علي بن أبي طالب وزيد بن حارثة»[(٣)].

- والعناوين التي تغرس رموزاً لأماكن إسلامية مقدسة في عقل الطفل، منها: «الكعبة»[(٤)] و «بيت المقدس»[(٥)].

- والعناوين التي تغرس رموزاً لمعارك وغزوات إسلامية، نذكر منها: «معركة بدر الحاسمة»[(٦)] و «غزوة خيبر»[(٧)].

- والعناوين التي تغرس معجزات سماوية للرسل الكرام في عقل الطفل، منها: «ناقة الله»[(٨)]، و «يونس في بطن الحوت»[(٩)].

- والعناوين التي تبيّن للطفل كتباً سماوية مثل «التوراة»[(١٠)].

- والعناوين التي تذكر أسماءً للحيوانات، لتكون موسوعة علمية في عقل الطفل: مثل «البقرة»[(١١)] و«العجل»[(١٢)].

- والعناوين التي تغرس في عقل الطفل سنة كونية وضعها الله في الأرض، منها: «قصة صراع بين الحق والباطل»[(١٣)].

---

(١) نفس المرجع، ص٨٢.
(٢) المرجع السابق، ص١١٩.
(٣) أبو الحسن الندوي، سيرة خاتم النبيين، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط١٣، ١٩٩٣، ص٤٩.
(٤) أبو الحسن الندوي، قصص النبيين، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط١٨، ١٩٩٣، ص٢٦.
(٥) المرجع السابق، ص٢٨.
(٦) أبو الحسن الندوي، سيرة خاتم النبيين، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط١٣، ١٩٩٣، ص١٣٤.
(٧) المرجع السابق، ص٢٢٣.
(٨) أبو الحسن الندوي، قصص النبيين، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط١٨، ١٩٩٣، ص١٢٧.
(٩) المرجع السابق، ص ٣٢٨.
(١٠) المرجع السابق. ص٢٥٩.
(١١) المرجع السابق. ص ٢٥٠.
(١٢) المرجع السابق. ص٢٦٣.
(١٣) المرجع السابق. ص٢٨٨.

● والعناوين التي تمثل حدثاً تاريخياً مهماً مثل: «الإسراء والمعراج»[(١)] «المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار»[(٢)]:

ب - صقل هوية الطفل المسلم وبناء شخصيته: ويظهر هذا من خلال النماذج البشرية التي قدمه النا القرآن الكريم والتاريخ الإسلامي، فالأنبياء عليهم السلام والصحابة الكرام هم قدوة لأطفالنا المسلمين، يتأسون بأفعالهم وأقوالهم، ويترسمون عبق مسيرتهم الخالدة. ويسيرون معهم في قافلة الدعوة والتوحيد ليكملوا مسيرتهم العظيمة. فآدم ونوح ومحمد عليهم الصلاة والسلام، وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما، وصلاح الدين الأيوبي رحمه الله، كل أولئك الصفوة المؤمنون هم شخصيات بشرية، الواحد منهم له القدرة الكافية على تكوين الشخصية المسلمة عند طفلنا المسلم.

كما أن دعوة التوحيد التي أعلنوها عالياً إلى جانب هذا التاريخ العريق الحافل بالأمجاد كفيلان بأن يصنعا هوية لطفلنا المسلم.

٢- المناعة الفكرية من الارتكاس في حمأة الأفكار الغربية المستودرة، والتي تستهدف تاريخنا الإسلامي: فالفكر الإسلامي الذي يبني عقل طفلنا المسلم يكوّن مناعة فكرية حصينة لهذا العقل من الانزلاق إلى مستنقع الأفكار المسمومة، والتي دخلت جسم تاريخنا وعقيدتنا بصورة غريبة مزورة زائفة، لذا فإن الفكر الإسلامي الذي يُبنى من خلال العرض الرائع لتاريخ التوحيد منذ آدم حتى وقتنا الحاضر يُشبع الفطرة الإنسانية للطفل المسلم، وأسلوب أبي الحسن في سرد أحداث التاريخ الإسلامي منذ آدم عليه السلام حتى الآن، وما يتضمنه هذا السّردُ من التسلسل الزمني للأحداث التاريخية. هذا الأسلوب الرائع يكوّن مناعة فكرية لدى الطفل، تمنع من تشرد الأفكار من

(١) أبو الحسن الندوي، سيرة خاتم النبيين، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط١٢، ١٩٩٣، ص ٩٨ .
(٢) المرجع السابق، ١٢٥.

ذهنه، وتمنع من تمردها على النهج السوي، نهج التوحيد والنبع الصافي، خاصة أن أبا الحسن يبعد كل البعد في كتاباته عن كل الشبهات التي يحاول إثارتها المستشرقون ودعاة الاستشراق.

٣- **تناول بعض القضايا الإسلامية المعاصر:** يتناول أبو الحسن قضايا معاصرة من تاريخنا الحديث، يغذي كيان الطفل بالغيرة على دينه الحنيف، ويغرس في قلبه وعقله عداوة للاستعمار والمستعمرين، فيبين له من هو عدوه الدائم على مر السنين، وهذا واضح في قصص أبي الحسن عندما يتحدث عن الاستعمار الإنجليزي في قصة «رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه» يبين فيها غطرسة الاستعمار وظلمه، وحب الصادقين المؤمنين للشهادة وقد حُكم عليهم بالإعدام»[١].

٤- **المقارنة بين النّظم الجاهلية والنظام الإسلامي:** فالنُّظُم الجاهلية نظم وضعية وضعها العقل البشري القاصر المحدود، والنظام الإسلامي أنزله الله وشرّعه للناس هدى ورحمة، وهو نظام لا يعيبه نقص أو خلل أو مرض، فهو مطلق في كماله ودوامه ونجاحه، ويبيّن أبو الحسن هذا المعنى عندما يتحدث عن التتار المتوحشين قبل إسلامهم، وعن التتار المسلمين بعد اعتناقهم الإسلام.

وبيّن ذلك في قصته «جواب كان السبب في إسلام مئات ألوف الناس» من كتاب «قصص من التاريخ الإسلامي». كذلك بيّن هذا المعنى في موضع آخر من كتابه «سيرة خاتم النبيين» و«قبل البعثة» و«بعد البعثة» بيّن فيه ما يكون عليه النظام الجاهلي من فساد وظلم وانحراف عن الحق، وما يكون عليه النظام الإسلامي من إحقاق للحق، وإرساء لقواعد العدالة، وسيرة الرسول خير شاهد على ذلك.

(١) انظر: أبو الحسن الندوي، قصص من التاريخ الإسلامي، بيروت، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٩٩٢، ص١٣١-ص١٤١.

ثانياً: التكوين النفسي للطفل المسلم: ندرسه من خلال الأهداف التالية التي أكد عليها أبو الحسن الندوي:

١- السمو الروحي للنفس الإنسانية للطفل المسلم: تسمو روح الإنسان على قدر استخفافها بالدنيا وما عرض لها من زينة، فكلما كان الزهد في متاع الدنيا أكثر ارتفعت الروح وسمت إلى الأعلى، وانتصار الروح على شهوات الجسد لا يتم إلا بتعلقها في بارئها وزهدها في الدنيا، وهذا لا يتم إلا بالممارسة الفعلية لأعمال الخير والفضيلة، ومن أعظم هذه الأعمال وأكرمها حب الشهادة التي تسمو فيه الروح إلى أعلى الدرجات، لأنه سيعتبر أن الموت قريب، يعني أنه انتقال من الحياة الدنيا إلى الحياة الآخرة، ولقد درّب الصحابة أبناءهم على حب الموت في سبيل الله، وربوهم على أن من يُقتل في سبيله سيكون في أقرب منزلة إليه، يتنعم في نعيمه، ويخلد في جنة خلده، ولقد أكّد الندوي هذا الهدف في حديثه عن جهاد الصحابة. والأمثلة كثيرة ذُكرت سابقاً في الحديث عن تنمية الروح الجهادية كهدف من أهداف التربية الإسلامية.

٢- غرس الثقة في نفس الطفل المسلم: وهذا هدف واضح ينكشف لنا من خلال قراءتنا لتاريخ أبناء الصحابة المجاهدين في سبيل الله، الذين تربّوا على سماع صلصلة السيوف وصهيل الخيول وبريق الأسنة، وشبوا على سل السيوف ورمي الرماح، وكبّروا في بطن الصحراء يعلنون راية التوحيد خفاقة، فعاشوا واثقين بأنفسهم، لأن طاقة الإيمان المتفجرة في قلوبهم رصيد كبير في حياتهم، فهذا أسامة بن زيد يقود آخر البعوث الإسلامية التي أمر بها الرسول، وتحت إمرته عمر بن الخطاب وكبار الصحابة، هذا الغلام المسلم الأسمر تفوق عبقريته العسكرية المعبأة بطاقة الإيمان الروحية - تفوق عبقرية كبار القادة الفاتحين.

وقد أكدّ على هذا المعنى شيخنا أبو الحسن الندوي قائلاً:» وبعث رسول الله ﷺ أسامة بن زيد بن حارثة إلى الشام، وأمره أن يوطئ الخيل تخوم البلقاء والدوران من أرض فلسطين» [1].

٣- **الإيمان المطلق بالقضاء والقدر:** هذا الهدف يؤكد عليه أبو الحسن لتنشئة النفس المسلمة للطفل تنشئة إيمانية في ظل التاريخ الإسلامي، فيؤكد للطفل أن كل شيء بقضاء من الله وقدره، فالموت بقضاء الله وقدره، والرزق بقضاء الله وقدره، وهذا المعنى العظيم يغرسه أبو الحسن في نفس طفلنا المسلم من خلال قصصه، والشواهد على هذا الهدف كثيرة، منها:

السباق إلى الشهادة بين أبناء الصحابة، وهذا ما نراه واضحاً في تنافس عمير بن أبي وقاص في الجهاد والشهادة، كما نراه في مسابقة الإخوة الأشقاء في قتل عدو الله أبي جهل، وكل حركة أو سكون يجب أن نعلّم طفلنا المسلم أن يربطهما بالقضاء والقدر، هذا المعنى يكوّن عند الطفل خُلُقاً عظيماً، ألا وهو خُلُق الإقدام والشجاعة والتوكل على الله.



(١) أبو الحسن الندوي، سيرة خاتم النبيين، بيروت، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة عشرة، ١٩٩٣، ص٣٢٧.

الفصل الخامس

الثقافة الإسلامية

قام شيخنا أبو الحسن الندوي بترسيخ بعض خصائص الثقافة الإسلامية في عقل طفلنا المسلم، وذلك كالتالي:

١- **الوعي الإسلامي:** هذا الوعي يمنع التبعية الثقافية للثقافة الغربية، فالثقافة التي يعرضها أبو الحسن للأطفال هي ثقافة إسلامية بعيدة كل البعد عن شبهات المستشرقين، فيركز على التاريخ الإسلامي، لأنه ثقافة واعية تفتح عيون الطفل وعقله على واقعنا المعاصر، كما أن تاريخنا الإسلامي الذي ركّز عليه أبو الحسن يضع الطفل على أول درجات الفهم للحياة، وما تدور عليه من صراع بين الحق وأنصاره وبين الباطل وأعوانه، فالتاريخ جذر لعلم السياسة، وهو تغذية جيدة ورضاعةٌ كاملة لطفلنا المسلم تحتوي على كافة العناصر اللازمة لبناء الشخصية الإسلامية المثقفة، لأن قرآننا الكريم وسنّتنا الطاهرة مصدر غني لتاريخنا الإسلامي ومناخه الذي يعطيه الحرارة، والدفء والاتزان.

٢- **النظرة الشمولية والتفسير الإسلامي للتاريخ:** البعد الثاقب لأبي الحسن والنظرة البعيدة له، جعلته يكتب في التاريخ الإسلامي لأطفالنا المسلمين، فالتاريخ الإسلامي هو التاريخ الممتد منذ خلق الله آدم عليه السلام وحتى وقتنا الحالي ويستمر إلى يوم القيامة، لأن الإسلام دين الأنبياء كلهم، لأنهم جميعاً جاؤوا بدعوة واحدة هي دعوة التوحيد، دعوة الإسلام والاستسلام والانقياد لله تعالى.

يؤكد الندوي هذه النظرة الشمولية للتاريخ الإسلامي، فيستعرض تاريخ الأنبياء ثم يستعرض بشيء من التفصيل الممتع تاريخ سيرة محمد ﷺ، ثم

يحكي قصصاً مضيئة من تاريخ المسلمين بعد رسول الله ﷺ، هذه القصص تتناثر من هنا وهناك، من زمن إلى زمن آخر، إذن لا بد من القول أن الندوي قد وضع تفسيراً إسلامياً للتاريخ، فتاريخ آدم وموسى، وإبراهيم هو تاريخنا نحن المسلمين.

٣- **ربانية المصدر والغاية**: فالمصدر الرئيسي للثقافة الإسلامية هو القرآن الكريم، وهذا واضح من خلال استشهاد الندوي بالآيات الكريمة بشكل واسع وعريض، كما أن غاية الثقافة الإسلامية هو حب الله تعالى ورضوانه، وتعميق معنى العبودية في العقول والقلوب المسلمة، فالثقافة الإسلامية ربانية لا يعتريها النقص والعيب. بعكس الثقافة الغربية التي تتخللها الأمراض والعيوب كنتيجة حتمية، لأنها من وضع العقل البشري.

٤- **الإنسانية**: وقد أكدّ أبو الحسن الندوي هذه الخاصية، فحتى تكون الثقافة إنسانية يجب أن تكون الثقافة شاملة كاملة للحياة. وهذه الميزة لا نجدها إلا في ثقافتنا الإسلامية، نعم لقد صنع الإسلام الإنسان ولم يصنعه أي نظام آخر وأي قوة على الأرض، لأن الإسلام لا يصطدم أبداً مع الفطرة، إذ يلبي رغباتها وحاجاتها، وهذا ما أكدّه أبو الحسن في معرض حديثه عن التتار قبل الإسلام وبعد الإسلام، في قصته «جواب كان السبب في إسلام مئات الألوف من الناس» [1].

٥- **الإيجابية**: وبين كيف تكون علاقة الإنسان بإله كالطبيعة الصمّاء، فهو حتماً لا يكون فاعلاً فيها ما دام يعتقد أنها إلهه. وبيّن كيف تكون علاقته بإلهين متخاصمين؟ لا شك أنها علاقة ساخرة، فجاء الإسلام وأخرجه من هذا الظلام الدامس إلى النور والإيمان بالله الواحد الذي أكرمه وسخر له

(١) انظر: أبو الحسن الندوي، قصص من التاريخ الإسلامي، بيروت، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٩٩٢، ص١١٤- ص١٢٣.

الكون وخلق له الحياة، وهذا ما عرضه أبو الحسن حينما تحدث عن دعوة يوسف للسجناء معه قائلاً: «تقولون: ربٌّ البر، وربٌّ البحر، وربٌّ الرزق، وربٌّ المطر، ونحن نقول: الله رب العالمين ﴿أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (1).

٦- **الثبات:** قرر أبو الحسن أن هناك حقائق ثابتة لا تتغير يجب أن يتبناها فكر الطفل المسلم، وهي حقيقة العبودية لله وحده ثابتة لا تتغير، وحقيقة أن الناس من أصل واحد متفاضلون بالتقوى، وحقيقة أن الدنيا دار امتحان، كلها حقائق ثابتة لا تتغير، فهذه الثوابت تكوّن العقل المسلم للطفل، ومع ذلك فهي روافد فكرية تغذي ثقافته الإسلامية، وأساسيات لتحديث العقل المسلم للطفل في كل زمان وفي كل مكان، تمنعه من الانحراف عن المسار الصحيح للإسلام.

ويؤكد الندوي الثبات كميزة أساسية لثقافة الطفل المسلم، فالإسلام دين توحيد ووحدة، «وفتح رسول الله ﷺ، باب الكعبة..، فأخذ بعضادتي الباب وهم تحته، فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده..، يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية، وتعظمها بالآباء، الناس من آدم وآدم من تراب» (2).



(1) أبو الحسن الندوي، قصص النبيين، بيروت، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثامنة عشرة، ١٩٩٣م، ص٤٦.

(2) أبو الحسن الندوي، خاتم النبيين، بيروت، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة عشرة، ١٩٩٣، ص٢٧٤-, ٢٧٥

الفصل السادس

الاتجاه الإسلامي

هذا مما لا شكَّ فيه، ولا يجادل فيه اثنان، فأبو الحسن الندوي كرئيس لرابطة الأدب الإسلامي العالمية يعالج أدب الأطفال معالجة إسلامية، والشواهد التي تشهد باتجاهه الإسلامي الصحيح كثيرة وتظهر من خلال النوافذ التالية:

١- **العاطفة الإسلامية:** وهذه جيّاشة مليئة بالحرص والحب والعمل لأجل خدمة ديننا الإسلامي الحنيف، ومما يدل على ذلك النضج العاطفي للفكرة والجملة.

٢- **الحبّ العظيم للرسول محمد ﷺ:** وهذا الحب يؤكد العاطفة الإسلامية ويدعم اتجاهه الإسلامي، فيتحدث أبو الحسن عن عميد آل البيت سيد ولد عدنان محمد ﷺ، يتحدث عن صفات طفولته وسمات شبابه، كما يتحدث عن نسبه وولادته ونشأته، وفي الخاتمة يذكر الأخلاق والشمائل المحمدية.

«وقد كسا الله نبيّه لباس الجمال، وألقى عليه محبة ومهابة منه» [1] ولقد قصر أبو الحسن هواه على حبِّ سيدنا محمد ﷺ وبيان مآثره، لا سيما أن شيخنا الداعي أبا الحسن ينتسب إلى الحسن بن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنهما.

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٥٤.

٣- **الطفولة الإسلامية**: وقد تربى أبو الحسن في أسرة محافظة على التعاليم والأخلاق والآداب الإسلامية، علماً بأن والدته كانت تساعده في حفظ القرآن الكريم، كما أنه تعلم اللغة العربية على يد الشيخ خليل اليمني (١).

٤- **التلمذة الإسلامية**: اهتم أبو الحسن بدراسة كتب اللغة والحديث والتفسير والتربية الروحية، وتتلمذ على يد شيوخ أجلاء استفاد منهم كثيراً(٢).

٥- **رحلاته**: رحل أبو الحسن إلى أماكن كثيرة وزار مناطق مختلفة أمدته بتجارب وخبرات استفاد منها ووظّف بعضها في أدبه (٣).

٦- **نشاطاته الإسلامية في مجال العلم والدعوة**: عيّن مدرساً في دار العلوم، وألفّ كتاب «سيرة أحمد الشهيد» ورأس تحرير مجلة «الندوة» كما رأس رابطة الأدب الإسلامي العالمية، وأسس جمعية للتبشير بالإسلام بين الهندوس، وإلى جانب ذلك كثير من النشاطات العظيمة التي قام بها الداعية أبو الحسن (٤).

٧- **ومن صفاته الحميدة** أنه يكره التصوير، ويتأسى بسيرة أحمد بن حنبل وابن تيمية وغيرهم من العلماء رحمهم الله تعالى (٥).

---

(١) انظر: أبو الحسن الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، بيروت، دار الكتاب العربي، الطبعة السادسة، ١٩٦٥، ص١٨-١٩.

(٢) المرجع السابق، ص١٩-٢٠.

(٣) المرجع السابق، ص١٩-٢٢.

(٤) المرجع السابق، ١٩-٢٢.

(٥) المرجع السابق، ص٢١-٢٢.

خاتمة

الكتاب جليس الطفل وصديقه، يغذي عقله، وينمي مداركه، ويصقل موهبته، ولقد كانت كتب الأطفال عند أبي الحسن الندوي ميراثاً أدبياً لطفلنا المسلم، وصحوة إسلامية تجدد فيه روحه وضميره وتشحذ طاقاته، وهممه، ومدرسة تاريخية تعلو بها عزيمته وتتسامى فيها أمنياته وطموحاته.ورصيداً فكرياً أثرى ذاكرته، وكوّن عنده ملامح كاملة لصورة طفلنا المسلم، فالطفل المسلم هو الاستثمار الرابح الوحيد، في حين أن جميع الاستثمارات قابلة للربح أو الخسارة، فالعالم قد خسر حقاً بانحطاط المسلمين، خسر هذه الطاقة العظيمة من أطفالنا المسلمين والثروة الروحية في داخلهم.

. . . وإن تذوق أطفالنا لأدب الطفل وإحساسهم به هو الغاية السامية لهذا الأدب، لأنه ليس مقبولاً أن نكتب أي أدب للأطفال، بل من الضروري أن نعطي هذا الأدب قيمته الروحية، فيحس الطفل بأن الكلمات أحياءٌ تتحرك على الأرض فيعيش معها.

. . . وأدب الأطفال عند أبي الحسن الندوي هو أدب إسلامي بعكس الكثير من الذين ألفوا في هذا الأدب، لأنه يتبنى الهمّ الإسلاميّ، ويتكلم بحرارة العاطفة، ويكتب تاريخ الإسلام بأسلوب التربية والدعوة الصادقة، وقد شهد لهذا الأستاذ الشهيد سيد قطب رحمه الله: «ولقد قرأت الكثير من كتب الأطفال بما في ذلك قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وشاركت في تأليف مجموعة القصص الديني للأطفال» في مصر مأخوذاً كذلك من القرآن الكريم، ولكني أشهد في غير مجاملة، أن عمل السيد أبي الحسن في هذه القصة التي هي بين يدي، جاء أكمل من هذا كله، وذلك بما احتوى من توجيهات دقيقة، وإيضاحات كاشفة لمرامي القصة وحوادثها، ومواقفها، ومن تعليقات داخلة في ثنايا القصة، وكلها توحي بحقائق إيمانية ذات خطر حين

تستقر في قلوب الصغار أو الكبار، جزى الله السيد أبا الحسن خيراً وزاده توفيقاً»[١].

. . . ومن خلال اطلاع الباحث على أدب الأطفال، وجد قلة اهتمام الأدباء بأدب الأطفال، كما يلاحظ أن من ألفوا في هذا الأدب أنه لا يخدم الطفل ولا يعالج جوانب شخصيته، ولا يقدم الثقافة الإسلامية الواعية لطفلنا المسلم، ومن هنا جاء ما كتبه الندوي في أدب الأطفال ليسد ثغرة كبيرة في أدب أطفالنا المسلمين، والذي جاء جهده ثمرة ناضجة لحصيلة أعوامٍ كثيرة قضاها الندوي في خدمة أبنائنا المسلمين.

. . . ويا حبذا لو وجدت مجلة أطفال دورية تهتم بالطفل، وتخدم شخصيته، وتقدم له ثقافة إسلامية واعية.

. . وأخيراً لقد حاول الباحث أن يلقي الضوء على فكر أبي الحسن في أدب الطفل، ويعرف بشخصية أبي الحسن الندوي كمربٍّ وداعية إسلامي.

جزى الله أبا الحسن خير الجزاء، ونفعنا والمسلمين بعلمه وفكره وحكمته الرشيدة.

---

(١) أبو الحسن الندوي، سيرة خاتم النبيين، بيروت، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثامنة عشرة، ١٩٩٣، ص٤.

مصادر البحث ومراجعه

١- القرآن الكريم.

٢- أبو الحسن الندوي، قصص النبيين، بيروت، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثامنة عشرة، ١٩٩٣.

٣- أبو الحسن الندوي، سيرة خاتم النبيين، بيروت، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة عشرة، ١٩٩٣.

٤- أبو الحسن الندوي، قصص من التاريخ الإسلامي، بيروت، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٩٩٢.

٥- أبو الحسن الندوي، روائع من أدب الدعوة في القرآن والسيرة، الكويت، دار القلم، الطبعة الثانية، ١٩٨١.

٦- أبو الحسن الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، بيروت، دار الكتاب العربي، الطبعة السادسة، ١٩٦٥.



محتويات البحث



البحث الثامن عشر

جهود الشيخ أبي الحسن الندوي
في خدمة الأدب الإسلامي

د. عبد الباسط بدر (*)



(*) أمين عام مجلس أمناء الرابطة.

يهب الله بعض الناس قدرات متميزة، كالحس المرهف، والبيان العالي، والشخصية النافذة وغير ذلك من المواهب، يصبحون بها أصحاب عطاءات لا تتأتى لغيرهم، وعندما يوفق أحد هؤلاء الموهوبين إلى توظيف قدراته في الدعوة إلى الله وهداية الآخرين فسوف يكسب المجتمع داعية مبدعاً، وبليغاً متفوقاً، ورجلاً تتفتح لله القلوب، وتركن إليه النفوس. والشيخ أبو الحسن الندوي واحد من هؤلاء اجتمعت فيه قدرات كثيرة متنوعة، فكرية وأدبية ودعوية، أعطى من خلالها لأكثر من نصف قرن في ميادين الدعوة والفكر والأدب الإسلامي، وسوف أعرض باختصار في الفقرات التالية لعطائه في ميدان واحد منها هو ميدان الأدب الإسلامي.

تتوزع عطاءات الشيخ أبي الحسن الندوي في ميدان الأدب الإسلامي في قسمين كبيرين هما قسم عملي، وقسم إبداعي.

أما القسم العملي فهو الجهود التي كان يقوم بها في سبيل إظهار قضية الأدب الإسلامي، ونشرها، والارتقاء بها إلى مصاف العالمية، وتتضمن هذه الجهود مؤتمرات الأدب الإسلامي التي كان يعقدها أو يوجه لعقدها أو يحضرها، والندوات والمحاضرات والمقابلات الصحفية التي كان يعرض فيها قضية الأدب الإسلامي، وجهوده في قيام رابطة الأدب الإسلامي العالمية، ورئاسته لها مدة خمسة عشر عاماً. وقد كان للشيخ أبي الحسن دور الريادة في عقد مؤتمرات الأدب الإسلامي، وكان لهذه المؤتمرات أثر كبير في نشر وتطوير قضية الأدب الإسلامي، وفيما أعلم فإن أول مؤتمر دولي للأدب الإسلامي عقد بدعوته وتحت رعايته كان عام ١٤٠١هـ/١٩٨١م في ندوة العلماء بمدينة لكهنؤ بالهند، وهي الهيئة الإسلامية العريقة التي يديرها، ويدير من خلالها جامعة إسلامية ضخمة ومجموعة من المدارس والمعاهد الإسلامية المنتشرة في الهند وباكستان وبنغلاديش وبلاد أخرى، وقد تمكن

بفضل صلاته ومكانته الكبيرة أن يجمع في هذا المؤتمر وفوداً ومندوبين من مصر والسعودية والكويت والإمارات العربية المتحدة وقطر وسورية والأردن والمغرب العربي يمثلون جامعات وهيئات ثقافية فيها، وكأن لي شرف حضوره، وبحثت فيه المحاور الأساسية لتنظير الأدب الإسلامي، وصدرت توصيات للجامعات العربية والإسلامية لتدريس هذا الأدب (وكانت جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض قد سبقت إلى تدريس مادة منهج الأدب الإسلامي) ودعمه بشتى السبل، والإسهام في تنظيره.

وقد شجع هذا المؤتمر جهات أخرى على عقد مؤتمرات وندوات ولقاءات دولية وإقليمية، فعقد في السنة الثانية (١٤٠٢هـ/١٩٨٥م) الحوار حول الأدب الإسلامي وقضاياه في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وعقدت عام ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م الندوة العالمية للأدب الإسلامي في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، وتوالت بعدها مؤتمرات وندوات في مصر والمغرب العربي والأردن وباكستان وبنغلاديش وتركيا وبريطانيا، وكان الشيخ الندوي يحرص على حضورها رغم ما تكلفه من المشقة وعناء السفر، كما كان يحرص على عقد مؤتمر أو ندوة دولية أو إقليمية مرة على الأقل في كل سنة في إحدى مدن الهند، وكان لحضوره زخم كبير يستقطب المشاركين، بل والمجتهدين في تقديم البحوث والاستماع إلى المناقشات، وقد أحصيت من خلال ما نشر في مجلة البعث الإسلامي اثنين وعشرين مؤتمراً وندوة كان فيها راعياً ومشاركاً رئيسياً.

ويتصل بمحور المؤتمرات والندوات الخطب والمحاضرات واللقاءات مع الأفراد والمجموعات والإعلاميين الذين يسعون إليه في تلك المناسبات، وكان يركز فيها دائماً على قيمة الأدب بعامة، وقدراته الكبيرة في التأثير في الأفراد والمجتمعات، والحاجة الملحة للأدب الإسلامي في عصرنا الحاضر

بخاصة لمواجهة تيارات الهدم ومنابر التغريب والإلحاد الأدبية، وإشباع الحاجة الفطرية إلى الجمال البياني، وضرورة تعزيز الارتباط بين الأدب والدعوة إلى الله، ووظيفة الأدب في البناء والإصلاح، ويركز على التربية الذوقية التي يقدمه الأدب الإسلامي، وأثرها الإيجابي الكبير في بناء شخصية المسلم، وصلتها الوثيقة بالبلاغة القرآنية والبيان النبوي، وهذه القضايا محاور أساسية في الأدب الإسلامي.

ومن جهوده العملية في خدمة الأدب الإسلامي احتضانه ورعايته المتميزة لرابطة الأدب الإسلامي العالمية، ففي أواخر العقد الأخير من القرن الرابع عشر الهجري كانت مجموعة من المهتمين بالأدب الإسلامي تبحث في إنشاء تجمع للأدباء الإسلاميين لتعزيز موقفهم في الساحة الثقافية، وفتح منافذ لنشر إنتاجهم الذي كانوا يجدون صعوبة في نشره، فقد كان أصحاب الاتجاه اليساري مسيطرين على قسم كبير من منافذ النشر في العالم العربي، وخاصة المجلات والملاحق والصفحات الأدبية في الدوريات العربية، ولا سيما التي تملكها أو تؤثر عليها الحكومات، وكان البحث يركز على ضرورة قيام تواصل وتناصر بين الأدباء الإسلاميين على البعد، وفي لقاء ضم عدداً من الأساتذة الجامعيين المتخصصين في الأدب والنقد احتفاءً بالدكتور عماد الدين خليل ولدت فكرة الهيئة التأسيسية لرابطة الأدب الإسلامي، التي بدأت بمراسلة الأدباء والنقاد وأساتذة الأدب والنقد وبعض المفكرين الإسلاميين، وطرح فكرة تأسيس رابطة للأدب الإسلامي، واقتراح أهدافها وأساليب عملها. ولقيت هذه المقترحات ترحيباً شديداً، وأرسل بعض المتحمسين لها مقترحات نيرة، وكتب بعضهم عن تجارب ومحاولات بدؤوا بها قبل سنوات، ثم حالت الظروف دون تنفيذها. وعلى مدى خمس سنوات نضجت فكرة تأسيس الرابطة لدى أعضاء الهيئة التأسيسية، ووضعت الملامح الرئيسية لنظامها

الأساسي، وصيغت بعض فقراته، وبدأ البحث الجاد عن شخصية متميزة تتولى رئاسة الرابطة، ومقر لمكتبها الرئيسي يمنحها الصفة القانونية ويعترف بشخصيتها الاعتبارية كاملة كما يريدها المؤسسون، ويمنحها حرية العمل دون تدخل في شؤونها، وكان هاجس (التخوف من مصطلح الإسلامية) يقلق المؤسسين، فالتطرف الذي انزلق إليه بعضهم، والآثار السلبية لبعض الأعمال المسلحة التي ظهرت في أكثر من مكان في العالم العربي، وعوامل أخرى مرتبطة بها، جعلت المؤسسين يفتشون بحرص شديد عن الشخصية التي تتجاوز تلك التخوفات، وتجتذب الثقة بالرابطة وأهدافها، وكانت شخصية أبي الحسن الندوي القطب الذي أجمع المؤسسون وكل من استشيروا عليه، فهي شخصية تمتلك صفات فريدة كأنها مفصلة تفصيلاً لهذه الرابطة. تمثل كل ما يحمله اسمها من (إسلامية) و (أدبية) و(عالمية)، فأبو الحسن مفكر إسلامي عرف بتميز فكره منذ كتابه المبكر (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين)، وهو ذو موهبة أدبية تشهد بتألقها كتابته عن محمد إقبال ومختاراته من الأدب العربي، ثم إن المزيج الذي يحمله في عروقه من الأصول العربية والهندية، وانتشاره الواسع في العالم الإسلامي أبين مظهر لتجاوزه حدود المحلية إلى العالمية.

ونيابة عن الهيئة التأسيسية سعى اثنان من أعضائها إلى الشيخ أبي الحسن الندوي عندما جاء إلى مكة لحضور مؤتمر رابطة العالم الإسلامي عام ١٤٠٤هـ وعرضا عليه هموم التأسيس والحاجة إلى من يتولى المسؤولية واجتماع الرأي عليه، فقبل دون تردد، وكفل بإنجاز الإجراءات القانونية لتسجيل الرابطة وإنشاء مكتبها الرئيسي في الهند، ولم تمضِ مدة طويلة حتى جاء البشير بتحقيق الآمال التي طالما تطلع إليها الكثيرون، وولادة الشخصية القانونية الدولية لرابطة الأدب الإسلامي العالمية.

وبعد شهور قليلة، وبالتحديد في شهر (تشرين الثاني) عام ١٤٠٥هـ الموافق لشهر نيسان/ أبريل عام ١٩٨٥م وفي جو عاطفي نادر كان المؤتمر الأول للرابطة يعقد في إحدى قاعات ندوة العلماء بمدينة لكهنؤ بالهند برئاسة الشيخ أبي الحسن الندوي، ويحضره أعضاء مؤسسون من معظم الدول العربية والهند، ليضع الصيغة المعتمدة لنظام الرابطة ومكاتبها الإقليمية ويختار أعضاء مجلس أمنائها، وكان للشيخ أبي الحسن الفضل الكبير في تحول الحلم إلى حقيقة قائمة.

وعلى امتداد خمسة عشر عاماً بذل الشيخ أبو الحسن من وقته وجهوده الشيء الكثير في إدارة الرابطة، وحضر جميع مؤتمراتها ومجالس أمنائها في أماكن شتى، السعودية والأردن وتركيا ومصر والمغرب العربي وبريطانيا، رغم آلام المرض ومتاعب الشيخوخة، وكان لتوجيهاته الحكيمة الفضل الكبير في نمو الرابطة وتطورها وتجاوزها لكثير من المعوقات الداخلية والخارجية، والتي كاد بعضها يعصف بها غير مرة، ولولا فضل الله سبحانه ثم حكمة الشيخ وصبره وتدخله لاستيعاب المشكلات الطارئة وحلها لكانت الرابطة واحدة من التجارب الإسلامية القصيرة والمريرة في عصرنا الحاضر.

ثانياً- القسم الإبداعي:

يبدو عطاء الشيخ أبي الحسن الندوي في جوانب عدة من الأدب الإسلامي، تتجاوز التوقعات التي يحدسها المرء في داعية فقيه، فقد قدَّم أعمالاً أدبية إسلامية في الدراسات الأدبية والنقدية، وفي أدب الرحلات، وفي أدب التراجم والسير، وفي قصص الأطفال، وهذه ميادين إبداعية تكشف عن موهبة أدبية غنية متعددة الجوانب.

فمن الدراسات الأدبية والنقدية التي نشرها كتاب (روائع إقبال) درس فيه آفاق الإبداع عند الشاعر الإسلامي الكبير محمد إقبال، وحلل نصوصاً رائعة

ترجمها بنفسه من دواوينه الفارسية والأردية، وطوف في الآفاق الفكرية والشعورية التي تضمنتها القصائد، وأظهر من خلالها التصور المتميز للشخصية المسلمة التي كانت تملأ نفس إقبال ومشاعره، وعوامل القوة والاستمرار فيها، وأسباب تفوقها على النماذج البشرية الأخرى، كما وقف على الأبعاد الفلسفية العميقة في تصور إقبال لوظيفة الإنسان المسلم في الحياة، والريادة التي وضعته فيها عقيدته، ووظيفة الدعوة، والهداية التي تشع عطاءً حنوناً للبشرية.

ومن الدراسات الأدبية التي قدمها الشيخ أبو الحسن (الحضارة الغربية في شعر أكبر حسين الإله آبادي) اهتم فيها بدراسة مضمون قصائد هذا الشاعر الهندي الكبير الذي لا يقل في شهرته، داخل الهند، وفي إسلاميته عن إقبال، وركز في دراسته على رؤية الشاعر للحضارة الغربية في وقت كانت هي الغالبة، وكان معظم الشرق المسلم ضعيفاً مقهوراً، لكن الشاعر لم تبهره مظاهر القوة والسطوة، واستطاع أن ينفذ إلى أعماقها، ويرى الجوانب السلبية البشعة فيها، فقوتها ظلم، وسطوتها تسلط، والإنسان داخلها في تيه كبير، لأنه قطع أوتار قلبه الروحية، وأصم أذنيه عن صوت السماء.

ومن كتابات الندوي المهمة في الأدب الإسلامي كتابه (نظرات في الأدب)، فهذا الكتاب عرض نقدي، ودراسة تنظيرية لمفهومات أدبية كبرى، يقرر مقاييس أساسية لمفهوم العمل الأدبي، ويؤصل قواعد للأدب الإسلامي، ويبين طبيعته، وعناصره المميزة له عن الآداب الأخرى، ويحدد وظائفه، وأهدافه، والقيم المضمونية والشكلية فيه، وهذه هي الموضوعات الرئيسية التي يتجادل فيها دعاة الأدب الإسلامي وخصومه، وهي التي تفصل في وجوده وغيبته.

لم يعرض الشيخ الندوي موضوعاته تلك في عناوين مباشرة كالتي ذكرها، لكنه قدمها ضمن نصوص واضحة صريحة، يستخرج منها القارئ تلك العناوين، فمثلاً يتحدث عن الأدب فيبين له مفهوماً متميزاً نستشف منه آفاق تصوره له، يقول: ص٣٥: «الأدب في أوسع معانيه تعبير عن الحياة وعن الشعور والوجدان في أسلوب مفهم ومؤثر» ويرفض أن يكون النص الأدبي مقصوراً على ما يقدمه المحترفون ومن اشتهر بصنعة الأدب، ويلفت الأنظار إلى ما يسميه (الأدب الطبيعي) حيث النص الذي أبدعه صاحبه في سياق موضوعات تاريخية أو إخبارية أو في الترجمة الذاتية والغيرية..إلخ. وسكب فيه تجربته الوجدانية ومشاعره الصادقة، ويستشهد على ذلك بنصوص من الحديث الشريف والتاريخ والتراجم، كحديث السيدة عائشة الصديقة رضي الله عنها عن حادثة الإفك، وحديث كعب بن مالك عن تخلفه مع صاحبيه عن غزوة تبوك، ومعاناته إلى أن نزلت آيات التوبة عنهم، وبين أن في هذه النصوص من القيم الأدبية الفنية والشعورية ما يفوق بكثير ما تتضمنه كثير من القصائد والكتابات الأدبية الأخرى، ولا شك أن هذه الرؤية الواسعة للعمل الأدبي تربطه بعنصريه الأساسيين: التجربة الصادقة والفنية العالية.

ويعرض في سياق تصويري وظيفة الأدب فيقول ص١٠٥: «إني أتصور الأدب كائناً حياً له قلب حنون وله ضمير واع، وله نفس مرهفة الحس، له عقيدة جازمة، وله هدف معين، يتألم بما يسبب الألم، ويفرح بما يثير السرور، فإذا لم يكن الأدب كذلك فإنه أدب خشيب جامد، أدب ميت خامد، أشبه بالحركات البهلوانية والرياضات الجمبازية.. إن الأدب من أكبر الوسائل للوصول إلى الأهداف النبيلة..» ويستشهد بأبيات للشاعر محمد إقبال ترجمها من الفارسية يقول فيها: «لا بارك الله في نسيم السحر إذا لم تستفد منه الحديقة إلا الخمول والذبول، إن غاية الإحسان في فن من الفنون لوعة الحياة الدائمة، ولا خير في نثر وشعر إذا تجرد من تأثير عصا موسى..».

ومن الميادين التي كتب الشيخ الندوي وتعمق فيها السيرة الذاتية، وهذا اللون من الأدب إبداع يقدم فيه صاحبه تجربته المتميزة للآخرين ليقفوا على تعامل صاحبها مع الأحداث، ويروا العثرات التي مر بها، والنتائج التي حققها، فهي إبداع هادف وممتع في آن واحد، ينقل مع تجربة صاحبها تصوراته وفكره، وقد كتب الشيخ الندوي تجربته الطويلة والغنية في كتاب (مسيرة الحياة) في خمسة مجلدات، كان فيها شاهداً على أحداث عصره، وما عانت منه الأمة الإسلامية في بقاع شتى، لذلك نجد في هذه السيرة نماذج لعائلات وأفراد عانوا آلام عصر الهبوط، ونجد مواجهات قوية لأزمات الفقر والجهل والمرض والخوف والاستعمار، ونجد النجاح والإخفاق، ونجد النماذج البشرية العالية والهابطة، ونجد بعد الرؤية وقوة الأحداث، ونستمتع بسلاسة العبارة وعذوبة الأسلوب.

وشكل أدب الرحلات جانباً مهماً من إبداع الشيخ أبي الحسن الندوي، ولعله صدى للأسفار الكثيرة التي قام بها في أنحاء الشرق والغرب، فقد طوف الشيخ الندوي في العالمين العربي والإسلامي وفي أوروبا، وكانت عينه وبصيرته تتقاسمان المشاهد التي يمر بها، كما كانت مقاييسه الإيمانية تحاكم وتحكم على كل ما يقف عليه، وكان قلمه يسجل ما تجتمع عليه ملكاته الثلاث تلك، فجاءت كتبه «مذكرات سائح في الشرق العربي» و«من نهر كابل إلى نهر اليرموك» و «الطريق إلى المدينة» و«في المغرب الأقصى» تعرض مشاهداته وتأملاته العميقة وترسم صوراً صادقة للمجتمعات العربية والإسلامية التي مر بها في ذلك الوقت، وترصد القيم الإيجابية والعناصر السلبية فيها، وتستشرف آفاق المستقبل لتلك الإيجابيات والسلبيات بفراسة المؤمن، وتحذر بغيرة المشفق من سوء العواقب، وقد صدقت فراسته وذاقت بعض البلاد العربية والإسلامية مرارة ما تخوف منه.

وقد أضاف الشيخ أبو الحسن الندوي إلى كتاباته في أدب الرحلات تنظيراً وتأصيلاً لقواعد مهمة فيه، فكتب فصلاً إضافياً عنه في كتابه (نظرات في الأدب) قرر فيه القواعد التي ينبغي أن تتوافر في هذا الأدب وكاتبه ليكونا مفيدين للبشرية، منها ضرورة أن يتمتع الكاتب بالنظرة الشمولية للمجتمع الذي يكتب عنه، ولا يحتبس في جزئيات تحيط به في وقت أو مكان ما ويصدر الأحكام التعميمية الخاطئة، ومنها ضرورة التسجيل المباشر للحدث الذي يصادفه كي لا يدخل عليه أثر الزمن بعد ذلك نسياناً أو تغييراً، ومنها ألا ينحي الكاتب ذاته وأحكامه عمّا يكتب، وهذا خلاف ما يذهب إليه معظم المنظرين في الغرب، وحجة الشيخ الندوي في ذلك أن كاتب أدب الرحلات إذا اقتصر على تسجيل ما يراه ونحى مشاعره وعقيدته وفكره تحول إلى مجرد آلة تصوير باردة، وصار ما يكتبه وصفاً إخبارياً لا حياة فيه.

ولعل آخر ما يخطر على بال من يدرس نتاج مفكر فقيه داعية أن يجد له إسهاماً في أدب الأطفال، لكن الشيخ الذي كان يحمل همّ الدعوة وهموم المسلمين حيثما كانوا، وجد في هذا الميدان ما غفل عنه الكثيرون قبل نصف قرن، فالطفل هو البنية الواعدة ورجل المستقبل. والعناية به تأسيس للرجل الصالح، والقصة بما تملكه من مشوقات ومؤثرات وسيلة تحفر في نفوس الأطفال أخاديد لا تردم، وقد لحظ الشيخ أبو الحسن ذلك وأدرك خطورة هذا المنبر في إهماله وفي استخدامه، وبحث عن النصوص القصصية المناسبة فلم يجد الكثير، وأراد أن يدعو الأدباء الإسلاميين إلى ملء الفراغ قبل أن يملأه غيرهم، فجعل دعوته نظرية وتطبيقية، واختار من حياة الأنبياء والرسل مواقف وأحداثاً مهمة، وأخرجها في مجموعة قصصية سماها (قصص النبيين)، وصاغها بأسلوب عذب مبسط يناسب الطفل في مرحلة تفتح الوعي التي تلامس مرحلة الفتوة، وهي أخطر مرحلة في حياة الطفل، تتأسس فيها

مفهوماته، وتتجذر قيمه.

وقد نبه الشيخ الندوي في مقدمة المجموعة إلى أهمية هذا اللون من الأدب، وأثره في تنشئة الأجيال والشروط التي ينبغي أن تتوافر فيه ليكون ناجحاً يتغلغل إلى أعماق الناشئة، ويزرع فيهم القيم الفاضلة.

وبعد،

فهذا تطواف سريع بجهود الشيخ أبي الحسن الندوي في خدمة الأدب الإسلامي في جانبيه العملي والإبداعي، أردت أن ألفت نظر الباحثين فيه إلى هذا الموضوع المهم والقيم، والذي يمكن أن يكون رسالة جامعية معمقة، أو كتاباً منهجياً كبيراً، فما ذكرته هنا أشبه ما يكون بعناوين تندرج تحتها تفصيلات وتحليلات واستنتاجات كثيرة، وأحسب أنه من حق الشيخ أبي الحسن الندوي -رحمه الله رحمة واسعة- علينا وعلى دعاة الأدب الإسلامي ودارسيه أن نعكف على هذا الفصل المهم من تاريخ الأدب الإسلامي ومراحل تطوره، فالشيخ الندوي بعطاءاته الواسعة والمتميزة قسم من هذا التاريخ ومرحلة عظيمة التطور، كثيرة التغييرات، غنية الأحداث لا يصح أن تغيب عن سجل العطاء والتضحية والإبداع، ليس في تاريخ الأدب الإسلامي وحده، بل في تاريخ الأدب الإنساني كله.



البحث التاسع عشر

سيرة سماحة الشيخ أبي الحسن الندوي ومؤلفاته

محمد طارق الزبيري

اسمه ونسبه:

- عليٌّ أبو الحسن بن عبد الحي بن فخر الدين الحسني - ينتهي نسبه إلى عبد الله الأشتر بن محمد ذي النفس الزكية بن عبد الله المحض بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم. هاجر بعض أجداده وهو الأمير السيد قطب الدين محمد المدني (م٦٧٧هـ) إلى الهند في أوائل القرن السابع الهجري.
- أبوه علامة الهند ومؤرخها السيد عبد الحي بن فخر الدين الحسني رحمه الله صاحب المصنفات المشهورة: «نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر في تراجم علماء الهند وأعيانها» - طبع أخيراً باسم : الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام- في ثمانية مجلدات.» والهند في العهد الإسلامي»، «والثقافة الإسلامية في الهند» .
- أمه -رحمها الله- كانت من السيدات الفاضلات، المربيات النادرات، المؤلفات المعدودات، تحفظ القرآن وتكتب وتؤلف، وتقول الشعر.

ميلاده ونشأته:

- وُلِدَ بقرية تكية بمديرية راي بريلي في الولاية الشمالية (uttar Pardesh) بالهند في ٦/ محرم ١٣٣٣هـ الموافق عام ١٩١٤م.
- بدأ تعلمه للقرآن الكريم في البيت تُعاونُه أمه، ثم بدأ في تعلم اللغتين الأردية والفارسية.
- توفي أبوه عام ١٣٤١هـ- (١٩٢٣م) وهو لم يزل دون العاشرة، فتولى تربيته أمه الفاضلة، وأخوه الأكبر الدكتور عبد العلي الحسني الذي كان هو الآخر طالباً في كلية الطب بعد تخرجه من دار العلوم ندوة العلماء ومن دار العلوم ديوبند.

- بدأ تعلم العربية على الشيخ خليل بن محمد الأنصاري اليماني عام ١٣٤٢هـ (١٩٢٤م) وتخرج عليه، كما استفاد - في دراسة اللغة العربية وآدابها - من عمّية الشيخ عزيز الرحمن والشيخ محمد طلحة، وتوسّع فيها وتخصص على الأستاذ الدكتور تقي الدين الهلالي عند مقدمه في ندوة العلماء عام ١٩٣٠م.
- حضر احتفال ندوة العلماء بكانفور عام ١٩٢٦م، وشدّ انتباه المشاركين في الاحتفال بكلامه العربي، واستعان به بعض الضيوف العرب في تنقلاته خارج مقر الحفل.
- التحق بجامعة لكهنؤ في القسم العربي عام ١٩٢٧م - وكان أصغر طلاب الجامعة سناً- وحصل على شهادة فاضل أدب في اللغة العربية وآدابها.
- قرأ -أيام دراسة اللغة العربية- كتباً تعتبر في القمة في اللغة الأردية وآدابها، مما أعانه على القيام بواجب الدعوة، وشرح الفكرة الإسلامية الصحيحة، وإقناع الطبقة المثقفة بالثقافة العصرية.
- عكف على دراسة اللغة الإنجليزية في الفترة ما بين ١٩٢٨-١٩٣٠م مما مكنه من قراءة الكتب المؤلفة -بالإنجليزية- في المواضيع الإسلامية والحضارة الغربية وتاريخها وتطورها والاستفادة منها مباشرة.
- التحق بدار العلوم لندوة العلماء عام ١٩٢٩م، وحضر دروس الحديث الشريف للعلامة المحدِّث المربي حيدر حسن خان -وكان قد درس كتاب الجهاد من صحيح الإمام مسلم على شيخه خليل الأنصاري- ولازمه سنتين كاملتين فقرأ عليه الصحيحين، وسنن أبي داود، وسنن الترمذي حرفاً حرفاً، وقرأ عليه دروساً في تفسير البيضاوي أيضاً، وقرأ على الشيخ الفقيه المفتي شبلي الجيراجبوري الأعظمي بعض كتب الفقه.

- تلقى تفسير سور مختارة من شيخه خليل الأنصاري، ثم تلقى دروساً في التفسير من الشيخ عبد الحي الفاروقي، وحضر دروس البيضاوي للمحدث حيد حسن خان، ودرس التفسير لكامل القرآن الكريم - حسب المنهج الخاص للمتخرجين من المدارس الإسلامية- على العلامة المفسر أحمد علي اللاهوري في لاهور عام ١٣٥١هـ/١٩٣٢م.
- أقام عند العلامة المجاهد حسين أحمد المدني عام ١٩٣٢م في دار العلوم ديوبند عدة أشهر، وحضر دروسه في صحيح البخاري وسنن الترمذي، واستفاد منه في التفسير وعلوم القرآن الكريم أيضاً، كما استفاد من الشيخ الفقيه الأديب إعزاز علي في الفقه، ومن الشيخ المقرئ أصغر علي في التجويد على رواية حفص.

حياته العملية وجهوده الدعوية:

- تعيّن مدرّساً في دار العلوم لندوة العلماء عام ١٩٣٤، ودرّسَ فيها التفسير والحديث، والأدب العربي وتاريخه، والمنطق.
- استفاد من الصحف والمجلات العربية الصادرة في البلاد العربية - والتي كانت تصل إلى أخيه الأكبر، وإلى دار العلوم ندوة العلماء - مما عرّفه على البلاد العربية وأحوالها، وعلمائها، وأدبائها، ومفكريها عن كثب.
- بدأ يتوسع في المطالعة والدراسة - خارجاً عن نطاق التفسير والحديث والأدب والتاريخ أيضاً - منذ عام ١٩٣٧م، واستفاد من كتب المعاصرين من الدعاة والمفكرين العرب، وفضلاء الغرب، والزعماء السياسيين.
- قام برحلة استطلاعية للمراكز الدينية في الهند عام ١٩٣٩ تعرّف فيها على الشيخ المربي عبد القادر الراي بوري والداعية المصلح الكبير محمد إلياس الكاندهلوي، وبقي على صلة بهما، فتلقى التربية الروحية من الأول

وتأسى بالثاني في القيام بواجب الدعوة وإصلاح المجتمع، فقضى زمناً في رحلات دعوية متتابعة للتربية والإصلاح والتوجيه الديني.

- أسس مركزاً للتعليمات الإسلامية عام ١٩٤٣م، ونظّم فيها حلقات درس للقرآن الكريم والسنة النبوية فتهافت عليها الناس من الطبقة المثقفة والموظفين الكبار.
- اختير عضواً في المجلس الانتظامي لندوة العلماء عام ١٩٤٨م، وعُين نائباً لمعتمد (وكيل) ندوة العلماء للشؤون التعليمية بترشيح من المعتمد العلامة السيد سليمان الندوي رحمه الله عام ١٩٥١، واختير معتمداً -إثر وفاة العلامة رحمه الله- عام ١٩٥٤، ثم وقع عليه الاختيار أميناً عاماً لندوة العلماء- بعد وفاة أخيه الدكتور السيد عبد العلي الحسني- عام ١٩٦١م.
- أسس حركة رسالة الإنسانية عام ١٩٥١م.
- أسس المجمع الإسلامي العلمي في لكهنؤ عام ١٩٥٩م.
- شارك في تأسيس هيئة التعليم الديني للولاية الشمالية (uttar Pardesh) عام ١٩٦٠م، وفي تأسيس المجلس الاستشاري الإسلامي لعموم الهند عام ١٩٦٤، وفي تأسيس هيئة الأحوال الشخصية الإسلامية لعموم الهند عام ١٩٧٢م.

المهام التي قام بها سماحة الشيخ أبي الحسن الندوي:

- أمين ندوة العلماء العام ورئيس دار العلوم التابعة لها.
- عضو المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة.
- عضو المجلس الأعلى العالمي للدعوة الإسلامية بالقاهرة.
- رئيس رابطة الأدب الإسلامي العالمية.

- رئيس المجمع الإسلامي العلمي في لكهنؤ، (الهند).
- رئيس هيئة التعليم الديني للولاية الشمالية.
- رئيس هيئة الأحوال الشخصية الإسلامية لعموم الهند.
- رئيس مجمع دار المصنفين بأعظم كره (الهند).
- رئيس مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية.
- عضو المجلس الاستشاري بدار العلوم ديوبند (الهند).
- عضو رابطة الجامعات الإسلامية بالرباط.
- عضو المجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية العالمية، إسلام آباد - باكستان.
- عضو مجمع اللغة العربية في دمشق.
- عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة.
- عضو مجمع اللغة العربية الأردني.
- عضو المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، (مؤسسة آل البيت) بالأردن.

وذلك عدا عضويته لكثير من الجامعات الإسلامية، والمنظمات الدعوية، ولجان التعليم والتربية، حفظه الله ونفع به الإسلام والمسلمين.

أهم مؤلفاته:

- نُشر له أول مقال بالعربية في مجلة «المنار» للسيد رشيد رضا عام ١٩٣١م حول حركة الإمام السيد أحمد بن عرفان (الشهيد في بالاكوت عام ١٨٣١م).

- ظهر له أول كتاب بالأردية عام ١٩٣٨م بعنوان» سيرة سيد أحمد شهيد» ونال قبولاً واسعاً في الأوساط الدينية والدعوية.

- ألف كتابه «مختارات في أدب العرب» عام ١٩٤٠م، وسلسلة «قصص النبيين» للأطفال، وسلسلة أخرى للأطفال، باسم «القراءة الراشدة» في الفترة ما بين ١٩٤٢-١٩٤٤م.

- بدأ في تأليف كتابه المشهور «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» عام ١٩٤٤، وأكمله عام ١٩٤٧م، وقد طبعت ترجمته الأردية في الهند قبل رحلته الأولى للحج عام ١٩٤٧م.

- ألف عام ١٩٤٧م- رسالة بعنوان: «إلى ممثلي البلاد الإسلامية» موجهة إلى المندوبين المسلمين والعرب المشاركين في المؤتمر الآسيوي المنعقد في دلهي- بدعوة من جواهر لال نهرو- فكانت أول رسالة له انتشرت في الحجاز عند رحلته الأولى.

- كلفته الجامعة الإسلامية في عليكره (U.M.A) الهند، بوضع منهاج لطلبة الليسانس في التعليم الديني أسماه «إسلاميات»، وألقى في الجامعة الملية بدلهي - بدعوة منها- عام ١٩٤٢م محاضرة طبعت بعنوان «بين الدين والمدنيّة».

- دُعي أستاذاً زائراً في جامعة دمشق عام ١٩٥٦، وألقى محاضرات بعنوان: «التجديد والمجددون في تاريخ الفكر الإسلامي» ضُمّت -فيما بعد- إلى كتابه الكبير «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» .

- ألقى محاضرات في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة - بدعوة من نائب رئيسها سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز- عام ١٩٦٣م، طُبِعت بعنوان: «النبوة والأنبياء في ضوء القرآن» .

- سافر إلى الرياض - بدعوة من وزير المعارف السعودي - عام ١٩٦٨م للمشاركة في دراسة خطة كلية الشريعة، وألقى بها عدة محاضرات في جامعة الرياض وفي كلية المعلمين، وقد ضمّ بعضها إلى كتابه «نحو التربية الإسلامية الحرة في الحكومات والبلاد الإسلامية».
- ألّف- بإشارة من شيخه عبد القادر الراي بوري- كتاباً حول القاديانية، بعنوان «القادياني والقاديانية» عام ١٩٥٨م.
- ألّف كتابه «الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية» عام ١٩٦٥م، وكتابه «الأركان الأربعة» عام ١٩٦٧م، و«العقيدة والعبادة والسلوك» عام ١٩٨٠م، و«صورتان متضادتان لنتائج جهود الرسول الأعظم والمسلمين الأوائل عند أهل السنة والشيعة»، عام ١٩٨٤م، «والمرتضى» في سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عام ١٩٨٨م [١].
- شارك في تحرير مجلة «الضياء» العربية الصادرة من ندوة العلماء عام ١٩٣٢م، ومجلة «الندوة» الأردية الصادرة منها أيضاً عام ١٩٤٠م، وأصدر مجلة» التعمير» الأردية عام ١٩٤٨م، وتولى كتابة افتتاحيات مجلة «المسلمون» -الصادرة من دمشق- في الفترة ما بين ١٩٥٨-١٩٥٩م وكانت أولاها هي التي نُشرت فيما بعد بعنوان: «ردة ولا أبا بكر لها»، كما ظهرت له مقالات في مجلة «الفتح» للأستاذ محب الدين الخطيب.
- أشرف على إصدار جريدة «نداي ملت» الأردية الصادرة عام ١٩٦٢م، وهو المشرف العام على مجلة «البعث الإسلامي» العربية الصادرة منذ عام

(١) أجريت له عملية جراحية في العين اليسرى عام ١٩٦٤م، ولم يقدِّر الله لها النجاح، وبقي مضطراً إلى الاستعانة بغيره في القراءة والإملاء حتى رحلته إلى أمريكا عام ١٩٧٧م، حيث أجريت له عملية جراحية في العين اليمنى وكانت - بفضل الله سبحانه وتعالى- ناجحةً، فأصبح يتحرك ويمشي بحرية، ويباشر القراءة، والمراجعة بنفسه بعد ١٣أو ١٤عاماً، فلله الحمد في الأولى والآخرة.

١٩٥٥م، وجريدة «الرائد»، العربية الصادرة منذ عام ١٩٥٩م، وجريدة «تعمير حيات» الأردية الصادرة منذ عام ١٩٦٣م، ثلاثتها تصدر من ندوة العلماء.

رحلاته:

- سافر إلى مدينة لاهور عام ١٩٢٩م، وكان أول رحلة له إلى بلد بعيد، حيث تعرّف على علمائها وأعيانها، والتقى بشاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال وكان قد ترجم بعض قصائده -قصيدة القمر- إلى النثر العربي.
- توجه إلى بومباي، عام ١٩٣٥م لدعوة الدكتور أمبيد كر زعيم المنبوذين إلى الإسلام.
- قام برحلة استطلاعية للمراكز الدينية في الهند عام ١٩٣٩م.
- سافر للحج عام ١٩٤٧م، وكانت أول رحلة له خارج الهند، وأقام بالحجاز ستة أشهر، وتعرف على كبار علماء الحجاز، أمثال أصحاب الفضيلة الشيوخ: عبد الرزاق حمزة، وعمر بن الحسن آل الشيخ، والسيد علوي المالكي، وأمين الكتبي، وحسن مشاط، ومحمد العربي التباني، ومحمود شويل، وكانت رسالته «إلى ممثلي البلاد الإسلامية» قد طبعت فكانت خير معرِّف لمؤلفها في الحجاز، وقد قرأها ذات يوم محمد علي الحركان على طلابه في المسجد النبوي الشريف، واطلع فضيلة الشيخ عبد الرزاق حمزة إمام الحرم المكي على مسودة كتابه «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» فأعجب به، وشجع المؤلِّف الناهض على نشره.
- ورحل للحج مرة أخرى عام ١٩٥١م، وتعرف على أدبائها وكتابها بصفة خاصة، وعلى رأسهم معالي الشيخ محمد سرور الصبان، والتقى بهم عدة لقاءات كان أهمها اللقاء في بستان البخاري بمكة المكرمة الذي حضره جمع

من الشباب الأدباء والصحفيين وكبار الموظفين أمثال الأساتذة: سعيد العامودي، وعبد القدوس الأنصاري، وعلي حسن فدعق، ومحسن أحمد باروم، وحسين عرب، وكان الجلسة -حسب تعبير سماحته- كأنها جلسة نقاش للطالب قدّروا فيه مدى معرفته اللغة العربية، وسبروا غوره في دراسته ومعلوماته العامة، واطلاعه على اللغة الإنجليزية، فكانت الأسئلة حيناً عن الأدب العربي وأعلامه المعاصرين، وآخر عن الاشتراكية والأدب الإنجليزي، والحضارة الغربية وما إلى ذلك، وكانت النتيجة أن طُلب منه إلقاء سلسلة من الأحاديث على إذاعة جدة، فألقاها بعنوان: «بين العالم وجزيرة العرب»، ثم تكررت رحلاته للبلاد المقدسة.

- زار مصر للمرة الأولى عام ١٩٥١، وكان كتابه «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» قد سبقه إلى الأوساط العلمية والدينية، والدعوية، والأدبية، فكان خير معرّف لمؤلفه. ومكث في القاهرة ستة أشهر إلا قليلاً، وألقى سلسلة من الأحاديث والمحاضرات في مختلف النوادي والجمعيات، التي تعرّف فيها على شباب مصر والأوساط القديمة والجديدة، واسترعى انتباههم، والتقى فيها -من كبار العلماء ومشايخ الأزهر- مع شيخ الأزهر عبد المجيد سليم، ومحمد شلتوت، وأحمد محمد شاكر، وحسنين محمد مخلوف، وحامد الفقي، ومحمود عبد اللطيف دراز، ومحمد فؤاد عبد الباقي، ومصطفى صبري باشا (شيخ الإسلام سابقاً بالدولة العثمانية) ومحمد الشربيني، ومحمد يوسف موسى، وأحمد عبدالرحمن البنّا.

ومن القادة والزعماء مع: سماحة المفتي أمين الحسني، والأمير عبد الكريم الريفي، واللواء صالح حرب باشا، ومن الدعاة والمفكرين الإسلاميين سيد قطب، ومحب الدين الخطيب، وأحمد الشرباصي، ومحمد الغزالي، وسعيد رمضان، وصالح العشماوي، وبهي الخولي، ومن الأدباء أحمد أمين، وعباس محمود العقاد، وأحمد حسن الزيات.

وكان من أهم الأحاديث التي ألقاها محاضرة في دار الشبان المسلمين، بعنوان: «الإسلام على مفترق الطرق»، وأخرى بعنوان: «الدعوة الإسلامية وتطوراتها في الهند» في حفل أقامه رئيس عام جمعيات الشبان المسلمين، تكريماً له، والثالثة حول: «شعر إقبال ورسالته» في كلية العلوم، والرابعة بعنوان: «الإنسان الكامل في نظر الدكتور محمد إقبال» في جامعة فؤاد الأول، عدا محاضرات في عدد من المراكز الدعوية والجمعيات مثل: شباب سيدنا محمد ﷺ، وجمعية أنصار السنّة المحمدية، والجمعية الشرعية، وجمعية العشيرة المحمدية، وجمعية مكارم الأخلاق، والرابطة الإسلامية، وحضر ندوة دعوية في منزل سيد قطب حول كتابه: «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين». وفي الرحلة نفسها نُشرت رسالته بعنوان: «اسمعي يا مصر» علّق عليها سيد قطب قائلاً:» قرأت اسمعي يا مصر ويا ليت مصر قد سَمِعَت».

وقد نظمت له رحلات وجولات دعوية زار فيها - عدا القرى والأرياف- القناطر الخيرية، وطنطا، وبنها، وحامول، وحلوان، وسنتريس، والمحلة الكبرى، ونكله، والعزيزية، وقويسنا، ونبروه، رافقه فيها الداعية الكبير الشيخ محمد الغزالي، وذلك عدا لقاءات متكررة مع الطلاب في أروقة الأزهر والفنادق.

- وسافر في الرحلة نفسها إلى السودان والشام والقدس والأردن، والتقى بالسودان مع أعيانها وكبار رجالها، أمثال: السيد علي ميرغني باشا، والأستاذ إسماعيل بك الأزهري -رئيس وزراء السودان فيما بعد- وشوقي أسد سكرتير جمعية التبشير الإسلامي، ومحمد عوض إمام المسجد الجامع، والحاج محمد موسى سليمان قائد العمال ورئيس جمعية الشبان المسلمين.

● أقام في الشام ٤٨ يوماً، قضى ٢٤ يوماً منها في دمشق - وزار في باقيها حمص، وحماه، ومعرة النعمان، وحلب، وحارم، فكانت فرصة للاتصال بالأوساط العلمية والدينية والأدبية المختلفة، ومقابلة شخصياتها الموقرة، وتبادل الآراء معها، فزار عدداً من مؤسسات الشام ومراكزها العلمية والأدبية والمجمع العلمي العربي بدمشق، والمكتبة الظاهرية، ومدرسة دار الحديث، وجمعية التمدن الإسلامي، وحضر إحدى جلسات البرلمان السوري المهمة المثيرة.

وألقى محاضرة في قاعة جامعة دمشق بعنوان: «شهادة العلم والتاريخ في قضية فلسطين [1]» عدا محاضرات في كل من الهيئة العلمية الإسلامية، وجمعية التمدن الإسلامي، والجمعية الغراء.

والتقى فيها مع كبار علمائها وأدبائها أمثال أصحاب الفضيلة: عبد الوهاب الصلاحي، ومكي كتاني، وأحمد الدقر، ومحمد بهجة البيطار، وأبي الخير الميداني، ومصطفى السباعي، ومحمد المبارك، ومصطفى الزرقا، ومحمد أحمد دهمان، وأبي اليسر عابدين -حفيد العلامة الشامي ومفتي الجمهورية- وأحمد كفتارو، ومحمد سعيد برهاني، ومحمد علي حوماني، وتيسير ظبيان، ومحمد كمال خطيب، ومحمد كرد علي، ومحمد عزة دروزة، وخليل مردم بك، وعبد القادر المغربي.

وكان يرافقه ويساعده في الوصول إلى الناس وزياراتهم الأستاذ عبد الرحمن الباني الذي كان مدرِّساً في كلية المعلّمين بدمشق.

● وفي فلسطين زار بيت المقدس، وتشرف بزيارة المسجد الأقصى، وقضى الأيام الأخيرة من رمضان وصلى العيد بها، وزار مدينة الخليل، وبيت لحم،

(١) طبعت بعنوان: «العوامل الأساسية لكارثة فلسطين».

وفي العودة منها قابل بالأردن الملك عبدالله ملك الأردن، وقد طُبعت مذكراته لهذه الرحلة الطويلة بعنوان: «مذكرات سائح في الشرق الأوسط».

- وزار الشام للمرة الثانية - أستاذاً زائراً في كلية الشريعة بجامعة دمشق- عام ١٩٥٦م وأقام بها ثلاثة أشهر كان فيها على صلة وعلاقة دائمة مع علماء دمشق وأدبائها ومفكريها، وقادة الحركات والمنظمات الإسلامية، وألقى -عدا محاضراته الأساسية في الجامعة حول التجديد والمجددين في تاريخ الفكر الإسلامي - أحاديث على إذاعة سورية، كان أولها بعنوان «اسمعي يا سورية»! ومحاضرة في حلب بعنوان: «حاجتنا إلى إيمان جديد»، وكلمة في المؤتمر الإسلامي بدمشق بعنوان: «ارتباط قضية فلسطين بالوعي الإسلامي»، وخطاباً أمام مدرِّسي الدين بالجامعة. وسافر إلى الشام مرة ثالثة عام ١٩٦٤م، والمرة الرابعة لنصف ليلة فقط عام ١٩٧٣م.

- سافر في هذه الرحلة -١٩٥٦م- إلى لبنان زار فيها بيروت وقلمون وطرابلس، والتقى فيها مع الشخصيات الدينية والعلمية وقادة الحركات الدينية، أمثال: محمد عمر داعوق مؤسس حركة عباد الرحمن، ومحمد علايا مفتي الجمهورية، وشفيق يموت رئيس المحكمة الشرعية، ومحمد أسد -ليوبولدفايس سابقاً- صاحب كتاب الطريق إلى مكة، ومصطفى الخالدي الداعي العامل المعروف في المجالات الاجتماعية، والفضيل الورتلاني المجاهد الجزائري المعروف، وزار في بيروت مركز عباد الرحمن، وكلية الشريعة، وألقى في مركز الملك سعود - وهو مركز إسلامي ببيروت وقاعة المحاضرات والاجتماعات - بعنوان: «الشعوب لا تعيش على أساس المدنيات بل تعيش بالرسالة وتعضدها روحها وخصائصها» وزار في طرابلس الكلية الشرعية، ومركز المولوية، ومدرسة الغزالي، ومدرسة ابن خلدون وغيرها.

- سافر في الرحلة نفسها -١٩٦٥م- إلى تركيا ومكث فيها أسبوعين، طبعت مذكراتها بعنوان: «أسبوعان في تركيا الحبيبة»، ثم سافر إليها عام ١٩٦٤م، فعام ١٩٨٦م، فعام ١٩٨٩م، فعام ١٩٩٣م فعام ١٩٩٦م وكانت الرحلات الأربع الأخيرة للحضور في مؤتمرات رابطة الأدب الإسلامي العالمية.

- سافر إلى الكويت عام ١٩٦٢م، وألقى بها كلمته الرائعة بعنوان: «اسمعي يا زهرة الصحراء» ثم عام ١٩٦٨م، فعام ١٩٨٣، فعام ١٩٨٧م، وإلى الإمارات العربية المتحدة عام ١٩٧٤م بدعوة من حاكم الشارقة الأمير سلطان بن محمد القاسمي، ثم عام ١٩٧٦م، فعام ١٩٨٣، فعام ١٩٨٨، فعام ١٩٩٣م، وإلى قطر للحضور في مؤتمر السيرة النبوية عام ١٩٩٠م، وقد طُبعت أهم محاضراته التي ألقاها في الخليج العربي في مجموعة بعنوان: «أحاديث صريحة مع إخواننا العرب المسلمين».

- سافر على رأس وفد من رابطة العالم الإسلامي عام ١٩٧٣م إلى أفغانستان، وإيران، ولبنان، والعراق (وكان قد زار العراق للمرة الأولى عام ١٩٥٦م) وسوريا، والأردن، وكانت له في كل هذه البلدان محاضرات وكلمات، وأحاديث، وقد طبعت مذكراته لهذه الرحلة بعنوان: « من نهر كابل إلى نهر اليرموك».

- سافر بناء على دعوة من مؤسسة آل البيت إلى الأردن عام ١٩٨٤م. وألقى محاضرات في جامعة اليرموك، وفي كلية العلوم العربية وغيرها، وزار في العام نفسه اليمن وألقى محاضرات في جامعة صنعاء وفي كلية الطيران، ومركز المدرعات وفي بعض الجوامع، وقد طبعت أهم محاضراته في الرحلتين بعنوان: «نفحات الإيمان بين صنعاء وعمّان».

- سافر بناء على دعوة من رابطة الجامعات الإسلامية إلى المغرب الأقصى عام ١٩٧٦م -وقد طبعت مذكرات هذه الرحلة بعنوان: «أسبوعان في المغرب

الأقصى» - وسافر إلى الجزائر لحضور ملتقى الفكر الإسلامي عام ١٩٨٢، ثم عام ١٩٨٦.

- سافر إلى بورما عام ١٩٦٠م، وإلى باكستان عام ١٩٦٤، ثم عام ١٩٧٨م بناء على دعوة من رابطة العالم الإسلامي لحضور مؤتمرها الآسيوي الأول، فعام ١٩٨٠م، فعام ١٩٨٦م -وقد طبعت أحاديثه في باكستان في مجموعتين بالأردية بعنوان: «أحاديث باكستان» و«تحفة باكستان» - وإلى سري لانكا عام ١٩٨٢م، وإلى بنغلاديش عام ١٩٨٤م وطبعت أحاديثه -فيها- بالأردية بعنوان: «تحفة مشرق».

- كانت رحلته الأولى إلى أوروبا عام ١٩٦٣م، زار فيها جنيف، ولوزان، وبرن، وباريس، ولندن، وكمبردج، وأكسفورد، وغلاسغو، وإيدامبرا، وقابل فيها عدداً من فضلاء الغرب والمستشرقين وألقى محاضرات في كل من جامعة إيدامبرا، وجامعة لندن، وفي اجتماعات خاصة للمسلمين، وزار في الرحلة نفسها مدريد، وطليطلة، وإشبيلية، وقرطبة، وغرناطة، من مدن إسبانيا.

وكانت رحلته الثانية إلى أوروبا عام ١٩٦٤م زار فيها لندن، وبرلين، وآخن وميونخ، وبون، والرحلة الثالثة كانت عام ١٩٦٩ بناء على دعوة من المركز الإسلامي بجنيف زار فيها جنيف، ولندن، وبرمنغهام، ومانشستر، وبليك برن وشيفلد، وديوزبري، وليدس، وغلاسغو، وألقى في كل منها محاضرات، منها محاضرة في جامعة برمنغهام، وأخرى في جامعة ليدس، وقد طبعت محاضراته وأحاديثه في أوروبا بعنوان: «حديث مع الغرب»، والرحلة الرابعة إلى لندن كانت عام ١٩٨٣م بمناسبة تأسيس مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية- وألقى في تلك المناسبة مقاله القيّم بعنوان: «الإسلام والغرب»، ثم تكررت رحلاته إلى إنكلترا.

- زار بلجيكا عام ١٩٨٥م، وسافر -بناء على دعوة من «منظمة الطلاب المسلمين في أمريكا وكندا» - إلى أمريكا وكندا عام ١٩٧٧م حيث زار نيويورك، وإنديانابولس، وبلومنغتين، ومين هاتن، ونيويورك ستي، وشيكاغو، وجرسي ستي، وفلادلفيا، وبالتيمور، وبوستن، ودترويت، وسالت ليك ستي، وسان فرانسيسكو، وسان جوزي، ولوس أجلوس، ومونتريال، وتورنتو، وواشنطن، وألقى محاضرات في كل من جامعة كولومبيا، وجامعة هارورد، وجامعة ديترويت، وجامعة جنوب كيلي فورنيا، وجامعة أوتا، وفي قاعة الصلاة بالأمم المتحدة، وفي اجتماعات المسلمين الخاصة- طُبعت أهم محاضرات هذه الرحلة بعنوان: «أحاديث صريحة في أمريكا» - وزار أمريكا مرة أخرى عام ١٩٩٣م.
- سافر بناء على دعوة من حركة «أبيم» حركة الشباب المسلم إلى ماليزيا عام ١٩٨٧م، فزار كوالالمبور، وكولا رنكانو، وألقى محاضرات في الجامعة الوطنية، والجامعة التكنولوجية، والجامعة الماليزية، والجامعة الإسلامية العالمية، ومركز حركة «أبيم» ، ومركز الحزب الإسلامي، ومعهد التربية الإسلامية، واجتماعات عامة للمسلمين.
- سافر إلى طشقند وسمرقند، وخرتنك، وبخارى عام ١٩٩٣م لحضور مناسبة تأسيس مركز علمي تذكاراً للإمام البخاري.

مع الأمراء والملوك:

- أقام سنتين في مقتبل شبابه -وذلك بعد وفاة أبيه- في قصر الأمير نور الحسن- نجل العلامة الأمير صديق حسن خان- وقد أفادته هذه الإقامة إذ زالت عن عينه غشاوة المهابة للزينات، والزخارف، ولم تبهر عينه قط مظاهر الإمارة والثراء.

- قابل الملك عبد الله بن الشريف حسين ملك المملكة الأردنية الهاشمية ثلاث مقابلات عام ١٩٥١م، لفت فيها نظره إلى رعاية المسجد الأقصى، والعناية به، وباللاجئين الفلسطينيين، والتقى بالملك حسين بن طلال عاهل المملكة الأردنية عام ١٩٧٣م مع وفد من رابطة العالم الإسلامي.
- وجّه إلى الأمير سعود بن عبد العزيز آل سعود رسالة عام ١٩٤٧م، طبعت بعنوان: «بين الجباية والهداية»، والتقى به ملكاً للمملكة العربية السعودية في جلسة تأسيس رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة عام ١٩٦٢م.
- كان أول لقائه مع الأمير فيصل بن عبدالعزيز آل سعود عام ١٩٦٣م، والتقى به ملكاً عدة لقاءات، كما قابل الملك خالد بن عبدالعزيز آل سعود، والملك فهد بن عبدالعزيز آل سعود في زيارات مختلفة، ووجه إليهم رسائل دعوية، كما بين أن للحجاز شخصية خاصة ورسالة ومكانة، ولا بد من المحافظة عليها في كل عصر.
- قابل الملك الحسن الثاني -عاهل المملكة المغربية- عام ١٩٧٦م، وحدثه عن انتظار المسلمين واحتياجهم إلى قائد عصاميٍّ، مؤمنٍ ألمعيٍّ، يمتاز بإخلاصه ويقينه، وعزمه الراسخ، وقلبه الواثق.
- التقى بالأمير سلطان بن محمد القاسمي حاكم الشارقة عدة لقاءات، وسافر بناء على دعوة منه إلى الإمارات العربية المتحدة عام ١٩٧٤م، وقد زاره الأمير في مقره بلكهنؤ عام ١٩٨٠م.
- قابل الرئيس علي عبد الله صالح رئيس الجمهورية اليمنية في صنعاء عام ١٩٨٤م.
- زاره الجنرال محمد ضياء الحق رئيس الجمهورية الإسلامية الباكستانية في كراتشي عام ١٩٨٤، فقدم إلى فخامته تمثال قبة الصخرة الرخامي- الذي

كان أهدي إلى سماحته كهدية تذكارية من كلية العلوم بالأردن- تلميحاً منه بأن استخلاص المسجد الأقصى المبارك مسؤولية من مسؤوليات رئيس مؤمن لبلد مسلم كبير كباكستان، وكان آخر لقائه مع الرئيس عام ١٩٨٦م.

تقدير وتكريم:

- اختير عضواً مراسلاً في مجمع اللغة العربية بدمشق عام ١٩٥٦م.
- أدار الجلسة الأولى لتأسيس رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة عام ١٩٦٢، نيابة عن رئيسها سماحة مفتي عام المملكة العربية السعودية الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ - وقد حضر أولها جلالة الملك سعود بن عبدالعزيز آل سعود كما حضرها الملك إدريس السنوسي حاكم ليبيا، وشخصيات أخرى ذات شأن- وقدم فيها مقاله القيم بعنوان: «الإسلام فوق القوميات والعصبيات».
- اختير عضواً في المجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة منذ تأسيسها عام ١٩٦٢م، وظل عضواً فيه إلى انحلال المجلس- وانضمام الجامعة في سلك بقية الجامعات السعودية تابعة لوزارة التعليم العالي- قبل أعوام.
- اختير عضواً في رابطة الجامعات الإسلامية منذ تأسيسها.
- اختير عضواً مؤازراً في مجمع اللغة العربية الأردني عام ١٩٨٠م.
- تم اختياره لجائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام عام ١٩٨٠م.
- دعا إلى أول ندوة عالمية عن الأدب الإسلامي في رحاب دار العلوم لندوة العلماء عام ١٩٨١م.
- منح شهادة الدكتوراة الفخرية في الآداب من جامعة كشمير عام ١٩٨١م.

- اختير رئيساً لمركز أكسفورد للدراسات الإسلامية عام ١٩٨٣م.
- اختير عضواً في المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية (مؤسسة آل البيت) عام ١٩٨٣م.
- تأسست رابطة الأدب الإسلامي العالمية عام ١٩٨٤م فاختير رئيساً عاماً لها.
- أقام الشيخ/ عبدالمقصود خوجه -من أعيان جدة- حفلاً لتكريم سماحته بجدة عام ١٩٨٥م.
- أقيمت ندوة أدبية حول حياته وجهوده الدعوية والأدبية عام ١٩٩٦م في تركيا على هامش المؤتمر الرابع للهيئة العامة لرابطة الأدب الإسلامي العالمية.



مؤلفات الشيخ أبي الحسن الندوي

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبيه أشرف المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.. وبعد،

فقد كان لإعلان رابطة الأدب الإسلامي العالمية عقد ندوة أدبية تكريماً لسماحة الإمام الداعية المجاهد الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي على هامش المؤتمر الرابع لهيئتها العامة المنعقد في إستانبول في الفترة ما بين ٢٤-٢٦ من ربيع الآخر عام ١٤١٧هـ (الموافق ٨-١٠/٨/١٩٩٦) فضل في الكتابة عن سماحته، والبحث عن مؤلفاته، وكان لمكتبة حراء نصيبها في المشاركة إذ كلفت الأستاذ محمد طارق زبير الندوي بإعداد قائمة مفصلة لمؤلفات سماحته باللغات: العربية والأردية، والإنجليزية والهندية، وغيرها من اللغات الأجنبية والمحلية، وقد تمكن -بتوفيق الله سبحانه وتعالى- بإعداد فهارس مبدئية قبل انعقاد الندوة، وقدمت للمسؤولين في الرابطة لعرضها على المشاركين في المؤتمر.

وأكبر مشكلة واجهها الأستاذ محمد طارق في إعداد القائمة هي تناثر مؤلفات سماحة الإمام وعدم توافرها مجتمعة في مكان ما، وعندئذ تجددت فينا أمنية تمناها والدنا الشيخ محمد مرتضى المظاهري -المتوفى في ١١/ من جمادى الأولى عام ١٤١٦هـ رحمه الله- أمين مكتبة ندوة العلماء العامة السابق، ألا وهي تخصيص جناح في مكتبة ندوة العلماء العامة بمؤلفات سماحة الإمام حفظه الله. ونحمد الله سبحانه وتعالى ونشكره إذ وفقنا لتحقيق أمنيته، فأنشأنا -بعون الله وتوفيقه- جناحاً باسم: «مكتبة أبي الحسن علي الحسني الندوي» في مكتبة ندوة العلماء العامة تضمن جميع مؤلفات سماحته باللغتين: العربية والأردية- بطبعاتها المتكررة- إضافة إلى ترجماتها

إلى اللغتين: الإنجليزية والهندية وغيرهما من اللغات الأجنبية والمحلية، ومراجع عن حياة سماحته وجهوده الدعوية ومؤلفاته».

وقد بلغ العدد الإجمالي لعناوين المستندات التي تضمنها الجناح ما يقارب (٧٠٠) عنوان، علماً بأن لغة تأليف سماحته العربية ثم الأردية، ومعظم ما ألّف في إحدى اللغتين نقل إلى الأخرى - عدا كتب معدودة ومحاضرات لم تتم ترجمتها- فقد بلغ عدد العناوين العربية - ما بين كتاب ورسالة صغيرة (١٧٧) عنواناً، بينما جاوزت عناوين المطبوعات الأردية (٣٥٠) عنواناً، وقد ترجم أكثر من ستين كتاباً إلى الإنجليزية، كما تم نقل عدد من مؤلفاته إلى لغات أجنبية أخرى كالفرنسية، والتركية، والبنغالية، والإندونيسية، والفارسية، بجانب ما نقل منها إلى الهندية وغيرها من لغات الهند المحلية.

وكان بتوفيق الله سبحانه وتعالى أن صادف افتتاح هذا الجناح بداية العام الدراسي الجديد في دار العلوم لندوة العلماء -وشقيقاتها المدارس الإسلامية في شبه القارة الهندية- فكان تحفة غالية لطلاب دار العلوم وأساتذتها ورواد مكتبتها بمناسبة بدء العام الدراسي الجديد.

وقد شرّف سماحته -على طلب منا- افتتاح الجناح في ٥/ من شهر شوال عام ١٤١٨هـ- الموافق ١٩٩٨/٢/٤م بحضور مدير دار العلوم لندوة العلماء فضيلة الشيخ محمد الرابع الحسني الندوي، وأمين مكتبة ندوة العلماء الشيخ محمد هارون الندوي، وعدد من أساتذة دار العلوم لندوة العلماء والمسؤولين. ويسر مكتبة حراء أن تقدم بهذه المناسبة -استجابة لرغبة المكتب الرئيسي لرابطة الأدب الإسلامي العالمية -إلى محبي سماحة الإمام وتلاميذه وقرائه قائمة كاملة لمؤلفات سماحة الإمام باللغة العربية مقتبسة من كتاب: «الإمام الندوي ومؤلفاته العربية» للأستاذ محمد طارق زبير الندوي، مجددة عهدها مع القرّاء الأفاضل بإخراج الكتاب المذكور في القريب العاجل بعون الله

وتوفيقه، سائلة المولى الكريم أن يبارك في جهود سماحة الإمام، ويتقبلها القبول الحسن، ويحفظه ذخراً للإسلام والمسلمين، إنه تعالى سميع قريب مجيب. والحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات

مكتبة حراء -لكهنؤ

٢٠/ من شوال ١٤١٨هـ

عمير الحسيني



من مؤلفات الشيخ أبي الحسن الندوي باللغة العربية (*)

١- أحاديث صريحة في أمريكا - مؤسسة الرسالة - بيروت - لبنان.

٢- أحاديث صريحة مع إخواننا العرب والمسلمين - دار عرفات للترجمة والنشر والتوزيع - راي بريلي - الهند.

٣- إذا هبت ريح الإيمان -مؤسسة الرسالة- بيروت- لبنان.

٤- الأركان الأربعة في ضوء الكتاب والسنة - دار القلم - الكويت.

٥- أسبوعان في المغرب الأقصى -مطبعة الرسالة- الرباط - المغرب.

٦- الإسلام أثره في الحضارة وفضله على الإنسانية - المجمع الإسلامي العلمي - الهند.

٧- الإسلام في عالم متغير - بحوث إسلامية قيمة - دار مكتبة الحياة - بيروت - لبنان.

٨- الإسلام والمستشرقون - المجمع الإسلامي العلمي - الهند.

٩- أضواء على الحركات والدعوات الدينية والإصلاحية، ومدارسها الفكرية ومراكزها التعليمية والتربوية في الهند، - المجمع الإسلامي العلمي- الهند.

١٠- إلى الإسلام من جديد - دار القلم- دمشق - سوريا.

١١- الإمام الذي لم يُوفَّ حقه من الإنصاف والاعتراف به (أحمد بن عرفان الشهيد) - المجمع الإسلامي العلمي- الهند.

(*) اخترنا في هذه القائمة من المؤلفات ما زادت على خمسين صفحة ولم نذكر من المؤلفات ما ضمت إلى غيرها. -الرابطة.

١٢- بين الدين والمدنية -مؤسسة الرسالة- بيروت- لبنان.

١٣- تأملات في القرآن الكريم -دار القلم- دمشق- سوريا.

١٤- التربية الإسلامي الحرة في الحكومات والبلاد الإسلامية - مؤسسة الرسالة - دمشق- سوريا.

١٥- التفسير السياسي للإسلام في مرآة كتابات - الأستاذ أبي الأعلى المودودي وسيد قطب، المجمع الإسلامي العلمي- راي بريلي- الهند.

١٦- حاجة البشرية إلى معرفة صحيحة ومجتمع إسلامي -دار الصحوة- القاهرة- مصر.

١٧- الحضارة الغربية الوافدة وأثرها في الجيل المثقف كما يراه شاعر الهند الكبير لسان العصر السيد أكبر حسين الإله آبادي - رابطة الأدب الإسلامي العالمية- لكهنؤ - الهند.

١٨- الداعية الكبير الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي ودعوته - المركز العربي للكتاب- الشارقة، الإمارات العربية المتحدة.

١٩- الدعوة والدعاة مسؤولية وتاريخ، رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة.

٢٠- دور الإسلام الإصلاحي في مجال العلوم الإنسانية، دار الصحوة، القاهرة، مصر.

٢١- ربانية لا رهبانية، المجمع الإسلامي العلمي، الهند.

٢٢- رجال الفكر والدعوة إلى الإسلام، دار القلم، الكويت.

٢٣- رسائل الإعلام، المجمع الإسلامي العلمي، الهند.

٢٤- رسالة التوحيد، مؤسسة الصحافة والنشر في ندوة العلماء، الهند.

٢٥- روائع إقبال، دار القلم، الكويت.

٢٦- روائع من أدب الدعوة في القرآن والسيزة، كلية اللغة العربية بدار العلوم لندوة العلماء، لكهنؤ، الهند.

٢٧- سيرة خاتم النبيين (للأطفال)، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.

٢٨- السيرة النبوية، دار الشروق، جدة، السعودية.

٢٩- شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال، مطبعة دار الكتاب العربي.

٣٠- شخصيات وكتب، دار القلم، الكويت.

٣١- الصراع بين الإيمان والمادية، دار القلم، الكويت.

٣٢- الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية، دار القلم، الكويت.

٣٣- صلاح الدين الأيوبي، دار عرفات للترجمة والنشر، راي بريلي، الهند.

٣٤- صورتان متضادتان لنتائج جهود الرسول ﷺ الدعوية والتربوية وسيرة الجيل المثالي الأول عند أهل السنة والشيعة الإمامية، المجمع الإسلامي العلمي، الهند.

٣٥- الطريق إلى السعادة والقيادة للدول والمجتمعات الإسلامية الحرة، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.

٣٦- الطريق إلى المدينة المنورة، المجمع الإسلامي العلمي، الهند.

٣٧- عاصفة يواجهها العالم الإسلامي والعربي، المجمع الإسلامي العلمي، الهند.

٣٨- العرب والإسلام، المجمع الإسلامي العلمي، الهند.

٣٩- العقيدة والعبادة والسلوك، المجمع الإسلامي العلمي، الهند.

٤٠- في مسيرة الحياة، دار القلم، دمشق، سوريا.

٤١- القادياني والقاديانية، الدار السعودية للنشر، جدة، السعودية.

٤٢- القراءة الراشدة (للأطفال)، مؤسسة الصحافة والنشر بدار العلوم لندوة العلماء، الهند.

٤٣- القرن الخامس عشر الهجري الجديد في ضوء التاريخ والواقع، المجمع الإسلامي العلمي، الهند.

٤٤- قصص من التاريخ الإسلامي (للأطفال)، من منشورات رابطة الأدب الإسلامي العالمية، دار البشير، عمان، الأردن.

٤٥- قصص النبيين (للأطفال)، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.

٤٦- قيمة الأمة الإسلامية بين الأمم، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر.

٤٧- كيف ينظر المسلمون إلى الحجاز والجزيرة العربية، دار الاعتصام، القاهرة، مصر.

٤٨- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، لجنة التأليف والترجمة والنشر، بالقاهرة، مصر.

٤٩- محمد رسول الله ﷺ الرسول الأعظم وصاحب المنّة الكبرى على العالم، ومسؤولية العالم المتمدن المنصف الأدبية والخلقية نحوه، دار عرفات للترجمة والنشر، راي بريلي، الهند.

٥٠- مختارات من أدب العرب، دار الشروق، جدة، السعودية.

٥١- المدخل إلى دراسات الحديث، المجمع الإسلامي العلمي، الهند.

٥٢- المدخل إلى الدراسات القرآنية، المجمع الإسلامي العلمي، الهند.

٥٣- مذكرات سائح في الشرق العربي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.

٥٤- المرتضى (سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه)، دار القلم، دمشق، سوريا.

٥٥- المسلمون تجاه الحضارة الغربية، دار المجتمع للنشر والتوزيع، جدة، السعودية.

٥٦- المسلمون في الهند، المجمع الإسلامي العلمي، الهند.

٥٧- المسلمون ودورهم، مكتبة الأمل، الكويت.

٥٨- المسلمون وقضية فلسطين، الدار الكويتية للطباعة والنشر، الكويت.

٥٩- المعهد العالي للدعوة والفكر الإسلامي، دار العلوم لندوة العلماء، الهند.

٦٠- من نفحات القرن الأول، مكتبة الإسلام، لكهنؤ، الهند.

٦١- من نهر كابل إلى نهر اليرموك، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.

٦٢- موقف العالم الإسلامي تجاه الحضارة الغربية، المجمع الإسلامي العلمي، الهند.

٦٣- النبوة والأنبياء في ضوء القرآن، دار القلم، دمشق، سوريا.

٦٤- النبي الخاتم، المجتمع الإسلامي، الهند.

٦٥- نظرات في الأدب، من منشورات رابطة الأدب الإسلامي العالمية، دار البشير، عمان، الأردن.

٦٦- نفحات الإيمان بين صنعاء وعمان، المجمع الإسلامي العلمي، الهند.

٦٧- واقع العالم الإسلامي وما هو الطريق السديد لمواجهته وإصلاحه، دار عرفات للترجمة والنشر، راي بريلي، الهند.



محتويات الكتاب

الموضوع | الصفحة

منشورات رابطة الأدب الإسلامي العالمية

١- من الشعر الإسلامي الحديث، لشعراء الرابطة.

٢- نظرات في الأدب، أبو الحسن الندوي.

٣- ديوان «رياحين الجنة» عمر بهاء الدين الأميري.

٤- دليل مكتبة الأدب الإسلامي في العصر الحديث، د. عبد الباسط بدر.

٥- النص الأدبي للأطفال، د. سعد أبو الرضا.

٦- ديوان «البوسنة والهرسك»، مختارات من شعراء الرابطة.

٧- لن أموت سدى «رواية»، الكاتبة جهاد الرجبي (الرواية الفائزة بالجائزة الأولى في مسابقة الرواية).

٨- ديوان «يا إلهي»، محمد التهامي.

٩- يوم الكرة الأرضية «مجموعة قصصية» د. عودة الله القيسي.

١٠- ديوان «مدائن الفجر» د. صابر عبد الدايم.

١١- العائدة «رواية»، سلام أحمد إدريسو الرواية الفائزة بالجائزة الثانية في مسابقة الرواية.

١٢- محكمة الأبرياء «مسرحية شعرية» د. غازي مختار طليمات.

١٣- الواقعية الإسلامية في روايات نجيب الكيلاني، د. حلمي القاعود.

١٤- ديوان «حديث عصري إلى أبي أيوب الأنصاري» د.جابر قميحة.

١٥- ديوان «في ظلال الرضا» ، أحمد محمود مبارك.

١٦- في النقد التطبيقي، د. عماد الدين خليل.

١٧- الشيخ أبو الحسن الندوي، دراسات وبحوث، مجموعة من الكتاب.

١٨- القضية الفلسطينية في الشعر الإسلامي المعاصر، حليمة بنت سويد الحمد.

١٩- د. محمد مصطفى هدارة، دراسات وبحوث، مجموعة من الكتاب.

٢٠- معسكر الأرامل «رواية مترجمة عن الأفغانية» تأليف مرال معروف، ترجمة د. ماجدة مخلوف.

٢١- قصة يوسف عليه السلام في القرآن الكريم «دراسة أدبية» ، محمد رشدي عبيد.

٢٢- قصص من الأدب الإسلامي «القصص الفائزة في المسابقة الأدبية الأولى للرابطة» .

سلسلة أدب الأطفال:

١- غرد يا شبل الإسلام، شعر، محمود مفلح.

٢- قصص من التاريخ الإسلامي، أبو الحسن الندوي.

٣- تغريد البلابل، شعر يحيى الحاج يحيى.

٤- مذكرات فيل مغرور، شعر قصصي د. حسين علي محمد.

٥- أشجار الشارع أخواتي، شعر، أحمد فضل شبلول.

٦- أشهر الرحلات إلى جزيرة العرب، فوزي خضر.

٧- باقة ياسمين «مجموعة قصصية للأطفال من الأدب التركي» تأليف علي نار، ترجمة شمس الدين درمش.



تحت الطبع

١- ديوان «أقباس»، طاهر محمد العتباني.

٢- الشخصية الإسلامية في الرواية المصرية الحديثة، د. كمال سعد خليفة.

٣- بحوث الملتقى الدولي الأول للأدبيات الإسلاميات.

٤- بحوث ندوة تقريب المفاهيم عن الأدب الإسلامي.

٥- الأعمال الفائزة في مسابقة ترجمة الإبداع من آداب الشعوب الإسلامية (ستة كتب).

٦- الأعمال الفائزة في مسابقة الأدبيات الإسلاميات (١٠كتب).

٧- الأعمال الفائزة في مسابقة أدب الأطفال التي أجرتها الرابطة، وهي:

- ٣ مجموعات شعرية.
- ٣ مجموعات قصصية.
- ٣ مسرحيات.

● **تطلب من مكاتب رابطة الأدب الإسلامي العالمية:**
١ ـ مكتب المملكة العربية السعودية: الرياض ١١٥٣٤ ـ ص. ب ٥٥٤٤٦
هاتف: ٤٦٣٤٣٨٨ ـ ٤٦٢٧٤٨٢ فاكس: ٤٦٤٩٧٠٦
٢ ـ مكتب الأردن: عمان ١١١٩٢ ـ ص.ب ٩٢٣٠٨٤
هاتف / فاكس: ٥٦٢٠٩٣٥
٣ ـ مكتب مصر: ص. ب ٨١ ـ باب اللوق ـ القاهرة ـ ١١٥١٣
هاتف وفاكس ٧٩٦١٥٠٢
٤ ـ مكتب المغرب: ص. ب ٢٣٨ وجدة ٦٠٠٠١
هاتف / فاكس: ٥٠١٩٢٥



من بين حنايا شبه القارة الهندية يطل على العالم الإسلامي نور تشبَّع من زيتونة التقوى، وتربى في فيحاء العلم، ثم من ندى الشاعر المبدع إقبال ارتشف رحيق النبل المتّحد مع الصفاء ونحت الكلمة.

جاء من رحم العناء ومن نار الجهاد ضد طاغوت السيخ وجبروت الإنجليز؛ ليروي ملاحم المجاهدين وطوابير الشهداء؛ ليجمعهم في إطار المآسي التي عانى منها القابضون على إسلامهم في مشارق الأرض ومغاربها بعد تمزق رابطة الدولة الإسلامية الموحدة.

لقد دخل باب الوحدة الإسلامية بمشروعه المتكامل، عقدي يظهر جلياً في وقوفه ضد القاديانية، وفي التركيز على بناء عقيدة الأفراد بناءً متماسكاً يجمع شتاتها ويبْتُرُ حَبْلَ الخلاف فيما بينها.

أما الناحية الأخلاقية فقد كان توجهه قبل كل شيء للنشأ الصغير الذي يرى فيه ذخر المستقبل وزاد الأيام العصيبة، وحصانة الأمة ضد الترهل والفناء، وحصّن فكر الشباب والدعاة بما أظهر من إفلاس الفلسفات المادية، وفشل حضارة الغرب في حل مشكلات أبنائها. كما فضح ممارسات الظلم، وكشف أسباب حقد الأنظمة على الإسلام، وعرّى مجمل الرؤى التي تعتمدها في تصفية أحرار الأمة.

وكعرفان بجميل هذا الرجل المجاهد رحمه الله جاء الكتاب ليعرّف بمجمل نشاطاته وأعماله ورؤاه، وحلّل مجمل آثاره في الميادين المتعددة.

ISBN: X-501-40-9960

